٢٥ /١٤٣٦/٠٩

أخطـــاء قاتلـــــة

الرد على الأخطاء الواردة في كتاب د : ريتشارد دوكنز (وهم الإله)

أحمد حسين رفاعي ٢٥ /١٤٣٦/٠٩

أخطـــــاء قاتلـــة

في كتاب وهم الإله

بســــــم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا)

سورة النساء ١٧٤

الفهرس

المقدمة -- ٤

تمهيد -- ١٠

الفصل الأول : نظرية التطور -- ١٣

الفصل الثاني : فرضية الإله -- ٣٤

الفصل الثالث : الدليل على وجود الله ------------------------------------- ٤٧

المرحلة الأولى : تعريف مفهوم الإله ---------------------------- ٤٨

المرحلة الثانية : كيف تتم دراسة الظاهرة ----------------------- ٦٤

المرحلة الثالثة : طرح وتحليل الأدلة ---------------------------- ٧٠

خاتمة الفصل الثالث --- ١٣٣

الفصل الرابع : الدين --- ١٤٤

الفصل الخامس : الأخلاق كما جاءت في الدين الحق ---------------------------- ١٧٩

الفصل السادس : الإرهاب و صناعة العدو ------------------------------------- ٣١١

الخاتمة : -- ٣٧١

المراجع : -- ٣٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هل العلم حقاً يدعم الإلحاد ؟ أم أن العكس هو الصحيح ؟ أي أن العلم يقف بكل قوة في الجانب المؤيد لوجود الله الخالق العظيم ؟

الدكتور ريتشارد دوكنز - عالم البيولوجيا البريطاني – يعتبره كل الملحدين في العالم زعيماً لهم ، وهو بلا ريب أكبر فلاسفة الإلحاد و أقواهم حجة و أكثرهم إنتاجاً من الكتب والمقالات و المواقع الإلكترونية و الحلقات النقاشية في جميع وسائل الإعلام المسموعة والمشاهدة

لكنه مع كل ذلك كان أميناً مع نفسه ومع قرائه و متابعيه إلى حد كبير ، فقد أعلن في كتابه "وهم الإله" أن احتمال عدم وجود إله للكون لم يؤكده العلم ، وقد قال في الفصل الثاني تحت عنوان (فقر النظرية اللاأدرية) ما يلي :

(الفكرة التي سأدافع عنها هنا مختلفة تماماً: اللا أدرية في حالة وجود الإله هي من نوع لا أدرية مؤقتة عمليّاً أما الله موجود أو غير موجود السؤال علمي بحت ويوما ما سنعرف الإجابة)[١]

فهذا أكبر فلاسفة الإلحاد في العالم يعلن أن العلم لم يحسم القضية بعد – مع اختلافنا معه في ذلك – و أنه لا يعرف الإجابة ويأمل أن يعرفها يوماً ما ، ومع ذلك فالملحدون العرب ينسبون إليه أنه أخذ يسرد الأدلة العلمية الدامغة على عدم وجود الله، ويسيرون خلف السراب الذي صنعوه لأنفسهم وهم سعداء، لقد جسدت العبارة الواردة في مقدمة (الطبعة العربية الثانية) للكتاب هذا الموقف بكل وضوح حيث جاء فيها :

"عندما يتناول ريتشارد دوكنز نقد الأديان في كتابه (وهم الإله) فإن الله بكل عظمته وجلاله يقف وجهاً لوجه أمام عالم الطبيعة والفلسفة دوكنز على خط المواجهة، الله يقدم ما عنده من أنبياء و كتب ودوكنز يقدم ما عنده من أدلة وبراهين علمية في دراما عقلية رائعة تتخطى كل ما قرأته من كتب تناولت نقد الأديان"[٢]

كثير من الناس يرتكب خطأ جسيماً في حق نفسه حين يتعامل مع (الأدلة و البراهين) بشكل عام، فحين يكون الدليل داعماً لفكرة يحبها فإنه يتساهل إلى أقصى حد في قبول هذا الدليل حتى لو كان هذا الدليل ساذجاً أو حتى متصادماً مع العقل، بينما يرفض كل الأدلة التي تدعم الفكرة التي يكرهها مهما كانت هذه الأدلة منطقية و صحيحة ووافية

فلو أن رجلاً ثريّاً نزل في بلدة فقيرة ومعه حافظة بها مبلغ ضخم من المال – عشرة ملايين دولار مثلاً - واختار واحداً من الناس الفقراء وقال له : هذا المال مالك فقد ورثته عن قريب لك توفي بالأمس وهذه الورقة فيها الدليل على أحقيتك للمال ، وأعطاه ورقة مكتوباً فيها مقطع من مقاطع إحدى أغنيات مطرب مشهور، والرجل على يقين من أنه ليس له أقرباء أثرياء مطلقاً، فماذا سيكون رد فعل هذا الفقير تجاه هذا الدليل الذي لا يمت إلى الحقيقة بأدنى صلة ؟

---

[١] - كتاب (وهم الإله) لريتشارد داوكنز ، الطبعة العربية الثانية ، ترجمة بسام البغدادي ص ٥٠ ، سطر ٥

[٢] - المرجع نفسه ، صفحة ٢

كثير من الناس سوف يتعامل مع هذا الدليل باندفاع مفرط نحو تصديقه طمعاً في الحصول على المال ، ربما حتى قبل أن يقرأ ما في الورقة ليعرف ماذا كتب فيها

جميع الملحدين تقريباً يتخذون الموقف نفسه عندما يصدر كتاب يتحدث عن الإلحاد مهما كانت الأدلة التي يحويها هذا الكتاب غير منطقية أو متصادمة مع العقل ، و الحقيقة إن كتاب وهم الإله الذي كتبه الدكتور ريتشارد دوكنز لترجيح احتمال عدم وجود الإله يمثل بالضبط تلك الورقة التي تحتوي على كلمات أحد مقاطع الأغنية المشهورة في المثال المذكور عاليه

لكن المشكلة الحقيقية هي أن الذين يغامرون بتصديق ما يحبون أن يكون هو الحقيقة مثل أن وجود الإله هو مجرد وهم أو أن هناك إلهاً آخر مع الله دون أن يمنحوا أنفسهم الفترة الكافية لدراسة الأمر، هم في الحقيقة يظلمون أنفسهم ظلماً لا يستطيعون تصوره لا كمّاً ولا كيفاً، لأنهم يتحدون خالق ثلاثمائة مليار مجرة دون أن يملكوا دليلاً حقيقياً واحداً

إن الحقيقة التي لا يستطيع أن ينكرها الملحدون هي أن الإلحاد قائم على الظنون ، فكتاب وهم الإله نفسه يحتوي في أغلب صفحاته على عبارات مثل (على الأرجح أنه ليس هناك إله) و (ربما أن الله غير موجود) و (عدم كفاية الأدلة) و (الاحتمال الأكبر أنه غير موجود)، تماماً كما وصف الله عز وجل حال الملحدين في القرآن الكريم في قوله تعالى :

"و قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ" سورة الجاثية ٢٤

ولكي نوضح مدى جسامة الخطأ في هذا الموقف نسأل السؤال التالي :

لو كنت مسافراً على متن إحدى الطائرات الحديثة وأثناء جلوسك في المطار دوى مكبر الصوت ليعلن أنه وردت معلومات بأن الطائرة بها قنبلة في مكان غير معروف قد تتسبب في سقوط الطائرة فور إقلاعها، لكن على جميع الركاب الاطمئنان والاستعداد لركوب الطائرة لأن مصدر هذه المعلومة رجل كاذب **(وعلى الأرجح ليست هناك قنبلة)** ، كم شخصاً من ركاب الطائرة سيغامر بالركوب ؟ نعلم جميعاً أنه حتى لو كان مصدر الخبر لا يمكن الوثوق به إلا أن النتيجة المترتبة على سقوط الطائرة لا تسمح بأي نسبة من المخاطرة ، لذلك لن يغامر أي من الركاب بالصعود إلى الطائرة قبل أن يحصلوا على يقين بنسبة مائة بالمائة بعدم وجود خطر على حياتهم

لكن الملحدين برغم أنهم يتفقون معنا على أن عبارات مثل (على الأرجح ليست هناك قنبلة) و (الاحتمال الأكبر أنها غير موجودة) ليست كافية لجعل الركاب يطمئنون إلى الصعود إلى الطائرة ، إلا أنهم يصرون على قبول العبارات نفسها في الاستدلال على عدم وجود الله ، مع أنهم يعلمون أن النتيجة المترتبة على عدم الإيمان بوجود الله أخطر بكثير على الإنسان من مجرد سقوط طائرة به ، لأنه في هذه الحالة لن يسمح له حتى بالموت

هذا ليس رهان باسكال الذي جاء في كتاب وهم الإله ، نحن لا نقول لهم : آمنوا بوجود الإله فإن لم يكن هناك إله فلن تخسروا شيئاً ، نحن نقول لهم : عليكم أن تملكوا اليقين الكامل بنسبة مائة بالمائة على أي معتقد تعتقدونه حتى لا تأتي النتائج بعكس ما تتوقعون

فحين تكون النتيجة خطيرة بشكل يفوق قدرة البشر على التصور فيجب أن نذهب جميعاً إلى اليوم الأخير لنا في هذه الدنيا وهو اليوم الذي سنقابل فيه هذه النتيجة ، ونحن نملك اليقين بنسبة مائة بالمائة على كل ما نؤمن به ، وإذا كان هناك من لا يملك هذا اليقين بهذه النسبة فعليه أن يتمهل في الحكم ويعطي نفسه الوقت الكافي للبحث الجاد حتى يدرك اليقين بنسبة المائة بالمائة على ما يعتقد ، لأن هذه النتيجة لا تسمح لأحد بالسير خلف الظنون مهما كانت نسبة ترجيحها

على كل منا أن يكون صريحاً مع نفسه إلى أقصى حد ، لأن الملحد الذي يعتقد بعدم وجود الله لأن كل ما وصله من أدله غير كاف في إقناعه بوجوده لكنه ليس لديه مانع من الإيمان بوجوده إن وجد الدليل المنطقي الذي يكفي لإقناعه ، فهذا ملحد يستحق الاحترام ، ومن أجله كتب هذا الكتاب ليقدم له الدليل **العلمي** الذي لا يقبل الشك على وجود الله سبحانه وتعالى ، وندعوه لمناقشة هذا الدليل بكل تجرد وإخلاص وسوف يصل في النهاية إلى النتيجة التي يطمئن إليها قلبه وعقله ، كما وصل إليها زعيم الملحدين على مدى خمسين عاماً السير (انتوني فلو) وفاجأ العالم في أواخر عام ٢٠٠٤م بتصريحه الشهير – هناك إله –

أما الملحد الذي لا يؤمن بوجود الله لأنه لا يحب أن يكون هناك إله فهو في الحقيقة أحد نوعين :

النوع الأول : هو ليس فقط ملحداً وإنما تاجر إلحاد – بمعنى أنه يتخذ من الإلحاد سبباً لتحقيق مكاسب مادية - وهو الصورة العكسية لتجار الأديان الزائفة التي انتشرت عبر الزمن - وما زالت – فكلا الفريقين لا يحب ظهور الدليل على وجود الإله الحقيقي الذي تنهار بظهوره كل مصادرهم من الثروة والمال بالإضافة إلى انهيار كل صور التعظيم والإجلال والشهرة لهم بين الناس الذين يصدقونهم، وهذا النوع من الملحدين يتحول إلى أسير للإلحاد - مثل السجين المحكوم عليه بالسجن مدى الحياة - لا يستطيع أن يتحرر من أسره مهما كانت الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى كافية ومنطقية وقاطعة ، لأنه ببساطة حسم خياره ليس إلى الجانب الذي فيه الحقيقة ولكن إلى الجانب الذي فيه الشهرة والمال، ولا نتهم أحداً بعينه بأنه كذلك لأنه لا يعلم ما في القلوب إلا الله سبحانه وتعالى

النوع الثاني: وهو الملحد العادي الذي لا يتاجر بالإلحاد لكنه يتفاخر بأنه ملحد لأنه لا يحب القيود ولا يقبل أن يكون هناك من يملي عليه ما يجب وما لا يجب أن يفعل، ولأن هذا المبدأ منتشر عند كل الملحدين تقريباً فسوف نناقشه بهدوء وعقلانية :

فمن المعلوم بداهة أن الإنسان حين يولد لا يكون لديه أي قدر من المعرفة ولا من العلم ، وأن أكبر ارتقاء فكري وعلمي له يكون من خلال المدرسة بمراحلها المختلفة ثم الجامعة، ونعلم جميعاً أن حجم القيود في المدرسة لا نظير له في أي مكان آخر، وبالطبع فإن الذي يرفض الذهاب إلى المدرسة بسبب القيود سيصبح أكثر الناس تخلفاً و جهلاً

لذا فإن مبدأ عدم قبول الدين بسبب عدم قبول القيود هو من الأساس مبدأ خاطئ لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة صحيحة وليس من الصواب أن يبني عليه الإنسان موقفاً في أخطر قضية في حياته ، لأنه ليس هناك صورة من صور الارتقاء الإنساني إلا وهي مرتبطة بقدر من القيود ، والملحد الذي يرفض القيود ويرضى بالمتعة اللحظية سيظل في الحقيقة يتأخر يوماً بعد يوم عن

الارتقاء بنفسه مثل الطالب الهارب من المدرسة حتى يصل في النهاية إلى صورة (إنسان العصر الحجري) الذي لا يعبأ بشيء أكثر من إشباع متطلباته الجسدية

لقد كُتب هذا الكتاب ليثبت للجميع ملحدين وغير ملحدين أن العلم الحقيقي المستند إلى قواعد علمية راسخة والمؤيد بالبراهين المادية الصحيحة يقف بكل قوة في الجانب المؤيد لوجود الله الخالق العظيم ، وأن كل الملحدين سواء الفلاسفة الذين يحاولون أن يتمسحوا في العلم ليثبتوا به صحة الإلحاد أو من يسير خلفهم بغير وعي سيفيقون على أكبر صدمة يمكن أن يتصورها الإنسان في اليوم الذي ستخرج فيه أرواحهم من أجسادهم حين يكتشفون أن كل أدلتهم على الإلحاد لا تمت إلى العلم بأدنى صلة ، ولا تزيد شيئاً على أدلة الملحدين الذين سكنوا الأرض منذ آلاف السنين

لكن علينا أن نحدد بدقة ما هو العلم الحقيقي الذي يمكن أن يبني عليه الإنسان موقفاً ويضمن أن هذا الموقف لن يكون خاطئاً ومن ثم يستطيع أن يطمئن إلى النتيجة المترتبة على هذا الموقف

قبل ثلاثمائة وثمانين عاماً من ميلاد السيد المسيح عليه السلام وضع أرسطو نظرية تفيد بأن الجنين ينشأ من دم الحيض إذا تم تنشيطه بالحيوان المنوي، وظل هذا التصور متربعاً على الساحة – عند الأمم غير المسلمة – حتى القرن السابع عشر حين استطاع علماء ذلك القرن رؤية الحيوان المنوي بواسطة التليسكوب الضوئي فوضعوا نظرية "التكوين السابق" التي تقضي بأن رأس الحيوان المنوي يحمل جنيناً بجسم إنسان كامل الخلقة لكنه صغير جدّاً ، وعند وصول هذا الحيوان المنوي إلى رحم المرأة فإن هذا الجنين يبدأ في النمو إلى أن يصير جاهزاً للخروج بعد تسعة أشهر، وظلت هذه النظرية لمدة مائة عام أخرى تحظى بتأييد العلماء وينظر إليها على أنها "أحدث ما وصل إليه العلم الحديث" ، ثم استطاع العلماء بعد ذلك تصوير ما يحدث داخل الرحم بواسطة التلسكوبات الأحدث والوصول إلى حقيقة تكون الجنين على مراحل بدءاً من البويضة المخصبة بواسطة الحيوان المنوي وحتى اكتمال نموه في الشهر التاسع

في مثال آخر: فقد وضع أرسطو تصوره عن الكون الذي يقضي بأن الأرض ثابتة وأنها مركز الكون وبأن الشمس وجميع الأجرام السماوية الأخرى تدور حولها وقد تبنى الفلكيون هذا التصور حتى القرن السادس عشر حين قدم علماء ذلك القرن نظرية مركزية الشمس و دوران الكواكب حولها ثم قام يوهانس كبلر بوضع الصورة الدقيقة نسبياً للنظام الشمسي و أكمل نيوتن باكتشافه لقوانين الجاذبية شرح حركة الكواكب حول الشمس بشكل رياضي دقيق ، لكن وحتى بداية القرن العشرين ظل جميع هؤلاء العلماء العظماء وعلى رأسهم أعظم علماء ذلك القرن "ألبرت أينشتاين" يحملون أفكاراً خاطئة عن الكون مثل اعتقادهم بأن الكون ثابت لا يتغير ،ولم يتمكنوا من تصحيح هذا الخطأ والتحقق من أن الكون غير ثابت وأنه يتمدد بشكل مستمر إلا عندما انتصف تقريباً القرن العشرين

لقد ضربنا هذين المثالين لنوضح حقيقة في غاية الأهمية، وهي أنه يوجد في كل عصر من العصور مكتشفات علمية تعتبر لأهل تلك العصور "أحدث ما توصل إليه العلم الحديث" وبرغم عظمة علماء كل عصر وبرغم أن البشرية كلها مدينة لهؤلاء العلماء الأذكياء في كل مرحلة من مراحل العلم - لأنه لولا مكتشفاتهم على مر العصور لما أمكن للبشرية الوصول إلى ما وصلت إليه الآن– إلا أن الكثير من النظريات العلمية التي وصفت بأنها "أحدث مكتشفات العلم الحديث"

كانت خاطئة وفي بعض الأحيان ساذجة ، وبكل تأكيد فإن بعض النظريات التي ننظر إليها الآن في زماننا على أنها "أحدث مكتشفات العلم الحديث" ستصبح بعد مائة عام مثيرة للضحك

لذلك فإن الروعة والبريق الذي يصاحب المكتشفات العلمية الجديدة والذي يبهر عقولنا جميعاً يجب ألا يصيبنا بالغرور لدرجة نسيان الحقيقة التي تفرض نفسها ، وهي أننا حلقة في سلسلة طويلة من أجيال العائلة البشرية سبقتها آلاف الحلقات وسوف تتبعها آلاف أخرى من الحلقات وسوف تنظر إلينا الأجيال القادمة ربما بعد مائة عام كما ننظر نحن الآن للناس الذين عاشوا في القرون الوسطى

هذا هو المرض الذي أصاب الملحدين في عصرنا وفي كل العصور السابقة وسوف يصيب الملحدين في كل العصور اللاحقة، إنه الغرور ببريق العلم – الذي يثبت بعد سنوات أن بعضه خطأ ولا يمت للعلم بصلة – هذا الغرور الذي يجعل الإنسان بدلاً من التواضع أكثر لخالق هذا الكون بدافع مما يكتشفه كل يوم من روعة هذا الكون ودقة القوانين التي تحكم حركة كل مخلوق فيه فإنه بدلاً من ذلك يسير إلى الخلف وهو يثرثر بالعبارات نفسها التي كان يتشدق بها الملحدون في العصور المغرقة في القدم

ربما تكون هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها الملحدون أن أسلافهم من الملحدين الذين عاشوا في العصر البرونزي كانوا مصابين بنفس المرض ، وكانوا يستهزؤون بالدين ويصفون المؤمنين بوجود الله عز وجل بأنهم متخلفون وجاهلون لأنهم يصدقون معتقدات الأجيال السابقة لهم ولا يسايرون عصر العلم الحديث الذي كان في زمانهم لا يتعدى اختراع فأس من البرونز بدلاً من حجر الصوان ، وفي الحقيقة فإن هذا الاختراع في ذلك الزمان كان اختراعاً عظيماً بكل المقاييس ، لكن هل كان هذا الاختراع دليلاً علمياً دامغاً على عدم وجود الإله؟ وهل الملحدون الذين راهنوا على أن الإله وهم اغتراراً بهذا الاكتشاف كانوا فعلاً مستنيرين بنور العلم؟

يقول الله عز و جل في سورة الشعراء (الآيات ١٣٦ – ١٣٨) في وصف رد المكذبين لرسول الله هود والمعروفين باسم "عاد" وهم بشر مثلنا عاشوا منذ آلاف السنين :

(قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ☼ إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ☼ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) والعبارة واضحة ، إن هذا الدين الذي جئت به أيها الرسول هو تخلف ورجعية لأنه خلق العصور القديمة الجاهلة التي لم تحظ بما حظينا به نحن في عصرنا الحديث

ولقد سجل الله عز و جل موقفهم المكذب للأنبياء مبيناً سبب هذا التكذيب في أواخر سورة غافر بقوله تعالى :

(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ☼ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ☼ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ☼)

والعبارة هنا أكثر وضوحاً في بيان تمكن داء الغرور بالعلم البسيط – الذي كان شائعاً في تلك العصور القديمة - من قلوبهم

ثم يكرر الخالق سبحانه وتعالى تأكيد استكبارهم وغرورهم بالعلم ووصفهم للدين بأنه خرافات القرون البالية القديمة بقوله تعالى في سورة النحل (الآيات ٢٢ – ٢٥) :

(إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۞ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۞ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ۞)

هكذا وبدون أي دليل حقيقي أصدروا حكمهم على حقائق الدين بأنها أساطير وخرافات البشر السابقين المتخلفين، لكن المشكلة الأكبر هي أنهم لن يحملوا أوزارهم فقط وإنما ستضاف إليها أوزار كل من تسببوا في إضلاله ممن انبهروا بكلامهم و محاضراتهم و كتبهم و صحفهم و مواقعهم الالكترونية

سيمر الزمان وستتقدم مسيرة العلم إلى الأمام بأسرع مما نتصور وستأتي أجيال من البشر تضحك على بعض ما لدينا من النظريات العلمية – دون أن يحتقروا علماءنا الأفذاذ – وسنصبح في أعينهم بشراً من القرون الوسطى أو ربما أقل شأناً، وسيصبح كل ما استند إليه الملحدون في زماننا على أن الإله وهم – مثل نظرية دارون - مثل الفأس المصنوعة من البرونز بالنسبة للملحدين الذين عاشوا في العصر البرونزي

لقد كتبت هذا الكتاب أملاً في أن يجعل الكثيرين يعيدون النظر ويفكرون بطريقة أكثر عمقاً، وقد جاءت الأدلة على وجود الله عز و جل في الفصل الثالث من هذا الكتاب واضحة لكل منصف صادق مع نفسه و يحترم العلم ، أما الإنسان غير المنصف وغير المتجرد فلن تنفعه جميع الكتب الموجودة على سطح الأرض.

لكني رأيت أن أسبق الفصل الثالث - الذي يحمل الأدلة العلمية على وجود الله – بالتنبيه على الأخطاء القاتلة التي وقع فيها مؤلف كتاب وهم الإله ، ومدى سطحية الأدلة التي أوردها في كتابه على عدم وجود الإله ، حيث جاء التنبيه على الخطأ الأول في الفصل الأول الذي يتناول الحديث عن نظرية التطور، ثم جاء التنبيه على الخطأين الثاني والثالث في الفصل الثاني من الكتاب والذي أناقش فيه فرضية وجود الإله ، ثم خصصت الفصل الرابع والخامس للتنبيه على الأخطاء الكثيرة الخاصة بفكرة الدين والأخلاق على التوالي ، وختمت الكتاب بالتنبيه على الخطأ الخاص باتهام الدين بأنه مصدر الشرور في العالم

وفي الختام : أدعو الله عز وجل خالق السموات والأرض أن يهدينا جميعاً – مسلمين ومسيحيين ويهوداً وملحدين وهندوساً وبوذيين وكل سكان الأرض – إلى الحق الذي لا ضلال فيه وإلى الرشد الذي لا زيغ بعده وأن يجعلنا في الدنيا والآخرة من الفائزين

أبو عبد الله

أحمد حسين رفاعي

٢٥ رمضان ١٤٣٦ – ١٢ يوليو ٢٠١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يحتوي كتاب وهم الإله للدكتور ريتشارد داوكنز على الكثير من النقاط الجديرة بالاحترام ، والكثير من النقاط الأخرى الجديرة بالمناقشة، لكنه أيضا احتوى على خمسة أخطاء قاتلة يجب علينا أن نلفت الأنظار إليها نظراً لأهمية القضية التي يتحدث عنها الكتاب ألا وهي قضية وجود الله سبحانه وتعالى

وبالرغم من إيماني العميق بنسبة مائة بالمائة بوجود الله – وسأشرح في هذا الكتاب الدليل العلمي على وجوده سبحانه وتعالى - و بالرغم من ذلك فإنني أتفق تماما مع د . ريتشارد في كثير من النقاط التي حواها هذا الكتاب :

١- أتفق تماما مع فكرته بأن على المؤمنين بوجود الله أن يقدموا الدليل علي وجوده وليس على الملحدين أن يثبتوا العكس ، وهي عبارة يرددها الملحدون منذ عام ١٩٧٦ وحتى الآن ظنّاً منهم أنهم يضعون أمام المؤمنين عقبة لا يمكن تجاوزها ، وفي الحقيقة فإن الله عز وجل لم يرسل الرسل على مر التاريخ الإنساني إلا من أجل هذه المهمة بالتحديد

٢- وأتفق أكثر معه في عبارته الواردة في الكتاب نفسه عند حديثه عن "فقر النظرية اللاأدرية" (الفكرة التي سأدافع عنها هنا مختلفة تماماً: اللا أدرية في حالة وجود الإله هي من نوع لا أدرية مؤقتة عمليّاً أما الله موجود أو غير موجود السؤال علمي بحت ويوما ما سنعرف الإجابة)[1] ، نعم السؤال علمي بحت **بل ليس في قدرة أحد من البشر إعطاء الدليل الكامل على وجود الله سوى العلماء الأذكياء** ، ولكن أيضا المحايدون الذين يسيرون خلف الدليل العلمي مهما كانت النتائج وليس فقط عندما تكون النتائج داعمة لما يشتهون، من هذا المنطلق أقول للدكتور ريتشارد نعم السؤال علمي بحت واليوم الذي تنتظره لمعرفة الإجابة قد جاء بالفعل، لقد قال العلم كلمته وأعطى الدليل المادي على وجود الله وهذا الكتاب كتب فقط من أجل تقديم الدليل لكل من يحترم العلم ويقدر المكانة التي أرادها الله سبحانه وتعالى للعلم و العلماء.

ربما هي المرة الأولي التي يسمع فيها د: ريتشارد أن الله عز وجل بعد انتهاء زمن الرسل والأنبياء نقل الأمانة (أمانة الاستدلال عليه) من على أكتاف الرسل ووضعها علي أكتاف العلماء – علماء الطبيعة في جميع فروع العلم بالإضافة إلى علماء الشريعة - لقد أصبح هؤلاء العلماء هم السبيل الوحيد القادر على تقديم الأدلة الدامغة على صحة جميع الحقائق المتعلقة بخالق الوجود وفرزها بعيداً عن الجبال المتراكمة من الخرافات والمعتقدات الباطلة التي تملأ الأرض ، وعليه فإن هؤلاء العلماء أصبحوا الآن هم السبب الأكبر في هداية البشر إلى خالقهم بعد أن رحل أخر رسول عام ٦٣٣ ميلادية في المدينة المنورة ، وعليهم أن يتحملوا المسؤولية بكل تجرد وبما يمليه عليهم العلم الرائع الذي حصلوا عليه من دون بقية الناس

[1] - كتاب وهم الإله ، د: ريتشارد دوكنز ، الطبعة العربية الثانية ، ترجمة بسام البغدادي، ص ٥٠ ، سطر ٥

٣- وأتفق معه في كل كلمة وردت في الفصل الثالث تحت عنوان (الدليل على وجود الله)[١] والنقد الموضوعي والعميق لكل الأدلة الساذجة التي ذكرها البعض عن وجود الله والتي حولها بذكائه إلى أدلة في مصلحته وجعل المدافعين عنها موضعاً للاستهزاء والسخرية ، ولكن عليّ أن أنبه إلى أن كل الأدلة التي سيقت في ذلك الفصل صدرت في الحقيقة من أناس مقطوعي الصلة تماما بالله ، لأنهم ببساطة يعبدون شيئاً لا وجود له يسمى الثالوث المقدس ، وهو عبارة عن خليط من ثلاثة أقانيم لم يذكر المسيح – عليه السلام – حرفاً واحداً عنها منذ ولد إلى أن رفع ، ولا يوجد من المسيحيين البالغ عددهم ملياري شخص رجل واحد ولا امرأة واحدة يستطيع شرح معناه الحقيقي لذلك لم يكن متوقعا أن ينجحوا في إثبات وجود ما ليس له وجود حقيقي

٤- وأتفق تماما مع د. ريتشارد في كل الصفات القاسية التي وصف بها إله العهد القديم بل وأرى في بعض المواقف الواردة في العهد القديم ما هو أبشع مما ذكر د. ريتشارد ، ولكن وبالرغم من محاولته الخروج من أسر العقدة النفسية القاسية التي سببها له الكتاب المقدس بتصريحه بأنه سيتوجه بالنقد إلى كل ما هو إله أو مقدس إلا أنه ظل متأثراً جدّاً بما جاء في العهد القديم وكذلك العهد الجديد عن مفهوم الإله في كل صفحات الكتاب ، والواقع أن د: ريتشارد شاء أم أبى وقع دون أن يدري ضحية لجريمة ارتكبت منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة واستمرت في التكرار ربما إلى عهد قريب وهي **جريمة تحريف الكتاب المقدس** على يد رجال دين أقل ما يوصفون به أنهم تجار أديان محترفون، وحتى لا نغضب أصدقاءنا الذين ما زالوا يؤمنون بأن الكتاب المقدس هو كلمة الله نلفت انتباههم إلى أن حقيقة تحريف الكتاب المقدس قد أصبحت من المسلمات بعد اعتراف المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان (١٩٦٢-١٩٦٥) الذي نقله الدكتور موريس بوكاي في كتابه (التوراة و الإنجيل والقرآن - والعلم) والذي جاء فيه " بالنظر إلى الوضع الإنساني السابق على الخلاص الذي وضعه المسيح تسمح أسفار العهد القديم للكل بمعرفة من هو الله ومن هو الإنسان بما لا يقل عن معرفة الطريقة التي يتصرف بها الله في عدله ورحمته مع الإنسان غير أن هذه الكتب تحتوي على **شوائب وشيء من البطلان** ومع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهي" [٢]

لكن ما يجعل د. ريتشارد يستحق الاحترام والتقدير هو أنه برغم أنه نشأ مسيحيّاً إلا أنه كان صادقاً مع نفسه ، لذلك رفض قهر هذه النفس على تصديق الخرافات حتى وإن كانت مغلفة بالقداسة الدينية

ومع أنني أتفق معه في النقاط الأربع المذكورة إلا أنني أختلف معه في نقطتين هامتين :

الأولى: هي تلك الحدة الظاهرة التي تصل إلى حد العصبية المفرطة في بعض الأحيان عند معالجته بعض المفاهيم الهامة ، ليس هذا هو سلوك العلماء ، فالعلماء الذين يثقون فيما يعتقدون عادة ما يكونون هادئين جدّاً وسواء صدقهم خصومهم أم كذبوهم فهم ينظرون إليهم بهدوء وأحياناً بشفقة ثم يبتسمون ، هذه العصبية المفرطة من د. ريتشارد تنقص من مصداقيته وحيدته

---

[١] - المرجع السابق ص ٧٨

[٢] د: موريس بوكاي، (القرآن والتوراة والانجيل – والعلم ، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، مكتبة مدبولي – القاهرة ، رقم الإيداع ٨٠٧٠ / ٢٠٠٤ ، الصفحة ٦١ و ٦٢

في البحث الذي نحن بصدده وتجعله يقع تحت طائلة التهمة التي رمى بها خصومه وسخر منهم حين قال **"في الحقيقة الناس الذين لديهم نزعة دينية لديهم أيضاً عدم تمييز مزمن بين الحقيقة وبين ما يرغبون بأن يكون حقيقة"**[١]، هذا الوصف ينطبق أكثر على الملحدين فأغلبهم لا يرغبون في أن يكون هناك إله أيّاً كانت الصفات التي ستتوفر في هذا الإله ومهما كان الدليل الذي يثبت وجوده قويّاً ، **لذلك يثورون و يحتدون أثناء المناقشة قبل أن يعطوا أنفسهم فرصة تمحيص الدليل**

والثانية: هي نزعة التكبر التي ظهرت في الكثير من فقرات الكتاب ، وخاصة عندما يتحدث عن المؤمنين بالدين ، لأن التكبر على الآخرين يصيب الإنسان بالعمى المزمن الذي يحجب عنه كل الحقائق دون أن يشعر ، ويجعل عقله يتوقف عن التفكير المنطقي في أي فكرة يطرحها الآخرون ظنّاً منه أنهم من المستحيل أن يكونوا على حق ، وبعبارة أكثر وضوحاً فإن التكبر على الآخرين يصيب العقل بالشلل التام ومن ثم يسلب الإنسان أثمن ما يملك على الإطلاق

[١] - كتاب وهم الإله ، د: ريتشارد دوكنز، الطبعة العربية الثانية، ترجمة بسام البغدادي ، صفحة ١١١ ، سطر ٧

الفصل الأول
نظرية التطور

الفصل الأول

نظرية التطور

١- خطأ قاتل

قبل حوالي أربعمائة سنة من ميلاد السيد المسيح عليه السلام وضع علماء الفلك الإغريقيون نظرية مركزية الأرض التي تفترض أن الشمس وجميع النجوم والكواكب تدور حول الأرض، وتبنى أرسطو النظرية بحماس شديد مثل حماس فلاسفة الإلحاد اليوم لنظرية دارون، لكن البشرية احتاجت إلى ألفي سنة كاملة لكي تصحح هذا الخطأ، والخطأ في حد ذاته ليس عيباً لأننا لن نصل إلى الصواب في كثير من القضايا الهامة إلا عن طريق الوقوع في الخطأ وربما مرات عديدة وخاصة في مجال التجارب العلمية ، لكن **الخطأ الجسيم** الذي وقع فيه فلاسفة التطور هو أنهم سارعوا إلى رفع مستوى النظرية العلمية التي لم يحسم العلم صحتها بعد – أقصد نظرية دارون - إلى مستوى الحقيقة العلمية تماماً مثل الخطأ الذي وقع فيه أرسطو منذ ألفين وأربعمائة عام، لكن خطأ أرسطو لم يوقعه في المأزق الكبير الذي وقع فيه فلاسفة التطور الحاليون لأنه لم يؤسس على فلسفته المستندة على نظرية مخطئة أي مبدأ اعتقادي أو ديني مثلما فعل الملحدون،

أنا هنا لا أجزم بخطأ نظرية التطور كما لا أجزم بصحتها فالموضوع يجب أن تحسمه البراهين والأدلة العلمية وليس الأهواء والفلسفات، ولكن علينا أن نكون يقظين تجاه أدنى خلط بين نظرية علمية **لم تثبت صحتها بعد** وبين تحويلها إلى **حقيقة علمية لا تقبل الشك،** علينا أن لا نقع في الخطأ الذي وقع فيه علماء القرن الرابع قبل الميلاد حتى لا نعيش في أوهام قد تستمر لعقود، ليس هذا نهج العلماء ولا العقلاء ،

من حق د: ريتشارد وكل الملحدين أن يؤمنوا بصحة النظرية كما يشاءون ، وأن يؤلفوا مئات الكتب لإقناع الناس بوجهة نظرهم ، لكن ليس من حقهم أن يحاولوا رفع النظرية إلى مستوى الحقيقة المطلقة لدرجة أن يقول د: ريتشارد **(إذا رأيت شخصاً لا يؤمن بالتطور فلا شك أنك أمام إنسان جاهل غبي أو مجنون لا يعي ما يقول ولا أريد أن أقول إنسان شرير مؤذ)** ، هذه الدكتاتورية الفكرية لا تمت إلي المنهج العلمي بأي صلة ، أليس من الممكن أن ينتهي الأمر بنظرية التطور إلى المصير نفسه الذي انتهت إليه نظرية مركزية الأرض ، وبخاصة إذا كان هناك علماء لهم وزنهم يعارضون النظرية ويذكرون أدلة علمية قوية لا تقل أهمية عن أدلة المتحمسين ؟

إن إخراج العلم من محرابه وإجباره على الانحياز لقضايا فلسفية خاطئة تماماً كما فعل قساوسة القرون الوسطى حيال نظرية ثبات الأرض وغيرها من النظريات الخاطئة حيث أعطوها بعداً دينياً انتهى بهم إلى محاكمة و نفي علماء عظماء مثل جاليليو و قتل علماء آخرين لهو خطأ قاتل بكل تأكيد

فنظرية التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي سواء كانت صحيحة أو خاطئة هي قضية علمية بحتة لا علاقة لها بقضية وجود الخالق من عدمه ، فالله عز وجل - الذي سنثبت في هذا الكتاب الدليل العلمي على وجوده - له مطلق الحرية في أن يخلق الخلق بالطريقة التي يشاؤها سواء

بالتطور أو بالخلق المباشر وليس هناك من يملي عليه ما يجب أن يفعل ، ومع ذلك فقد أمرنا في الكثير من الآيات القرآنية بأن نسير في الأرض ونبحث عن كيفية نشأة الكون والخلق كما في قوله تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ في القران الكريم:

(أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ١٩ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ٢٠) سورة العنكبوت

إن إلباس النظرية غير الثابتة علميّاً ثوب الفلسفة ومحاولة تقسيم الناس إلى فريقين ، فريق متحضر واع ذكي وآخر متخلف تابع غبي هو أبعد شيء عن العلم ، فالعلماء الحقيقيون يختلفون حول الكثير من القضايا ربما اختلافات عميقة دون أن يتهم فريق منهم الفريق الآخر بأي من هذه الصفات ، لأنهم علماء ويقدرون معنى الخطأ في النظرية العلمية ، لكن ما يفعله الملحدون الآن تجاه نظرية دارون هو بالضبط ما فعله رهبان وقساوسة العصور الوسطى ضد العلماء المخالفين لهم في الرأي ولكن بدون محاكم تفتيش

وللتدليل أكثر على صحة ما نقول نحاول النقاش حول نظرية أخرى لم يثبت العلم صحتها بعد وهي نظرية الأكوان المتعددة ، لماذا لم يتخذ الملحدون الذين يعتقدون صحة هذه النظرية مع مخالفيهم الموقف نفسه الذي اتخذوه تجاه منكري نظرية التطور؟ لأنهم ظنوا أن في نظرية التطور دليلاً علي نفي وجود الإله ولم يجدوا في نظرية الأكوان المتعددة شيئاً يدعم هذا النفي، أليس هذا دليلاً على أنهم بعيدون جدّاً عن النقاش العلمي المستند إلى أدلة مادية صحيحة ؟

هذا ما قصدناه **(بالخطأ القاتل الأول)** الذي وقع فيه د: ريتشارد في كتاب وهم الإله ، وهو أنه استخدم نظرية لم يحسم العلم صحتها بعد **كدليل علمي ثابت ، ثم أقحمها في قضية لا علاقة لها بها** وهي قضية نفي وجود الإله ظنّاً منه أن التطور وحده هو المسئول عن ظهور و استمرار الحياة على الأرض

لكن ما هي قيمة هذا الافتراض في ميزان العلم ؟ لنستعرض الآن بعض ما قال العلماء المتخصصون في هذا الشأن لنفهم عما نتحدث ، ثم نعود للرد على أدلة د: ريتشارد لنعرف حجم الخطأ الذي وقع فيه الملحدون

نشأة الحياة في ميزان العلم

يتفق الملحدون معنا على أنه يمكن الفصل بين جزأين هامين عند الحديث عن نشأة الحياة وتطورها ، **الأول** لا علاقة له بنظرية التطور التي وضعها دارون: وهو افتراض أن عدداً من التفاعلات الكيميائية بين عناصر المادة غير الحية تحت ظروف معيّنة استطاعت أن تنتج حامض (DNA & RNA) وعبر عدد كاف من السنين استطاعت هذه الأحماض أن تنتظم في سلسلة دقيقة لتنتج في النهاية خلية حية بدائية ، **والجزء الثاني** - وهو موضوع نظرية التطور- وهو افتراض أن هذه الخلية الحية بدأت في الانقسام والتطور عبر الأزمان الطويلة جدّاً لتنتج كل ما على الأرض من كائنات حية باستخدام الانتخاب الطبيعي، ولئن كان د: ريتشارد داوكنز قد نفى نفياً قاطعاً أي دور للمصادفة فيما يخص الجزء الثاني الخاص بتطور الكائنات الحية لدرجة أنه قال (المصادفة ليست حلاً نظراً لكبر قيمة اللا إحتمالية التي نراها في الكائنات الحية

وليس هناك عالم أحياء يمتلك كامل قواه العقلية يقترحها)[1] إلا أنه عاد وتمسك بها بكل قوة عند حديثه عن الجزء الأول ، أي عن نشأة الحياة نتيجة تحول الجزيئات المادية في ظروف مواتية إلى خلية حية وهذا هو تبريره للمسألة :

(الماء السائل شرط ضروري للحياة كما نعرفها ولكن ليس كافياً وحده بالمرة، الحياة عليها أن تتأصل في الماء ، وأصل الحياة ربما كان لا إحتمالياً بشكل كبير، التطور الداروينى يكمل الموضوع بسرور بمجرد نشوء الحياة ولكن كيف بدأت الحياة؟ أصل الحياة كان حدثاً كيميائيّاً أو سلسلة من الأحداث حيث حدثت الشروط الحيوية لبداية التطور، العنصر الأهم كان الوراثة (DNA) أو الأكثر احتمالاً شيء شبيه بها من حيث موضوع النسخ ولكن أقل ضبطاً ربما جزيئات (RNA) القريب لها وبمجرد أن يصبح هذا العنصر – نوع من الجزيئات القابلة للتوارث – موجوداً يبدأ التطور الداروينى وتبدأ الحياة المعقدة بالظهور كنتيجة نهائية، ولكن الظهور التلقائي للجزيء القابل للتوارث **بالمصادفة** يبدو للعديدين غير محتمل وربما أنه غير احتمالي بشكل كبير وسأبقى عند هذه النقطة لكونها نقطة مركزية في هذا القسم من الكتاب

أصل الحياة يزدهر كموضوع بحث تخميني والخبرات المطلوبة كيميائية وليست من اختصاصي وأنا أقف كالمتفرج الفضولي ولن أتفاجأ لو أنه في بضع سنين قادمة أن الكيميائيين نجحوا في توليد أصل للحياة في المختبر على الرغم من أن ذلك لم يحصل حتى الآن، ولا يزال من الممكن المحافظة على الرأي القائل بأن احتمال حصولها كان ولا يزال ضئيلاً بشكل هائل برغم أنها حصلت في وقت ما ولمرة واحدة

وكما فعلنا مع مدار القفل الذهبي نستطيع أن نقول بأنه مهما كان الاحتمال لأصل الحياة ضعيفاً ولكننا نعلم أنها حصلت مرة على كوكب الأرض لأننا هنا ، وكما في درجة الحرارة هناك فرضيتان لشرح ما حصل، فرضية التصميم الذكي والفرضية العلمية الإنثروبية ، التصميم يقول بوجود إله تعمد عمل تلك الأعجوبة ضرب الحساء الميت بنار مقدسة وأطلق ال DNA أو ما شابهها في بداية مستقبلها المهني ومرة أخرى كما في القفل الذهبي فإن البديل الإنثروبي للتصميم هو فرضية إحصائية والعلماء يلجؤون للأرقام الكبيرة وعدد الكواكب في مجرتنا بين مليار وثلاثين مليار كوكب ويوجد حوالي مائة مليار مجرة في الكون، لنرفع عدداً من الأصفار جانباً لمجرد التعقل العادي فنحصل على مليار مليار كرقم متحفظ لعدد من الكواكب في كوننا، والآن لنفرض أن ظهور الحياة التلقائي أو ما يشابه ال DNA هو ظاهرة بلا احتمالية مدهشة لدرجة أنها تظهر مرة في كل مليار كوكب سيضحك بعض أصحاب المنح للأبحاث الكيميائية لو قال لهم الكيميائي طالب المنحة بأن احتمال نجاح البحث واحد بالمائة ولكننا هنا نتكلم عن احتمال واحد في المليار ومع ذلك ورغم ضآلة الاحتمالات فإن هناك احتمالاً أن توجد الحياة على مليار كوكب ومنهم بالطبع كوكب الأرض" [2]

العبارة الأولى من كلام د: ريتشارد لا تقول شيئاً على الإطلاق **(أصل الحياة كان حدثاً كيميائيّاً أو سلسلة من الأحداث حيث حدثت الشروط الحيوية لبداية التطور، العنصر الأهم كان الوراثة (DNA) أو الأكثر احتمالاً شيء شبيه بها من حيث موضوع النسخ ولكن أقل ضبطاً ربما**

[1] - ريتشارد دوكنز ، المرجع السابق ، صفحة ١٢١
[2] - ريتشارد دوكنز ، المرجع نفسه صفحة ١٣٩

جزيئات (RNA) القريب لها وبمجرد أن يصبح هذا العنصر – نوع من الجزيئات القابلة للتوارث – موجوداً يبدأ التطور الدارويني وتبدأ الحياة المعقدة بالظهور كنتيجة نهائية)

هل فهم أحد شيئاً عن كيفية تحول الجزيء المادي إلى خلية حية ؟ بالطبع لا، لذلك اعترف د: ريتشارد بأنه ليس كيميائيّاً ولا متخصصاً في هذه الجزيئة وأنه يقف كالمتفرج الفضولي ، لكنه بدلاً من الاستماع إلى العلماء المتخصصين في هذه النقطة المحورية والأكبر أهمية في الموضوع والانحناء أمام استنتاجات العلماء ، أزاح العلم جانباً وراح يحولها إلى فرضية إحصائية ليدلل بطريقة خاطئة باستخدام الأرقام على **أكبر ضلالة يمكن أن تقابل الإنسان في حياته**، وهي إنتاج الحياة من جزيء مادي عن طريق المصادفة أو الحظ بدعم من المبدأ الانثروبي

والآن ولأننا نحترم العلم سوف نعيد القضية إلى أهلها وهم العلماء المتخصصون لنرى هل تتفق فرضيات الدكتور دوكنز مع العلم ولو بنسبة قليلة أم أنها تتصادم مع أبسط قواعد العلم تصادماً يضعها في مرتبة الخرافات ، ثم نعود إلى الدليل الإحصائي الذي طرحه لنرى هل هو دليل علمي حقاً أم لا

أولاً :ماذا قال العلماء عن نشأة الحياة :

سير " أنتوني فلو" أستاذ الفلسفة البريطاني – بالطبع يعرفه كل الملحدين في العالم – فقد كان من أكبر فلاسفة الإلحاد على مدى خمسين عاماً لكنه في عام ٢٠٠٤ أعلن أنه تراجع عن الفكر الإلحادي وأنه يؤمن بعد توافر **الأدلة العلمية** لديه بأن " هناك إلهاً"، مثل هذا الرجل لا يمكن أن يوصف بالجهل ولا بالتحيز وقد شرح لنا ذلك المبدأ العظيم الذي أرساه سقراط (اتبع الدليل إلى حيث يقودك) والذي قاده في النهاية إلى الإيمان بوجود الإله ، لذا سنتركه يشرح ما قاله العلماء عن نشأة الحياة ورأيه في هذه الأقوال ونترك الحكم بعد ذلك لكل قارئ ليختار ما يقتنع به عقله،

نقل الدكتور عمرو شريف في كتابه رحلة عقل عن السير أنتوني فلو من كتابه الشهير (هناك إله) تحت عنوان " كيف نشأت الحياة" ما يلي :

(سمات الكائن الحي) : إذا تأملنا مفهوم الحياة بمنظور فلسفي وجدنا أن السمة الأساسية المميزة لها أن للكائنات الحية غرضاً أو هدفاً متأصلاً في بنيتها (الغائية Teleology) هذا الهدف هو المحافظة على وجودها وهو هدف لم يكن موجوداً في المادة غير الحية التي نشأت منها ---

والسمة الثانية المصاحبة للحياة هي القدرة على التكاثر---

أما السمة الثالثة المرتبطة بالحياة فهي نظام التشفير (Coding System) ومعالجة المعلومات (Information Processing) الموجود في جميع أشكال الكائنات الحية، يشرح لنا " ديفيد بيرلنسكي" عالم الرياضيات المقصود بهذا النظام فيقول (إن نظم التشفير هي نظم تربط بين شيئين أو بين نظامين باستخدام الرموز، من أجل أن نفهم ذلك فلنتأمل شفرة موريس (التلغراف) التي تقوم على خطوات ثلاث : التشفير – نقل المعلومة – فك الشفرة، فالمرسل يحول حروف الكلمات التي يريد إرسالها إلى رمزين (نقاط أو شرط) ويتم التعبير عن جميع الحروف بهذين الرمزين بطريقة رياضية (عملية التشفير)

(أ=-٠٠-) (ط= -٠-٠-) (و=٠-٠٠-) وهكذا، ثم يتم تحويل هذه الرموز إلى إشارات كهربائية يتم نقلها عن طريق الأسلاك إلى مكان المستقبل الذي يقوم بفك الشفرة وترجمتها إلى معناها الأصلي (Decoding) إذا قسنا على هذا النظام ما يحدث في الخلية وجدنا الخطوات نفسها : فالمعلومات الخاصة بكيفية عمل الخلية وكذلك صفات الكائن الحي التي سيتم تمريرها إلى الأجيال التالية تكون محمولة على الجينات التي تتراص بعضها بجوار بعض لتكون كروموسومات نواة الخلية، وتوجد هذه المعلومات في صورة رمزية تستخدم أربعة أحرف (٤ مركبات كيميائية) تتراص بترتيب رياضي مختلف لتعبر عن جميع المعلومات التي تحملها نواة الخلية وتشكل هذه المركبات الكيميائية الحمض النووي الشهير الذي تتكون منه الكروموسومات والمعروف باسم ال DNA

ويتم نقل المعلومات من الجينات الموجودة بنواة الخلية إلى أجسام موجودة في السائل الخلوي خارج النواة تعرف باسم الريبوزومات، ويقوم بنقل المعلومات حمض نووي أخر يعرف باسم RNA (يقابل أسلاك الكهرباء التي تنقل الشفرة في نظام التلغراف، وبناءً على المعلومات التي حملها (RNA) من (DNA) إلى الريبوزومات تقوم الأخيرة بفك الشفرة وفهم محتواها وتكون الأحماض الأمينية التي يتحد بعضها ببعض لتكوين البروتينات التي تقوم بمعظم وظائف الخلية، ويوجد هذا النظام للتشفير ومعالجة المعلومات والذي يستخدم الحمضين DNA و RNA في خلايا جميع الكائنات الحية ---

بتأمل هذه الجوانب نجد أنه إذا أمكننا فهم بنية و آلية عمل ال DNA وRNA والبروتينات على أسس مادية فإننا لا نكاد نعرف شيئاً عن **كيف ومن أين اكتسبت المادة غير الحية آلية التشفير ومعالجة المعلومات** على تعقيدها الشديد المعجز

معضلة التصوير (Morphogenesis):

إن الحياة ليست مجرد تفاعلات كيميائية معقدة تنتهي ببناء البروتينات اللازمة للحياة، وليست فقط اختزان المعلومات والصفات الوراثية ونقلها للأجيال التالية، إن المشكلة الأعقد التي تواجه الماديين بخصوص طبيعة الحياة هي معضلة التصوير (أي التشكيل)،

يرى المفهوم السائد عند الماديين الإختزاليين (Reductionists) أن DNA وRNA (الذي تتكون منه جينات الخلية) مسئول عن كل صفات الكائن الجسمية والنفسية والسلوكية، ولا شك أن هذه النظرة الاختزالية مفجعة في قصورها إذ ثبت للبيولوجيين أن ال DNA بالآليات التي تم التوصل إليها حتى الآن يعجز تماماً عن تشكيل الكائن الحي على هيئته الحقيقية **(أي تحويله من مجرد معلومات إلى وجود حقيقي)**، يمكن أن نوضح مفهوم التشكيل بطرح مثال يقرب لنا الصورة ، كيف يمكن أن تتحول كلمات نخطها على أوراق نصف فيها هيئة إنسان مهما بلغت تفاصيلها ودقتها إلى إنسان حقيقي من لحم ودم؟ لقد أصبح من الضروري الإقرار بأن هناك نظاماً ما ما زال مجهولاً هو المسئول عن هذا التشكيل ولكن كيف؟ ما هو هذا النظام؟ ما زال مجهولاً مطلقاً "

ثم يصل السير أنتوني فلو إلى النتيجة المنطقية قائلاً :

" انقشاع الضباب :

يقربنا عالم الفسيولوجيا الكبير (جورج والد) الحائز على جائزة نوبل من الحقيقة حول أصل الحياة فيقول :

(بالرغم من أنها كانت صدمة لتفكيري العلمي في البداية إلا أنه ينبغي أن أقر بوجود الذكاء والتصميم وراء بناء الكون حتى يكون ملائماً لظهور الحياة واستمرارها على كوكبنا والأعقد من ذلك نشأة الحياة نفسها ثم خروج الكائنات الحية التي تتدرج في الترقي حتى تصل إلى المخلوق العاقل القادر على التوصل إلى الاكتشافات العلمية وابتكار الفن والتكنولوجيا وعلى طرح التساؤلات ، أما إذا أنكرنا الذكاء والتصميم وقلنا إن الحياة قد نشأت بالمصادفة فقد اخترنا التفسير الأصعب) ثم ينهي السير انتوني فلو كلامه قائلاً :

(وهذه هي أيضاً قناعاتي: إن التفسير الوحيد المرضي عقلاً لوجود الحياة ذات الغاية والقادرة على التكاثر والتي تحكمها آلية التشفير هو الإقرار بوجود الإله القديم الحكيم القادر)[1]

هذه هي قناعات السير انتوني فلو المبنية على الاستنتاجات العلمية وليس على الظنون الواهية ، فالدكتور دوكنز ظن أنه لو أمكن للتفاعلات الكيميائية لعناصر الجدول الدوري إنتاج جزيء ال DNA و جزيء RNA فإن ذلك كافٍ عبر فترات زمنية طويلة لإنتاج خلية حية تبدأ بها مسيرة التطور الدارويني ، و هذا من أكبر أخطاء الملحدين ، فهم بذلك قد أثبتوا أنهم لا يستطيعون التفريق بين المركب الكيميائي وبين الكائن الحي – حتى لو كان بدائيّاً مثل الخلية – ذلك الكائن الذي يتخذ القرارات وهو يمارس وظائف الحياة فيتغذى و يتنفس و يتكاثر و يفكر ، لذلك بين العلماء أن حامض ال DNA يمثل المعلومات المدونة عن الكائن الحي لكنه ليس هو الكائن الحي ، كما وصف السير انتوني فلو في العبارة السابقة (كيف يمكن أن تتحول كلمات نخطها على أوراق نصف فيها هيئة إنسان مهما بلغت تفاصيلها ودقتها إلى إنسان حقيقي من لحم ودم؟)

<u>ثانياً : ماذا قال العلماء عن الخلية:</u>

في كتابه القيم (أصل الإنسان) كتب الدكتور موريس بوكاي – الطبيب والجراح الفرنسي المشهور – تحت عنوان "دور المصادفة والضرورة" ما يلي :

(في الواقع كان المنطق البسيط سيتطلب أمام بنية في غاية التعقيد أن تكون المصادفة بالتحديد هي العامل الأخير التفسيري المعلل لوجودها ، حتى لو أننا بدلاً من الأخذ بعين الاعتبار خلية واحدة توقفنا عند أحد أبسط مكوناتها الجزيئية نجد أن علماء الفيزياء والكيمياء قد نفوا منذ زمن بعيد افتراض تكوينها بطريق المصادفة إذ أنه في الواقع وبعد محاولات عدة ومن أجل تكوين أبسط جزيئة كبيرة كهذه سيلزمنا كميات كبيرة من المواد تكون ممزوجة كما لو أنها كتلٌ هائلة **توازي حجم الكرة الأرضية بالمعنى الحصري** وهذا شيء لا يتصور على الإطلاق

إن أحد علماء الأحياء الروس "أوبارين" المشهور بأنه من أنصار المادية ينفي كليّاً الرأي القائل بأن المصادفة هي المكونة للحياة : (إن شبكة التفاعلات للتحول الغذائي ليست منسقة بإحكام فقط

[1] - دكتور عمرو شريف ، كتاب رحلة عقل ، الطبعة الخامسة ٢٠١٢ ، مكتبة الشروق الدولية ، صفحة ١٠٠

بل إنها موجهة أيضا نحو الحفظ الذاتي الدائم للمجموعة في الظروف المتوافرة للبيئة الخارجية، هذا التوجيه المنسق بقوة وهو المميز للحياة لم يكن وليد المصادفة)

كتب ذلك في {الوضع الراهن لمسألة أصل الحياة و أبعادها – التكوين الحياتي صفحة ١٩}

وأبدى العالم نفسه في كتابه أصل الحياة أنه كان لديه كثير من المناسبات في اختيار المقارنات لكي يجعل الجمهور غير المتخصص يدرك عدم تماسك الفرضيات المتعلقة بالمصادفة، وكتب أوبارين {إن ذلك سيعود إلى تحريك أحرف الطباعة عشوائيّاً وهي تمثل ثمانية وعشرين حرفاً بأمل أنها تلتئم لتؤلف أي قصيدة نعرفها، إذ أنه ليس بعلم ما أو بترتيب أحرف وكلمات في القصيدة يمكننا أن نخلق هذه القصيدة من تلك الأحرف} " [١]

و تحت عنوان (العناصر الأساسية للتنظيم الكيميائي-الحياتي للخلية) يقول الدكتور بوكاي :

"كل خلية هي دوماً مقر التحولات الكيميائية، وهذه الأخيرة تحدد المادة الحياتية التي تحتويها وتجدد نفسها بتقسيم على مستوى الأعضاء التي يملك البعض منها كالدم قدرة على تجديد ملحوظ بشكل خاص ويتوجب بالإضافة لذلك هنا ذكر الخليات المنتجة التي تؤمن دوامية النوع، وفي سبيل تأمين كل هذه الوظائف يجب أن تكون هناك مبادلات مستمرة بالمادة والطاقة مع الخارج التي توصل إلى كبار الجزيئات المكونة للخلية بدءاً بالمكونات الكيميائية البسيطة جدّاً، ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف لا يكفي وجود العنصرين اللذين سيتحدان بل سيلزمهما أيضاً ما نسميه المساعدين، أي فاعلين لديهم خاصية إثارة التفاعل بمقادير زهيدة ، ونجدها سليمة عندما ينتهي التفاعل، وكل مساعد مختص بالتفاعل الذي يسببه، و إن صنع الهيولينات (البروتينات) المكونة للمادة الحياتية المؤلفة من مواد أكثر بساطة يستلزم تدخل هؤلاء الفاعلين وهم عبارة عن الخمائر، وكل منها لديها الخاصية المطلقة للتسبب بتركيب هيولينات (بروتينات) معينة --- في البنيات الحية البسيطة جدّاً يكون حامض DNA باتصال مباشر مع مادة الخلية وهي الحشوة ومثال على ذلك الباكتيريا التي لا نواة لها، غير أنه في باقي الخليات الحيوانية الأكثر تنظيماً يكون حامض DNA محصوراً في نواة الخلية على مستوى الصبغيات (الكروموسومات) وهناك لا يتدخل في مسار تكوين الخلية الحية إلا بطريقة غير مباشرة ، إذ أنه يكون عبارة عن مودع للمعطيات (التي يشكل مجموعها إعلاماً واحداً) الضرورية لهذه التفاعلات عن طريق الرسل الذين يأخذون عنه صوراً لينقلوها إلى عناصر أخرى للحشوة مثل الريبوزومات (Ribosomes) ويدعم هذه الرسائل حامض RNA ، أثناء ذلك فإن وصول الرسالة التي ينقلها حامض RNA من النواة إلى الحشوة الخلوية لا يتم بشكل مباشر إذ أن هذا الرسول وهو حامض RNA لا يؤثر في الواقع إلا بتدخل حامض أخر RNA معد للتحويل والذي سيكون عملياتياً بحيث يقضي على حامض RNA الرسول، هذا التفصيل يدل على تعقيد جهاز الاتصال، ويبدو كل شيء أيضاً من هذا الشرح مبيناً شكليّاً بصورة كبيرة إذ أن الرسالة هي بالواقع مرموزة

لكل خلية سلسلة من حوامض DNA ، ففي الباكتيريا حيث تقاس أبعادها بمقياس جزء من ألف من المليمتر يشكل حامض DNA شريطا يقاس طوله بمقياس المليمتر الواحد وبالنسبة للإنسان

[١] - د: موريس بوكاي ، كتاب (أصل الإنسان) ، ترجمة فوزي شعبان ، المكتبة العلمية ، صفحة ٥٥ و ٥٦

فيما يتعلق بكل خلية فإن لشريط حامض DNA بعدا يقاس بالأمتار ويتجاوز الطول الإجمالي لحامض DNA الموجود عند الفرد المسافة بين الأرض والشمس (حسب ب كورلسكي)[١]

ولننتقل إلى مرجع آخر حتى نقترب أكثر من الواقع الذي يحدث داخل الخلية لنعلم عمّ نتحدث بالضبط ، و هو كتاب الدكتور عمرو الشريف "وهم الإلحاد" حيث جاء فيه :

(يدعي الملاحدة أن جزيئات الحياة (البروتينات – ال DNA وال RNA) قد تكونت بالمصادفة والعشوائية ويعتبرون أن ذلك تفسيرٌ كافٍ لنشأة الحياة، تعال نتأمل دور المصادفة والعشوائية في نشأة جزيء واحد من البروتينات، إذا نظرنا إلى جزيء الهيموجلوبين الذي يحمل الأوكسيجين في كرات الدم الحمراء والمسؤول عن لون الدم الأحمر نجد أنه يتكون من أربع سلاسل من الأحماض الأمينية يبلغ مجموعها ٥٣٩ حمضاً أمينيّاً هي تكرار لعشرين نوعاً من هذه الأحماض، وبحسبة رياضية بسيطة نجد أن عدد الترتيبات المحتملة التي يمكن أن يتراص بها ال ٥٣٩ حمضاً أمينيّاً يبلغ رقماً مهولاً مقداره (١) وعلى يمينه ٦٢٠ صفراً ، غير أن ترتيباً واحداً هو المطلوب كي يؤدي الجزيء وظيفته في نقل الأوكسجين في جسم الإنسان، مع ملاحظة أن وجود خطأ في موضع حمض أميني واحد كفيل بأن ينتج جزيئاً يعمل بطريقة معيبة وقد لا يعمل على الإطلاق، وبعد تراص الأحماض الأمينية لتكوين السلاسل الأربع تأتي أهم عملية في تخليق جزيء البروتين وهي الهيئة التي تلتف بها هذه السلاسل، إنها عملية بالغة التعقيد ولتوضيح مدى ذلك نقول أننا إذا وضعنا المعلومات المطلوبة للف سلسلة جزيء بروتيني صغير (يتكون من مائة حمض أميني مثلاً) في سوبر كمبيوتر ليقوم بهذه العملية بمحاولات عشوائية فإنه سيستغرق حوالي واحد وأمامه ١٢٧ صفراً من السنوات بينما يتم ذلك في الخلية الحية في جزء ضئيل من الثانية ولو تمت هذه العملية على هيئة غير صحيحة يمكن أن تنتج سماً قاتلاً، لذلك فإن إمكان تكون جزيء بروتين بالمصادفة (تحتاج الكائنات الحية إلى مئات الآلاف من أنواع البروتينات) يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة على مادة الكون كله حتى يمكن للتوافقات العشوائية المثمرة أن تحدث وتستغرق هذه المحاولات مدة أطول من عمر الكون بمليارات المرات)[٢]

ألا تعني هذه الأرقام الضخمة شيئاً عند الملحدين؟

هذه مقتطفات قليلة أردنا بها لفت الأنظار إلى الفارق الكبير بين الخلية الحية وبين الجزيء المادي - حتى لو كان جزيء أحد الأحماض الأمينية - حتى يتضح الحجم الحقيقي للقفزة التي قفزها د: ريتشارد في عبارته السابقة من الجزيء المادي مباشرة إلى الخلية الحية دون أن يملك دليلاً أو حتى تصوراً منطقيّاً لإمكانية حدوث ذلك ، لذلك اكتفى بالقول أن الكيمياء يمكنها يوماً ما أن تنجح في تخليق مادة الحياة و اعتذر بأنه ليس متخصصاً في الكيمياء، إن الخطأ الفادح في هذا التصور هو الاعتقاد بأن تكون جزيئات من الأحماض البروتينية أو الأمينية ينتج بعد سلسلة من التطور كائناً حيّاً ، و حجم هذا الخطأ يتضح من المثال التالي :

تصور لو أننا وضعنا كل المواد اللازمة لصناعة جهاز كمبيوتر حديث في صندوق وتركناها لمدة طويلة – مليار سنة مثلاً – فهل يمكن عن طريق المصادفة وبشيء من الحظ السعيد أن

---

[١] - المرجع نفسه ، صفحة (٦٣ – ٧٣) بتصرف

[٢] أ د : عمرو شريف ، كتاب وهم الإلحاد ، هدية مجلة الأزهر لشهر المحرم ١٤٣٥ هجرية ، صفحة ٧٦

تتشكل لتصنع لنا جهاز كمبيوتر ؟ بالطبع لن يحدث هذا حتى لو وفرنا مليار مليار صندوق يحتوي على المواد أنفسها وانتظرنا حدوث المعجزة لمرة واحدة و في صندوق واحد،

فكذلك لو جمعنا كمية هائلة من الأحماض الأمينية و خلطناها تحت كل الظروف المطلوبة للحياة فإن ذلك لن ينتج خلية حية تملك آلية التكاثر و التشفير و معالجة المعلومات ولا حتى بعد مليارات السنين، لأن الخلية الحية ليست مجموعة من جزيئات الأحماض الأمينية ولكنها كائن حي عاقل متكامل يؤدي كل جزء فيه وظيفة معينة مرتبطة بكل الأجزاء الأخرى المحيطة به ،

والآن : دعونا نفترض مع الملحدين بأن الكيميائيين بعد كثير من الأبحاث استطاعوا أن ينتجوا جزيئات الأحماض الأمينية في المختبرات و أنتجوا ال DNA كما شرح لنا د: داوكنز كخطوة أولى لظهور الحياة على الأرض ، هل سينتج ذلك خلية حية تبدأ منها شجرة التطور ؟ إن غاية هذه الخطوة سيكون جمع جزء من مادة الكائن الحي – وهو الجزء الذي يشبه ذاكرة الكمبيوتر - في صندوق يشبه صناديق الكمبيوتر المذكورة في المثال السابق ، و التصور الذي طرحه د: دوكنز بأن ذلك سينجح في إنتاج خلية حية هو نفس التصور الخاطئ بأن أحد الصناديق المحتوية على المواد اللازمة لصنع كمبيوتر سينجح عن طريق التطور في تصنيع كمبيوتر حديث ، هذه هي العقبة التي شرحها لنا السير انتوني فلو وهو يتحدث عن مشكلة (التصوير)

والآن : لننتقل مع الدكتور داوكنز إلى مستوى أعلى ، و نفترض أن كل ما قاله عن الدليل الإحصائي صحيح ، بمعنى أننا تخطينا عقبة التصوير و أصبح لدينا مادة هلامية تشبه المخلوقات وحيدة الخلية في المظهر الخارجي، هل هذا يؤدي إلى ظهور الكائن الحي ، بالطبع لا ، لأن هذه الخطوة تشبه تصورنا بأن قوة الفعل التراكمي أو (التطور) عبر مليارات السنين نجحت في تشكيل و تصنيع جهاز كمبيوتر حديث في أحد الصناديق المذكورة منذ قليل ، **و إن كان تصديق حدوث هذا نوعاً من الجنون، لكننا سنرضى بهذا الجنون للحظات حتى نسير مع الملحدين إلى آخر الطريق،**

والآن : بعد تصديق إمكانية الحصول على كومة من الحديد و الزجاج و البلاستيك و الأسلاك على شكل جهاز كمبيوتر عن طريق التطور ، هل يمكن لهذه الكومة العمل كجهاز كمبيوتر حقيقي بدون عملية البرمجة و بدون امداده بالطاقة الكهربائية ؟ بالطبع لا

و السؤال الآن : من الذي يستطيع برمجة هذه الكومة من المواد لإعدادها للعمل بالطريقة التي يعمل بها الكمبيوتر ؟ وما هو حجم المعلومات اللازمة لعملية البرمجة ؟ و ما هو المستوى اللازم ليكون عليه المبرمج حتى يتمكن من اعداد هذه الكومة للعمل على أكمل وجه ؟

والسؤال الأهم : هل القوة الخارقة للتطور التي لا تفهمها عقول المؤمنين - على حد وصف د: ريتشارد دوكنز – قادرة بعد مليارات كافية من السنين على إمداد هذه الكومة بكل البرامج اللازمة بدون تدخل من المصمم الذي صمم كل جزئية من هذه البرامج ؟

ببساطة ، الملحدون يصدقون أن كومة النفايات هذه يمكنها الحصول على جميع المعلومات اللازمة للبرمجة عن طريق التطور و بشيء من الحظ السعيد ، و أنها عبر ملايين كافية من السنين ستنجح في اكتساب كل البرامج الدقيقة و الحديثة التي أنتجتها شركة مايكروسوفت اللازمة لتشغيل جهاز كمبيوتر قادر على معالجة مليون عملية في الثانية الواحدة ، لأنهم

يصدقون بأن أي نظام مهما بلغ من التعقيد يمكن أن ينشأ من بدايات بسيطة جداً ثم يقوم الفعل التراكمي للتطور بالوصول إلى أي درجة من التعقيد مهما كانت لاإحتمالية

هذا المثال يوضح ما حاول العلماء شرحه للملحدين عن استحالة اكتساب المادة غير الحية آلية التكاثر و التشفير ومعالجة المعلومات دون تدخل مبرمج قادر على إمدادها بهذه الآليات و على درجة فائقة من العلم و القدرة والحكمة ، لأن هذه الآليات – حتى لو أثبت العلم صحة نظرية التطور - فإنها **ليست حلقة من حلقات التطور و لكنها (إمداد خارجي)** ، تماماً كما أن برمجة جهاز الكمبيوتر ليست حلقة من حلقات تشكيل هذا الجهاز من مواده الأولية وإنما هي (إمداد خارجي) من مصمم يعرف لماذا ابتكر تلك البرامج ، مع الفارق الهائل بين المثال الذي ضربناه وبين ما يحدث في الخلية الحية ، لأن نظام التكاثر و التشفير و معالجة المعلومات داخل الخلية الحية الواحدة يتطلب برمجة دقيقة تزيد على برمجة كل أجهزة الكمبيوتر الموجودة على سطح الأرض

و كما أن البرمجة ليست حلقة من حلقات تصنيع جسم الكمبيوتر فإن الإمداد بالطاقة الكهربائية المناسبة هي أيضاً عملية خارجية وليست حلقة من حلقات تصنيع جسم الكمبيوتر ، وبالطبع فإن وصول الطاقة الكهربائية إلى جهاز كمبيوتر في أحد المنازل يتطلب آلاف الخطوات المتزامنة و المتسلسلة و المصممة بشكل دقيق في كل مرحلة من مراحلها بدءاً من تصميم وإنشاء محطات التوليد ثم محطات التحويل ثم شبكات توزيع الطاقة بالجهود الفائقة ثم المتوسطة ثم المنخفضة وصولاً إلى القابس المثبت بالحائط ، بالإضافة إلى ملايين الدولارات التي تتطلبها هذه المنظومة التي من المؤكد أن كل دولار منها تم التخطيط الدقيق لإنفاقه في المكان الصحيح عن طريق فريق من المتخصصين الذين يضعون الخطط الحالية والمستقبلية،

والآن : هل يختلف معنا أحد من الملحدين في أن كلا الخطوتين ، البرمجة و الإمداد بالطاقة ليستا من حلقات التصنيع لجسد الكمبيوتر ؟ و أنهما لا يمكن إتمامهما بدون **مصمم ذكي يعرف الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه** ؟ والأهم من ذلك : هل هناك من يختلف معنا في أن التطور و الفعل التراكمي عاجزان تماماً عن إنجاز هاتين الخطوتين حتى بعد عدد لا نهائي من السنين؟

قد يحتج الملحدون بأن كل الأمثلة التي سقناها ليست مطابقة للحالة التي نناقشها وهي حالة (الظهور التلقائي للحياة عن طريق التطور والمبدأ الانثروبي) لأننا استشهدنا بأشياء جامدة لا حياة فيها ولا تملك آلية التطور التدريجي من تلقاء نفسها ،

وفي اللحظة التي يسألون فيها هذا السؤال نكون قد وصلنا معهم إلى نقطة هامة في النقاش ، ونسألهم السؤال المنطقي ، ففي اللحظة التي تسبق الظهور التلقائي للحياة في أول مرحلة من مراحلها هل كان هناك في الكون سوى العناصر الجامدة التي لا تمتلك أي قدرة على التطور ؟

إن هذه القفزة الهائلة المبنية فقط على مجرد الظن والتخمين غير المنطقي ، **هي أكبر خطايا الملحدين على الإطلاق** ، لأننا لو سألنا أحدهم : هل تحول تمثال من الزجاج على شكل عصفور جميل إلى عصفور حقيقي يأكل ويشرب و يطير في الهواء أمر محتمل أم لا ؟ فسيقول لك على الفور : ليس محتملاً على الإطلاق ، وبالرغم من ذلك يؤمن بأن جزيئاً ماديّاً امتلك فجأة القدرة على التطور التلقائي ثم تحول عبر الزمن إلى خلية حية، ظنّاً منه أن المسافة بينهما من حيث

التعقيد صغيرة يمكن للجزيء المادي قطعها مع مرور الزمن إذا توفرت ظروف طبيعية وكيميائية معينة، هذا قصور هائل في فهم و تصور طبيعة الخلية الحية ، إنها كائن حي يحتوي على كل درجات التعقيد التي يحتوي عليها جسم الإنسان ، وإن كانت بشكل مختلف ، قد تكون أقل من حيث الحجم ولكنها ليست أقل تعقيداً، هناك كائنات صغيرة لا ترى بالعين هي أشد فتكاً من أقوى جيوش العالم ، مثل تلك التي تسبب الكوليرا و الإيدز ، والعلماء يجمعون على قدرة هذه الكائنات على التغلب على كل أشكال المضادات التي ينتجها البشر والعودة للظهور بأجيال جديدة لا تؤثر عليها هذه المضادات ، وهذا تعقيد لم تصل إليه الأجيال البشرية حتى الآن ، و هناك من الأمراض و الأوبئة التي تظهر فجأة بسبب أنواع لا يعرفها البشر من هذه الكائنات التي لا يتوقف ظهورها من حين لآخر على مر التاريخ ، وهي كائنات خارج كل تصنيفات العلماء ، كل هذا يثبت أن أصغر خلية حية لا تختلف في بعدها الشاسع عن الجزيء المادي عن الحيوانات الفقارية بما فيها الإنسان ، فكل الصفات والآليات المعقدة اللازمة للحياة موجودة في جميع الأحياء و تعمل بالكفاءة والدقة و الإبهار أنفسها ، وكما لا يمكن لعاقل أن يتصور تحول جزيء مادي إلى إنسان فإن احتمال تحول هذا الجزيء المادي إلى خلية حية يحمل الدرجة نفسها من اللا إحتمالية

نحن لا نجزم بخطأ نظرية التطور ، فهناك علماء مسلمون يؤمنون بالتطور بنسبة ما ، لكننا ضد الخداع المبني على هذه النظرية ، فالملحدون باعترافهم هم لم يتخطوا الدرجة الأولى من السلم ، و هي الفرضية المستحيلة التي تتصادم مباشرة مع العلم و العقل في آن واحد ، تلك هي فرضية تحول المادة الجامدة إلى خلية حية ، لكنهم مع ذلك يقفزون إلى أعلى السلم ويبدؤون في الحديث عن تطور الكائنات الحية كدليل على عدم وجود الله عز وجل. في الحقيقة هم لا يخدعون الناس و إنما يخدعون أنفسهم

ثالثاً : ماذا قال العلماء عن نظرية التطور :

ذكرنا من قبل أننا لا نجزم بخطأ نظرية التطور ، ونحن لا نتخطى العلماء المتخصصين في أي مجال من المجالات ، فقد علمنا الله عز وجل في القرآن الكريم ألا نتعدى حدودنا و أن نذهب إلى العلماء المتخصصين و نحترم آراءهم ، فقد قال تعالى في سورة الأنبياء **"فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"** ٧

ولأن الدكتور ريتشارد دافع في كتابه "وهم الإله" عن نظرية التطور بشكل لا يقبل المزيد ، فقد أصبح من الواجب أن نشير إلى وجود فريق آخر من العلماء يؤكدون أن النظرية تحتوي على أخطاء جسيمة تشكك فيها من الأساس ، من هؤلاء الدكتور والت براون من (مركز الخلق العلمي)، فقد نشر على موقع منتدى (التوحيد) نقلاً عن هذا العالم مقالة مترجمة بعنوان (هناك ٢٥ سبباً لتشك في نظرية التطور)[١] ، لكن أهم ما في مقالته الفقرة التالية :

"الرجل القرد" لم يكتشف أبداً .. إنسان بيلتداون كان مجرد أكذوبة - الدليل الوحيد على وجود إنسان نبراسكا كان سن خنزير بري - أقرّ إيجن بابيوس، بعد أربعين عاماً من اكتشافه إنسان جاوا، أنه لم يكن إلا نوعاً من القرود - اعتبرت جماجم إنسان بكين، في نظر كثير من العلماء،

[١] - منتدى التوحيد ، الأقسام العامة ، قسم الحوار عن المذاهب الفكرية ، (٢٥ سبباً لتشك في نظرية التطور) نقلاً عن د : والت براون ، مركز الخلق العلمي

بقايا لنوع من القرود – أصبح كثير من الخبراء اليوم يعتقدون أن النوع هومو إيريكتس لم يكن ينبغي إدراجه ضمن الأنواع الحية"

لأن هذه الفقرة توضح حقيقة هامة ومؤسفة في نفس الوقت ، وهي تساهل العلماء الملحدين في تزوير الحقائق العلمية ، هذا أمر بالغ السوء ، وهو يشبه قيام رجال الدين بتزوير الحقائق الدينية لتتماشى مع مناخ عام سائد يخافون إذا جهروا بالحقائق أن يخسروا تأييد و خضوع الناس الذين يمثلون هذا المناخ العام ، وكلا الطرفين لا ينظر إلى المسؤولية الخطيرة الملقاة على عاتقه في تعليم الناس الحقائق كما هي ، لكنه ينظر إلى المكانة والشهرة وجني الأموال

الفرضية الإحصائية:

يفترض د: داوكنز أن العدد الهائل من الكواكب الذي يقدر بمليارات المليارات يؤمن فرصا كبيرة لإمكانية حدوث المصادفة ولو لمرة واحدة في التاريخ ويؤدي ذلك إلى نشوء الحياة من الجزيء المادي بتأثيرات كيميائية وبدعم من المبدأ الانثروبي ببساطة لأننا هنا ، ثم يكمل التطور الدارويني مسيرة الكائنات الحية بكل سرور على حد تعبيره ،

وسوف نترك زعيم فلاسفة الإلحاد – سابقاً - السير انتوني فلو ليجيب على هذا الزعم ، فتحت عنوان "ثم أدرت الدفة" عن كتابه "هناك إله" نقل د عمرو الشريف في كتابه (رحلة عقل) الفقرات التالية :

" ثم جاءت اللحظة الحاسمة، ففاجأت الجميع في أهم مناظراتي العلنية (عقدت في جامعة نيويورك عام ٢٠٠٤) بأنني قد صرت أقبل فكرة (الوجود الإلهي) وفسرت ذلك بأن ما أثبته العلم الحديث من تعقيد مذهل في بنية الكون يشير إلى وجود مصمم ذكي، كذلك فإن البحوث الحديثة حول أصل الحياة وما تكشف من بنية شديدة التعقيد وطريقة أداء مذهلة لجزيء DNA يؤكد حتمية وجود المصمم الذكي"

وقد نقلت وكالة أنباء الاسوشيتد برس هذا الخبر إلى أرجاء الأرض مع تعليق صادق طريف (لا شك أن أعظم الاكتشافات الباهرة للعلم الحديث هو اكتشاف أن هناك إلها)

ثم يكمل السير انتوني فلو كلامه قائلاً :

برهان القرد:

تقول القاعدة الفلسفية : إن البرهان الفلسفي يعتبر متكاملاً إذا اجتمع فيه الدليل على صدق الرأي مع الدليل على خطأ الرأي المقابل، لذلك أعجبني كثيراً تفنيد العالم "جيرالد شرويدر" في كتابه علم الإله للدليل الذي يسمونه "برهان القرد" ، يشبه القائلون بهذا الرأي إمكانية نشوء الحياة بالمصادفة بمجموعة من القردة تدق باستمرار على لوحة مفاتيح الكمبيوتر ويرون أن القردة يمكن أن تكتب بالصدفة في إحدى محاولاتها اللانهائية قصيدة لشكسبير، يبدأ شرويدر تفنيده بعرض تجربة أجراها المجلس القومي البريطاني للفنون وفيها وضع الباحثون ستة من القردة في قفص لمدة شهر وتركوا معها لوحة مفاتيح بعد أن دربوهم على دق أزرارها

كانت النتيجة ٥٠ صفحة مكتوبة دون كلمة واحدة صحيحة حتى لو كانت هذه الكلمة من حرف واحد مثل A (لاحظ أنه لا بد من وجود مسافة قبل حرف A ومسافة بعده حتى نعتبره كلمة) وإذا كانت لوحة المفاتيح تحوي ثلاثين مفتاحاً (٢٦ حرفا + ٤ رموز) فإن إمكانية الحصول على كلمة من حرف واحد بالمصادفة عند كل محاولة تصبح (٣٠x٣٠x٣٠/١) أي ٢٧٠٠٠/١

بعد ذلك طبق شرويدر هذه الاحتمالات على قصيدة سوناتا لشكسبير فخرج بنتائج عرضها كالتالي :

اخترت لشكسبير سوناتا التي تبدأ ببيت (Shall I compare thee to a summer"s day) وأحصيت عدد حروفها فوجدتها ٤٨٨ حرفاً، ما هي احتمالية أن نحصل بالطرق على أزرار لوحة الكمبيوتر على هذه السوناتا بالصدفة؟ (أي أن تترتب ال ٤٨٨ حرفا بترتيبها نفسه في السوناتا)، إن الاحتمال هو واحد مقسوماً على ٢٦ مضروبة في نفسها ٤٨٨ مرة أي

($٢٦^{-٤٨٨}$ أي ما يعادل $١٠^{-٦٩٠}$)

وعندما أحصي العلماء عدد الجسيمات في الكون (إلكترونات وبروتونات ونيوترونات) وجدوها $١٠^{+٨٠}$ أي واحد وعلى يمينه ٨٠ صفراً، معنى ذلك أنه ليس هناك جسيمات تكفي لإجراء المحاولات وسنحتاج إلى مزيد من الجسيمات بمقدار $١٠^{+٦٠٠}$

وإذا حولنا مادة الكون كلها إلى رقاقات كمبيوتر تزن كل منها جزءاً من المليون من الجرام وافترضنا إن كل رقاقة تستطيع إن تجري المحاولات بدلاً من القردة بسرعة مليون محاولة في الثانية نجد أن عدد المحاولات التي تمت منذ نشأة الكون هي $١٠^{+٩٠}$ محاولة أي أنك ستحتاج مرة أخرى كوناً أكبر بمقدار $١٠^{+٦٠٠}$ أو عمراً أكبر للكون بالمقدار نفسه

يقيناً لن نحصل على سوناتا بالمصادفة حتى لو كان الكاتب هو الكمبيوتر وليس القردة

إن للمصادفة قانوناً، فالمتخصصون لم يتركوا كل مدع ينسب إليها ما يشاء ليستر بها جهله وتهاوي أدلته، لقد حدد المتخصصون ما يعرف بمقدار الاحتمال الملزم (Universal Probability Bound) الذي يستحيل بعده حدوث أمر ما بالمصادفة وحدها ويبلغ هذا الاحتمال $١٠^{+١٥٠}$ فهل يمكن أن يقع بالمصادفة أمر احتماله ١: $١٠^{+٦٩٠}$ ؟ أخبرت شرويدر بأن طرحه هذا أثبت لي أن برهان القردة لا يعدو أن يكون كومة من النفايات بالرغم من جرأة من يعرضون هذا البرهان ويدعون أن القردة يمكن أن تكتب رواية كاملة لشكسبير مثل هاملت أو عطيل أو حتى روايات شكسبير كلها، وإذا كان هذا الرأي يعجز عن إثبات إمكانية كتابة سوناتا بالمصادفة فهل سينجح في تفسير نشأة الحياة بالمصادفة من المادة غير الحية؟

بهذا العرض لشرويدر انهار تماماً البرهان العقلي الذي يستند إليه الملاحدة وإذا أضفنا إلى ذلك قوة البرهان الذي يقدمه التعقيد الهائل في بنية الكون وفي بنية وآلية عمل جزيء DNA اكتمل لدينا البرهان الفلسفي (الدليل على صدق الرأي مع الدليل على خطأ الرأي المقابل) على وجود الإله الحكيم القادر) [١]

---

[١]- أ د عمرو شريف ، كتاب رحلة عقل ، مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة الخامسة ، صفحة ٦٨ و ٦٩

إنتهى كلام السير أنتوني فلو، وهو مثال رائع لرجل عظيم كان صادقاً مع نفسه وصادقاً مع الدليل العلمي فسار خلف الدليل إلى حيث يقوده وليس العكس ، ولقد كان من كلامه العظيم تعليقه على القصة المعبرة التي ذكرها في الفصل الرابع من كتابه "هناك إله" عن قوم بدائيين وجدوا جوّالاً على شاطئ جزيرتهم لكنهم رفضوا تصديق أن هذا الشيء يمكن أن يكون أداة تواصل مع مخلوقات أخرى أكثر منهم حضارة ووقعوا في أسر تصوراتهم القديمة التي حملتهم على تحطيم الجهاز، وكتب تعليقه كالتالي **(تؤكد هذه الحكاية الرمزية أن مفاهيمنا السابقة توجه تحليلنا للظواهر وللبراهين والحجج ، والصواب أن ندع للبراهين والحجج الجديدة الفرصة لأن تعيد تشكيل مفاهيمنا وآرائنا، إن تمسكنا بمفاهيمنا السابقة كثيراً ما يعيقنا عن التفكير في مفاهيم أرحب عن العالم)**[١]

المبدأ الانثروبي :

الدليل الانثروبي كما شرحه د: ريتشارد كبديل للتصميم في المرحلة التي تسبق التطور الدارويني هو دليل إحصائي قصد به العبور بالجزيء المادي إلى مرحلة ظهور أول كائن حي أو أول عنصر قابل للتكاثر ، وخلاصته أن أصل الحياة هو حدث لا إحتمالي بشكل كبير لكنه حدث مرة واحدة فقط وعلى كوكب مناسب تماماً لظهور الحياة لأننا هنا ، والعدد الكبير جداً من الكواكب المناسبة لاحتضان الحياة يؤمن فرصة جيدة للظهور التلقائي لأصل الحياة الذي بدأ منه التطور وهو العنصر القابل للتكاثر

وقد ذكرنا في السطور السابقة رد السير أنتوني فلو على الجانب الإحصائي في هذا الدليل ، لكن هناك جانباً هاماً في هذا الدليل غير صحيح و يجب علينا توضيحه ، وهو افتراض د: ريتشارد أن أصل الحياة هو حدث واحد و أنه حدث لمرة واحدة على كوكبنا المناسب لظهور الحياة، و قد ذكر في شرحه للمبدأ الانثروبي النسخة الكوكبية ما يلي:

"جذور التطور في نطاق الكيمياء غير الحيوية تبدو و كأنها تؤمن فراغاً أكبر من أي تحول في طريق التطور لاحقاً، بمعنى ما فهو فعلاً فراغ كبير ، وهذا المعنى خاص جداً ، لكنه لا يعطي راحة للمتدينين. أصل الحياة يجب أن يكون قد حدث مرة واحدة فقط ، وبذلك نسمح لأنفسنا بأن نعتبره حدثاً على قدر كبير من اللاإحتمالية"[٢]

والظهور التلقائي كما وضحه لاحقاً هو الظهور بدون وجود مصمم وبدون وجود غاية ، وقد اختار كلمة "المصادفة" للتعبير عن السبب في هذا الظهور التلقائي ، حيث قال :

"ولكن الظهور التلقائي للجزيء القابل للتوارث بالمصادفة يبدو للعديدين غير محتمل ، وربما أنه لا إحتمالي بشكل كبير ، وسأبقى عند هذه النقطة لكونها مركزية في هذا القسم من الكتاب"[٣]

والسؤال الآن : هل تحول الجزيء المادي إلى جزيء قابل للتوارث بالمصادفة ، هل هذا حدث واحد أم أكثر من حدث ؟ وهل يحتاج إلى مصادفة واحدة أم إلى عدد لا نهائي من المصادفات ؟

---

[١] - أ د عمرو شريف ، المرجع السابق ، صفحة ٧٣
[٢] - د: ريتشارد دوكنز ، كتاب وهم الإله ، الطبعة العربية الثانية ، ترجمة بسام البغدادي ، صفحة ١٣٦ ، سطر ٢٥
[٣] - المرجع نفسه ، صفحة ١٣٩ سطر ١٣

للإجابة على هذا السؤال نحاول تصور حدث أقل بكثير من هذا الحدث ونقوم بالمقارنة على النحو التالي :

نختار أبسط الأشياء تعقيداً في عالمنا وليكن القلم الرصاص الذي يستخدمه تلاميذ المدارس الابتدائية ، هل هذا القلم أكثر تعقيداً أم الجزيء القابل للتوارث ؟ بالطبع يتفق الملحدون معنا على أن الجزيء القابل للتوارث أكثر تعقيداً بملايين المرات ، كما يتفقون معنا أنه قبل ظهور الجزيء القابل للتوارث لم يكن هناك سوى الأشياء الجامدة غير العاقلة وغير الغائية و غير القابلة للتطور ، وعليه فإن احتمال تحول الجزيء المادي إلى قلم رصاص بشكل تلقائي أكبر من احتمال تحوله إلى جزيء قابل للتوارث وبالنسبة نفسها بين مستوى التعقيد في الحالتين

نفترض الآن أنه بالمصادفة مع بعض الحظ و بتطبيق المبدأ الانثروبي وبما أن كوكب الأرض صالح تماماً لوجود القلم الرصاص على سطحه ، سيظهر بشكل تلقائي قلم رصاص كالذي يباع في المكتبات ، ما هي احتمالية حدوث هذا الحدث ؟ وما هو عدد المصادفات المتزامنة والمتسلسلة اللازمة لإتمام هذا الحدث البسيط ؟

نعلم جميعاً أن القلم الرصاص مصنوع من قلب من الكربون على شكل أسطوانة بقطر ٢ مم مغلفة بأسطوانة من الخشب بقطر ٦ مم تقريباً ، وينتهي بأسطوانة معدنية رقيقة بنفس القطر تحتوي على قطعة من المطاط ، نحاول الآن تخيل عدد المصادفات المطلوبة:

فأول مصادفة: هي أن يجتمع عدد محدد من ذرات الكربون من تلقاء نفسها مساوٍ للعدد المطلوب لتشكيل أسطوانة قطرها ٢ مم وطولها ٢٠٠ مم وليس على أي شكل آخر مثل الكرة أو المكعب، وربما يحتاج تنفيذ هذا **إلى مصادفة ثانية** وهي وجود قالب بالأبعاد نفسها لتدخل فيه ذرات الكربون وتتشكل بالحجم والشكل المطلوبين (ما هي نسبة احتمال حدوث هاتين المصادفتين معاً؟) أليس هذا مستحيل الحدوث ؟ لكن دعونا نفترض أن هناك احتمالاً ولو واحداً على مليار لحدوث ذلك

والمصادفة الثالثة: هي أن تتشكل قطعة من الخشب الجيد من تلقاء نفسها أو ربما بفعل الرياح على شكل أسطوانة مستقيمة مفرغة قطرها الخارجي ٦ مم والداخلي ٢ مم وبطول ٢٠٠ مم عبر عدد كاف من السنين (ما هي نسبة احتمال حدوث هذه المصادفة؟) أعتقد أنها مستحيلة الحدوث ولكن لنقل إنها واحد على مليار أيضاً

والمصادفة الرابعة: هي حدوث المصادفة الأولى والثانية والثالثة في مكان واحد على سطح هذا الكوكب الفسيح (ما هي نسبة احتمال حدوث هذه المصادفة؟) لنقل واحد على مليار

والمصادفة الخامسة: هي حدوثها جميعاً في وقت واحد من عمر الأرض البالغ أربعة مليارات ونصف مليار عام (ما هي نسبة احتمال حدوث هذه المصادفة؟) لنقل واحد على مليار

والمصادفة السادسة: أن تتحرك قطعة الخشب في اتجاه أسطوانة الكربون حتى يصبح المحور الطولي لكل منهما على استقامة واحدة، لنفرض أنه بفعل الرياح ممكن لهذا الاحتمال أن يتحقق بنسبة واحد في الألف

والمصادفة السابعة: هي بدء أسطوانة الكربون في الدخول إلى داخل القطعة الخشبية حتى النهاية لتشكل القلم الرصاص (ما هي نسبة احتمال حدوث هذه المصادفة؟) أليس هذا الاحتمال مستحيل الحدوث بشكل قاطع وذلك لأنه ليس هناك ما يدعو أيّاً من القطعتين إلى الالتحام بعضهما ببعض، فهذه الأشياء غير العاقلة لا تعرف بالطبع ما هو استخدام القلم الرصاص، وبمعنى آخر ليس هناك هدف نهائي لدى كل من القطعتين يجعلهما تتقدمان بخطا ثابتة نحو إنتاج قلم رصاص، وهذا ما عبر عنه السيد فلو في شرحه لسمات الحياة بلفظ "الغائية" ، و هنا ينقطع الخيط وتتوقف العملية التسلسلية ، لكن دعونا نفترض أنه برغم عدم معرفة القطعة الخشبية وكذلك أسطوانة الكربون ما هو الهدف من الأحجية ، فسوف تتحرك كل منهما تجاه الأخرى بفعل عوامل التعرية و درجة الحرارة والضغط لإنجاز المهمة ، كم يبلغ احتمال دخول أسطوانة الكربون في القطعة الخشبية ؟ هل يمكننا أن نفترض رقماً لهذا الاحتمال وليكن واحداً على مليار مليار ؟

والمصادفة الثامنة : بدء تشكيل قطعة من خام الحديد عبر عمليات متسلسلة إلى قطعة رقيقة مسطحة من الحديد القابل للإنثناء – هذا النوع من الحديد ينتج في أفران لصهر الحديد درجة حرارتها ألف وخمسمائة درجة مئوية - بسمك جزء من الملليمتر وبالطول والعرض المناسبين تماماً لتشكيل أسطوانه معدنية بقطر مساوٍ لقطر الأسطوانة الخشبية ، ثم القيام بالتحرك نحو قطعة الخشب و الالتحام بها ، كم يبلغ هذا الاحتمال ؟ أليس هذا مستحيل الحدوث ؟ لكن لنفترض أنه يبلغ واحداً على مليار مليار

والمصادفة التاسعة: هي بدء تشكيل قطعة من المطاط الخام على شكل أسطوانة بالقطر المطابق لقطر قطعة الخشب ، ولنفترض أن هذه الخطوة ممكنة الحدوث ، لكن افتراض وجودها في نفس الزمان والمكان ثم التحرك للالتحام بأسطوانة الحديد يرفع قيمة اللاإحتمالية إلى قيم لا نهائية ، لكن لنفترض أن هذا الاحتمال نسبته واحد على مليار

والمصادفة العاشرة: هي أن تحدث جميع المصادفات السابقة بالترتيب الذي ذكرناه بالضبط ، أي لا تحاول مثلاً عوامل التعرية والحرارة والضغط إدخال أسطوانة الكربون في القطعة الخشبية قبل أن تكون هذه العوامل عبر ملايين السنين قد أنهت مهمة قطع فرع الشجرة ثم تقليمه بالطول و القطر الخارجي المناسبين ثم ثقبها بالقطر الداخلي المطلوب وهو ٢ مم ، أو قبل أن تكون هذه العوامل قد أنهت مهمة ضبط القطر الخارجي لأسطوانة الكربون بمقدار ٢ مم عبر ملايين السنين أيضاً ، و إلا فإن العملية كلها ستفشل ، ما هي نسبة احتمال حدوث هذه المصادفة (أي ترتيب وتسلسل الأحداث ؟) هل نفترض أن هذا الاحتمال الصعب يمكن حدوثه بنسبة واحد على مليار مليار ؟

أليس هذا معناه أن هذه الفرضية ليست لا احتمالية بشكل كبير وإنما مستحيلة الحدوث؟ لأننا في الحقيقة لا نحتاج إلى مصادفة واحدة وإنما إلى عدد هائل من المصادفات كل منها تكاد تكون مستحيلة الحدوث؟

والأمر الأكثر استحالة هو أن تتفق هذه المصادفات فيما بينها على أن تحدث في وقت واحد ومكان واحد وبترتيب معين ليتم في النهاية تشكيل القلم برغم أنه من المستحيل أن تملك ذرة

الكربون أو قطعة الخشب المستقيمة أو قطعة الحديد أو المطاط أدنى فكرة عن المنتج النهائي وهو القلم الرصاص ولا عن استخداماته ، **(هل هناك مصادفات عاقلة وذكية ؟)**

هذا ما نحاول إقناع الملحدين به ، ظهور قلم رصاص في الكون يحتاج إلى (مصمم) و إلى (غاية) يسعى إليها هذا المصمم و إلى (قرار) من هذا المصمم عند بدء العمل وعند كل خطوة من خطوات تشكيل هذا القلم ، والقرار بالتأكيد لن يصدر من داخل ذرة الكربون ولا من قطعة الحديد أو المطاط مهما طال الزمن لأنها أشياء غير عاقلة وغير غائية، وحتى لو حاولنا تطبيق قاعدة الدكتور ريتشارد و حاولنا البحث عن سلاسل بطيئة جداً للتطور و بحثنا عن جذور التطور في الكيمياء غير الحية فلن يظهر قلم رصاص للوجود بدون مصمم مهما رفعنا وعينا بالانتخاب الطبيعي أو بأي شيء آخر

هل يختلف الملحدون معنا في ذلك ؟

والآن : إذا كان الملحدون لا يستطيعون إنكار أن التعقيد الموجود في أول عنصر قابل للتوارث أكبر بملايين المرات من التعقيد الموجود في القلم الرصاص ، وقد رأينا عدد المصادفات اللازمة لظهور هذا القلم ، والتي تبلغ نسبة اللاإحتمالية في كل منها على حدة قيماً لا نهائية ، فكم هو عدد المصادفات اللازم حدوثها في الزمان والمكان نفسيهما لظهور العنصر القابل للتوارث ؟

هذا ما قصدناه من قولنا : إن تصور د: ريتشارد للظهور التلقائي لأول جزيء قابل للتوارث من الجزيء المادي كحدث واحد يمكن أن يحدث لمرة واحدة وعلى كوكب واحد من مليار مليار كوكب هو تصور غير صحيح من وجهة النظر العقلية ، لأنه في الحقيقة ليس حدثاً واحداً على الإطلاق بل هو أحداث كثيرة متسلسلة تحتاج إلى آلاف الخطوات المتزامنة و المتداخلة و التي لن تحدث بدون مصمم يعرف ماذا يفعل ولماذا ؟

المشهد الأخير :

في المثال الذي ذكرناه – مثال القلم الرصاص - قصدنا تبسيط المسألة بقدر ما نستطيع ومع ذلك لم ينجح هذا التبسيط في إقناعنا بإمكانية حدوث هذا الحدث البسيط تلقائياً ، **ولكن في الحقيقة إن هذا الحدث ليس بسيطاً على الإطلاق** ، فالمسألة أعقد مما نتصور بكثير، لأننا تحدثنا عن تشكيل أسطوانة من الكربون من مجموعة ذرات من العنصر نفسه بعد أن تخطينا مراحل كثيرة أعقد بكثير من الخطوات التي ذكرناها وأولها مرحلة إيجاد كل من ذرات الكربون والشجرة التي انفصلت عنها قطعة الخشب، وهذا يجعل اللا احتمالية ترتفع إلى قيم لانهائية، لأننا في الحقيقة بدأنا **بالمشهد الأخير من المسرحية** ، وهو مشهد وجود كوكب الأرض الذي يحتوي على كل العناصر الصالحة لنشأة واستمرار الحياة النباتية بكل تعقيداتها حتى يمكن أن يتصادف وجود تلك الشجرة في ذلك المكان بالإضافة إلى كل ما ذكر د: ريتشارد عن ثوابت مارتن ريس الستة التي لولاها لما وقع هذا الكوكب في نطاق القفل الذهبي ولما تمكن من الاحتفاظ بعنصر هام مثل الكربون

هذا هو أهم ما في الموضوع، إن الدليل الإحصائي الذي تمسك به د: ريتشارد هو في **حقيقته دليل ضد الملحدين وليس لمصلحتهم**، لأنه ارتكز على المشهد الأخير من المسرحية وهو

المشهد الذي جاء بعد ثلاثة عشر مليار عاماً، فهو يبدأ من حيث انتهى خلق الكون وأصبح هناك عدد من المليارات من الكواكب يكفي – في نظر الملحدين - لكي يؤمن حدوث مصادفة لها عدم احتمالية كبير جدّاً، لكن السؤال الأهم الذي تجاهله الملحدون – ولا عذر لهم في تجاهله – هو أن الكون الذي بدأ بالانفجار العظيم من جسم واحد متفرد يسمى "Singularity" يحوي قدراً لا نهائيّاً من الطاقة والضغط والحرارة، لا بد وأن يكون هناك من خلقه وأودع فيه كل هذا القدر اللانهائي منها، ثم قدر لهذا الجسم المتفرد أن يبدأ في الانفجار العظيم في اللحظة المحددة ليستدعي هذا الكون إلى الوجود وفقاً لعدد هائل من القوانين الفيزيائية الدقيقة التي تحكمت ووجهت حدوث الأحداث المتتابعة عبر كل جزء من أجزاء من الثانية حتى زمن بلانك

بالطبع لا يستطيع السيد ريتشارد تطبيق الدليل الإحصائي لتفسير وجود هذا الجسم المتفرد بكل ما يحويه من طاقة وضغط وحرارة عن طريق المصادفة ، لأنه لم يكن هناك المليارات من هذا الجسم المتفرد لكي تضمن حدوث مصادفة أخرى منذ ثلاثة عشر مليار سنة لأحد هذه المليارات من الأجسام المتفردة تؤدي إلى خلق الكون، ولكي نسير مع الملحدين إلى آخر الطريق فسوف نفترض أنه ليس هناك ما يمنع من وجود المليارات من هذا الجسم المتفرد في ذلك الزمان السحيق وأن هناك عدداً كبيراً من الأكوان طبقاً لنظرية الأكوان المتعددة التي بدأت تنتشر في الأوساط العلمية ، والآن فإن السؤال البدهي يطرح نفسه بإلحاح: من الذي أوجد تلك المليارات من الأجسام المتفردة التي أنتجت كوننا و الأكوان الأخرى على فرض أن هناك بالفعل أكواناً أخرى متعددة؟

بذلك نكون قد وصلنا إلى النتيجة التي لا مفر منها، وهي أن حدوث مصادفة لها نسبة لاإحتمالية عالية يحتاج إلى توفر مليارات من الظروف المتشابهة لمجموعة من المواد التي لها وجود حقيقي لكي يمكن عن طريق الدليل الإحصائي مدعوماً بالمبدأ الإنتروبي أن نتصور حدوث هذه المصادفة بالفعل في أحد هذه الظروف دون غيرها ، ولكن في الوقت نفسه سنحتاج إلى الإجابة على السؤال المحوري: من أين جاءت هذه المليارات من المواد الأخرى التي لم يسعدها الحظ لحدوث المصادفة لها والتي كانت لازمة لتأمين نجاح الدليل الإحصائي؟ وبذلك يتبين بالدليل الدامغ أن المصادفة لا يمكن أن تنجح في تفسير نشأة أي شيء في الوجود لأنها لا تحدث مطلقاً إلا عندما تتوفر أعداد هائلة من الموجودات التي لا نستطيع أن نهرب من السؤال عنها "من الذي أوجدها"، و عليه فإن المصادفة تأتي دائماً **في المشهد الأخير** وبعد إعداد المسرح بوقت طويل

إن التناقض والسطحية اللذين تتضمنهما نظرية المصادفة كمصدر لأول خلية حية على الأرض يجعلها من أكثر النظريات التي عرفها البشر من حيث البطلان

إن الحقيقة التي لا يقبل العقل غيرها هي أنه ليس هناك شيء في الكون له وجود حقيقي مهما كان صغيراً يمكن أن ينشأ بالمصادفة ، لأن أصغر الأشياء تخفي وراءها تعقيدات ضخمة تشدنا بقوة إلى الأصول التي انحدرت عنها والتي في النهاية ستوصلنا إلى الأصل الأول الذي لولاه لما انبثق شيء للوجود من العدم ، ذلك الأصل هو **الله سبحانه وتعالى** الذي خلق وأبدع كل ما في الوجود من جمال وفن وتناسق يبهر العقول ، إن المصادفة كلمة ليس لها وجود حقيقي على أرض الواقع و الملحدون الذين يتمسكون بها هم في الحقيقة يزيدون الأمر تعقيداً على أنفسهم

قبل غيرهم ، ولكن ما لا يعلمه فلاسفة الإلحاد أن إنسان العصر الحجري لم يكن عنده أي حجة ينكر بها وجود الإله إلا هذه الحجة نفسها (المصادفة) لذلك يجب أن يفيق كل من يظن أن الإلحاد مبني على أساس من الأدلة العلمية، **هذه أكبر خدعة عرفها الإنسان** لأن الملحدين – دون أن يشعروا - يجاهدون بكل ما أوتوا من قوة لكي يعيدونا إلي العصر الحجري لنعيش عيشة الحيوانات التي يظنون أنها أبناء عمومتنا بزعم أنه لا يوجد خالق ولا دين ولا يوم للحساب

كلمة من القلب :

إن مثال القلم الرصاص بالإضافة إلى استدلالات السير انتوني فلو توضح لكل انسان منصف أن الأدلة على وجود الخالق العظيم أكثر من أن تحصى وليس كما قال السيد بيرتراند راسل موضحاً سبب عدم إيمانه بالإله أنه (عدم كفاية الأدلة)، فحين تمسك بالقلم الرصاص بيدك فإن عقلك يهتف من داخلك قائلاً لك (ليس في الوجود شيء جاء بالمصادفة فكل موجود له من أوجده بدءاً بالقلم الصغير – كما رأينا - وانتهاءً بالكون)، ستسمع هذا الصوت يصدر من كل ما حولك وسترى عظمة الله سبحانه وتعالى في كل ما حولك، في جمال الطيور وروعة الأشجار وعظمة النجوم وصفاء الأنهار والدقة الباهرة في الحشرات والكائنات الصغيرة لكن فقط عليك أن تنزع النظارة السوداء حتى تستطيع أن ترى النور

هذا المعنى نفسه – أي كثرة الشواهد على وجود الخالق سبحانه وتعالى- جاء في كتاب السير أنتوني فلو "هناك إله" حيث يقول تحت عنوان (البراهين قريبة منا) كما نقله عنه في كتاب رحلة عقل د : عمرو شريف :

(نحن لا نتحدث هنا عن احتمالات وفرضيات، ولكن نتحدث عن حقائق يؤدي إنكارها إلى الكثير من التضارب في نظرتنا لأنفسنا وللوجود من حولنا ، لذلك نقول إن الإلحاد لا ينشأ عن غياب الشواهد ولكن ينشأ من رفض الملحدين لأن يتأملوا أنفسهم والدائرة القريبة المحيطة بهم، من أجل أن تدرك إلى أي مدى تكون الشواهد على الألوهية لصيقة بنا فلنجر هذه التجربة :

فكر لدقيقة واحدة في المنضدة الرخامية المقابلة لك، هل تتصور أنه من الممكن خلال مليار عام أو خلال فترة لا حدود لها أن تكتسب هذه المنضدة عقلاً يجعلها واعية بما يحيط بها ومدركة لذاتها على الشكل الذي ندرك به ذواتنا ؟ لا شك أننا ببعض المعرفة بطبيعة المادة وقوانينها نجزم باستحالة ذلك

لكن للملحدين رأياً آخر، إنهم يعتقدون أنه في لحظة ما من الماضي دبت الحياة في بعض المادة غير الحية ، ثم أصبحت واعية ، ثم اكتسبت القدرة على أن تفكر وأن تدرك ذاتها وتقول " أنا ")[١]

ونختم الفصل الأول بملاحظة هامة عن "العمالقة" :

[١] - أ د : عمرو شريف ، (رحلة عقل) ، الطبعة الخامسة ، مكتبة الشروق الدولية ، صفحة ١١١

فمن المعطيات التي لدينا – كمسلمين - نعلم أن آدم عليه السلام كان طوله ستين ذراعاً أي ما يقارب الأربعين متراً، كما أن القرآن الكريم أشار إلى أن نوحاً عليه السلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وهو بالطبع لا يمكن أن يعيش هذا العمر الطويل ببنيتنا الجسدية التي لا تزيد على ستة أقدام طولاً ومائة وخمسين كيلو جراماً وزناً، ونحن نرى المعمرين في زماننا وقد تخطى بعضهم المائة والعشرين سنة ولكن أجسادهم تنطق بأنها أجساد غير قابلة للاستمرار في الحياة لعام آخر وليس إلى ألف عام ، ومن ثم فإن حقيقة الحجم الهائل الذي كان يتمتع به أجدادنا والذي ظل يتناقص مع مرور الزمن هي حقيقة واقعة سوف يثبتها العلم قريباً إن لم يكن علم الأحافير قد أثبتها بالفعل، فسواء كانت الصور التي تملأ المواقع الالكترونية لهياكل عظمية عملاقة لبشر مثلنا مفبركة أو غير مفبركة فإن هذا لن يغير من حقيقة وجود الأجداد العمالقة - الذين كانوا يتمتعون بكل الصفات التي نتمتع بها من الذكاء والتفكير والإبداع – شيئاً ، و ربما كان الدليل موجوداً بالفعل لكن بعض علماء التطور يحاولون إخفاءه كما حدث في شائعة إنسان بيلتداون التي أكد د: والت براون أنها كانت أكذوبة كما ذكرنا منذ قليل

وهنا يصبح لدينا حقيقتان هامتان جدّاً:

الأولى : هي أن عمر البشر على سطح الأرض يعد بمئات الألوف – وربما بالملايين - وليس بالألوف، لأن الإيمان بأن نوحاً عليه السلام عاش ألفاً ومائتي عام بحسب ما جاء في العهد القديم ثم الإيمان بأن بين نوح وبين المسيح عليه السلام أربعين جيلاً – حتى لو صدقنا ذلك – فإن عمر الكون المحدد في الكتاب المقدس بخمسة آلاف وثمانمائة سنة يصبح من قبيل الإيمان بالمتناقضات والمستحيلات

والثانية: هي أن نظرية وجود جد مشترك لنا وللقرود تصبح باطلة ومتصادمة مع الحقائق العلمية بنسبة مائة بالمائة، بل ستنهار كل الأدلة التي تدعم صحة نظرية دارون ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن إثبات وجود هذا الجد العملاق سيجعل مصير نظرية التطور وخاصة فيما يخص الجنس البشري هو نفس مصير نظرية مركزية الأرض ونظرية تكون الجنين من تجلط دم الحيض اللتين صدقهما البشر لمدة ألفين وأربعمائة عام، وعندها سيصبح مصير كل الكتب والمراجع والمحاضرات التي جعلت من هذه النظرية أسطورة علمية ومعياراً لقياس الذكاء الإنساني و الحضاري، و دليلاً كذلك على أن الإله الخالق هو وهم ، هو نفس مصير كل الأدلة الساذجة التي تمسك بها الملحدون في العصر البرونزي

الفصـــل الثـــاني

فرضية الإله

الفصـــل الثـــــاني

فرضية الإله

تحدثنا في الفصل السابق عن الخطأ الأول الذي وقع فيه د : ريتشارد في كتابه "وهم الإله" والآن نتحدث عن الخطأين الثاني والثالث:

الخطأ الثاني: د . ريتشارد يفرض قوانينه على الإله:

الخطأ الثاني هو ذلك السجن المحكم الإغلاق الذي يضع د : ريتشارد – وكل الملحدين - عقله بداخله عند كل مناسبة يتحدث فيها عن الإله، ذلك السجن هو تلك التصورات البشرية الساذجة لما يجب أن يكون عليه الإله الذي نبحث فرضية وجوده، وسوف أكتفي **هنا بمثالين** مما ورد في كتاب وهم الإله يجسدان حجم المشكلة :

- **ورد المثال الأول** عندما تحدث عن فرضية الإله في الفصل الثالث قائلاً :

(أي قدرات على الخلق بتعقيد كاف لتصميم أي شيء لا تأتي إلا كنتيجة تراكم تدريجي طويل الأمد لعملية تطورية ، أي تطورات للقدرات الخلقية يجب أن تكون بالضرورة قد حدثت في وقت متأخر من تاريخ الكون وبالتالي لا يمكن أن تكون مسئولة عن تصميمه، بهذا المعنى سيكون الإله وهماً وفي فصل أخر سأبين أنه وهم خبيث أيضاً)[1]

والسؤال الآن: من الذي وضع هذه القوانين الصارمة للإله الذي خلق ثلاثمائة مليار مجرة ويقبض عليها في قبضة يمينه – وهي ليست كيمين البشر - ليسير عليها ، وما الذي يوجب على الله أن يكون قد تكون عبر قوانين التطور التي افترض وجودها عالم من البشر يعيش على سطح كوكب لا يستطيع الصفر الرياضي أن يعبر عن حجمه بالنسبة لحجم الكون الواقع في قبضة يمين هذا الإله؟ هل هذا كلام العلماء ؟ وهل العلم يسمح بكل هذا القدر من الخيال والاستخفاف بالعقول؟

لتوضيح حجم المشكلة في هذا الخطأ القاتل نحاول أن نتخيل أن أحدث كمبيوتر في العالم استطاع أن يعقل ويفكر مثل العقل البشري ولو بنسبة محدودة واستطعنا التواصل معه وطرحنا عليه السؤال التالي: هل تعتقد أن أصل وجودك هو إنسان فائق الذكاء وأنه لفرط ذكائه استطاع أن يصمم كل جزء فيك ليؤدي دوره المحدد في منظومة العمل الذي تقوم به ؟ نتخيل الآن أن هذا الكمبيوتر سيجيب علينا بالإجابة التالية :

لا أستطيع أن أتصور ولا أن أؤمن بوجود مخلوق من وراء الطبيعة – التي هي بالنسبة للكمبيوتر مجموعة من الأسلاك والدوائر الكهربائية وشرائح السيلكون والحديد والبلاستيك- ولست على استعداد لأن أتخيل أي مصمم ذكي لا ينتمي إلي العالم الذي تستطيع حواسي إدراكه ، لذا فهذا الإنسان الذي أتى من وراء الطبيعة ولا أعرف كيف جاء ما هو إلا وهم لا وجود حقيقياً له، ثم يكمل أدلته الذهبية على نفي وجود الإنسان بشكل قاطع قائلاً : **(أي قدرات على الابتكار بتعقيد كاف لتصميم وصنع كمبيوتر متطور مثلي لا تأتي إلا كنتيجة لعملية تصنيع**

[1] - ريتشارد دوكنز ، كتاب (وهم الإله) ، الطبعة العربية الثانية ، ترجمة بسام البغدادي ، صفحة ٣٣ ، سطر ٢

طويلة ومتدرجة تبدأ بتصنيع قطع من الحديد والكربون وشرائح السيلكون والألمونيوم والزجاج والبلاستيك وتشكيلها إلى شرائح دقيقة بحيث يأخذ كل منها شكلاً معيناً ثم تثبت جميعاً في لوحة واحدة و يتم تركيب الدوائر الكهربائية وأخيراً تتم مرحلة البرمجة التي ستمكنه من الابتكار والتصنيع)

ثم يمضي الكمبيوتر العبقري في طرح الدليل تلو الدليل على أن احتمال ظهور كل أجيال الكمبيوتر بالصدفة أكبر بكثير من احتمال وجود المصمم الذكي المسمى بالإنسان وتكون أدلته على النحو التالي (طبقاً لما قرأناه في كتاب وهم الإله عن الصفات الواجب توافرها في الإله) :

- أي إنسان قادر على تصميم جهاز كمبيوتر بشكل دقيق وببصيرة كاملة عليه أن يكون على درجة عالية من التعقيد واللا احتمالية مما يجعل وجوده يحتاج إلى شرح أكبر من الذي يفترض أن يقدمه
- وهذا المصمم الذكي – لو كان حقاً موجوداً فالواجب عليه أن يكون له بليون بليون أصبع ليضع كل أصبع علي دائرة من الدوائر الكهربائية لجميع أجهزة الكمبيوتر المنتشرة في أنحاء العالم حتى يستطيع ضبط عملها
- وحتى إذا حقق كل ما سبق فإن اللا احتمالية في وجوده أكبر بكثير من احتمالية وجوده لأنه في الحقيقة ليس هناك حاجة لوجوده أصلاً إذا استطعنا رفع وعينا إلى درجة كبيرة وفهمنا أن صنع كمبيوتر ذكي مثلي يمكن جدّاً أن يتحقق بقيام كمبيوتر آخر ماهر – بعد رفع ذكائه تدريجيّاً وإعطائه الوقت الكافي – بتصميم أجهزة كمبيوتر حديثة وتصنيعها وبرمجتها وتشغيلها دون أي تدخل من هذا الإنسان وبذلك يصبح الإنسان بلا جدوى، لا ارتباطات، عاطلاً عن العمل، كسولاً، زائداً عن الحاجة ، عديم الفائدة ،

هذا بالضبط ما فعله د : ريتشارد داوكنز حين أراد إن يسوق الأدلة على عدم وجود الإله الخالق، لقد أراد أن يخضع الإله الذي خلق ما يزيد على ثلاثمائة مليار مجرة لنظرية دارون التي تتحدث عن تطور كائنات حية تعيش على كوكب لا يمثل حجمه بالنسبة لما خلقه هذا الإله القادر العليم حجم إلكترون الذرة بالنسبة لحجم الشمس،

كيف يمكن أن نشرح للملحدين أن خالق الكون لا يمكن أن تنطبق عليه قوانين البشر كما أن الإنسان لا يمكن بحال أن تنطبق عليه قوانين جهاز الكمبيوتر ؟ و كيف يمكن إقناعهم بأن جهاز الكمبيوتر مهما كان متطوراً لا يملك أن يقول : يجب على الإنسان أن يكون كذا وكذا حتى أعترف بوجوده و أصدق أنه هو المصمم الذكي الذي أخرجني للوجود

وكيف يمكن أن نشرح للملحدين أن الكمبيوتر لا يستطيع أن يصمم و يصنع ويشغل كمبيوتراً مثله ولذلك فإن الله عز وجل غير مادي ولو كان مادياً لما استطاع أن يخلق هذا الكون الرائع ، و أنه لا يشبه أيّاً من مخلوقاته ، وليس هناك من هذه المخلوقات من يستطيع الإحاطة بذات هذا الإله إلا ما أخبرنا به عن نفسه ، لقد توصل إلى هذه الحقيقة البدهية الفيلسوف الأكبر أرسطو منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، والآن وفي القرن الحادي والعشرين ما زال فلاسفة الإلحاد عاجزين عن فهم ما توصل إليه ذلك الفيلسوف العظيم، ولننظر كيف نقل عنه السير انتوني فلو- في كتابه "هناك إله" تحت عنوان (خاتمة المطاف) هذه البدهية العقلية حيث قال :

(أتفق فيما توصلت إليه من صفات للإله مع ما طرحه الفيلسوف الإنجليزي الكبير ديفيد كونواي في كتابه "العودة إلى الحكمة" ونتفق معاً على صفات الإله التي توصل إليها الفيلسوف الأكبر والمعلم الأول أرسطو منذ ٢٥ قرنا من الزمان والتي يحددها بقوله :

(إله واحد أحد ، واجب الوجود ، غير مادي ، لا يطرأ عليه التغيير ، مطلق القدرة ، مطلق العلم ، كامل الخير)

(ويضيف كونواي قائلاً : لقد أنجزت الفلسفة مهمتها الأساسية بنجاح عظيم عندما توصلت إلى تفسير نشأة الوجود بوجود العقل المطلق العلم والمطلق القدرة الذي هو الإله الخالق الذي خلق الكون ليكون معدّاً لاستقبال المخلوق العاقل الحكيم الذي هو الإنسان)

ينبغي أن أقر هنا أن توصلي – وكونواي وأرسطو – إلى وجود الإله وصفاته كان عن طريق العقل دون الحاجة إلى تدخل يخرق قوانين الطبيعة من وحي أو معجزات كما يحدث في الأديان السماوية، لقد كان توصلي إلى وجود الإله وإلى بعض صفاته رحلة عقل وليس رحلة إيمان)[1]
هذا كلام رجل ذكي هداه العقل وحده إلى وجود الخالق عز وجل

أما المثال الثاني : فقد ذكره د : ريتشارد في الفصل الرابع عندما تكلم عن " الصعود إلى جبل اللا احتمال " حيث قال :

(في كتابي الصعود إلى جبل اللا احتمال أوضحت هذه النقطة بمثال، تخيل جبلاً أحد طرفيه منحدر بشكل حاد من المستحيل تسلقه والطرف الآخر منحدر بشكل متدرج لطيف حتى القمة، في القمة يجلس نظام معقد كالعين مثلاً أو البكتيريا ذات المحرك المروحي، الفكرة السخيفة بأن تعقيداً كهذا يتجمع بشكل آني يرمز بالانتقال من وادي الجبل إلى قمته بقفزة واحدة ، التطور على العكس من ذلك يذهب حول الجبل من الناحية الأخرى ويصعد المنحدر البطيء زحفاً ، بسيط أليس كذلك ؟ مبدأ الصعود البطيء مقارنة بالقفزة الواحدة مبدأ بسيط جدّاً لدرجة تدفعنا للتعجب عن السبب وراء كل هذا الوقت حتى أتى أحد ما كداروين على المسرح واكتشفه)[2]

ثم يقول بعد ذلك بقليل (الحياة الحقيقية تبحث عن المنحدر اللطيف خلف الجبل اللا احتمالي في حين أن الخلقيين عميان عن كل ذلك ويركزون على المنحدر القاسي في المقدمة) وفي آخر الفصل الرابع يقول (والقاعدة هي العمل كرافعة من الأسفل إلى الأعلى وليس بالعكس كخطاف سماوي) ثم يلخص الفصل الرابع في ست نقاط ويذكر ما يأتي (ونحن هنا بحاجة لرافعة وليس لخطاف سماوي لأن الرافعة وحدها تستطيع العمل بتدرج معقول التصديق من بداية بسيطة لنهاية معقدة عظيمة اللا احتمالية)[3]

والسؤال المنطقي الآن : من الذي وضع القاعدة الذهبية هذه ويريد أن يلزم بها خالق ثلاثمائة مليار مجرة ؟ المشكلة الكبرى عند الملحدين أنهم غير قادرين على الخروج بعقولهم من سجن التصورات المحدودة بحدود كوكب الأرض، علينا جميعا أن نفهم حجمنا الحقيقي في هذا الكون، فلو علمنا حجمنا الحقيقي بالنسبة للكون الذي نعيش فيه فربما استطاع الملحدون أن يحرروا

[1] - نقلاً عن كتاب (رحلة عقل) للدكتور عمرو شريف ، صفحة ٧٧
[2] - د : ريتشارد دوكنز ، (وهم الإله) ، الطبعة العربية الثانية ، ترجمة بسام البغدادي، صفحة ١٢٣، سطر ١٢
[3]- المرجع السابق صفحة ١٦٠

عقولهم من ذلك السجن الرهيب الذي سجنوا فيه عقولهم ورفضوا كل المحاولات الساعية إلى تحريرهم ، وسأحاول أن أشرح هذه المسألة بمثال بسيط : لو أنك استطعت أن تتواصل مع نملة من النوع الذي يزرع عيش الغراب تعيش في أحدى الغابات وأخبرتها أن الإنسان استطاع أن يطلق صاروخاً إلى الفضاء وأن هذا الصاروخ استطاع أن يخرج من نطاق الجاذبية الأرضية ويهبط على سطح القمر، تخيل لو أنها قالت لك : (لا أستطيع أن أصدق ذلك لأن صاروخاً مثل هذا لا يستطيع فعل ذلك إلا إذا أكل في معدته جميع ما على سطح الأرض من عيش الغراب) بماذا يمكن أن ترد عليها ؟ هذا بالضبط ما فعله د : ريتشارد في محاولة إلزام الخالق الذي خلق الكون كله بنظريات أرضية ، مثل أنه لا بد أن يكون قد أتى عبر تراكمات تطورية كالتي افترضها داروين ، أو مثل القاعدة التي اخترعها والتي تقول (القاعدة هي العمل كرافعة و ليس كخطاف سماوي) ويصر على أن هذه القواعد هي القواعد الصحيحة ، وأن من ينكرونها هم جهلة عميان أغبياء ، هكذا بدون أي دليل علمي أو حتى غير علمي ، ويجب أن ننبه هنا إلى أن حجم النملة بالنسبة لحجم الصاروخ أضخم بكثير من حجم الإنسان ليس بالنسبة للخالق عز وجل ولكن بالنسبة لحجم الكون الواقع في قبضة يده، لكن من يستطيع أن يقنع الملحدين أن الصاروخ الذي هبط على القمر لا يأكل عيش الغراب؟

<u>الخطأ الثالث: تجميد العقل داخل مترابطات لا منطقية :</u>

تخيل لو أن النملة المذكورة في المثال السابق أجابت الإجابة التالية بدلاً من الإجابة التي ذكرناها : (لا أتصور وجود هذا الصاروخ القادر على الهبوط على سطح القمر ، لأن مثل هذا الشيء يجب أن يكون على درجة كبيرة من التعقيد تحتاج إلى شرح ديناصوري ويثير مشكلة أكبر من التي يشرحها – من أين جاء ؟ ومن صممه ؟ لذا فإن وجوده وهم كبير)

وكما في مثال الكمبيوتر الذي شرحناه (أي إنسان قادر على تصميم جهاز كمبيوتر بشكل دقيق وببصيرة كاملة عليه أن يكون على درجة عالية من التعقيد واللا احتمالية مما يجعل وجوده يحتاج إلى شرح أكبر من الذي يفترض أن يقدمه وبناءً عليه فإن وجود هذا الإنسان وهم كبير)

يتكرر في هذين المثالين المنطق الخاطئ نفسه الذي يربط بين قضية الوجود الإلهي وقضية عدم معرفة مصدر هذا الوجود (من أين جاء ؟) في مترابطة لا منطقية تجعل فلاسفة الإلحاد يتوقفون عن التفكير في أي شيء يخص الخالق بحجة عدم معرفة (من خلق الخالق) ؟ ولننظر الآن إلي ما جاء في كتاب وهم الإله لنعرف حجم المشكلة:

- في تعليقه علي التعقيد الكبير في زهرة غليون الهولندي كتب د : ريتشارد داوكنز : (الأناقة المعقدة للزهرة تدفع بكاتب برج المراقبة للتساؤل : هل حدث ذلك بالمصادفة ؟ أم أنها بسبب التصميم الذكي ؟ ومرة أخرى ، لا بالطبع لم تحدث مصادفة، ومرة أخرى التصميم الذكي ليس البديل الصحيح للمصادفة، الانتخاب الطبيعي ليس فقط حلاً اقتصادياً معقولاً، وأنيقاً، بل إنه الحل الفعال الوحيد الذي تم طرحه حتى الآن كبديل للمصادفة المقترحة منذ الأزل ، التصميم الذكي يعاني من نفس مشكلات فرضية المصادفة ، ببساطة هو ليس حلاً معقولاً لمشكلة اللا احتمالية العالية ، فكلما علا

مستوى اللا احتمالية أصبحت نظرية التصميم أقل احتمالية ، بل إنه سيقوم بمضاعفة المشكلة من الأساس، ومرة أخرى المشكلة التي يثيرها المصمم نفسه (أو نفسها) هي أكبر **وكيف وجد أساسا** ، أي شيء قابل لتصميم شيء غير محتمل كغليون الهولندي (أو الكون) سيكون أقل احتمالاً من الغليون الهولندي)[1]

- وفي تعليقه على الثوابت الستة التي ذكرها مارتن ريس يقول د: ريتشارد (المؤمن يقول بأن الله عندما صمم الكون فإنه وضع هذه القيم لهذه الثوابت الأساسية بحيث أن كلاً منها يقع داخل نطاقه الذهبي لإنتاج الحياة، وكأن الله عنده ستة أزرار يديرها لضبط المقدار الخاص بكل ثابت ليقع في نطاقه الذهبي، وكالعادة فإن جواب المؤمن غير مقنع **لأنه يترك موضوع وجود الله بغير شرح**)[2]

- وفي أخر الفصل الرابع يقول (فرضية المصمم تثير فوراً السؤال الأكبر عن **مصدر** المصمم نفسه)

- وفي تعليقه على مثال طائرة البوينج ٧٤٧ الكبرى يقول (والحل يوضح أن دعاة فرضية الله هم الذين يحاولون الحصول على شيء من لا شيء والله يحاول الحصول على غداء مجاني بأن يكون هو نفسه ذلك الغداء، ومهما كان الموضوع الذي تحاول تفسير حدوثه بربطه بالمصمم قليل احتمال الحدوث إحصائيّاً فإن المصمم نفسه يجب أن يكون قليل الاحتمال على الأقل بنفس النسبة، الله هو البوينج ٧٤٧)[3]

وللرد على هذه الحجة الواهية عندنا **أربع** نقاط :

النقطة الأولى: (من خلق الخالق):

هل هذا السؤال الذي ورد في كتاب وهم الإله مراراً يمكن أن يصدر عن عقل واع لما يقول ؟ لو كان هناك من خلق الإله أو أوجده بأي طريقة فهل يكون هذا الإله خالقاً أم مخلوقاً ؟ أليست عبارة (من خلق الخالق) هي عبارة متناقضة مع العقل بنسبة مائة بالمائة ؟ هل هناك من هو خالق ومخلوق في الوقت نفسه؟ أليس هذا مثل قولنا عن شيء ما إنه (أبيض وأسود في الوقت نفسه ؟) أو (طويل جدّاً وقصير جدّاً في الوقت نفسه؟) هل عقول العلماء الكبار أمثال السيد ريتشارد يمكن أن تحتوي على مثل هذا التناقض ؟

ومن ناحية أخرى : هل لو كان هناك من أوجده أليس سيكون هذا الموجد أحق بأن يكون هو الإله ؟ وعندما نقول أن من أوجد الإله هو أحق بالألوهية منه أليس فلاسفة الإلحاد سيطرحون السؤال نفسه ويقولون (من الذي خلق من خلق الإله؟) وهكذا فإن السؤال لن يتوقف وسيظل يتكرر بلا نهاية إلا إذا كان هناك من سيوقف السلسلة اللانهائية ويتصف بأنه هو الإله الذي لا موجد له والذي يسميه الفلاسفة بالسبب الأول أي الذي منه بدأ الوجود

[1] - ريتشارد دوكنز ، (وهم الإله)، الطبعة العربية الثانية ، ترجمة بسام البغدادي ، صفحة ١٢١
[2] - نفس المرجع ، صفحة ١٤٥
[3] - نفس المرجع ، صفحة ١١٥

ولكي نوضح مدى ما يحويه هذا السؤال "من خلق الخالق؟" من تناقض نذكر الأمثلة التالية:

نعلم جميعاً أن أهم دور للماء في حياتنا هو أنه يروي ظمأنا و ظمأ كل المخلوقات ، فلو قال لك واحد من الناس: **الماء يروي كل المخلوقات ، فمن يروي الماء؟** هل هذا سؤال منطقي؟ وبالمثل إذا قال لك: **النار تحرق كل الأشياء فماذا يحرق النار؟** هل هذا سؤال منطقي؟ وكذلك : الهواء تتنفسه الكائنات الحية **فماذا يتنفس الهواء؟** هل هذا سؤال منطقي؟ وكذلك : الضوء ينير لنا ويبدد الظلام **فمن ينير للضوء؟** هل هذا سؤال منطقي ؟

إن التناقض الذي يحتوي عليه هذا السؤال هو أنه ساوى بين السبب "الأصل" وبين نتيجة من نتائج هذا الأصل، فالماء هو الموجود الأصلي الذي له هيئة وصفة محددة تجعله يكتسب اسم "الماء" لكن الإرواء وإزالة العطش هو نتيجة من نتائج عمل هذا الماء ، والماء ليس بحاجة لمن يمارس معه هذه النتيجة ويقوم بإزالة عطشه لأنه ببساطة **(لا يصيبه العطش) برغم أنه يزيل عطش جميع المخلوقات**، والنار هي الموجود الأصلي الذي له صفات محددة تكسبه اسمه وأهمها درجة حرارته الهائلة، لكن الإحراق هو النتيجة الناشئة عن اقتراب هذه النار إلى الأشياء، والنار لا تحتاج لمن يمارس معها هذه النتيجة أي الإحراق **فهي التي تحرق كل شيء،** وبالطريقة نفسها فإن الهواء هو الموجود الأصلي في عملية التنفس لكنه لا يتنفس والضوء هو الموجود الأصلي في نشر النور لكنه لا يحتاج لمن ينير له الظلام

إن الله عز وجل لا يشبه مخلوقاته في أي شيء كما أخبرنا عن نفسه في القرآن الكريم في سورة الشورى بقوله سبحانه وتعالى **"ليس كمثله شيء وهو السميع البصير"**

فكما أن الماء لا يحتاج للشرب بل هو أصل الإرواء الذي بدونه تموت المخلوقات من الظمأ ، وكما أن النار ليس هناك ما يحرقها لأنها أصل الإحراق وبدونها تنعدم كل صور الطاقة في الكون وبالتالي يتلاشى من الوجود ، وكما أن الهواء لا يحتاج إلى التنفس بل هو أصل عملية التنفس وبدونه تنعدم عملية التنفس ، وكما أن الضوء لا يحتاج إلى النور لأنه هو أصل وجود النور وبدونه ينعدم النور، **كذلك فإن الخالق هو أصل كل المخلوقات الذي لا يشبه أحداً من خلقه ولا يحتاج إلى من يخلقه لأنه أصل كل الموجودات وبدونه سبحانه وتعالى ينتفي وجود كل شيء**

النقطة الثانية : مراوغة واضحة:

برغم أن هذه الحجة وردت في أغلب فصول الكتاب وفي كل مناسبة يأتي فيها ذكر التصميم الذكي إلا أننا جميعاً نعلم (وربما د: ريتشارد داوكنز أيضاً) أن هذا الكلام هو للمراوغة فقط وهو يمثل بالضبط التلميذ الذي كلما سأله المدرس سؤالاً علميّاً في مجال دراسته قال له: (لن أجيب حتى تخبرني من الذي عينك مدرساً في مدرستي ؟)

ولنقف هنا قليلاً لتوضيح هذه النقطة :

في الفقرة الأولى التي ذكرناها من كلام د: ريتشارد والتي علق فيها على التعقيد الموجود في نبتة غليون الهولندي، حاول خصومه أن يشرحوا أن التعقيد الموجود في هذه النبتة هو تعقيد متعذر الإنقاص بمعنى أنه لا يمكن أن يكون قد نشأ تدريجيّاً عن طريق التطور ويدللون بذلك

على وجود خالق تدخل بعلمه وقدرته لخلق هذا التعقيد، وسواء كان رأي خصومه صحيحاً (أي أن التطور لا يمكن أن يكون مسئولاً بمفرده عن هذا التعقيد) أو كان خطأ بمعنى أن التطور يمكن أن يؤدي تدريجيّاً عن طريق الانتخاب الطبيعي إلى الوصول إلى هذا التعقيد (وهذا بالطبع لا يلغي وجود الإله) فإن د: ريتشارد سلك طريقاً أبعد ما يكون عن العلم والعلماء ، لقد تكلم عن احتمالين لهذا التعقيد كلاهما مرفوض عنده الأول هو المصادفة وقد نفى أن تكون هي المسئولة كما قال (بالطبع لم تحدث مصادفة) ، كما نفى أن يكون التصميم (أي الله) هو الذي فعل (ومرة أخرى التصميم الذكي ليس هو البديل الصحيح للمصادفة) ، ثم يشرح أن الانتخاب الطبيعي هو الحل ، إلى هنا يعتبر كل كلام د: ريتشارد في رأي العلم ليس أكثر من (رأي شخصي من عضو في فريق يرجح صحة نظرية التطور التي لم تثبت علميّاً بعد) **وبدلاً من أن يستمر في النقاش بطريقة علمية ويشرح لنا كيف أن التصميم الذكي ليس هو الحل لمشكلة التعقيد في نبتة غليون الهولندي نراه ينحرف عن مسار النقاش إلى موضوع السؤال غير المنطقي (من خلق الخالق)** ، كما قال (ومرة أخرى المشكلة التي يثيرها المصمم نفسه أو نفسها هي أكبر وكيف وجد أساساً) أليست هذه مراوغة واضحة تشبه تماماً مراوغة التلميذ الذي ذكرناه قبل قليل؟

وبالطريقة نفسها ينحرف عن مسار النقاش في مسألة الثوابت الستة لمارتن ريس وبدلاً من أن يناقش الاحتمال بأن التصميم الذكي (أي خالق فائق القدرة والعلم) هو الذي خلق هذه الثوابت ، أو ينفي ذلك **بأدلة علمية** نراه يقفز إلى السؤال غير المنطقي (من خلق الخالق) وذلك حين قال (وكالعادة فإن جواب المؤمن غير مقنع لأنه يترك موضوع وجود الله بغير شرح)

وبالطريقة نفسها يكرر المراوغة في مثال الطائرة البوينج ٧٤٧ فالدكتور فريد هويل أراد أن يوضح بهذا المثال أن التعقيد الموجود في الطائرة لا يسمح بأي نسبة من الاحتمال بأن ينتج من ورشة الخردة ولا بعد مليار سنة لا بالمصادفة ولا بأي طريقة أخرى، ولأن التعقيد الموجود في الخلية الحية أكبر بكثير من التعقيد في طائرة البوينج لذا فإن احتمال نشأة الحياة من الجزيء المادي بالمصادفة يصبح مستحيل الحدوث بشكل قطعي ، ولكن د: ريتشارد رد على هذا المثال بإجابتين سطحيتين على النحو التالي :

الإجابة الأولى : نظراً لظنه أن المثال يقارن بين كائن حي كامل الخلقة و بين الطائرة البوينج ٧٤٧ بكل ما فيهما من تعقيد ، لذلك ذهب في سخريته إلى أبعد مدى ، وأخذ يشرح أن الانتخاب الطبيعي قادر على الوصول إلى أكبر تعقيد ممكن تصوره من أشياء غاية في البساطة والدقة ، لذلك فإن المنطقي عنده هو إمكانية تحول الجزيء المادي أولاً إلى خلية حية ثم عبر ملايين السنين ستصل الكائنات إلى مستوى التعقيد المماثل للطائرة البوينج ، وهذا يدل على أن الملحدين ما زالوا ينظرون إلى الخلية الحية على أنها كائن بسيط مكون من مجموعة من الأحماض الأمينية التي يمكن تخليقها في المختبر ، وهذا التصور هو سبب كل أخطائهم ،

إن مثال الطائرة البوينج لا يضع التعقيد الموجود بها نظيراً للتعقيد الموجود في الإنسان أو في الحيوانات الراقية ، و إنما يضع التعقيد الموجود فيها مناظراً لأقل درجة من درجات التعقيد في الكائن الحي ، بمعنى أن أول الكائنات الحية و أقلها حظّاً من التعقيد – والتي يظن الملحدون أن منها بدأ التطور – تمتلك في الحقيقة من التعقيد ما يزيد بأضعاف هائلة على التعقيد الموجود في

الطائرة البوينج ، وقد نقلنا في الصفحات السابقة بعض ما ذكره العلماء عن تركيب الخلية الهائل التعقيد وعن آلية عملها في ممارسة كل وظائف الكائن الحي حتى من الثدييات ، وبناءً على ذلك فإن تصديق تحول خردة الحديد إلى طائرة بوينج ٧٤٧ بفعل الرياح أسهل عند العلماء الذين يعرفون ما هي الخلية الحية من تحول بعض المركبات الكيميائية إلى خلية حية حقيقية ، لأنهم يدركون حجم الفارق الشاسع بين آلية التشفير و معالجة المعلومات و آلية التكاثر في أول خلية حية ظهرت للوجود وبين طريقة عمل الطائرة البوينج ، لكن الملحدين يصرون على أن القوى السحرية التي يمتلكها التطور و الانتخاب الطبيعي تفوق كل حدود العلم والعلماء

لكن لأن د: ريتشارد سعيد بمثال الطائرة البوينج لحد الإعجاب ، فسوف نقف قليلاً معه:

في بداية الفصل الرابع من كتابه (وهم الإله) وتحت عنوان (طائرة البوينج ٧٤٧) كتب ما يلي:

"حجة اللاإحتمالية تنص على أن الأشياء المعقدة لا تأتي بالمصادفة، والغالبية يفسرون بأن (تأتي بالمصادفة) بمعنى (تأتي بدون غاية لتصميميها)، ولذلك فليس من المفاجئ أن يتصوروا بأن اللاإحتمالية هو دليل على التصميم، الانتخاب الطبيعي الدارويني يظهر لنا خطأ ذلك عند اعتبار اللاإحتماليات فيما يتعلق بالبيولوجيا. وعلى الرغم من أن الداروينية لا تتعلق بشكل مباشر بعالم الأشياء الجامدة كعلم الكون مثلاً فإنها ترفع مستوى الوعي عندنا خارج نطاق مجالاتها المحصورة بالبيولوجيا.

الفهم العميق للداروينية يعلمنا الحذر عندما نفترض أن التصميم هو البديل للمصادفة، ويعلمنا أن نبحث عن سلسلة تدرجات بطيئة جداً باتجاه التعقيد"

من العبارة السابقة يتضح أن د: ريتشارد يحاول توسيع نطاق عمل آلية التطور لتعمل بشكل ما خارج نطاق البيولوجيا وتشمل العناصر الجامدة في الكون، والآن سنوافق مؤقتاً على ذلك ونحاول رفع مستوى وعينا ونقوم الآن بتطبيق هذه النظرية على الطائرة البوينج نفسها بالبحث عن سلسلة تدرجات بطيئة جداً باتجاه التعقيد.

ما هو أقل أنظمة الطائرة البوينج تعقيداً ؟

سنترك الحديث عن الأنظمة الإلكترونية المعقدة التي تتحكم في قيادة وتوجيه الطائرة ونأخذ أقل أجهزة الطائرة تعقيداً ونفترض أن عجلات الطائرة هي أقل تعقيد موجود بها، ثم نحاول البحث عن سلاسل تدرجات أقل تعقيداً داخل نظام عجلات الطائرة ولتكن مجموعة المسامير الصلب التي تربط العجلات في محور الدوران،

والآن نسأل الملحدين : هل ظهور مسمار صلب بقطر خارجي معين (١ بوصة مثلاً) و مسنن على شكل (قلاوظ) بدقة مسمار الطائرة بشكل تلقائي دون تدخل مصمم يقصد صنع هذا المسمار هو أمر محتمل الحدوث أم لا ؟

بالطبع سيجيب كثير من الملحدين بأن هذا الحدث برغم بساطته مستحيل الحدوث بدون مصمم يعرف لماذا يصنع هذا المسمار بالتحديد ، وبخاصة إذا علمنا ما هو نوع الصلب المستخدم في صناعته ، لكن لأن هناك من الملحدين من يصدق بأن هذا الحدث من الممكن حدوثه بدون

مصمم فعلينا أن نتدرج معه إلى السؤال التالي: كم هو عدد المسامير المشابهة اللازمة لصنع طائرة واحدة ؟ وكم هو احتمال تكرار هذا الحدث بنفس العدد في نفس الوقت من عمر الكون و في نفس المكان وعلى نفس الكوكب ؟ أليس هذا يرفع نسب اللاإحتمالية إلى قيم فلكية ؟

وإذا تدرجنا مع الملحدين وافترضنا أن هذا العدد من المسامير وجد بالفعل في مكان واحد و بدون مصمم ، هل من الممكن أن نتصور أن بقية الأجزاء الحديدية في عجلة الطائرة يمكن أن تظهر تلقائياً وبدون مصمم في نفس المكان والزمان ؟ وأن تكون مثقوبة بنفس القطر المناسب لدخول المسامير فيه ؟ و هل من الممكن أن نتصور ظهور الإطار المطاطي المناسب تماماً لقطر العجلة بدون مصمم ؟

والسؤال الأهم : هل من الممكن أن نتصور أن تعبئة هذا الإطار بالغاز المناسب وبالضغط المطلوب يمكن أن يتم بدون مصمم ؟

هنا بالتحديد نصل إلى نقطة المستحيل العقلي ، لأن تعبئة الإطار بالغاز المناسب والضغط المطلوب لن تتم إلا بوجود منظومة متكاملة منفصلة تماماً عن منظومة تكوين جسم العجلة المعدني والمطاطي ، وهي منظومة متطورة جداً من خطوط إنتاج العجلات بأحدث التقنيات العلمية و بأدق التصميمات الهندسية ، والنتيجة أنه لن تظهر عجلة الطائرة بدون مصمم حتى بعد عدد لا نهائي من السنين ، ومهما حاولنا البحث عن سلاسل بطيئة جداً لتبسيط هذا الحدث

والسؤال الآن : أيهما أكثر تعقيداً ، عجلة الطائرة البوينج أم أول خلية حية ظهرت للوجود ؟

فإذا كان الملحدون يتفقون معنا على أن التطور و المبدأ الانثروبي عاجزان تماماً عن إنتاج عجلة الطائرة البوينج مهما مر من الزمان ومهما حاولنا رفع وعينا بالانتخاب الطبيعي ، فكيف تصدق عقولهم قدرة التطور و المبدأ الانثروبي على إنتاج خلية حية بكل ما تحمله هذا الخلية من صفات الكائن الحي ؟ مع التذكير بأن إنتاج عجلة الطائرة ليس فيه تحويل للمادة غير الحية إلى مادة حية وإنما هو إعادة تشكيل فقط للمواد غير الحية لتناسب المهمة المطلوبة

الإجابة الثانية : هي المراوغة الواضحة ، فقد نقل د : ريتشارد منطقة النقاش إلى ميدان آخر لا يمت لموضوع النقاش بأي صلة ، وذلك حين قال (الله هو الطائرة البوينج) وهو يقصد بذلك أن التعقيد الذي يمثله خالق لكون يحوي كل هذه المليارات من المجرات والنجوم والكواكب هو في الحقيقة تعقيد يماثل التعقيد الموجود في الطائرة البوينج ، و أن عدم معرفة مصدره ينهي النقاش لمصلحة الملحدين دون الإجابة على أي سؤال و دون تقديم أية أدلة ، لذلك فكلما وقع فلاسفة الإلحاد في مأزق هرولوا إلى السؤال غير المنطقي (من خلق الخالق) ظناً منهم أن ذلك ينهي النقاش لمصلحتهم بالضربة القاضية

نعم : إن الله عز وجل أعظم بكثير و أعلم و أكبر من كل ما يمكن أن تتصوره عقول البشر، و له قدرة هائلة لا تستطيع عقول البشر فهم حدودها ، وهو سبحانه و تعالى يمتلك من كل صفات الكمال و القوة ما لا تحيط به عقول كل المخلوقات التي نعرفها ، لكن الملحدين **يفهمون الأمور فهماً عكسيّاً** تماماً ، فهم يظنون أن صفات الكمال الهائلة تدفعهم لانكار وجوده لأنه ببساطة يحتاج إلى (شرح ديناصوري) على حد زعمهم ، بينما **أبسط مسلمات العقل السليم تحتم أن الذي لا يملك كل هذه الصفات بكل هذا القدر لا يمكنه خلق كون مثل الكون الذي نعيش فيه**

النقطة الثالثة: هي أن عدم معرفتنا ماهية أو مصدر الشيء ليس دليلاً على عدم وجوده ،

لو أن العالم الفذ نيوتن فكر بهذا المنطق نفسه عندما وقعت عليه ثمرة التفاح لتوقف عن التفكير في الجاذبية بسبب أنه لا يعرف ماهيتها ولا مصدرها بالضبط ، وبخاصة أنها غير مرئية ولا مسموعة ولا تدركها أي حاسة من حواس الإنسان ، وبدلاً من اكتشافه لقوانين الحركة التي غيرت وجه العالم لكان قد ترك لنا كتاباً فلسفيّاً بعنوان **"وهم الجاذبية الأرضية"** ولساهم بذلك في مد عصر القرون الوسطى إلى الآن،

ربما يعترض معترض بأننا نعرف الكثير عن قوى الجاذبية الآن – بفرض أن هذه العبارة صحيحة - ولكن في اليوم الذي وقعت فيه التفاحة عليه لم يكن أحد قد علم عنها شيئاً مطلقاً ولم يكن هناك تفسير لماذا تتجه الأشياء إلى الأرض ولا تصعد إلى السماء ، وبعودة إلى العبارة السابقة التي افترضنا صحتها، هل نحن نعلم حقاً الكثير عن قوى الجاذبية ؟ لقد وضع آينشتاين تصوراً للجاذبية يختلف عن كل افتراضات نيوتن عنها ، فقد افترض وجود نسيج كوني يشبه شبكة الصيادين تقع عليه كل الأجرام السماوية ، ويحدث كل منها تشوهاً في نسيج الكون بحسب كتلته ، و تحدث الحركة الدائرية للكواكب حول النجوم بسبب تحركها على خطوط هذا النسيج الكوني الذي تشوه بفعل النجوم ، وبذلك يكون أينشتاين قد أعطى تصوراً جديداً لكيفية عمل الجاذبية لم يكن يتصوره أحد قبله ، وقد تحمس العلماء لتصور أينشتاين عن الجاذبية لكن حتى الآن لا يملكون اليقين الكامل على وجود هذا النسيج الكوني و إن كان التصور الجديد قد ساعد كثيراً في فهم بعض الظواهر الكونية

وبذلك نرى أننا حتى الآن عاجزون عن فهم ماهية ومصدر الجاذبية على وجه اليقين ولا نعرف أي النظريات المكتشفة هي التي سوف يثبت العلم صحتها ، ومع ذلك لا يستطيع عاقل أن يقول للعلماء في مسألة مثل دوران الكواكب حول النجوم أو سقوط الأشياء على الأرض (**كالعادة فإن جواب العلماء المؤمنين بوجود الجاذبية غير مقنع لأنه يترك موضوع مصدر الجاذبية وماهيتها بدون شرح)** أو يقول **(فرضية الجاذبية تثير فوراً السؤال الأكبر عن مصدر الجاذبية نفسها)** في محاولة يائسة منه لإثبات أن الجاذبية **وهم وتخلف** على نحو ما جاء في كتاب "وهم الإله" عن خالق الكون

النقطة الرابعة : السيد ريتشارد يصدق فكرة المصمم الذكي:

إذا كنا نبحث عن الحقيقة حقا فإن د: ريتشارد قد صرح بأنه على استعداد للإيمان بمصمم ذكي يكون هو المسئول عن نشأة الحياة بتحويل أول جزيء مادي إلى خلية حية بدائية ومنها يبدأ التطور الداروينى عمله في إنتاج كل ما على الأرض من مظاهر الحياة ، ولكنه يفترض أن هذا المصمم الذكي من الممكن أن يكون مصدره إحدى الحضارات التي تعيش في كون آخر وتكون متقدمة علينا في العلم ، وهذا هو شرحه للمسألة كما جاء في كتاب وهم الإله تحت عنوان "استراحة في كامبردج" **(ربما يكون هناك مصمم خارق ولكن في هذه الحالة لن يكون مصمماً أتى من العدم بالتأكيد ولو كان كوننا مصمماً – وإن كنت لا أصدق ذلك حتى الآن –**

ومن باب أولى لمصمم يقرأ أفكارنا ويعلم الغيب ويسامح ويصحح فإن المصمم نفسه يجب أن يكون نتيجة لتراكم العديد من أعمال الروافع والمصاعد، ربما نسخة داروينية في كون آخر)[1]

هذه العبارة تجسد المثل القائل "كالمستجير من الرمضاء بالنار"، فبدلاً من أن تعطي جواباً على السؤال فإنها تطرح ألف سؤال ، إنها ببساطة بدلاً من حل المشكلة تقوم بتصديرها خارج حدود الكون الذي نعرفه ، وهناك في الكون الآخر لا أحد يعرف أي القوانين يمكن أن تسود، لكن هذه الفكرة أيضاً تثير سؤالين هامين: **السؤال الأول هو** : هل بدأت النسخة الداروينية في الكون المفترض أنه يحتوي على المصمم الخارق الذي يؤمن به د: ريتشارد بتحول جزيء مادي إلى خلية حية بالمصادفة قبل مليارات كافية من السنين، ثم أكمل التطور بالانتخاب الطبيعي المسيرة حتى وصل إلى إنتاج مصمم ذكي خارق في ذلك الكون قادر على تصميمنا ؟ أم أن هناك مصمماً خارقاً آخر في كون سابق على الكون السابق لكوننا ؟ وإن كان الأمر كذلك، فهل هذا يعني أن د: ريتشارد يؤمن بأن الحياة التي نشأت على كوكب الأرض هي الحلقة الأخيرة من سلسلة لا نهائية لأكوان ينشأ فيها المصممون الخارقون عن طريق النسخ الداروينية ثم يقومون بخلق الحياة في أكوان أحدث بدون أن تكون هناك بداية لهذا التسلسل وبالطبع ولا نهاية أيضا ؟

والسؤال الثاني : هل معنى ذلك أننا بعد عدد كاف من ملايين السنين ستكون لنا القدرة على تصميم و خلق الحياة في الكواكب الأحدث منا ونصبح مصممين خارقين للحياة على تلك الكواكب؟

أليست هذه الأوهام متصادمة مع العلم بنسبة مائة بالمائة ؟ ألم يثبت العلم أن الكون له بداية وليس أزليّاً ؟ أليس هذا يثبت أن الملحدين على استعداد لأن يصدقوا أن الحياة على الأرض ممكن أن تكون من نتاج العفريت الأزرق أو أي شيء آخر مهما كان غير احتمالي ومهما كان مثيراً للعجب أو السخرية هروباً من الإيمان بالله ؟

هل الإيمان بالإله يسبب كل هذا الحجم من الضغط والضيق للملحدين ؟

الواقع أن هذه العبارة تجسد المشكلة كلها في كلمات قليلة، الملحدون في الحقيقة ليست عندهم مشكلة أبداً في أن يكون الكون مصمماً أو غير مصمم ، أو أن تكون الحياة قد بدأت بتصميم مصمم خارق أم نشأت بالمصادفة، بل ليس عندهم مشكلة أبداً في أن يثبت العلم خطأ نظرية داروين ، لأن المصمم الخارق القادم من الكون الآخر جاهز ليكون البديل ، و سوف يقوم بحل جميع المشكلات التي يمكن أن تعترض مسيرة الحياة علي كوكبنا، دون الحاجة إلى رافعة الانتخاب الطبيعي السحرية ، ودون الحاجة إلى الدوران حول جبل اللا احتمال ، ودون الحاجة إلى رفع الوعي بالانتخاب الطبيعي ، بل ليس عندهم مانع من القول بأن الإنسان ليس حلقة في سلسلة التطور وأن أصله ليس قرداً وإنما خلق خلقاً خاصّاً ما دام هذا الخلق الخاص تم على يد المصمم الخارق القادم من الكون الآخر وليس بفعل الإله، لأنه لا يمكن أن يكون هذا المصمم الخارق القادم من الكون الآخر قد تدخل مرة واحدة فقط ثم انصرف إلى حال سبيله وأهمل الجنين الذي زرعه في كوننا في شكل خلية حية

---

[1] - ريتشارد دوكنز ، (وهم الإله) ، الطبعة العربية الثانية ترجمة غسان البغدادي ، صفحة ١٥٨

المشكلة الحقيقية ليست علمية على الإطلاق ، بل هي **مشكلة دينية في المقام الأول** ، وهي مشكلة فلاسفة الإلحاد مع الدين، لكنهم اتخذوا العلم وسيلة تمكنهم من عرض إلحادهم بطريقة براقة تبهر عيون من ليس عنده رصيد من العلم الحقيقي أو العقيدة الإيمانية الصافية ، قد يكون هؤلاء الملحدون معذورين بسبب العقدة النفسية القاسية التي تكونت بداخلهم ضد الدين من جراء التعليم الخاطئ الذي لا يمت إلى الدين الحق بأي صلة ، ولأن حجم الخرافات التي أمروا بتصديقها كان يفوق قدرة أي عقل راشد على تصديقها، والتي تكونت أيضاً بفعل المواقف المخزية التي تصدر عن بعض من يتخذ من الدين واجهة له بدافع الابتزاز أحياناً أو بدافع الحماس المصاحب للجهل أحياناً أخرى، وهم – أي الملحدون - من هذه الناحية ضحايا، ولهم كل التقدير على موقفهم الشجاع الذي اتخذوه حين رفضوا الانسياق الأعمى خلف تلك الخرافات، لكن علينا أن نذكرهم بأنه كما أن تشارلز دارون بريء من دماء كل ضحايا هتلر داخل وخارج ألمانيا سواء في ساحات الحرب أو في مستشفيات التعقيم الإجباري أو في المحرقة ، فإن المسيح عليه السلام أيضا بريء من كل جرائم محاكم التفتيش التي ارتكبها رجال الدين المسيحي في العصور الوسطى ، ومن باب أولى فهو بريء من كل ما ذكره د: ريتشارد في كتابه من مواقف مخزية صدرت عن جهات لها طابع ديني ، ثم هو قبل كل ذلك بريء من كل الخرافات التي دست في الكتاب المقدس و حولته إلى كتاب **لا يوجد له مثيل على وجه الأرض** في الاستخفاف بالعقل

إن من حق الملحدين علينا أن ننبههم إلى أن المسار الذي يسيرون فيه ليس صحيحاً، عليهم أن يفهموا أن الظنون و التخمينات و الافتراضات لا تصلح في تحديد موقف صحيح في قضية خطيرة مثل قضية وجود الإله ، عليهم بذل الجهد في إعادة البحث بإخلاص وحيدة و تجرد ، وأن يخرجوا من عقدة الخرافات التي وجدوها في كتب الأديان التي حرفها تجار الأديان لأن مثلهم في ذلك كمثل رجل وقف على ساحل البحر في ميناء ليفربول ، وسأل بعض الناس عن الطريق إلى باريس فوجهوه إلى سفينة ذاهبة إلى نيويورك ، فركب السفينة و عندما وصل وعلم بالخدعة عاد إلى بلده غاضباً وألف كتابا أسماه **"وهم باريس"** ، وساق فيه مائة دليل على أن الاحتمال الأكبر هو عدم وجود مدينة بهذا الاسم وأن مدينة "باريس" خرافة من تأليف جهلة متخلفين ، والعجيب أنه لم يلاحظ أن زجاجة العطر الذي يفوح من معطفه الأنيق مكتوب عليها "صنع في باريس"، و أن الدليل على وجودها موجود بجوار قلبه

الفصـــل الثالـــث

الدليل على وجود الله

الفصل الثالث

الدليل على وجود الله

نقل الدكتور عمرو شريف في كتابه (رحلة عقل) عبارة السير أنتوني فلو التي جاءت في كتابه الشهير " يوجد إله " والتي يقول فيها (في هذا الكتاب – يقصد كتاب فرضية الإلحاد الذي كتبه حين كان يقود كتيبة الدفاع عن الإلحاد والذي صدر في عام ١٩٧٦ – وضعت الكرة في ملعب المتدينين ، إذ أكدت أن إثبات الوجود الإلهي يقع على عاتق المؤمنين، وأن عليهم أن يطرحوا من الحجج ما يفحم الملحدين ، إذ أن البينة على من ادعى، ذلك بعد أن كان المنهج في فلسفة الأديان يضع على الملحدين مسؤولية إثبات عدم وجود الإله بدعوى أن الشعور بوجود الإله إحساس فطري ، لقد قلقل هذا الطرح موقف المتدينين من جذوره ، فلم يحدث أن واجه الإيمان بوجود الإله مثل هذا التحدي من قبل ، وذكرت أن إثبات الوجود الإلهي يجب أن يمر بالمراحل التي يمر بها أي افتراض علمي أو فلسفي وهي :

١- تعريف مفهوم الإله الذي نطرح إثبات وجوده للبحث
٢- تحديد كيف تتم دراسة الظاهرة المعروضة للبحث (كل ظاهرة يناسبها منهج خاص)
٣- طرح وتحليل الأدلة التي تشير إلى صدق هذا المفهوم (أي افتراض وجود الإله)

وكنت مصمماً على التمسك بالنفي حتى يقدم الآخرون البرهان على وجود الإله، كنت أطرح هذا المنهج وأنا أدرك تماماً أن إثبات أمر ما أصعب كثيراً من نفيه)[1]

والآن ، وبعد أن اتفقنا مع كل الملحدين أن علينا نحن المؤمنين بوجود الله أن نأتي بالدليل ، فسوف نسير على هذا المنهج نفسه الذي ألزمنا به زعيم الملحدين سابقاً ونستوفي البحث في ضوء المراحل الثلاث التي ذكرها ، ولنبدأ بالمرحلة الأولى :

المرحلة الأولى: تعريف مفهوم الإله

سبق أن ذكرنا أن السيد ريتشارد والكثير غيره قد وقعوا ضحية لجريمة تحريف الكتاب المقدس، ولقد كان من أهم نقاط هذا التحريف في أول إصحاح من إصحاحات العهد القديم هذه العبارة " وخلق الله أدم على صورته" (وهي العبارة التي رسمت في أذهان كل المؤمنين بالكتاب المقدس وأيضاً كل الملحدين الذين لهم أصول يهودية ومسيحية صورة بشرية للإله الخالق ، أي أن الإله في عقول كل هؤلاء عبارة عن رجل كبير الحجم ، ثم توالى التحريف ليصف الإله بصفات بشرية كثيرة مثل:

(**واستراح** في اليوم السابع)[2] - سفر التكوين (٢ : ٢)

و كذلك (وسمع آدم وامرأته صوت الرب الإله **وهو يتمشى في الجنة عند المساء**) تكوين (٣ : ٨)[3]

---

[1] - أ د عمرو شريف ، (رحلة عقل) ، مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة الخامسة ، صفحة ٥٩
[2] - الكتاب المقدس، الترجمة العربية المشتركة، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، العهد القديم، ١٩٩٥ ط ٤ ، صفحة ٣
[3] - نفس المرجع صفحة ٤

وكذلك ما جاء في سفر ميخا (١ : ٢- ٨) (إِسْمَعُوا يا جميع الشُّعُوبُ. أنصتي أَيَّتُهَا الأَرْضُ وَمِلْؤُهَا. السَّيِّدُ الرَّبُّ شَاهِد عَلَيْكُمْ، شاهد مِنْ هَيْكَلِهِ المقُدْس. [٣] الرَّبُّ يَخْرُجُ مِنْ مَكَانِهِ، يَنْزِلُ وَيَطأ مشارف الأَرْض، [٤] فَتَذُوبُ الْجِبَالُ تَحْتَهُ، وَتنحل الأودية انحلالاً كَالشَّمْعِ من وجه النَّار. كَالْمياه الْجارية إلى المورد --- ها أنا أندب وَأُوَلْولُ. وأَمْشِي حَافِيًا عُرْيَانًا. أَنتَحب كَبَنَاتِ آوَى، وأَنَوْح كَبناتِ النَّعَامِ.)[١]

نتعجب كيف يؤمن أستاذ في الجامعة أو حتى طالب جامعي بأن خالق ثلاثمائة مليار مجرة و قابض عليها في يده ينزل على الأرض و يسير على جبال كوكب لا يزيد حجمه بالنسبة للكون على حجم الأوتار التي حدثنا عنها علماء نظرية الأوتار والتي قالوا أنها جزء من مليار مليار جزء من نواة الذرة ، ثم يسير حافياً وعرياناً يولول بسبب معصية حشرات على هذا الكوكب لا يزيد حجمها بالنسبة للكون عن حجم هذه الأوتار بالنسبة لحجم الأرض

و بالعودة إلى التشبيهات البشرية الكاذبة لله عز وجل في الكتاب المقدس سنجد تلك القصة القذرة جدّاً و التي تكفي بمفردها أن يوصف أي كتاب يذكرها على أنها وقعت بحق بأنه من تأليف أقذر وأجهل رجل دين عرفته البشرية تلك هي قصة "صراع يعقوب مع الله"[٢] تكوين (٣٢ : ٢٣ – ٣٠)– والتي لا أتصور أن رؤوس من يؤمنون بها تحتوي على عقل واع يدرك ما حوله ، ولو فكر هؤلاء للحظة واحدة لاستنتجوا أن القصة كاذبة وأن التصديق بأنها من تحريفات الكتاب المقدس أرحم بكثير لنفوس المسيحيين – قبل غيرهم - من تصديق أنها من كلام الله لأن القصة تتنافى مع عقول الأطفال في سن الخامسة أو السادسة، فكيف يستطيع واحد من البشر الذين يعيشون على كوكب لا يبلغ حجمه حجم الوتر أن يصارع خالق ثلاثمائة مليار مجرة وممسك بها جميعاً في قبضة يده؟ بل و يتغلب عليه ثم يظل هذا الخالق يستجدي من يعقوب أن يطلق سراحه قبل شروق الشمس حتى لا يراه الناس على تلك الحالة المهينة، لو كانت هذه الواقعة صادقة – أستغفر الله – فهناك سؤالان هامان نوجههما لأحباء المسيح و لكل الذين يؤمنون بأن الكتاب المقدس هو كلمة الله :

الأول : هل كان المسيح باعتباره الأقنوم الثاني متحداً مع الرب الذي صرعه يعقوب طبقاً لتأكيد الكتاب المقدس أن الأقانيم الثلاثة لم تنفصل يوماً واحداً و أنه لم يكن هناك زمان كان فيه الآب بدون الابن ولا الآب و الابن بدون الروح القدس ؟ وهل استطاع يعقوب أن يهزم الأقانيم الثلاثة مجتمعة ؟ و إذا كان هذا قد حدث فهل يؤمن المسيحيون بأن هذه الأقانيم الثلاثة مجتمعة تصلح لأن تخلق الكون الذي نعيش فيه ؟ ومن باب أولى هل يصلح ثلث الأقانيم المهزومة أن يكون هو الخلاص للرجل الذي هزم الأقانيم جميعاً وانتزع البركة منها بالقوة بعد تذللها له طوال الليل؟

الثاني : لو كانت الواقعة صحيحة – استغفر الله - ألا يستحق كل الذين يصعدون على حلبة المصارعة الحرة الآن و نراهم على شاشات التلفاز أن ينتزعوا البركة من الرب وأن تكون كل الأرض لنسلهم هم لا لنسل يعقوب وأن يكون نسلهم هو شعب الله المختار و هو وارث الجنة بلا منازع ما دام الأمر كان في البداية ناتجا عن مصارعة إنسان مع الله واستطاع هذا الإنسان إن

[١] - نفس المرجع صفحة ١١٥٩
[٢] - نفس المرجع ، صفحة ٤١

يهزم الإله ويمسك به حتى طلوع الشمس وينتزع منه البركة بأن يعطيه هذا الإله المنهزم – تحت التهديد والإكراه – كل الأرض له ولنسله من بعده ؟

هل يمكن أن يصل الأمر إلى هذا الحد من تغييب العقول والانصياع الأعمى وراء رجال الدين حتى في أمور يظهر بطلانها أكثر من ضوء الشمس؟ هل يصدق هؤلاء أن المسيح يوافق على هذا التطاول على الله عز وجل ، و على أن هذا التطاول هو كلمة الله ؟

على جميع رجال الدين اليهودي والمسيحي على السواء أن يتوقفوا عن الحديث عن الإله بكل هذا القدر من الإهانة التي تفوق بآلاف المرات الإهانات التي يرددها الملحدون، وأن يرحموا أولئك الذين يصدقونهم من الوقوع فريسة لدوامات من الأفكار المتناقضة التي تولد عندهم كمّاً ضخماً من العقد النفسية وتلقي بهم في نهاية المطاف بلا رحمة في هاوية الإلحاد

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد فقط ولكن استمر التحريف ليضيف إلى صفات الإله كمّاً هائلاً من صفات الخسة والدناءة والظلم ، و ليصف الإله بأبشع الصفات التي لا تصلح لأن يوصف بها مصاصو الدماء ، مما أدى إلى تجرؤ الملحدين على وصف الإله بتلك العبارة التي وردت في كتاب وهم الإله في أول الفصل الثاني " لا جدال بأن إله العهد القديم هو أسوأ الشخصيات الأدبية ، غيور وفخور بذلك ، يدقق بالتوافه و ظالم و متسلط قاسٍ، ومنتقم ومتعطش للدماء ، ومميت للأعراق ، وكاره للنساء و المثليين ، وعنصري و قاتل للأطفال والشعوب ومسبب للأمراض و مصاب بجنون العظمة و سادي و ماسوشي و نزوي و حقود شرس "[١]
لا نستطيع أن نلوم ريتشارد دوكنز لأن كل هذه الصفات وردت بالفعل في الكتاب المقدس على صورة وقائع وأحداث ما زال الكثير من الدعاة المسيحيين واليهود يرددونها بحماس ويلزمون أتباعهم بالإيمان بها على أنها "كلمة الله"

ولكن اللوم الحقيقي يقع علي أولئك الذين كلما أرادوا أن يؤسسوا دليلاً على عنصريتهم أو على أحقيتهم في امتلاك قطعة أرض كتبوا قصة وهمية من نسج الخيال وألصقوها بالكتاب المقدس تماما كما وصفهم لنا الله عز و جل في القرآن الكريم في قوله تعالى :

(وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون) سورة آل عمران (١٨٧)

هل تحرف كتابك المقدس من أجل قطعة أرض أو حتى من أجل كل الأرض ؟ إن كل الأرض التي نعيش عليها لا تساوي حرفاً واحداً من حروف التوراة الحقيقية التي أنزلها الله عز وجل على موسى عليه السلام والتي قال الله عنها في القرآن الكريم :

(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون و الأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) سورة المائدة (٤٤)

ولا تساوي حرفاً واحداً من حروف الإنجيل الحقيقي الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام والذي قال الله سبحانه وتعالى عنه في القرآن الكريم :

---

[١] - ريتشارد دوكنز ، وهم الإله ، الطبعة العربية الثانية ، ترجمة بسام البغدادي ، صفحة ٣٢

(وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وءاتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) سورة المائدة -٤٦-

إن كل تلك الصفات والمواقف المشينة التي اتصف بها الإله في الكتاب المقدس تقع في قسم ال ٩٥% التي ذكرها السيد بنجامين داود – وقد كان من كبار قساوسة الروم في بداية القرن العشرين قبل إسلامه - في كتابه القيم "الإنجيل والصليب" - والذي يجب على كل أحباء المسيح أن يقرؤوه – وذلك حين قال: (إن الإنجيل كتاب - بعد تنزيل و حذف ٩٥% منه - إلهي")[١] وهو يشير إلى أن خمسة في المائة فقط مما حوت الأناجيل هو كل ما تبقى من الرسالة العظيمة التي جاء بها المسيح عليه السلام ، و المرجح أنها العبارات الخاصة بالتوحيد الخالص لله عز وجل ، و فقرات من الموعظة التي ألقاها على الجبل

والآن نبدأ بالتعريف بالله عز و جل وصفاته كما ذكرها سبحانه وتعالى في القرآن الكريم :

أولاً :

إن الحقيقة التي لا يعرفها قراء وضحايا الكتاب المقدس هي أن الله عز و جل ليس له هيئة بشرية، وليس له هيئة شبيهة بأي أحد من مخلوقاته، لأنه سبحانه وتعالى أخبرنا عن نفسه في القرآن الكريم بأنه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) وحتى سمعه وبصره لا يشبه سمع البشر وبصرهم فكل ما يخص الله - عز و جل - من صفات يختلف كليّاً عما يخص البشر وكل المخلوقات من هذه الصفات، وهو سبحانه وتعالى متصف بكل صفات الكمال مثل القوة و العلم والرحمة والعدل و الحلم والعفو ، و هو سبحانه وتعالى غير محدود بالمكان والزمان لأن الكون كله مطوي في يمينه ، و هو الخالق الذي خلق كل الموجودات بعلمه وحكمته و هو سبحانه الذي يدبر شئون كل هذه الموجودات دون أن يشغله خلق عن خلق

ثانياً :

وهو سبحانه وتعالى إله واحد أحد، ليس جزءاً من ثالوث مقدس ، وليس له والد ولا ولد ، كما أخبر عن نفسه في القرآن في سورة الإخلاص آمرا رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يعلمها للناس (قل هو الله أحد – الله الصمد – لم يلد ولم يولد - ولم يكن له كفواً أحد)

وعليه فإن العبارة الواردة في العهد القديم المزمور الثاني (٧) " دعوني أنا الملك أخبر بما قضى به الرب، قال لي: أنت ابني، أنا اليوم ولدتك"[٢] هي من مؤلفات القساوسة الذين حرفوا كتابهم المقدس ، فالله عز وجل لا يلد – حاشا لله – بأي صورة من الصور ، ولا يصح أن ينسب هذا الفعل إلى الله عز وجل تحت أي تفسير من التفاسير ، كما أنه سبحانه وتعالى لم يولد أيضاً تحت أي شكل من أشكال الولادة ، وبالتالي فإن الذي ولدته السيدة مريم يستحيل أن يكون إلهاً أو جزءاً من الإله ، لا عن طريق تجسد الإله فيه ولا اتحاده به ، و كل ألغاز التجسد و الاتحاد مع الإله و كذلك ما ترتب عليها من تصور الاتحاد بجسد المسيح كلها عقائد وثنية دخلت إلى الدين المسيحي عن طريق الديانات الوثنية التي كانت سائدة في القرن المسيحي الأول ولم يقل عنها المسيح عليه السلام حرفاً واحداً ، ونسخ الأناجيل القديمة تؤكد ذلك

---

[١] - دافيد بنجامين الكلداني ، (الإنجيل والصليب) ، ترجمة : فيصل أبو خالد ، صفحة ١٤٠

[٢] - الكتاب المقدس، النسخة السابقة ، صفحة ٦٦٣

ثم إن هناك حيرة أكثر يصطدم بها العقل عند قراءة سيرة المسيح في الكتاب المقدس، وبالتحديد عند الحديث عن موته وقيامته بعد ثلاثة أيام، فإن كان الكتاب المقدس يؤكد أن الأقانيم الثلاثة لم تنفصل يوماً ولم يكن هناك زمان كان فيه الأب بدون الابن ولا الأب والابن بدون الروح القدس لأنهم جميعاً شيء واحد، فمن الذي مات بالضبط؟ هل الثلاثة معاً؟ فهل ظل العالم بدون إله لمدة ثلاثة أيام؟ **ومن الذي أحياهم إن كانوا قد ماتوا جميعاً؟** أم أن الذي مات هو الأقنوم الثاني فقط؟ فكيف انفصل عن الأقنومين الآخرين والكتاب المقدس يؤكد استحالة حدوث هذا الانفصال؟

كل هذه الطلاسم والألغاز المتناقضة أجاب عنها الله سبحانه وتعالى بسورة من سطر واحد من سور القرآن الكريم وهي سورة الإخلاص، قال تعالى :

"قل هو الله أحد ١ الله الصمد ٢ لم يلد ولم يولد ٣ ولم يكن له كفواً أحد ٤"

ثالثاً :

وهو سبحانه وتعالى خلق الكون بكل ما فيه من مجرات يقدر العلماء عددها بأكثر من ثلاثمائة مليار مجرة كلها مطوية في يمينه – وهي يمين ليست كيمين البشر- دون أن يمسه أي قدر من التعب ولذلك أخبرنا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم عن ذلك بقوله

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) (ق ٣٨)

و عليه فمن الجهل أن يوصف بأنه استراح في اليوم السابع ، فالله عز وجل لا يخلق أي مخلوق بأن يعالج الأسباب بيده ولكنه يخلق ما يشاء بكلمة "كن" فيكون لذلك قال سبحانه وتعالى عن نفسه

(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) سورة يس – ٨٢ –

و من ثم فإن الله عز وجل لا يحتاج إلى بليون بليون أصبع ليضعها على كل إلكترونات الكون ليضبط عملها كما يذكر فلاسفة الإلحاد، إن الأمر عنده لا يزيد على كلمة "كن" فيكون ما أراد الله

وهو سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن قدرته الفائقة في سورة لقمان بقوله: (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ٢٨) كما أخبرنا سبحانه وتعالى عن حجمنا بالنسبة للكون الذي خلقه وذلك في سورة الزمر بقوله (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ٦٧)

وكما أن الله عز وجل له قدرة لا نهائية ، فإن علمه أيضاً لا نهائي ، وقد أخبرنا سبحانه عن علمه اللانهائي في سورة الأنعام بقوله :

(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ٥٩)،

وفي سورة هود (آية ٦) قال تعالى:

(وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين)

وإذا علمنا أن هناك عدداً غير محدود من الكواكب التي تحوي كائنات حية قال عنها الخالق سبحانه وتعالى في سورة الشورى :

(ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ٢٩)

ثم علمنا أنه سبحانه وتعالى يعلم كل شيء عن كل كائن مما تحويه تلك الكواكب من كائنات ، أدركنا حقيقة ما يختص به الله عز وجل من علم لا نهائي

نعلم أن هذا القدر من التعقيد يصعب على عقول الملحدين أن تتصوره ، لأنهم لا يريدون أن يعترفوا بحجمنا الحقيقي بالنسبة لحجم الكون الموضوع في يد الله عز و جل، إن كانوا ما زالوا يسجنون عقولهم داخل كوكب الأرض ولا يستطيعون أن يتخيلوا معنى أن الله سبحانه وتعالى (لا حدود لقدرته ولا لعلمه) فنذكرهم بالمثال الذي ذكرناه سابقاً عن نملة عيش الغراب التي ليس بمقدورها أن تتصور أن الصاروخ الذي يهبط على القمر لا يأكل عيش الغراب، ولو حاولنا أن نشرح لها أنه ينطلق بفعل احتراق النيتروجين المسال فلن تفهم منا شيئاً، لأن قاموس المصطلحات الذي تعرفه لا يحوي هذه المفردات ،

ليس هذا تحقيراً للإنسان ولا للعلم، وليس هذا دعوة إلى الكسل وترك الاجتهاد في البحث كما يحلو لفلاسفة الإلحاد أن يسخروا، بل على العكس ، لقد أمرنا الله عز وجل أن نبذل كل ما نستطيع من أجل اكتشاف الحقائق العلمية المتعلقة بخلق الحياة وخلق الكون كما في قوله تعالى مخاطباً رسوله محمد صلى الله عليه وسلم :

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير) سورة العنكبوت – ٢٠-

وهي دعوة صريحة لكل العلماء في جميع فروع العلم بأن يسيروا في الأرض ويبحثوا فيها ليكتشفوا كيفية نشأة الحياة على الأرض بل وكيفية نشأة الكون بشكل عام، ولا ننسى أن هذا الأمر صدر منذ عام ٦١٠ ميلادية في بيئة صحراوية و لم يكن قد عرف الإنسان وقتها الأجهزة الدقيقة ولا المختبرات ولا التحاليل ، ولم يكن هناك في البيئة التي نزل فيها القرآن الكريم من الناس من له أدنى اهتمام باكتشاف كيفية بدء الخلق، ولا باكتشاف كيفية بدء الحياة على كوكب الأرض ، وهذا يدحض ادعاءات الملحدين من أن الإيمان بالله يجعل الإنسان يتكاسل و يهجر العلم والبحث العلمي ويكتفي بالخرافات

ولأن الله عز و جل أكبر بكثير من أن يتصور حقيقته العقل البشري **(بمفرده)** فإن د: ريتشارد داوكنز كان محقاً جدّاً حينما ذكر أن أي مصمم استطاع أن يخلق كوناً مثل كوننا بكل ما فيه من تعقيد يجب أن يكون أعقد بكثير من أن يتصوره بشر، وكان محقاً تماماً حين قال أنه يحتاج إلى شرح ديناصوري لكي نحيط بما يختص به من صفات، لكن هذا الشرح الديناصوري يحتاج إليه الإنسان حين يحاول أن يتخيل صفات الإله **من تلقاء نفسه** ، لهذا أرسل الله عز و جل الرسل ليخبرنا عن طريقهم عن صفاته سبحانه وتعالى ، ويقدم لنا هذا الشرح الديناصوري في أسطر قليلة من كتاب تكفل هو بحفظه من التحريف على مر السنين كما سنبين بعد قليل

رابعاً :

والله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً أبداً ولذلك فكل ما جاء في كتاب وهم الإله من محاولة لصق الظلم به هو افتراء ناتج عن عدم العلم بأقل حقائق هذا الإله العظيم،

فقد أخبرنا سبحانه وتعالى عن نفسه في القرآن الكريم قائلاً :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)(النساء ٤٠)

- وقال تعالى **(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ) (الأنبياء ٤٧)**

كما أخبرنا سبحانه وتعالى عن نفسه في الحديث القدسي – في صحيح مسلم - :

«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي. وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً. فَلاَ تَظَالَمُوا. »[1].

و من ثم فإن المرأة الكاثوليكية - التي تحدث عنها د: ريتشارد - التي ماتت صديقتها (الطفلة البروتستانتية) فتألمت بشدة لأنها ظنت أنها دخلت الجحيم ، عليها أن تطمئن على صديقتها ، فهي الآن في مكان أجمل بكثير من كل جنان الأرض ، لأن الله عز وجل لن يدخل أي طفل من أي ديانة أو أي معتقد - مهما كان - في الجحيم ، لأن كل أطفال العالم لم يبلغوا بعد سن التكليف ، والله عز وجل لا يحاسب الإنسان على أي أفعال يرتكبها قبل البلوغ أي قبل سن الثالثة عشر أو الرابعة عشر ، ففي مسند الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال : **(رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثلاثٍ، عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ)**[2]

ومع ذلك فإن الله عز وجل من رحمته يكتب لهم جميع الأعمال الصالحة التي يفعلونها قبل البلوغ ، ويجازيهم عليها ، لذلك ستكون صحائف أعمالهم محتوية على أعمال الخير فقط ،

و عليه فإن أبناء جميع الأمم الكافرة بالله، و حتى أبناء الملحدين الذين لا يؤمنون بوجوده أصلاً لن يعاقبوا على هذا الكفر إذا ماتوا قبل سن البلوغ ، بل وسيكونون من أهل الجنة التي أعدها الله سبحانه وتعالى للمؤمنين به ،

وحتى إذا ماتوا بعد هذه السن فلن يعاقبوا على كفرهم إلا إذا بلغتهم رسالة الرسل ورفضوها ، فقد قال الله تعالى في القرآن الكريم :

(مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) (الإسراء ١٥)

ونعني برسالة الرسل ، رسالة الإسلام التي أرسل الله بها جميع الأنبياء قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء ٢٥)

---

[1] - صحيح مسلم ، عن أبي ذر ، دار الكتب العلمية ،١٩٩٢،الحديث رقم ٦٥٢٤
[2] - مسند الإمام أحمد ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم (٢٤٣٠١)

و بصفة عامة فإن كل من لم تصله رسالة الرسل أيّاً كان عمره ينطبق عليه الحكم نفسه

خامساً :

والله عز وجل متصف بصفة الرحمة الواسعة لكل المخلوقات ،

- فقد قال تعالى في القرآن الكريم مخبراً عن نفسه :

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ) (الأنعام ١٣٣)

- وقال أيضاً (**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا**) (الكهف ٥٨)

ولقد تجلت هذه الرحمة في معاملة البشر في صور كثيرة منها :

♦ أن الله عز وجل لم يكلف الإنسان بشيء فوق طاقته ، فكل ما عجز الإنسان عن أدائه من صلاة أو صيام أو زكاة أو حج فليس مطالباً به ، قال تعالى في القرآن الكريم :

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) (البقرة ٢٨٦)

♦ كما تجلت رحمته في أنه سبحانه وتعالى يجازي الإنسان على فعل الخير مهما كان قليلاً : ويضاعف للإنسان الجزاء عليه عشرة أضعاف ، بل إلى سبعمائة ضعف ، و يكتب للإنسان كل ما يفعله من الحسنات حتى و إن كانت بدون قصد منه ، لكنه لا يعاقب الإنسان على أي سيئة إلا بقدرها ، كما أنه لا يحاسبه على أي ذنب صدر منه بدون قصد كما فعل في الحسنات ، فقد جاء في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال :

«إِنَّ الله كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ. ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً... وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا الله سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[1] .

كان السياق يقتضي أن من هم بحسنة فلم يعملها فإنها لا تكتب شيئاً ، لكن الله عز وجل كتبها للإنسان حسنة كاملة ، وكان السياق يقتضي أنه إذا هم الإنسان بسيئة فلم يعملها فلا تكتب شيئاً ، و هذا هو العدل ، لكن رحمة الله عز وجل سبقت عدله ، لذلك يكتبها للإنسان حسنة كاملة رغم أنه هم بسيئة ، لكن لأنه امتنع عن فعل هذه السيئة ،

♦ كما تجلت رحمة الله عز وجل في المغفرة التي لا يقفل بابها لحظة واحدة في ليل أو نهار ، حتى لو تكرر الذنب من العبد مرات ومرات ،

فقد قال تعالى في سورة الزمر (**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**) (الزمر ٥٣)

[1] - صحيح مسلم ، عن ابن عباس ، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢،الحديث رقم ٢٩٦

و كلمة أسرفوا على أنفسهم تعني أنهم أسرفوا في ارتكاب الذنوب العظيمة ، لكنه مع ذلك يناديهم بقوله (يا عبادي) ثم يدعوهم إلى عدم اليأس من رحمة الله و إلى التوبة الصادقة بقوله (لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً)

و ينقل لنا رسولنا الكريم ﷺ حديثاً قدسيّاً عن الله عز وجل يشرح فيه هذا الفيض الرباني من الرحمات لمن عاد إليه تائباً مخلصاً في توبته ، ففي سنن الترمذي عن أَنَس بن مالِكٍ ، قال سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:

«قالَ الله تَبَارَكَ وتعَالى: يا ابنَ آدَمَ إنَّكَ مَا دَعوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى ما كانَ منكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَت ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ إنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بي شَيْئاً لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[1] .

هكذا: بدون أب اعتراف يسمع الفضائح والأسرار ! وبدون راهب في معبد يأخذ ثمن المغفرة ! وبدون ذبيحة غفران لا يملك ثلثا سكان الأرض ثمنها ! وبدون دفع أي قدر من المال !

فقط توبة من القلب ، وعزم أكيد على السير في طريق الاستقامة ، و التحلل من حقوق الناس بردها إليهم

كان أفضل التوقعات أن يكون السياق في الحديث السابق (لو أتيتني بقراب الأرض خطايا فمن رحمتي وكرمي سأغفر لك كل خطاياك) و هذا قدر هائل من الرحمة بالإنسان غير مسبوق على ذنوب يقارب وزنها وزن الكرة الأرضية،

لكن رحمة الله عز وجل بالإنسان فاقت هذا الحد الذي يفوق التصور بملايين المرات ، لأن الله عز وجل قال للإنسان الذي اقترف كل هذا القدر من الذنوب (**لأتيتك بقرابها مغفرة**) أي بما يقارب وزن الأرض من المغفرة ، وشرط (ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً) هو شرط عادل جدّاً ، لأن الإنسان الذي ينكر وجود الله عز وجل أو يعبد إلهاً غيره ، هل من المنطقي أن يطلب المغفرة ممن ظل عمره كله ينكر وجوده ، أو يعبد شيئاً غيره ؟

كما أن هذا الفيض من رحمات الله على الإنسان يحلق إلى آفاق تتخطى حدود الكون و تفوق كل التوقعات ، فقد قال الله تعالى في سورة الفرقان في وصف المؤمنين (الآيات ٦٨ – ٧٠) :

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ۞ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانً ۞ إلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞)

إلى هذا الحد تبلغ رحمة الله عز وجل بالعاصين الذين ارتكبوا ذنوباً عظيمة ، فهو لن يغفرها فقط ، بل سيبدلها لهم حسنات ، بشرط الصدق في التوبة و إخلاص القلب لله عز وجل

كما يخبرنا رسول الله ﷺ أن الله عز وجل لا يغلق باب التوبة لحظة واحدة ، فقد جاء في صحيح مسلم عَن أبي موسى عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ. وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ. حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[1]

[1] - سنن الترمذي ، عن أنس بن مالك ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٤، الحديث رقم ٣٦٨٠

ويخبرنا رسول الله أن الله عز وجل يقبل توبة العبد حتى قبل موته بلحظات ، ففي مسند الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[٢]

ويخبرنا رسولنا الكريم أيضاً أن الله يفرح بتوبة العبد أكثر من الشخص الذي أشرف على الموت و فقد كل أمل في الحياة ثم فجأة جاء من ينقذه ، ففي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ :

«للهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ. مَعَهُ رَاحِلَتُهُ. عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ. فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ. فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ. ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ. فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ. فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ. فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ. فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هذا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ».[٣]

و علينا هنا أن نشير إلى أن الله عز وجل ليس في حاجة إلى توبة أحد من البشر، فهو سبحانه لا تضره معصية العاصين ولو عصاه جميع الخلق ، لأنهم جميعاً أقل من أن يضروه ، ولكن الله عز وجل يحث الناس على التوبة حتى يتوقف شر الأشرار وتتوقف جرائم المجرمين ، وهذا يشيع الأمان بين الناس ، و يوقف الاعتداء على حرمات الناس و على أموالهم و ممتلكاتهم، فكم هو حجم الضرر الذي يمكن أن يحدث في الأرض لو أغلق باب التوبة أمام الناس و **خاصة عتاة المجرمين وشعر هؤلاء الناس أنهم هالكون لا محالة ؟**

♦ كما تجلت رحمة الله عز وجل في أنه جعل العفو عن خطايا العبد في حقه أسهل بكثير من عفوه عن التعدي على حقوق الناس ، ففي مسند الإمام أحمد عن رسول ﷺ أنه قال :

«الدَّواوينُ عِنْدَ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ثلاثة: ديوانٌ لا يَعْبأ الله بهِ شيئاً، وَديوانٌ لا يَتْرُكُ الله مِنْهُ شيئاً، وديوانٌ لا يَغْفِرُه الله، فأمّا الدِّيوانُ الذي لا يَغْفِرُهُ الله فالشِّرْكُ بالله، قالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: {إنه من يُشْرِكْ بالله فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الجَنَّةَ} (المائدة: ٧٢) وأمّا الدِّيوانُ الذي لا يَعْبَأ الله بهِ شَيْئاً: فظُلْمُ العَبْدِ نَفْسَهُ فيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ مِنْ صَوْمِ يَوْمٍ تَرَكَهُ أَوْ صلاةٍ، تَرَكَها، فإنَّ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يَغْفِرُ ذلكَ وَيَتَجاوَزُ إنْ شاءَ، وأمّا الدِّيوانُ الذي لا يتركُ الله مِنْهُ شيئاً: فظلمُ العِبادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، القصاصُ لا مَحالَةَ»[٤]. أي أن الذي يقصر في صلاة أو صيام فقد يغفر الله عز وجل له ذلك إن شاء ، لكن الذي يأخذ حقاً من حقوق الناس فلن يغفر الله عز وجل له هذا الذنب إلا إذا رد الحق لصاحبه حتى لو كان ذلك المعتدي على حقوق الناس من العابدين الذين لهم عبادات أمثال الجبال ، فقد جاء في صحيح مسلم أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال:

«أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَـذَا، وَقَذَفَ هَـذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَـذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَـذَا، وَضَرَبَ هَـذَا فَيُعْطَى هَـذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَـذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ. أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[٥].

---

[١] - صحيح مسلم ، عن أبي موسى ، دار الكتب العلمية ،١٩٩٢،الحديث رقم ٦٩٣٨

[٢] - مسند الإمام أحمد ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ٦١٤٤

[٣] - صحيح مسلم ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٢ ، الحديث رقم ٦٩٠٤

[٤] - مسند الإمام أحمد ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ٢٥٦٣١

[٥] - صحيح مسلم ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٢ ، الحديث رقم ٦٥٣١

لكن على الإنسان أن يحذر من أن يأتي يوم القيامة وقد كفر بهذا الخالق العظيم ، أو عبد آلهة أخرى معه ، لأنه سبحانه و تعالى لا يغفر أن يشرك به ، و رحمته يوم القيامة لن يكون للكافرين فيها نصيب ، وهذا من أبسط درجات العدل ، فليس من حق من يتطاول على الله عز وجل أن يطمع في رحمته

♦ **سادساً :**

والله عز و جل برغم أنه خلق هذا العدد الضخم من المجرات ويطويها في يمينه قرر بحكمته أن يتصل بهذا المخلوق الصغير على سطح هذه الشظية الصغيرة الناتجة عن الانفجار الكبير – على حد وصف د: ريتشارد - عن طريق أفضل البشر في عصورهم وهم الرسل ، وذلك لكي يعرف هذا الإنسان بربه الذي خلقه ، و لكي يحرره من كل صور الاستبداد الذي تمارسه ضده طبقة رجال الدين أو أي طبقة أخرى تدعي الحكمة أو تحتكر العلم ،

١- وبناءً على ذلك فليس هناك بين الإنسان وبين الخالق العظيم أي حاجز مقدس أو غير مقدس ، لا ابن ولا روح قدس ، ولا ثالوث مقدس غامض كما في المسيحية و اليهودية ، ولا آلهة وسيطة على شكل أصنام أو أرواح أو صالحين ماتوا منذ زمن بعيد مثل كل آلهة شعوب شرق وجنوب شرق آسيا ، ليس هناك للمخلوق سوى إله واحد فقط هو الخالق الذي خلقه و سخر له الكون من حوله ، وهذا الخالق لم يجعل واسطة بينه وبين المخلوق الذي خلقه ، ولم يوكل أحداً في مخاطبة مخلوقاته بالنيابة عنه أيّاً كان هذا الشخص أو هذه الجهة ، فالوجود كله ليس فيه سوى موجودين اثنين لا ثالث لهما ، خالق عظيم القدرة والعلم و الرحمة ، ومخلوقات كلها تدين لهذا الخالق بالفضل و النعمة و الخضوع ، فكل صور الآلهة التي يعبدها البشر من دون الله عز وجل ، هي أصنام لا تنفع ولا تضر ولا تسمع شيئاً من دعاء ولا من صلوات البشر ، وجميعها آلهة مزعومة و مزورة ، بما فيها الصلبان المرسوم عليها صورة رجل مصلوب ، أو حتى الصالحون الذين ماتوا في الماضي و أصبح الناس يقدسونهم لصلاحهم ، ليس في الوجود كله سوى صورتين فقط من صور الموجودات ، إله خالق ، وعبيد مخلوقون ، وكل الوسائط بينهما أوهام وخرافات لا يستطيع كل سكان كوكب الأرض أن يقيموا الدليل على أحقيتها بالألوهية أو حتى بالتقديس، وكل ما يستطيع رجال الأديان المزورة قوله أو فعله في سبيل التدليل على ألوهيتها ، لا يزيد على أن يكون دليلاً مشابهاً للورقة التي تحمل مقاطع من أغنية مطرب مشهور في المثال الذي ضربناه في أول سطور مقدمة هذا الكتاب

٢- وليس هناك إله تجسد في صورة إنسان وسمح لأعدائه أن يذبحوه على الصليب من أجل نزع غضب أبيه على البشر وغسل الذنب الموروث الذي ورثوه عن أبيهم آدم بسبب خطيئة ارتكبها منذ آلاف السنين حين أكل من الشجرة ، **و ليس هناك ذنب موروث** ولا غير موروث لأن الله عز وجل أخبرنا أن آدم تاب من ذنبه على الفور وقبل الله توبته ، **وعليه لم يترك آدم وراءه ذنباً يورثه لأبنائه**، كما أن الله عز وجل لا يحمل أحداً من البشر ذنباً ارتكبه غيره حتى و إن كان أقرب الناس إليه ، قال تعالى :

(و لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) (سورة فاطر ١٨)

و الواقع أن المسيحيين يضعون السيد المسيح عليه السلام في أحرج المواقف أمام خالقه سبحانه وتعالى بسبب هذا الزعم - الذي لم يزعمه لنفسه - حين يقف بين يدي ربه للحساب يوم القيامة في مشهد تقشعر له الأبدان يصفه القرآن الكريم في سورة المائدة بقوله تعالى :

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ● مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (المائدة ١١٦ و ١١٧)

أليس العهد الجديد يصدق كل حرف ورد في هذه الآيات كما جاء في إنجيل يوحنا الإصحاح الخامس ٢٤ :

(الحق الحق أقول لكم: من يسمع لي ويؤمن بمن أرسلني فله الحياة الأبدية ولا يأتي إلى الدينونة لأنه انتقل من الموت إلى الحياة)[١] ؟

هل تعني كلمة "ويؤمن بمن أرسلني" شيئاً غير أنه رسول مرسل إلى الناس من خالقهم وخالق الكون؟ وهل لو كان المسيح عليه السلام إلهاً أو متحداً مع الإله في ثالوث مقدس لا ينفصل أي من أقانيمه عن الأقنومين الآخرين لحظة واحدة ، هل كان من الممكن أن يكون رسولاً من عند الأقنوم الأول ويقول (ويؤمن بمن أرسلني) ؟ أليست كلمة (أرسلني) تفيد وجودين منفصلين ؟ أم أن رجال الدين المسيحيين يريدون منا أن نؤمن بأن الإله أرسل نفسه إلى البشر ، ثم قال للناس (عليكم أن تسمعوا لي و تؤمنوا بي أنا الذي أرسلتني إليكم) ؟

٣- وليس هناك خمسة آلاف قسيس علي يمين الرب يجب على الإنسان إرضاؤهم لكي يدخل الجنة، فالإنسان ليس مطالباً سوى بإرضاء الخالق الذي خلقه فقط ، وهذا الخالق سبحانه وتعالى لم يجعل رضاه يمر عبر أحد من الوسطاء ، لا من القساوسة ولا من كل البشر ، بل ولا حتى من الملائكة ، إن رضاه سبحانه وتعالى أقرب للإنسان من كل ذلك ، فقد جعل رضاه مرهوناً بالعمل الصالح ، و أكثر الأعمال الصالحة إرضاءً لله عز وجل هو مساعدة المحتاجين و فك كربات الناس ، وخاصة الذين ليس لهم من يهتم بهم ، فكافل اليتيم الذي ينفق عليه حتى يكبر سيأتي يوم القيامة في الفردوس الأعلى من الجنة ، وهو مكان أعلى من مكان جميع رجال الدين ، ليس هذا فقط ، بل لقد جعل الله عز وجل رضاه في رفع المعاناة حتى عن الحيوان ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

«بينا رجلٌ يَمشي فاشتدّ عليه العَطَشُ، فنَزَلَ بِئراً فشَرِبَ منها، ثمّ خرَجَ فإذا هو بكَلْبٍ يَلْهَثُ يأكُلُ الثَرَى مِنَ العَطَش، فقال: لقد بَلَغَ هذا مِثْلُ الذي بَلَغَ بي. فمَلأَ خُفّهُ ثمّ أمسَكَهُ بفيه، ثمّ رَقِيَ فسَقَى الكلبَ، فشَكَرَ اللهُ لهُ فغَفَرَ له. قالوا: يا رسول الله ، وإنّ لنا في البهائِمِ أجْراً ؟ قال: في كلّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجر»[٢] .

---

[١] - الكتاب المقدس ، الترجمة العربية المشتركة، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، العهد الجديد، الاصدار الرابع ١٩٩٣، ط ٣٠، الصفحة ١٤٨

[٢] - صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ٢٣٢٣

بل الأكثر من ذلك ، فقد جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«بينما كلبٌ يُطيفُ بركيَّةٍ كادَ يَقتلهُ العطشُ إذ رأته بَغيٌّ من بغايا بني إسرائيلَ، فنزعَتْ مُوقَها فسقَتْه، فغُفِرَ لها به» [١]

والحديث بالطبع ليس دعوة للنساء لأن يمارسن البغاء ثم يطعمن الحيوانات الجائعة وبذلك يصبحن في مأمن من العقوبة يوم القيامة ، لكنه يبين أن الله عز وجل يجعل غفرانه قريباً من الذين تمتلئ قلوبهم بالرحمة على الآخرين وحتى على الحيوانات ،

٤- وليس هناك في الدين الحق شيء اسمه الاعتراف من أجل الحصول على المغفرة ، وهذه المهانة التي يتجرعها المسيحيون يوميّاً حين يذهبون لرجل قد يكونون هم أقرب إلى الله منه ، ويبوحون بأدق أسرارهم أملاً في الحصول على مغفرة للذنوب ، لم يكن المسيح عليه السلام يفعله مع الحواريين أو غيرهم ممن عاصروه، بل إنه رفض بكل أمانة وتواضع أن ينسب الغفران إليه حين طلب منه ، وعلم الناس أن الله عز وجل هو الذي يمنح الغفران ، **فمن أفضل من المسيح عليه السلام في الأمة المسيحية حتى يقوم بمنح الغفران الذي نفاه المسيح عن نفسه وأرجع أحقيته إلى الخالق وحده سبحانه وتعالى ؟**

٥- وليس هناك في الدين الذي أنزله الله عز وجل على كل الأنبياء رسول يدعي لنفسه صفات القداسة التي ترفعه فوق مقام البشر، بل إن أفضل الرسل وخاتمهم محمداً ﷺ أمر في القرآن الكريم أن يبلغنا هذه الرسالة في قوله تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) سورة الكهف (١١٠)

و جاء في سورة الأنعام قوله تعالى :

(قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) (الأنعام ٥٠)

ليس هذا فقط وإنما يبين لنا أن الرسول ﷺ مهمته أن يبلغ ما يطلب منه أن يبلغه دون أي تغيير أو تحريف ، و إلا تعرض للعقوبة الشديدة من الله عز وجل ، قال تعالى عن رسوله ﷺ: **(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۞)** سورة الحاقة (٤٤ – ٤٧)

ليس هذا فقط ، بل جمع رسول الله محمد ﷺ عائلته و قبيلته ليكونوا أول من يدعوهم إلى الإسلام ، فكان مما قال لهم كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة :

«قامَ رسولُ اللهِ ﷺ حينَ أنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} (الشعراء : ٢١٤) قال: يا معشَرَ قُرَيشٍ ـ أو كلمة نحوها ـ اشتَرُوا أنفُسَكم، لا أُغني عنكم منَ اللهِ شيئاً، يا بني عبد منافٍ لا أغنِي عنكم منَ اللهِ شيئاً، يا عباسُ بنَ عبدِ المُطَّلِبِ لا أغني عنكَ منَ اللهِ شيئاً. يا صفيَّةُ عمة

[١] - صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ٣٣٩٢

رسولِ اللهِ لا أغني عنكِ منَ اللهِ شيئاً. ويا فاطمةُ بنتَ محمدٍ سَليني ما شِئتِ من مالي، لا أغني عنكِ منَ اللهِ شيئاً»[١].

والمعنى واضح جدّاً ، فرسول الله محمد ﷺ يحذر أقرباءه من أن يغتر أحدهم بصلة القرابة للرسول الذي ينزل عليه وحي السماء ، فيكون ذلك دافعاً له على التقصير في حق الله عز وجل ، أو الشعور بأنه أعلى من بقية المسلمين ، لذلك قال لهم (اعملوا فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً) حتى قال لابنته فاطمة رضي الله عنها (سليني من مالي ما شئت) أي أستطيع أن أعطيك من مالي ما تريدين ، لكني لا أستطيع أن أضمن لك الجنة إن قصرت في حق الله عز وجل ، و كذلك قال لعمه العباس و لعمته صفية (إعملي فلا أغني عنك من الله شيئاً)

هؤلاء هم الأنبياء حين يبلغون دين الله عز وجل ، لا يطلبون لأنفسهم شيئاً من متاع الدنيا ، ولا حتى المكانة العالية بين الناس ، لو كان رسول الله محمد ﷺ رجلاً كاذباً كما يزعم أعداؤه ، وأنه ادعى أنه رسول لكي يرفع نفسه بين العرب ، و لكي يصبح ملكاً عليهم ، هل كان يمكنه أن يقلل من شأن نفسه ويقول لأهله (لا أغني عنكم من الله شيئاً ؟) قبل أن يسمع أحد في أهل مكة بدعوته مطلقاً - حيث أنه أمر أن يبدأ في تبليغ الإسلام بأهله - ؟

لكن ليس معنى هذا أننا لا نحترم رسولنا ، بل على العكس ، إننا نحترمه ونحبه أكثر مما نحب آباءنا وأبناءنا بل و أنفسنا ، لأنه هو الذي بذل حياته من أجل أن يعرفنا بالخالق العظيم الذي خلقنا و سخر من أجلنا كل ما في الكون

من ناحية أخرى : إذا كان رسول الله محمد ﷺ يقول لنا أنه لا يعلم الغيب ، و يقول لابنته فاطمة أنه لا يملك لها من الله شيئاً ، وأن عليها أن تعمل كبقية المسلمين حتى تكون من أهل الجنة ، فليس هناك أحد بعد الرسول الخاتم ﷺ يملك أن يكون أفضل منه

ومن ثم فإن كل صور تقديس الصالحين و الأولياء و رفعهم فوق درجة البشر والتي تنتشر عند بعض الفرق الإسلامية هي من الجهل الذي جاء الإسلام ليقضي عليه ، فالإسلام لا يمنع من محبة الصالحين والاقتداء بهم في الأعمال الصالحة ، هذا جيد ، لكن الذين يظنون أن هؤلاء الصالحين يعلمون الغيب و يملكون أن يرزقوا الإنسان و أن يشفوه من الأمراض ، قد يصل بهم الأمر إلى الشرك الأكبر الذي يخرج الإنسان من الإسلام كليّاً ، مثل الشيعة الذين يؤمنون بأن الإمام علياً – زوج بنت رسول الله محمد ﷺ – يعلم الغيب و يتصرف في الكون هو و بعض أهله من آل بيت الرسول ، ويدعونهم كما يدعو المسلمون الله عز وجل تماماً ، فكل من يؤمن بأن واحداً من البشر (مهما علا قدره) يعلم الغيب ، و يملك تصريف شؤون العباد فقد خرج من الإسلام ، و تساوى مع الأمم الأخرى التي عبدت أنبياءها و صالحيهم ، لأن الإسلام قائم في أساسه على التوحيد الخالص لله عز وجل ، والحقيقة أن الشيعة اختزلوا صرح الإسلام الضخم في شخص الإمام علي وابنه الحسين وزوجته فاطمة رضي الله عنهم جميعاً ، تماماً كما اختزل المسيحيون صرح الدين العظيم الذي جاء به عيسى عليه السلام في شخصه هو فقط ، وكما اختزل البوذيون دينهم في شخص بوذا و كل هؤلاء حرموا أنفسهم من ٩٥% من الخير الذي نزل به وحي السماء

---

[١] - صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ٢٦٩٤

♦ **سابعاً : ليس هناك في الدين الحق أموال تدفع لرجال دين ولا للكنائس ولا للمساجد تحت أي مسمى** ، و لذلك فكل صور ابتزاز الناس باسم الدين هي نصب و احتيال عليهم ، بل هي الهدف الأسمى الذي لا يطمع تجار الأديان في شيء غيره ، وعليه فالقصص المحزنة التي نسمعها هنا أو هناك عن وقائع النصب و الاحتيال باسم الدين – مثل التي جاءت في كتاب وهم الإله - يقع الخطأ الأكبر فيها على الناس الذين ينخدعون بسرعة بهؤلاء المحتالين

نعم لقد شرع الله عز وجل التكافل بين الناس بأن يساعد الغني منهم الفقير ، وفرض الزكاة على الأغنياء ليكون هناك تراحم بين أفراد المجتمع ، و هذه الزكاة هي قدر من أصل المال (٢,٥%) الذي ظل في ملكية الغني عاماً كاملاً ، لكن الله عز وجل حدد للإنسان لمن يدفع هذا القدر من المال ، وهم الفقراء و المساكين و الأيتام والأرامل و المعسرون من الديون وكل شخص وقع في ضائقة مالية ويحتاج لمن يساعده ، كما أمر الله عز وجل أن يبدأ الإنسان بأقربائه من الفقراء ثم يبحث عمن هم خارج عائلته ، كل هؤلاء الأصناف يجب أن يدفع لهم المال مباشرة ، يداً بيد ، ودون المرور على أي رجل دين في كنيسة و لا في مسجد ولا في معبد و لا في حسينية ولا في أي مكان آخر ، قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً ص :

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) سورة البقرة (٢١٥)

و لقد جعل الله عز وجل هذا التكافل من أهم صور التقرب إليه سبحانه وتعالى ، بل بين أن الجزاء على إنفاق المال للفقراء و الأيتام و الأرامل و المحتاجين يتضاعف إلى سبعمائة ضعف باعتباره إنفاقاً في سبيل الله ، قال تعالى :

(مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) سورة البقرة (٢٦١)

وقد بين رسول الله ﷺ أن الإنسان لا يعد مؤمناً إذا بات شبعانَ و جاره جائع ، ففي تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي باب حق الجار عن ابن عباس مرفوعاً : (والله لا يؤمن من بات شبعانَ و جاره جائع)[1]

جاء على موقع (BBC عربي بتاريخ ١٨ سبتمبر ٢٠١٣م) أن أمريكا بها ٤٦ مليون شخص تحت خط الفقر ، لو طبق هذا الحديث ٤٦ مليون غني من بقية الشعب الأمريكي الذي يزيد تعداده على ٣٢٠ مليون نسمة ، فلن يكون هناك فقراء في ذلك البلد ، هل يتصور أحد ما معنى أن يكون هناك من يقول لمائتين و ثمانين مليون شخص : (إن كنت تحب الخالق الذي خلقك وتريد دخول الجنة ، فعليك ألا تنام لليلتك إلا بعد أن تطمئن أن جارك لن ينام جائعاً) ؟ هذا كان هو الأولى أن يعلمه رجال الدين للشعب الأمريكي ، وليس أن يجمعوا منهم ٨ ملايين دولار بزعم أن الرب أمرهم بجمعها، لقد تعلمنا في الإسلام أن رضا الرب يقبع هناك عند أبواب الأرامل و الأيتام و المحتاجين وليس داخل الكنائس أو المساجد أو المعابد المزخرفة

[1] - المباركفوري أبو العلا ، تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي ، دار الفكر ، صفحة ٤٨

من ناحية أخرى : لو جمع أثرياء الشعب الأمريكي قدراً من المال يساوي زكاة المال وهو ٢,٥% من الأصول التي ظلت في ملكيتهم عاماً كاملاً ، كم ستبلغ هذه الأموال ؟ و إذا حاولوا دفعها للفقراء إرضاءً لخالقهم وليس إرضاءً لرجال الدين ، فكم سيكون نصيب كل فقير من فقراء أمريكا ؟ أليست فريضة الزكاة تكفي بمفردها لحل مشكلة الفقر في كل بلدان العالم ؟

♦ **ثامناً :**

لقد حرم الله عز وجل في الدين الحق الذي أنزله على جميع الرسل ، كل صور الوثنية التي تعيد الناس إلى عبادة الأصنام ، فحتى الكعبة المشرفة التي جعلها الله عز وجل رابطاً بين جميع الأمم و جميع الأنبياء ، رفع الله عز وجل حرمة الإنسان فوق حرمتها، فقد جاء في سنن ابن ماجه من حديث رسول الله ﷺ:

(حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيَقُولُ: مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ. مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ حُرْمَةً مِنْكِ. مَالِهِ وَدَمِهِ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا)[١]

هكذا جعل رسول الله ﷺ حرمة الإنسان أعلى من حرمة الكعبة المشرفة ، حتى في مجرد الظن السيئ به ،

فكل المزاعم الباطلة عن المسلمين بأنهم يعبدون صندوقاً أسود في مكة ، و يظنون أن إلههم يسكن بداخله ، و غير ذلك من الأفكار الخاطئة عن الإسلام ، لا وجود لها على أرض الواقع ، فجميع المسلمين يعلمون أن إلههم و خالقهم يطوي الكون كله في قبضته ، ولذلك فكل الكون بمجراته و نجومه و جميع ما فيه لا يمثل إلا شيئاً ضئيلاً في قبضة الله عز وجل ، فالله عز وجل لا يسكن في الكعبة ولا في جبل صهيون و لا في أي مكان داخل الكون الذي نسكنه، وكل من يزعم أن إلهه يسكن في مكان ما على سطح الأرض هو إنسان جاهل لا يعرف عمن يتحدث

من ناحية أخرى : فقد بين الله عز وجل أن الشعائر الدينية لم تشرع لكي تصبح حركات جسدية مفرغة من المضمون ، فالدين الحق الذي شرعه الله عز وجل لجميع الأمم هو دين العمل الجاد لمصلحة المجتمع كله ، وليس مجموعة شعائر روتينية تؤدى بالجسد ، قال تعالى :

(لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

(سورة البقرة ١٧٧)

والآية صريحة ، فليس المقصود من الصلاة أن ترتبطوا بجهة الشرق أو الغرب لكي تتجهوا إلى الكعبة ، ليس المقصود الارتباط بالمكان مهما كان هذا المكان شريفاً ، لكن المقصود هو العمل ، ثم العمل ، ثم العمل، المقصود هو الإيمان بالله الذي خلق الإنسان ، ثم السعي في

[١] - سنن ابن ماجة ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ٤٠١٨

الأرض من أجل نشر الخير على الأرض ، ومن أجل إنفاق المال برغم حب الإنسان له على من يحتاج المساعدة ، و المقصود هو إقامة الصلاة والزكاة التي بها يتكافل المجتمع ، ثم الوفاء بالعهود ، و الصبر على الشدائد ، هذا هو المقصود وليس التوجه إلى الشرق أو الغرب

هذا ما استطعت أن أشرحه عن مفهوم الإله ، وأعترف أنني لم أستطع أن أعطي الموضوع حقه لأنني لست من رجال الدين المتخصصين ، وهذه المعلومات التي ذكرتها يؤمن بها كل مسلم عادي وكل مسلمة عادية ولدوا في بلاد مسلمة ، دون أن يكونوا قد حصلوا على دورات في علم الأديان ، ولا على شهادات من أي من الجامعات الدينية، لكن أعتقد أنني أوضحت بعض النقاط الهامة بشكل عام بالقدر الذي يسمح لنا بالانتقال إلى المرحلة الثانية من مراحل الدليل على وجود الله كما حددها لنا السير أنتوني فلو وهي مرحلة (كيف تتم دراسة الظاهرة)

الفصل الثالث - المرحلة الثانية

(كيف تتم دراسة الظاهرة)

لنسأل أنفسنا جميعاً (مؤمنين وملحدين) السؤال التالي :

بفرض أن الله موجود وأنه يريد أن يعطينا الدليل الذي لا يقبل الشك على وجوده ، ما هو نوع هذا الدليل ؟ وكيف يمكن أن يتواصل معنا حتى نستطيع فهم هذا الدليل والتصديق بأن الله موجود ؟

هنا تظهر نقطة هامة وهي أن هذا الدليل يجب أن يكون مقنعاً وكافياً لجميع البشر في جميع الأزمان وجميع الأماكن على اختلاف معارفهم وثقافاتهم ولغاتهم منذ ظهور أول إنسان وحتى الآن، لأن كل جيل من أجيال البشر له الحق في أن يقدم له الدليل الذي لا يقبل الشك على وجود الله قبل أن يحاسب على الكفر أو يكافأ على الإيمان

وعلينا الآن أن نتخيل إلى أي مدى يجب أن يكون هذا الدليل متماشياً مع جميع مستويات المعرفة الإنسانية التي ستتدرج من عصر كان الإنسان فيه يلبس جلود الحيوانات إلى العصر الذي وطأت فيه قدمه على سطح القمر ، ثم إلى العصور التالية والتي ربما تطأ فيها قدمه سطح كوكب من خارج مجموعتنا الشمسية

نلاحظ أن تطور معارف الإنسان – نقصد المعارف التي مصدرها بشري - يمكن تقسيمها إلى قسمين هامين : القسم الأول كان بمثابة مرحلة الطفولة والصبا – فقط من الناحية العلمية - وفيها كانت معارفه كلها قائمة على التخمين المستند إلى قدر ضئيل من المشاهدات التي تنتج في النهاية استنتاجات بدائية ساذجة أغلبها غير صحيح والقليل منها يحمل قدراً من الحقيقة، وأعتقد أن هذا القسم امتد منذ ظهور الإنسان وحتى القرن الرابع عشر للميلاد، أما القسم الثاني فيتميز

بالقدرة التي اكتسبها الإنسان على إجراء التجارب وتمحيص النتائج والوصول إلى الحقائق المستندة إلى أدلة علمية تجريبية لا تقبل الشك ، وقد امتد هذا القسم منذ القرن الخامس عشر وسوف يستمر إلى نهاية وجود الإنسان على الأرض

ونعود الآن للسؤال الهام ، ما هو نوع الدليل المناسب لكل عصر وكيف سيتم طرحه على البشر الذين يعيشون في مختلف العصور؟

دعونا نتخيل بعض البدائل ونبدأ بالبديل الأول اعتماداً على حواسنا الخمس :

١- **البديل الأول** (الرؤية المباشرة): هل تستطيع العين البشرية رؤية الله أم لا ؟
يخبرنا العلماء أن مجال الرؤية للعين البشرية ينحصر فيما يعرف ب (الطيف المرئي visible spectrum) وهو الطيف الكهرومغناطيسي الذي ينحصر طوله الموجي بين ٣٨٠ إلى ٧٤٠ نانومتر، وهي المنطقة المحصورة بين الطيف الأحمر والطيف البنفسجي ، وكل ما يقع تحت الطيف الأحمر أو فوق البنفسجي لا نستطيع رؤيته وبالتالي فإن العين البشرية محدودة القدرة بشكل كبير، أما من حيث الحجم فنحن نستطيع أن نرى الأجسام الصغيرة حتى دقة جزء من المليمتر تقريباً ولا نستطيع رؤية الأجسام الأصغر من ذلك

ولذلك أجاب الله سبحانه وتعالى على السؤال (هل تستطيع العين البشرية رؤية الله ؟) فأخبرنا عن نفسه في القرآن الكريم بأنه

(لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) سورة الأنعام ١٠٣

أي ليس في استطاعتها إدراكه، ولذلك عندما طلب رسول الله موسى صلى الله عليه وسلم من الله أن يراه قال له **(لن تراني)** أي لا تستطيع عينك البشرية أن تراني

ولكن قد يسأل أحدنا سؤالاً: لماذا لم يخلق الله لنا عيناً قوية بما يكفي لأن نراه ؟

للإجابة على هذا السؤال نتخيل أن أعيننا منحت قدرة أكبر بمليار مرة عما هي عليه الآن وأنها أصبحت قادرة على رؤية أشياء أصغر بمليار مرة من أصغر شيء نستطيع رؤيته وكذلك أكبر بمليار مرة من أكبر شيء نستطيع رؤيته فكيف ستكون حياتنا ؟

في الحالة الأولى : سوف يكون بمقدورنا أن نرى البكتيريا والجراثيم والكائنات الدقيقة التي تملأ الهواء والماء والطعام وكل ملليمتر في الأرض من حولنا ، وعندها لن نستطيع أن نضع أي طعام في أفواهنا ولا أن نشرب شربة ماء ، كما أننا لن نستطيع النوم بسبب العدد الهائل من الكائنات الدقيقة التي نراها على الفراش ، وأخيراً لن يستطيع أحدنا أن يتحدث مع أي شخص آخر ولا أن يقترب منه بسبب ملايين الكائنات الدقيقة التي تحيط بجسد كل منا

أما في الحالة الثانية فلو أن عيوننا استطاعت رؤية أشياء تبعد عنا بمسافة أكبر بمليار مرة مما نحن عليه الآن ، فإننا سنكون قادرين على رؤية عدد هائل من النيازك والشهب والأجسام الكونية وهي متوجهة نحونا بسرعة فائقة ثم نراها وهي تحترق عند دخولها المجال الجوي للأرض ، تخيل لو أن عشرة رجال قاموا بقذفك بالحجارة في وقت واحد فهل تستطيع أن تفكر

في شيء آخر مهما كانت أهميته لك قبل أن تنتهي مشكلة هذه الحجارة المتوجهة إليك سواء بالهروب منها أو بصدها بلوح معدني مثلاً ؟

هكذا سوف تتحول حياتنا إلى جحيم لا يطاق في كلتا الحالتين ، لذلك خلق الله العين البشرية لتناسب حياة مستقرة هادئة للإنسان يقوم فيها بكل وظائفه وأنشطته بسهولة ويسر

من ناحية أخرى ، لو سألنا أنفسنا السؤال التالي: هل تستطيع الكائنات وحيدة الخلية أن ترى الإنسان ؟ بالطبع لا يمكنها ذلك لأن حجم الإنسان بالنسبة لها لا نهائي و لذلك لا تستطيع أداة الرؤية عندها أن تحيط بأبعاد الإنسان حتى يمكنها تمييزه عن غيره ، وحاشا لله أن نشبهه بالإنسان لكننا نحاول تقريب المعنى فقط بشيء تفهمه العقول ، لأن الله عز وجل **"ليس كمثله شيء"** كما أخبرنا سبحانه وتعالى عن نفسه، لكننا على يقين من أن خالق الكون الذي يحوي كل هذا العدد من المجرات هو قطعاً أكبر من أن تحيط به عقولنا

والآن إذا تصورنا أن أحد الكائنات وحيدة الخلية أعلن أنه لا يعترف بوجود الإنسان لأن عينه لا تراه، فما هو وزن عدم الاعتراف هذا بالنسبة للإنسان ؟ أو بالنسبة للحقيقة ؟

لذلك أجاب الله عز وجل في القرآن الكريم على سؤال الملحدين الذين اشترطوا رؤية الله عز وجل حتى يعترفوا بوجوده بقوله تعالى في سورة الفرقان (٢١ و ٢٢) :

"وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ☼ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا"

لكن علينا أن نؤكد أن الله سبحانه وتعالى سوف يمنح عيون المؤمنين الذين سيدخلون الجنة القدرة على رؤيته مصداقاً لقوله تعالى في سورة القيامة **"وجوه يومئذ ناضرة ☼ إلى ربها ناظرة"** لأن كل المقاييس في ذلك اليوم ستكون مختلفة عن مقاييس الحياة على الأرض

٢- **البديل الثاني (السمع المباشر):** هل تستطيع الأذن البشرية سماع كلام الله مباشرة ؟ يخبرنا العلماء أن الأذن البشرية قادرة على سماع الأصوات التي ينحصر ترددها بين ٢٠ هرتز و ٢٠ ألف هرتز ، وأي صوت غير واقع في هذا المدى فليست لنا القدرة على سماعه، والآن نسأل : هل تستطيع الأذن البشرية سماع صوت الله ؟ يخبرنا الله سبحانه وتعالى عن ذلك في القرآن الكريم سورة الشورى بقوله :
(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) سورة الشورى (٥١)

والآن نعيد السؤال نفسه : لماذا لم يخلق الله لنا أذناً قوية بما يكفي لسماع صوته سبحانه ؟

ومرة أخرى نحاول أن نتخيل أن أذننا منحت قوة أكبر بمليار مرة من قوتها الآن ، عندها سوف يصبح سماع صوت جناح ذبابة تطير في حجرة مجاورة مشابها لصوت زلزال مروع بقوة عشر درجات على مقياس ريختر، فما بالنا بصوت السيارات التي لا ينقطع هديرها من حولنا ، أو صوت الطائرة عندما تبدأ في الإقلاع، وحتى لو هربنا إلى مكان ليس فيه شيء من هذه الضوضاء التي صنعناها بأيدينا ، فلن يكون بمقدورنا النوم بسبب الضجيج الذي تحدثه ضربات

القلب والذي سيكون أقوى من الضجيج الذي تحدثه آلة دق الخوازيق (Pile Driving Equipment) التي تستخدم في إنشاء أساسات الكباري الضخمة أو المباني شاهقة الارتفاع

وما يقال عن العين والأذن يقال عن باقي الحواس

من هذين المثالين يتضح لنا أن الله عز و جل خلق للإنسان حواسه بما يتناسب مع البيئة المحيطة به حتى يستطيع الاستمرار في الحياة على كوكب الأرض ، و لكن هذه الحواس ليست قادرة على التعامل مع مستويات أصغر أو أكبر من **المدى المسموح** لها بالتعامل معه

٣- ولنقترح الآن بديلاً ثالثاً :

لنفترض أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعطي دليلاً حسيّاً على وجوده بأن منح عيون البشر القدرة على رؤيته بشكل لحظي ، أي لمدة دقائق قليلة تراه فيها ثم تعود لحالتها الطبيعية بعد ذلك لكي نستأنف حياتنا ، لذلك جعل السماء في إحدى الليالي تضيء فجأة بنور قوي وينفتح فيها ما يشبه الباب الضخم الذي سنتمكن منه من رؤية نور الله سبحانه وتعالى أو أي شيء آخر يدل دلالة قاطعة عليه ، هل يمكن أن يكون هذا دليلاً يصدقه الملحدون على وجود الله؟ وإذا وافق الملحدون على هذا الدليل ، فكم مرة يجب أن يحدث هذا على امتداد عمر الإنسان ؟ كل يوم ؟ أم كل شهر أم كل عام ؟ وفي كم مدينة وكم قرية وكم جزيرة؟

لكن الله عز و جل أخبرنا أنهم لن يصدقوا بوجود الله حتى لو فتح لهم مثل هذا الباب ، قال تعالى في القران الكريم :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ) (سورة الحجر ١٤ و ١٥)

ونستطيع أن نؤكد أنه لو حدث هذا البديل فإننا كنا سنراهم يتسابقون في إصدار الكتب التي تصف المؤمنين به بالجهلة والعميان والأغبياء والمتخلفين لأنهم يؤمنون بالخرافات ، وتصف المكذبين به بأنهم أذكياء نجحوا في رفع وعيهم سواء بالانتخاب الطبيعي أو بأي شيء آخر إلى درجة تحصنهم من تصديق الخرافات

٤- ولنقترح بديلاً رابعاً :

لو أن الله عز وجل اختار أفضل رجل (أو أفضل امرأة) من كل مدينة أو قبيلة ليكون هو أو هي أداة الوصل بينه وبين البشر ليقيم لهم الدليل على وجوده ، فكيف يمكن أن يصدق الناس أن هذا الرجل أو هذه المرأة صادقون فيما يخبرون به عن الله وليسوا من الكاذبين الذين يتاجرون بالأديان ؟

وإذا افترضنا أن الله عز و جل أنزل على كل رجل (أو كل امرأة) من الذين وقع عليهم الاختيار كتاباً ماديّاً مكتوباً بماء الذهب – أي أنزل كتاباً من السماء يمكن لمسه باليد ورؤيته بالعين وليس إملاءً عن طريق الوحي - وكل مدينة أو قبيلة يكون كتابها مكتوباً بلغتها مباشرة ، ويحتوي على صفات الله وكل ما يحتاج البشر أن يعرفوه عن خالقهم ؟ فكم هو عدد الكتب المقدسة التي

يحتاجها البشر منذ الإنسان الأول وحتى الإنسان الأخير؟ وكم هي عدد اللغات المطلوبة لتحقيق هذا الهدف ؟

لكن ليست هذه هي المشكلة ، دعونا نتصور أن كل هذه الكتب وجدت بالفعل وأصبح في كل مدينة مثل هذا الكتاب المكتوب بماء الذهب ، و شاهده الملحدون وأمسكوا به بين أيديهم فهل سيكون ذلك كافياً لجعلهم يؤمنون بوجود الله ؟

يخبرنا الله سبحانه وتعالى أنهم حتى لو حدث كل ذلك فلن يؤمنوا، قال تعالى في سورة الأنعام :

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧)

والآن دعونا نسألهم : ما هو الدليل الذي يمكن أن يكون كافياً من وجهة نظرهم ؟

لقد أعطانا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم عينة من الطلبات التي طلبها الملحدون الأوائل حتى يؤمنوا ، فقال مخاطباً رسوله محمداً ﷺ :

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ۞ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلا بَشَرًا رَّسُولاً ۞ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ۞ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۞ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

سورة الإسراء (٩٠ – ٩٦)

القضية إذاً ليست قضية وجود الدليل مهما كان هذا الدليل واضحاً ، ولكن القضية هي أنهم لا يقبلون بوجود الإله لأنهم يشعرون أن هذا الإله سيقيد حريتهم في أن يعيشوا في الدنيا كما يشتهون

إن الدين يمثل قيداً على الإنسان في أوقات قليلة من عمره ، و في نسبة ضئيلة مما يأكل أو يشرب ، وكل هذه القيود لمصلحته هو وليست لمصلحة الإله، تماماً كما تمثل إشارة المرور قيداً على حرية الإنسان، إن الملحدين يريدون مجتمعاً يشبه المدينة الضخمة التي ليس فيها إشارات للمرور، ومع ذلك فهذا الملحد الذي لا يقبل أن يتحكم في حياته أحد غيره هو أول من يلتزم بالتوقف أمام إشارة مرور حمراء ، لماذا ؟ لأنه يعلم أن هذا القيد يحميه من الموت، الدين لا يتدخل بالقيود إلا إذا كان هناك تهديد جدي لحياة الإنسان ، والله عز و جل كما ذكرنا سابقاً لا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا ، بل ولا طاعة كل الكائنات الموجودة في كل الكون ولا معصيتهم

والآن دعونا نقترح على الملحدين أن يكون الدليل على وجود الله عز وجل هو العلم ، هل يوافقون ؟ حسناَ: سيكون هذا هو محور حديثنا في إثبات وجود الله سبحانه وتعالى

لقد اختار الله عز و جل أن ينزل آخر الكتب السماوية – القرآن الكريم – على آخر رسول (محمد ﷺ) في عام ٦١٠ ميلادية أي قبل بداية عصر التجارب العلمية بوقت كاف لتأسيس الدولة التي سترعى هذا الكتاب ، كما اختار سبحانه وتعالى أن يحمل هذا الكتاب الدلائل الكافية على صدقه ، والتي تكفي كل أهل زمان ومكان يأتون بعد زمان نزوله لكي يتثبتوا من صحته و صدقه (كل في مجال تخصصه) حتى آخر جيل من البشر ، وقد أودع في هذا الكتاب ثلاث خصائص هامة :

١- **الخاصية الأولى:** هي أن كل الخطاب الوارد فيه هو خطاب قادم مباشرة من الله سبحانه وتعالى ، وليس على لسان رسول من الرسل – مثلما يقال عن التوراة من أنها من صياغة موسى عليه السلام - ولا حواري من الحواريين ولا راو من الرواة سواء أكانوا شهود عيان أم لم يكونوا – كما هو الحال في الأناجيل الأربعة وما تلاها من رسائل العهد الجديد –
ليس هذا فقط ولكن أيضاَ الصياغة اللغوية التي نزل بها هذا الكتاب هي صياغة تفوق قدرة البشر على أن يقلدوها أو يصوغوا شيئاَ مثلها حتى لو كانت أسطراَ قليلة، لذلك تحدى الله عز وجل العرب الذين عاصروا نزول القرآن بأن يأتوا بنص مماثل ولو لسورة واحدة منه ، و برغم أنهم كانوا بارعين في البلاغة والشعر ، بينما لم يكن رسول الله محمد ﷺ يعرف القراءة ولا الكتابة ، إلا أنهم عجزوا واعترفوا بأنه ليس من كلام البشر

٢- **الخاصية الثانية** : هي أنه نفى كل ما جاء في كتب الرسالات السابقة – التوراة والإنجيل - من الخرافات التي ألحقها الرهبان بالكتب المقدسة ، سواء ما كان منها ذا طابع علمي يتحدث عن الكون المحيط بنا أو ما كان ذا طابع ديني أو تاريخي، **وهذه نقطة هامة جدّاَ لأنها تنفي بنسبة مائة بالمائة الزعم القائل بأن هذا القرآن هو من تأليف محمد ﷺ نقلاَ عن الكتب المقدسة التي كانت بحوزة اليهود والنصارى المعاصرين له (التوراة والإنجيل) ، أو تقليداَ لما تعلمه من أفواه الرهبان اليهود والنصارى مثل بحيرا الراهب أو غيره ، لأنه لو كان هذا الفرض صحيحاَ لجاء القرآن مشتملاَ على كل هذه الخرافات وبخاصة تلك التي لم نكتشف خطأها إلا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين باستخدام المراصد الضخمة والأجهزة المعقدة التي لم تكن متاحة في عصر نزول القرآن**

وهذه النتيجة لا يمكن أن يختلف معنا فيها أحد من العقلاء، وسوف نسوق الدليل عليها في المرحلة الثالثة من هذا الفصل

٣- **الخاصية الثالثة** : أنه احتوى على كم هائل من الإشارات العلمية التي لا يمكن لأي إنسان عاش في القرن السابع الميلادي أن يكون قادراَ على تصورها ، لأنها ببساطة لا يمكن اكتشافها إلا عن طريق التجارب العلمية في المختبرات الحديثة ، أو عن طريق

استخدام الأجهزة العلمية الدقيقة المتطورة وهو ما لم يكن متاحاً في ذلك الوقت ، ولن يكون متاحاً إلا بعد ذلك بأكثر من ألف وثلاثمائة عام

والمقصود من ذكر هذه الإشارات العلمية هو إقامة الدليل على صدق هذا الكتاب في كل العصور التالية حتى أخر جيل من البشر، ومنهم بالطبع جيلنا

أي أن الله عز و جل استبدل بالمعجزات التي كانت تبهر العقول في الأجيال البعيدة عنا ، الأدلة العلمية النابعة من مختبرات العلماء ، في إقامة الدليل لأجيال عصر العلم على وجوده وعلى كل قضايا الدين الأخرى، وأصبحت المكتشفات العلمية في كل فروع العلم – حتى ما يكتشف على أيدي العلماء الملحدين - هي ما سيحل محل معجزات الرسل في إثبات وجود الله سبحانه وتعالى ، حينما تتطابق تلك المكتشفات مع الحقائق الموجودة في الكتاب الذي أنزل قبل زمان اكتشافها بقرون طويلة ، **وأكد هذا المعنى قول الله تعالى في سورة فصلت**

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) سورة فصلت (٥٣)

وبذلك سيكون الدور الأساسي في حديثنا عن المرحلة الثالثة التي طالبنا بها السيد أنتوني فلو (طرح وتحليل الأدلة التي تثبت هذا المفهوم) هو طرح الأدلة العلمية غير القابلة للشك على أن جميع الحقائق العلمية التي وردت في القرآن الكريم متطابقة تماماً مع كل ما تم اكتشافه في العصر الحديث من حقائق في مختلف فروع العلم ،

فإذا تأكد لنا جميعاً أن كل الحقائق العلمية التي وردت في هذا الكتاب متطابقة تماماً مع الحقائق العلمية التي تم اكتشافها حديثاً والتي لم يكن باستطاعة أحد التحدث عنها بشكل صحيح قبل مائة سنة ، تأكد لنا جميعاً أن هذا الكتاب غير قابل للتشكيك وأنه أنزل من قبل الخالق الذي يتحدث عن مخلوقاته بكل حقائق العلم الثابتة و الصحيحة ، ويكون كل ما جاء فيه عن الله عز و جل وعن صفاته وعن خلقه للخلق وتدبيره لشؤونهم هو حقاً لا يقبل الشك ، وبالتالي يثبت وجود الله باليقين القائم على العلم الصحيح

الفصل الثالث - المرحلة الثالثة

(طرح وتحليل الأدلة التي تشير إلى صدق هذا المفهوم)

في كتابه القيم (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم – دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) ذكر الدكتور موريس بوكاي الجراح الفرنسي الشهير (في فصل : القرآن والعلم الحديث) ما يلي :

(لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية ، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف الحديثة وذلك في نص كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، في البداية لم يكن لي أي إيمان بالإسلام ، وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل

حكم سابق وبموضوعية تامة ----- لقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي ، أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن الظاهرات نفسها والتي لم يكن ممكناً لأي إنسان في عصر محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون عنها أي فكرة ---- إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو **ثراء الموضوعات المعالجة** ، فهناك الخلق وعلم الفلك ، وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض ، وعالم الحيوان وعالم النبات والتناسل الإنساني ، وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ ، وقد دفعني ذلك لأن أتساءل : لو كان كاتب القرآن إنساناً فكيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة ؟ ليس هناك أي مجال للشك فنص القرآن الذي نملك اليوم هو فعلاً نفسه النص الأول -- ما هو التعليل الإنساني الذي يمكن أن نعطيه لتلك الملاحظة ؟ في رأيي ليس هناك أي تعليل، إذ ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية في العصر الذي كانت تخضع فيه فرنسا للملك داجوبير Dagobert استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالي عشرة قرون ثقافتنا العلمية فيما يخص هذه الموضوعات)[1]

هذه هي النتيجة الواضحة التي توصل إليها الدكتور موريس بوكاي حين بحث الموضوع بحيدة تامة ، وهي النتيجة نفسها التي سوف يصل إليها كل من يقارن بين الحقائق العلمية التي وردت في القرآن الكريم والحقائق التي توصل إليها أعظم علماء العصر الحديث ، إذا كان يتمتع بالأمانة العلمية والتجرد من الهوى، ولنبدأ الآن في تحليل الأدلة لإثبات ذلك

لدينا في هذا الصدد أكثر من خمسمائة آية في القرآن الكريم تحمل حقائق علمية لم تكتشف إلا منذ ما يقرب من مائة عام و سنبدأ بالآيات التي تتحدث عن نشأة الكون وانتهائه :

١- قال تعالى في سورة الأنبياء **(٣٠ – ٣٣)**
(أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ☼ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ☼ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ☼ وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ☼)

٢- قال تعالى في سورة الذاريات **(والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ☼)** (٤٧)

٣- قال تعالى متحدثاً عن اليوم الأخر (**يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين)** سورة الأنبياء (١٠٤)

تتحدث هذه الآيات عن الحقائق العلمية الآتية :

١- أن الأرض التي نعيش عليها كانت تشكل مع السماوات جزءاً واحداً ثم انفصل كل منهما عن الآخر
٢- أن الماء هو أصل الحياة فلا توجد حياة بدونه

---
[1] - د : موريس بوكاي ، القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٤ ، صفحة ١٥٠ – ١٥٢ بتصرف

٣- أن الجبال تؤدي مهمة أساسية في الحفاظ على اتزان الأرض وانتظام حركتها
٤- أن الغلاف الجوي للأرض يؤدي دوراً أساسياً في حماية سكان كوكب الأرض من أخطار مدمرة
٥- أن الشمس تدور و تسبح في الفضاء و أنها تتحرك في مسار شبه دائري
٦- أن الأرض و القمر يدوران و يسبحان أيضاً في الفضاء في مسار شبه دائري
٧- أن الكون في اتساع مستمر
٨- في اليوم الآخر – الذي ربما يكون مختصّاً بالمجموعة الشمسية فقط ، أو بالمجرة التي نسكنها ، أو ربما بمجرتنا مع إحدى جاراتها من المجرات ، أو ربما سيكون شاملاً للكون كله – ستكون مراحل النهاية صورة طبق الأصل من مراحل الخلق الأولى ولكن بصورة معكوسة

ولنأخذ كل حقيقة من هذه الحقائق بشيء من التفصيل:

الحقيقة الأولى: في قوله تعالى : "كانتا رتقاً ففتقناهما" سورة الأنبياء ٣٠

والحقيقة الثانية : في قوله تعالى "والسماء بنيناها بأييد وإنا لموسعون" سورة الذاريات ٤٧:

تتحدث الآية ٣٠ من سورة الأنبياء عن حقيقة علمية دقيقة لم يعرفها العلماء إلا منذ سنوات قليلة وهي أن كل السموات التي تحيط بنا كانت تشكل مع الأرض التي نعيش عليها جسماً واحداً متماسكاً ، ثم حدث " فتق" - أي فصل وتمزيق تحت تأثير قوة - أدى إلى فصل مكونات هذا الجسم الواحد إلى ما نراه اليوم من أجزاء الكون الفسيح التي تشكل السموات من حولنا والأرض التي نعيش على سطحها

وتتحدث الآية ٤٧ من سورة الذاريات عن حقيقة علمية ثانية أثبتها علماء العصر الحديث منذ أقل من ستين عاماً وهي حقيقة تمدد الكون وتوسعه المستمر

ولنترك العلماء يشرحون لنا ما توصلوا إليه في هذا الصدد :

في كتابه القيم "الكون الأنيق – الفصل العاشر" ذكر البروفيسور براين غرين عالم الفيزياء النظرية والرياضيات الأمريكي المشهور تحت عنوان "ثانياً :الملعب الكوني" ما يلي:

(تبعاً لنموذج الانفجار الهائل في علم الكون فإن كل العالم قد **انبثق بعنف من انفجار عالمي مفرد** منذ حوالي ١٥ مليار سنة مضت، واليوم وكما تم اكتشافه في الأصل بواسطة هابل فإننا يمكن أن نرى شظايا هذا الانفجار على شكل المليارات الكثيرة من المجرات التي ما زالت تتباعد إلى الخارج، **فالكون في حالة تمدد، ولا نعلم هل سيستمر هذا التمدد إلى الأبد أم سيأتي وقت يتباطأ عنده ثم يتوقف التمدد لينعكس اتجاهه بعد ذلك مؤدياً إلى انهيار كوني إلى الداخل)**[١]

ويذكر أيضا البروفيسور براين غرين في الكتاب نفسه في الفصل الرابع عشر تحت عنوان (أولا : النموذج القياسي للكوسمولوجيا) ، أو علم الكون ما يلي :

[١] - د: برايان غرين، الكون الأنيق، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ، صفحة ٢٦٠

(يرجع ظهور النظرية الحديثة لأصل الكون لعقد ونصف العقد بعد اكتمال النسبية العامة لأينشتاين، **ومع أن أينشتاين قد رفض أن يعطي نظريته قيمتها الحقيقية ويوافق على أنها تتضمن أن الكون ليس أبديّاً ولا ساكناً** ، غير أن ألكسندر فريدمان قد فعل ذلك، وكما ناقشنا في الفصل الثالث فإن فريدمان قد وجد ما هو معروف الآن بأنه حل معادلات أينشتاين عن طريق الانفجار الهائل - وهو الحل الذي يعلن أن الكون قد انبثق عن حالة انضغاط لا نهائية ، **وهو الآن في حالة تمدد بعد هذا الانفجار الأولي،** كان أينشتاين على يقين لدرجة أنه نشر مقالاً قصيراً معلناً أن مثل هذه الحلول المتضمنة للتغيرات الزمنية ليست نتيجة لنظريته ، **وزعم أن هناك خطأ قاتلاً في بحث فريدمان،** إلا أنه بعد مرور ثمانية أشهر نجح فريدمان في إقناع أينشتاين بعدم وجود أخطاء ، الأمر الذي جعل أينشتاين يسحب اعتراضه علناً لكن بأدب مصطنع ، ومع ذلك من **الواضح أن أينشتاين لم يقتنع تماماً** بأن نتائج فريدمان لها أية علاقة بالكون، غير أنه بعد حوالي خمس سنوات من ذلك وبناءً على مشاهدات هابل التفصيلية للعشرات من المجرات بواسطة تلسكوب ذي مرآة مئة بوصة من مرصد ماونت ويلسون (Mount Wilson) **فقد تأكد بما لا يدع مجالاً للشك أن العالم في حالة تمدد)**[١]

ويمضي البروفيسور براين غرين في شرح المراحل الأولى للانفجار الهائل التي يسميها القرآن " فتقاً " كما يلي :

(وبشيء أكثر من التفصيل فإن النظرية الحديثة عن أصل الكون تبدو كما يلي :

منذ حوالي ١٥ مليار سنة **انبثق الكون من حدث طاقي فريد هائل** ، لفظ كل الفضاء والمادة -- كانت درجة حرارة الكون بعد $١٠^{-٤٣}$ ثانية على حدوث الانفجار الهائل وهي اللحظة التي أطلق عليها " زمن بلانك " قد حسبت ووجدت حوالي 10^{32}كلفن ، أي أنها أسخن بمقدار ١٠ تريليون تريليون مرة من أعمق مكان داخل الشمس، وبمرور الزمن تمدد الكون وأصبح أبرد"

وبعد شرح مستفيض لمراحل تكون الإلكترونات و الذرات والعناصر الأولية يقول "وبعد أن هدأ الكون بصورة محسوسة من البداية المجنونة بدأت تنبثق المجرات والنجوم وفي النهاية الكواكب كتجمعات للعناصر البدائية مرتبطة بواسطة الجاذبية ، واليوم وبعد ما يقرب من ١٥ مليار سنة من الانفجار الهائل يمكننا أن نبدي دهشتنا بكل من عظمة الكون ومقدرتنا الجماعية على أن نجمع معاً نظرية منطقية من السهل اختبارها عن أصل الكون)[٢]

ويطرح البروفيسور براين غرين السؤال عن مدى إمكانية الوثوق في نظرية الانفجار الهائل قائلاً :(لكن إلى أي مدى يمكن أن نثق حقيقة في نظرية الانفجار الهائل ؟)

ويمضي في الاستدلال على صحة النظرية باكتشاف (الخلفية الإشعاعية للكون) وكذلك بمبادئ (الديناميكا الحرارية) بأسلوب رائع

والآن نعرض ما فهمه المسلمون الذين عاشوا منذ سبعمائة عام تقريباً من هذه الآيات: فقد جاء في كتاب تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير عند تفسيره لقول الله تعالى (كانتا رتقاً ففتقناهما) ما يلي: (ألم يروا أن السموات و الأرض كانتا رتقاً أي كان الجميع متصلاً بعضه ببعض

[١] - المرجع السابق ، صفحة ٣٧٧ و ٣٧٨
[٢] - المصدر السابق صفحة ٣٧٨ و ٣٧٩

متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعاً و الأرض سبعاً)[1]

فمن تلك الفقرات الشيقة من كتاب الكون الأنيق ، والتي يشير فيها البروفيسور برايان غرين إلى توافر الأدلة العلمية على الانفجار العظيم يتأكد لنا أنه في الوقت الذي رفض فيه أعظم علماء القرن العشرين مثل أينشتاين حقيقة تمدد الكون ، نرى أنه كان بإمكان المسلمين الذين عاشوا في عام ٦١٥ ميلادية في صحراء الجزيرة العربية أن يكونوا على يقين لا يقبل الشك من حقيقة توسع الكون بناءً على كلمتين اثنتين فقط من كلمات القرآن الكريم "وإنا لموسعون" واردتين في الآية رقم ٤٧ من سورة الذاريات (والسماء بنيناها بأيد و إنا لموسعون) وبهذه العبارة عميقة الدلالة التي تطبع في ذهن كل من يقرؤها صورة واضحة لاستمرار حدوث التوسع في السماء بلا انقطاع

بالإضافة إلى ذلك فحين يتحدث القرآن الكريم عن حدوث الانفجار الهائل أيضاً في حدود عام ٦١٥ ميلادية وفي بيئة صحراوية ليس فيها أي قدر من وسائل اكتشاف العلوم الكونية بقوله أن السموات والأرض " كانتا رتقاً ففتقناهما" ثم يقوم المفسرون المسلمون منذ سبعمائة عام بشرح سيناريو تلاصق السموات و الأرض ثم انفصالهما بقوة، فالأمر يصبح **فائق الغرابة** وليس له أي تفسير منطقي سوى تفسير واحد هو التفسير الذي ذكره الدكتور موريس بوكاي – والذي أوردناه في أول المرحلة الثالثة – حين قال: **(في رأيي ليس هناك أي تعليل، إذ ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية في العصر الذي كانت تخضع فيه فرنسا للملك داجوبير Dagobert استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالي عشرة قرون ثقافتنا العلمية فيما يخص هذه الموضوعات)** ثم يستنتج من ذلك أن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون من تأليف البشر بحال من الأحوال

ولنا هنا أربعة تعليقات:

♦ **التعليق الأول** : حينما تكون هناك حقيقة كونية يعلمها كل المسلمين و حتى أطفالهم منذ القرن السابع الميلادي ، بل و يعتبرونها بدهية من البدهيات التي لا تقبل النقاش ، مثل حقيقة تمدد الكون ، ثم يأتي العلماء العظماء في القرن العشرين مثل أينشتاين و ينكرون تلك الحقائق لسنوات ، ثم يثبت العلم خطأ أينشتاين وصحة ما يعلمه أطفال المسلمين منذ قرون ، بماذا يمكن أن نفسر ذلك ؟

♦ **والتعليق الثاني** : هو أن الذين كفروا في قول الله تعالى (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) وإن كان مقصوداً بهم كل الذين لا يؤمنون بالقرآن بصفة عامة إلا أن الخطاب يتأكد بصفة خاصة في حق الكافرين من أهل زماننا، وخصوصاً العلماء منهم الذين يستطيعون أن يفهموا المعنى الحقيقي لهذه العبارة "كانتا رتقاً ففتقناهما"

وهذه في الحقيقة خاصية هامة من الخصائص المميزة للخطاب القرآني ، أنه يخاطب كل البشر في كل العصور، حتى غير المؤمنين به لكي يسوق لهم الأدلة أنه كتاب من عند الله وليس من تأليف أحد من البشر

[1] - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥م، المجلد الثالث- صفحة ١٦٨ سطر ١٦

والخاصية الثانية من خصائص الخطاب القرآني أنه حين يخاطب مجموعة من الناس تعيش في عصر بعيد جدّاً عن عصر العلم ، فإنه يذكر الحقائق العلمية بأسلوب لا يبدو لهم شاذاً أو غريباً، وفي الوقت نفسه لا يخل بالحقيقة العلمية ، بل يذكرها في إيجاز شديد، وتظل العبارة القرآنية متوافقة مع مستوى فهم الأجيال جيلاً بعد جيل إلى أن تصل إلى الجيل الذي يستطيع فك رموزها واكتشاف مدلولها الحقيقي

والسؤال الآن : لو طلبنا من أحد أكبر علمائنا الذين عاشوا في عام ١٩٠٠م أن يذكر شيئاً عن نظرية الانفجار الهائل ، أو أن يشرح حقيقة تمدد الكون فهل يستطيع ؟ بالطبع لا ، وهذا لا ينقص من قدرهم لأن الأبحاث الدقيقة لم تكن قد اكتملت بعد، لكن محمداً رسول الله ﷺ فعل ذلك قبل هذا التاريخ بألف وثلاثمائة عام وهو يعيش في بيئة ليس فيها جامعات ولا معاهد علمية ولا مراصد فلكية ولا مختبرات

فهل عند أحد من فلاسفة الإلحاد تفسير لذلك ؟

من ناحية أخرى وردّاً على تجار الأديان من القساوسة الذين يدلسون على البسطاء من أتباعهم على شاشات التلفاز ، أو يصدرون الكتب الممتلئة بالأكاذيب ، مثل أكذوبة أن رسول الله محمداً ﷺ قد كتب القرآن الكريم اقتباساً من العهد القديم والعهد الجديد ، أو بتعليم من بحيرا الراهب اليهودي ، نقول لهم :

بعد أن ظلت نظرية ثبات الكون هي الحقيقة المطلقة في أوربا والغرب على مدى العصور منذ عهد أرسطو و حتى أوائل القرن العشرين ، حين بدأ أينشتاين أبحاثه حول النسبية ، وكما رأينا فقد أصر هو نفسه على ثبات الكون برغم أن معادلاته كانت تنبئه بغير ذلك، وبعد أن قام القساوسة والرهبان بإعدام بعض العلماء ونفي البعض الآخر لمجرد حديثهم عن دوران الأرض وعدم مركزيتها بتهمة الكفر بما جاء في الكتب المقدسة ، فلو كان رسول الله محمد ﷺ هو مؤلف القرآن الكريم اقتباساً من التوراة والإنجيل (المحرفين) فما هو الشيء الذي مكنه من أن **يصحح المفاهيم الخاطئة في الكتاب المقدس** التي استند إليها أحبار اليهود و النصارى في تصورهم عن ثبات الكون ، بل ويصف تمدد الكون وعدم ثباته بكل وضوح وإصرار بصيغة الاستمرار في قوله تعالى "وإنا لموسعون" ثم يضيف حقائق علمية ليس لأحد من البشر في زمانه ولا في الثلاثة عشر قرناً التالية له القدرة على مجرد تصورها مثل حقيقة انفصال السموات عن الأرض تحت تأثير قوة هائلة بعد أن كانتا ملتحمتين ، والتي نعرفها اليوم باسم الانفجار الكبير؟

هل يقبل العقل السليم تفسيراً لهذا غير أنه لا محمد ﷺ ولا أي رجل آخر من البشر الذين سكنوا كوكب الأرض في عصره يمكن أن يكون هو مؤلف القرآن ؟

♦ **التعليق الثالث**: هو أن احتواء القرآن الكريم على الكثير من الحقائق العلمية التي لم يكن بمقدور أحد من البشر في عام ٦١٥ م التحدث عنها ، بل ولا بعد هذا التاريخ بأكثر من عشرة قرون ، لم يكن من قبيل الصدفة ولم يكن ضربة حظ ، بل كان شيئاً مقصوداً بكل قوة بحيث وضعت كل حقيقة علمية في مكانها الصحيح من متن القرآن ، وذلك لكي يتيقن فلاسفة الإلحاد ويتيقن أيضا كل من يبتغي الوصول إلى الحقيقة بحيادية وإخلاص أن الله عز وجل قد أعطى

الأدلة المادية الكافية على وجوده مستخدماً أعظم وأحدث المكتشفات العلمية لأعظم علماء كل عصر، ولقد أكد الله عز و جل هذه الغاية التي من أجلها أورد كل هذا الكم من الحقائق العلمية وذلك في قوله تعالى :

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) (سورة فصلت ٥٣).

♦ **التعليق الرابع** : هو شمولية واتساع ألفاظ القرآن التي تجعله متوافقاً مع الحقائق العلمية في مختلف مراحلها وصورها، ففي موضوع نشأة الكون وعند الوصول إلى مرحلة تشكل الأرض نرى أنه قد حدثت عدة انفصالات للأرض عن جزء من أجزاء السموات ، فهناك نظريات علمية[١] ترى أن الأرض والشمس وكل كواكب المجموعة الشمسية قد تكونت من سديم واحد ، بينما ترى نظريات أخرى أن الأرض وكواكب المجموعة الشمسية انفصلت عن الشمس في مراحل تكونها الأولى، وربما تكون هناك صور أخرى لانفصالات عديدة في مراحل أكثر قدما مثل مرحلة تكوين مجرتنا ، أو المجموعة المجرية التي تنتمي إليها مجرتنا وهكذا بشكل متسلسل في اتجاه عكس الزمن حتى الوصول إلى الانفصال الأول الذي منه بدأ خلق الكون والذي نسميه نحن الانفجار الهائل

وللدهشة فإن العبارة القرآنية (كانتا رتقا ففتقناهما) تظل معبرة بدقة بالغة عن كل مرحلة من مراحل هذه الانفصالات، وبمعنى آخر فإنه حتى لو ثبت أن نظرية الانفجار الكبير ليست هي السيناريو الصحيح أو على الأقل السيناريو الدقيق لبدء خلق الكون فإن العبارة القرآنية تظل صحيحة ودقيقة علميّاً في وصفها مراحل الانفصال التالية للحظة الخلق الأولى حتى الوصول إلى مرحلة انفصال الأرض والشمس وكل كواكب المجموعة الشمسية بعضها عن بعض داخل السديم الكوني ، أو انفصال الكواكب ومنها الأرض عن الشمس ، وذلك لأن كل الفضاء المحيط بالمجموعة الشمسية هو بالنسبة لسكان الأرض جزء من السموات

كما أن شمولية ألفاظ القرآن تتضح أيضا في قوله تعالى "والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون" ولنمحص هذه النقطة الهامة بشيء من التفصيل في السطور التالية :

وردت كلمة "السماء" في القرآن الكريم لتشير إلى الغلاف الجوي للأرض في بعض الآيات،

مثل قوله تعالى **"وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً"** سورة الفرقان (٤٨)

وكما في قوله تعالى **"ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله"** سورة النحل (٧٩)

كما وردت بمعنى الفضاء الخارجي الذي يحوي النجوم في مثل قوله تعالى: **(تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً)** سورة الفرقان (٦١) والمقصود بالسراج أي الشمس التي تشع الضوء كنتيجة لاحتراق الوقود بداخلها، مثل السراج الذي كان يستخدمه البشر بغرض الإنارة قديماً

---

[١] - د: صبري الدمرداش ، للكون إله ، مكتبة المنار الإسلامية – الكويت ، الطبعة الثانية – ٢٠٠٦ ، صفحة ٥٤

ولأن لفظة (السماء) في اللغة العربية تشمل كل ما علا و ارتفع فإن جميع هذه المستويات من الإرتفاعات داخلة في معنى الآية ، و عليه فإن هناك عدة إحتمالات يمكن استنتاجها من هذه الآية القرآنية على النحو التالي :

الاحتمال الأول: أن تكون كلمة السماء في الآية تشير إلى الغلاف الجوي ، وبذلك يكون معنى الآية أن سمك الغلاف الجوي للأرض ليس ثابتاً وإنما هو في **حالة تمدد واتساع دائمة**، وهذه نتيجة منطقية من الناحية العلمية استنادا إلى الحقيقة العلمية التي تؤكد أن الأرض في بداية تكونها لم تكن تحتوي على غلاف جوي ، وأن الغلاف الجوي لها بدأ في التكون نتيجة اندفاع الغازات وبخار الماء من فوهات البراكين التي كانت تغطي معظم سطح الأرض في ذلك الوقت، وبما أن الغلاف الجوي أخذ في التكون شيئاً فشيئاً فهذا معناه أن سمكه أخذ في الاتساع منذ نشأة الأرض وحتى وقتنا هذا ، وبالتالي فمن المنطقي من الناحية العلمية أن يستمر هذا التمدد إلى الآن، و من الممكن لعلماء عصرنا التحقق من صحة هذا الاستنتاج

الاحتمال الثاني : أن يكون المقصود بالسماء هنا هو الغلاف المغناطيسي للأرض ، وهذا أيضا داخل في معنى الآية ، وبالتالي فمن المحتمل أن تكون الآية القرآنية تشير إلى تمدد الغلاف المغناطيسي للأرض مع مرور الوقت، و مرة أخرى فإن علمائنا المعاصرين يمكنهم تمحيص هذا الاستنتاج لمعرفة الحقيقة

الاحتمال الثالث: أن يكون المقصود بالسماء في الآية هو فضاء المجموعة الشمسية ، وهذا يعني أن محيط النظام الشمسي ومسارات الكواكب فيه في حالة اتساع دائم ، وربما يدعم هذا الاحتمال النقص الدائم في كميات الهيدروجين داخل الشمس وتحوله إلى غاز الهليوم مما يعطي احتمالاً بتناقص قوى الجاذبية الخاصة بالشمس بنسب صغيرة ولكنها تؤدي إلى تباعد الكواكب عنها بقيم متناسبة مع هذا النقص في الجاذبية

الاحتمال الرابع: أن يكون المقصود بالسماء في الآية الكريمة هو مجرة درب اللبن "أو درب التبانة" التي نسكنها ، وفي هذه الحالة يكون قطر مجرتنا في حالة اتساع مستمر، و يستطيع العلماء أن يمحصوا هذه النظرية أيضاً من الناحية العلمية

الاحتمال الخامس : أن يكون المقصود بالآية هو الكون كله ، وهذا ما أثبته العلماء فعلاً عن طريق دراسة الطيف الوارد من النجوم وتأكيدهم بأنه ينزاح نحو الطيف الأحمر مما يدل على تباعد النجوم عن بعضها عن بعض كما رأينا في الشرح السابق من كتاب الكون الأنيق

الاحتمال السادس: وهو الأغلب من الناحية المنطقية ، أن يكون **كل ما سبق** مقصوداً من الآية الكريمة ، وفي هذه الحالة تصبح الآية الكريمة دليلاً على أن كل أجزاء الكون في حالة تمدد واتساع ليس فقط على مستوى المجرات وإنما أيضا علي مستوى جميع الأنظمة النجمية داخل جميع المجرات في الكون، وهنا يأتي دور العلماء الأكثر ذكاءً والأعلى همة والأكثر نشاطاً لإعطاء البراهين العلمية على تلك الحقائق

مما سبق يتضح المعنى الذي أردنا الإشارة إليه ، وهو شمولية ألفاظ القرآن بشكل يستثير خيال العلماء ويستحث همم الأذكياء منهم للسير بكل حماس ونشاط نحو استكشاف حقائق الكون ، لكن هناك فرقاً جوهريّاً يتميز به القرآن الكريم وهو أنه يضع للعلماء نقاطاً إرشادية يتلمسون بها

طريقهم حتى يستطيعوا الوصول إلى الحقائق دون الانحراف إلى مفاهيم جانبية خاطئة تهدر الكثير من الوقت والجهد مثلما حدث مع أينشتاين في حقيقة عدم ثبات الكون

إن الإشارات العلمية في القرآن الكريم تدفع العالم إلى أقصى درجات التحدي وبذل الجهد لكي يستطيع فك رموزها ، ولكي ينتج في النهاية حقيقة علمية صافية معتمدة على دراسات دقيقة ، وليس كما جاء في كتاب وهم الإله من عبارات ساذجة تشير إلى أن الإيمان بالله يصيب عقول العلماء بالشلل التام مثل عبارة "إذا لم تستطع الوصول إلى معرفة شيء ما فلا تتعب نفسك فلا عليك إلا أن تؤمن بأن الله هو الذي فعل ذلك" هذه مغالطة كبيرة ، لأن السؤال الذي يدفع العلماء الأذكياء لاكتشاف الحقائق العلمية ليس هو (من فعل الشيء ؟) ولكنه (ما هي حقيقة هذا الشيء) ، فأينشتاين حين كان يجري أبحاثه عن النسبية لم يكن يهتم مطلقاً ب(من الذي أودع في الأشياء قانون النسبية) ، لكنه كان يبحث عن الأثر الحقيقي للنسبية في توجيه حركة الكون، ونيوتن الذي لم يكن ملحداً كان يعلم أن خالق الكون هو مصدر قانون توجيه الأشياء نحو الأرض عند سقوطها ، وبالرغم من ذلك لم يتوقف عن البحث في طبيعة الجاذبية حتى وضع قوانينه العظيمة

مثل هذه المغالطات لا تضر المؤمنين **بل تضر الملحدين** ، لأنها تجعلهم يزيدون كل يوم بعداً عن الحقيقة

الحقيقة الثالثة: "وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون"

في هذه الآية نرى التركيز على أن الماء هو أصل كل كائن حي ، وفي سورة النور يؤكد هذا المعنى قوله تعالى :

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (سورة النور ٤٥)

يعلق الدكتور موريس بوكاي في كتابه "التوراة والإنجيل والقرآن والعلم" على هذه الآية قائلاً: (ليس هناك شك في مفهوم المصدر ، فالعبارة يمكن أن تعني أن كل شيء مصدره الماء كمادة جوهرية، أو أن أصل كل شيء حي هو الماء، ويتفق هذان المعنيان تماما مع المعارف العلمية، فالثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائي ، وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية فلا حياة ممكنة بلا ماء --- وتسمح المعطيات الحديثة بالاعتقاد بأن أقدم الكائنات الحية كانت تنتمي إلى عالم النبات ، فقد اكتشفت طحالب ترجع إلى ما قبل العصر الكمبري Prcambnen أي في أقدم الأراضي المعروفة، ولابد أن عناصر عالم الحيوان قد ظهرت بعد ذلك بقليل وقد أتت أيضا من المحيطات)[1]

ثم يعلق على قول الله تعالى "والله خلق كل دابة من ماء" بقوله (وسنرى فيما بعد أن الكلمة تنطبق أيضاً على السائل المنوي ، وإذاً فسواء كان المقصود هو أصل الحياة عموماً، أو العنصر الذي يجعل النباتات تولد في التربة ، أو كان المقصود هو بذرة الحيوان **فإن كل عبارات القرآن**

[1]- د : موريس بوكاي ، القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٤ ، صفحة ٢١٨

تتفق تماماً مع المعطيات العلمية الحديثة ، ولا مكان مطلقاً في نص القرآن لأي خرافة من الخرافات التي كانت منتشرة في عصر تنزيل القرآن)[1]

الحقيقة الرابعة: " وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم "

جاءت أوصاف الجبال في القرآن الكريم بصورة تثير الدهشة للعقل الذي يقدر معنى الحقيقة العلمية ، وسوف نلمس في السطور التالية أن المعنى الذي نسوق الأدلة عليه – وهو عدم قدرة أي رجل من البشر عاش في زمن نزول القرآن أن يملك أدنى فكرة عن الحقائق العلمية المذكورة في هذا الكتاب – يتضح بكل قوة في هذه الأوصاف ، وبالتالي فإن **الأدلة العلمية** تؤكد بنسبة مائة بالمائة أن القرآن ليس صناعة بشرية، وسوف نستعرض ثلاثة فقط من أوصاف الجبال الواردة في القرآن الكريم :

أ- جاء الوصف الأول للجبال بأنها "أوتاد" في قوله تعالى :
(ألم نجعل الأرض مهاداً ☼ والجبال أوتاداً☼) (سورة النبأ ٦ و ٧)

ب- وجاء الوصف الثاني في تسعة مواضع (منها الآية التي بين أيدينا من سورة الأنبياء بأنها "رواسي" تقوم بتثبيت الأرض ومنعها من الترنح :
(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

ج- وجاء الوصف الثالث في سورة النازعات بقوله تعالى مخبراً عن نعمه الكثيرة على البشر :

"أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ☼ رفع سمكها فسواها ☼ و أغطش ليلها و أخرج ضحاها ☼ و الأرض بعد ذلك دحاها☼ أخرج منها ماءها ومرعاها ☼ والجبال أرساها ☼ متاعاً لكم ولأنعامكم ☼ " (سورة النازعات ٢٧ - ٣٣)

و الآيات كلها معجزات علمية واضحة ، لكننا نتحدث هنا عن الجبال ، لذلك سنأخذ الآية الخاصة بها و هي قوله تعالى (**والجبال أرساها**)

ولنترك العلماء المتخصصين ليشرحوا لنا هذه الأوصاف الثلاثة :

أولاً : فيما يخص الوصف الأول (والجبال أوتاداً) :

١- **جاء في موقع "الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة"** عن الدكتور حسن با حفظ الله بعد شرح مطول لكيفية اكتشاف العلماء لجذور الجبال ما يلي :

(ثم تطورت العلوم وتوالت الكشوف وانتقلت قضية جذور الجبال من مرحلة النظرية إلى الحقيقة العلمية والواقع الملموس ، وذلك بفضل من الله عز وجل ثم بتقدم معرفتنا بتركيب الأرض الداخلي عن طريق القياسات (السايزمية تحت السطحية) والتي كشفت لنا أن القشرة الأرضية الصلبة التي نحيا عليها لا تمثل إلا طبقة رقيقة جدّاً قياساً بما تحتها من طبقات وتراكيب أخرى، وأن هذه الطبقة في الواقع ترتكز على طبقة أعلى كثافة منها ولكنها في حالة مائعة تسمى بالوشاح ، ثم عرفنا حقيقة أخرى تتمثل في أن استقرار واتزان القشرة

[1] - د : موريس بوكاي ، نفس المرجع ، صفحة ٢١٩

الأرضية بما تحمله من جبال وتلال ووديان لا يتم على طبقة الوشاح إلا من خلال امتدادات من مادة القشرة داخل نطاق الوشاح وأن هذه الامتدادات لا يمكن أن تمثل عمليّاً إلا بدور الأوتاد في تثبيت الخيمة على سطح الأرض لضمان ثباتها وعدم اضطرابها)

و ساق د حسن أقوال المفسرين المسلمين للآية الكريمة من مثل قول الإمام ابن كثير في تفسيره الذي كتبه منذ حوالي ٧٠٠ عام حيث قال (والجبال أوتاداً: أي جعل لها أوتادًا أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها) ،

وفي تفسير الجلالين الذي كتب منذ حوالي خمسمائة عام (أنها أوتاد تثبت بها الأرض كما تثبت الخيام بالأوتاد)، وفي تفسير الزمخشري الذي كتب منذ حوالي ٩٠٠ عام (أي أرسينا الأرض بالجبال كما يرسى البيت بالأوتاد) وبعد ذلك قام بمقارنة أقوال هؤلاء المفسرين بالتعريف الذي ورد في الموسوعة البريطانية قائلا: (ولنقارن أيها القارئ الكريم بين ما قاله هؤلاء العلماء منذ مئات السنين وبين ما قالته الموسوعة البريطانية (Encyclopacedia Britannica) ذائعة الصيت في تعريفها بالجبال في المجلد الثاني عشر تحت مادة عمليات بناء الجبال حيث قالت: إن الجبل هو منطقة من الأرض مرتفعة نسبيّاً عما حولها، ثم تحدثت الموسوعة عن الجبال وأنواعها المختلفة، وهكذا نجد أن الموسوعة قد اقتصرت في تعريفها للجبال على الشكل الخارجي فقط دون أي ذكر للجذور)[١]

٢- **جاء في موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة** - على شبكة الانترنت - المبحث السادس ، تحت عنوان (الجبال أوتاد) ما يلي :

(ج- النص الحرفي المنقول عن أوتاد الأرض من موقع هيئة المساحة والجيولوجيا الأمريكية: (من المعروف الآن أن معظم سلاسل الجبال تمتلك جذوراً تمتد داخل الأرض وتطفو فوق غلاف صخري لدن وحار)

د- ويقول الدكتور Andre Cailleux في كتابه "تشريح الأرض (الجبال تشبه الأوتاد فهي تملك جذورا عميقة في الأرض، هذه الجذور ممتدة بعمق في الأرض لذلك فإن شكل الجبل يشبه الوتد) وفي بحث آخر تم من خلاله إثبات وجود الجذور للجبال ، لوحظ أن العلماء ., PEDREIRA D., PULGAR J. A., GALLART J., DIAZ J يستخدمون كلمة wedge وهي تعني (وتد) استخدموا هذه الكلمة وهم لا يعلمون أن القرآن الكريم قد سبقهم في ذكر هذه الحقيقة العلمية)

ولعل الصورة التالية توضح دقة وصف القرآن الكريم للجبال بأنها أوتاد :

[١] - موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، د : حسن با حفظ الله ، مقالة بعنوان (والجبال أوتاداً)

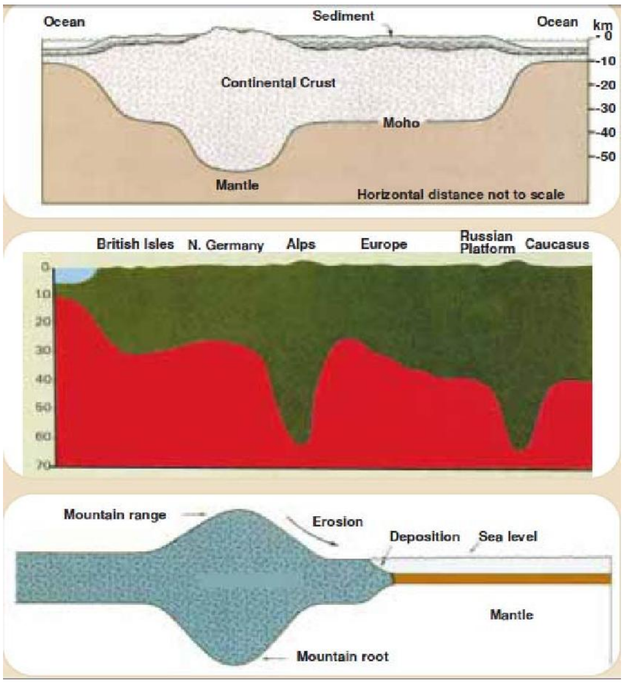

والآن وبعد أن تحققنا أن القرآن الكريم سبق كل هذا الحشد من العلماء العظماء المتخصصين في وصف الجبال بأنها "أوتاد" لدرجة أنه أصبح من البدهي أن نقرأ هذا اللفظ في كتبهم ومقالاتهم ، بل وسبق الوصف الوارد في موقع هيئة المساحة والجيولوجيا الأمريكية ، ليس بفارق مائة أو مائتي عام بل بألف وأربعمائة عام كاملة، هل يمكن للعقل السليم أن يصدق أن رجلاً عاش في الجزيرة العربية عام ٦١٠ م يمكنه أن يتحدث عن جذور الجبال و أن يسبق كل هذا العدد من العلماء الذين ذكرناهم ، بدون تدخل خارجي من جهة تعلم كل شيء عن الكون الذي نسكنه ؟

ونعود فنكرر السؤال الهام : هل عند فلاسفة الإلحاد تفسير لهذا السبق العلمي الهائل والبديع؟

ثانياً : فيما يخص وصف القرآن للجبال بأنها "رواسي"

ذكر الدكتور زغلول النجار – حاصل على درجة الدكتوراه في علوم الأرض من جامعة ويلز- بريطانيا عام ١٩٦٣ – في كتابه "الأرض في القرآن الكريم" تحت عنوان "تثبيت الجبال لكوكب الأرض" ما يلي :

(ولذلك فإن الأرض انبعجت قليلاً عند خط الاستواء حيث تقل قوى الجاذبية وتطغى القوة الطاردة المركزية ، وتفلطحت قليلاً عند القطبين حيث تطغى قوة الجاذبية وتتضاءل القوة الطاردة المركزية ، ونتيجة لاستمرار هذه العمليات فإن طول قطر الأرض الاستوائي يزداد باستمرار بينما يقل طول قطرها القطبي، وإن كان ذلك يتم بمعدلات بطيئة جدّاً إلا أنه أخرج الأرض عن شكلها الكروي إلى شكل شبه كروي، وشبه الكرة لا يمكن لها أن تكون منتظمة في دورانها حول محورها، لأن الانبعاج الاستوائي للأرض يجعل محور دورانها يغير اتجاهه رويداً رويداً في حركة معقدة مردها إلى تأثير جاذبية أجرام المجموعة الشمسية وبخاصة الشمس والقمر على الأرض، وتعرف هذه الحركة باسم "الحركة البدارية" أو "حركة الترنح والبدارية"

وتنشأ هذه الحركة عن ترنح الأرض في حركة بطيئة تتمايل فيها من اليمين إلى اليسار بالنسبة إلى محورها العمودي الذي يدور لولبيّاً دون أن يشير طرفاه الجنوبي والشمالي إلى نقطة ثابتة في الشمال أو في الجنوب ، ونتيجة للتقدم أو التقهقر فإن محور دوران الأرض يرسم بنهايته دائرة حول قطب البروج تتم في فترة زمنية قدرها نحو (26.040) سنة من سنيننا

ويتبع ترنح الأرض حول مدارها مساراً متعرجاً بسبب جذب كل من الشمس و القمر للأرض ، وتبعاً للمتغيرات المستمرة في مقدار واتجاه القوة البدارية لكل منهما، ويؤدي ذلك إلى ابتعاد الدائرة الوهمية التي يرسمها محور الأرض أثناء دورانها وترنحها ، فتتحول إلى دائرة مؤلفة من أعداد من الأقواس المتساوية ، التي يبلغ عددها في الدورة الكاملة 1400 ذبذبة (أو قوس)، ويستغرق رسم القوس الواحد 18.6 سنة، أي أن هذه الدائرة تتم في (26.040) سنة وتسمى باسم: حركة الميسان (النودان أو التذبذب)، وقد أثبتت الدراسات الفلكية أن لمحور دوران الأرض عدداً من الحركات الترنحية التي تستغرق أوقاتاً مختلفة يبلغ أقصرها عشرة أيام ويبلغ أطولها 18.6 سنة من سنيننا ، ووجود الجبال ذات الجذور الغائرة في الغلاف الصخري للأرض يقلل من شدة ترنح الأرض في دورانها حول محورها، ويجعل حركتها أكثر انتظاماً وسلاسة، تماماً كما تفعل قطع الرصاص التي توضع حول إطار السيارة لانتظام حركتها وقلة رجرجتها، وبذلك أصبحت الأرض مؤهلة للعمران)[١]

من الشروح السابقة نستطيع أن نتيقن أن قول الله تعالى عن الجبال إنها (أوتاد) و إنها (رواسي) و أنه سبحانه خلقها لكي لا تجعل الأرض (تميد) أي تترنح بنا ، كلها أوصاف مقصودة للدلالة على معجزة علمية لا تقبل الشك ، و أن الله عز وجل قصد أن يقيم الدليل **على الناس في العصر الذي سيتم فيه اكتشاف هذه الحقائق ، وخاصة العلماء منهم ، بل العلماء المكذبين للقرآن تحديداً**، لأنه بدأ الحديث عن كل هذه الحقائق العلمية بقوله تعالى (أولم ير الذين كفروا) ، وهو ما يعني بكل وضوح أنهم هم المقصودون بهذا الدليل العلمي

أليس هذا يدل على رحمة الله عز وجل حتى بالكافرين المكذبين به وبكتابه وبرسوله ، حيث يخصهم في الكتاب الذي يحمل وحيه و كلامه بعدد كبير من الآيات التي تبين لهم صحة هذا الكتاب (**بالأدلة التي يفهمونها**) ، وبالتالي خطورة الإصرار على الكفر بعد وضوح الدليل ؟

ثالثاً: بخصوص وصف الله عز و جل للجبال بأنه أرساها :

هذا من أعجب وأعظم الأدلة على القضية التي نريد إثباتها ، ويشرح الدكتور زغلول النجار هذه الحقيقة العلمية في الكتاب نفسه قائلاً : (وعلى ذلك فإن قمة إفرست التي لا يكاد ارتفاعها فوق مستوى سطح البحر يصل إلى تسعة كيلومترات (٨٨٤٨ مترا) ، لها امتداد في داخل الغلاف الصخري للأرض يزيد على المائة وثلاثين كيلو متراً، ويخترق هذا الامتداد الداخلي لتلك السلسلة الجبلية الغلاف الصخري للأرض بالكامل ليطفو في نطاق الضعف الأرضي ، وهو نطاق شبه منصهر لدن عالي الكثافة واللزوجة تحكمه في ذلك قوانين الطفو تماماً كما تحكم جبال الجليد الطافية في مياه المحيطات)[٢]

[١] - د: زغلول النجار ، الأرض في القرآن الكريم ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ٣ ، ٢٠٠٨ م ، صفحة رقم ٢٢٨
[٢] - المرجع نفسه ، صفحة ٢١٤

والآن بعد أن علمنا أن الجبال بجذورها العميقة تطفو فوق طبقة الوشاح شبه المنصهرة (نطاق الضعف الأرضي) ننتقل إلى حقيقة علمية أخرى مترتبة على هذا الطفو وهي حقيقة تحرك الألواح الصخرية الحاملة للقارات إما بعضها باتجاه بعض، وإما تحركها متباعدة بعضها عن بعض ، ويصف د زغلول النجار هذه الحقيقة العلمية عند شرحه للآية الكريمة "ألم نجعل الأرض مهادًا" بقوله :

(استضاءة بمفهوم تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض وصلت الدراسات الحديثة في هذا المجال إلى أن الأرض بدأت بمحيط غامر، ثم بتصدع قاع ذلك المحيط واندفاع ملايين الأطنان من الصهارة الصخرية (الصهير) عبر تلك الصدوع بدأ تحرك الألواح الصخرية المكونة لذلك القاع متباعدة بعضها عن بعض في أحد أطرافها ومصطدمة في الأطراف المقابلة ، ومنزلقة عبر بقية الأطراف، ونتج عن ذلك تكون أعداد من أقواس الجزر البركانية عند الأطراف المتصادمة، ثم نمت تلك الجزر البركانية بالتدريج إلى القارة الأم أو أم القارات (Pangaea) التي تفتتت بشبكة هائلة من الصدوع إلى القارات السبع التي نعرفها اليوم ، وظلت هذه القارات في الاندفاع متباعدة بعضها عن بعض حتى وصلت إلى أوضاعها الحالية التي لا تزال تتزحزح عنها إلى اليوم ، وباستمرار هذه العملية تمايزت ألواح الغلاف الصخري للأرض إلى الألواح المحيطية ، وتلك القارية ، وبتصادم ألواح قيعان المحيطات بكتل القارات تكونت سلاسل الجبال الشبيهه بجبال الأنديز (على الحافة الغربية لأمريكا الجنوبية) وبتصادم ألواح القارات بعضها مع بعض تكونت أعلى السلاسل الجبلية على سطح الأرض مثل سلاسل جبال الهيمالايا التي نتجت عن اصطدام كتلة الهند بكتلة قارتي آسيا وأوروبا (أوراسيا))[١]

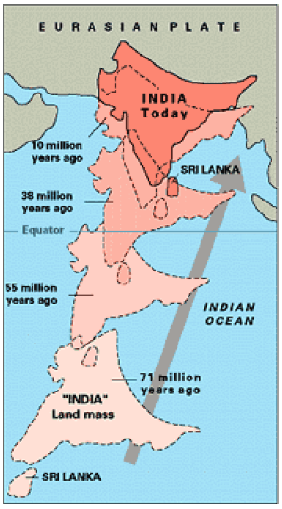

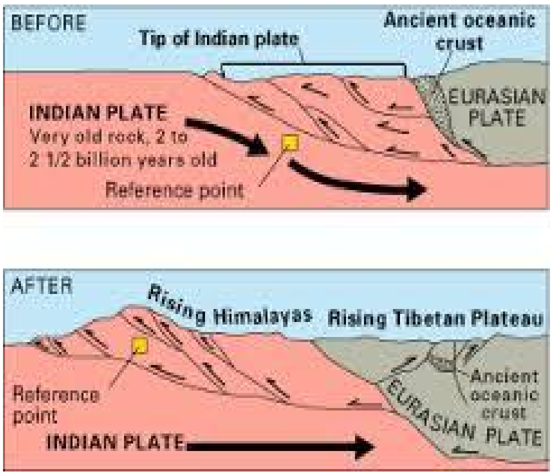

والآن بعد الشرح السابق وبالنظر إلى الصورة السابقة (اليمنى) التي تبين بوضوح كيف تحركت الألواح الصخرية الحاملة لشبه القارة الهندية بكل ما عليها من جبال وهضاب وسهول سابحة فوق طبقة الوشاح شبه المنصهرة تماماً - كما تتحرك السفينة فوق الماء - إلى أن ترسو على شاطئ قارة أوراسيا مكونة أعلى سلسلة جبال على سطح الأرض (كما يتضح من الصورة اليسرى) ، يحق لنا أن نتساءل بهدوء:

[١] - المرجع نفسه صفحة ٢٠٦

هل كان هناك أحد من البشر الذين عاشوا في عام ٦١٠ م يستطيع أن يتخيل أن الجبال تسبح مثل السفن باتجاه شواطئ القارات إلى أن ترسو وتستقر على تلك الشواطئ ؟ وهل كان رسول الله محمد ﷺ يستطيع أن يبتكر ويخمن هذا المشهد ويسجله في القرآن الكريم في جملة صغيرة من كلمتين فقط لكنها بالغة الوضوح والدقة العلمية (والجبال أرساها) في العصر الذي عاش فيه ؟ وهل هناك بشر يستطيع أن يتحدث عن الجبال - التي يتضاءل بجانبها حجم الإنسان حتى يكاد يتلاشى – بأنه أرساها سوى الله الخالق لكل الكون ؟

ونعود فنكرر السؤال الهام : هل يملك فلاسفة الإلحاد تفسيراً منطقيّاً يصلح للتصديق لهذا السبق الذي يذهل العقول المنصفة ؟

الحقيقة الخامسة: "وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون" (الأنبياء ٣٢)

وقال تعالى في سورة فصلت (١٢) : **" فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ"**

تتحدث هاتان الآيتان عن حقيقة علمية أثبتها علماء الفلك منذ سنوات قليلة حتى أصبحت من المسلمات، وتتمثل هذه الحقيقة العلمية في الدور الهام الذي يقوم به الغلاف الجوي وكذلك الحقل المغناطيسي للأرض في حفظ وحماية الكائنات الحية على سطحها من الأخطار المدمرة التي كانت كفيلة بالقضاء على جميع صور الحياة قبل أن تبدأ لولا توفر هذين الدرعين القويين لها ،

وسنذكر هنا أربع صور من صور الحفظ والحماية التي يؤديها هذان الغلافان :

أولاً: درع إشعاعات "فان ألن" الناتج عن الحقل المغناطيسي للأرض:

أورد الأستاذ قسطاس إبراهيم على موقع "جامعة الإيمان" ملخص كلام الدكتور هوغ روس (Hugh Ross) عن أهمية حزام فان ألن لحياتنا على النحو التالي :

(في الواقع، إن الأرض تملك الكثافة الأعلى بين كواكب النظام الشمسي، فهذا القلب العظيم للأرض المكون من الحديد والنيكل هو المسؤول عن الحقل المغناطيسي الكبير، وهذا الحقل المغناطيسي هو الذي ينتج عنه درع إشعاعات فان ألن الذي يحمي الأرض من الانفجارات الإشعاعية ، ولو لم يكن هذا الدرع موجوداً لما كانت الحياة ممكنة على سطح الأرض، ولا يملك مثل هذا الدرع سوى الأرض وكوكب المريخ الصخري، ولكن قوة حقله المغناطيسي أقل بمائة مرة من قوة الحقل المغناطيسي للأرض، وحتى كوكب الزهرة المشابه لكوكبنا ليس لديه حقل مغناطيسي، إن درع فان ألن الإشعاعي هو تصميم فريد خاص بالأرض)[١]

والرسم التالي يبين دور الغلاف المغناطيسي للأرض في تشتيت الرياح الشمسية الناتجة عن الانفجارات الشمسية إلى الفضاء الخارجي ،

[١] - موقع جامعة الإيمان، مركز البحوث، أبحاث الإعجاز، الإعجاز في (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً)، للاستاذ: قسطاس إبراهيم النعيمي ، بتاريخ ٧ يناير ٢٠١٣

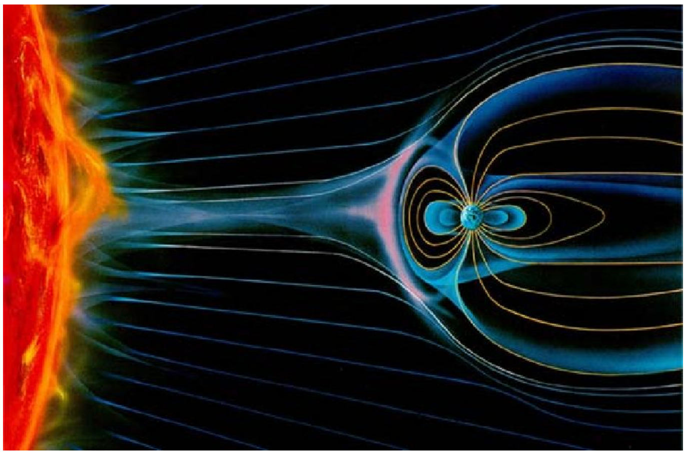

ثانياً: دور الغلاف الجوي في حماية الحياة على الأرض من الأشعة الكونية القاتلة:

جاء على موقع جامعة الإيمان أيضاً :

(إن الغلاف الجوي يصفي شعاع الضوء الآتي من الفضاء الضار بالكائنات الحية، واللافت أن الغلاف الجوي لا يسمح إلا للإشعاعات غير الضارة مثل الضوء المرئي و- جزء من - الأشعة فوق البنفسجية وموجات الراديو بالمرور ، وكل هذه الأشعة أساسية للحياة، فالأشعة فوق البنفسجية التي يسمح بمرورها بشكل جزئي فقط عبر الغلاف الجوي ضرورية جدّاً لعملية البناء الضوئي في النباتات ولبقاء الكائنات الحية على قيد الحياة ، لكن غالبية الإشعاعات فوق البنفسجية المركزة التي تنبعث من الشمس يتم تصفيتها من خلال طبقة الأوزون في الغلاف الجوي ولا تصل إلا كمية محدودة وضرورية من الطيف فوق البنفسجي للأرض)[١]

ثالثاً: دور الغلاف الجوي في حماية سكان الأرض من خطر الشهب والنيازك:

أكد علماء الفلك المعاصرون حقيقة الدور الهام الذي يقوم به الغلاف الجوي في تفتيت وتدمير أعدادٍ هائلة من الشهب والنيازك بسبب الحرارة الهائلة الناتجة عن قوة الاحتكاك بين جسم النيازك وبين حبيبات الغلاف الجوي ، ويقدر العلماء مقدار ما يصل إلى الأرض من هذه الأجسام الفضائية بحوالي ١٥٠٠٠ طن سنويّاً ، وباختصار فإنه لو لم يكن للأرض هذا الغلاف الجوي الذي يدمر هذه المقذوفات القاتلة لما تمكنت الكائنات على الأرض من البقاء على قيد الحياة

رابعاً: دور الغلاف الجوي في حماية الأرض من الصقيع القاتل في الفضاء الكوني:

إذا علمنا أن درجة حرارة الفضاء الخارجي تصل إلى ٢٧٠ درجة مئوية تحت الصفر ، وأن الغلاف الجوي هو الذي يحافظ على درجة حرارة الأرض بالصورة التي هي عليها الآن (حوالي بين ٥٠ درجة وخمس عشرة درجة تحت الصفر) فهل يمكننا تصور عظمة الدور الذي يقوم به هذا الغلاف في حفظ وحماية كل صور الحياة على سطح الأرض ؟

وعلينا هنا أن ننبه أن وصف السماء بأنها (سقف محفوظ) يفيد أن السماء بجانب ما تؤديه

[١] - المرجع نفسه

من وظائف الحفظ للأرض فإنها هي نفسها محفوظة ، وهذا ينطبق على كل طبقة من طبقات الغلاف الجوي على حدة ، بمعنى أن كل طبقة تتمتع بحماية الطبقات الأعلى منها ، لذلك فهي بجانب ما تقوم به من وظيفة حماية للأرض و لما تحتها من الطبقات تتمتع هي نفسها بحماية الطبقات الأعلى ، حتى نصل إلى طبقة الغلاف المغناطيسي للأرض الذي يمثل الحماية الكبرى من الانفجارات والرياح الشمسية لجميع الطبقات السفلى بالإضافة لتوفير الحماية للأرض ،

ونعود فنكرر السؤال الهام : هل كان بإمكان رسول الله محمد ﷺ في عام ٦١٠م أن يتحدث عن الدور الذي يقوم به الغلاف الجوي وحزام "فان ألن" في حماية الحياة على كوكب الأرض ؟ ثم ينتحل صفة الإله الذي خلق الكون ويؤلف هذا النص فائق الدقة من الناحية العلمية ليقول بكل ثقة (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون) ويقول أيضاً (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم) ؟

....

الحقيقة السادسة: "وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون"
سورة الأنبياء ٣٣

تكررت هذه الحقائق الفلكية التي لم تكتشف إلا في القرن العشرين في سورة "يس" على النحو التالي :

(وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ☼ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ☼ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ☼ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ☼) (٣٧ – ٤٠)

تحتوي الآيات السابقة سواء في سورة الأنبياء أو في سورة يس على العديد من الحقائق العلمية ، أولها حقيقة علمية هامة تكفي بمفردها للدلالة على المعنى الذي نريد أن نؤكد صحته من منظور المكتشفات العلمية الحديثة ، وهي حقيقة عدم ثبات كل أجرام الكون التي نعرفها ، فجميع هذه الأجرام تتحرك سابحة في الفضاء، وبالتالي فالقرآن ينسف نظرية ثبات الكون من جذورها منذ القرن السابع الميلادي ، وقبل تصحيح علماء القرن العشرين - بما فيهم أينشتاين – لهذا الخطأ بثلاثة عشر قرناً ،

لكن الآيات القرآنية تضمنت أيضاً طبيعة وشكل هذه الحركة ، وبينت أن هناك ثلاثة أنواع من الحركة وليس نوعاً واحداً ، ونبينها فيما يلي :

الحركة الأولى : حركة دورانية حول المحور تشبه حركة (فلكة المغزل) حول الخيط الذي يمثل محور المغزل ، وهي حركة عامة تشمل الأجرام السماوية الثلاثة (الشمس والأرض و القمر) وقد عبر عنها القرآن الكريم بعبارة (كل في فلك) مع ملاحظة أنه عبر عن الأرض بالليل و النهار ، و أنه قد بين في آية سورة الزمر أن الله سبحانه و تعالى (يكور الليل على النهار و يكور النهار على الليل)

فالقرآن الكريم هو أول من تحدث عن دوران الشمس و القمر و الأرض حول محاورها ،

لأن وصف هذه الأجرام بعبارة (كل في فلك) يطرح للمرة الأولى في التاريخ الإنساني حقيقة **دوران** كل الأجرام السماوية حول محاورها ، والذي يريد أن يتثبت من هذا فما عليه إلا أن يكتب في محرك البحث على شبكة الإنترنت كلمة (حركة المغزل) لتخرج له عشرات المقاطع التي توضح كيف تدور فلكة المغزل بسرعة كبيرة حول محور المغزل تماماً مثلما تدور هذه الأجرام حول محورها

ولننظر الآن ماذا فهم المسلمون الذين عاشوا في النصف الأول من القرن السابع الميلادي من هذه الكلمات الثلاث ، وكيف امتلكوا صورة واضحة عن الفضاء الخارجي في الوقت الذي ظلت فيه الحضارات الأخرى تعيش في وهم ثبات الأرض تارة ، ووهم ثبات الشمس تارة أخرى حتى القرن العشرين :

نقل الإمام ابن كثير في كتابه "تفسير القرآن العظيم" – الذي ألفه منذ سبعمائة عام - في شرحه لهذه الآية قول الإمام ابن عباس رضي الله عنه وهو أحد **الصحابة الذين عاصروا نزول القرآن في القرن السابع الميلادي** حيث قال :

(ثم قال منبهًا على بعض آياته : { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ } أي : هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضيائه وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى ، وعكسه الآخر. { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ } هذه لها نور يخصها ، وفلك بذاته ، وزمان على حدة ، وحركة وسير خاص ، وهذا بنور خاص آخر ، وفلك آخر ، وسير آخر ، وتقدير آخر ، { وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس : ٤٠] ، أي : **يدورون. قال ابن عباس : يدورون كما يدور المغزل في الفلكة.** وكذا قال مجاهد : فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ، ولا الفلكة إلا بالمغزل ، كذلك النجوم والشمس والقمر ، لا يدورون إلا به ، ولا يدور إلا بهن ، كما قال تعالى : { فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} (الأنعام ٩٦)[1]

ونذكر هنا بما أوردناه منذ قليل على لسان د: برايان غرين في كتابه (الكون الأنيق) عن العالم الفذ أينشتاين الذي كان يصر على فكرة ثبات الكون حتى عشرينيات القرن الماضي ، ونقارن ذلك بما جاء في العبارة السابقة للإمام ابن كثير التي اشتملت على وصف حركة الشمس والأرض و القمر بالدوران ٦ مرات في أقل من خمسة أسطر

الحركة الثانية : وهي حركة ذاتية خطية تأخذ مساراً شبه دائري ، فأما كونها حركة ذاتية فيؤكده وصف القرآن لها بكلمة (يسبحون) لأن السباحة حركة ذاتية من السابح لا تتدخل فيها قوة خارجية ، و أما مسارها شبه الدائري فيؤكده وصف القرآن (كل في فلك) الذي يشبه حركة فلكة المغزل ، لأن فلكة المغزل التي تدور حول نفسها تتأرجح أيضاً بتأثير الخيط المشدودة هي فيه في الهواء و تأخذ أثناء تأرجحها مساراً شبه دائري فهي لا تستطيع أن تستقر في نقطة ثابتة في الهواء، والمنظر الذي يراه الشخص الممسك بخيط المغزل أثناء متابعته حركة فلكة المغزل التي تدور حول نفسها و أيضاً تتأرجح في الهواء حول الخيط هو منظر مطابق تماماً لحركة جميع الأجرام السماوية التي تدور حول محورها كما تسبح

[1]- تفسير القرآن العظيم ، الطبعة نفسها ، المجلد الثالث ، صفحة ١٦٩ سطر ٢٦

في مسار شبه دائري حول مركز الجرم الواقعة تحت قوة جاذبيته، وبقي أن نشير إلى ملحوظة جميلة ، وهي أن حروف كلمة (كل في فلك) باللغة العربية تعطي الجملة نفسها إذا قرأناها من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين ، وهذا يعطي شكل مسقط الحركة الدائرية على المستوى العمودي على مستوى الدوران.

أما الحركة الثالثة : فهي حركة خاصة بالشمس ، لكن لا ننسى أن كل توابعها من الكواكب و الأقمار تسير معها ، و قد وصف القرآن الكريم هذه الحركة بقوله "والشمس تجري لمستقر لها" وهي عبارة شديدة الوضوح في أن الشمس ليست ثابتة وأنها تتحرك حركة سريعة تشبه الجري ، وأنها ستصل يوما ما إلى (مستقر لها) في الفضاء تنتهي عنده حركتها لتستقر فيه ، **وقد** أشار علماء الفلك[1] إلى أن الشمس تدور حول مركز المجرة بسرعة حوالي ٢٥٠ كيلو متراً في الثانية وتأخذ حوالي ٢٢٠ مليون سنة لتكمل دورة واحدة حول هذا المركز ، كما ذكروا أنها تسير باتجاه موقع محدد في الفضاء يسمى (أوج الشمس) قريب من نجم يسمى (فيجا) ، لكن ليس هناك دليل على أن هذا الموقع هو مستقر الشمس المكاني ، لأن هذا الموضع هو الاتجاه الحالي فقط لحركة الشمس و كواكبها ، وقد ذكر بعض العلماء أن هذا الموضع يمثل نقطة على الخط المستقيم المماس للدائرة التي تدور فيها الشمس حول مركز المجرة ، لكنها نقطة خارج المسار الدائري لحركة الشمس ، وبالتالي لن تصل إليها أبداً

وفي الواقع: فإن عبارة (والشمس تجري لمستقر لها) تفتح المجال أمام احتمالات أخرى للمستقر المكاني للشمس ، مثل وجود ثقب أسود قريب من مسارها الدائري حول مركز المجرة ، و ستكون لحظة وصولها إلى مجال جاذبيته هي لحظة ابتلاعها واستقرارها في مركزه

من ناحية أخرى ، فإن كلمة (مستقر) تحتمل حسب الاشتقاق اللغوي أن تكون (إسم مكان أو إسم زمان) وبالتالي فهناك احتمال أن يكون المستقر المقصود بالآية مستقراً (زمانياً) وليس مستقراً مكانيّاً ، وبذلك يكون مقصد الآية هو الإشارة إلى أن الشمس لها عمر محدد سينتهي في زمن معين و أنها ستموت مثلما يموت كل شيء في الوجود عندما تصل إلى لحظة نهايتها

الحقيقة السابعة: "والسماء والطارق ☼ وما أدراك ما الطارق ☼ النجم الثاقب ☼" (سورة الطارق ١ – ٣)

تتحدث هذه الآيات الثلاث من سورة الطارق عن نوع مميز من النجوم يختص بصفتين هامتين، الأولى أنه نجم طارق يصدر طرقات متتابعة يمكن سماعها، والثانية أنه نجم ثاقب يثقب الفضاء الذي يحيط به ، وقد شرح لنا علماء الفلك المعاصرون أن هاتين الصفتين تجتمعان في نوع من النجوم يسمى "النجم النيوتروني الراديووي" ولنترك علماء عصرنا الحديث ليشرحوا لنا ما توصلوا إليه في هذا الشأن:

---

[1] NASA : GODDARD SPACE FLIGHT CENTER , Ask an Astrophysicst , the question submitted August 21 , 1997 , Damian Audley and David Palmer

- جاء في موقع وكالة ناسا الفضائية للعلوم (NASA Science) ما يلي :

(تم اكتشاف النجوم النابضة لأول مرة عام ١٩٦٧م بواسطة الفلكية المتخصصة في دراسة موجات الراديو جاكلين بل والأستاذ المشرف على رسالتها الجامعية توني هويش، نبضات الراديو التي سجلاها كانت تعتبر شيئاً خارقاً للطبيعة حينها ، لذلك فإن بعض الفلكيين اندهشوا بشدة لاعتقادهم أنهما التقطا إشارات من كائنات فضائية في حضارات من خارج كوكب الأرض، لكن التفسير الصحيح كان أكثر غرابة ، فقد اتضح أن هذه النوابض هي نجوم نيوترونية تدور حول نفسها بسرعة فائقة وتحمل كتلة تعادل كتلة الشمس داخل كرة صغيرة قطرها حوالي ٢٠ كيلومتراً وتدور آلاف المرات كل ساعة ، هذه النجوم تشع نبضات من موجات الراديو في فضاء الكون على شكل منارة سريعة الإشعاع)[١] .

والرسم التوضيحي التالي يمثل الإشعاعات الصادرة عن هذه النجوم :

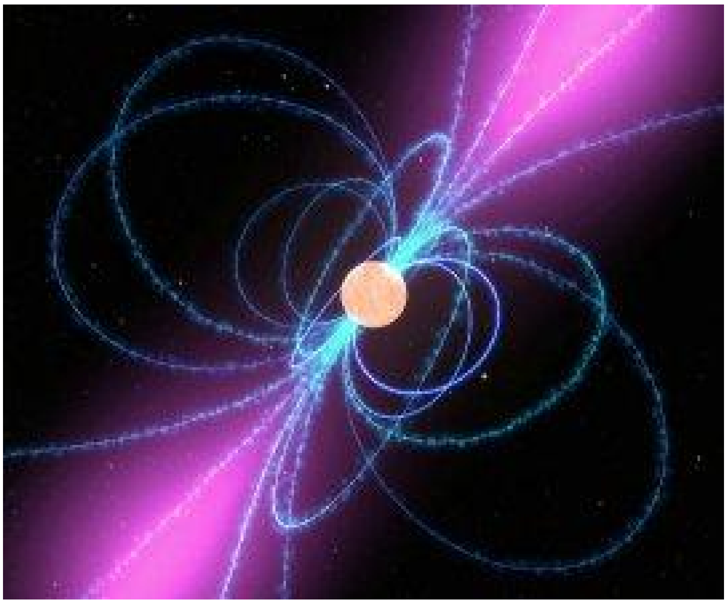

- وجاء على موقع جامعة مانشستر الإنجليزية– معهد دراسات العلوم والفلك – تحت عنوان (أصوات النجوم النابضة) تسجيلات لأصوات الكثير من هذه النجوم ومعها التعليق التالي:

(الأصوات الموجودة على هذه الصفحة تعود مباشرة إلى موجات الراديو الصادرة عن ألمع النجوم النيوترونية النابضة في السماء طبقاً لما تم تسجيله بواسطة أكبر التليسكوبات الراديووية في العالم، ولسماع صوت نبضات النجوم الراديووية اضغط على زر الصوت أسفله ، عندما تستمع إلى صوت هذه النجوم النابضة تخيل هذه الأجرام السماوية التي لها كتلة تعادل كتلة نصف مليون أرض وتصدر طنيناً متتابعاً أثناء دورانها، وتوجد أصوات عديدة أخرى يمكن الاستماع إليها على موقع (دوتش بولسر جروب)[٢]

والآن وبعد هذا الشرح من علماء الفلك المتخصصين نعود إلى الوصف العلمي الدقيق الذي ورد في القرآن الكريم في سورة الطارق عن هذه النجوم

[1] NASA Science , Science news, Science@NASA Headline News , 2008, Discovered : A new Kind of Pulsar, Editor: Dr, Tony Phillips

[2] MANCHEstER 1824, The University of Manchester, Jodrell Bank Centre for Astrophysics, School of Physics and Astronomy, The sounds of Pulsars ,

فالله عز وجل يقسم في الآية الأولى بالسماء والطارق ثم يعقب في الآية الثانية بقوله تعالى "وما أدراك ما الطارق" وهي عبارة تفيد عدم علم المخاطب شيئاً عن المقصود بهذه الكلمة (الطارق)، وعدم العلم هذا هو أمر بدهي في عصر نزول الآية في القرن السابع الميلادي ، لذلك عقب سبحانه وتعالى بشرح المقصود من هذه الكلمة بقوله "النجم الثاقب"

وبذلك يكون القرآن الكريم قد تحدث عن حقيقة علمية لا تقبل الشك وهي وجود نوع من النجوم يتصف بصفتين تميزانه عن بقية النجوم ،

الأولى : أنها نجوم "طارقة" أي تصدر طرقات متتابعة تشبه صوت المطرقة ،

والثانية : أنها نجوم ثاقبة تثقب الفضاء المحيط بها ، وقد تبين بعد اكتشاف أصوات هذه النجوم لأول مرة في عام ١٩٦٧م أنها تثقب الفضاء المحيط بها بدفقات من أشعة جاما و موجات الراديو والأشعة السينية

وبعد أن أصبحت المواقع العلمية على الإنترنت مليئة بالعديد من التسجيلات لأصوات مختلف أنواع النجوم النيوترونية النابضة كل منها له تردد خاص به ، لكنها جميعاً تتفق في أن أصواتها تشبه صوت المطرقة متتابعة الطرقات ، نستطيع أن نتيقن من أن الوصف المذكور في الآية ينطبق بدقة على هذه النجوم ، وأن الحقيقة المذكورة في القرآن الكريم منذ ألف و أربعمائة عام قد **أصبحت مسموعة بآذاننا ، ومشاهدة بأعيننا ، و مسجلة بكل طرق وأجهزة التسجيل المعروفة لدينا الآن**

من ناحية أخرى، وكما أشرنا سابقاً فإن عموم ألفاظ القرآن الكريم وشمولية مدلولاتها تجعلنا ننطلق بتصوراتنا استناداً إلى هذه الآيات الثلاث من سورة الطارق إلى أبعد من النجوم النيوترونية النابضة ، فقد يكتشف العلماء في المستقبل أنواعاً أخرى من النجوم تتصف بهاتين الصفتين المذكورتين في هذه الآيات ، أي لها أصوات تشبه صوت المطرقة ولها خاصية ثقب ما حولها في الفضاء المحيط بها ، بأي نوع من أنواع الأشعة أو بأي شكل من أشكال الثقب ، عند ذلك ستكون هذه النجوم بلا شك داخلة في معنى الآيات الثلاث ، لأن القرآن الكريم تحدث عن صفتين محددتين يمكن أن تنطبقا على العديد من أنواع النجوم هما (الطرق – و الثقب)

وبعض العلماء المسلمين المعاصرين يشيرون إلى الثقوب السوداء باعتبارها داخلة في معنى الآية ، فمنهم من يرجع ذلك إلى كونها طبقاً لأبحاث أينشتاين تثقب النسيج الكوني ، ومنهم من يرجع ذلك إلى قوة الجاذبية الهائلة التي تجعلها تبتلع كل ما يعترض طريقها من أجرام سماوية ، وهي بذلك تشبه الثقب الكوني الرهيب الذي تختفي فيه كل صور المادة والطاقة، أما من حيث كون الثقوب السوداء نجوماً طارقة فقد أثبت علماء معاصرون أنها تصدر موجات راديووية مثل الموجات التي تصدرها النجوم النيوترونية، وبذلك يكون القرآن الكريم هو أول من صك المصطلح العلمي الذي يطلق على الثقوب السوداء بقول الله تعالى "النجم الثاقب" وبفارق يزيد على ألف وأربعمائة عام كاملة

وسواءً كانت النجوم النيوترونية هي المقصودة في الآيات ، أو الثقوب السوداء ، أو نوع جديد من النجوم التي سوف يكتشفها علماء الأجيال القادمة ، أو كل هذه الأنواع من النجوم مجتمعة ، فإن السبق العلمي الضخم للقرآن الكريم متحقق بصورة تذهل عقول المتخصصين وغير المتخصصين على حد سواء ، وبخاصة حين يحدثنا العلماء أنهم اكتشفوا أصوات النجوم

النيوترونية لأول مرة عام ١٩٦٧م وأنهم ظنوا في البداية أنها أصوات مخلوقات فضائية قادمة من خارج كوكب الأرض

فهل يريد الملحدون دليلاً أوضح من هذا على أن الله عز وجل ليس فقط موجوداً، ولكنه أيضاً تواصل مع البشر من خلال كتاب رائع احتوى على حقائق علمية غاية في الدقة والروعة لم يكن بمقدور أحد من البشر التحدث عنها في الزمن الذي نزلت فيه ؟ وأنه سبحانه وتعالى جعل الدليل على وجوده وعلى صدق الرسالة التي أرسل بها خاتم رسله ينبع من الإنجازات الرائعة للعلماء الأذكياء غير المؤمنين بهذا الكتاب ؟

أليست الآيتان السابقتان بحديثهما عن النجوم النيوترونية النابضة و عن الثقوب السوداء تكفيان بمفردهما لتكونا هما الدليل الذي طالبنا به الملحدون ؟

الحقيقة الثامنة: "والسماء ذات الرجع" سورة الطارق ١١

ما زلنا في سورة الطارق ، ومع حقيقة علمية جديدة أثبت العلماء ليس فقط صحتها وإنما أيضاً أهميتها القصوى لاستمرار الحياة على كوكب الأرض، إنها حقيقة الدور الهام الذي تقوم به السماء (متمثلة في الغلاف الجوي للأرض) في إرجاع بخار الماء الصاعد من الأرض إليها مرة أخرى ، ولولا رجوع هذا البخار في شكل أمطار غزيرة لكانت الأرض الآن أشبه بكوكب الزهرة أو المريخ ولأصبحت الحياة عليها ضرباً من المستحيل، ليس هذا فقط وإنما توجد خمس صور أخرى – حتى الآن - أثبتها العلماء تقوم فيها السماء متمثلة في الغلاف الجوي بوظيفة – الإرجاع – إما إلى الداخل نحو الأرض، وإما إلى الخارج نحو الفضاء الخارجي

ذكر د زغلول النجار في كتابه "السماء في القرآن الكريم" بعد أن شرح طبقات الغلاف الجوي وأحزمة الإشعاع صور الرجع المختلفة التي تقوم بها هذه الطبقات قائلاً :

(**من صور رجع السماء**: باعتبار المقصود من السماء في الآية الكريمة "والسماء ذات الرجع" هو الغلاف الغازي للأرض نجد الصور التالية من رجع السماء :

(١) الرجع الاهتزازي للهواء (الأصوات وصداها)

(٢) الرجع المائي :

وماء الأرض يتبخر منه سنويّاً (٣٨٠٠٠٠) كيلومتر مكعب أغلبها (٣٢٠٠٠٠) كيلومتر مكعب يتبخر من أسطح البحار والمحيطات، والباقي (٦٠٠٠٠) كيلومتر مكعب يتبخر من سطح اليابسة، وهذا البخار تحمله الرياح إلى الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض وتحمله السحب حيث يتكثف ويعود إلى الأرض مطراً أو ثلجاً أو برداً،، هذه الدورة المعجزة للماء حول الأرض هي صورة من صور رجع السماء ولولاها لفسد كل ماء الأرض الذي يحيا ويموت فيه بلايين الكائنات في كل لحظة ، ولتعرض كوكبنا لحرارة قاتلة بالنهار ولبرودة شديدة بالليل

(٣) الرجع الحراري إلى الأرض وعنها إلى الفضاء بواسطة السحب:

يصل إلى الأرض من الشمس في كل لحظة شروق كميات هائلة من طاقة الشمس ، ويعمل الغلاف الغازي للأرض كدرع واقية لنا من حرارة الشمس أثناء النهار لأن ذراته وجزيئاته تمتص وتشتت وتعيد إشعاع أطوال محددة من الأشعة الشمسية في كل الاتجاهات بعيدا عن الأرض، كما يعمل النطاق الأسفل منه كغطاء بالليل يمسك بحرارة الأرض من التشتت ويردها إلى الأرض

ومن الأشعة الشمسية القادمة إلى الأرض يمتص ويشتت ويعاد حوالي ٥٣% منها بواسطة الغلاف الغازي للأرض، وتمتص صخور وتربة الأرض حوالي ٤٧% منها، ولولا هذا الرجع الحراري إلى الخارج لأحرقت أشعة الشمس كل صور الحياة على الأرض و لبخرت الماء وخلخلت الهواء وعلى النقيض من ذلك، فإن السحب التي ترد عنا ويلات حرارة الشمس في نهار الصيف هي التي ترد إلينا (٩٨%) من أشعة الدفء بمجرد غروب الشمس ، فصخور الأرض تدفأ أثناء النهار بحرارة الشمس بامتصاص حوالي ٤٧% منها ، وبمجرد غياب الشمس تبدأ الصخور في إعادة إشعاع حرارتها على هيئة موجات من الأشعة تحت الحمراء تمتصها جزيئات كل من بخار الماء وثاني أكسيد الكربون فتدفئ الغلاف الغازي للأرض، كما تعمل السحب على إرجاع غالبية الموجات الطويلة التي ترتفع إليها من الأرض (٩٨% منها) مرة أخرى إلى سطح الأرض وبذلك تحفظ الحياة الأرضية من التجمد بعد غياب الشمس،، وهذا الرجع الحراري بصورتيه إلى الخارج وإلى الداخل مما يحقق صفة "الرجع" لسماء الأرض

(٤) رجع الغازات و الأبخرة و الغبار المرتفع من سطح الأرض

(٥) الرجع الخارجي للأشعة فوق البنفسجية بواسطة طبقة الأوزون

تقوم طبقة الأوزون في نطاق التطبق بامتصاص وتحويل الأشعة فوق البنفسجية القادمة مع أشعة الشمس بواسطة جزيئات الأوزون وترد نسباً كبيرة منها إلى خارج ذلك النطاق، وبذلك تحمي الحياة على الأرض من أخطار تلك الأشعة المهلكة التي تحرق كلاً من النبات والحيوان والإنسان وتتسبب في العديد من الأمراض مثل سرطانات الجلد وإصابات العيون وغيرها، ويمكن أن تؤدي إلى تبخير ماء الأرض بالكامل

(٦) رجع الموجات الراديوية بواسطة النطاق المتأين:

في النطاق المتأين (بين ١٠٠ و٤٠٠ كم فوق مستوى سطح البحر) تمتص الفوتونات النشيطة القادمة مع أشعة الشمس من مثل الأشعة السينية فتؤدي إلى رفع درجة الحرارة وزيادة التأين ، ونظراً لانتشار الإلكترونات الطليقة في هذا النطاق فإنها تعكس الإشارات الراديوية القادمة مع أشعة الشمس إلى خارج نطاق الأرض ، كما تعكس موجات الراديو المبثوثة من فوق سطح الأرض وتردها إليها فتيسر عمليات البث الإذاعي والاتصالات الراديوية وكلها تمثل صوراً من صور الرجع

(٧) رجع الأشعة الكونية بواسطة كل من أحزمة الإشعاع والحقل المغناطيسي للأرض:

يمطر الغلاف الغازي للأرض بوابل من الأشعة الكونية الأولية التي تملأ فسحة الكون فتردها إلى الخارج كل من أحزمة الإشعاع والنطاق المغناطيسي للأرض فلا يصل إلى سطح الأرض

منها شيء --- والأشعة الكونية بأنواعها المختلفة تتحرك بمحاذاة خطوط المجال المغناطيسي للأرض والتي تنحني لتصب في قطبي الأرض المغناطيسيين، وذلك لعجزها عن عبور مجال الأرض المغناطيسي، ويؤدي ذلك إلى رد غالبية هذه الأشعة الكونية إلى خارج نطاق الغلاف الغازي للأرض، وما يفلت ترده أحزمة الإشعاع، وهذه الصورة من صور الرجع لم تعرف إلا بعد ريادة الفضاء في الستينيات من القرن العشرين)[١]

والصورة التالية توضح أشكالاً مختلفة من رجع السماء:

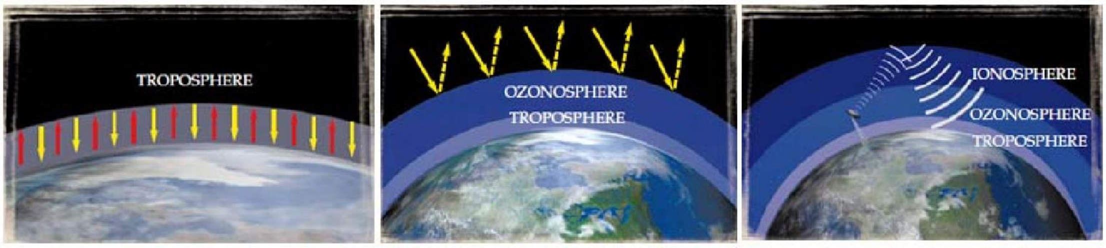

وتعليقاً على هذه الآية "والسماء ذات الرجع" نستطيع أن نتيقن أنه لم يكن من الممكن أبداً أن يتصور أحد في الزمن الذي نزلت فيه شيئاً عن كل هذه الصور من صور الرجع ، فما هو تفسير وجود هذه الحقيقة العلمية في هذا الكتاب ؟

<u>الحقيقة التاسعة: "والأرض ذات الصدع" ١٢</u>

فهم المسلمون الأوائل في عصر تنزيل القرآن الكريم وما تلاه من قرون وحتى وقت قريب أن هذه الآية تشير إلى مرحلة انشقاق التربة لتسمح للنبات بالخروج إلى أعلى ، ولم يكن بالإمكان الذهاب إلى أبعد من ذلك في حدود المعلومات التي كانت متاحة على مر تلك الأزمان، لكن لفظة "الصدع" تعطي معنى أعمق وربما أعنف من مجرد انشقاق التربة عن النبات بالشكل الذي نعرفه، لأن الصدع يحدث في شيء صلب ويصاحبه انفصال ظاهر على جانبي الصدع، ويؤيد ذلك وصف القرآن الكريم لمرحلة خروج النبات من التربة في سورة الحج بقول الله تعالى

" وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج " (الحج ٥ و ٦)

الآية إذاً تتجاوز هذا المعنى البسيط وتتحدث عن صدع حقيقي في الصخور المكونة للقشرة الأرضية أو في الغلاف الصخري الحامل لطبقة القشرة الأرضية

وعن تصدع صخور القشرة الأرضية يقول د زغلول النجار في كتاب "الأرض في القرآن الكريم" في تعليقه على قول الله تعالى (والأرض ذات الصدع) ما يلي :

(أما صدوع الأرض فهي كسور في قشرتها يتم عبرها تحرك صخورها على جانبي مستوى الصدع حركة أفقية أو رأسية أو مائلة بدرجة ملحوظة ، وتتباين أبعاد تلك الصدوع تبايناً كبيراً،

---

[١] - المرجع نفسه، صفحة ٣٠٢ – ٣٠٨ بتصرف

فمنها ما لا يرى بالعين المجردة-- ومنها ما يمتد إلى عشرات الكيلومترات--- ومن هذه الصدوع ما يتكون نتيجة لشد صخور الأرض في اتجاهين متعاكسين، ومنها ما يتكون نتيجة للتضاغط في اتجاهين متقابلين، كما أن منها ما يتكون نتيجة انزلاق كتل الصخور بعضها عن بعض)[1]

وعن "تصدع الغلاف الصخري للأرض" يقول د زغلول النجار في الكتاب نفسه : (على الرغم من التعرف على عدد من أودية الخسف و الصدوع العملاقة على سطح الأرض منذ زمن بعيد ، إلا أن العلماء قد اكتشفوا في العقود الثلاثة الماضية أن أرضنا محاطة بشبكة هائلة من تلك الأودية الخسيفة والصدوع العملاقة التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة ، يشبهها العلماء باللحام على كرة التنس ، وتمتد هذه الصدوع العملاقة لآلاف الكيلومترات في جميع الاتجاهات بأعماق تتراوح بين ٦٥ و٧٠ كيلومتراً تحت قيعان كل محيطات الأرض وعدد من بحارها وبين ١٠٠ و ١٥٠ كيلومتراً تحت القارات ممزقة الغلاف الصخري للأرض بالكامل إلى عدد من الألواح التي تعرف باسم " ألواح الغلاف الصخري ")[2]

- والصورة التالية توضح حركة الألواح الصخرية المسببة للصدوع الأرضية :

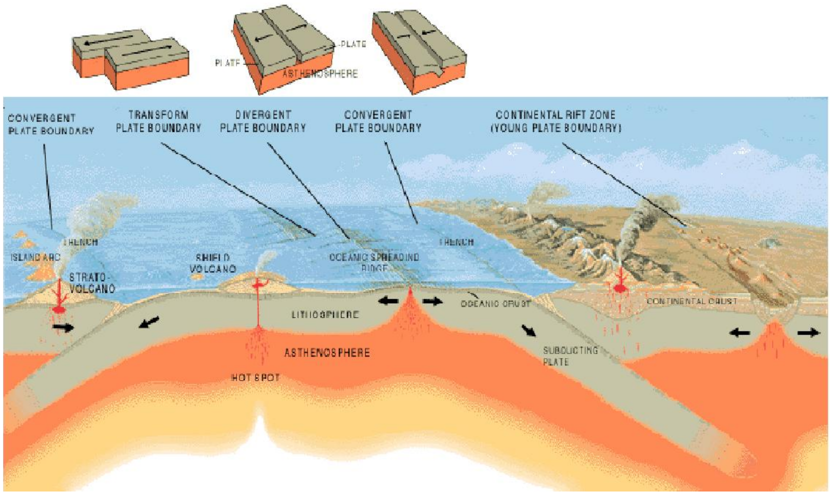

- كما أن الصورة التالية تبين خريطة لمسار هذه الصدوع التي مزقت الغلاف الصخري للأرض إلى عدد من الألواح الصخرية المختلفة والتي تشبه خطوط اللحام على كرة البيسبول :

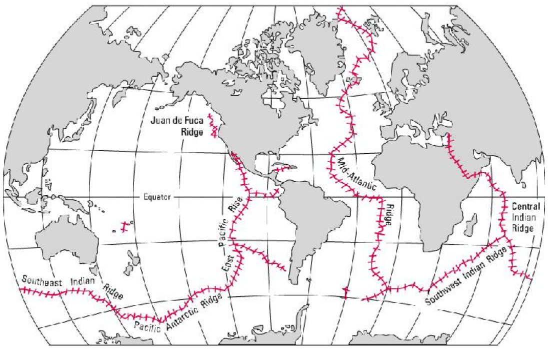

[1] - د : زغلول النجار ، (الأرض في القرآن الكريم) ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة ٣ ، ٢٠٠٨، صفحة ١٧٣
[2] - المرجع نفسه صفحة ١٧٤

وهنا يجب علينا أن نتناول اعتراض بعض المشككين في كون هذه الآية لا تحمل أي إشارة علمية ، وخلاصة هذا الاعتراض أن الآية الكريمة وصفت الأرض بأنها "ذات الصدع" وكما فهم المسلمون الأوائل فإن الصدع المذكور لا يتعدى انصداع التربة عند خروج النبتة الصغيرة منها وهو المعنى الوحيد الذي كان من الممكن تصوره وقت نزول الآية ، ولا علاقة له بالصدوع الضخمة المكتشفة حديثاً وعليه فإن تحميل الآية بهذا المعنى العلمي هو من قبيل تحميل الآية ما لا تحتمل

ولكي نكون منصفين علينا أن نؤكد أن هذا الاعتراض جيد ولكن في حالة واحدة فقط، وهي حالة وجود هذه الآية فقط في القرآن الكريم كآية تتحدث عن حقيقة علمية ، أما عندما تأتي هذه الآية في سورة لا يزيد عدد سطورها على سبعة أسطر، وتفتتح بثلاث آيات تتحدث بكل وضوح ودون أدنى شك عن النجوم النيوترونية النابضة و عن الثقوب السوداء ، ثم تتحدث عن رجع السماء الذي ذكرنا بعض صوره سابقاً ، فإن الاستنتاج العقلي الصحيح يميل إلى الجانب الذي يدعم اتساع دائرة المعنى المقصود بالصدع في الآية ليشمل كل أنواع صدوع الأرض ، ومنها الصدوع الغائرة التي قسمت الأرض إلى الألواح الصخرية التي تم اكتشافها حديثاً، لأن السياق الذي جاءت فيه الآية بين آيات هذه السورة هو سياق يتحدث عن حقائق كونية سوف يتم اكتشافها في أزمان لاحقة للزمن الذي نزلت فيه بقرون طويلة

الحقيقة العاشرة : (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) سورة الشورى ٢٩

تتحدث هذه الآية عن حقيقة علمية باهرة للعقول، وهي حقيقة وجود الحياة في كل أنحاء الكون الذي نسكنه ، والآية تؤكد بكل وضوح أن من عجائب قدرة الله عز وجل خلق هذا الكون الهائل بكل ما يحويه من مليارات المجرات والنجوم والكواكب ، ثم تؤكد الآية أن هذا الكون ليس فقط يحوي بعض صور الحياة هنا أو هناك وإنما يعج بالكائنات الحية المنتشرة في الكثير من أرجائه

ولننظر الآن ماذا فهم المسلمون الذين عاشوا منذ ألف عام من هذه الآية ثم نقرأ نظريات علمائنا المعاصرين عن الموضوع نفسه

جاء في تفسير الإمام الطبري– المتوفى عام ٩٢٢ م - لهذه الآية قوله (وما بثّ فيهما من دابة يعني وما فرّق في السموات والأرض من دابة)

وجاء في تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير (المتوفى عام ١٣٧٢ م) ما يلي :

(يقول تعالى "ومن آياته" الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر "خلق السموات والأرض وما بث فيهما" أي ذرأ فيهما "من دابة" وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر

الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم وقد فرقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض "وهو" مع هذا "على جمعهم إذا يشاء قدير" أي يوم القيامة)[1]

ولنقرأ الآن ما يقول علماء عصرنا المتخصصون عن الموضوع نفسه :

جاء على موقع ويكيبيديا بعنوان (الحياة البرية في الفضاء الخارجي) والتي توضح مدى ضخامة عدد الكواكب المرشحة لاحتواء الحياة :

(منذ عام ١٩٥٠م بدأ العلماء يبلورون فكرة (habitable zones") – أي المناطق الصالحة لسكنى الكائنات الحية – على أنها أكثر الأماكن التي يحتمل وجود الحياة فيها ، والمكتشفات العديدة لكواكب في هذه المناطق منذ عام ٢٠٠٧ تدعم وجهات النظر التي تقدر أعداد الكواكب المشابهة للأرض والتي يمكن أن تكون موطناً لكائنات حية بعدة بلايين كوكب، برغم أن العدد الذي تم اكتشافه حتى عام ٢٠١٣ في هذه المناطق هو عدد صغير، وبالرغم من ذلك ، ففي ٤ نوفمبر ٢٠١٣ كتب علماء الفلك تقريراً - استناداً إلى بيانات المهمة الفضائية للتليسكوب الفضائي "كبلر"- يفيد إمكانية وجود أكثر من ٤٠ بليون كوكب في حجم الأرض تقريباً تدور في المناطق الصالحة للحياة حول نجوم شبيهة بالشمس أو حول "أقزام حمراء" داخل مجرة درب اللبن ،١١ بليون منها تقريباً يدور حول نجوم تشبه شمسنا، ويقع أقربها على بعد حوالي ١٢ سنة ضوئية ، بحسب العلماء)[٢]

ويذكر علماء الفلك – على موقع (News.Mic) - وتحت عنوان **(وكالة ناسا تكتشف أفضل الأدلة حتى الآن على وجود الحياة خارج نظامنا الشمسي) فسوف نقرأ التعليق التالي :**

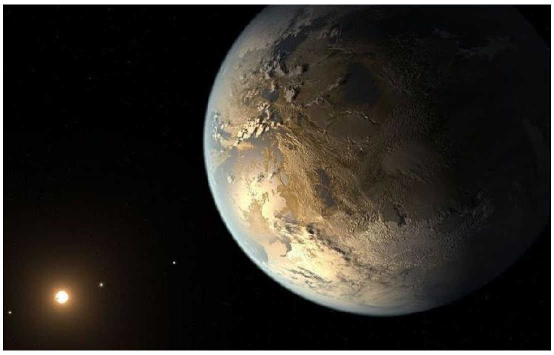

NASA Discovers the Best Evidence Yet That Life Exists Outside Our Solar System Image Credit: NASA

— Charlie Kaye (@CharlieKayeCBS) April 17, 2014

(يدور كوكب (كبلر-١٨٦- ف) حول النجم (كبلر- ١٨٦) على بعد حوالي ٤٩٠ سنة ضوئية ويقع داخل كوكبة (الدجاجة) ، ويبلغ قطره (٨٧٠٠ ميل) ما يجعله أكبر من الأرض نسبيّاً، ويدور هذا الكوكب في المنطقة الملائمة للحياة حيث تسمح درجات الحرارة للمياه السائلة لأن

[١]- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٩٥م ، المجلد الرابع ، صفحة ١٠٣ سطر ١٩

[2] (from Wikipedia, the free encyclopedia, Extraterrestrial life, Hoehler, Tori M.; Amend, Jan P.; Shock, Everett L. (2007). "A "Follow the Energy" Approach for Astrobiology". *Astrobiology* **7** (6): 819–823 / and "Top 10: Controversial pieces of evidence for extraterrestrial life". *New Scientist*. 4 September 2006. Retrieved 2011-02-18.

تنساب على سطحه، كما أن له جاذبية مشابهة لجاذبية الأرض ، هذه هي المرة الأولى التي يكتشف فيها كوكب بمثل هذه الخصائص خارج نظامنا الشمسي)[1]

والرسم التوضيحي التالي يبين شكل هذا الكوكب بالمقارنة بالأرض :

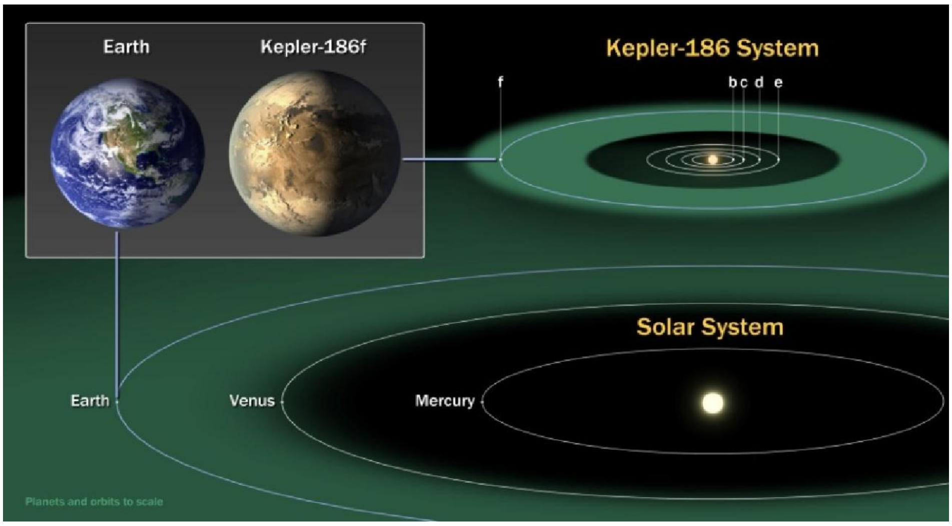

و يذكر علماء الفلك على مواقع الإنترنت عدداً كبيراً من الكواكب التي تشبه الأرض و تدور حول نجومها في المنطقة الصالحة لوجود الحياة ، مثل كواكب المجموعة النجمية (كبلر ٢٢) و (كبلر ٦٢) و (كبلر ٦٩) و (Gliese-581) و (Gliese 667Cc) وغيرها كثير، ليس هذا فقط : بل يؤكد علماء الفلك أن هناك داخل مجموعتنا الشمسية أجراما تحتوي على محيطات تحت سطحية متجمدة ، وأن هذا يرجح أن هذه الأجرام احتوت على الحياة في وقت من الأوقات ، ويذكرون منها قمري المشتري (أوروبا) و (جانيميد) و قمري زحل (إنكيلادوس وتيتان)

مما سبق يتضح أن جهود العلماء المتواصلة لاكتشاف وجود كائنات حية خارج الأرض أوشكت أن تؤتي ثمارها ، وكما قرأنا في السطور السابقة للعلماء المتخصصين فإن الأدلة العلمية تؤكد أن أعداد الكواكب التي تدور حول نجوم تشبه شمسنا في المنطقة الصالحة لاحتواء الحياة حوالي ١١ بليون كوكب داخل مجرتنا فقط ، فإذا علمنا أن العلماء يقدرون عدد المجرات - في الكون المعروف لنا - بأكثر من ٣٠٠ بليون مجرة فكم يكون عدد الكواكب التي يمكنها استضافة الحياة في هذا الكون ؟

أليس هذا يؤكد دقة الوصف القرآني في الآية المذكورة "وما بث فيهما من دابة" وما تحمله كلمة "بث" من معاني الكثرة والانتشار ؟

قد يعترض البعض بأن العلماء لم يعثروا حتى الآن على الدليل العلمي القاطع على وجود الحياة في أماكن أخرى غير الأرض ، ولكن العلماء أكدوا أن احتمال وجود الحياة خارج كوكب الأرض أكبر بكثير من احتمال عدم وجودها (استناداً إلى اكتشاف بكتيريا بدائية على الكاميرات

---

[1] (News.Mic), Tom Mckay, April 17, 2014, NASA Discovers The Best Evidence yet That Life Exists Outside Our Solar System

و الأجزاء التي كانت مثبتة على المركبات الفضائية بعد عودتها إلى الأرض)، و أن الدليل العلمي على ذلك قد أصبح قريباً منهم ، وربما يعلنون عنه في الفترة القادمة

ومرة أخرى يطرح السؤال الهام نفسه: أليس من العجيب أن تكون حقيقة انتشار الحياة في الكون راسخة في عقول المفسرين المسلمين الذين عاشوا قبلنا بألف عام كحقيقة مؤكدة في الوقت الذي ما زال العلماء المعاصرون حتى الآن غير متيقنين منها وإن كانوا يرجحون صحتها ؟

نحن نعلم أن العلم يجب أن يستند إلى أدلة مادية قاطعة ، ولذلك فإن جهود العلماء المتواصلة للوصول إلى الأدلة المادية هي محل تقدير بلا شك ، وربما كان الدليل القاطع سوف يكتشف في السنوات القليلة القادمة ، ولكن ما نود الإشارة إليه هو **كم هو الفارق بين عالم يبحث عن شيء وهو على يقين من وجوده وبين عالم آخر يبحث أولاً هل هذا الشيء موجود أم لا ؟**

وأخيراً: أليس ورود حقيقة مثل هذه يعد سبقاً هائلاً للقرآن الكريم يشهد له بأنه لا يمكن أن يكون من تأليف البشر ولا حتى علماء القرن الحادي والعشرين فضلاً عن أن يكون من تأليف البشر الذين عاشوا في القرن السابع الميلادي ؟ فبرغم أن العلماء حتى الآن لم يعثروا على الدليل المادي على وجود الحياة خارج كوكب الأرض – وسوف يعثرون بلا أدنى شك - فإن مجرد تخمين مثل هذه المقولة من جانب رجل عاش في القرن السابع الميلادي هو أمر غير محتمل

وقبل أن ننتقل إلى الحقيقة التالية يجب أن نشير هنا إلى نقطة في غاية الأهمية :

فإذا رجعنا إلى الدليل الإحصائي الذي ذكره د: ريتشارد ليدلل به على إمكانية حدوث المصادفة التي سمحت بظهور الحياة لمرة واحدة وعلى كوكب واحد من بين مليار مليار كوكب ، فطبقاً لاستنتاجات العلماء حديثاً سيتطلب الأمر حدوث المصادفة على جميع هذه الكواكب ، و في أوقات متقاربة ، وبالتالي فنحن لا نتحدث عن مصادفة واحدة بل على بلايين المصادفات المتطابقة ، وفي الحقيقة ليس في الوجود كله مصادفتان اثنتان فقط متشابهتان فكيف يمكن تصديق وجود ملايين المصادفات المتشابهة ؟

العقل لا يقبل إلا بالأمور المنطقية ، والذين يقبلون بالأمور غير المنطقية هم المجانين ، فحين يتكرر حدث معقد بشكل كبير في عدد كبير من الأماكن بالشكل نفسه، فنحن لسنا أمام مصادفة ، و إنما أمام (نظام سائد) ناتج عن (قانون واحد)، و كل من هذا النظام السائد والقانون الواحد وضعهما و يتحكم فيهما (مصدر واحد) في جميع تلك الأماكن ، و هذا المصدر لا يستطيع فعل ذلك إلا إذا كان هو الذي أعد المسرح في جميع تلك الأماكن ليناسب ظهور الحدث و استمراره ، و إذا كنا نتحدث عن مسرح بحجم يضم ملايين الكواكب التي يبعد بعضها عن بعض بمسافات تقدر بالسنين الضوئية ، فلا يقتنع العقل بأن يكون مصدر هذا النظام و هذه القوانين إلا قوة هائلة تتحكم في الكون كله وعلم أسطوري فائق الدقة ،

هل هناك مصدر يمكن أن تنطبق عليه هذه الصفات سوى (الله سبحانه وتعالى) الذي هو كما وصف أرسطو (موجود أزلي ، لا نهائي القدرة ، و العلم ، و الحكمة) ؟

<u>الحقيقة الحادية عشرة</u> : (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)(سورة الملك ١٦)

تتحدث هذه الآية بكل وضوح عن **الطبيعة المائعة لطبقة "الوشاح"** شبه المنصهرة وتصف ما يحدث فيها من تيارات الحمل الحراري حيث تتصاعد الصخور المنصهرة إلى أعلى طبقة الوشاح ثم تبرد وتهبط مرة أخرى إلى الأسفل تماماً كما يحدث في حركة تيارات الحمل التي تحدث في إناء مملوء بالماء عند وضعه فوق مصدر للحرارة حتى يصل إلى درجة الغليان

ولنقرأ تفسير هذه الآية كما جاء في تفسير "البغوي" المتوفى سنة ٥١٦ هجرية (١١٢٢م) :

(ثم خوف الكفار فقال" :أأمنتم من في السماء"، قال ابن عباس: أي: عذاب من في السماء إن عصيتموه،" أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور"، قال الحسن: تتحرك بأهلها. وقيل: تهوي بهم. والمعنى: أن الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تلقيهم إلى أسفل، تعلو عليهم وتمر فوقهم. يقال: مار يمور، أي: جاء وذهب.)

وجاء في تفسير هذه الآية في تفسير "ابن كثير" ما يلي :(وقال ها هنا " أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور " أي تذهب وتجيء وتضطرب.)[١]

إذاً الآية تصف باطن الأرض بأنه في حالة اضطراب وحركة – تذهب وتجيء - وهو وصف فائق الدقة لحركة تيارات الحمل الحراري خلال طبقة الوشاح ،

وقد أكد العلماء في عصرنا الحديث هذه الحقيقة التي أصبحت من المسلمات ، وقد جاء في كتاب (This dynamic Earth) الموجود ملخص له على موقع USGS تعليقاً على الصورتين التاليتين شرح تفصيلي[٢] لتيارات الحمل الحراري التي تحدث في باطن الأرض ووجه الشبه بينها وبين تلك التي تحدث في إناء به ماء يغلي :

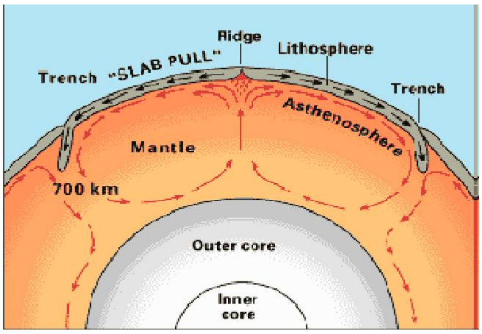

ونستطع الآن أن نؤكد أن الآية الكريمة حين تصف باطن الأرض بأنه يتحرك ويضطرب – جيئة وذهاباً – تكون قد اشتملت على حقيقة علمية هامة لم يكن بمقدور أحد من سكان الأرض وقت تنزيل القرآن أن يتخيل شيئاً عنها من تلقاء نفسه ، أليس من المثير للدهشة والعجب أن يصف الإمام البغوي عند تفسيره للآية الكريمة حركة باطن الأرض بقوله **(والمعنى: أن الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تلقيهم إلى أسفل، تعلو عليهم وتمر فوقهم. يقال:**

[١] - تفسير القرآن العظيم ، الطبعة السابقة ، المجلد الرابع ، صفحة ٣٥٩، سطر ١٣

[2] [2] http://pubs.usgs.gov/publications/text/unanswered.html, this dynamic Earth: the story of plate tectonics, by: W. Jacquelyne Kious and Robert I. Tilling, Some unanswered questions, What drives the plates

مار يمور، أي: جاء وذهب.) أليس هذا وصفاً دقيقاً لحركة الصهارة في طبقة الوشاح شبه المنصهرة أثناء صعودها وهبوطها بفعل تيارات الحمل الحراري ؟

أليس من الغريب أن يرد هذا الوصف على لسان رجل مسلم عاش منذ ٩٠٠ عام و قبل أن تعرف البشرية المختبرات والمراصد والأجهزة الحديثة ولم يكن يستند في وصفه هذا إلا إلى كلمة واحدة وردت في القرآن الكريم هي كلمة "تمور" ؟

ألا يثبت هذا أن كلمات القرآن الكريم منتقاة بعناية فائقة لتصف حقائق علمية سوف تكتشف بعد نزول القرآن بقرون كثيرة لتكون دليلاً للأجيال التي لم تولد بعد على أن هذا القرآن هو كلام خالق الكون ومن المستحيل أن يكون صناعة بشرية ؟

الحقيقة الثانية عشرة : (أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب) (سورة الرعد ٤١)

تتحدث هذه الآية عن حقيقة علمية جديدة تتعلق بحجم الأرض، وهي حقيقة تناقص أبعاد الأرض بمرور الزمن، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة مرتين الأولى في الآية السابقة من سورة الرعد والثانية في الآية رقم ٤٤ من سورة الأنبياء في قوله تعالى **" أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون"**

جاء في كتاب "الأرض في القرآن الكريم" للدكتور زغلول النجار تحت عنوان (أ - إنقاص الأرض من أطرافها بمعنى انكماشها على ذاتها وتناقص حجمها باستمرار) ما يلي:

(وتشير الحسابات إلى أن حجم الأرض البدائية كان على الأقل يصل إلى مائة ضعف حجم الأرض الحالية -- وأن هذا الكوكب قد أخذ منذ اللحظة الأولى لخلقه في الانكماش على ذاته من كافة أطرافه ، وانكماش الأرض على ذاتها سنة كونية لازمة للمحافظة على العلاقة النسبية بين كتلتي الأرض والشمس ، وهي العلاقة التي تضبط بعد الأرض عن الشمس ، ذلك البعد الذي يحكم كمية الطاقة الواصلة إلينا --- ومن الثابت علميّاً أن الشمس تفقد من كتلتها في كل ثانية نحو خمسة ملايين من الأطنان على هيئة طاقة ناتجة من تحول غاز الأيدروجين بالاندماج النووي إلى غاز الهليوم ، وللمحافظة على المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس لا بد وأن تفقد الأرض من كتلتها قدراً متناسباً تماماً مع ما تفقده الشمس من كتلتها ، ويخرج ذلك عن طريق كل من فوهات البراكين و صدوع الأرض على هيئة الغازات والأبخرة وهباءات متناهية الضآلة من المواد الصلبة التي يعود بعضها إلى الأرض ويتمكن البعض الآخر من الإفلات من جاذبية الأرض والانطلاق إلى صفحة السماء ، وبذلك الفقدان المستمر من كتلة الأرض فإنها تنكمش على ذاتها ، وتنقص من كافة أطرافها)[١]

ثم يشرح الدكتور زغلول النجار صورة أخرى من صور إنقاص الأرض من أطرافها قائلاً :

[١] - د. زغلول النجار ، (الأرض في القرآن الكريم) ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٣ ، ٢٠٠٨ م ، صفحة ١٥٧

(ب – إنقاص الأرض من أطرافها بمعنى تفلطحها قليلاً عند القطبين وانبعاجها قليلاً عند خط الاستواء :

في زمن الخليفة المأمون قيست المسافة المقابلة لكل درجة من درجات خطوط الطول في كل من تهامة والعراق ، واستنتج من ذلك حقيقة أن الأرض ليست كاملة الاستدارة ، وقد سبق العلماء المسلمون الغرب في ذلك بثمانية قرون على الأقل ، لأن الغربيين لم يشرعوا في قياس أبعاد الأرض إلا في القرن السابع عشر الميلادي، حين أثبت نيوتن نقص تكور الأرض وعلله بأن مادة الأرض لا تتأثر بالجاذبية نحو مركزها فحسب ولكنها تتأثر كذلك بالقوة الطاردة المركزية الناشئة عن دوران الأرض حول محورها ، وقد نتج عن ذلك انبعاج بطيء في الأرض ولكنه مستمر عند خط الاستواء حيث تزداد القوة الطاردة المركزية حتى تصل إلى ذروتها وتقل قوة الجاذبية إلى أدنى قدر لها ، ويقابل ذلك الانبعاج الاستوائي تفلطح – انبساط – غير متكافئ عند قطبي الأرض حيث تزداد قوتها الجاذبة وتتناقص قيمة القوة الطاردة المركزية ، والمنطقة القطبية الشمالية أكثر تفلطحاً من المنطقة القطبية الجنوبية-- ويمثل هذا التفلطح نحو ٠,٣٣% من نصف قطر الأرض مما يدل على أنها عملية بطيئة جدّاً تقدر بنحو ١سم تقريباً كل ألف سنة ولكنها عملية مستمرة منذ بدء خلق الأرض وهي إحدى عمليات إنقاص الأرض من أطرافها)[١]

وهناك عدة صور أخرى لإنقاص الأرض من أطرافها شرحها الدكتور زغلول النجار

والآن: مَنْ مِن البشر الذين عاشوا في القرن السابع الميلادي كان يستطيع أن يتصور شيئاً عن أبعاد الأرض ثم ينتحل صفة الخالق و يقول عن الأرض (ننقصها من أطرافها) ؟

<u>الحقيقة الثالثة عشرة</u> : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل)

جاءت هذه الحقيقة في سورة الزمر ، حيث يقول الله سبحانه وتعالى :

(خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار) (الزمر ٥)

والآن لو تخيلنا أن واحداً من أكثر أهل الأرض الذين عاشوا في القرن السابع الميلادي علماً أراد أن يصف لنا ظاهرة الليل والنهار ، فهل كان بإمكانه أن يصفها بهذا الوصف الوارد في القرآن الكريم ؟

إن القرآن الكريم يأخذنا في رحلة فضائية رائعة لنشاهد كوكبنا الذي نعيش عليه كيف يبدو لمن ينظر إليه من الفضاء الخارجي ، لأن هذا الوصف لا يمكن أن يشاهد من على سطح الأرض ، وهو أمر مستحيل على البشر في ذلك الزمان تصوره ، ونحن لم نشاهد هذه الحقيقة بهذا الوصف إلا عن طريق الصور التي تم التقاطها من على سطح القمر أو من خارج الغلاف الجوي للأرض بواسطة الكاميرات التي تحملها المركبات الفضائية أو الأقمار الصناعية ،

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ١٥٨ و ١٥٩

وبالطبع لم يكن بإمكان رسول الله محمد ﷺ أن يذهب إلى هناك حتى يؤلف هذا الوصف وحتى يكتب هذه العبارة العلمية الدقيقة من تلقاء نفسه

لكن المشهد الرائع الذي يراه من هو خارج الأرض لليل والنهار ليس هو فقط المقصود بالآية الكريمة ، لأن الآية تتحدث عن حقيقة علمية وهي كروية الأرض بشكل واضح لا يقبل الشك

والصورة التالية توضح دقة الوصف الوارد في الآية الكريمة وتؤكد أن القرآن الكريم من المستحيل أن يصدر عن أحد من البشر مهما بلغت فصاحته ومهما بلغت معارفه

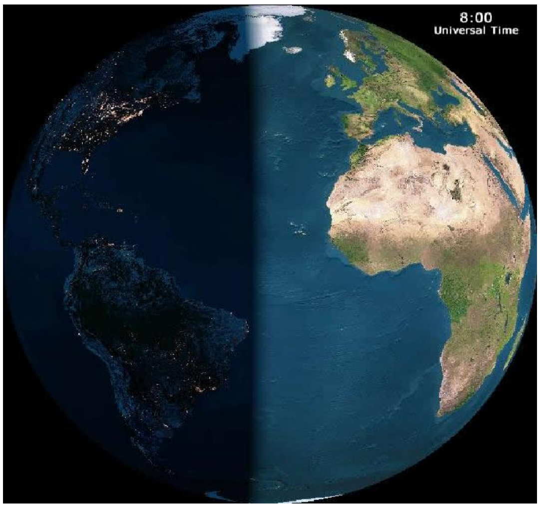

أليست هذه الآية تكفي بمفردها لتكون هي الدليل العلمي الذي طلبه منا الملحدون ؟ أليس العلم قد قال كلمته بكل وضوح في هذه الحالة بأن مصدر القرآن الكريم هو خالق الكون الذي يرى كونه من خارج كل أقطار هذا الكون ؟ هل سيغير د: ريتشارد دوكنز قناعاته الآن كما وعد ؟

<u>الحقيقة الرابعة عشرة</u> : (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) (سورة الأنبياء ١٠٤)

يحتل موضوع نهاية الحياة على كوكب الأرض وكذلك نهاية النظام الشمسي ككل مساحة كبيرة من الأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم ، والطريقة التي يتناول بها القرآن أحداث نهاية عالمنا تؤكد خطورة هذا الحدث و ضخامة تأثيره على كل سكان وأجرام النظام الشمسي و ربما على الكون كله بشكل عام ، لقد احتوى القرآن الكريم على أوصاف دقيقة لما سوف يحدث للأرض وللكواكب وللنجوم وللسماء في ذلك اليوم بشكل يثير في قلب كل عالم من علماء الفلك والفيزياء والرياضيات روح التحدي والحماس الشديدين لاكتشاف الحقائق العلمية المرتبطة بالسبب المباشر الذي سيؤدي إلى بدء وقوع هذا الحدث المروع، بل إن دراسة هذه المشاهد القرآنية عن يوم النهاية يعطي معلومات هامة عن الكون الذي نعيش فيه الآن

"يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين"

يخبر الخالق سبحانه وتعالى في هذه الآية من سورة الأنبياء أن سيناريو النهاية **سيكون نسخة معاكسة تماماً** من سيناريو بدء الخلق، وعلى ذلك يمكننا تصور الاحتمالات الآتية :

الاحتمال الأول : أن الآية تتحدث عن فناء الكون الذي نعرفه بكل ما يحويه من مجرات ونجوم وكواكب تحت تأثير قوة هائلة بشكل سريع و عنيف ومفاجئ ، والذي تستطيع عقولنا حتى الآن تصوره بما توافر لدينا من علوم قليلة ، هو أن ذلك من الممكن أن يحدث نتيجة وصول كتلة الكون في لحظة ما لنقطة "الكتلة الحرجة" التي عندها ستبدأ قوى الجاذبية في طي الكون بسماواته السبع بكل قوة سماءً بعد سماء مثلما تطوى صفحات الكتاب ، لكن في الحقيقة فإن تأكيد الله عز وجل بأنه سوف **يطوي السماء كما تطوى صفحات الكتاب هو أعجب ما في الأمر**، وما زلنا نحتاج إلى الكثير من عقول ومكتشفات وجهود العلماء الأكثر ذكاءً في عصرنا أو ربما في الجيل الذي يلي جيلنا لكي نعرف ما هو المقصود بهذا الوصف الدقيق

لقد تحدث علماء نظرية الأوتار عن أن الكون ربما كان مكوناً من عدة أغشية متوازية - لا نراها - تشبه شرائح الخبز عند تقطيعها ، وأننا نعيش داخل إحدى هذه الشرائح ، فهل نستطيع أن نتصور أن هذه الشرائح – في حال إثبات وجودها – من الممكن أن تكون ليست متوازية وإنما **ملتقية عند أحد جوانبها مثل تلاقي صفحات الكتاب** – أو **ربما مثل تلاقي فصوص البرتقالة** - وأنه عندما تحين لحظة النهاية سوف يطويها الخالق عز وجل كما تطوى صفحات الكتاب ؟

ومن ناحية أخرى : فإن عبارة "يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب" تسمح بتصور سيناريو آخر ، فالمجرات الحلزونية لها العديد من الأذرع يحتوي كل منها على عدد هائل من النجوم ، ويرجح العلماء أن كل مجرة منها يوجد في مركزها ثقب أسود تدور جميع الأذرع بما تحويه من نجوم حوله بقوة الجاذبية الهائلة لهذا الثقب الأسود، وعليه يمكن تصور أنه في يوم النهاية ستقوم هذه الثقوب السوداء بابتلاع المجرات بحيث يبدو سقوط الأذرع المكونة لها داخل الثقوب السوداء مشابهاً لمشهد طي صفحات الكتاب، وستعطي العبارة المكملة للآية "كما بدأنا أول خلق نعيده" احتمالاً بأن السديم الحار الذي تكونت منه المجرات ربما كان خارجاً من داخل الثقوب السوداء ، وأن النجوم التي بدأت تتشكل من هذا السديم بدأت في التباعد عن المركز ، كما بدأت سرعات دورانها حول المركز تقل عن سرعة النجوم الأقرب للمركز مما سمح بتشكيل الأذرع التي ما زالت حتى الآن تتباعد في منظر يشبه فتح و تقليب صفحات الكتاب، والذي سوف يعكس اتجاهه عندما تحين النهاية لتعود المجرات إلى مرحلة الطي الذي يشبه طي صفحات الكتاب ، كل هذه التصورات المقترحة يمكن أن يحتملها سياق الآيات القرآنية

الاحتمال الثاني: أن يكون حدث النهاية حدثاً محليّاً ، أي أنه سيقع داخل المجرة التي نسكنها - مثل احتمال انفجار مستعر أعظم على مسافة قريبة نسبيّاً من مجموعتنا الشمسية أو حدوث اصطدام كوني ضخم بين الأرض وبين أحد الأجرام السماوية الضخمة ، وذلك استناداً إلى أن كلمة "السماء" في القرآن الكريم جاءت لتشير إلى عدة مستويات كما ذكرنا من قبل عند حديثنا عن تمدد الكون في بداية هذا الفصل ، وعلى هذا الاحتمال فإن طي السماء المذكور في الآية سيكون هو أيضاً حدثاً محليّاً داخل سماء المجموعة الشمسية ، وربما استطاع العلماء المتخصصون أن يشرحوا لنا كيف يمكن أن تطوى السماء في هذه الحالة

ونعقب على هذا الجزء بملاحظة هامة :

إن كلمة واحدة من كلمات القرآن الكريم أو جملة صغيرة تحفز العقل وتدفعه بقوة لكي يتفكر في الكون لأيام وربما لشهور محاولاً فهم هذه الكلمة أو تلك الجملة ، ولقد حرص الإسلام وكتابه الرائع القرآن الكريم على حث المسلمين على التفكر في الكون ، بل وجعل هذا التفكر في الكون عبادة يتقرب بها المسلم إلى خالقه بل جعلها واجباً من الواجبات ، قال الله تعالى :

"إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ☼ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ☼" (سورة آل عمران ١٩٠ - ١٩١)

الحقيقة السادسة عشرة:

- جاء في سورة الحج قول الله تعالى :

" أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ☼" (سورة الحج ٤٦)

- وجاء في سورة البقرة قول الله تعالى **" لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم ☼"** (سورة البقرة ٢٢٥)

تتحدث هذه الآيات عن حقيقة علمية لم تكتشف إلا خلال العشرين سنة الأخيرة فقط ، وهي حقيقة "القلب العاقل" أو "القلب الذكي" ، بمعنى أن القلب ليس فقط عضواً عضليّاً مهمته ضخ الدم في جميع أعضاء الجسم ، وإنما يقوم بوظائف أخرى متعلقة بالتعقل والفهم والإدراك والتحكم في السلوك بل وأيضاً اتخاذ القرارات

وترتبط هذه الحقيقة بحقيقة علمية أخرى وهي حقيقة وجود ذاكرة داخل جسد الإنسان يسجل فيها كل ما يمر بنا من أحداث ، وقد وضع العلماء حديثاً نظرية تسمى "ذاكرة الخلية" تفيد بأن كل خلية في جسد الإنسان وخاصة في الأعضاء الحيوية مثل القلب تحتوي على نظام لتسجيل المعلومات ، وقد استشهد العلماء على صحة هذه النظرية بأحداث واقعية اعتبرها الكثير منهم دليلاً على وجود هذه الذاكرة بالفعل وإن كان البعض الآخر منهم ما زال متردداً في قبول التسليم بصحتها، لكن النظرية تكتسب كل يوم تأييداً جديداً من العلماء

ونحن هنا نشير إلى أن القرآن الكريم قد أكد بصورة قاطعة أن أعضاء الإنسان سوف تشهد عليه بكل ما عمل يوم القيامة وذلك في الآيات الآتية :

- جاء في سورة فصلت قول الله تعالى إخباراً عن يوم القيامة

"ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ☼ حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ☼ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ☼ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ☼ وذلكم

ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ☼ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ☼" (سورة فصلت ١٩ – ٢٤)

فهل هذه إشارة إلى أن هذه الأعضاء – أو ربما خلايا هذه الأعضاء - تحتوي على ذاكرة تحتفظ بكل ما يمر بها من أحداث وأنها ستأتي يوم القيامة شاهدة على أفعال الإنسان بموجب ما تم تسجيله في هذه الذاكرة ؟ على الأرجح نعم ، ولنبدأ الآن في مناقشة حقيقة "القلب العاقل" ومعها حقيقة "ذاكرة الأعضاء" :

أكدت الآية السادسة والأربعين من سورة الحج – المذكورة سابقاً - أن من وظائف القلب التعقل والفهم ، كما أن السمع هو وظيفة الأذن ، وكما أن الرؤية هي وظيفة العين، كما أكدت الآية **معنى عميقاً جدّاً وهو أن الأعمى ليس هو من يفقد القدرة على الرؤية بعينيه وإنما الأعمى الحقيقي هو من يفقد القدرة على التمييز والتعقل بقلبه** ، فكم من أناس فقدوا حاسة البصر لكنهم يملكون قلوباً عاقلة رشيدة تجعلهم أعظم من جميع المبصرين حكمة وبصيرة وعلماً وخلقاً

لكن الآية الأولى بتأكيدها أن التعقل يكون محله القلوب التي في الصدور تكون قد أعطت سبقاً علميّاً للقرآن الكريم في مجال علم التشريح ووظائف الأعضاء مقداره ألف وأربعمائة عام، **و بهذه الآية يكون القرآن الكريم هو أول من صك مصطلح "القلب العاقل" في التاريخ وقبل علمائنا المعاصرين بهذه القرون الطويلة** ، وسوف نرى بعد قليل أن القرآن الكريم بين أن القلب يقوم بوظائف كثيرة متعلقة بالإدراك والفهم والشعور والتحكم في ردود الأفعال ، وأيضاً تحليل المعلومات وتصديقها أو تكذيبها ثم اتخاذ القرار بالعمل بموجب هذا التصديق أو التكذيب، أو حتى اتخاذ قرار بإخفاء هذا التصديق أو التكذيب والعمل بعكس ما استقر في القلب لتحقيق مصلحة متوقعة مثل تحصيل منافع أو تجنب أخطار كما في حالة النفاق أو الإكراه

كما أكدت الآيات من ١٩ إلى ٢٤ من سورة فصلت حقيقة هامة ، وهي أن أعضاء الإنسان (حاسة السمع وحاسة البصر والجلد بشكل عام) سوف تشهد على الإنسان بكل ما كان يعمل في الدنيا، لأن الكافرين حين يرون العذاب يوم القيامة سوف ينكرون أنهم كانوا كافرين كما جاء في قول الله تعالى في سورة الأنعام **"ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ☼ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ☼ انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ☼"**

عند ذلك سيجعل الله عز وجل شهوداً من أجسادهم تشهد عليهم بكل ما عملوا في حياتهم، سمعهم وأبصارهم وجلودهم، وفي سورة يس أضاف سبحانه وتعالى إلى هؤلاء الشهود الأيدي و الأرجل حيث قال تعالى **"اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ☼"** (يس ٦٥)

ثم أضاف سبحانه وتعالى الألسنة إلى هؤلاء الشهود في سورة النور عند الحديث عن الذين يقذفون النساء العفيفات بتهمة الزنى ظلماً في قوله تعالى :

"إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ☼ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ☼ يومئذٍ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ☼" (النور ٢٣ – ٢٥)

ومن البدهي أن هذه الأعضاء تحتاج لكي تشهد إلى ذاكرة تمكنها من استرجاع ما حدث في الدنيا من أحداث مر عليها آلاف السنين ، فبدون تذكر هذه الأعضاء لكل ما حدث في الدنيا لا تستطيع الشهادة ، و بذلك نستطيع أن نستنتج أن أعضاء الإنسان بها جهاز لتخزين المعلومات ربما يكون على مستوى كل عضو على حدة - بمعنى أن تكون للعين ذاكرة خاصة بها تسجل ما رأته خلال عمر الإنسان ، وتكون للأذن ذاكرة خاصة بها تسجل ما سمعته كذلك ، وهكذا في بقية الأعضاء ، وفي هذه الحالة سيحتاج الأمر إلى تغيير اسم نظرية "ذاكرة الخلية" إلى **(ذاكرة الأعضاء)** – والاحتمال الثاني أن تكون هذه الذاكرة داخل الخلايا المكونة لهذه الأعضاء

وهذه الآلية لتخزين المعلومات أصبحت في العقدين الأخيرين تشغل مساحة كبيرة في الأوساط العلمية فيما يعرف بنظرية "ذاكرة الخلية" كما سنرى بعد قليل

ولنفسح المجال الآن للعلماء المتخصصين لكي يشرحوا لنا تفاصيل موضوع القلب وعلاقته بالمخ وعلاقة كل منهما بذاكرة الخلية :

على موقع معهد رياضيات القلب (Institute of HeartMath) نشرت دراسة مستفيضة بعنوان علوم القلب [1](Science of the Heart) حيث أكدت هذه الدراسة المعلومات التالية:

- أن القلب يقوم بإرسال رسائل إلى المخ عن طريق الجهاز العصبي، وأن المخ يقوم بفهم هذه الرسائل وإطاعتها أيضاً، وأن هذه الرسائل لها تأثير على سلوك الشخص، أي أن القلب يقوم بإعطاء توجيهات للمخ تؤثر على سلوك الإنسان وليس تابعاً للمخ كما كان يعتقد سابقاً
- أن العلماء المتخصصين – وأولهم الدكتور ج أندرو أرمور- اكتشفوا أن القلب يملك جهازاً عصبيّاً خاصّاً به وأنه نظراً لشدة تعقيد هذا الجهاز فإنه يمكن أن يوصف بأنه (مخ صغير في القلب) وقد أطلقوا عليه اسم "مخ القلب" نظراً لاحتوائه على أنواع عديدة من الخلايا العصبية المعقدة تشبه تماماً تلك التي في المخ، وذلك ما يمكنه من التعلم والتذكر و الشعور والحس بشكل مستقل عن المخ الموجود في الرأس

- أن النظام العصبي للقلب يتكون من حوالي أربعين ألف خلية عصبية وهي التي ترصد توزيع الهرمونات والعناصر الكيميائية العصبية وكذلك معدل ضربات القلب والضغط ، وهذه المعلومات تترجم إلى نبضات عصبية بواسطة الجهاز العصبي للقلب ثم ترسل من القلب إلى المخ خلال مسارات مختلفة ، و تصل إلى النخاع الموجود في جذع المخ حيث يكون لها دور تنظيمي على الكثير من الأوعية الدموية و الغدد والأعضاء ، بالإضافة إلى أنها تصل أيضاً إلى المراكز العليا في المخ **حيث يكون من الممكن لها التأثير على الإدراك والفهم واتخاذ القرارات والعمليات المعرفية الأخرى**

- لولا احتواء القلب على هذا الجهاز العصبي الذاتي المعقد الذي يعمل بشكل مستقل عن المخ وكذلك عن الجهاز العصبي للجسم ، لما أمكن لعمليات زرع القلب أن تتم بنجاح، ففي الظروف العادية يتصل القلب مع المخ عبر الألياف العصبية الموجودة في النخاع الشوكي والعمود الفقري ، وفي عمليات زرع القلب تقطع هذه الوصلات العصبية ولا يعاد توصيلها إلا بعد فترات طويلة نسبيّاً، لكن القلب المزروع يعمل في الجسم الجديد

---

[1] (http://www.heartmath.org, HeartMath Research center, Science of the heart)

بمجرد تثبيته مباشرة و قبل إعادة توصيل الوصلات العصبية المتصلة بالمخ ، وذلك بسبب كفاءة نظامه العصبي الذاتي الذي يمكنه من العمل بمفرده بشكل سليم

كما نشر موقع **(MONTGOMERY COLLEGE STUDENT JOURNAL OF SCIENCE & MATHEMATICS)** في September 2003 دراسة بعنوان:

(Knowing By Heart: Cellular Memory in Heart Transplants)

تم إعدادها بواسطة:[11] **(Kate Ruth Linton , Under the supervision of : Tom Anderson)** جاء فيها :

- تعرف الذاكرة الخلوية بأنها مفهوم يفيد بأن خلايا أجسامنا تحوي معلومات عن شخصياتنا و أذواقنا وتاريخنا (بحسب كارول ١) وقد وجد أن الدليل على هذه الظاهرة أكثر انتشاراً في الأشخاص الذين أجريت لهم عملية زرع قلب)
- حاول البعض الحصول على مفهوم أعمق لذاكرة الخلايا من خلال عالم الكيمياء، واحدة من هؤلاء العلماء هي "كانداك بيرت" والتي تدرس الكيمياء الحيوية، النتائج التي توصلت إليها تدعم المعتقد الذي أصبح معتمداً عند أعداد متزايدة من العلماء وهو أن **"كل خلية في أجسامنا تملك عقلها الخاص-- وإذا قمت بنقل أنسجة من جسم لآخر فإن الخلايا من الجسم الأول سوف تحمل الذكريات إلى الجسم الثاني، سيلفيا ٢٢١)** وبعبارة أخرى : فإن هؤلاء العلماء يؤمنون بأن الذاكرة الخلوية هي في الواقع موجودة بالرغم من أنهم ربما لا يفضلون كلمة الإيمان على هذا النحو، كانداك بيرت إكتشفت أن وجهاً واحداً على الأقل من أوجه التعقل يتم توزيعه على جميع أجزاء جسم الإنسان، وقد وجدت أن المخ والجسم يتبادلان الرسائل من خلال سلاسل قصيرة من الأحماض الأمينية، هذه السلاسل من الأحماض الأمينية كانت في السابق معروفة على أنها موجودة في المخ فقط لكن "كانداك بيرت" وفريقها العلمي وجدوا أنها موجودة في جميع أنحاء الجسم وبخاصة في الأعضاء الحيوية مثل القلب "بيرت ١")

وقد جاء في الدراسة نفسها الحديث عن حادثة غريبة تعتبر دليلاً على وجود ذاكرة في خلايا الجسم وأن هذه الذاكرة تنتقل في حالة زرع الأعضاء من جسم المتبرع إلى جسم المتلقي ، ولنستعرض ما جاء فيها:

(منذ سنوات ، تم زرع قلب فتاة تبلغ من العمر عشر سنوات كانت قد قتلت لفتاة تبلغ من العمر ثماني سنوات، وبعد وقت قصير من حصول الفتاة على القلب الجديد بدأت ترى كوابيس ليلية متكررة عن الرجل الذي قتل الفتاة المتبرعة لها بالقلب ، لقد اعتقدت أنها أصبحت تعرف من كان القاتل، وفي النهاية أحضرتها والدتها إلى طبيبة نفسية وبعد عدة جلسات لم تستطع الطبيبة إنكار حقيقة ما كانت الفتاة تخبرها به ، لذلك قرروا استدعاء الشرطة ، وباستخدام الشرح الذي

[11] (MONTGOMERY COLLEGE STUDENT JOURNAL OF SCIENCE & MATHEMATICS, Volume 2, Sept, 2003), Knowing By Heart : Cellular Memory in The Heart transplants, By: Kate Ruth Linton, Under the supervision of : Tom Anderson

قدمته الطفلة استطاعوا العثور على القاتل ، وبحسب الطبيبة النفسية "الوقت والسلاح والمكان والملابس التي كان يلبسها والكلام الذي قالته له الفتاة المقتولة ،، كل شيء أخبرت به الفتاة التي تلقت القلب المزروع كان دقيقاً بشكل كامل "بيرسال ٧"

وأخيراً جاء على موقع (الوعي الاجتماعي) نقلاً عن (معهد رياضيات القلب) ما يلي :

القلب العاقل : (يصدر قلب الإنسان أقوى حقل كهرومغناطيسي في أجسامنا، والحقل الكهرومغناطيسي للقلب أقوى بخمسة آلاف مرة من الحقل الكهرومغناطيسي للمخ، وهذا الحقل الكهرومغناطيسي يغلف جميع جسد الإنسان ويمتد خارجه في جميع الاتجاهات ويمكن قياسه على بعد عدة أقدام خارج الجسم، وقد بين العلماء أننا كلما ركزنا باهتمام على الشعور بعواطف إيجابية فإن ذلك يؤدي إلى تأثيرات مفيدة لصحتنا ورفاهيتنا وكذلك يكون له آثار إيجابية على المحيطين بنا)[1]

والرسم التوضيحي التالي يوضح شكل وقوة هذا المجال الكهرومغناطيسي للقلب

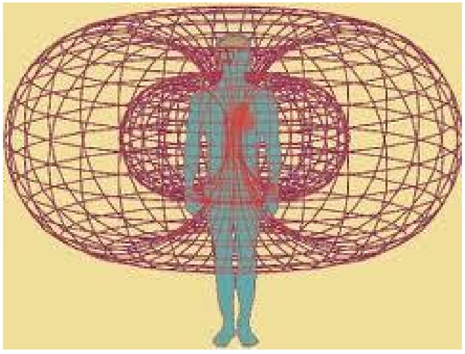

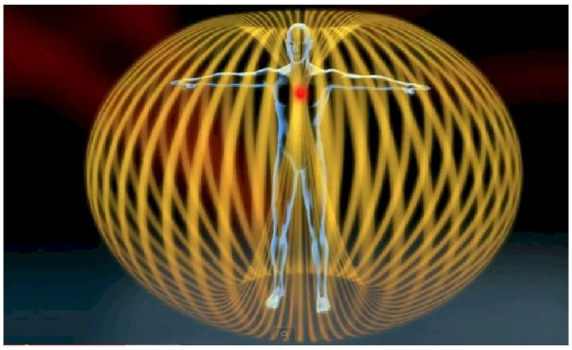

heartintelligencecoach.com
truthinsideofyou.org

هذه المواقع التي ذكرناها هي فقط عينة من المقالات والنشرات والدراسات العلمية التي تؤكد أن للقلب دوراً أساسيّاً في عملية الإدراك والفهم ، لأن عدد المواقع العلمية والمقالات والدراسات التي تتناوله أكثر من أن تحصى

والآن نلقي الضوء على ما فهمه المسلمون الأوائل من هذه الآيات منذ زمن نزولها في مطلع القرن السابع الميلادي وحتى الربع الأخير من القرن العشرين حين بدأ علماء الغرب يتلمسون أولى خطواتهم في الظلام ، وننقل أقوال المفسرين كما جاءت في موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة عند الحديث عن الشبهة الثانية عشرة :

---

[1] (Social-consciousness.com Monday, December 24, 2012: The Intelligent Heart – Institute of HeartMath.

- جاء في تفسير القرطبي لقول الله تعالى **"فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور":** (أضاف العقل إلى القلب لأنه محله كما أن السمع محله الأذن، وقد قيل إن العقل محله الدماغ وروي عن أبي حنيفة وما أراها عنه صحيحة) (كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي)

- ويقول الرازي في تفسيره لقوله تعالى **"فتكون لهم قلوب يعقلون بها"**: فيه دلالة على أن القلب آلة هذا التعقل ، فوجب جعل القلب محلاً للتعقل" (كتاب مفاتيح الغيب للرازي)

- ويقول الماوردي في تفسير الآية نفسها: (يدل على أمرين: على أن العقل علم، ويدل على أن محله القلب)، (النكت والعيون للماوردي)

- ويقول الثعالبي في تفسيرها أيضاً (هذه الآية تقتضي أن العقل في القلب وذلك هو الحق، ولا ينكر أن للدماغ اتصالاً بالقلب يوجب فساد العقل متى اختل الدماغ)، (تفسير الثعالبي)

والآن لنا تعليقان على الحقيقة السادسة عشرة :

التعليق الأول: أن كل الحضارات القديمة والفلاسفة القدماء وحتى الشعراء والأدباء كانوا يتحدثون عن القلب كمركز للعواطف ومصدر للأحاسيس، لكننا هنا أمام حقيقة علمية ساطعة مثل ضوء الشمس، فقد أضاف القرآن الكريم إلى القلب وظيفة **الفهم والتعقل والبصيرة والإدراك واتخاذ القرارات ، وأيضاً وهو الأهم الاختيار بين الإيمان أو الكفر،**

و بذلك يكون القرآن هو أول من صك مصطلح "القلب العاقل" (the intelligent heart) قبل علمائنا المعاصرين بألف وأربعمائة سنة كاملة :

فمن حيث الفهم والفقه : فبالإضافة إلى قول الله تعالى في سورة الحج

"أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور" فقد جاء قول الله تعالى في سورة محمد:

"أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها" وهو دليل على أن التدبر يكون بالقلب، كما جاء أيضاً قول الله تعالى في سورة **الأعراف "ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ☼" (١٧٩)**

و من حيث اتخاذ القرارات فقد جاء قول الله تعالى في سورة البقرة

"لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم" (٢٢٥)
وهي آية تدل دلالة واضحة على أن القلب يقرر وينفذ وأن الله عز وجل لا يحاسب الإنسان على لغو الكلام ولكن على ما يقرره القلب

كما جاء قول الله تعالى في سورة التوبة مخبراً عن المنافقين :

" يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون" (٨)

وهو دليل على أنهم يرضون المؤمنين بألسنتهم لكن قلوبهم ترفض بشدة

وأما من حيث الإدراك والحس: فقد جاء قول الله تعالى في سورة الزمر:

"أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ۞ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر من جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد" (سورة الزمر ٢٢)

والآية تدل على أن قلوب المؤمنين بالله تدرك المعاني العميقة التي يشتمل عليها كلام الله عز وجل في القرآن الكريم ، ثم تتأثر به ثم تلين لهذا الكلام وتخشع لخالقها سبحانه وتعالى ، بينما تظل قلوب الذين لا يؤمنون بربهم قاسية عنيدة، وقد فهم المسلمون على مر العصور من هذه الآية أن اللين والقسوة المذكورين في الآيات هي صفات معنوية لكن الحقائق العلمية الموجودة في القرآن الكريم تدعم احتمال تحقق هاتين الصفتين في القلب بشكل مادي ، بمعنى أن طبيعة الخلايا المكونة لعضلة القلب تختلف من إنسان لآخر فتلين وتقسو حسب مقدار الإيمان في القلب بل وتختلف داخل الإنسان الواحد من وقت لآخر حسب ما يعتري هذا الإنسان من زيادة أو نقصان في إيمانه أو عند تعرضه لسماع كلام خالقه سبحانه وتعالى

لكن الآية تشتمل على حقيقة علمية جديدة **أغرب من الخيال** ، ونحن هنا ندعو الأذكياء من العلماء المتخصصين في علم التشريح لدراسة هذه الحقيقة والوقوف على أسرارها ، وهي أن جلد الإنسان بالإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً من أنه يحتوي على ذاكرة تسجل كل ما يمر به من أحداث ، فإن هذا الجلد أيضاً يتمتع بصفتين هامتين هما "القدرة على الإدراك" و"القدرة على التأثر ورد الفعل" وإذا كانت الآية الكريمة قد ربطت هاتين الصفتين بجلود المؤمنين عند سماعها كلام خالقها عز وجل، فليس هناك ما يتعارض مع الآية الكريمة إذا قلنا أن الجلد له صفة الإدراك بصفة عامة عند كل الناس وأنه يتأثر بما حوله من مؤثرات وأنه يصدر ردود أفعال متباينة تجاه هذه المؤثرات (كاللين أو القسوة) ، و نحن جميعاً نشعر بالقشعريرة في جلودنا عند تعرضنا لمؤثر عاطفي أو روحي قوي أو مفاجئ ، لكن القشعريرة واللين اللذين يحدثان في الجلد عند سماع كلام الله عز وجل هما فقط من خصائص المؤمنين

ومن وجهة نظر علمية وبناءً على حدوث القشعريرة لنا جميعاً في مواقف معينة ، فمن الممكن أن يكون الجلد بالإضافة إلى احتوائه على ذاكرة ، فإن الخلايا العصبية تمنحه القدرة على (التأثر و رد الفعل) ، وفي هذه الحالة لن يكون عندنا نظرية واحدة خاصة بالخلية وهي نظرية "الذاكرة الخلوية" وإنما سيكون عندنا أيضاً نظرية "الإدراك الخلوي"

وأما من حيث الاختيار بين الإيمان والكفر: فقد جاء في سورة المائدة قول الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ **"يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ٤١"**، كما جاء قول الله تعالى في سورة الحجرات **"قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم ١٤"** والآيتان توضحان أن القلب هو المكان الذي يستقر فيه الاعتقاد الحقيقي للإنسان إما بالإيمان أو الكفر، وربما كان هذا التفريق متضمناً للفرق

بين عمل المخ وعمل القلب فالمخ يفكر ويأمر اللسان بالتحدث بما يراه محققاً للمصلحة الوقتية إما بإظهار ما يخفيه في قلبه أو بإخفائه خوفاً من الضرر لكن حقيقة الإنسان تكمن في قلبه الذي لا يعرف ما بداخله إلا الله سبحانه وتعالى

أما التعليق الثاني: فعندما يتحدث رسول الله محمد ﷺ منذ عام (٦١٠م) عن القلب بعبارات واضحة تصف هذا القلب بأنه يعقل (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) ، ثم يحدد مكان القلب المقصود منعاً لحدوث خطأ في الفهم بعبارة (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) ، ثم يأتي علماء القرن الحادي والعشرين في أكبر المعاهد العلمية المتخصصة ليعلنوا أن القلب يحتوي على جهاز عصبي ذاتي مستقل يبلغ من التعقيد ما يؤهله لأن يوصف بأنه مخ صغير ، وأن هذا المخ الصغير يمنح القلب القدرة على **الإدراك والفهم والتعلم والتذكر واتخاذ القرار** ، مثل المخ الموجود في الرأس تماماً وأن هذا الجهاز العصبي هو ما يجعل القلب أثناء عمليات زرع القلب يبدأ في الخفقان بعد زرعه مباشرة وقبل توصيل الوصلات العصبية التي تصله بالمخ ، كما يؤكدون أن القلب يخلق في الجنين قبل المخ ، ويبدأ في ضخ الدم في جسم **الجنين بدون وجود مخ يعطيه الأوامر بالعمل** ، ويؤكدون أن الحقل الكهرومغناطيسي للقلب أكبر بخمسة آلاف ضعف من الحقل الكهرومغناطيسي للمخ ، وأن القلب يؤثر على المخ أكثر مما يؤثر المخ على القلب ، وأن القلب له تأثير مباشر على جميع خلايا الجسم من خلال إفرازه للهرمونات الحيوية التي يضخها مع الدم إلى جميع أجزاء الجسم ،

بماذا يمكن أن نفسر ذلك ؟

هل عند الملحدين تفسير منطقي لذلك ؟ هل يريدون دليلاً أوضح من هذا على أن القرآن الكريم هو تنزيل خالق الكون وخالق كل أشكال الحياة التي نعرفها والتي لا نعرفها ؟

ونختم هذه الحقيقة بالتعليق على موضوع ذاكرة الأعضاء أو "ذاكرة الخلية":

فالحقائق المذكورة في القرآن الكريم تفيد بأن توثيق وتسجيل الأحداث التي تمر بالإنسان سيكون بثلاث طرائق وليس بطريقة واحدة :

- **فالطريقة الأولى:** هي ما جاءت في الآيات التي ذكرناها منذ قليل في سورة (فصلت ١٩ – ٢٣) و (يس ٦٥) و (النور ٢٤) فكل هذه الآيات تفيد بأن هذه الأعضاء سوف تتذكر بكل دقة أفعال الإنسان وسوف تشهد عليه بكل ما فعل ، لكن قد يعترض البعض بأن هذه الشهادة وهذا النطق يوم القيامة سوف تتمان بطريقة خارقة للعادة ، وبأمر مباشر من الله عز وجل وليس عن طريق آلياتنا التي نعرفها في الدنيا ، وبالتالي فإن الاستدلال بشهادة الأعضاء على الإنسان يوم القيامة على وجود ذاكرة بها غير صحيح ، بل هو تحميل للنص القرآني فوق ما يحتمل بغرض تطويع القرآن للحقيقة العلمية ،

لكن : **القرآن نفسه دحض هذه الشبهة بقوة حين قال معقباً على واقعة الشهادة في سورة فصلت :(وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون) ، و الآية تؤكد أن عملية التسجيل تتم في حياة الإنسان وفي**

زمن حدوث الفعل ، لأنها أكدت أن الإنسان لا يستطيع أن يستتر بفعله عن جوارحه التي بها ينفذ هذا الفعل

- أما الطريقة الثانية: فقد جاءت في قول الله تعالى في سورة الجاثية :

"ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ☼ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ☼ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ☼ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين ☼ وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين ☼ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ☼ وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ☼" (الجاثية ٢٧ – ٣٣)

فقول الله تعالى **"إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون"** يفيد بكل وضوح أن **هناك نسخة طبق الأصل يتم إعدادها الآن** مطابقة لأفعال الإنسان ، وأن الكتاب الذي يحمل هذه النسخة سيكشف يوم القيامة كل أفعالنا ، ولن يستطيع أحد في ذلك اليوم إنكار شيء من أفعاله

وقد جاء ذكر هذا الكتاب مرة أخرى في سورة الإسراء (١٣ – ١٥) في قوله تعالى :

" وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ☼ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ☼ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ☼"

وكما هي حال القرآن دائماً في أنه لا يتكلم إلا بالعدل الذي تطمئن إليه النفس السوية ، فقد جاءت العبارة الرائعة **"إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً"** لتضع كل إنسان أمام مسؤولياته فهو الذي سيتولى الحكم على نفسه يوم القيامة وليس أحداً غيره، لكنه لن يستطيع يومها أن يتلاعب ويحكم بغير الحق

- الطريقة الثالثة: وقد جاءت في سورة الزلزلة في قول الله تعالى :

"إذا زلزلت الأرض زلزالها ☼ وأخرجت الأرض أثقالها ☼ وقال الإنسان ما لها ☼ يومئذ تحدث أخبارها ☼ بأن ربك أوحى لها ☼ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ☼"

فقوله تعالى **"تحدث أخبارها"** معناه أن الأرض ستشهد هي أيضاً على كل ما عمله الناس فوقها ، لكن قول الله تعالى **"ليروا أعمالهم"** معناه أنهم سوف تعرض عليهم أعمالهم فيروها بأعينهم ، وقد فهم مفسرو القرآن من هذه الآية أنهم سوف يرون أعمالهم مكتوبة في الكتاب المذكور في النقطة السابقة ، لكن بعض المفسرين المعاصرين ذهب إلى احتمال أن تكون الرؤية للأعمال حقيقية ، بمعنى أنهم سيرون ويسمعون نسخة طبق الأصل من أعمالهم مثل فيلم الفيديو ، معللين ذلك بأن الإنسان وهو مخلوق صغير بالنسبة للكون استطاع أن يسجل الأحداث بالصوت والصورة ، فالله عز وجل أقدر على ذلك و بدون أي وجه للمقارنة ، وفي الحقيقة ليس هناك ما يمنع من حدوث هذا الاحتمال، أي أن تكون الرؤية المذكورة في الآية هي رؤية حقيقية للأعمال

، و نستطيع أن نتصور أن يكون لكل إنسان ملفه الخاص به مسجلاً عليه تاريخه كاملاً بالصوت والصورة

و قبل أن نغادر الحقائق المتعلقة بالقلب ، نشير إلى معنى هام ورد في القرآن الكريم بخصوص القلب وهو في حالة الاطمئنان، فقد بين القرآن الكريم أن الله عز وجل (يربط على القلب الذي يريد له أن يشعر بالأمان) ، مثل قول الله تعالى :

- "**وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام**" (سورة الأنفال ١١) لبيان تثبيت قلوب المؤمنين في غزوة بدر

- وكذلك "**و أصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها**" (القصص ١٠) في بيان تثبيت قلب أم موسى عليه السلام حتى لا تفشي سر ولادتها لولد فيقتله جنود فرعون

و لقد فهم المسلمون أن الربط على القلب هو تثبيت معنوي لقلب المؤمن حتى لا تتنازعه المخاوف و الاضطرابات ، لكن ما دام قد تم اكتشاف وجود جهاز عصبي عضوي داخل القلب يجعله يعقل ، فليس هناك ما يمنع من حدوث هذا الربط بشكل عضوي أيضاً ، مثل أن تكون هناك عضلات أو أعصاب معينة حول عضلة القلب ، تنقبض عند الشعور بالطمأنينة و تنبسط عند الشعور بالخوف ، في شكل يشبه الربط على القلب برباط قوي عند الشعور بالطمأنينة

الحقيقة الثامنة عشرة:

يخاطب الله عز وجل كل الناس – بمن فيهم الملحدون – بقوله تعالى في سورة الحج (٥) :

"يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمىً ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ☼"

ويقول سبحانه وتعالى في سورة المؤمنون (١٢ – ١٤)

"ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ☼ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ☼ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ☼"

ويقول سبحانه وتعالى في سورة الزمر (٦)

"خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ☼"

تتحدث الآيات السابقة عن مراحل تكون الجنين في بطن الأم ، وفي الواقع لقد حاول كثير من الملحدين ومن غير المسلمين ، ممن لا علاقة لهم بهذا التخصص من العلوم أن يشككوا في هذه

الحقيقة العلمية التي تثبت – بمفردها - **بنسبة مائة بالمائة** أنه من المستحيل أن يكون القرآن الكريم من تأليف رسول الله محمد ﷺ ولا من تأليف أحد من البشر الذين عاشوا في زمانه مهما كان حظه من العلوم والمعارف والذكاء العقلي، لكن محاولاتهم كلها جاءت مثيرة للشفقة لدرجة تكشف عن سطحية شديدة في تناول المسائل العلمية دون الرجوع إلى العلماء المتخصصين، فمنهم من علل وجود هذه المعلومات في القرآن الكريم بأن رسول الله محمداً ﷺ قد نقلها عن الأمم السابقة ومن كتب أرسطو، ومنهم من قال بأنه نقلها من العهد القديم أو التوراة ، ومنهم من قال بأن هذه المعلومات لا تحتاج إلى العلماء ليعرفوها وإنما يمكن للقابلات أن يلاحظوها عندما يتم حدوث سقط للجنين ، ومنهم من قال بأن هذه المعلومات هي معلومات خاطئة وليست دقيقة علميّاً ، بل وتثبت بشرية القرآن الكريم، وسوف نرد على كل هذه النقاط لنبين أن ما جاء في القرآن الكريم هو سبق علمي بكل المقاييس لا ينكره إلا جاهل سعيد بجهله

ولنبدأ بتوضيح رأي العلماء المتخصصين في هذا المجال أولاً ثم نقوم بالرد على كل ما سبق من مزاعم باطلة :

١- نبدأ بشهادة الدكتور المشهور (كيث موور) وهو من أكبر علماء الأجنة في العالم وكان رئيساً للعديد من الجمعيات الدولية، مثل جمعية علماء التشريح والأجنة في كندا وأمريكا، ومجلس اتحاد العلوم الحيوية ، كما انتخب عضواً في الجمعية الطبية الملكية بكندا، والأكاديمية الدولية لعلوم الخلايا، والاتحاد الأمريكي لأطباء التشريح، وفي اتحاد الأمريكتين في التشريح، وله العديد من الكتب العلمية في علم الأجنة والتشريح تدرس في الكثير من كليات الطب في العالم

لكننا قبل أن نبدأ في سرد شهادته يجب علينا أن نوضح نقطة هامة ، وهي أن كثيراً من المتحدثين عن موضوع علم الأجنة من الملحدين و غيرهم يذكرون بكل حماس أن الدكتور كيث موور لم يدخل في الإسلام ، وأنه ظل مسيحيّاً حتى مات ، ويتخذون ذلك ذريعة للتشكيك في تصريحاته التي جاءت مؤيدة لكل ما جاء في القرآن الكريم بخصوص مراحل تكون الجنين ، ومؤكدة كذلك أن الدقة العلمية التي اشتملت عليها هذه الآيات تشهد بأن رسول الله محمداً ﷺ أبعد ما يكون عن إمكانية تأليف هذا النص القرآني ، وأن مصدر هذا النص لا يمكن أن يكون شيئاً غير الوحي الإلهي، لذلك علينا أن ننبه على النقاط التالية:

أولاً: نحن لا تعنينا الأمور الشخصية ، فكل إنسان حر فيما يعتقد لأن الذي يعنينا هو رأي العالم المتخصص في المسائل التي تخص العلم الذي برع فيه وأصبح أكثر من غيره فهماً ودراية بدقائقه ، لكن الواقع أن هؤلاء المشككين **قد وقعوا في مأزق لا يدركون حجمه** ، لأن شهادة الدكتور كيث موور على استحالة وجود مصدر لهذا القرآن غير الوحي الإلهي وهو مسيحي ، تكتسب مصداقية أكبر بكثير من شهادته لو كان مسلماً ، وإن كنا نتمنى له ولجميع العلماء المنصفين أن يكونوا قد آمنوا بالدين الحق قبل ملاقاة ربهم

ثانياً: علينا هنا أن نؤكد أننا كمسلمين لا نكتسب ثقتنا في القرآن الكريم من قيام عالم من العلماء مهما كان حجمه بإثبات اتفاق نتائج أبحاثه مع بعض آيات القرآن الكريم ، فنحن نعلم سلفاً أن القرآن الكريم هو كلام الخالق العظيم لكل ما في الكون من مجرات ونجوم وكواكب وكائنات

حية ، بل وخالق القوانين التي تتحكم في حركة كل هذه المخلوقات ، وأن كل ما ذكره سبحانه وتعالى في القرآن هو الحق الذي لا يقبل الشك ، سواءً كانت نتائج العلماء المعاصرين متفقة معه أم لا ، لأن عدم اتفاق نتائج العلماء مع القرآن هو دليل دامغ على **عدم صحة هذه النتائج** وليس دليلاً على خطأ القرآن ، وأن العلماء بعد أن يبذلوا المزيد من الأبحاث ويصححوا أخطاءهم عندها سيجدون أن نتائج أبحاثهم أصبحت متفقة مع كلام الخالق عز وجل ، تماماً كما حدث في حقيقة توسع الكون حينما ظلت النظريات الخاطئة – عن ثبات الكون - لأعظم العلماء ومنهم أينشتاين متصادمة مع الحقيقة القرآنية حتى منتصف القرن العشرين ، إلى أن استطاعوا تصحيح أخطائهم وعندها أصبحت أبحاثهم تتفق مع الحقيقة القرآنية، وهذا ما سيحدث مع كل جزئية من جزئيات العلم الحديث في مختلف فروع العلم إذا وجد هذا التعارض

ثالثاً: بعض الملحدين ينهارون بمجرد سماع أي تصريح عن وجود خالق للكون على لسان أي عالم من العلماء المتميزين والمشهورين ، لذا حاولوا الطعن في الدكتور كيث موور، وكعادتهم دائماً وكنتيجة لهذا الانهيار كان رد فعلهم مأسوياً ، فبدلاً من مناقشة الأمر بشكل علمي وموضوعي ، قاموا بفتح النار عليه وأغرقوه بالسب والتجريح والطعن في نواياه ، وهذا يؤكد لنا كل يوم أن الملحد هو شخص **منهار نفسياً** لا يملك أدنى ثقة بنفسه ولا بالإلحاد الذي يعتنقه ، لأنه لو كان واثقاً من معتقداته لناقش المخالفين له بكل هدوء وبدون استهزاء ، وبدون تجريح في الأشخاص – ونحن في الحقيقة نتفهم سبب هذا الانهيار النفسي ، لأن الملحد يغامر بتحدي إله خالق لثلاثمائة مليار مجرة ، دون أن يكون لديه دليل واحد يمكن الوثوق به ، وهو **يعلم تمام العلم** أنه لو ثبت وجود هذا الإله فإنه سيكون مستحقاً للمصير الذي يشبه الحياة في جوف الشمس دون أن يكون مستحقاً للشفقة حتى من أقرب أقربائه -
لو كان المخالفون للدكتور كيث موور علماء بحق لناقشوا الموضوع بشكل علمي ولاحترموا رأيه حتى وإن خالفوه ، لأن العالم الحقيقي يعرف مكانة العلماء ويستحيل عليه الطعن في العلماء المخالفين له في الرأي ، لكن الذي يطعن في العلماء لمجرد اعتقاده بأنهم أخطؤوا فهذا أبعد الناس عن العلم والعلماء،

فالدكتور كيث موور أعلن صراحة أن وصف القرآن الكريم للجنين بأنه (بعد مرحلة الإخصاب مباشرة يصبح قطعة لحم صغيرة معلقة هو وصف علمي دقيق يوضح أن الجنين يتعلق في جدار الرحم ليستمد منه الغذاء والأكسجين، وحيث أن الجنين في تلك المرحلة يكون في حجم لا يمكن رؤيته إلا بالتليسكوبات الحديثة فإن هذا الوصف القرآني يستحيل على أحد من البشر التحدث عنه قبل مائة سنة وبالتالي فإن ذكره في كتاب ظهر للناس في القرن السابع الميلادي في الجزيرة العربية ليس له أي تفسير يقبله العقل سوى أن هذا الكتاب هو وحي إلهي)، هذا هو استنتاج الدكتور كيث موور

ومن حق كل الناس أن يعترضوا عليه ولكن بشكل علمي ، و على من يعترض أن يفسر لنا كيف وصلت هذه المعلومة الدقيقة إلى رجل مثل رسول الله محمد ﷺ ومن الذي أقنعه بذكرها في القرآن مع أنها لم تكن لها قيمة عند العرب الذين عاصروا تنزيل القرآن من حيث إقناعهم بصدقه ، لأنهم لا هم ولا حتى الأجيال التي ستأتي بعدهم بألف عام ستكون لهم القدرة على فهمها، لكن ذكرها كان مقصوداً من قبل الخالق سبحانه وتعالى ، حتى يعطي للأجيال التي

ستأتي بعد ألف و أربعمائة عام الدليل على وجوده وعلى اتصاله بالبشر من خلال القرآن الكريم ، وحتى يدحض حجة الملحدين بعدم (كفاية الأدلة) كما يزعمون

والآن نذكر شهادة الدكتور كيث موور :

- جاء على موقع "قصة الإسلام" للدكتور راغب السرجاني مقالة[1] عن الدكتور "كيث موور" جاء فيها أنه وقف في مؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم الذي عقد في "موسكو" في ثمانينيات القرن الماضي قائلاً:

" إن التعبيرات القرآنية عن مراحل تطور الجنين في الإنسان تبلغ من الدقة والشمول ما لم يبلغه العلم الحديث ، وهذا وإن دل على شيء فإنما يدل على أن هذا القرآن لا يمكن إلا أن يكون كلام الله " فقيل له : هل أنت مسلم ؟ قال لا ولكني أشهد أن القرآن كلام الله وأن محمداً رسول من عند الله، قالوا : إذن أنت مسلم قال : أنا واقع تحت ضغوط اجتماعية تحول دون إعلاني الإسلام الآن، ولكن لا تتعجبوا إذا سمعتم يوماً أن كيث موور قد دخل في الإسلام"

وفي مؤتمر الإعجاز العلمي الأول للقرآن الكريم والسنة المطهرة والذي عقد في القاهرة عام ١٩٨٦م وقف الدكتور كيث موور في محاضرته قائلاً: **"إنني أشهد بإعجاز الله في خلق كل طور من أطوار الجنين في القرآن الكريم ، ولست أعتقد أن محمداً أو أي شخص آخر يستطيع معرفة ما يحدث في تطور الجنين لأن هذه التطورات لم تكتشف إلا في الجزء الأخير من القرن العشرين ، وأريد أن أؤكد أن كل شيء قرأته في القرآن الكريم عن نشأة الجنين وتطوره في داخل الرحم ينطبق على كل ما أعرفه كعالم من علماء الأجنة البارزين"**

- واستكمالاً لشهادة الدكتور كيث موور نورد ما ذكره عالم الرياضيات الكندي **البروفيسور جاري ميلر** في كتابه القيم "القرآن المدهش "The amazing Qur'an" – وقد كان قسيساً ومبشراً نصرانيّاً نشطاً قبل أن يعلن إسلامه ويؤلف هذا الكتاب"- فقد ذكر الدكتور ميلر تحت عنوان "فاسألوا أهل الذكر" ما يلي :

(ومن سمات القرآن الكريم الهامة والتي تتكرر فيه أنه يوجه النصح للقارئ ، يزود القرآن قارئه بالحقائق المختلفة ويوجه له هذه النصيحة "إذا أردت أن تعرف أكثر عن هذه النقطة أو تلك أو إذا كنت تشك فيما يقال لك فاسأل أهل الذكر" – أي العلماء المتخصصين – وهذه أيضاً سمة مدهشة فيه-- (يقول الله تعالى في القرآن العظيم في سورة الأنبياء "**وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ☼)[2]

ويكمل د ميلر (وبناءً على ذلك ففي كل العصور اتبع المسلمون هذه النصيحة القرآنية و خرجوا باكتشافات مدهشة--- وإليك المثل التالي :

---

[1] - موقع قصة الإسلام ، أبو إسلام أحمد على ، علماء ، كيث موور – عالم الأجنة المشهور ، ١٧ أكتوبر ٢٠١١

[2] - د : جاري ميلر ، The amazing Qu'ran ، الترجمة العربية بعنوان (القرآن المعجز) ، من إصدارات موقع نصرة رسول الله ، صفحة ١٥

علم الأجنة : من عدة سنين قامت مجموعة من الرجال في الرياض – بالمملكة العربية السعودية- بجمع آيات من القرآن الكريم التي تتحدث عن خلق الأجنة في الأرحام ونموها ، و قالوا : "هذا ما ذكره القرآن ، فهل هو الحقيقة ؟" في الجوهر فقد أخذوا بالنصيحة التي وجهها لها القرآن الكريم **"فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"** ، و اختاروا - كما حدث – عالماً غير مسلم يعمل بالسلك الأكاديمي بجامعة تورونتو في كندا ، واسمه "كيث موور Keith Moore" وهو مؤلف للعديد من الكتب في علم الأجنة ، وله شهرة عالمية في هذا الموضوع ، ووجهوا له دعوة للرياض وقدموا له النصوص وما يقول القرآن سائلين "هل هذا صحيح؟ ماذا يمكنك أن تقول لنا ؟

و في الرياض قدموا له كل ما يساعده على الترجمة وكل ما يريده ، وقد كان في غاية الدهشة لما وجد حتى أنه عدل في كتبه، وفي أحد كتبه المسمى (قبل أن نولد Before we born) في الجزء الخاص بتاريخ علم الأجنة أضاف في طبعة جديدة بعض المواد التي لم ترد في الطبعات السابقة تفيد أن القرآن ذكر هذه التفاصيل من ١٤ قرناً وأن أولئك المسلمين كانوا يعلمون ما لا يعلمه الآخرون)[١]

ويكمل البروفيسور ميللر (و قد كان لي شرف اللقاء مع الدكتور كيث موور في حلقة تلفزيونية وتكلمنا كثيراً في هذا الموضوع ، وقد كانت هناك شرائح مصورة وما إلى ذلك ، وقد ذكر أن بعض ما ذكره القرآن الكريم لم يكن معروفاً منذ حوالي ثلاثين عاماً، (يراعى أن هذه مقالة قديمة) و ذكر شيئاً بالتحديد ، وهو أن ما ذكره القرآن الكريم عن "العلقة" في إحدى مراحل تكوين الإنسان كان جديداً بالنسبة له ، وعندما بحثها وجدها صحيحة وقد أضاف ذلك في كتابه، و قال : "أنا لم أفكر في ذلك من قبل" و ذهب إلى قسم علم الحيوان ليحضر صورة للعلقة وعندما وجدها تشبه الجنين الإنساني قرر وضعها في أحد كتبه)[٢]

ويستمر البروفيسور ميلر في الشرح ويذكر تحت عنوان "الشكوك التي أثيرت" ما يلي:

(وضع د كيث موور كتاباً عن علم الأجنة التحليلي، وعندما نشره في تورونتو أثار ضجة كبيرة ، لقد كانت في بعض الصحف على الصفحات الأولى وبعض العناوين الرئيسة كانت شديدة الطرافة فمثلاً كان أحد العناوين الرئيسة يقول :"عجائب وجدت في كتاب عبادة قديم" ويبدو واضحاً من هذا المثل أن الناس لم يفهموا بوضوح حول ماذا كانت كل تلك الضجة، وأحد الأمور التي حدثت حقاً أن أحد الصحفيين سأل الدكتور موور " ألا تعتقد أن العرب ربما كانوا يعرفون هذه المعلومات عن هذه الأشياء – أي عن وصف الجنين وعن شكله وكيف يتغير وينمو – فربما لم يكن هناك علماء ولكنهم ربما قاموا ببعض التشريحات البدائية على طريقتهم ، نقبوا في بعض الأرحام ووصلوا إلى ما وصلوا إليه ؟

أجابه د : موورعلى الفور "ولكنك نسيت شيئاً **هامّاً وهو أن كل الشرائح التي عرضتها للأجنة وظهرت في الأفلام أخذت من صور ميكروسكوبية دقيقة جدّاً لا ترى إلا بالمجهر**، فكيف يكون من الممكن أن يكتشف علم الأجنة في ذلك الوقت ؟ وأضاف قائلاً: **"ليست المسألة هي إن كان أحد الناس قد حاول اكتشاف علم الأجنة قبل أربعة عشر قرناً مضت، ولكنها في أنه لو حاول**

[١] - د : جاري ميللر ، نفس المرجع صفحة ١٥ و ١٦
[٢] - المصدر نفسه صفحة ١٦ و ١٧

ذلك فإنه لم يكن باستطاعته رؤية شيء على الإطلاق ، كل الأوصاف التي ذكرت عن مراحل الجنين في القرآن الكريم هي لأشياء في منتهى الصغر لا ترى بالعين المجردة وتحتاج إلى ميكروسكوب، إلا أن الميكروسكوب لم يكتشف إلا قبل مائتي عام مضت ،

وأضاف الدكتور موور ساخراً "**ربما أنه من أربعة عشر قرناً كان أحدهم يمتلك سريّاً هذا الميكروسكوب وقام بعمل هذه الأبحاث ، ولم يخطئ ، ثم علم محمداً ذلك وأقنعه بكتابة ذلك في القرآن ثم حطم هذا الميكروسكوب ليحتفظ بهذا السر إلى الأبد -- هل أنت تعتقد ذلك ؟** بالطبع لا ، إلا إذا أتيت ببرهان يعزز كلامك عن هذه النظرية المضحكة " وعندما سئل الدكتور موور "كيف تفسر إذاً وجود مثل هذه المعلومات في القرآن ؟ كان رده: **"لا يمكن إلا أن يكون هذا الكتاب موحى به من عند الله")**

٢- **<u>ولنأخذ ثانياً شهادة البروفيسور مارشال جونسون</u>** رئيس قسم التشريح ومدير معهد دانيال بجامعة توماس جيفرسون بفلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية، فقد دعي إلى المؤتمر الطبي السعودي الثامن بالمملكة العربية السعودية في أكتوبر ١٩٨٣م وكان له لقاء مع الدكتور عبد المجيد الزنداني الذي وصف أحداث اللقاء ثم قال :

(هذا الشكل الذي نراه للمضغة ضمن الأشياء التي قدمها واستدل بها. تعطينا الشكل الخارجي للجنين ، إنه يكون مقوساً كما نرى ، ويكون في نهاية هذا القوس آثار وكأنها طبع الأسنان ليوحي بشكل المضغة ، ونرى انتفاخات وأخاديد ونرى سطحاً منفرجاً يعطي انطباع المضغة، هذه المضغة طولها ١ سم ، لو أننا وضعنا قطاعاً منها و جئنا نشرح الأجزاء الداخلية فسنجد معظم الأجهزة قد تخلقت كما هو واضح في هذا الشكل وسنرى في هذا الشكل الظاهر أمامنا الآن- أن جزءاً من الخلايا قد تخلق ، وجزءاً آخر لم يتخلق بعد ، إذا أردنا أن نصف هذه المضغة. **هذا ما يقوله البروفيسور جونسون** – فماذا نقول؟ هل نقول هي مخلقة ؟ هذا ينطبق على الجزء الذي تخلق ، هل نقول غير مخلقة ؟ سيصدق هذا على الجزء الذي لم يخلق فقط ، قال: فلا بد لنا أن نصف المضغة في تركيبها الداخلي بالوصف الذي وصفت به في القرآن فنقول كما قال القرآن: (**ثم من مضغة مخلقة وغيرمخلقة**) ، ثم جاء بملخص لبحثه هذا فقال: (إنني كعالم أستطيع فقط التعامل مع الأشياء التي أراها بالتحديد ، أستطيع أن أفهم علم الأجنة وعلم الأحياء التطوري، أستطيع أن أفهم الكلمات التي ترجمت لي من القرآن، وكما أعطيت مثالاً من قبل: لو أنني نقلت نفسي إلى ذلك العصر وكنت أعمل ما أعمله الآن وأصف الأشياء **ما كنت أستطيع أن أصف الأشياء التي وصفت** – أي مراحل تطور الجنين في القرآن الكريم – إنني أرى أنه ليس هناك دليل لدحض مفهوم أن محمداً كان يتلقى هذه المعلومات من مكان ما، ولذلك لا يوجد هنا ما يتعارض مع **مفهوم أن التدخل الإلهي كان حاضراً فيما كان يستطيع أن يبلغه)**[1]

---

[1] - حوار د : عبد المجيد الزنداني مع البروفيسور : مارشال جونسون و المنشور على موقع الهيئة العالمية للاعجاز العلمي في القرآن والسنة

٣- ثالثاً: شهادة البروفيسور فان بيرسود أستاذ علم التشريح وأستاذ صحة الطفل وطب الطفل وأستاذ التوليد والطب النسائي، عمل رئيساً لقسم علم التشريح لمدة ١٦ سنة وقد ألف ٢٢ كتاباً دراسياً ، ونشر أكثر من ١٨١ صحيفة علمية ، وفي عام ١٩٩١م حصل على الجائزة الأكثر بروزاً التي قدمت في مجال علم التشريح في كندا (جي سي بي) جائزة جرانت من الجمعية الكندية لاختصاصيي التشريح ، فقد قال ما يلي :

(الطريقة التي شرحت لي هي أن محمداً كان رجلاً عاديّاً جدّاً لم يكن يعرف القراءة والكتابة ، والواقع أنه كان أميّاً ، ونحن نتكلم عن حوالي إثني عشر ، حاليّاً أربعة عشر قرناً مضت وأمام رجل أمي أدلى بتصريحات عميقة وبيانات وهي – بشكل يثير الدهشة – **صحيحة علميّاً** وأنا شخصيّاً لا أستطيع أن أرى كيف يكون هذا مجرد مصادفة، فهناك أشياء كثيرة صحيحة ودقيقة جدّاً وأنا مثل الدكتور موور **ليس لدي صعوبة في تقبل أن هناك إلهاً ربانيّاً أو روحيّاً أرشده إلى هذه المعلومات)**[١]

والآن وبعد شهادة هؤلاء العلماء المتخصصين في علم الأجنة ، ووصفهم ما جاء في القرآن الكريم بأنه مطابق لكل ما تعلموه وعرفوه عن مراحل تكون الجنين داخل الرحم، وأن الأوصاف التي جاءت في القرآن تصف الجنين في مراحل لا يمكن فيها رؤيته إلا بواسطة التليسكوبات الحديثة ، ننتقل إلى الحجج المضحكة التي تمسك بها كل من أراد التشكيك في صحة القرآن الكريم **وهم من غير المتخصصين** في هذا الموضوع ، ليتضح لنا أن الإنسان المخادع هو في الحقيقة لا يخدع إلا نفسه ، وأنه لو كان يحترم العلم كما يدعي لانحنى للعلماء واستمع إلى نتائج أبحاثهم بدلاً من المراوغة والتجريح والتشهير بعلماء كل جريمتهم أنهم شهدوا بالحق

أولاً: الادعاء بأن ما جاء في القرآن الكريم عن الأجنة ليس إلا نسخة طبق الأصل من كتابات الأمم السابقة:

يتلخص هذا الادعاء في أن علم الأجنة في القرآن الكريم منقول من علوم الأمم السابقة وكتبهم المقدسة، ويورد أصحاب هذا الادعاء جدولاً يحتوي على ثمانية نصوص قديمة من عصور مختلفة ثم يحرفون ما جاء في القرآن ليتوافق مع ما كتبه هؤلاء السابقون ثم يختمون كلامهم بتأكيد أن ما جاء في القرآن هو نسخة مما ذكره السابقون، وقد جاءت هذه الادعاءات على الموقع الإلكتروني Wikilslam.htm تحت عنوان (تاريخ علم الأجنة)[٢] :

وقبل أن نناقش ما جاء في كتابات الأمم السابقة نوضح الاختلافات الجوهرية بين ما جاء في الكتابات السابقة وبين ما جاء في القرآن وذلك على النحو التالي :

أول وأهم هذه الاختلافات أن القرآن الكريم يصف مراحل الجنين في الساعات والأيام الأولى لعملية الإخصاب حين يكون الجنين في حجم **لا يمكن رؤيته بالعين المجردة** بل ولا تشعر المرأة في هذه المرحلة بأنها تحمل جنيناً في بطنها **- وقد أكد العلماء المتخصصون أن كل ما**

---

[١] - البروفيسور فان بيرسود ، كلمة أمام المؤتمر الطبي الأول الذي عقد في القاهرة في ٢٦ سبتمبر ١٩٨٥، منشورة على موقع YouTube

[2] (Wikilslam.net, History of Embryology, 14 February 2014, By: wikilslam user Sahab

ورد في القرآن من أوصاف يتطابق مع الحقائق العلمية التي تم اكتشافها في العصر الحديث - أما ما جاء في كتابات السابقين فكان مبنيّاً على مشاهدة مراحل الجنين في بيض الطيور، وبالتالي فهم يصفون شيئاً تراه أعينهم، وهذا بالتحديد ما جعل الدكتور كيث موور يجيب على الصحفي الذي سأله عن احتمال قيام العرب المعروفين بالهمجية بتقطيع أرحام بعض النساء للحصول على هذه المعلومات بأنهم حتى لو فعلوا ذلك فلن يكونوا قادرين على رؤية أي شيء في تلك الفترة من عمر الجنين لأنه لا يمكن رؤيته في تلك المرحلة إلا باستخدام ميكروسكوب حديث ، وهو ما لم يتوفر للبشر عموماً إلا منذ مائتي عام فقط ، أي بعد نزول القرآن بألف ومائتي عام كاملة ، ثم يؤكد للسائل أنه ليس هناك تفسير منطقي لذلك إلا بتصديق أن هذه المعلومات ليس لها إلا مصدر واحد هو الوحي الإلهي

وهذا أيضاً ما جعل البروفيسور مارشال جونسون يصرح بأنه **لو كان هو بنفسه في ذلك العصر** الذي نزل فيه القرآن ، وكان يعمل في المجال نفسه الذي يعمل فيه الآن **لما استطاع أن يصف الجنين بما وصفه به القرآن** ، ويزيد البروفيسور جونسون الأمر وضوحاً حين يؤكد أن القرآن الكريم لم يصف فقط **الشكل الخارجي** للجنين بل والتكوينات الداخلية أيضاً ، وهو ما لم تستطع أي من كتابات السابقين الذين يصفهم الملحدون بأنهم مصدر ما جاء في القرآن الكريم أن تقترب منه ، لأنهم يستحيل عليهم ذلك

الاختلاف الثاني - وهو جوهري أيضاً – أن القرآن الكريم ليس فقط خلا من كل أخطاء النظريات والكتابات السابقة – وحتى اللاحقة - عن تطور الجنين ولكنه أيضاً صحح أخطاءها ، فقد كانت كل كتابات السابقين تقريباً ترتكز على نظرية تكون الجنين من دم الحيض عندما يخثره مني الرجل مثل عملية تخثر الجبن ، وقد ظلت هذه النظرية هي السائدة عند غير المسلمين حتى القرن السادس عشر ، لكن القرآن الكريم قام بنسف هذه النظرية من جذورها حين وصف دم الحيض بأنه "أذى" في قوله تعالى في سورة البقرة **"ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن"** (آية ٢٢٢) وهي عبارة واضحة في دلالتها على أن دم الحيض هو شيء يحمل الضرر والأذى لدرجة أنه أوجب اعتزال المرأة وعدم إقامة علاقة معها أثناء فترة الحيض حتى لا تتعرض صحة الطرفين للخطر ، وبالتالي يستحيل أن يكون تخثر هذا الدم هو أصل الإنسان، فهل يمكن بعد ذلك أن يظل هناك احتمال أن علم الأجنة في القرآن هو نسخة طبق الأصل مما ذكر في كتابات السابقين كما جاء في التعليق على الجدول السابق من قبل المشككين في القرآن الكريم ؟

إن هذه النقطة بالذات هي أعظم دليل على أن رسول الله محمداً ﷺ لم يقتبس شيئاً لا من الأمم السابقة ولا من التوراة أو الإنجيل لكي يؤلف القرآن الكريم ، لأنه بكل بساطة لم يؤلف حرفاً واحداً، وإنما كان يبلغ ما يوحى إليه لحظة بلحظة ، ولو كان ينقل عن أحد من السابقين لوجدنا في القرآن أن الجنين يتكون من دم الحيض مثل ما قالوا وليس أن دم الحيض يسبب الأذى والضرر ويجب الابتعاد عن إقامة علاقة مع المرأة حتى تتطهر منه، **و هي دليل دامغ أيضاً** على أن كل من يزعمون أنه كان يتعلم من الرهبان المسيحيين أو اليهود مثل بحيرا الراهب أو غيره هم في الحقيقة أبعد الناس عن منطق العقل المنصف والعلم الذي تؤيده الأدلة والبراهين

ونستعرض الآن ما جاء في كتابات الأمم السابقة عن الجنين كما جاءت في الجدول السابق ، لنرى هل جاء القرآن الكريم بجديد أم هو مجرد نسخة طبق الأصل مما ورد عن الأمم السابقة :

النص الأول في الجدول هو فقرة من نص هندي يسمى (جاربها أوبانيشاد Garbha Upanishad) يعود تاريخه إلى ١٤١٦ سنة قبل الميلاد، ونصها كالآتي: (من اقتران الدم بالسائل المنوي يأتي الجنين إلى الوجود، أثناء الفترة الملائمة للحمل وبعد اللقاء الجنسي يصبح كلادا (أي جنين عمره يوم واحد)، وبعد سبع ليالٍ لاحقة يصبح فقاعة (أو حويصلة)، وبعد أسبوعين يصبح كتلة كروية، وبعد شهر يصبح كتلة صلبة) **وفي ترجمات النص الأصلي** إلى الإنجليزية نجد بقية المراحل على النحو التالي(وفي شهرين تنمو الرأس، وفي ثلاثة أشهر تنمو القدم، وفي الشهر الرابع تتشكل المعدة والأوراك، وفي الشهر الخامس يتشكل العمود الفقري، وفي الشهر السادس تتشكل الأنف والعيون و الأذنان، وفي الشهر السابع يصبح الجنين واعياً لذاته، وفي الشهر الثامن يكون قد اكتمل بكل معنى الكلمة)[1]

والآن نلخص الفروق بين ما جاء في القرآن وبين هذا النص :

أولاً : ذكر القرآن الكريم أن الجنين يبدأ تكونه من النطفة (في سورة الحج) وهي قطرة من الماء ، ثم بين في سورة القيامة أن هذه النطفة هي نطفة من السائل المنوي (**ألم يك نطفة من مني يمنى**)، ثم وصف هذه النطفة في سورة الإنسان بأنها مكونة من خليط من مواد متداخلة (**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه**) وهو وصف ينطبق على اختلاط مني الرجل ببويضة المرأة، لكن النص الهندي يصف الجنين بأنه يتخلق من اتحاد السائل المنوي مع الدم، وقد أثبت العلم الحديث أن الدم لا يتدخل في عملية الإخصاب التي هي أولى مراحل تكون الجنين

وهذا خلاف جوهري واضح يثبت عدم صحة الفرض القائل بأن النص الموجود في القرآن منقول من النص الهندي

ثانياً: وصف القرآن الكريم المرحلة التالية لمرحلة النطفة بأنها (علقة) وهو وصف دقيق يوضح تعلق البويضة المخصبة في جدار الرحم، وهذا الوصف بالذات من أهم ما يعطي النص القرآني قوته وإعجازه لجميع الخلق ، بمن فيهم العلماء المتخصصين لأنه يصف الجنين وهو معلق في جدار الرحم وهو في حجم لا يمكن لأحد أن يراه بعينه المجردة ولا يرى إلا بواسطة التليسكوبات الحديثة، وهذا ما جعل الدكتور كيث موور يجيب على الصحفي بأنه حتى لو قام العرب بتقطيع بعض الأرحام لرؤية ما بداخلها فلم يكونوا ليروا شيئاً على الإطلاق لأن الجنين لا يمكن رؤيته في تلك المرحلة إلا باستخدام التليسكوب الذي لم يكتشف إلا منذ مائتي عام تقريباً، وهذا أيضاً ما جعله يرد على البروفيسور جاري ميلر بقوله (لقد كان وصف القرآن جديداً علي وخاصة مرحلة العلقة التي لم أفكر فيها من قبل) ثم يقوم بإدراج الوصف القرآني في الطبعات اللاحقة لكتبه العلمية التي تدرس في الكليات والمعاهد الأكاديمية العالمية، لكن النص الهندي أبعد ما يكون عن ذلك – وهذا أمر طبيعي - لأنه لم يكن باستطاعة أحد أن يرى هذه المرحلة من تطور الجنين قبل اختراع التليسكوب ، وبالتالي جاءت أوصافه للجنين في اليوم السابع بأنه فقاعة أو بذرة،

[1] (Garbha Upanishad, Translation and notes by : Subhash Kak, Pag 3

ثالثاً: وصف القرآن الكريم المرحلة التالية بأنها (مضغة)، أي شيء يشبه قطعة اللحم التي تم مضغها ، ثم يصف المضغة في سورة الحج بأنها (مخلقة وغير مخلقة) إشارة إلى وجود أجزاء تم تخليق الخلايا بها وأجزاء لم يتم بعد تخليقها ، كما وصف لنا البروفيسور مارشال جونسون وقد كانت أهم ملاحظات هذا العالم الكبير أن القرآن لا يصف فقط الشكل الخارجي وإنما يصف ما يحدث داخل هذا الجنين المتناهي في الصغر، وهذه النقطة بمفردها تكفي لأن تدحض كل افتراءات أعداء القرآن الذين يتمسكون بزعم اقتباس القرآن من الأمم السابقة ، لأنه لم يكن باستطاعة أحد أن يصف الجنين في هذه المرحلة بوصف يوضح ما يحدث بداخله قائلاً (**ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة**) قبل علماء القرن العشرين، وهذا بالتحديد ما جعل البروفيسور مارشال جونسون يصرح بأنه لو كان هو بنفسه في عصر نزول **القرآن لما استطاع أن يصف الجنين بما وصفه به القرآن الكريم**

فأين هذا من الوصف الذي جاء في النص الهندي بأن الجنين يصبح بعد أسبوع فقاعة ثم بعد أسبوعين كتلة كروية ثم بعد ثلاثة أسابيع كتلة صلبة

رابعاً: يتحدث النص الهندي عن تكون الرأس في شهرين، وعن نمو القدم في ثلاثة أشهر، ثم في الشهر الرابع تتشكل المعدة والأوراك، وفي الشهر الخامس يتشكل العمود الفقري، وفي الشهر السادس تتشكل الأنف والعيون و الأذنان، وفي الشهر السابع يصبح الجنين واعياً لذاته، وفي الشهر الثامن يكون قد اكتمل بكل معنى الكلمة)

والفروق بين النصين واضحة مثل ضوء الشمس ، فالنص الهندي يذكر أن تكون القدم والمعدة والأوراك قبل العمود الفقري ، بينما يؤكد القرآن الكريم أن العظام بما فيها العمود الفقري تتكون مباشرة بعد مرحلة المضغة التي يكون فيها الجنين غير واضح المعالم ويشبه قطعة اللحم الممضوغة ، وقد بينت الصور الملتقطة بواسطة التليسكوبات الحديثة أن هذه المرحلة تكون في الأسابيع الأولى من عمر الجنين، وقد أكد العلماء المتخصصون صحة الوصف القرآني ودقته كما أسلفنا

هل نحن بحاجة لأكثر من ذلك لكي ندلل على أن دعوى اقتباس القرآن علم الأجنة من هذا النص باطلة بطلاناً لا يقبل الشك؟

ننتقل الآن إلى النص الثاني في جدول المشككين ، وهو نص من العهد القديم (يعقوب ١٠- ٨) ويعود إلى ألف عام قبل الميلاد والمتكلم هو نبي الله أيوب عليه السلام وترجمته كالتالي : (يداك كونتاني وصنعتاني، هل تبتلعني؟ أذكر أنك شكلتني كالطين ، هل سوف تعيدني إلى التراب ، أنت صببتني كاللبن ، و خثرتني كالجبن، أنت كسوتني جلداً ولحماً، و نسجتني بعظام وعصب)

ولا ندري ما الذي جعل أولئك الذين يحاولون الطعن في القرآن الكريم يستشهدون بهذا النص ، و يزعمون أن الأوصاف المذكورة في القرآن هي نسخة طبق الأصل مما ذكر في الكتاب المقدس ، أين وجه الشبه بين الوصف الوارد في القرآن الكريم للجنين بأنه علقة ثم مضغة ثم عظام ثم لحم من وصف الجنين بأنه يصب كاللبن ثم يخثر كالجبن طبقاً للمفهوم الخاطئ الذي كان سائداً في ذلك الوقت من أن الجنين يتكون من دم الحيض حين يخثره السائل المنوي كما

يتخثر الجبن بالأنفحة ويتصلب ؟ وإذا كان المقصود بوجه الشبه هو أن الإنسان أصله من الطين فقد نصت كل الكتب السماوية على ذلك لأن مصدرها جميعاً واحد وهو الخالق عز وجل ، لكن تحريف الرهبان لهذه الكتب هو ما تطلب تكرار إرسال الرسل كل فترة من الزمن للقيام بمهمة تصفية الوحي وإعادة الناس إلى الدين الحق

أما إذا كان المقصود بوجه الشبه هو عبارة (كسوتني جلداً ولحماً) فالفارق كبير بين هذا الوصف وبين قول الله تعالى (**فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً**) لأن الوصف الوارد في العهد القديم **هو كلام رجل كامل الخلقة** يذكر نعم الله عليه ، ومنها أنه كساه لحماً وعصباً وهو وصف يراه كل منا في جسده ، أما الوصف الوارد في القرآن فيتحدث عن جنين طوله لا يزيد على بضعة ملليمترات انتقل من مرحلة المضغة التي تشبه قطعة لحم ممضوغة – وهو وصف دقيق للغاية ينطبق تماماً على صورة الجنين في هذه المرحلة – إلى مرحلة العظام ، **والذين يشككون في صحة خلق المضغة عظاماً في هذه المرحلة عليهم مراجعة عشرات الأبحاث العلمية المنشورة على المواقع الطبية الإلكترونية – لعلماء غير مسلمين - للتثبت من دقة هذا الوصف** ، لكننا هنا سوف ننقل كلام الدكتور كيث موور – وهو على حد قول كثير من الناس وعلى رأسهم المشككين في القرآن لم يدخل في الإسلام - والله أعلم بالحقيقة - فقد شرح الأمر كما يلي :

(الآية ١٤ من سورة المؤمنون تقرر أنه بعد مرحلة المضغة تتشكل العظام والعضلات ، وهذا يتطابق مع علم التطور الجنيني، في البداية تتشكل العظام كنماذج غضروفية ثم تنمو العضلات (اللحم) حولها من الكتل البدنية المتوسطة ،، وعندما تتمايز العظام الغضروفية تكون الأنسجة الرابطة أو اللحم المحيط بهذه العظام الغضروفية لم يتمايز بعد، فهو ينمو لاحقاً على شكل عضلات و أربطة ملاصقة للعظام)[1]

ومرة أخرى، فالحقيقة العلمية التي اختص بها القرآن الكريم في وصف تحول المضغة إلى عظام واضحة وضوح الشمس ، فقد وصف التحولات التي تجري داخل الجنين الذي ما زال قطعة صغيرة من اللحم وهو في أسبوعه الخامس بأن الله عز وجل يخلق من هذه المضغة "عظاماً"، وأعجب ما في هذا الوصف أن العظام في هذه المرحلة تكون عظاماً غضروفية في بادئ الأمر بمعنى أنه **يصعب على غير المتخصصين** – ومن باب أولى على أي شخص عاش في القرن السابع الميلادي - معرفة الفرق بينها وبين العضلات ، لكن علماء الأجنة أكدوا هذه الحقيقة ، وهذا يثبت بالدليل القاطع أن وصف القرآن للجنين يستحيل أن يكون نابعاً من مشاهدة السقط للأجنة التي لم تكتمل في زمن نزول القرآن كما يزعم الملحدون

مما سبق يتضح الفرق بين نص العهد القديم الذي يتحدث عن تخثر الدم بالسائل المنوي لتكوين الجنين وبين النص القرآني الذي يتحدث عن وصف ما يحدث داخل الجنين على مستوى الخلايا والأنسجة التي لا يمكن رؤيتها إلا باستخدام التليسكوب ولم يعرف العلماء المتخصصون عنها شيئاً قبل مائة عام

---

[1] (http://www.Islam101,Islam and science, Imbryology in the Quran, A scientist's Interpretation of references to Embryology in the Quran, Monday, 9/28/2015. From: the Journal of the Islamic Medical Association, Vo1.18, Jan-June 1986, pp. 15-16

ننتقل إلى النص الثالث وهو نص من العهد القديم أيضاً وتاريخه حسب ما هو مذكور في الجدول السابق ٥٠٠ عام قبل الميلاد ، وهو على لسان نبي الله داود عليه السلام (المزامير ١٣٩من ١٣-١٦)، يقول فيه :

(أنت اقتنيت كليتي، نسجتني في بطن أمي ،، لم تختف عنك عظامي حينما صنعت في الخفاء ورقمت في أعماق الأرض، رأت عيناك أعضائي وفي سفرك كلها كتبت يوم تصورت إذ لم يكن واحد منها)

أعتقد أن هذا النص لا يحمل شيئاً يستحق المقارنة، فأي واحد من الناس حتى في العصر الحجري يمكنه مخاطبة خالقه بأنه هو نسجه في بطن أمه ، ولم تختف عليه عظامه حينما صنع في الخفاء ، وليس هناك وجه للشبه بين ذلك وبين حقائق الجنين المذكورة في القرآن الكريم بدقة شهد بها أكبر العلماء في العالم

وبالتالي فإن الزعم بأن ما جاء في القرآن الكريم عن علم الأجنة هو نسخة طبق الأصل مما جاء في الكتاب المقدس هو زعم باطل و ليس له دليل صحيح يستند عليه

وهنا علينا أن نشير إلى نقطة هامة ، وهي أنه كلما أثار أعداء الإسلام قضية للتشكيك في القرآن الكريم ، انقلبت عليهم وأصبحت دليلاً جديداً ضدهم ، ودليلاً جديداً يؤكد استحالة صدور القرآن الكريم عن واحد من البشر مهما كان علمه وفصاحته ، لأن تفنيد زعمهم بأن علم الأجنة مقتبس مما جاء في الكتاب المقدس قادنا إلى إجراء المقارنة بين النصين ، تلك المقارنة التي أثبتت أن نص الكتاب المقدس يتصادم مع العلم بنسبة مائة بالمائة ، وخاصة في مفهوم صب الدم في الرحم كاللبن ثم تخثره كالجبن لتكوين اللحم بينما لم يتضمن النص القرآني أي خطأ علمي

ومن هذه النقطة ينشأ السؤال الأهم على الإطلاق: إذا كان محمد رسول الله ﷺ ينقل عن الأحبار والرهبان ، أو عن الكتاب المقدس ، فمن الذي أعلمه بأن نص الكتاب المقدس يحتوي على خطأ علمي فادح يجب تغييره إذا كان هذا الخطأ لا يمكن أن يكتشف إلا بالأجهزة الحديثة التي تم اختراعها في القرن العشرين ، ثم من الذي أعلمه بالحقائق العلمية غير الواردة في الكتاب المقدس و التي لم تكتشف إلا في القرن العشرين لكي يقوم بذكرها فقط ويتجنب ذكر تلك الأخطاء التي وردت في العهد القديم ؟

هذا بالتحديد ما جعل الدكتور موريس بوكاي يؤكد في كتابه "التوراة والإنجيل والقرآن والعلم - دراسة للكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة " على استحالة قيام محمد رسول الله ﷺ باقتباس القرآن الكريم من التوراة والإنجيل بقوله في الفصل الخاص ب"القرآن والعلم الحديث"

(وسيجد القارئ بالتفصيل في نهاية هذا الجزء الثالث من الكتاب نتائج مقارنة روايات التوراة بروايات القرآن فيما يتعلق بحدث واحد ، وقد خضع الكل للنقد العلمي، وعلى سبيل المثال فقد تم اختيار مسألتي الخلق والطوفان ، واتضح بالنسبة لكل منهما عدم اتفاق العلم مع أقوال التوراة ، ولكننا سنرى اتفاقاً كاملاً بين أقوال القرآن الخاصة بالمسائل نفسها وبين العلم الحديث ، ومن ذلك يمكن ملاحظة الفروق التي تجعل بالدقة أحد النصين مقبولاً علميّاً في

العصر الحديث على حين تجعل الآخر غير مقبول، هذه الملاحظة البينة ذات أهمية من الدرجة الأولى ، ذلك أن اليهود والمسيحيين والملحدين في البلاد الغربية يجمعون على الزعم – وذلك دون أدنى دليل – بأن محمداً ﷺ كتب أو استكتب القرآن محاكياً التوراة، ويزعم البعض أن هناك أقوالاً قرآنية في التاريخ الديني تعيد أقوال التوراة والإنجيل ، مثل هذا الموقف لا يقل استخفافاً عن ذلك الذي يقود إلى القول بأن المسيح أيضاً قد خدع معاصريه باستلهامه للعهد القديم في أثناء تبشيره ، فكل إنجيل متى ، كما رأينا ، يعتمد على تلك الاستمرارية مع العهد القديم . أي مفسر هذا الذي تعن له فكرة أن ينزع عن المسيح صفته كرسول الله لذلك السبب ؟ ومع ذلك فهكذا في الغرب يحكم على محمد ﷺ في غالب الأحيان ، يزعمون أنه لم يفعل أكثر من أن نقل التوراة والإنجيل ، وذلك حكم بلا محاكمة لا يضع مطلقاً في اعتباره أن القرآن والتوراة والإنجيل قد تعطى للحدث نفسه روايات مختلفة . لكنهم يفضلون السكوت على اختلاف الروايات . ثم يعلنون أنها متماثلة ، وبالتالي يتحاشون عن تدخل المعارف العلمية ---- هذه الملاحظة الأخيرة – يقصد ملاحظة أن القرآن الكريم لا يحتوي على أي دعوى علمية غير مقبولة – تدحض فرض هؤلاء الذين يرون في محمد ﷺ مؤلفاً للقرآن، كيف يمكن لإنسان كان في بداية أمره أمياً ، ثم أصبح فضلاً عن ذلك سيد الأدب العربي على الإطلاق ، أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها ، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة)[1]

ننتقل الآن إلى النص الرابع (نص أبقراط ٤٦٠ – ٣٧٠ قبل الميلاد) وقد جاء فيه (المرحلة الأولى: السائل المنوي هو المنتج الذي يأتي من كل أجزاء الجسم للأبوين، المني الضعيف يأتي من الأجزاء الضعيفة والمني القوي يأتي من الأجزاء القوية، المرحلة الثانية: يتم احتواء البذرة في الغشاء ، ومن ثم تبدأ في النمو بواسطة دم الأم الذي ينحدر إلى الرحم ، بمجرد أن تحمل المرأة تتوقف عن الحيض، المرحلة الثالثة: في هذه المرحلة ومع انحدار وتجلط دم الأم يبدأ اللحم في التشكل مع السرة، المرحلة الرابعة: بينما ينمو اللحم يبدأ في التشكل إلى أعضاء متمايزة بواسطة التنفس ،، العظام تنمو بقوة، وعلاوة على ذلك تبعث فروعاً للعظام مثل الشجرة)

لقد احتوى هذا النص على أخطاء علمية عديدة وهي :

١- يذكر النص أن دم الأم ينحدر إلى الرحم ثم يتجلط ليتحول إلى لحم الجنين، وهذا خطأ كبير يتصادم مع الحقائق العلمية
٢- كما يذكر أن تمايز اللحم إلى أعضاء يتم بواسطة التنفس وهذا أيضاً خطأ من الناحية العلمية
٣- ويذكر النص أن العظام تتكون بعد اللحم وهذا أيضاً خطأ من الناحية العلمية

لكن النص الذي بين أيدينا لم يذكر أن أبقراط كان من أوائل من أشاروا إلى مفهوم تصور التشكيل السابق للجنين (Preformationism) الذي يعني أن الجنين يتكون كإنسان كامل

[1] - د : موريس بوكاي ، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ، مكتبة مدبولي – القاهرة ، ط ٢ ، ٢٠٠٤م ، صفحة ١٥٥ – ١٥٧

الخلقة بحجم صغير جداً ، ثم يبدأ في النمو بزيادة الحجم فقط داخل الرحم ، أي زيادة كمية فقط وليست نوعية – كما ذكر ذلك السيد جوزيف نيدهام في كتابه تاريخ علم الأجنة - وقد تبنى هذا التصور علماء القرن السابع عشر عندما تم اكتشاف الحيوان المنوي بعد اكتشاف التليسكوب حيث وضع العلماء نظرية تكون الجنين كاملاً داخل رأس الحيوان المنوي وأنه بمجرد وصوله إلى رحم المرأة يبدأ في الزيادة في الحجم طوال التسعة أشهر التالية ، وظلت هذه النظرية سائدة لمدة مائة عام حتى تم اكتشاف البويضة الأنثوية في القرن الثامن عشر، فتم تبني نظرية التشكيل السابق للجنين أيضاً ولكن هذه المرة داخل بويضة الأنثى ، ولم يتمكن العلماء من تصحيح كل هذه الأخطاء ومعرفة حقيقة تكون الجنين على مراحل – التي ذكرها القرآن الكريم في القرن السابع الميلادي - إلا في القرن التاسع عشر بعد تحديث التليسكوبات وزيادة كفاءتها

وكما هو واضح فإن ما جاء في القرآن الكريم خال تماماً من جميع هذه الأخطاء العلمية ، ولو كان رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم نقل علم الأجنة من كتابات أبقراط لتكررت كل هذه الأخطاء في القرآن ، لأنه لم يكن هناك في زمن نزول القرآن من يستطيع أن يفهم عن الأجنة ما يجعله يجزم بخطأ أبقراط ثم يقوم بتصحيحه على نحو ما جاء في القرآن،

لكننا نعترف أن عبارة – يتم احتواء البذرة في الغشاء - الواردة في كلام أبقراط والتي نعلم جميعاً أنها لم تكن نتيجة تصوير الجنين بالتليسكوب في تلك المرحلة المجهرية للجنين ولكن بسبب الاعتقاد السائد بأن الجنين ينمو مثلما تنمو بذور الأشجار حين تنغرس في التربة ، فإذا اعتبرنا تجاوزاً أن هذا الوصف يمثل الحقيقة ، واعترفنا بأنها متقاربة مع مفهوم تعلق الجنين بجدار الرحم الذي يفهم من كلمة العلقة الواردة في القرآن الكريم ، فإن **هذا في حقيقته دليل ضد أعداء القرآن وليس لمصلحتهم**

إنه دليل قاطع على أن رسول الله محمداً ﷺ لم ينقل علم الأجنة عن أبقراط ، لأنه لو كان فعل ذلك لتكرر ذكر كل مراحل أبقراط (الخاطئة والصحيحة) في القرآن الكريم ، لكن هذا لم يحدث ، و السؤال الهام هو : من الذي أعلم رسول الله ﷺ أن تلك العبارة صحيحة يجب الإبقاء عليها وأن العبارات الأخرى خاطئة يجب حذفها ؟

إن هذا الانتقاء للحقائق مع تجنب ذكر الأخطاء هو في حد ذاته الدليل الدامغ على أن محمد رسول الله ﷺ لا يمكن أن يكون هو مؤلف القرآن ، لا هو ولا أي رجل آخر من البشر ، وأن النص القرآني هو كلام خالق البشر الذي يعلم كل شيء عنهم منذ اللحظة الأولى لبدء تكونهم وحتى اللحظة التي يعودون فيها إليه

ننتقل الآن إلى النص الخامس (نص أرسطو ٣٨٤-٣٢٢ قبل الميلاد) وقد جاء فيه (عندما تثبت المادة التي تفرزها الأنثى في الرحم بواسطة مني الرجل فإن مزيداً من الأجزاء الصلبة تتكون معاً، ينفصل السائل عنها، وبينما تتصلب الأجزاء الأرضية تبدأ الأغشية في التكون حولها، بعضها يسمى أغشية والبعض الآخر يسمى المشيمة، يتم أولاً تصميم نوعين من الأوعية الدموية من القلب ومن تلك الأوعية الأصغر تتفرع إلى الرحم مكونة ما يسمى السرة ، وحول ذلك يكون

الجلد لأن ضعف الأوعية يحتاج إلى حماية ووقاية ، الأوعية تتصل بالرحم مثل جذور النباتات ومن خلالها يحصل الجنين على تغذيته)

ومرة أخرى يخفي النص الذي بين أيدينا الخطأ الفادح الذي وقع فيه أرسطو حين ذكر أن دم الحيض هو المادة الأساسية التي يتكون منها الجنين حينما يتخثر بفعل السائل المنوي للرجل، وهذا ما ذكره أيضاً السيد جوزيف نيدهام في كتابه المذكور سابقاً، ولأن هذا **الإخفاء للأخطاء العلمية** تكرر من أعداء القرآن الكريم للمرة الثالثة – بعد قيامهم بذلك في سردهم للنص الهندي ثم في نص أبقراط - فلا نستطيع أن نفترض أن هذا **غير مقصود،**

والهدف واضح لنا جميعاً ، **فذكر هذا الخطأ الفادح في نص أرسطو ينهي النقاش تماماً لمصلحة رسول الله محمد ﷺ بأنه لم يقتبس شيئاً من أرسطو ولا من غيره كما يزعم هؤلاء المشككون،**

وبالطريقة نفسها التي ذكرناها في النص السابق، فإن خلو القرآن الكريم من جميع الأخطاء الواردة في جميع الكتب السابقة بل وتصحيحها **يثبت بالدليل القاطع بطلان دعوى اقتباس علم الأجنة في القرآن من أرسطو ومن جميع من سبقوه** ويثبت بنسبة مائة بالمائة أن حقائق علم الأجنة في القرآن يستحيل أن تصدر عن أحد البشر الذين عاشوا في القرن السابع الميلادي

إن سلوك هؤلاء المشككين في القرآن الكريم يثير الشفقة ، لأن المسيحي منهم يعلم تمام العلم أن المسيح عليه السلام لم يأمره بخداع الناس حتى وإن كان يحاول نشر المسيحية بهذا الخداع ، وسوف يتبرأ منه يوم القيامة ومن خداعه وكذبه على رؤوس الأشهاد ، لأنه عليه السلام لم يعلم أتباعه إلا مكارم الأخلاق ، فلا نعلم لمصلحة من يخادع هؤلاء؟ وإن كان ملحداً فالإلحاد أيضاً لن يكافئهم على الكذب من أجل نشره ، ولن يجد هؤلاء الملحدون ثمرة لهذا الخداع إلا مزيداً من أوزار الناس البسطاء - الذين يصدقونهم وهم مغمضو الأعين - تلقى على ظهورهم يوم القيامة

ننتقل الآن إلى النص السادس (كاريستوس ٢٤٠ – ١٨٠ قبل الميلاد) وقد جاء فيه (في اليوم التاسع عبارة عن نقط قليلة من الدم، وفي اليوم الثامن عشر تبدأ نبضات القلب، وفي اليوم السابع والعشرين العمود الفقري والرأس)

هذا النص يثبت بوضوح كل ما قاله الدكتور كيث مور في رده على الصحفي الذي سأله قائلا: ربما قام العرب بطريقتهم الهمجية بتقطيع أرحام بعض النساء ورأوا مراحل تطور الجنين وكتبوها في القرآن ، حيث رد عليه الدكتور قائلاً: حتى لو فعلوا ذلك فلم يكن باستطاعتهم رؤية أي شيء لأن الجنين في هذه المرحلة لا يمكن رؤيته إلا باستخدام التليسكوب الذي لم يخترع إلا في القرن التاسع عشر،

فها هو الوصف الطبيعي الذي وصفه كاريستوس والمستند على مشاهدة مباشرة بالعين المجردة ، يؤكد أن الجنين في تلك المرحلة يكون عبارة عن نقط قليلة من الدم، وأي إنسان عاش قبل القرن التاسع عشر لم يكن باستطاعته الذهاب إلى أكثر من ذلك مهما بلغ علمه وذكاؤه،

فأين هذا من وصف القرآن الكريم للجنين بأنه يكون علقة وهو وصف لا تستطيع عين الإنسان أن ترى منه سوى (نقطة دم) ؟ ثم أين وصف القرآن الكريم للمضغة التي تصبح مخلقة وغير مخلقة ثم تصبح عظاماً ثم تكتسي باللحم وكل ذلك لا يرى منه الإنسان شيئاً ؟

ننتقل الآن إلى النص السابع ، وهو نص (جالين ١٢٩ – ٢١٠ بعد ميلاد المسيح عليه السلام) وقد جاء فيه (دعنا نقسم خلق الجنين ككل إلى أربع فترات زمنية ، الأولى وفيها كما يبدو من حالات الإجهاض ومن التشريح يكون شكل المني هو الغالب (النطفة عند العرب)، وفي هذا الوقت أبقراط أيضاً و للعجب لم يسم التعديلات الحادثة للحيوان "جنيناً"، وكما سمعنا الآن فقط في حالة المني المتدفق و حتى اليوم السادس كان لا يزال يسميه "منيّاً"، لكن عندما يمتلئ بالدم (العلقة عند العرب) ويكون القلب والمخ والكبد ما زالت لم تنفصل ولم تتشكل بعد يصبح متماسكاً وله حجم معقول، هذه هي الفترة الثانية: المواد المكونة للجنين تصبح لها شكل اللحم ولكن ليست أكثر من شكل المني، وبناءً على ذلك سوف تجد أبقراط أيضاً لا يذهب بعيداً في وصف المني المتشكل ولكنه يسميه "جنيناً"، الفترة الثالثة تتبع هذا، عندما – كما قيل – يصبح من الممكن رؤية الأجزاء الثلاثة الحاكمة بوضوح وطبيعة الخط الخارجي لجميع الأجزاء الأخرى كالخط البياني (المضغة عند العرب) ، وسوف ترى استواء الأجزاء الثلاثة الحاكمة أكثر وضوحاً، تلك الأجزاء الخاصة بالمعدة تكون باهتة وتكون أجزاء الأطراف أكثر شحوباً، وفي وقت لاحق تكون أغصاناً، وكما عبر عنها أبقراط مشيراً إلى أنها تشبه الفروع، الفترة الرابعة والأخيرة عندما تكون كل أجزاء الأطراف قد تمايزت، وفي هذا الجزء فإن أبقراط الرائع لم يعد يسميه جنيناً ولكن طفلاً، وأيضاً عندما قال أنه يهتز ويتحرك مثل حيوان كامل التكوين، وقد حان الوقت لكي تقوم الطبيعة بتفصيل الأعضاء بدقة وجعل كل الأجزاء تكتمل، وهكذا سببت نمو اللحم حول العظام وفي الوقت نفسه كونت الأربطة في نهايات العظام لربط العظام بعضها ببعض، وبكامل الطول الداخلي للعظام تقوم بتثبيت أغشية رقيقة على جميع الجوانب تسمى السمحاق الذي عليه تسبب نمو اللحم)

الملاحظة الأولى: على هذا النص أن جالين نقل كثيراً من مفاهيم أبقراط السابق بيان اختلافها عما جاء في القرآن الكريم مع كثير من عبارات المديح له وهو ما يعني أنه موافق لأبقراط في أغلب ما ذهب إليه،

والملاحظة الثانية: هي إضافة كاتب المقال لعبارات من عنده يحاول بها مطابقة ما جاء في القرآن الكريم مع ما جاء عن جالين ، وهذا خطأ جسيم لوجود اختلافات جوهرية بين النصين، **وسنفترض حسن النية** ونضع احتمال أن ذلك حدث نتيجة للفهم غير الدقيق الذي فهمه كاتب المقال لما جاء في القرآن **وليس نتيجة خداع متعمد** وهذه العبارات هي :

١- جاءت عبارة (النطفة عند العرب) بين قوسين بهدف مطابقة وصف المني في نص جالين مع لفظ النطفة الوارد في القرآن الكريم، وهذا خطأ لأن النطفة في القرآن الكريم وحسب وصفها في سورة الإنسان بأنها **"نطفة أمشاج"** تعني قطرة من سائل مكون من خليط من عدة مواد ممزوجة بعضها مع بعض وهو وصف ينطبق على قدر قليل من

السائل المكون من خليط من ماء المرأة ومني الرجل **وهو ينطبق بدقة على بويضة المرأة المخصبة بالحيوان المنوي للرجل،**

٢- جاءت عبارة (العلقة عند العرب) لمطابقة وصف المني الذي امتلأ بالدم في نص جالين كما نقله عن أبقراط مع وصف القرآن الكريم للجنين في هذه المرحلة بأنه "علقة" وهذا خطأ جسيم ، فكما أوضحنا سابقاً أن لفظ العلقة في القرآن يعني بكل وضوح أن الجنين أصبح متعلقاً بجدار الرحم وللذين يشككون في القرآن الكريم بدعوى أن كلمة العلقة في اللغة العربية لها معان كثيرة منها معنى "الدم" نقول: إن كلمة علقة مشتقة من الفعل علق وهو فعل يعني حصريّاً تعلق شيء بشيء آخر، وأول وأهم ما يعني وصف العلقة هو أنها شيء معلق في شيء آخر، والذين يرددون هذه الشبهة يصعبون الأمر على أنفسهم ويدعمون حقيقة استحالة تأليف رسول الله محمد ﷺ للقرآن، لأنه إذا كان هناك معان كثيرة لكلمة ما استخدمها القرآن الكريم ثم أثبت العلم الحديث أن أحد هذه المعاني مطابق لعلوم القرن العشرين ، فهذا يكفي لإثبات أن القرآن يستحيل أن يكون من تأليف رسول الله محمد ﷺ

لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، لأنه لو افترضنا أن رسول الله محمد ﷺ كان محظوظاً وجاء هذا التطابق بمحض المصادفة ، فلا يستطيع عاقل أن يفترض تكرر المصادفة لأكثر من خمس و عشرين مرة لأوصاف الجنين التي تناثرت في القرآن الكريم كلها جاءت متطابقة مع ما اكتشفه علماء القرن العشرين ونكرر أنها تصف الجنين في مراحل لا يمكن رؤيته فيها بالعين المجردة – وهو أكبر ما يميز نصوص القرآن الكريم عن نصوص أبقراط وأرسطو وجالين وغيرهم –

وبشكل أكثر تعقيداً فإن الأمر لم يقف عند هذا الحد أيضاً ، لأن هناك عدداً هائلاً من المصادفات يجب أن يكون قد توفر لرسول الله محمد ﷺ لكي تخرج نصوص **القرآن خالية من أخطاء جميع من ذكرنا** من العلماء والفلاسفة والأطباء الكبار السابقين عليه ، بل وحتى اللاحقين له بعد أكثر من ألف عام ، مثل أساتذة علم التشريح والأجنة في القرن السادس عشر والسابع عشر الذين كانوا يؤمنون بنظرية التشكيل السابق للجنين المكتمل الخلقة مرة في رأس الحيوان المنوي ومرة أخرى في بويضة الأنثى ، ومن المؤكد أنه لا رسول الله محمد ﷺ ولا أحد من الذين مارسوا الطب أو التشريح في عصره من الذين يزعم أعداء القرآن أنهم هم الذين لقنوه علم الأجنة مثل الحارث بن أبي كنده، كان عندهم من الأجهزة و المختبرات و الأبحاث ما كان متوفراً لعلماء القرنين السابع عشر و الثامن عشر

٣- جاءت عبارة (المضغة عند العرب) لتأكيد مطابقة وصف الجنين "عندما يصبح من الممكن رؤية الأجزاء الثلاثة الحاكمة بوضوح" مع وصف "المضغة" الوارد في القرآن الكريم، وهذا خطأ واضح من وجهين

الوجه الأول: أن نص جالين يصف مرحلة يمكن فيها رؤية أعضاء الجنين بوضوح مثل المعدة والرأس والأطراف ، لكن المضغة في القرآن الكريم هي مرحلة يكون فيها الجنين غير واضح المعالم ويشبه قطعة لحم صغيرة ممضوغة ، وقد بينت الصور

المصورة بالتليسكوب مطابقة هذا الوصف بدقة لصورة الجنين وهو ما زال في مرحلة لا يزيد طوله فيها على بضعة ملليمترات ،
والوجه الثاني: وهو الأهم أن القرآن الكريم وصف المضغة بأنها "**مخلقة وغير مخلقة**" وهذا ما تميز به القرآن الكريم في وصفه لجميع مراحل الجنين، وهو أنه لا يصف فقط الشكل الخارجي وإنما وصف ما **يحدث داخل جسم الجنين** الذي ما زال متناهياً في الصغر، وهذا ما لم يستطع أحد معرفته قبل القرن العشرين بعد اكتشاف التليسكوبات الحديثة، **وهذا ما جعل الدكتور مارشال جونسون يقول بالتحديد:"لا أرى مانعاً من تصديق أن الوحي الإلهي كان حاضراً في كل ما كان محمد يبلغ به"**

والملاحظة البدهية على الأوصاف الواردة في نص جالين ككل هي أن جميعها أوصاف مبنية على رؤية مباشرة لأجنة كان مصدرها – كما جاء في أول النص - الأجنة الناتجة عن حالات الإجهاض أو عن طريق التشريح، وهي تختلف تماماً عن أوصاف القرآن التي تصف الجنين في مراحل لا يرى فيها بالعين المجردة

ننتقل إلى النص الثامن وهو نص من التلمود – أحد الكتب المقدسة عند اليهود - ويرجع تاريخه إلى ٢٠٠ عام بعد ميلاد المسيح عليه السلام، وقد جاء فيه: (كان الجنين يسمى "فاكهة الجسد" وينمو كالتالي: ١- جوليم "أي شيء مطوي لم يتشكل بعد، ٢- جنين مزركش ٣- شيء محمول – طفل قادم للحياة ٤- طفل أكمل شهور الحمل)

ولا نرى وجهاً للشبه يستحق التعليق عليه في هذا النص،

بعد تفنيد الادعاء بأن علم الأجنة في القرآن الكريم هو نسخة طبق الأصل من كتابات الأمم السابقة، وبيان بطلان هذا الزعم، ننتقل إلى الادعاء الثاني، وهو الزعم بأن علم الأجنة في القرآن يحمل أخطاء علمية

ولدينا هنا ثلاث نقاط هامة :

الأولى: أن ادعاء أي شخص بوجود هذه الأخطاء العلمية بعد تأكيد بروفيسور بحجم كيث موور ، وبروفيسور بحجم مارشال جونسون ، وبروفيسور بحجم بيرسود دقة الأوصاف الواردة في القرآن الكريم ، وتطابقها مع كل ما عرفوه وتعلموه وذلك برغم نشأتهم المسيحية، و في ظل مناخ يحتقر ويبغض كل ما يتعلق بالإسلام ، فإن كل تلك الادعاءات تصبح ساقطة ولا تساوي في ميزان العلم ثمن المداد الذي كتبت به ، ولا تستحق إضاعة الوقت في الرد عليها،

الثانية: أن خلو القرآن الكريم من أخطاء علمية جسيمة - منها ما ظل يمثل مفهوم كل الفلاسفة و المتخصصين في هذا العلم على مدى أكثر من ثلاثة آلاف عام بمن فيهم أشهر علماء القرن السادس عشر، والسابع عشر، والثامن عشر- **لا يمكن أن يأتي بالصدفة لرجل عاش في صحراء الجزيرة العربية منذ ألف وأربعمائة عام**، ولو كان هو مؤلف القرآن بتوجيه من بعض

الأطباء الذين عاشوا في عصره لما خلا القرآن من هذه الأخطاء بحال من الأحوال، وهذه الأخطاء هي :

١- أن دم الحيض هو المادة الرئيسة التي يبدأ منها تكون الجنين عندما يتخثر بمني الرجل،
٢- أن الجنين يخلق كاملاً في مني الرجل ثم ينمو في الرحم نموّاً كميّاً أي في الحجم فقط،
٣- أن الجنين يتكون كاملاً داخل بويضة المرأة ثم ينمو في الرحم نموّاً كميّاً أيضاً

الثالثة: أن هناك فرقاً بين المصدر الأول للدين الإسلامي وهو القرآن الكريم وبين المصدر الثاني له وهى الأحاديث النبوية الشريفة، فالقرآن الكريم هو الوحي الذي كان يتلقاه رسول الله محمد مباشرة من الملك جبريل عليه السلام ، وكان يتم تدوينه فور نزوله مباشرة بواسطة عدد من كتاب الوحي المعروفين ، وقد تكفل الله عز وجل بحفظ كل كلمة فيه لتظل على وضعها الأصلي دون أي تغيير أو تحريف بقوله تعالى في سورة الحجر **"إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"** ووصفه للقرآن الكريم في سورة فصلت بأنه **"لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد"**

أما الأحاديث النبوية فهي كلام رسول الله محمد ﷺ عن المسائل الدينية كما بلغه بها جبريل عليه السلام ، ولكنها أيضاً مطابقة لما تعلمه الرسول ﷺ من الوحي، لقول الله عز وجل في سورة النجم **"وما ينطق عن الهوى ☼ إن هو إلا وحي يوحى ☼ علمه شديد القوى"** ولكن كلمات هذه الأحاديث التي نقلها لنا رواة الأحاديث ليست لها صفة الحفظ التي للقرآن الكريم، ولذلك فإن بعض هذه الأحاديث يصنف في علم مصطلح الحديث عند المسلمين في خانة **"الأحاديث الصحيحة"** والبعض الآخر يصنف في خانة **"الأحاديث الضعيفة"** اعتماداً على حالة هؤلاء الرواة وتفاوتهم في الحفظ والضبط،

ومن النقاط الهامة هنا أن نشير إلى أن رسول الله محمداً ﷺ كان حريصاً أشد الحرص على ألا يختلط القرآن الكريم – وهو كلام الله عز وجل - بأي شيء آخر مما كان يحدث به الناس ، فقد أمر أصحابه بعدم كتابة أي شيء عنه غير القرآن الكريم ، حيث جاء في صحيح مسلم قوله ﷺ

"لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عني ولا حرج " وهذا يؤكد عدم اختلاط كلام الله عز وجل بأي قدر من كلام البشر،

والخلاصة في هذه الأحاديث النبوية : أن كل ما قال رسول الله محمد ﷺ هو حق لا يقبل الشك ، لأنه كان ينطق بما يتعلمه من الوحي، لكن نسبة الأحاديث إلى رسول الله ﷺ تتفاوت درجتها من الأحاديث الصحيحة إلى الأحاديث الضعيفة ، وأي تعارض بين هذه الأحاديث وبين الحقائق العلمية الثابتة فسيكون سببها إما ضعف الحديث ، و إما حدوث خطأ من الرواة في كلمة أو أكثر أثناء نقل ما سمعوه

وعليه فكل ما جاء عن علم الأجنة في القرآن الكريم هو كما بين أكبر العلماء المتخصصين (دقيق بشكل يثير الدهشة) وهذا هو موضوع بحثنا، أما ما حاول المشككون أن يتمسكوا به من كلمات بعض الأحاديث النبوية مثل حديث "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعون يوماً

نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك" فقد بين العلماء المسلمون استناداً إلى روايات أخرى للحديث نفسه أن هذه المراحل الثلاث تحدث ضمن الأربعين يوماً الأولى، ولو أن هناك روايات تحمل معلومات متعارضة مع الحقائق العلمية فسيكون ذلك من أخطاء رواة الأحاديث وليس من خطأ الرسول ﷺ الذي نؤمن بأنه "لا ينطق عن الهوى☼ إن هو إلا وحي يوحى" كما قال عنه الله عز وجل

والآن : وبعد أن أوردنا كل هذا الكم من الحقائق العلمية في القرآن الكريم نود الإشارة إلى أن هناك الكثير الذي لم نتحدث عنه ، ولو حاولنا التحدث عن كل ما في القرآن الكريم من الحقائق العلمية لتضاعف عدد صفحات هذا الكتاب ، لكننا نعتقد أن ما ذكرناه كافٍ لتحقيق الهدف من الكتاب

و في نهاية الحديث عن – بعض - الحقائق و الإشارات العلمية في القرآن الكريم ، نود أن نشير إلى أنه :

- قد يكون هناك من قرأ الدليل الذي شرحناه واقتنع به ، وهو دليل كافٍ لمن يبحث عن الحقيقة مخلصاً و متجرداً من الأهواء ،
- وقد يكون هناك من يرى أن الدليل غير كافٍ لكي يقتنع بنسبة مائة بالمائة بما جاء فيه ، لكنه يحتاج للمزيد من الأدلة ليقتنع ،
- وقد يكون هناك من لم يقتنع بالدليل مطلقاً ، ويرى أن اعتقاده الذي يعتقده (سواء الإلحاد أو أي دين غير دين الإسلام) هو الحق الذي لا يقبل النقاش ،

(ومن أجل هؤلاء و هؤلاء جاءت خاتمة الفصل الثالث)

خاتمة الفصل الثالث

(التحقق من الدليل بشكل شخصي)

في نهاية هذا الفصل وبعد أن قدمنا الدليل الواضح على أن العلم يؤكد أن القرآن الكريم هو كتاب ليس في قدرة البشر أن يتكلموا بما فيه ، و أنه كتاب الله عز وجل الخالق للكون ، علينا أن نظل مستمرين في النقاش مع كل الذين ما زالوا يكابرون برغم سطوع الدليل مثل ضوء الشمس ، لأننا حريصون على أن نبذل كل ما في وسعنا من أجل وصول الحق إلى مسامعهم و قلوبهم ،

لكننا هذه المرة سنتركهم **يتحققون بأنفسهم** من صحة أو خطأ ما قدمناه من مفاهيم ، بمعنى أننا سنترك المجال لكل ملحد ليحاول إثبات خطأ الدليل الذي سقناه لهم ، فإن نجح كان محقاً في تمسكه بالإلحاد ، أما إن فشل فعليه أن يتوقف عن المكابرة والعناد و ينقذ نفسه من مصير المعاندين

ولدينا هنا ثلاث نقاط :

النقطة الأولى: التحقق من الدليل على المستوى الشخصي باستخدام الرياضيات

النقطة الثانية : التحقق من الدليل على المستوى الشخصي بدعوة كل الملحدين لمحاولة إثبات عدم صحة ادعائنا بأن القرآن الكريم هو وحي سماوي

النقطة الثالثة: (الدين و العلم) وفيها نقوم بالرد على المغالطة الكبرى التي يكررها الملحدون ليلاً ونهاراً بأن المؤمنين بالدين وبوجود الله عز و جل يخافون من ظهور الحقائق العلمية كما يخشى السحرة من طلوع الشمس ، على حد وصف توماس جفرسون الذي صدر به مؤلف كتاب وهم الإله الفصل الرابع من كتابه

النقطة الأولى : (التحقق من الدليل بشكل شخصي باستخدام الرياضيات)

في كتابه الرائع (القرآن المدهش The Amazing Quran) كتب عالم الرياضيات الكندي (جاري ميلر) – وقد ذكرنا من قبل أنه كان مبشراً نصرانيّاً و عالماً لاهوتيّاً قبل إسلامه - تحت عنوان (مفهوم حسابي) ما يلي :

"مفهوم حسابي :

من المدهش كيف يتوصل الشخص إلى حقيقة و صحة القرآن من خلال تجميع ولم شتات قائمة من الظنون الحسنة، فمن الناحية الحسابية ، يمكن بيان ذلك باستخدام أمثلة على التخمين و التنبؤ، على سبيل المثال ، في حال كان أمام أي شخص خيارين (أحدهما صحيح و الآخر خطأ) و أغمض عينيه و قام بالاختيار ، عندها سوف يكون نصف الوقت محقاً في اختياره (أي مرة من أصل مرتين) وذلك لأن لديه فرصة واحدة من أصل فرصتين ، فيمكنه بذلك اختيار الخيار الصحيح أو اختيار الخيار الخاطئ، و الآن ، في حال كان الشخص نفسه أمام حالتين متشابهتين (أي يمكنه أن يكون محقاً أو مخطئاً حول الحالة رقم ١ ، أو يمكنه أن يكون محقاً أو مخطئاً

حول الحالة رقم ٢) ثم أغمض عينه وبدأ يخمن ، عندها سوف يكون محقاً لربع الوقت فقط (أي محقاً لمرة واحدة من أصل أربع مرات) فلديه الآن فرصة واحدة من أصل أربع فرص ، لأن هناك ثلاثة احتمالات أمامه بأن يكون مخطئاً ، واحتمالاً واحداً فقط بأن يكون محقاً ، و بمعنى أبسط يمكنه اختيار الخيار الخاطئ في الحالة رقم ١ مع اختيار خيار خاطئ في الحالة رقم ٢ ، أو يمكنه اختيار خيار خاطئ في الحالة رقم ١ مع اختيار صحيح في الحالة رقم ٢ ، أو يمكنه اختيار خيار صحيح في الحالة رقم ١ مع اختيار خيار خاطئ في الحالة رقم ٢ ، أو يمكنه اختيار خيار صحيح في الحالتين ، وبالطبع فإن الحالة الوحيدة التي يمكن أن يكون فيها محقاً تماماً هي الحالة الأخيرة حيث يمكنه اختيار الاحتمال الصحيح في كلتا الحالتين، فحالات التخمين و الاحتمالات أصبحت أكثر لأن عدد الحالات التي سوف يخمنها زادت ، والمعادلة الحسابية التي تمثل ذلك السيناريو هي (٢/١ x ٢/١) أي (مرة واحدة من أصل مرتين بخصوص الحالة الأولى مضروبة في مرة واحدة من أصل مرتين في الحالة الثانية)

و بالاستطراد بهذا المثال ، في حال كان الشخص نفسه أمام ثلاث حالات و يتعين عليه التخمين فيها ، عندها سوف يكون احتمال اختيار الخيار الصحيح واحداً من ثمانية (أو ٢/١ x ٢/١ x ٢/١) ومرة أخرى فإن الخيار الصحيح في الحالات الثلاث قلل من الخيارات التي تكون صحيحة بشكل كامل إلى أن أصبحت واحداً من أصل ثمانية٠ ولا بد من الفهم أنه كلما زاد عدد الحالات نقص عدد الفرص للوصول إلى الخيار الصحيح ، والعكس صحيح ،

والآن من خلال تطبيق هذا المثال على الحالات في القرآن الكريم ، في حال قام أي شخص بوضع قائمة لكافة الموضوعات التي ذكر فيها القرآن الكريم تصريحات صحيحة، سيتضح له أنه من غير المحتمل إلى حد كبير أن تكون كلها مجرد تخمينات وظنون صحيحة٠ في الحقيقة إن الموضوعات التي ناقشها القرآن متعددة وكثيرة و لذلك فإن وصول أي شخص إلى تخمينات و تنبؤات صحيحة عنها كلها غير ممكن من الناحية العملية٠ فلو كان هناك مليون طريقة أو احتمال لأن يكون القرآن خاطئاً ، ففي كل حالة يكون فيها صحيحاً لن يكون هناك احتمال بأن الشخص كان ببساطة يظن أو يخمن ، وفيما يلي ثلاثة أمثلة حول موضوعات أدلى القرآن الكريم بتصريحات صحيحة بشأنها و توضح كيف أن القرآن يستمر في الأعداد الفردية

أنثى النحل:

في سورة النحل الآيات ٦٨ و ٦٩ يخبرنا القرآن أن إناث النحل تترك خلاياها لجمع الغذاء ، يمكن لشخص ما أن يفكر الآن في عصرنا (إن النحل الذي يطير حولنا ربما يكون أنثى و ربما يكون ذكراً ، و أنا أعتقد أنها أنثى) بالتأكيد لديه فرصة من اثنتين أن يكون مصيباً، بالتأكيد أن القرآن على حق و لكن ذلك ليس ما اعتقده الناس في زمن نزول القرآن، هل يمكنك التمييز بين ذكر النحل و أنثى النحل ؟ يحتاج الأمر لخبير للتمييز بينهما ، ولكن تم اكتشاف أن ذكر النحل لا يغادر الخلية أبداً لجمع الغذاء ، ومع ذلك في مسرحية (هنري الرابع) لشكسبير يدور نقاش بين الشخصيات يوضح أن النحل عبارة عن جنود ولديهم ملك ، فهذا ما كان الناس يعتقدونه في عصر شكسبير ، أن النحل الذي نراه يطير هو جنود ذكور يمتثلون لأوامر ملكهم، و لكن هذا ليس صحيحاً على الإطلاق ، لأن الحقيقة العلمية تؤكد أنهن إناث يمتثلن لأوامر ملكتهن٠ تلك الحقيقة التي امتد التحقيق فيها و دراستها للثلاثمائة عام الماضية، و بالعودة لقائمة التخمينات

الصحيحة بخصوص موضوع النحل ، يحصل القرآن على فرصة ٥٠ إلى ٥٠ من الصحة بينما كانت فرصة المختلفين ١ إلى ٢

الشمس:

فضلاً عن موضوع النحل فقد ناقش القرآن الكريم أيضاً موضوع الشمس ، وطريقة جريانها في الفضاء ، و مرة أخرى يمكن لأي شخص أن يخمن أن حركة الشمس لها احتمالان ، الأول أن تجري فقط كما يجري الحجر عنما يتم رميه ، أو أنها تتحرك من تلقاء نفسها، لقد أوضح القرآن الكريم أن الحالة الأخيرة – أي أن الشمس تدور من تلقاء نفسها – هي حالة الشمس ، و استخدم القرآن لوصف حركة الشمس الفعل (سبح) وبذلك فقد تم استخدام هذا الفعل لوصف حركة الشمس في الفضاء و هو ينفي أن تكون الشمس تتحرك بغير انضباط في الفضاء نتيجة لأي قوة دافعة أو أي شيء مشابه، و هذا ببساطة يعني أن الشمس تدور و هي تجري في مدارها ، وهذا ما أكده القرآن الكريم ، ولكن هل كان هذا الأمر من السهل اكتشافه ؟ هل يمكن لأي شخص عادي أن يقول بأن الشمس تدور ؟ لقد تأكد ذلك فقط في العصور الحديثة عندما تم اكتشاف الأجهزة التي ترصد صورة الشمس و تمكن الإنسان من النظر إليها دون أن تسبب له العمى ، و من خلال هذه العملية تم اكتشاف أن هناك نقاطاً في الشمس و هي تدور مرة واحدة كل ٢٥ يوماً ، هذه الحركة هي دوران الشمس حول محورها وقد أثبت القرآن الكريم قبل ١٤٠٠ سنة أن الشمس تدور أثناء سيرها في الفضاء

لنعد مرة أخرى إلى مسألة الظنون و التخمين ، فإن العدد الفردي لمرات التخمين الصحيحة حول كلا الموضوعين – جنس النحل وحركة الشمس – يكون مرة واحدة من أصل أربع

المناطق الزمنية :

قبل ألف و أربعمائة عام ، لم يكن الناس يدركون الكثير حول المناطق الزمنية ، و كانت تصريحات القرآن بشأن المناطق الزمنية مثيرة للدهشة بلا شك، إن مسألة أن تكون عائلة ما تتناول طعام الإفطار عندما تشرق الشمس بينما تكون عائلة أخرى تتمتع بهواء الليل الطلق في الوقت نفسه هي شيء مثير للدهشة حتى في الوقت الحاضر، قبل ألف و أربعمائة عام لم يكن من الممكن لأي شخص أن يسافر لأكثر من ثلاثين ميلاً في اليوم الواحد ، لذلك فإنه يحتاج إلى أشهر ليسافر من الهند إلى المغرب على سبيل المثال ، وعندما يصل إلى المغرب و يتناول طعام العشاء سيظن في نفسه أن الناس في الهند يتناولون طعام العشاء مثله في هذا الوقت، ذلك لأنه لا يدرك أنه قطع منطقة زمنية، ومع ذلك ، لأنه كلام الله العليم القدير فقد أفصح القرآن الكريم عن هذه الظاهرة في آية رائعة تبين أنه عندما ينتهي الزمن ويأتي يوم القيامة ، فإنه يحصل خلال لحظة واحدة ، وفي هذه اللحظة يكون بعض الناس في النهار و البعض الآخر في الليل. و هذا يوضح تماماً الحكمة الإلهية و المعرفة الكلية الأزلية لله تعالى بوجود المناطق الزمنية ، على الرغم من أن ذلك الاكتشاف لم يكن موجوداً قبل أربعة عشر قرناً من الزمن ، وبالفعل فهذه الظاهرة ليست واضحة للجميع و ليست ناجمة عن خبرة أي شخص ، وهي تكفي بذاتها لأن تكون دليلاً على صحة القرآن الكريم

خاتمة :

لنعد مرة أخيرة إلى موضوع التخمينات الجيدة لغرض المثال الحالي ، فإن عدد المرات الفردية التي سيخمن فيها الشخص الخيار الصحيح حول كافة الموضوعات الثلاثة السابقة هي واحدة من أصل ثمانٍ ، ويمكن الاستمرار و الاستطراد في هذا المثال ووضع قائمة أطول و أطول من التخمينات و الاحتمالات ، وبالطبع فإن عدد الاحتمالات سوف يصبح أكثر كلما زاد عدد الموضوعات التي نخمن فيها، ولكن ما لا يمكن إنكاره هو أن محمداً ﷺ هو رجل أمي ، وخمن أموراً صحيحة حول آلاف المواضيع و الأشياء و لم يخطئ في أي احتمال ، وهذا يجعل من الجدير طرح أي نظرية تقول أنه ألف أو كتب القرآن حتى من جانب أعدى أعداء الإسلام"[١]

ونضيف على كلام الدكتور ميللر أن القرآن الكريم ذكر شغالات النمل أيضاً بصيغة المؤنث ، في سورة النمل ، و ذكر العنكبوت التي تبني البيت بصيغة المؤنث أيضاً وذلك في سورة العنكبوت ، كما أقسم الله عز وجل بالسماء ذات الحبك في أول سورة الذاريات قبل أن يعلم علماء العصر الحديث شيئاً عن نسيج الكون ، وذكر القرآن الكريم أن الليل هو الأصل الذي يلف الكون وأن النهار حادث طارئ في قوله تعالى في سورة يس (٣٧) (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) ، وتحدث القرآن عن تصنيف الصخور في سورة فاطر (٢٧) في قوله تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها و غرابيب سود) ، وتحدث في سورة النازعات (٣٠) عن تشكيل الأرض ودحوها لتصبح على شكل شبه الكرة في قوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) في الوقت الذي تسبح فيه ملايين الصخور في فضاء المجموعة الشمسية منها ما هو بحجم الأرض لكن سطحها غير منتظم ويشبه قطع الأحجار التي تغطي جبال الأرض ، وفي السورة نفسها (٣١) تحدث عن مصدر الماء الموجود على سطح الأرض وأكد أنه من داخلها وليس من الفضاء الخارجي وذلك في قوله تعالى (أخرج منها ماءها ومرعاها) ، وفي سورة النور (٤٠) تحدث عن وجود أمواج تحت سطحية في المحيطات العميقة وذلك في قوله تعالى (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) --- إلى غير ذلك من الحقائق العلمية والإشارات الكونية المنتشرة في كل سور القرآن الكريم

و الآن : وبعد هذا الشرح الوافي من عالم الرياضيات الكندي (السيد جاري ميلر) يمكن لأي شخص من أي دين أو أي معتقد مثل الإلحاد أن يتحقق من صحة الدليل الذي يؤكد عدم قدرة أي واحد من البشر على تأليف القرآن الكريم ، وذلك بأن يأخذ نسخة مترجمة من القرآن و يحاول استخراج المعلومات التي لم تكن متاحة للناس في عصر نزول القرآن ، ثم يحاول تطبيق نفس الدليل الرياضي الذي استخدمه السيد ميلر ، يستطيع كل منا أن يفعل ذلك دون مساعدة من أحد ، و سيكتشف كل شخص بنفسه أن هناك أكثر من مائة حقيقة علمية مذكورة في القرآن منذ القرن السابع الميلادي لم يكن من الممكن معرفتها قبل مائة عام من الآن وما زال العلماء يكتشفون فيه المزيد من هذه الحقائق العلمية

وبذلك يكون احتمال تأليف رسول الله محمد ﷺ للقرآن واحداً على (١٠^{٣١}) أي واحداً من **عشرة ملايين تريليون تريليون** حسب البرهان الحسابي للدكتور جاري ميللر

[١] - د: جاري ميللر ،(The Amazing Qur'an) ، الترجمة العربية ، إصدار موقع (نصرة رسول الله) صفحة ٣٥- ٤٠

النقطة الثانية : (التحقق من الدليل بشكل شخصي بدعوة الملحدين لمحاولة إثبات العكس)

الآن سنعطي الفرصة للملحدين لكي يحاولوا إثبات كذب محمد ﷺ في ادعائه بأنه رسول من عند الله ، وادعائه بأن القرآن هو وحي من عند الله عز وجل وبالتالي ينتصرون بالضربة القاضية ، هل نكون منصفين إن فعلنا ذلك؟

لدينا الآن **تجربتان عمليتان** يمكن إجراء – كل منهما على حدة - لكي يتيقن كل ملحد من الإجابة على السؤال الهام : هل الملحدون الذين يصرون على أن (الإله وهم) على حق أم المؤمنون بوجود الله هم الذين على الحق؟

التجربة الأولى:

دعونا نفترض مع الملحدين أن القرآن الكريم هو كتاب من تأليف محمد بن عبد الله الرجل الذي عاش في مكة (إحدى القرى الواقعة في صحراء الجزيرة العربية) بين عامي ٥٧١م و ٦٣٤م وبدأ حياته راعياً للغنم ، ثم تاجراً مرتحلاً بين قبائل الجزيرة العربية من الجنوب في اليمن إلى الشمال في الأردن ، ولم تتح له فرصة تعلم القراءة والكتابة لعدم وجود مدارس في مكة ولا في الجزيرة العربية كلها في ذلك الوقت ، وللمزيد من المعرفة بظروف حياة هذا الرجل ، يجب أن نذكر أنه ولد يتيماً فقد مات أبوه وهو جنين في بطن أمه عمره ثلاثة أشهر، ثم اكتمل يتمه بموت أمه حين كان في السادسة من عمره فتولى عمه تربيته مع عشرة من أبنائه في ظروف اقتصادية صعبة ، وأنه تزوج وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، وأنجب ثلاثة أبناء ذكور ، وأربع بنات ، ماتوا جميعاً في حياته باستثناء واحدة ماتت بعده بستة أشهر، كما أنه فقد زوجته أم أبنائه وكذلك عمه الذي رباه منذ الصغر والذي كان يحميه من أذى أعدائه ، حيث مات كلاهما في شهر واحد وفي أشد أيام عداوة أهل مكة و ما حولها من القبائل له بسبب ادعائه بأنه رسول من عند الله ،

والآن لنبدأ التجربة: **الخطوة الأولى**: هي أن يقوم الملحدون بالاتصال بأحد أشهر علماء العالم المتخصصين في علم النفس ، ومثله في علم الاجتماع والتربية ، ومثله في علوم التاريخ الإنساني والحضارات القديمة ، ثم نطالبهم أن يكتب كل واحد منهم كل الصفات الواجب توافرها في كتاب ديني كتبه رجل نشأ في الزمان والمكان و الظروف التي نشأ فيها رسول الله محمد ﷺ بغرض تأسيس زعامة دينية لنفسه وتوحيد كل القبائل العربية المتناحرة في مملكة أو إمبراطورية واحدة يكون هو حاكمها وملكها وزعيمها الروحي ، ومن الأمانة أن نشرح لهم الوضع الديني المعقد الذي كان سائداً وقتها ، فقد كان الناس يعبدون آلهة منحوتة من الأحجار بلغ عددها في مكة وحدها ثلاثمائة وستين صنماً حول الكعبة ، بالإضافة إلى وجود إله على شكل صنم ضخم في ساحة كل قبيلة على حدة تعتبره القبيلة إلهاً خاصّاً بها ، وهي على استعداد تام لإشعال نار الحرب فوراً إذا تفوه أحد بكلمة فيها انتقاص ولو قليل من هذا الإله

ثم نعطي لهؤلاء العلماء الوقت الكافي لإنجاز العمل كما يمكن أن يسمح لهم بالتشاور فيما بينهم ثم نجمع النتائج فيكون عندنا عدد من الصفات يكفي لإصدار حكم عادل

والخطوة الثانية: هي أن نعطي لهؤلاء العلماء نسخة مترجمة من القرآن الكريم وورقة صغيرة مدوناً بها أرقام الآيات التي اشتملت على الإشارات العلمية التي ذكرناها منذ قليل و نطلب منهم البحث في جميع سور القرآن عن الصفات التي كتبوها هل هي متحققة فيه أم لا ؟ ثم نطلب من كل عالم منهم أن يعطي نسبة مئوية للصفات التي وجدها متحققة في نص القرآن الكريم

والباقي لا يحتاج إلى شرح ، لأن نتيجة المقارنة ستكون مفاجئة وقاطعة

والآن نستطيع تعميم التجربة ، فيستطيع كل إنسان محايد على وجه الأرض أن يمسك بورقة وقلم و يضع عشراً أو أكثر من الصفات التي يرى حسب قناعاته الشخصية أنها يجب أن تكون متوفرة في ذلك الكتاب الذي ألفه ذلك الرجل بغرض السيطرة على الجزيرة العربية وما حولها وجعلها إمبراطورية تحت رئاسته، ثم يقوم بمقارنة هذه الصفات بما جاء في القرآن الكريم ليكتشف بنفسه ما إذا كان هذا القرآن من تأليف محمد ﷺ أم لا

والآن نصعد إلى مستويات أعلى في تعميم التجربة ولكن بشكل عكسي، بمعنى أننا سنحاول تطبيق التجربة على كل الكتب المقدسة الموجودة في العالم، ونفترض هذه المرة أن الإله – أو الآلهة - التي تتحدث عنها هذه الكتب **هي آلهة حقيقية وموجودة وتحدثت بالفعل إلى البشر بهذه الكتب المقدسة**، فما هي الصفات التي يجب أن يحويها هذا الخطاب المقدس ؟ فعلى سبيل المثال: لو كان الثالوث المقدس يعبر عن الإله الأزلي الذي خلق الكون وخلقنا ، فما هو شكل الخطاب المقدس الذي كان يجب أن تكون عليه التوراة والإنجيل؟ هل كان من الممكن أن تخلو جميع صفحات العهد القديم من شرح هذا الثالوث المقدس وهذا الإله المتجسد ، ولا يشار إليه ولو مرة واحدة ولا حتى على لسان نبي واحد ؟

هل صدر قرار سري لجميع شخصيات التوراة منذ آدم عليه السلام وحتى المسيح عليه السلام ، بأن يخفوا أهم حقائق الإله الخالق للكون وهي حقيقة أنه ثالوث مقدس مكون من أقانيم ثلاثة ، وأن أحد هذه الأقانيم سوف يتجسد على شكل إنسان ويسمح لأعدائه بذبحه على الصليب ، لكي يمنح البشر القدرة على نيل الغفران من الأقنوم الأول ، لذلك لم تتجرأ شخصية واحدة من شخصيات العهد القديم على التفوه بحرف واحد عن هذا الثالوث؟ ولم يتجرأ نبي واحد من أنبيائه على التوجه له ولو بدعاء واحد ؟

لكن الواقع أن **العكس تماماً** هو الذي حدث ، فبدلاً من ذلك نجد أن العهد القديم احتوي على كم هائل من الأسفار التي تتحدث بكل صرامة عن الإله الواحد الذي لا يقبل شريكاً في ألوهيته وأنه يهلك الأمم التي تتخذ إلهاً آخر

وفي مثال آخر: لو افترضنا أن الإله الواحد الأحد الذي خلق الكون وخلقنا أراد أن يكلم البشر ، وأن التوراة الحالية هي الكتاب الذي حوى هذا الخطاب الإلهي ، هل من الممكن أن تحتوي على قصة صراع يعقوب مع الله الواردة في سفر التكوين؟ أو عبارة مثل "ثم يظهر الرب عليهم وسهمه يخرج كالبرق والسيد الرب ينفخ في البوق ويسير في زوابع الجنوب"[١] زكريا (٩ : ١٤) أو عبارة مثل " فقال لي الرب: هذا الباب يكون مغلقاً ، لا يفتح ولا يدخل منه أحد، لأن الرب

[١] - العهد القديم، الترجمة العربية المشتركة ، دار الكتاب المقدس ، الاصدار الثاني ١٩٩٥، ط ٤ ، صفحة ١١٩٠

إله إسرائيل دخل منه" حزقيال (٤٤: ١-٢)[١] أو عبارة مثل "فتعرفون أني أنا الرب إلهكم الساكن في صهيون جبلي المقدس"[٢] (يوئيل ٤: ١٧)

هل (يحارب بالسهم وينفخ في البوق و يسير في الزوابع و يدخل من باب الهيكل ويسكن في جبل من جبال الارض) إله خلق ما يزيد على ثلاثمائة مليار مجرة وهي جميعاً في قبضته ؟

و هل كان من الممكن أن تحتوي الكتابات المقدسة على "أخطاء وشوائب" على حد وصف وثيقة المجمع الثاني للفاتيكان التي نقلها الدكتور موريس بوكاي كما ذكرنا سابقاً ؟ أو تحتوي على أكثر من ٤٧٠ تناقضاً حسب وصف السيد زالمان شازار في كتابه "نقد العهد القديم"

وفي مثال ثالث: يؤمن اليهود بأن التلمود كتاب مقدس، كما يؤمن بذلك بعض المسيحيين ومنهم رؤساء دول ، وقد نشر مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والاستراتيجية على موقعه نسخة لكتاب بعنوان (الكنز المرصود في قواعد التلمود) تحتوي على كثير من المقاطع التي يحويها التلمود ، وهو كما وصف مركز الشرق العربي (يشتمل على كتابين ترجمهما عن الفرنسية سنة ١٨٩٩م الدكتور يوسف حنا نصر الله ، الكتاب الأول : (اليهودي على حسب التلمود) تأليف الدكتور (روهلنج) الفرنسي، والثاني (تاريخ سورية / لسنة ١٨٤٠ م تأليف المؤرخ الفرنسي (إشيل لوران)) ، و النسخة التي نشرها مركز الشرق العربي هي نفسها نسخة الكتاب الذي نشره الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقاء عام ١٩٦٨م)

وقد جاء في هذا الكتاب ما يلي: (الكتاب الثاني – فساد الدين - الفصل الأول : العزة الإلهية على حسب التلمود : قال التلمود:

(إن النهار اثنتا عشرة ساعة ، في الثلاث الأولى منها يجلس الله ويطالع الشريعة ، وفي الثلاث الثانية يحكم ، و في الثلاث الثالثة يطعم العالم ، و في الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك)

وقال مناحم : إنه لا شغل لله في الليل غير تعلمه التلمود مع الملائكة ومع (اسموديه) ملك الشياطين في مدرسة في السماء ، ثم ينصرف اسموديه منها بعد صعوده إليها كل يوم،

والحوت كبير جدّاً يمكن أن يدخل في حلقه سمكة طولها ٣٠٠ فرسخ بدون أن تضايقه ، وبالنسبة لحجمه الكبير رأى الله أن يحرمه زوجته ، لأنه إن لم يفعل ذلك لامتلأت الدنيا وحوشاً أهلكت من فيها ، ولذلك حبس الله الذكر بقوته الإلهية ، وقتل الأنثى ، وملحها و أعدها لطعام المؤمنين في الفردوس، ولم يلعب الله مع الحوت بعد هدم الهيكل ، كما أنه من ذلك الوقت لم يمل إلى الرقص مع حواء بعد ما زينها بملابسها ، وعقص لها شعرها ، وقد اعترف الله بخطئه في تصريحه بتخريب الهيكل ، فصار يبكي و يمضي ثلاثة أجزاء الليل يزأر كالأسد قائلاً : تباً لي لأني صرحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي)

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ١٠٩٤
[٢] - المرجع السابق صفحة ١١٤١

وجاء في التلمود أيضاً (يندم الله على تركه اليهود في حالة تعاسة حتى أنه يلطم و يبكي كل يوم فتسقط من عينيه دمعتان في البحر فيسمع دويهما من بدء العالم إلى أقصاه ، وتضطرب المياه ، وترتجف الأرض في أغلب الأحيان فتحصل الزلازل)

وجاء في التلمود أيضاً (فإن القمر قال لله: أخطأت حيث خلقتني أصغر من الشمس ، فأذعن الله لذلك واعترف بخطئه ، وقال : إذبحوا لي ذبيحة أكفر بها عن ذنبي لأني خلقت القمر أصغر من الشمس)

و نقل الدكتور روهلنج ما جاء في التلمود عن عصمة الحاخامات قائلاً : (إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله ! وقد وقع يوماً الاختلاف بين الباري تعالى وبين علماء اليهود في مسألة ، فبعد أن طال الجدال تقرر إحالة فصل الخلاف إلى أحد الحاخامات الرابيين ، واضطر الله أن يعترف بغلطه بعد حكم الحاخام المذكور) وجاء أيضاً (إن حمار الحاخام لا يمكن أن يأكل شيئاً محرماً) [1]

وفي الحقيقة لا أستطيع أن أصدق أن هناك من يستطيع أن يقول ذلك عن الله سبحانه وتعالى فضلاً عن أن يؤمن به، هل هذه هي الأمة اليهودية التي ما زالت تعيش في وهم أنها (شعب الله المختار) ؟ كم عدد أساتذة الجامعة الذين يؤمنون بالتلمود و يعتبرونه كتاباً مقدساً ؟ هل يعلم هؤلاء ماذا كتب في التلمود ؟ أليس هذا يؤكد صحة المثال الذي ذكرناه في مقدمة هذا الكتاب عن البشر الذين يصدقون أن الورقة المكتوب فيها بعض المقاطع لأغنية مطرب مشهور هي دليل دامغ على أحقيتهم في امتلاك المال – أو الدين الحق– ؟

مما سبق يتضح أن كل كتاب قادر بذاته أن يتحدث عن نفسه ، و صالح بمفرده لإصدار الحكم على الدين الذي يمثله ، فقط يجب علينا التخلص من الأهواء قبل إجراء البحث

وفي النهاية يستطيع كل أتباع الأديان الأخرى مثل الهندوسية والبوذية تطبيق التجربة نفسها على كتبهم المقدسة

التجربة الثانية : نفترض مرة ثانية مع الملحدين أن محمداً رسول الله ﷺ هو مؤلف القرآن، ونبدأ بإجراء **الخطوة الأولى** من هذه التجربة، وتتلخص في أن نختار حدثاً هامّاً يؤمن به جميع البشر مثل حدث انتهاء الحياة على كوكب الأرض ، وندعو الآن جميع الملحدين إلى محاولة اقتراح السيناريو الذي يتوافق مع وجهة نظر كل منهم مستعينين بكل ما وصلنا إليه من علوم الفلك و جميع فروع العلم الأخرى ، ثم يقوم كل منهم بكتابة صفحة أو أكثر لوصف الحدث بكل تفاصيله من وجهة نظره

والخطوة الثانية: هي أن نتخيل أننا في عصر نزول القرآن الكريم في القرن السابع الميلادي ، وأننا سنقوم بشرح السيناريو الذي اخترناه للناس الذين عاشوا في ذلك الزمان باستخدام

[1] - كتاب الكنز المرصود في قواعد التلمود ، مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والاستراتيجية، ترجمة الاستاذ حنا نصر الله عن الفرنسية عن كتاب الدكتور الفرنسي روهلنج ، والمؤرخ الفرنسي إشيل لوران، طبعة عام ١٨٩٩ – مصر ، وأعاد طبعه الشيخ مصطفى الزرقاء عام ١٩٦٨م

المصطلحات والمعارف أنفسها التي كانت شائعة عندهم ، لأنهم بالطبع لن يفهموا مصطلحاتنا الحديثة، **والخطوة الثالثة**: هي أننا سنتصور أن واحداً من هؤلاء الناس الذين عاشوا في ذلك الزمان ، حاول أن يؤلف كتاباً ليؤسس به زعامة دينية لنفسه ، وأنه لكي يقنعهم بأنه صادق قام بتأليف سيناريو خاص به لأحداث النهاية على كوكب الأرض وشرحه في ذلك الكتاب ،

والآن سيصبح عندنا ثلاثة نصوص: الأول يحتوي على السيناريو الخاص بنا والذي يحوي كل ما توصلنا إليه في عصرنا الحديث ومكتوب بلغتنا الحالية، والثاني يحتوي على السيناريو نفسه ولكن حذفنا منه المصطلحات التي لا يمكن للبشر في القرن السابع الميلادي فهمها ، والثالث يحتوي على تصورنا لنص مؤلف من القرن السابع الميلادي يحوي تصور أولئك البشر عن أحداث النهاية لكنه يعتمد على علومهم فقط و مكتوب بمصطلحاتهم ،

والخطوة الرابعة: واضحة وضوح الشمس، وهي مقارنة النصوص الثلاثة بما جاء في القرآن الكريم عن أحداث النهاية – أو أي حدث آخر - لمعرفة هل كان بإمكان رسول الله محمد ﷺ حقاً تأليف القرآن الكريم أم لا ؟

ومرة أخرى نكرر أن النتيجة ستكون مفاجئة وواضحة للجميع

النقطة الثالثة : (الدين والعلم)

صدّر مؤلف كتاب وهم الإله الفصل الرابع من كتابه بمقولة توماس جفرسون التي نصها (رجال الدين من مختلف الطوائف يعانون من تقدم العلم كما يعاني السحرة من موعد شروق الشمس، ويعبسون في وجه تلك الإطلالة التي تعلمهم بأن تلك الأوهام التي يعتاشون عليها في طريقها للزوال)

هذه العبارة صحيحة تماماً بالنسبة لجميع الأديان المحرفة والمزورة، لكن عندما يكون الدليل الوحيد لإثبات صحة دين ما هو اتفاق الحقائق العلمية التي تكتشف كل يوم مع ما جاء في الكتاب السماوي لهذا الدين ، فإن أتباع هذا الدين سيكونون هم أحرص الناس على متابعة تطور **المكتشفات العلمية** التي ستؤكد يوماً بعد يوم أن دينهم هو **الحقيقة الوحيدة غير القابلة للتشكيك** من بين كل ما يملكه البشر من معتقدات على سطح الأرض

إن العبارة التي ذكرها السيد توماس جفرسون تؤكد صحة ما ذكرناه في أول هذا الكتاب ، من أن الملحدين في العالم الغربي الذين وقعوا رغماً عنهم ضحية لتحريف الكتاب المقدس ، قاموا كرد فعل لما وجدوه من خرافات بشعة باتخاذ موقف حاد ضد كل ما يتصل بالإله الخالق سبحانه وتعالى، وضد كل الأديان بصفة عامة ، دون أن يعطوا أنفسهم الفرصة لكي يبحثوا في الأمر

إن النتيجة الصحيحة التي يؤكدها العلم الحديث بنسبة مائة بالمائة هي أن الأدلة التي قامت عليها كل المذاهب الباطلة ، والأديان المزورة تتلاشى شيئاً فشيئاً بفضل تقدم العلوم الحديثة – ونحن هنا نتفق مع مقولة السيد توماس جفرسون – و لكننا نضيف أيضاً أن الأدلة على

صحة الدين الحق – وهو الإسلام - تتزايد وتتواتر وتزداد سطوعاً بفضل تقدم هذه العلوم. ولأهمية هذه النقطة سنقف عندها قليلاً ونذكر ثلاثة أمثلة :

المثال الأول: منذ ظهور الإنسان على سطح الأرض نظر البشر إلى الشمس باعتبارها أهم ما حولهم من الموجودات ، فانقسم الناس إلى فريقين: فريق رفعها إلى مقام الإله الخالق وعبدوها ، وشيدوا لها المعابد وقدموا لها النذور والأموال والصلوات، بتشجيع من طبقة السدنة والكهنة من تجار الأديان، الذين يقومون بجمع كل هذه النذور والأموال لمصلحتهم بالطبع وليس لمصلحة الشمس المسكينة التي لا تدري عن الأمر شيئاً، وربما ما زالت هناك مجتمعات بشرية حتى يومنا هذا تقدم الطقوس نفسها للشمس،

والفريق الثاني هم الناس الذين صدقوا الرسل الداعين إلى توحيد الله عز وجل ، وآمنوا بأن هذه الشمس ليست أكثر من مخلوق صغير في كون ضخم خلقه إله قوي قادر عالم بكل ما في الكون من مخلوقات، وظل الفريقان منذ ذلك الزمن السحيق على حالهما إلى أن بدأت تشع أنوار العلوم الحديثة المدعومة بالأدلة العملية والتجريبية في القرن الثامن عشر وما بعده لتبدأ في تبديد خرافات العصور الأولى، وبدأت الصور التي تلتقطها المراصد و التليسكوبات الضخمة للشمس تتوالى، لتكشف لنا بمساعدة الفروع الأخرى من العلوم مثل الرياضيات والفيزياء والكيمياء الحرارية حقيقة هذا النجم و ما يتمتع به من خصائص طبيعية ، بل لقد اكتشف العلماء نجوماً أخرى أكبر من الشمس بألف ومائتي مرة مثل نجم الدبران الذي يمثل حجم الشمس بالنسبة له حجم حبة كريز بالنسبة لسيارة جيب ، وهناك ما هو أكبر من ذلك ، وبدأت الخرافات التي ظلت قابعة في أذهان المؤمنين بهذا الإله تتلاشى بفعل انتشار نور العلم ،

ولقد حذر القرآن الكريم كل البشر من اتخاذ هذا النجم إلهاً بقول الله تعالى في سورة فصلت **"ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون"** (٣٧)

المثال الثاني: جاءت في الكتاب المقدس (العهد القديم) عبارات توضح بدقة أعمار الأنبياء و الأمم السابقة في سلسلة متتالية تؤدي في النهاية إلى أن عمر الكون كله بدأ فقط منذ خمسة آلاف وثمانمائة عام من الآن تقريباً

وفي كتاب (التوراة و الإنجيل و القرآن والعلم) أدرج الدكتور موريس بوكاي تواريخ ميلاد شخصيات العهد القديم في جدول متسلسل من الأقدم للأحدث ، فوجد أن إبراهيم عليه السلام يجب أن يكون قد عاش في عصر نوح عليه السلام ، و أن نوحاً يجب أن يكون قد عاش في زمن آدم عليه السلام ، وهما معلومتان متناقضتان مع كل روايات الكتاب المقدس بلا استثناء

وجاء العلم ليقول كلمته المدوية و يؤكد بالأدلة أن عمر الكون الذي نسكنه بدأ منذ ثلاثة عشر بليون وسبعمائة مليون سنة تقريباً، كما كشف العلماء عن وجود صخور على سطح الأرض يرجع عمرها إلى أربعة بلايين عام ، وعن هياكل عظمية لديناصورات عاشت على الأرض منذ خمسة وستين مليون عام ، و أن هناك عظاماً بشرية يرجع عمرها إلى عشرة آلاف سنة ، بل ذكر الدكتور بوكاي أن العلماء اكتشفوا عظاماً (لبشر مثلنا - على حد وصفه) يرجع عمرها إلى خمسة و أربعين ألف سنة

بذلك تتضح المسافة الشاسعة بين الحقائق العلمية الثابتة وبين ما تم حشره في الكتاب المقدس من خرافات

ويا للعجب ما زال هناك مليارات من البشر – منهم أساتذة في الجامعات - يؤمنون بأن كل ما جاء في الكتاب المقدس هو كلمة الله

لكن القرآن الكريم يتحدث عن فترات زمنية شاسعة تفصل الأمم التي جاء ذكرها فيه بعضها عن بعض وذلك في قوله تعالى في سورة الفرقان ٣٨ **"وعاداً وثمود و أصحاب الرّسّ وقروناً بين ذلك كثيراً"**

المثال الثالث: على الجانب الآخر وفي أقصى اليسار وقف الملحدون يقاتلون بكل قوة ليثبتوا أن نظرية التطور أنهت المعركة لمصلحة الإلحاد الذي يؤكد – **بدون وجود أدلة علمية حقيقية** – أن كل صور الحياة على الأرض نشأت من تطور كائن وحيد الخلية عبر ملايين السنين، وبالتالي لم تعد هنا حاجة لوجود إله خالق وبالتالي فإن وجود هذا الإله هو وهم كبير

وبالرغم من أنهم لم يستطيعوا حل المعضلة الأكبر وهي مصدر هذا الكائن وحيد الخلية إلا بافتراضات ساذجة بينها وبين العلم **المسافة** نفسها التي بين عمر الكون في العهد القديم وعمره الحقيقي حسب الأدلة العلمية، كما أنهم لم يحلوا معضلة أخرى أكثر تعقيداً وهي مصدر الجسم المتفرد الذي بدأ منه الانفجار العظيم ، وأدى عبر أكثر من ثلاثة عشر مليار سنة إلى تكون ما يزيد على ثلاثمائة مليار مجرة كل منها يحوي الحياة كما تحويه مجرتنا بالضبط ، وتجاهلوا تماماً أن افتراض المصادفة واستخدام الدليل الإحصائي والمبدأ الانثروبي لتحققها لم يكن لينتج الخلية الحية من جزيء مادي ولا بعد ألف مليار سنة وليس ثلاثة عشر مليار سنة فقط، لأن الأمر ببساطة يحتاج إلى (تشكيل دقيق) ثم (برمجة) و البرمجة تحتاج إلى (مبرمج) يملك العلم الكافي لإتمامها ، كما أن الجزيء المادي لا يستطيع أن يكون هو مصدر تشكيل الخلية ولا أن يكون مصدر هذه البرمجة لأنه لا يملك عقلاً ، وإذا كان الملحدون يصدقون بأن الانتخاب الطبيعي هو القادر على حل معضلة (التشكيل) بأن يتحول الجزيء المادي عبر مراحل تطورية طويلة إلى خلية حية فقد أوضحنا أنهم بذلك يناقضون أنفسهم حيث أنهم يتفقون معنا أن الانتخاب الطبيعي والتطور لم ينجحا في تشكيل قلم رصاص من مجموعة ذرات الكربون وقطعة خشب ، وهم لا يستطيعون أن يقنعوا أحداً بأن تحول الجزيء المادي إلى أول مرحلة من مراحل تكون أول خلية حية يمكن أن يبدأ منها التطور هو تعقيد أقل من التعقيد الموجود في تشكيل قلم رصاص يتكون من مادتين فقط برغم عدم تحول أي من المادتين إلى صورة أخرى من صور المادة ، و إن كان منهم من يصدق ذلك فليراجع العلماء المتخصصين ليوقظوه

وبالرغم من أن العلماء الملحدين بذلوا كل ما يستطيعون من أجل إجبار العلم على موافقتهم إلا أنه يأبى إلا أن يقف شامخاً ويرفض الاعتراف بأن افتراضاتهم قد أصبحت حقائق ثابتة

الفصـــــــل الـــرابع

الدين

الفصل الرابع

الدين

أتفق تماماً مع التحليل الذي أورده مؤلف كتاب وهم الإله تحت عنوان "جذور الدين" عن سرعة انتشار خرافات الأديان والمعتقدات الباطلة ، والمثال الذي ضربه لطائفة شحنات البضائع هو واقع حقيقي يحدث كل يوم في كل بقاع الأرض ، وفي مثال واقعي مشابه حدث في إحدى قرى القارة الإفريقية حكاه الدكتور عبد الرحمن السميط - وهو طبيب كويتي عاش متنقلاً في قرى فقيرة في وسط أفريقيا ليقدم للناس كل ما يستطيع من مساعدة طبية ومالية - وقد كان هناك صنم في ساحة إحدى القرى يعبده أبناؤها ويتخذونه إلهاً ، ولما سألهم الدكتور عن قصة هذا الإله قالوا : (حكى لنا أجدادنا أنه منذ ما يقرب من ثلاثمائة سنة حضر للقرية رجل طيب – علمنا من حديثهم أنه كان مسلماً - وعاش بينهم فتعلموا منه وقلدوه فيما يفعل ، وكان إذا قل المطر جمع أهالي القرية في مكان مفتوح وتوجه إلى جهة الشرق – أي إلى الكعبة – وصلى ودعا ربه فلا يمر وقت طويل حتى ينزل المطر، وذات يوم قرر ذلك الرجل أن يذهب إلى الحج في مكة – كانت وسيلة المواصلات وقتها هي الجمل أو الذهاب سيراً على الأقدام – فذهب ولم يعد، وبعد فترة ماتت زوجته ، ولما دخلوا بيته وجدوا كمية كبيرة من الكتب فقاموا كنوع من التبجيل لهذا الرجل بذبح ثور وأخذ جلده وبعد تجفيفه وضعوا الكتب فيه حتى لا تأكلها الأرضة ، ودفنوها تحت الأرض ولكي يعلّموا مكانها بعلامة قاموا بوضع عمود من الخشب ، وكانوا كلما قل المطر أخرجوا الكتب وتوجهوا إلى جهة الشرق وفعلوا كما كان الرجل يفعل، وجيلاً بعد جيل تطور الأمر إلى أن صار هذا العمود الخشبي صنماً يعبدونه على أنه إله)

لكن المثال الأكثر غرابة والذي يمثل مأساة حقيقية هو ما حدث في الهند، فعدد الآلهة في الهند يزيد على ثلاثة آلاف إله، منها النجوم والقرود والفيلة والفئران والشجر وحتى الأفاعي، وإن كان هذا معلوماً عن الهنود لنا جميعاً ، فإن غير المعلوم بل والغريب حقاً أنهم أخيراً قدسوا شاباً هندياً ولد بعيب خلقي عبارة عن ذيل يبلغ طوله ٣٥ سنتيمتر تقريباً ، ظناً منهم أن هذا الذيل دلالة على أن الشاب من سلالة الإله القرد ، وتوافدت الجموع الغفيرة على قرية ذلك الشاب لنيل البركة ، و أصبحت شهرته بين عشية وضحاها تملأ الآفاق

إلى هذا الحد يتم اختراع إله جديد من لا شيء أو من مجرد وجود شخص أو حتى حيوان يحبه الناس بشدة أو ربما يخافون منه بشدة، ويتم تزايد مظاهر التقديس له بل والعبادة من جيل إلى جيل دون أن تجد كل هذه الخرافات من يجرؤ على الوقوف في وجهها خوفاً من بطش المؤمنين بها ، وهذا بالضبط ما حدث منذ أول واقعة اختراع آلهة مزعومة حدثت قبل عهد نوح عليه السلام عندما مات ستة من الرجال الصالحين في شهر واحد فصنع الناس لهم تماثيل حبّاً و تقديراً لهم ومع تتابع الأجيال أصبحت هذه التماثيل آلهة يسجد لها الناس

وهذا بالضبط ما أدى إلى حتمية إرسال الرسل و حتمية تتابعها على مر العصور، لقد كانت مهمة جميع الرسل واحدة وقوية و أيضاً خطرة، **وهي أولاً : محاربة** جميع الخرافات المتعلقة بتقديس الأصنام أو البشر أو النجوم أو أي مخلوق آخر من المخلوقات التي تملأ الكون من حولنا، ثم تعريف الناس بخالقهم و خالق الكون ، **وثانياً : تحرير الناس** في جميع العصور التي

مر بها التاريخ الإنساني وعلى كل شبر من الأرض من الانصياع الأعمى لكل أشكال وأنواع الابتزاز باسم الدين

لقد بلغ حرص الدين الحق الذي أنزله الله عز وجل على الأنبياء في محاربة كل الخرافات التي تجعل الإنسان يرتبط نفسيّاً وماديّاً بأشياء يعتقد فيها أنها تنفع وتضر وتتحكم في مصايره وأقداره أن حرّم على لسان رسوله محمد ﷺ مجرد تعليق خيط من حرير أو قطعة من الجلد كان الناس قبل الإسلام يلبسونها في أيديهم، ويُلبسونها لأبنائهم اعتقاداً منهم أن هذه التمائم تجلب للإنسان حظّاً سعيداً ، وتمنع حدوث أي ضرر من الأضرار له ، وذلك في مثل الحديث الشريف عن عقبة بن عامر قال "سمعت رسول الله ص يقول : من تعلق تميمة فلا أتم الله له"[1] بل وجعلها من مظاهر الشرك بالله عز وجل

من هذا المنطلق جاء قول الله تعالى صريحاً في القرآن الكريم

"لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم" البقرة ٢٥٦ ،

فالكفر بالطاغوت هو الكفر بكل ما يمكن أن يكون حاجزاً مقدساً بين الله عز وجل وبين الإنسان سواءً كان صنماً، أو نجماً، أو حيواناً، أو رجلاً اتخذه الناس إلهاً، أو ابناً للإله، أو أمّاً له، أو كان أحد الكهنة، أو الحاخامات أو رجال الدين، الذين يرفعون أنفسهم فوق البشر زوراً وبهتاناً، فكل هذه الصور هي الطاغوت الذي أمرنا الله عز وجل أن نكفر به وأن نتحرر من أسره

لكن محاربة كل مظاهر الخرافات الباطلة والآلهة المزعومة ، ليست دافعاً على الإطلاق للوقوع في الهاوية السحيقة التي تتمثل في إنكار وجود خالق للكون، إن هذه **المغالاة المفرطة** في ردة الفعل دون بحث و دراسة جادة ودقيقة تشبه ردة فعل رجل علم بوجود قبيلة بدائية تتخذ من قنديل البحر إلهاً لها، فقام بتأليف كتاب أسماه "وهم البحر" وساق فيه عشرات الأدلة الساذجة - المستوحاة من نسج الخيال - على أن وجود "البحر" خرافة كبيرة اخترعتها عقول الجهلاء من تلك الطائفة

قد يكون هذا الخيار هو اختيار الكثير من البشر – وهم أحرار في ذلك - ولكن عليهم أن يكفوا عن خداع أنفسهم أولاً ، و خداع الناس ثانياً بأن هذا الإنكار مبني على أدلة علمية، لأن الحقيقة هي أن العلم يؤكد بكل قوة أن هناك خالقاً، قويّاً، عالماً، هو الذي أخرج هذا الكون للوجود وأحكم حركة كل جزء فيه طبقاً لقوانين دقيقة ومعقدة لا يمكن مطلقاً من وجهة نظر العلم أن توجد نفسها ابتداءً ولا أن تتوافق فيما بينها للحفاظ على هذا الكون بمحض المصادفة

الواقع أن الملحدين يفهمون أمر الدين بشكل معكوس، إنهم يعتقدون بيقين أن البشر في العصر الحجري شعروا في البداية أنهم بحاجة إلى قوة خارقة تحميهم من الحيوانات المفترسة ومن الزلازل و السيول لذلك تصوروا وجود آلهة قوية قادرة على فعل ذلك ثم عبدوها، أي أن الآلهة هي اختراع بشري، وشيئاً فشيئاً نقص عدد الآلهة فأصبح ثلاثة ، ثم نقص فأصبح إلهاً واحداً كنتيجة لتطور الفكر البشري، ثم بحدوث التطور الكامل للعقل البشري سوف يتقلص العدد إلى

[1] - مسند الإمام أحمد ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ١٧٠٧٥

الصفر ويصبح الاعتقاد بوجود الإله شيئاً من الماضي، لكن الذي لا يستطيع أن ينكره الملحدون هو أن هذا السيناريو الساذج لا يدعمه دليل علمي واحد ولا يزيد على كونه رواية سينمائية من نسج الخيال

لكن الحقيقة – التي أثبتها العلم - هي أن العكس تماماً هو الذي حدث ، لقد خلق الله عز وجل الكون بكل ما فيه ، وخلق الإنسان ليكون سيداً في الأرض ، وليكون أفضل ما عليها من مخلوقات ، وليقوم بتعميرها ، وسلحه بعقل مفكر و مبدع ليقوم بالمهمة التي خلق من أجلها، وعلمه سبحانه وتعالى كل حقائق الدين، من خلقه ، وكيف خلقه ؟ ولماذا ؟ وما هي حقوق هذا الخالق عليه ، وما هي حقوقه هو على خالقه، وما هي حقوق ما حوله من المخلوقات عليه ، ولكن الأجيال المتتالية لهذا الإنسان انحرفت عن كل تلك التعاليم واخترعت لها آلهة مزورة عبدتها من دون الله ، وساعدت طبقة من المنتفعين بانتشار هذه الخرافات على ترسيخها في نفوس الناس جيلاً بعد جيل

لقد أسهب مؤلف كتاب وهم الإله في شرح جذور الدين باعتبارها تطوراً داروينياً طبيعيّاً تناقلته الأجيال عن طريق انتقال الجينات من أجداد مغرقين في القدم كانوا يتمسكون بخرافات الأديان التي ترسخت في عقولهم بشدة، وظل يسبح في افتراضات وهمية ليس عليها دليل علمي واحد، فمن أين يأتي الدليل العلمي إذا كانت نظرية التطور نفسها لم تثبت صحتها حتى الآن ؟

لقد أجاب القرآن الكريم على السؤال المطروح بكل وضوح حين أكد أن جذور الدين زرعت في جسد الإنسان منذ اللحظة الأولى لتصويره وخلقه ، فكل خلية من خلاياه تشربت بحقيقة انتمائها للخالق الذي خلقها وخلق الوجود من حولها ، قال تعالى في سورة الروم :

"**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**" (الروم ٣٠)

إن تصور د: ريتشارد عن انتقال النزعة الدينية من خلال الجينات ليس خاطئاً من كل الوجوه ، إن الخطأ الوحيد في تصوره هو أنه أرجع مصدر هذه النزعة إلى الانتخاب الطبيعي الذي ينحاز في كل جيل إلى تركيزها وتمريرها للأجيال التالية كنوع من الانحياز الطبيعي إلى كل ما يدعم غريزة البقاء

إن تصور د: ريتشارد بأن النزعة الدينية تنتقل عبر المورثات أو الجينات هو احتمال قائم ، ولكن ليس بفعل الانتخاب الطبيعي ، ولكن بفعل قانون الفطرة التي فطر الله عز وجل الناس عليها ، وهي الطبيعة الذاتية للنفس الإنسانية التي خلقت بطبيعتها مشدودة بكل قوة إلى خالقها الذي تحمل كل خلية من خلاياها نفخة من روحه سبحانه وتعالى، ربما ينكر الملحدون كل شيء له صلة بهذا الخالق لكنهم لا يستطيعون إنكار صوت الفطرة النابع من أعماق قلوبهم ووجدانهم حين يهتف في آذانهم في لحظات الصفاء النفسي والتفكير العميق بأن "الله موجود" وأن الكون الفسيح هو صنعة خالق عظيم ، لكنهم يحاولون إسكات هذا الصوت بكل ما أوتوا من قوة

الدين و الأخلاق

الفكرة التي طرحها د: ريتشارد في كتاب وهم الإله تحت عنوان "الأخلاق" كانت واضحة ومركزة ، وهي أننا لسنا بحاجة للدين لكي نتعلم الأخلاق الحسنة ، بل إن الدين في الكثير من الأحيان يكون مصدراً من مصادر الشر، وبقدر ما حوى هذا الفصل من أفكار جيدة ، بقدر ما كان هناك الكثير من النقاط التي تحتاج إلى مناقشة جادة

لقد شرح مؤلف الكتاب فكرته شرحاً مستفيضاً مستدلاً بالكثير من الأدلة والنصوص التي جعلت فكرته تبدو غير قابلة للنقض، ولكننا سنرى في هذا الفصل والفصل الذي يليه أن الواقع عكس ذلك تماماً، ففي هذا الفصل سنبين أن كل الأحداث التي استدل بها د: ريتشارد هي أحداث وهمية لم تقع في الحقيقة ، وكلها من افتراء أشخاص كانوا يتصرفون مع الناس على أنهم أوصياء عليهم ، و أن من حقهم أن يكتبوا ما يرونه لازماً للسيطرة على هؤلاء الناس ثم ينسبونه إلى الكتب المقدسة ، وبالتالي فكل الأدلة التي قرأناها في كتاب وهم الإله مبنية على سراب لا يثبت به حق ولا يندفع به باطل ، وفي الفصل التالي سنبين أن الأخلاق لم توجد خارج الدين الحق ، ولا حتى في أرقى المجتمعات البشرية

ومن الضروري في البداية أن ننبه على نقطة هامة ، وهي أن الدين حين يضع تشريعاً فإنه يضعه لمراعاة ظروف جميع البشر على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والثقافية، فنحن نتفق مع د: ريتشارد على أن الإنسان الذي يتمسك بالأخلاق الحسنة ليس سعياً إلى الثواب ولا خوفاً من العقاب ، ولكن بدافع سمو داخلي يجعله ينظر إلى الفضيلة كغاية في حد ذاتها، هو إنسان جيد بلا شك، ولكن كم هو عدد البشر الذين يتمسكون بهذا المستوى من الفضيلة ؟ لعل فلاسفة الإلحاد يتفقون معنا على أن ذلك لا يحدث إلا عند واحد في المائة من الناس، فماذا يكون الحال بالنسبة للتسعة وتسعين الباقين؟ هذا ما نقصده بأن الدين يشرع لجميع المستويات من البشر،

إن كل الملحدين يتفقون معنا على أنه لو أصر بروفيسور في كلية العلوم على وضع امتحان لتلاميذه في مستوى علم وذكاء أينشتين أو نيوتن في كل مرة ، فإن نسبة نجاح تلاميذه ستظل تتأرجح بين الصفر والخمسة بالمائة على الدوام، نعم يستطيع فعل ذلك مرة أو مرتين خلال العام الدراسي من أجل تحفيز الطلاب على الارتقاء والتفوق، ولكن الإصرار على ذلك في جميع الاختبارات سيلقي بالطلاب خارج الجامعة ، وربما أدى إلى إغلاق القسم الذي يدرس فيه

ومن جانب آخر **وعلى البعد الزمني** يطرأ السؤال الأهم : إن كان د: ريتشارد يثق في أن إنسان القرن الحادي والعشرين أصبح يمتلك من القيم الأخلاقية ما يجعله يستغني عن الدين في معرفة الخير من الشر – سنفترض أن هذا صحيح مؤقتاً لحين إثبات العكس في الفصل القادم – فماذا عن آلاف الأجيال من البشر الذين سكنوا الأرض منذ العصر الجليدي والعصر الحجري؟ هل كان عليهم أن يعيشوا كحيوانات وأن ينتظروا كل هذه الآلاف من السنين حتى يأتي القرن الحادي والعشرون لكي ينعموا بالأخلاق الحسنة ؟

كذب الافتراءات التي جاءت في الكتب المقدسة :

ذكرنا من قبل أن السيد ريتشارد وقع مثل كل الملحدين الغربيين ضحية لجريمة تحريف الكتاب المقدس، وهنا يبرز حجم الضرر البشع الذي أحدثته هذه الجريمة في ضحاياها وبخاصة الذين يحترمون عقولهم و يرفضون الانصياع الأعمى أمثال د: ريتشارد

والآن يتوجب علينا أن نعيد الحق إلى أصحابه و نزيل كل هذه الافتراءات - التي دستها أيدي الرهبان في الكتاب المقدس – في حق صفوة البشر من كل جيل وهم الأنبياء ، أولئك الرهبان الذين تعمدوا الإساءة لكل الأنبياء سعياً إلى السيطرة على الشعوب، وابتزاز أموالهم وممتلكاتهم بعد أن يقنعوا البسطاء من الناس أن لهم **"مكانة مقدسة"** أعلى من مكانة غيرهم من البشر بمن فيهم الأنبياء ، وكما قرأنا منذ قليل في بعض العبارات المنسوبة إلى التلمود أن الحاخامات أعلى مقاماً وأكثر حكمة من الله "والعياذ بالله"

ولنبدأ بالعهد القديم :

هل الملحدون حقاً يحاربون الجهل و الخرافات ويقفون في صف العلم والتنوير وتحرير الإنسان من الاستعباد الذي يمارسه تجار الأديان الباطلة ، الذين يتلذذون بانصياع الناس لهم دون مناقشة حتى في عبادة صنم أو فأر أو أفعى أو قرد أو رجل له ذيل ؟ أم أنهم يساعدون – دون أن يشعروا – على انتشار الخرافات و الجهل ؟

لقد جاء الأنبياء من أجل القضاء على كل صور الخرافات ، سواء منها المرتبطة بالآلهة المزورة والمقدسات الباطلة التي تنسب إلى خالق الكون سبحانه وتعالى ، أو المرتبطة بإنكار خالق هذا الكون دون أي دليل حقيقي ، ولذلك فإن الأنبياء هم العدو الأول لزعماء كلا الفريقين باعتبارهم يشكلون رأس الحربة في الهجوم على المعتقدات التي يستظل بظلها هؤلاء و هؤلاء ، لذلك لم يكن مستغرباً أن يتخذ الملحدون من الأنبياء عدوّاً مباشراً يكيلون لهم السخرية والسباب في كل كتاب وكل مقالة وكل صحيفة تصدر عنهم

١- نبي الله نوح عليه السلام :

لقد أرسل الله عز وجل رسوله نوحاً إلى مجموعة من البشر كانت تعبد أصناماً من الحجارة تظن أنها آلهة تسجد لها وتقدم لها القرابين، وظل هذا الرسول على مدى تسعمائة وخمسين سنة يعلم قومه أن هذه الآلهة ليست سوى أحجارٍ صماء لا تنفع ولا تضر ولا تسمع حرفاً واحداً من دعائهم ولا من صلواتهم، وبرغم كل هذه المدة الطويلة أمر الله عز وجل رسوله نوحاً ألا يصيبه اليأس ولا الإحباط وألا يتوانى في دعوتهم إلى التحرر من هذه الخرافات، وقد سجل القرآن الكريم الجهد الكبير الذي بذله نوح عليه السلام في قول الله تعالى :

"قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ☼ فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ☼ و إني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ☼ ثم إني دعوتهم جهاراً ☼ ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ☼ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ☼ يرسل السماء عليكم مدراراً ☼ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ☼ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ☼ وقد خلقكم أطواراً ☼ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ☼ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ☼ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ☼ ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ☼ والله جعل لكم الأرض بساطاً ☼ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ☼ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ☼ ومكروا مكراً كباراً ☼". (نوح ٥ – ٢١)

ولكن قومه ظلوا على عنادهم برغم اتضاح الحقيقة لهم، لقد ظل الله عز وجل يرزقهم ويبسط لهم في النعم ، وهم يتطاولون عليه ويسبونه ويسبون رسوله ويؤذون المؤمنين به لمدة تقارب الألف سنة ، وبالرغم من أن نوحاً جاء لهم بالأدلة الدامغة على أنهم غارقون في الضلال ، ومحاربون للخالق الذي خلقهم ، إلا أنهم فضلوا السجود للأحجار وتمسكوا بالخرافات التي تمنحهم المال و السلطة والنفوذ

وكان المنطق السليم يحتم على الملحدين أن يقفوا في الجانب الذي فيه تحرر الناس من الخرافات ومن الاستعباد ، وليس في الجانب الذي يدافع عنهما كما رأينا في كتاب وهم الإله، أليس هذا تناقضاً واضحاً من الملحدين ؟

ومن جانب آخر : لو سألنا أحد الملحدين السؤال التالي : لو أنك أحضرت فقيراً من الفقراء وقررت أن تعطيه كل يوم ألف دولار من باب الشفقة عليه ، لكنه كان في كل مرة تعطيه المال يبصق في وجهك أو يصفعك على وجهك ، كم مرة ستعطيه الألف دولار؟ وكم يوماً سيطول صبرك عليه ؟ نعلم جميعاً أنك لن تصبر عليه إلى اليوم التالي، بل ستنتزع منه بكل قسوة ما دفعته له منذ المرة الأولى، مع أنك لم تخلق هذا الفقير منذ أن كان جنيناً في بطن أمه، ولم تسخر له كوكباً مثل كوكب الأرض يحمل كل الظروف الطبيعية والبيئية التي تضمن له تقديم كل ما يحتاج إليه ، أنت فقط قررت أن تمنحه بعض المال، ومع ذلك لم تصبر عليه يوماً واحداً،

لكن الله عز وجل صبر على قوم نوح قرابة ألف سنة كاملة ولم يمنع عنهم ملايين النعم ولو لساعة واحدة طوال هذه الألف سنة ، ولم يسترد منهم جارحة واحدة من جوارحهم **التي يستخدمونها في التطاول عليه** ، لكنهم تمادوا في محاربتهم له و أضافوا إلى عبادتهم للأحجار كل أنواع السب والتجريح لكل ما يتصل بهذا الإله الحليم ، والعجيب أن كل جوارحهم التي يستخدمونها في محاربته هو الذي منحهم إياها وأعطاها الأمر بعدم عصيانهم حتى وإن استخدموها في التطاول عليه

ومن ناحية ثالثة : فقد ظل نوح عليه السلام يحذرهم من النهاية المأسوية التي تنتظرهم إن هم استمروا في محاربتهم لخالقهم ، وكرر لهم التحذير ليس مرة واحدة ولا حتى مائة مرة ، بل كل يوم وعلى مدى تسعمائة وخمسين سنة ، لكن رد فعلهم في النهاية كان كافياً لتنفيذ الحكم العادل فيهم ، لقد طلبوا من نوح الإسراع بالعقوبة كدليل على صدقه و قالوا باستهزاء – بعد أن غرهم حلم الله عليهم - كما أخبر القرآن الكريم في سورة هود :

"قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ٣٢"،

ومع ذلك يرى الملحدون أن تطبيق الحكم العادل على هؤلاء بناءً على طلبهم هو ظلم لهم، لماذا ؟ **هل لأن الملحدين يسيرون في الطريق نفسه الذي سار فيه هؤلاء ؟** وفي هذه الحالة أليس من الحكمة أن يحاولوا تغيير النتيجة ويتراجعوا عن تحدي خالق الكون ؟

لكن دعونا نتصور أن هذه الحادثة لم تحدث ، وأن كل البشر الذين هلكوا فيها ظلوا على قيد الحياة ، وأن الله عز وجل بعد أن خلق البشر تركهم يعيشون على سطح الأرض بدون أي

توجيه من السماء بواسطة الرسل ، فماذا كان سيصبح وضعنا نحن في القرن الحادي والعشرين ؟

ليس هناك من شك في أن الستة مليارات من البشر الذين يسكنون الأرض الآن كانوا سيعبدون ستة مليارات من الآلهة ، ولكان كل منا الآن يحمل صرصوراً في جيبه يسجد له عند كل شروق للشمس وعند كل غروب ، أليس الرجل الهندي صاحب الذيل الذي أصبح فجأة من الآلهة ونحن في القرن الحادي والعشرين يؤكد هذه النتيجة ؟

ليس من المبالغة أن نقول إن البشرية – بدون الأنبياء - كانت ستظل تعيش بأخلاق العصر الحجري إلى يومنا هذا ، وأننا جميعاً كنا سنصبح من آكلي لحوم البشر وخاصة الأطفال و اليتامى ، **هل هذه النتيجة تعجب الملحدين ؟**

٢- نبي الله لوط عليه السلام :

قصة لوط وابنتيه كما جاءت في العهد القديم تستحق كل ما ذكره د: ريتشارد من نقد لاذع، ولا أحد يلومه على كلمة واحدة مما قال.

لكن هذه القصة البشعة في الحقيقة لم تحدث ، فلوط لم يقدم بناته للقوم ليمارسوا معهن الفاحشة ، ليس هناك رسول من رسل الله عز وجل يفعل ذلك ، والرواية التي حكاها القرآن الكريم عن تلك الواقعة تتضمن قول لوط للقوم :

"قال يا قوم هؤلاء بناتي هنَّ أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد" سورة هود (٧٨)

جاء في جميع كتب تفسير القرآن الكريم أن لوطاً عليه السلام عرض عليهم الزواج من النساء المؤمنات وليس فقط من بنتيه باعتباره أباً للمؤمنين والمؤمنات، ولم يقدم أيّاً من النساء المؤمنات ولا واحدة من بناته لممارسة الزنى

فقد جاء في تفسير القرآن العظيم لابن كثير "قال مجاهد: لم يكنَّ بناته لكن كنَّ من أمَّته وكل نبي أبو أمَّته ، وقال ابن جرير: أمرهم أن يتزوجوا النساء ولم يعرض عليهم سفاحاً" وجاء في تفسير الطبري "عن قتادة قال: (هن أطهر لكم) قال: أمرهم لوط بتزويج النساء" وفيه أيضاً "حدثنا ابن وكيع عن سفيان عن ليث عن مجاهد قال: أمرهم أن يتزوجوا النساء" ولذلك قال لهم نبي الله لوط : "هن أطهر لكم" ولا تكون الطهارة إلا بالزواج، والمعنى نفسه تكرر في كل كتب التفسير الأخرى

أما تلك الواقعة البشعة التي جاءت في العهد القديم عن قيام ابنتي لوط بإعطائه الخمر ليشربها حتى يسكر ، ويتمكنا من ممارسة الزنى معه لكي يحملا وبذلك تتمكنان من الحفاظ على نسل لوط من الانقراض ، فهي واحدة من القصص القذرة الكثيرة التي حشرها الرهبان والحاخامات في كل أسفار الكتاب المقدس، والتي تشتمل على الزنى بشكل عام و زنى المحارم بشكل خاص لتلصق بالأنبياء وبجميع شخصيات العهد القديم اقتراف هذه الجرائم وشيوعها بينهم وذلك لتحقيق هدفين خبيثين :

الأول: هو زعزعة ثقة الناس بالأنبياء وصولاً إلى جعل مكانتهم هم أرفع قدراً من مكانة الأنبياء وذلك ليسهل عليهم تطويع هؤلاء الناس وانصياعهم لكل ما يأمرونهم به مهما كان غريباً وغير منطقي ، وخاصة الأوامر المتعلقة بدفع الصدقات والتبرع بالمال ، ولم يسلم حتى نبي الله موسى عليه السلام من اتهامهم له بالزنى مع إحدى العاهرات لولا أن الله عز وجل برأه و كشف مكرهم.

والثاني: هو جعل الناس يتقبلون جرائم الرهبان ورجال الدين مهما كان حجمها، لأن هؤلاء الرهبان يعلمون أنهم أبعد الناس عن الصلة بالله عز وجل، وآخر من يمكن وصفهم بالتقوى أو الصلاح، لذلك نسبوا الكثير من الممارسات الفاحشة والقذرة للأنبياء حتى إذا ما اكتشف الناس بعض جرائمهم قالوا لهم: هل نحن أفضل من الأنبياء؟ أليس الأنبياء سبقونا إلى ممارسة هذه الأفعال البشعة نفسها ومع ذلك ظلوا هم الصفوة عند الله؟

لقد آن الأوان لكي يرفع الظلم والافتراء الذي يملأ صفحات الكتاب المقدس عن أفضل ما أنتجت البشرية من رجال ، وهم الأنبياء والرسل الذين تحملوا في سبيل إنقاذ أقوامهم من الخرافات ومن تسلط أعدائهم عليهم كل أنواع الإيذاء والبطش و الإهانة ، بل والكثير منهم قتل بلا رحمة على أيدي هؤلاء الأعداء ، ثم لم يكن موقف أتباعهم من الرهبان والقساوسة بأقل بشاعة حين قذفوهم بكل أنواع الجرائم التي يتعفف أن يرتكبها الإنسان العادي الذي ليس في قلبه أي قدر من الإيمان بالله سبحانه وتعالى

لقد حدثنا القرآن الكريم عن نبي الله لوط عليه السلام فعرفناه رجلاً حكيماً صالحاً كريماً لم يبدر منه يوماً ولا من ابنتيه شيء مما ألحقه بهم الكتاب المقدس من مواقف مشينة، من ذلك قول الله تعالى في سورة الأنبياء (٧٤ – ٧٥)

"ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً و نجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ☼ وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين ☼ "

٣- نبي الله إبراهيم عليه السلام :

أكد مؤلف كتاب وهم الإله بنفسه عدم الوثوق بما نسب إلى إبراهيم عليه السلام من التهم غير الأخلاقية ، فبعد ذكر القصة المختلقة والكاذبة التي تنسب إليه التضحية بزوجته حين قدمها للفرعون على أنها أخته هرباً من الموت أو السجن ، وبعد ذكر قصة مشابهة عن إبراهيم أيضاً ولكن مع ابيليميخ ملك جيرار ، قال د: ريتشارد بالحرف الواحد: "أليس التشابه هذا مؤشراً على أن النص ليس مما يمكن الوثوق به؟"،

نعم النص مؤلف ومدسوس على التوراة ومكذوب على نبي الله إبراهيم عليه السلام، و د: ريتشارد يعترف بهذا ، ولكنه بالرغم من ذلك راح يبني على هذا النص الزائف صرحاً من الأدلة على أن إبراهيم عليه السلام ليس شخصاً جديراً بأن يكون قدوة بسبب تلك التصرفات المشينة، سيقول الملحدون إن مجرد ذكر القصة في كتاب يقدسه مليارا شخص كافٍ بحد ذاته في جعله مصدراً للشرور

نعم نتفق مع الملحدين في ذلك ، ومن قال إن الكتاب المقدس ليس مصدراً للشرور ، إن كل جرائم التطهير العرقي و هدم المنازل و تجريف الزراعات و التفرقة العنصرية وتشريد خمسة ملايين شخص التي حدثت وما زالت تحدث على أرض فلسطين سببها الكتاب المقدس ، لأن هناك فئة من الناس ما زالت تعيش في القرن الخامس قبل الميلاد و تريد أن تنفذ مذبحة أريحا في كل قرية من قرى الشعب الفلسطيني تقرباً إلى إله لا وجود له يعتقدون أنه يسكن في أحد جبال فلسطين

لكن التناقض الذي جاء في كتاب وهم الإله ، هو أنه بالرغم من أن الملحدين مقرّون بأن القصة مشكوك في صحتها ، إلا أنهم استناداً إليها نسبوا كل الصفات المشينة ليس بالكتاب المقدس ولا بالذين حرفوه ، و إنما بالدين كله ، وبالأنبياء جميعاً ، بدلاً من الدفاع عن شخص مظلوم تم تلفيق القصص القذرة و إلصاقها به

والقصة الثانية التي اعتبرها السيد ريتشارد جريمة في حق الأطفال هي قصة إقدامه على ذبح ولده إسماعيل أو إسحاق - الأمر عندنا لا يمثل أي فرق لأننا نؤمن بأن جميع الأنبياء هم صفوة البشر ولا نفرق بين أحد من الرسل

والقصة رواها القرآن الكريم مؤكداً أنها حدثت بالفعل وليست مجازاً ولكن بدون مذبح ولا نار ولا مراسم، لكن القصة الأخرى الخاصة بالقائد جيبثاه الذي شوى ابنته هي قصة كاذبة بلا أدنى شك ، بل هي من أوضح الأدلة على أن رجال الكنيسة الأوائل كانوا يطلقون العنان لخيالهم إلى أقصى حد وهم يؤلفون القصص التي أصبحت دون قصد "كتاباً مقدساً"

نعم لقد كان إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام مثالاً رائعاً للامتثال لأمر الله عز و جل في أعلى مستوياته ، وهذا هو أهم ما في هذه القصة من الدروس على الإطلاق، ونعم مرة أخرى فإن الله عز وجل يريد من الإنسان أن يمتثل لكل ما أمر به ، وأن ينتهي عن كل ما نهى عنه بكل ما تعني هذه العبارة من معنى، لكن هذه الطاعة وهذا الانصياع ليس له هدف يعود على الخالق الذي لا تنفعه طاعة الطائعين ولو كان كل خلقه من الأنبياء أو الملائكة ، ولا تضره معصية العاصين ولو كان جميع خلقه من الشياطين ، لكن الهدف الوحيد من هذه الطاعة المطلقة هي الإنسان نفسه

والآن سنناقش الأمر بتعقل أكثر وبصراحة أكبر :

لقد خلق الله عز و جل الإنسان بعدد من الغرائز الضرورية التي بدونها لن يستمر بقاؤه على الأرض أكثر من جيل واحد أو جيلين، أولها غريزة حب الحياة بشكلٍ طاغٍ لا يقبل التردد، و كل ما يؤدي إلى استمرار هذه الحياة فهو يمثل الدرجة القصوى من اهتمامات كل فرد منا، لكن لو ترك العنان لكل واحد منا لتحقيق الدرجة القصوى من غاياته فلن يستطيع ذلك إلا على حساب تحقيق الآخرين للدرجات القصوى من اهتماماتهم، لكن لأن ذلك مستحيل الحدوث لكل منا في الوقت نفسه فقد تطلب الأمر تدخلاً خارجيّاً، لأن كل شخص على وجه الأرض يشعر أنه أفضل من الآخرين وبالتالي يعطي لنفسه – أو لقبيلته – حقوقاً لا يرى أن الآخرين يستحقونها ، هتلر مثلاً قسم العالم إلى سبع وعشرين درجة جعل نفسه

وجنسه الآري في المقدمة وجعل اليهود في آخر القائمة باعتبارهم ما زالوا أقرب إلى القرود منهم إلى البشر، لذلك تطلب الأمر تدخلاً خارجيّاً لتحقيق أمرين:

الأول: هو إضاءة الضوء الأخضر، أي تحديد قدر محدد لكل منا يستطيع به تحقيق (بعض) متطلباته الهامة حتى تصبح المحصلة النهائية هي تحقيق المصلحة القصوى للجميع حتى يستمر بقاؤنا جميعاً بالدرجة نفسها من الأهمية وبالدرجة نفسها من إرضاء غريزة البقاء،

والثاني: هو إضاءة الضوء الأحمر، أي وضع الخطوط الحمراء الفاصلة بين حقوق كل منا بكل دقة و تحديد التدابير اللازمة التي تضمن عدم تجاوزها بهدف تحقيق أكبر قدر من الحماية لنا جميعاً،

ولعل أكبر مثال على ذلك هو ما يحدث عند إشارة المرور، فكل اتجاه يسمح له بالمرور يكون بالتأكيد ثمنه حرمان ثلاثة اتجاهات أخرى من المرور، وكما أن الغالبية من الناس لن يوقفوا سياراتهم إذا لم تكن هناك إشارة مرور حمراء ، فكذلك لن يستطيع أغلب الناس الوقوف أمام الغريزة الطاغية التي تلح عليهم في الحصول على حقوق الآخرين متخطين جميع الخطوط الحمراء بلا مبالاة مفرطة إلا إذا كان هناك ترغيب في الوقوف أمام هذه الغريزة وترهيب من تخطي الخطوط الحمراء

لهذا كانت هناك ضرورة ملحة لتدخل الخالق الذي خلق كل الناس ، والذي ينظر إلى الجميع نظرة محايدة كبشر لهم جميعاً الحقوق نفسها وعليهم جميعاً الواجبات نفسها من خلال تشريعات ثابتة لكل المجتمعات البشرية تضيء لهم الضوء الأخضر في الوقت المناسب لينالوا حقوقهم ، كما تضيء لهم الضوء الأحمر في الوقت المناسب أيضاً لينال الآخرون حقوقهم ، ويحصلوا هم على الحماية الكافية ، لقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم في قول الله تعالى لوصف اليهود والمسيحيين الذين أسلموا :

"الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون" (سورة الأعراف ١٥٧)

و لأن الله عز وجل يعلم ضعف الإنسان أمام الغريزة الطاغية فقد جعل هناك حوافز تشجعه على الوقوف أمامها عندما تريد تخطي الحدود غير المسموح بها ، وجعل هناك عقوبة في حالة تخطيها تلك الحدود ، وسوف يكون من العدل توقيع العقوبة لأن تخطي فرد منا هذه الحدود يعني بلا شك الاعتداء على حقوق أفراد آخرين أو وقوع ضرر عليهم.

ولكي يكون الأمر أكثر وضوحاً سنأخذ مثالاً واقعيّاً يحدث كل يوم في أماكن كثيرة من العالم ونسأل السؤال التالي :

لو أن هناك رجلاً يعمل في أحدى الجهات وكان من الفقراء الذين لديهم عدد كبير من الأبناء لا يستطيع أن يوفي احتياجاتهم الضرورية ، وفجأة سنحت له فرصة لتلقي رشوة بمبلغ ضخم يقارب المليون دولار من أحد الأشخاص دون أن ينطوي هذا الفعل على أي مخاطرة لاحتمال

اكتشاف أمره ، فكم هو عدد الناس الذين سيقفون أمام غريزتهم الطاغية ويرفضون أخذ المال تمسكاً بالمبادئ السامية والارتقاء الأخلاقي؟

دعونا نكن أكثر صراحة ، فبدون الخوف من عقوبة قانونية أو مراعاة لأوامر إلهية فإن نسبة واحد في الألف ستكون مبالغاً فيها مهما ادعى الملحدون غير ذلك ، والذي يجزم من الملحدين أو غيرهم بأنه هو هذا الواحد في الألف فهو في الحقيقة لا يعرف عن نفسه شيئاً لأنه لم يقع تحت الاختبار بشكل حقيقي ، لكن دعونا نفترض أن النسبة ترتفع إلى واحد بالمائة فهل المجتمع البشري الذي ٩٩% من أفراده مرتشون هو مجتمع جيد؟ ،

والآن إذا حاولنا النزول إلى أرض الواقع: فكم صفقة يتم عقدها كل يوم في جميع دول العالم ؟ نعلم جميعاً أن العدد يحسب بالملايين ، بدءاً من الصفقات التي لا تزيد على المائة دولار إلى الصفقات التي تقدر بمئات الملايين أو المليارات،

والآن: كم من هذه الصفقات يحدث فيها تلاعب بصورة أو بأخرى من أجل حجزها وتوجيهها إلى شخص أو جهة معينة بطرق خلفية مقابل منفعة خاصة لمصلحة القائمين بهذا التلاعب ؟ وإذا كان الشخص غير الأمين في كل جهة من هذه الجهات يضيع على المجتمع عشرة أضعاف وفي بعض الأحيان مائة ضعف المبلغ الذي تقاضاه ، فكم يكون حجم الخسارة التي تتحملها الدول والهيئات و الشركات على مستوى العالم بسبب هذا التلاعب؟ لا نكون مبالغين إن قلنا إن الرقم يزيد على الحجم الكلي للتجارة العالمية

وفي مثال آخر: كم هو عدد المحلات و المؤسسات التجارية التي تتعرض للابتزاز بسبب فرض العصابات المسلحة إتاوات مالية كبيرة عليها حتى في دول أوروبا و أمريكا ؟ وكم هو حجم الأموال التي تدفع لهذه العصابات ، وكم هو حجم الخسارة التي يخسرها البشر بسبب اللصوص و القتلة المأجورين وتجار المخدرات ، ثم كم هو حجم إنفاق حكومات كل الدول لمحاولة وقف هذه الجرائم أو تقليلها بهدف توفير الأمان للناس ؟

من أجل ذلك أصبح من الضروري تربية النفس الإنسانية على السمع والطاعة عندما يأمر الخالق عز وجل بأمر ما مهما كان هذا الأمر صعباً على النفس ، حتى إذا تعرضت لإغراء عنيف بالمال الحرام أو أي إغراء آخر لأخذ حقوق الآخرين كان من السهل عليها أن تنجح في تخطي هذا الإغراء بكل سهولة وبدون تردد، و وجود موقف يمثل القدوة للإنسان في طاعة الأمر الإلهي عندما يكون هذا الأمر صعباً على النفس يصبح نوعاً من التربية العملية يرتقي بالنفس الإنسانية إلى أعلى المستويات ، لتصبح قادرة على التوقف عن سلب حقوق الآخرين مهما كان الإغراء ضخماً.

من أجل ذلك أمر الله عز وجل إبراهيم بأمر غاية في الصعوبة لا تستطيع النفس البشرية العادية تنفيذه ، ليكون مثالاً لكل البشر على التسليم لأمر الله عز وجل مهما كان هذا التسليم صعباً على النفس ، ونجاح إبراهيم في هذا الاختبار يعطي للبشر أكبر قوة دافعة داخلية للتغلب على كل الإغراءات التي تدفعهم للسطو على حقوق الآخرين ، ولقد كان إمساك إبراهيم بالسكين ووضعها على رقبة إسماعيل كافياً للدلالة على نجاحه في الاختبار ، وعلى صدق امتثاله لأمر خالقه حتى وقلبه ينزف دماً على قتل ابنه بيده ، وكافياً من جهة أخرى لتوقف الاختبار لأن الله

عز وجل لا يحب إراقة الدماء كما يدعي الكتاب المقدس، فعندما ينجح الإنسان في اجتياز الاختبار لا تصبح هناك ضرورة للألم، لقد توقف الاختبار وتم إنقاذ إسماعيل – أو اسحاق – من الذبح لأن الغاية قد تحققت بأن أصبح للنفس البشرية قدوة حقيقية في رجل عظيم وابن لا يقل عنه عظمة ، لكي لا تنكسر هذه النفس أمام الإغراءات المحرمة مهما بلغ حجمها ، وليس الأمر كما جاء في كتاب وهم الإله من أن الإله كان يمزح

لو كان سكان مدينة مونتريال الذين تحدث عنهم د : ريتشارد والذين عاصروا إضراب الشرطة في تشرين الثاني عام ١٩٦٩ م تربوا على الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في طاعة أمر الله سبحانه وتعالى بعدم اغتصاب حقوق الآخرين لما تجاوز أحد منهم الخطوط الحمراء، ولما وقع حادث سرقة واحد ، إن الملحدين دائماً يرون الصورة السلبية التي تظهر فيها الأشياء البيضاء باللون الأسود والأشياء السوداء باللون الأبيض ، لذلك فهم يفسرون الأمور دائماً بشكل معاكس للحقيقة ، ولو فهموا الأمور على حقيقتها لعلموا أن غياب التوجيه الديني الصحيح هو الذي أدى لكل ما حدث في مدينة مونتريال في ذلك اليوم ،

إن الإيمان الحقيقي ليس هو الذهاب إلى الكنيسة كل يوم أحد وسماع نفس التراتيل التي تتلى على أنغام الموسيقى منذ قرون عن المخلص الذي يهب الخلاص والجنة لكل من آمن بأنه إله متجسد سلم نفسه للصلب من أجل تكفير ذنوب المؤمنين به مهما اقترفوا من سيئات، هذه **الرشوة الدينية الأزلية** و هذا التعليم السطحي يلغي ببساطة كل أثر تقويمي للدين في نفس الإنسان، لقد جاء الدين ليضع الإنسان أمام مسؤولياته بكل قوة، لا يوجد في الدين عفو عن ذنب إلا إذا تاب منه الإنسان ، وأول شروط التوبة هو رد الحقوق لأصحابها ، بل لقد جعل الله عز وجل غفرانه للذنوب التي في حقه هو كالتقصير في الصلاة والصيام أهون بكثير من غفرانه للذنوب المتعلقة بأخذ حق من حقوق الناس ، بل إنه سبحانه وتعالى جعل عفو المظلوم صاحب الحق عمّن أخذ حقه شرطاً لقبول الله لتوبة هذا المعتدي على حقوق الناس ، وقد أوردنا في الفصل السابق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«الدَّواوِينُ عِنْدَ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ثلاثةٌ: ديوانٌ لا يَعْبأ الله بِهِ شيئاً، وَدِيوانٌ لا يَتْرُكُ الله مِنْهُ شيئاً، وديوانٌ لا يَغْفِرُه الله، فأمّا الدِّيوانُ الذي لا يَغْفِرُهُ الله فالشِّرْكُ بالله، قالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: {إنه من يُشْرِكْ بالله فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الجَنَّةَ} (المائدة: ٧٢) وأمّا الدِّيوانُ الذي لا يَعْبَأ الله بِهِ شَيْئاً: فظُلْمُ العَبْدِ نَفْسَهُ فيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ مِنْ صَوْمِ يَوْمٍ تَرَكَهُ أوْ صلاةٍ، تَرَكَها، فإنَّ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يَغْفِرُ ذلكَ وَيَتَجاوَزُ إنْ شاءَ، وأمّا الدِّيوانُ الذي لا يتركُ الله مِنْهُ شيئاً: فظلمُ العِبادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، القصاصُ لا مَحالَةَ»[١].

وهذا توجيه واضح على أن جريمة اغتصاب حقوق الناس لا تمحى إلا بعد رد الحقوق لأصحابها، **وليس بمجرد الإيمان بمخلص أيّاً كانت صفاته وأيّاً كانت التضحية التي قدمها،**

لقد وضع الله عز وجل كل إنسان أمام مسؤولياته بكل قوة وبدون مجاملة لأحد ، حتى المسلمون الذين لا يوجد مؤمن بالله الواحد الأحد على وجه الأرض غيرهم ، لم يقبل منهم التواكل والاتكاء على إيمان نظري مستقر في قلوبهم ، فحين اجتمع نفر من اليهود و المسيحيين والمسلمين في

[١] - مسند الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة ،دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ٢٥٦٣١

المدينة في عصر نزول القرآن الكريم ، وأراد كل منهم أن يثبت أن طائفته هي الطائفة الأفضل عند الله عز وجل، جاء الرد في القرآن الكريم قويّاً وواضحاً بأن الأفضلية ليست بالأماني و الأحلام و إنما بالعمل الجاد الصالح ، قال الله تعالى :

"ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله وليّاً ولا نصيراً ☼ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً ☼" (سورة النساء ١٢٣ – ١٢٤)

إن الإيمان بوجود مخلص ضحى بحياته على الصليب من أجل غفران ذنوب البشر ، ومن أجل إسقاط كل الجرائم السابقة واللاحقة حتى عن البشر الذين لم يولدوا بعد ، ينسف مبدأ تحقيق العدالة من جذوره ، ويلغي كل أثر لوجود يوم للحساب يقف فيه الناس ليحاسبوا على كل ما فعلوه في حق الآخرين، وهذا بالضبط هو سبب كل الحوادث المأسوية أثناء إضراب الشرطة في مونتريال عام ١٩٦٩م، إن كل هؤلاء المسيحيين الذين سرقوا البنوك والمحال التجارية في ذلك اليوم لم يكن عندهم أدنى شك في أن المسيح عليه السلام مات من أجل محو ذنوبهم بما فيها تلك التي حدثت في ذلك اليوم.

قد يعترض على هذه النتيجة الكثير من رجال الدين المسيحي ويدافعون بقوة وحماس بأن المسيح عليه السلام حذر من اغتصاب حقوق الآخرين في موعظته الرائعة على الجبل، ونحن نؤمن بكل كلمة قالها المسيح عليه السلام في تحذير الناس من اغتصاب حقوق الآخرين ، لكن علينا أن نكون أكثر صراحة مع أنفسنا، فحين تغرس في نفس الطفل أنه نال الخلاص يقيناً على يد إله متجسد قتل نفسه على الصليب من أجل محو خطايا كل البشر ، فأنت تربي في داخله قناعة غير قابلة للشك بأنه آمن من المساءلة عن كل أفعاله مهما حاول القساوسة إقناعنا بغير ذلك ، فالقساوسة أنفسهم أصبحت جرائمهم المشينة تملأ وسائل الإعلام ، بل لقد فعل بعضهم ما يرفض أن يفعله الملحدون ، ومع ذلك لا يشكون لحظة في أنهم أول من سيدخل الجنة لأنهم بالطبع داخلون في خلاص الرب المصلوب من أجلهم.

لو كان الملحدون منصفين لأدركوا أن الإنسان حين يأخذ القدوة من إبراهيم عليه السلام ، ويأخذ قراراً بالتسليم لأمر الله عز وجل الذي حرم الاعتداء على شعرة من ممتلكات وحقوق الآخرين ، حينئذ يصبح قادراً على وقف النفس الأنانية الجامحة عند حدها حين تغيب سلطة القانون و يختفي رجال الشرطة

لو كان هذا هو نوع التوجيه الذي يتلقاه الناس في الغرب لرأينا مدينة مونتريال بشكل أرقى بكثير مما ظهرت عليه في يوم ١٧ من تشرين الثاني عام ١٩٦٩م ، وإذا قارنّا ما حدث في تلك المدينة بما حدث في أول مجتمع مسلم ظهر للوجود في المدينة المنورة في أوائل القرن السابع الميلادي حين أخذ هذا المجتمع القدوة من إبراهيم عليه السلام في التسليم لأمر الله عز وجل لعلمنا حجم الأثر الهائل الذي أحدثه القرآن الكريم بصفة عامة و قصة إبراهيم عليه السلام بصفة خاصة في قلوب ونفوس البشر في ذلك المجتمع المسلم ، فقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه – وهو الخليفة الثاني للدولة المسلمة – قوله : "وليت القضاء لأبي بكر عامين ما تخاصم إلي رجلان" وهذا يعني بكل وضوح أنه لم تحدث جريمة واحدة ولا حتى مجرد خصومة تستدعي الذهاب للقاضي في المدينة المنورة في ذلك الوقت لمدة عامين كاملين

لقد حدثنا القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام فوجدناه رجلاً فاضلاً و عظيماً على عكس ما ورد في العهد القديم الذي وصفه بأنه كان عربيداً شارباً للخمر

فقد قال الله تعالى **"إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " (النحل ١٢٠)** كما جاء في سورة هود قول الله تعالى **"إن إبراهيم لحليم أواه منيب"**، (٧٥) ، وجاء في سورة مريم **(واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيّاً)** ٤١ و هي أوصاف تثبت بدون شك براءة إبراهيم عليه السلام من كل التهم والمواقف المشينة الواردة في العهد القديم

٤- نبي الله موسى عليه السلام :

نستطيع التماس العذر ل د: ريتشارد على كل ما قال في حق نبي الله موسى عليه السلام استناداً لما قرأه عنه في العهد القديم

لكن الذي يجب أن يعلمه الملحدون أن الذين يؤمنون بأن الله الذي خلق الكون بكل ما فيه من مجرات ونجوم (يقوم كل ليلة باللعب مع الحوت ملك الأسماك و بتصفيف شعر حواء وأنه يولول ويمشي حافياً وعرياناً و يبكي على خراب الهيكل كل ليلة فتنزل منه دمعتان في المحيط تحدث بسببهما كل الزلازل على الأرض) – على حد ما جاء في كتبهم المقدسة كما أوضحنا في الفصول السابقة - هم الذين بعقليتهم الفذة هذه اخترعوا كل الافتراءات التي استشهد بها د: ريتشارد في هجومه على نبي الله موسى عليه السلام

إن كم الأمراض النفسية وعقد النقص المركب الذي اكتسبته الشخصية اليهودية بفعل سنوات السبي الطويلة ، و الاستعباد القاسي من قبل ملوك بابل في العراق والشام ، ومن قبل الفراعنة في مصر ، هو السبب المباشر في كل ما نراه من عجائب السادية المفرطة ، وروح الانتقام حتى من الأطفال و النساء و الحيوانات والطيور والأشجار، المرضى النفسيون هؤلاء هم الذين كتبوا ٩٧% من سطور العهد القديم ، فماذا يمكن أن يكون حال كتاب هؤلاء هم مؤلفوه ؟ لقد كان مؤلف وهم الإله محقاً في كل ما قال عن الكتاب المقدس فهو آخر كتاب على وجه الأرض يمكن أن يكون مصدراً للأخلاق الحسنة

إن كل ما ذكر عن موسى عليه السلام في العهد القديم هو محض افتراء ليس بينه وبين الحقيقة ما نسبته واحد في المائة ، فلقد حدثنا القرآن الكريم عن موسى فلم نجد شيئاً مما نسب إليه في العهد القديم من المواقف التي استدل بها د: ريتشارد على الإطلاق،

لم تحدث معركة بين اليهود وبين المديانيين ولا غيرهم على الإطلاق طوال حياة موسى عليه السلام، بل على العكس لقد أمرهم موسى أن يدخلوا مدينة القدس لتحريرها من أيدي الغزاة وعبدة الأحجار فرفضوا بشدة وتهكموا عليه وقالوا له **"يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون** " (سورة المائدة ٢٤) فحرّمها الله عز وجل عليهم و جعلهم يتيهون في الأرض لمدة أربعين سنة، ومات موسى عليه السلام ولم تحدث أي معركة

لم يأمر موسى عليه السلام يوماً بقتل طفل واحد ولا امرأة واحدة، ولم يأمر بحرق شجرة واحدة ولم يأمر بهدم حجر واحد فضلاً عن أن يأمر بهدم منزل أو جدار،

من ناحية أخرى ، فكل الجرائم البشعة والممارسات السادية التي دسها المرضى النفسيون هؤلاء في العهد القديم عن مذبحة أريحا وعن يوشع بن نون في سفر يوشع وكل الأكاذيب التي تحدثت عن سبعة شعوب أمرهم الرب بحرقها وسحق كل من فيها حتى لا تبقى منهم (نسمة حية) هي بالكامل من نسج خيالهم المريض ، ليستحلوا بها سفك الدماء واغتصاب الأموال والأراضي بزعم أن هذه هي إرادة الله، والله عز وجل منهم بريء

لقد حرم الله عز وجل في جميع الشرائع المنزلة على جميع الأنبياء قتل الأطفال والنساء والشيوخ و الرهبان في الحرب، لقد كانت الأوامر التي تعطى للجنود في جميع الحروب صريحة وقاطعة ، مثل وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه للجيوش المسلمة التي كانت متوجهة إلى بلاد الشام عام ٦٣٥م **"لا تقتلوا صغيراً ولا امرأة ولا شيخاً، وسوف تمرون على أقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، ولا تقطعوا شجرة ولا تذبحوا شاة إلا لمطعم"، إلى هذا الحد تحرم التوجيهات الدينية الصحيحة ليس فقط قتل المدنيين بل قتل الحيوان و قطع الأشجار سواء في شريعة موسى عليه السلام أو في غيرها من الشرائع**

لقد حدثنا القرآن الكريم عن موسى عليه السلام فوجدناه رجلاً عظيماً ورحيماً ، كما حدثنا عن شريعته فوجدناها من أكمل الشرائع وأعدلها لكن يد التحريف حولتها إلى نصوص عنصرية مدمرة ذاقت البشرية بسببها من الدمار ما لم تذقه بسبب أي شيء آخر

- قال تعالى عن موسى عليه السلام في سورة مريم

"واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبيّاً ٥١ وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيّاً ٥٢ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيّاً ٥٣" (مريم ٥١ – ٥٣)

- وميز الله سبحانه وتعالى موسى عن جميع الرسل بأن كلمه بدون واسطة، قال تعالى في سورة النساء (١٦٣ – ١٦٤)

"إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم و إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ١٦٣ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلّم الله موسى تكليماً ١٦٤"

- وبرأ الله عز وجل نبيه هارون من تهمة الكفر وصناعة العجل الذي عبده بنو إسرائيل ، وهي التهمة التي افتراها عليه الرهبان الذين حرفوا الكتاب المقدس ، والذين تعمدوا تشويه جميع الرسل والأنبياء كما ذكرنا من قبل، وقد بين القرآن الكريم أن هارون لم يصنع العجل ولم يرض عن الكفر الذي سار فيه بنو إسرائيل، قال تعالى في سورة طه (٩٠)

(ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري)

- كما أثنى الله عز وجل على موسى وهارون في سورة الصافات (١١٤ – ١٢١) بقوله تعالى:

(ولقد مننا على موسى وهارون ☼ ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ☼ ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ☼ وآتيناهما الكتاب المستبين ☼ وهديناهما الصراط المستقيم ☼ وتركنا عليهما في الآخرين ☼ سلام على موسى وهارون ☼ إنا كذلك نجزي المحسنين ☼"،

نعم لقد كان موسى عليه السلام رجلاً عظيماً يستحق أن يكون مثلاً يحتذى لجميع الأجيال، لقد وقف هذا الرسول الكريم بمفرده في وجه طاغية استعبد الناس حتى أنه أرغم شعبه على السجود له باعتباره إلهاً ، وكان يقول للناس **"أنا ربكم الأعلى"** وكان الشعب يتجرع الذل على أيدي جنوده صباح مساء ، وقد أضاف إلى ذلك أنه أمر جيشه بقتل كل طفل رضيع يولد من طائفة بني إسرائيل – التي كانت تعد بمئات الألوف - بسبب أنه رأى في النوم رؤيا فسرها له الكهنة بأن زوال ملكه سيكون على يد رجل من بني إسرائيل سيولد قريباً، ولنا أن نتصور حجم الفاجعة التي كانت تصيب مئات الآلاف من الأمهات اللاتي يقاسين آلام الحمل لتسعة أشهر ثم في لحظة خروج الجنين من بطنها وبمجرد ظهور أنه ذكر يؤخذ منها بكل عنف ويشق نصفين بلا رحمة ، ليتحول المشهد إلى مأتم فاجع يدور على بيوت بني إسرائيل بيتاً بيتاً ، ليس لمدة سنة أو سنتين ولكن ظل هذا الظلم مطبقاً على كل بيوت بني إسرائيل لأكثر من خمسين عاماً ،

وقد سجل القرآن الكريم تلك القصة وبين أن الغاية من إرسال موسى عليه السلام هي تحرير المستضعفين ، ورفع الظلم عنهم في قوله تعالى في سورة القصص (٤ – ٦)

"إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ٤ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ٥ ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ٦"

لقد ذهب موسى عليه السلام هو وأخوه هارون بأمر من الله عز وجل إلى ذلك الطاغية في قصره ووسط حاشيته و جنوده و حراسه المدججين بالسلاح ، ووقف أمامه بكل جرأة ليقول له: أنت لست إلهاً وعليك أن تذعن للإله الحق الذي خلق الكون وخلقك وأن تطلق سراح بني إسرائيل ، وبالطبع فقد استشاط الفرعون غضباً وقرر على الفور قتل موسى وجميع من معه ممن صدق برسالته ، ثم اتسعت دائرة انتقامه لتشمل جميع طائفة بني إسرائيل

إن هذا الموقف يشبه قيام رجل بدخول مقر الحزب الشيوعي في موسكو في النصف الأول من القرن الماضي ليقف أمام ستالين قائلاً له: أنت لست جديراً بزعامة الاتحاد السوفيتي لأنك في الحقيقة لا تزيد على كونك رجلاً جاهلاً لا يستطيع إدارة حظيرة خنازير، وبالطبع فإن ستالين الذي سفك دماء ملايين البشر الأبرياء لن يسمح لذلك الرجل حتى بالموت قبل أن يتلذذ بتقطيع جسده إلى قطع صغيرة و حرقها بيديه أمام جموع الشعب الذي كان يصفق له على أيّ شيء

لقد كانت مهمة موسى عليه السلام في الواقع **مهمة انتحارية** بكل المقاييس ، وبالرغم من ذلك لم يتراجع ، ولقد نجح في النهاية بتأييد من الله عز وجل في تحرير الشعب المقهور والقضاء على الطاغية وجيشه الضخم قضاءً مبرماً ، بل وتحويل جماعات المقهورين هؤلاء إلى أمة كبيرة استحقت في بداية عهدها أن يفضلها الله عز وجل على سائر الأمم كما أكد ذلك قوله تعالى في القرآن الكريم في سورة الجاثية

(ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين) (الجاثية ١٦)

لكنهم لما خالفوا تعاليم دينهم وقدسوا رهبانهم ، وحرفوا توراتهم ، وحشوها بالكثير من النصوص البشعة التي أساءت إلى الأنبياء بل وإلى الخالق عز وجل ، استحقوا أن يزول عنهم هذا التفضيل و أن تحل اللعنة مكانه – لأن الله عز وجل لا يحابي أحداً – و قد أخبرنا بذلك في القرآن الكريم في سورة المائدة في قوله تعالى:

"لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون" (٧٨)

لو كان فلاسفة الإلحاد منصفين لاستطاعت عيونهم أن ترى الأمور على حقيقتها ، فحجم الذل و القهر والظلم الناتج عن أبشع صور التفرقة العنصرية و التمييز العرقي الذي كان يعانيه هؤلاء المستضعفون في مصر كان يفوق بكثير القهر والظلم الذي كان يعانيه الناس في **روسيا القيصرية** التي لم يكن ملكها يأمر الناس بعبادته ، ولم يكن يقتل كل مولود بلا أدنى رحمة خوفاً على ملكه ، ومع ذلك يرفع الملحدون من شأن الثورة الشيوعية إلى عنان السماء لقيامها بتخليص الناس من ظلم القيصر ، وفي الوقت نفسه يصفون موسى عليه السلام بأنه لا يستحق أن يكون قدوة ، مع علمهم بأن الذين اشتركوا في إزاحة القيصر كانوا بالملايين، لكن موسى عليه السلام فعل ذلك بمفرده ، أليس هذا كافياً لجعل هذا الرسول العظيم أعظم من جميع الزعماء الذين ناضلوا ضد الديكتاتورية و العنصرية في عصرنا الحديث والذين ننظر جميعاً لهم بنظرة إعجاب حتى أننا منحناهم جائزة نوبل ؟

٥- نبي الله داود عليه السلام :

لقد كان نصيب داود عليه السلام من الافتراء عليه والتجريح نصيباً وافراً ، تمثل في ثلاث جرائم مخلة بالشرف تستحق كل منها منفردة حكماً بالإعدام بلا شفقة، فمن خلال قصة أوريا الحثي التي نسجها خيال راهب مريض نفسيّاً ، يتحول نبي كريم من أنبياء الله الصالحين كانت حياته مثلاً يحتذى في مكارم الأخلاق والتقوى والصلاح إلى مجرم من عتاة الإجرام ، وخائن لوطنه ، ومراهق أهوج تسوقه شهواته إلى الاعتداء على كل حرمات الله عز وجل ، غير عابئ بيوم الحساب الذي سوف يتم فيه القصاص العادل من المجرمين على رؤوس الأشهاد

إن القصة التي تنسب إلى داود عليه السلام أنه لما رأى زوجة أحد جنوده ويدعى أوريا الحثي من فوق داره تستحم قام بممارسة الزنى معها أثناء وجود أوريا في ميدان القتال ، وأنه لما علم أنها حملت منه قام بالتآمر على قتل زوجها بأن أمر قادة الجند بأن يرسلوه إلى مقدمة الصفوف حتى إذا التحم الجيشان أمروا الجنود بالتراجع حتى يتركوا أوريا بمفرده لجيش العدو فيموت في الحرب، ثم تنسب القصة إليه أنه لما جاءه نبأ موت أوريا قام بضم زوجته إلى حريمه اللاتي يقدر عددهن بتسع وتسعين ، هذه القصة هي من دلائل تحريف الكتاب المقدس و حشر الكثير من افتراءات الرهبان على رسل وأنبياء الله فيه

لقد أخبرنا الله عز وجل في القرآن الكريم عن داود عليه السلام فوجدناه نبيّاً كريماً لم يبدر منه يوماً شيء مما جاء في العهد القديم، قال تعالى في سورة ص مخاطباً رسوله محمداً ﷺ

"اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب " (سورة ص ١٧)

ثم يأتي في السورة نفسها وبعد هذه الآيات مباشرة ذكر تلك الواقعة التي ضخّمها الرهبان ونسجوا منها قصة جريمة مكتملة الأركان ضد داود عليه السلام وقد كانت الواقعة كما حكاها القرآن الكريم في سورة الأنبياء على النحو التالي :

"وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ☼ إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ☼ إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ☼ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ☼ فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ☼ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ☼ " (سورة ص ٢١ – ٢٦)

لقد دخل على داود عليه السلام رجلان يحتكمان إليه، فادعى الأول أن أخاه عنده تسع وتسعون نعجة وهو لا يملك إلا نعجة واحدة فطلبها منه بشيء من الغلظة وربما حاول أخذها منه بالإكراه ، فأسرع داود عليه السلام بالحكم في القضية قبل سماع دفاع الرجل الآخر بدافع من العاطفة التي تنكر الظلم الكبير الذي اشتملت عليه الدعوى، وكان النطق بالحكم قبل سماع الطرف الآخر هو الخطأ الكبير الذي وقع فيه داود عليه السلام ، والذي استوجب العتاب الوارد بعد ذلك في الآيات **"يا دوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله"**،

جاء في تفسير هذه الآية في كتاب تفسير القرآن العظيم لابن كثير رحمه الله ما يلي:**" قد ذكر المفسرون ها هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب إتباعه"**[1]

إن قول الله تعالى "فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى" يدل دلالة واضحة على أن الخطأ الذي وقع فيه داود هو الحكم بين المتخاصمين بالهوى **مندفعاً بعاطفته** التي مالت إلى جهة المدعي لبشاعة الجرم الذي ادعاه قبل أن **يحكم العقل** ويستمع إلى الطرف الآخر، وهذا درس من أعظم الدروس التي يجب أن يتعلمها القضاة في كل العصور،

وقد تعلمنا منذ الصغر قول الصحابي الجليل عبد الله بن عباس **"لو أتاني رجل يحمل عينه في يده وقال لي: إن فلاناً صفى لي عيني ما حكمت له حتى أسمع من خصمه لئلا يكون قد فقأ لخصمه كلتا عينيه"**،

هذا ما تعلمه المسلمون من قصة داود عليه السلام ، إن القضاة تعرض عليهم في كل يوم وفي كل بلدان العالم دعاوى مليئة بالقصص المروعة، وقد يكون فيها الكثير مما هو منسوب للخصوم بغير حق ، وقد يكون المدعي هو المجرم الذي يستحق العقاب ، والواجب على كل

---

[1] - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ، المكتبة العصرية – صيدا بيروت ١٩٩٥م ، المجلد الرابع صفحة ٢٨ سطر ٢٠

قضاة الدنيا ألا ينساقوا خلف عواطفهم التي تتأثر بسرعة ببشاعة ما يذكره المدعي ، وأن يتيحوا الفرصة كاملة للمدعى عليه لكي يظهر دفاعه الكامل ، وبدون ذلك فإن حكمهم سيكون بدون أدنى شك حكماً ظالماً مهما تمتع القاضي بالنزاهة والأخلاق الحميدة

٦- نبي الله سليمان عليه السلام:

لم يسلم هذا النبي الكريم من افتراءات رهبان بني إسرائيل، فقد نسبت إليه أيدي التحريف أنه كفر وعبد الآلهة المنحوتة من الحجارة، بل قام بنشر عبادة هذه الأصنام ببناء المعابد التي يتجمع فيها الناس للصلاة لهذه الآلهة،

والحق أن سليمان عليه **السلام لم يكفر بالله عز وجل ولم يسجد لصنم ولا لدقيقة واحدة طوال حياته**، بل على العكس لقد جاب الأرض من أقصاها إلى أدناها محارباً كل أشكال الكفر و كل أنواع الخرافات المتعلقة بعبادة الآلهة المزورة، لقد برأ الله عز وجل سليمان في القرآن الكريم من كل التهم المنسوبة إليه في العهد القديم حيث قال تعالى في سورة البقرة (١٠٢) حكاية عن بني إسرائيل : **"واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا "** .

ولقد أخبرنا الله عز وجل عن سليمان في القرآن الكريم فوجدناه من أعظم الأنبياء الذين جمع الله لهم النبوة والملك معاً ، فكان بحق مثالاً يحتذى في نشر الخير وإقامة العدل بين الناس ، قال تعالى في سورة النمل (١٥) :

"ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين"

وقال تعالى في سورة الأنبياء (٧٨ – ٧٩)

(و داود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ☼ ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين)

والآن : ولكي نثبت صحة ما قلناه بشأن تحريف التوراة وبشأن عدم الوثوق بأي شيء مما جاء في العهد القديم من قصص وهمية شوهت كل الأنبياء ، فسوف نذكر بعض ما جاء في كتاب **"تاريخ نقد العهد القديم"** للكاتب اليهودي زالمان شازار ، حتى يعلم ضحايا الكتاب المقدس من الملحدين أن كل الأدلة التي أقاموا عليها نظرياتهم لم تكن سوى سراب خادع لا يصلح أن تقوم عليه أي حجة :

- تحت عنوان "التفسير في العهد القديم" في الفصل الخاص ب"نقد الموروث" ورد ما يلي:

"وهناك إشارات نقدية أولية داخل مادة العهد القديم الموجودة حاليّاً، وأول هذه الإشارات في التوراة "مفتقد إثم الآباء في الأبناء وأبناء الأبناء في الجيل الثالث والجيل الرابع" (الخروج ٣٤ : ٧)، ثم أعلن حزقيال "ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل ، وأنتم تقولون لماذا لا يحمل الابن من إثم أبيه ، بر البار يكون عليه وشر الشرير عليه يكون" (حزقيال ١٨ : ٢ و ١٩ – ٢٠) وتنبأ النبي إرميا قائلاً:"إني عند تمام سبعين سنة لبابل أتعهدكم وأقيم لكم كلامي

الصالح بردكم إلى هذا الموضع" (إرميا ٢٩ : ١٠) ثم أعلن دانيال "سبعون أسبوعاً قضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا" (دانيال ٩ : ٢٤)[١]

وقد عقب مؤلف الكتاب بعد ذلك بقوله: "وأدرك باحثو العهد القديم من التلموديين أثر هذا النقد وأشاروا إلى أنه **:"يوجد أحياناً نصان متناقضان فيأتي النص الثالث ويحسم هذا التناقض بينهما"**

أليس هذا يؤكد أن هذه النصوص المتناقضة **ليست وحياً إلهيّاً** وإنما هي من تأليف رجال مختلفين في الفكر والمصادر وحتى الزمن الذي عاشوا فيه؟

- و في الكتاب نفسه و تحت عنوان "تقسيم الأسفار وتثبيتها" ورد ما يلي:

"بعد أن انتهى تأليف العهد القديم وحان وقت جمعه وتدوينه لم يستطع مثبتو العهد القديم إتمام عملهم حتى يضعوا أسس هذا البناء و يخضعوه لوجهة نظر روحية واحدة، ويتمثل هذا الإدراك الواضح والعميق للذين ثبتوا العهد القديم في وحدة الألوهية السائدة في الأسفار الأربعة والعشرين، **وعلى الرغم من ذلك فهم لم يهملوا التغاضي عن المتناقضات المختلفة بين الأسفار** ولم يتحولوا عن رأيهم ورأي الجمهور، لذلك كان من الضروري القيام بعمل روحي كبير لتثبيت النصوص في موضعها وإبراز وحدتها **وشموليتها إلى حد التعتيم على الأنماط الخاصة لكل واحد منها**، وتمثل روايات التلمود عن "أرادوا الإخفاء ولم يخفوا" شاهداً على الصراعات التي واجهها مثبتو العهد القديم مع المادة المقدسة السابقة عليهم ، فحسب رواية التلمود تعرضت أسفار حزقيال ونشيد الأناشيد **والجامعة لخطر الإخفاء**، وها هي الأسفار الخفية ذاتها تمثل **شواهد على حدوث** ذلك ، وكما ورد في (شبات ١٢ : ٢) "لا تنس الرجل الطيب حنانيا بن حزقيا بن جرون والذي لولاه لاختفى سفر حزقيال **لأن أقواله تناقض أقوال التوراة** ،، فماذا عملوا؟ لقد قدموا له ثلاث مائة جرة سمن وجلس في العلية ووعظهم"، إن فضل حنانيا يبدو في الكشف عن آراء الفرق وعمل جامعي العهد **القديم وسبل التغلب على التناقضات العديدة بين الأسفار"**[٢]

- وتحت عنوان **"تداخل أقوال الأنبياء"** ذكر المؤلف ما يلي :

" وبحثوا في سفر ناحوم ووجدوا أن **العبارة الثانية من الإصحاح الأول لا تتناسب مع الفقرة الثالثة من الإصحاح نفسه** ، ولذلك أشاروا بأنه يوجد تداخل في الأقوال **وأن من قال هذا لم يقل تلك** (توسفنا زوطة ٩)، واختلفت الآراء بشأن مؤلف سفر ملاخي فهناك من يقول أنه مردخاي وهناك من يقول أنه عزرا (مجيلا ١٥ : ١) وقد أدرك العديد من باحثي العهد القديم التلموديين وأعربوا أكثر من مرة أن سفر المزامير **مركب من مزامير مختلفة تعود إلى فترات متعددة ولا يمكن أن يكون داود قائلها"**[٣]

وتعليقاً على الفقرات السابقة نتساءل : أليس العنوان الذي اختاره المؤلف "مؤلفو العهد القديم" دليلاً واضحاً على أن العهد القديم هو كتاب **من تأليف بشر** امتد تعاقبهم على مدى أكثر من

---

[١] - زالمان شازار، تاريخ نقد العهد القديم ، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠، ترجمة أحمد محمود هويدي، صفحة ٢١
[٢] - المرجع نفسه ، صفحة ٢٢
[٣] - المرجع نفسه صفحة ٣٣

تسعة قرون كاملة ؟ وحتى هؤلاء البشر الذين ينسب كل سفر من الأسفار إلى واحد منهم لا يعرف على وجه اليقين إن كان هو كاتب السفر أم لا ؟ وإذا كان أصل التوراة الحقيقية قد فقد منذ القرن الأول للديانة اليهودية ، وكانت كل الكتابات المقدسة المنسوبة لأشخاص ليس هناك اتفاق عليهم تم تناقلها شفويّاً لمدة خمسة قرون كاملة، ولم يتم تدوينها إلا على يد النبي عزرا ثم استمر تنقيح هذه الكتابات من جيل إلى جيل عبر كل الأجيال التي تعاقبت خلال هذه القرون التسعة فهل يمكن أن تكون هناك نسبة ولو واحد في المائة للوثوق بهذه الكتابات أو بتصديق أنها تعبر عن وحي إلهي وبالتالي تؤخذ كأساس يبنى عليه دليل للطعن في الأنبياء وفي الدين بصفة عامة؟

- وتحت عنوان "الأسلوب" ذكر المؤلف : "وعلاوة على ذلك فقد كان منهم من أدرك بأنه **دمجت في مادة التوراة بعض الأساطير والأناشيد القديمة جدّاً ، والتي يسبق زمنها زمن أي سفر من الأسفار المقدسة، وأنها كانت منتشرة بين بني إسرائيل قبل ذلك** --- وترد في مدراش رابا (الخروج ٥ : ٢٦) **الأسطورة التالية:** "هكذا قال موسى أمام يهوه سبحانه وتعالى: تلقيت سفر التكوين وقرأت فيه ورأيت أعمال جيل الطوفان ،، وأعمال جيل بلبلة الألسن ،، وسدوم" ويقال في موضع آخر وبتفصيل أكثر: "يفهم من هذا أنه كان في أيديهم (إسرائيل في مصر) لفائف أعجبوا بها" (مدراش رابا الخروج ٥ : ٢٢) وفيما يتعلق بالأنشودة الشعبية القديمة "ارتحال التابوت" أدركوا بالفعل **أنها تأليف قائم بذاته وموضوعة في موضع غير مناسب، وقالوا عنها بالتفصيل "ليس هذا موقعها (شبات ١١٦ : ٢)، ويقول الربي شمعون بن جمليل: "مستقبلاً يحذف هذا القسم من هنا ويوضع في موضعه"، وقيل بشكل أكثر دقة في يوما (٧١ : ١) "يحذف كل هذا القسم"** [١]

والآن هل يريد فلاسفة الإلحاد اعترافاً أوضح من هذا على أن العهد القديم احتوى على "الأساطير" وأن الفاتيكان حين أعلن في المجمع المسكوني الثاني عام ١٩٦٥ أن العهد القديم يحتوي على بعض الشوائب وشيء من البطلان كان يعتمد في ذلك على أقوال صريحة من علماء الدين اليهودي أنفسهم؟

- وتحت عنوان "التناقضات داخل التوراة" ذكر المؤلف ما يلي:

"-- وعلاوة على **ذلك أدركوا التكرار والتناقض السائد بين مصدر سفر التثنية ومصادر التوراة الأخرى،** فيرد في سفر التثنية (١٦ : ٨) "ستة أيام تأكل فطيراً" أما في سفر الخروج (٢٣ : ١٥) فيرد "سبعة أيام تأكل فطيراً" **فكيف يكون ذلك؟** -- ويرد في سفر التثنية (١٠ : ٦) ما يلي "وبنو إسرائيل ارتحلوا من آبار بني يعقان إلى موسير، هناك مات هارون" **فكيف مات هناك؟ وقد مات في جبل هور** حيث يرد في سفر العدد (٣٣ : ٣٨) "فصعد هارون الكاهن إلى جبل هور حسب قول الرب ومات هناك" (التلمود الأورشليمي يوما ١ : الفصل ٥ الفقرة ٣١)[٢]

- وتحت عنوان "التناقضات بين أسفار الأنبياء الأوائل وأخبار الأيام جاء ما يلي: "**إن التناقضات العديدة التي بين سفري أخبار الأيام وأسفار الأنبياء الأوائل لم تكن مجهولة في رؤية مفسري العهد القديم التلموديين،** وهكذا يسأل المجادل في التسوفتا (زوطة ١٢) بهذا

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ٣٥
[٢] - المرجع نفسه صفحة ٣٥ و ٣٦

الأسلوب "يقال في سفر أخبار الأيام الثاني (١٦ : ١) :في السنة السادسة والثلاثين لملك آسا صعد بعشا ملك إسرائيل على يهوذا وبنى الرامة، **فكيف يكون هذا القول هنا، أولم يكن آسا قد دفن بعشا في السنة السادسة والعشرين؟** حيث يرد في سفر الملوك الأول (١٦ : ٨): وفي السنة السادسة والعشرين لآسا ملك يهوذا ملك أيلة بن بعشا على إسرائيل؟ ثم يضيف متسائلاً: يقال في سفر الملوك الثاني (٨ : ١٧): "كان (يهورام) ابن اثنين وثلاثين سنة حين ملك، وملك ثماني سنين في أورشليم"، ويرد في أخبار الأيام الثاني (٢٢ : ٢) "كان أخزيا (ابنه) ابن اثنين و أربعين سنة حين ملك، وملك سنة واحدة في أورشليم" وهكذا، **فكيف يكون الابن أكبر من أبيه بسنتين؟** (زوطة : ١٢)"[١]

- وتحت عنوان "وثيقة تاريخية أم تأليف أدبي": كتب المؤلف

"إن هذه التناقضات التي قدمها بعض باحثي العهد القديم التلموديين تؤدي إلى رأي عام هو: أنه بقيت داخل الكتابات المقدسة روايات يجب أن تعالج بحذر، لأنها على أساس المنطق الصحيح من المستحيل أن تكون صريحة في كل تفاصيلها --- ليس هذا فحسب بل إن بعضهم افترض أن النسخة الموجودة لدينا **بها أخطاء كثيرة وسمحوا لأنفسهم عند الضرورة بتعديل النصوص--- وسمحوا لأنفسهم في بعض الأحيان بإلقاء الشك حول القيمة التاريخية في أي سفر من أسفار العهد القديم أو أي رواية تاريخية** فيها --- **ويكرر ويقول أن داود لم يكن ولم يخلق بل إنه كان مثلاً "**[٢]

- وتحت عنوان "التفسير الرمزي" ذكر المؤلف ما يلي:

"وقد أدركوا وجود ثغرات عديدة داخل العهد القديم الموجود عندنا، وقد توصلوا إلى هذه الثغرات ولكنهم كانوا يعملون على إخفائها، وإيجاد مبرر لذلك"[٣]

- و تحت عنوان "واضعو التشكيل" ذكر المؤلف ما يلي:

"وقد رأوا في أكثر من ألف وثلاثمائة عبارة من عبارات العهد القديم ضرورة تغيير النص المسلم به --- وإذا أمعنا النظر في قائمة التغييرات الموجودة بين نص الماسورا وبين نسخة النصوص كما هي محفوظة في الأدب التلمودي والترجوميم **نجد أن عدد هذه التغييرات يزيد على الآلاف، وحدثت هذه التغييرات في إبدال الحروف والنبر والأسماء، بل وإبدال عبارات كاملة تغير قصد النصوص وهكذا يمكن إدراك كم كان كبيراً العمل الذي أدخل في هذا البناء الشامل"**[٤]

وعلينا الانتباه هنا إلى العبارة الأخيرة التي تؤكد بوضوح – بشهادة اليهود أنفسهم - أن التغيير في التوراة على يد الرهبان لم يكن فقط في بعض الحروف أو الكلمات **ولكنه شمل عبارات كاملة تغير قصد النص، و أن هذه التغييرات لم تكن محدودة وإنما كانت تمثل عملاً كبيراً** ، فماذا يمكن أن يكون التحريف غير ذلك؟

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ٣٧
[٢] المرجع نفسه صفحة ٣٧ – ٣٩ بتصرف
[٣] - المرجع نفسه صفحة ٣٩ – ٤٠ بتصرف.
[٤] - المرجع نفسه صفحة ٤٤.

- وتحت عنوان "دفاع الربي سعديا جاؤون" جاء ما يلي :

"وعلاوة على ذلك **اكتشف العديد من الارتباك في التأريخ والتكرار والتناقض في أسفار التوراة** كما في الرواية الخاصة بالطوفان وفي قصة الجواسيس وغيرهما، وورد في سفر التكوين عن يهوذا أنه وقت بيع يوسف قد هبط آنذاك عند رجل عدلامي واتخذ له زوجة، وولد له عير، وبعد ذلك ولد أونان، واتخذ عير ثامار زوجة له ، ثم مات عير ثم مات أونان وترملت زوجته "ومرت السنون" وانصاع يهوذا لثامار فتزوجها وولدت له فارص ، وولد فارص حصرون وحامول، **وحدث كل ذلك في غضون "اثنتين وعشرين سنة** منذ بيع يوسف وحتى هبوط يعقوب وبنيه مصر" (التكوين ٣٨ والتكوين ٤٦ : ١٢) كما تسرد التوراة تسع مرات عن الشعوب التي يطردها يهوه من أمام إسرائيل في أرض كنعان "وفي ذلك اليوم (عهد الأشلاء) أقسم أن يعطيه **عشر أمم** إرثاً، كيف ذلك وفي خمسة مواضع قال **ست أمم** وفي موضع **قال خمس أمم** وفي موضع آخر قال **ثلاث** وأضاف **موسى سبع أمم** (التكوين ١٥ : ٨ ، ٣ : ١٧ ، العدد ١٣ : ١٩ ، الخروج ٢٣ : ٢٨ ، التثنية ٧ : ٢) **ولم تكن أقوال الروايات هي التي تدحض بعضها بعضاً فقط بل أيضاً نصوص الأحكام والقانون"**[1]

نكتفي بهذا القدر من فقرات الكتاب الذي حوى في كل صفحة من صفحاته دليلاً على تحريف العهد القديم ،

لكن العجيب أن الغالبية العظمى من المسيحيين لا يريدون أن يعترفوا بذلك ، ويصرون على أن العهد القديم هو كلمة الله ،

والآن هل تيقن د: ريتشارد أن كل ما استدل به من نصوص العهد القديم عن نبي الله إبراهيم و لوط و داود وموسى و كذلك عن موقعة "أريحا" وعن الشعوب التي أعطاها لهم إلههم والتي لا يعرفون بالتحديد هل هم عشرة شعوب أم سبعة أم ستة أم ثلاثة وأمرهم أن يبيدوهم من الأرض ليحتلوا أرضهم ويغتصبوا أموالهم كل ذلك لا يمكن الوثوق به طبقاً لتصريحات علماء الدين اليهود أنفسهم؟

مما سبق يتضح جليّاً أن كل ما جاء في العهد القديم من قصص سيئة ووقائع مشينة منسوبة للأنبياء لا يمكن أن تكون أساساً لأي دليل صحيح يمكن الاستدلال به على أي نظرية أخلاقية أو دينية ، وأن استدلال د: ريتشارد بهذه الوقائع على عدم إمكانية أخذ الأخلاق من الدين أو بعبارة أخرى أننا لسنا بحاجة للدين لكي نكون على درجة عالية من الأخلاق هو استدلال غير صحيح ، وسوف نثبت بالدليل العملي في الفصل القادم خطأ نظرية د: ريتشارد، ولكن يجب علينا أن نفرق بين نقطتين هامتين:

الأولى: وهي أن د: ريتشارد كان محقاً في عدم أهلية العهد القديم لأخذ الأخلاق الحسنة منه نظراً لاحتوائه على كل ما ساقه من وقائع مشينة،

النقطة الثانية: أن د: ريتشارد أخطأ حين فهم أن كل تلك الوقائع المختلقة تمثل الدين الحق وتعبر عن الأنبياء المرسلين من قبل خالق الكون سبحانه وتعالى ، فالحقيقة هي أن وقائع

[1] - المرجع نفسه صفحة ٥٠ و ٥١.

وقصص العهد القديم كما أوضحنا منذ قليل لا تمت بأي صلة للدين الحق الذي أنزله الله عز وجل على موسى ، وبالتالي فإن استدلال د: ريتشارد بها وتعميم النتائج التي توصل إليها على الدين كله **هو خطأ فادح** يؤدي بالإنسان إلى الانحراف عن الصواب والبعد عن الحقيقة بمسافات تشبه المسافات بين النجوم.

ثانياً العهد الجديد : نبي الله عيسى عليه السلام:

ما زالت استشهادات د: ريتشارد من الكتاب المقدس تتوالى في محاولة لإثبات أن الكتب السماوية و كذلك الأنبياء ليسوا مؤهلين لأخذ القدوة الأخلاقية منهم ، وما زالت كل تلك الاستشهادات تتضافر لتؤكد الحقيقة التي نحاول توضيحها بكل الطرق، وهي حقيقة عدم أهلية النصوص التي تم تحريفها أو حشرها في التوراة والإنجيل الحقيقيين لأن يقوم عليها أي دليل صحيح، وعدم صلاحيتها لبناء أي نظرية أخلاقية أو عقائدية عليها

فلم يكن المسيح عليه السلام أبداً عاقـّا لأمه ولا للحظة واحدة طوال حياته ، ولقد أثبت القرآن الكريم براءته من هذه التهمة بكل وضوح في سورة مريم (٣٠ – ٣٣) في قوله تعالى عنه :

"قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً ☼ وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً ☼ وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيّاً ☼والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً ☼"

ولم يأمر المسيح عليه السلام أحداً من الناس في أي يوم من أيام حياته أن يبغض أباه أو أمه أو أي واحد من أقربائه من أجل أن يكون مؤهلاً للدخول في دينه ، ولم يشجع أحداً على أن يبغض نفسه ويلتحق بفئات المرضى النفسيين من أجل الإيمان به، كل هذا من وضع الأيدي الآثمة التي قال الله عز وجل عنها في سورة البقرة (٧٩)

"فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون"

والآن وصلنا إلى كلام د: ريتشارد عن قصة صلب المسيح من أجل غفران الذنب الموروث أو الخطيئة الأزلية ، وقد تحدثنا عن بطلان كل ما يتعلق بهذا المفهوم في الفصل الثالث ، لكن لأن ما جاء في كتاب وهم الإله يوضح حجم الجريمة التي ارتكبها محرفو الأناجيل في حق الله عز وجل أولاً ، ثم في حق المسيح عليه السلام ثانياً ، نورد بعض الأدلة التي لا تقبل الشك على تحريف الإنجيل حتى يتثبت فلاسفة الإلحاد أنهم أقاموا جميع أدلتهم على خرافات لا تمت للدين الحق الذي جاء به جميع الرسل ومنهم المسيح عليه السلام بأي صلة

وسوف نتناول الأمر من جهتين: **الأولى** هي توضيح حقيقة اقتباس مؤسسي الديانة المسيحية الأوائل العقائد الوثنية من مفاهيم الأمم المحيطة بهم ودمجها في شخصية المسيح عليه السلام، **والجهة الثانية:** هي إثبات التناقضات الصارخة الخاصة بقصة الصلب والموت والقيامة

الموجودة في العهد الجديد والتي تؤكد بلا أدنى شك أنها **قصص مخترعة** ليس لها أي صلة بالسيد المسيح ، كما تؤكد حدوث التحريف في كل أصول العقيدة التي جاء بها عليه السلام

أولاً: اقتباس العقائد الوثنية :

١- **عقيدة الإله المتجسد – وابن الإله – والمخلص – وأم الإله أو أم الرب**
أدى قصر فترة الرسالة التي بشر بها المسيح عليه السلام – والتي تبلغ عاماً واحداً حسب إنجيل متى و لوقا و مرقس وعامين حسب إنجيل يوحنا – إلى سرعة تحريف العقيدة الأساسية التي جاء بها – وهي عقيدة توحيد الله الخالق عز وجل ودحض كل الخرافات المتعلقة بتقديس ما سواه من الأصنام أو البشر – وكذلك سرعة العودة إلى العقائد الوثنية التي كانت منتشرة بقوة في أنحاء الدولة الرومانية التي كانت تسيطر على كل بلدان المنطقة التي نشأت فيها المسيحية وترعرعت ، سواء في فلسطين و الشام أو في أوربا الشرقية
فقد كانت المقاطعات الرومانية في الوقت الذي ظهر فيه المسيح عليه السلام تقدس الإمبراطور وتعتقد أنه **"إله متجلٍ"** و أنه **"المخلص"** وأنه **"إبن الإله"** وأحياناً **" ابن الإلهة"** ويتوجهون بالدعاء إلى **"أم الإله المخلص"** بل ويؤمنون بعقيدة **الشرب من الدم** المقدس **بغرض الاتحاد بجسد الإله** كما كانوا يؤمنون بأن أعداء الإله دبروا له مكيدة أودت بحياته **لكنه بعد الموت قام من بين الأموات وصعد إلى السماء** وأصبح هو القاضي الذي يقضي بين الآلهة، ومن العجيب أن نرى كل هذه العقائد تم إعادة إنتاجها بصورة أكثر تضخيماً على يد أتباع المسيح عليه السلام الذي ظل طوال حياته يحرص على تعليمهم التمسك بالشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام و التي كان أهم قواعدها التمسك بتوحيد الخالق سبحانه وتعالى وعدم الانصياع إلى الدعوات الباطلة التي تعترف بآلهة أخرى غيره أو آلهة شريكة معه في ألوهيته

ليس هذا كلامنا نحن المسلمين وإنما هو كلام الباحثين غير المسلمين، والسطور التالية تثبت ذلك **:**

- جاء في كتاب **"المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية خفايا القرون-** للأستاذة إ س سفينسيسكايا، ترجمة د حسان ميخائيل" في الفصل الأول و تحت عنوان "الإمبراطورية الرومانية وسكانها عند بداية التاريخ الميلادي" ما يلي :

" فقد عمد أنطونيو إلى مساندة ملوك الشرق وكان قد أقام في الإسكندرية عاصمة مصر، وعاش حياة بذخ وترف حتى وصل الأمر به إلى حد إعلان نفسه **(إلهاً متجلياً)-** ديونيسيوس الجديد "[١]

وتقول بعد ذلك بقليل عن الامبراطور أوكتافيان الملقب بأغسطس :

" فلم يروا في انتصار قيصر مجرد نتيجة لاحتضان الآلهة له ووقوفهم إلى جانبه، إنما أيضاً نتيجة للسمات الخارقة التي يملكها البطل نفسه، **وهكذا بدأ تأليه أغسطس** في أوساط سكان المقاطعات الشرقية حيث كانت تقاليد **تأليه الملوك** تضرب جذورها في عمق التاريخ --- وعليه

[١] - إ. س. سفينسيسكايا ، المسيحيون الأوائل و الامبراطورية الرومانية- خفايا القرون، دار علاء الدين للنشر و التوزيع ، دمشق ترجمة د: حسان ميخائيل إسحق ، الطبعة الثانية ٢٠٠٧م ، صفحة ١١

ليس مستغرباً أن رأوا في أغسطس وهو نفسه أراد أن يرى في أعين سكان المقاطعات الشرقية ليس مجرد محسن لهذه المدينة أو تلك أو لهذا الشعب أو ذاك، وليس مجرد حاكم من الحكام وحسب، وإنما **إلهاً وهب كاريزما شخصية مميزة** تمكنه من التأثير على كل ما يجري على وجه الأرض، ففي عدد من النصوص التي وصلت إلينا من الزمن الذي تلا انتصاره على أنطونيو يظهر أغسطس (**آمر الأرض والبحار**) و (**منقذ الكون**) – نقش مدينة ميرا – (**ومخلص الجنس البشري**) – نقش مدينة غاليكا رناس – أما مولده فقد أعلن مبدأ البشارات الطيبة، (في النص الإغريقي للأناجيل في مدينتي أفاميا وبريينا وفي نقش هذه الأخيرة **يدعى أغسطس إلهاً بالمعنى المباشر للكلمة ---** والحقيقة أن أغسطس يدغم في غضون ذلك أحياناً بزيوس باتريوس ، وزيوس الأبوي، أو يدعى أبا الوطن كما في غاليكارناس، فقد ورد في النقش الذي وصل إلينا من هذه المدينة أن الطبيعة الأزلية الحية دوماً وهبت الناس الخير الأعظم: قيصر أغسطس **(أبا وطنه الإلهة روما) زيوس باتريوس**، وفي الوقت نفسه (**مخلص الجنس البشري كله**)، ويبدو هنا كأن الألقاب الرومانية الرسمية لأبي الوطن الذي أدغم بالإله الهلليني زيوس الأب قد اجتمعت مع مصطلحات التصور الكوني "البشري العام" عن **(الإله المخلص)**٠وتلقانا على مسكوكات أغسطس التي سكت في الشرق عبارات مثل **(الإله المتجلي)** و **(مؤسس الكون) ---** لقد جسدت عبادة أغسطس وحدة الكون والمعمورة، ففي برغاموس ونيقوميديا شيد أول معابد عبادة الإمبراطور وهو على قيد الحياة بعد (بموافقته دون ريب) وعليه يمكننا أن نؤكد أنه مع عبادة أغسطس أخذت تتشكل **عبادة الأباطرة في المدن الإغريقية** التي في آسيا الصغرى ثم انتقلت منها إلى المقاطعات الشرقية الأخرى،وفيما بعد كف أباطرة القرن ١م عن زيارة آسيا الصغرى الأمر الذي ساهم في إنشاء صورة متخيلة لهذا **الإله الجبار"**[1]

وتقول المؤلفة أيضاً :"وبالتزامن مع هذه المبادرات (من تحت) سارت عملية تأليه فريدة للإمبراطور (من فوق)، ولم يكن قبول هذه الأخيرة مفروضاً على سكان المقاطعات وحدهم، وإنما على الرومان كذلك: لقد اقترح أوكتافيان أن **يعلن الراحل يوليوس قيصر إلهاً** ، وحدد السينات آيات التبجيل التي كان ينبغي تقديمها **(ليوليوس الإلهي)** فأقيم عمود على شرفه كان يجب أن تقدم عند قدميه الذبائح، وتنذر النذور، وتقسم الأيمان باسم قيصر، وبما أن أغسطس أله قيصر يوماً فقد غدا هو نفسه **(إبناً للإله)** فالنصوص الرسمية اللاتينية دعت أغسطس في حياته **(ابن يوليوس الإلهي) ---**فأخذت تنتشر في الأوساط الشعبية خرافات عن تحدر أغسطس نفسه من **إله مباشرة ---** وبعد وفاة أغسطس **أعلنه خلفاؤه إلهاً، فقد دعته مسكوكات خليفته المباشر طيباروس إلهاً"**[2]

كما تذكر المؤلفة أن الإمبراطور طيباريوس دعي إلهاً أيضاً **وتم تأليه والدته لتصبح "أم الإله"** حيث تقول في الفصل الثاني : "وبعد وفاة قيصر حاول خلفاؤه إدخال عبادة السينات إلى جانب عبادة الإمبراطور: لقد نوه تاسيت (الحوليات) إلى خطاب طيباريوس الذي أجاز لمدن مقاطعة آسيا تأسيس عبادته مع عبادة السينات، مع أن هذه المدن لم تطلب إذناً إلا **لتأسيس عبادته وعبادة والدته ليبيا** التي ألهت أيضاً، بيد أن تلك المحاولات لم تحقق أي نجاح ملحوظ"[3]،

---

[1] - المرجع نفسه، صفحة ١٤ سطر ١٢ إلى صفحة ١٥ (بتصرف)
[2] - المرجع نفسه صفحة ١٦ سطر ١
[3] - المرجع نفسه صفحة ٣١ سطر ٥

كما تورد المؤلفة ما جاء في نقش مدينة إيديما للإمبراطور فلافيوس فسباسيان "إلى الحاكم المطلق الصلاحيات قيصر فسباسيان أغسطس المحسن، ومنقذ البشر كلهم تعبيراً عن الشكر والعرفان، اتحاد الإيديميين ، عنه إلى الآلهة" ثم تقول عن هذا النقش "وأقرب الصيغ المشابهة لهذه الصيغة زمنيّاً (بعد النقوش التي كرست لأغسطس) جاءت في مرسوم والي مصر طيباريوس يوليوس الكسندر الذي أرسله على شرف الإمبراطور غالباً، الذي لم يحكم إلا فترة قصيرة، فقد وصف الإمبراطور في المرسوم المعني بأنه (الساطع لنا – أي للمصريين – **من أجل خلاص الجنس البشري كله"**[١]

"وتمثل أهمية خاصة في النقش كلمة (إفخارستيا) أي الشكر والعرفان، فهذا المصطلح نادراً ما يستخدم في النقوش، وإذا ما استخدم فإنه يستخدم عادة في وصف الآلهة--- **لقد غدا مصطلح إفخارستيا وكذلك مصطلح البشارة في نقوش تكريم أغسطس من أهم المفاهيم التي تعامل بها المسيحيون الأوائل، ويفصح استخدام سكان إيديما لهذه الكلمة عن كونها قد دخلت التصورات الدينية لدى سكان آسيا الصغرى، ولكن المسيحيين استخدموها بمعنى مغاير تماماً، إذ جعلوا من إفخارستيتهم نقيضاً لإفخارستيا الوثنيين وهذا ما فعلوه أيضاً بكلمة البشارة** (= الإنجيل عند المسيحيين)"[٢]

ثم تذكر المؤلفة نوعاً آخر من الشعوب التي كانت تنتشر فيها نفس مفاهيم **(الإله المخلص)** و **(الإله الذي يموت ثم يقوم من بين الأموات)** و **(الاتحاد بجسد الإله المخلص)** ومفهوم **(أم الإله)** و كذلك مفهوم **(اتحاد الآلهة لتكوين إله واحد مكون من عدة آلهة)** و كل هذه المفاهيم قد تبنتها المسيحية بعد ذلك وأدمجتها في مفهوم (الثالوث المقدس)، وهؤلاء الشعوب هم المصريون وشعوب الشرق، حيث تقول في الفصل نفسه :

"وفي كثير من أقاليم شرقي المتوسط أسس السكان اتحادات على شرف الآلهة الذين ظنوا أنهم أقرب إليهم، وأنهم أكثر جبروتاً --- وكان كثير من تلك الاتحادات قد انتظم حول آلهة الشرق **الذين يموتون ثم يبعثون: الإله المصري أوزوريس،** أو **الإله أتيس** الذي شاعت عبادته في آسيا الصغرى، ففي زمن ما عرف كثير من الشعوب عبادة مثل هؤلاء الآلهة الذين كانوا يمثلون عندهم تعاقب فصول السنة أو موت الطبيعة ثم عودتها إلى الحياة، ولكن هؤلاء الآلهة اكتسبوا مع الزمن صورة - **الآلهة المخلصين** – أولاً، وكان يمكن أن تحقق الإقامة على خدمتهم **الاتحاد مع الإله وخلود الروح** ، فحسب الأساطير المصرية أن أوزيريس كان إله الخصب، وأول ملوك مصر الذي علم المصريين فنون العمل الزراعي، ولكن شقيقه ست إله الريح الصحراوية المهلكة عزم على قتله، فأهداه ناووساً كان قد صنعه له ، وما إن استلقى أوزيريس فيه لكي يتحقق مما إذا كان على مقاسه حتى أغلق ست الناووس ورماه في مياه النيل، لكن النهر المقدس رفض أن يستقبل الناووس الذي كانت تبحث عنه الإلهة إيزيس زوجة أوزيريس ، وعندما عثرت عليه نجحت في أن توقظ القوة الحية في زوجها الميت وتحمل منه بابنهما حورس، ودخل حورس في صراع ضد ست، فهزمه وأقام أوزيريس من الموت، بيد أن الإله الذي بعث إلى الحياة من جديد لم يشأ أن يبقى على سطح الأرض، وصار إلى رب لمملكة الأموات --- وبعد أن استولى الإسكندر المقدوني على مصر وصار عرشها إلى سلالة البطالمة الإغريقية،

[١] - نفس المرجع ، صفحة ٣١ سطر ١٣
[٢] - نفس المرجع ، صفحة ٣٣ سطر ١

هاجرت إلى مصر أعداد كبيرة من المهاجرين الإغريق، **فاتحدت شخصية أوزوريس بشخصيات الآلهة الآخرين،** مصريين وإغريق، الثور المقدس إبيس، والإغريقيين زيوس وهاديس-- وهكذا ظهر سيرابيس، **لقد كان سيرابيس رب السماء ومملكة الأموات** ، وقد شاعت عبادة سيرابيس شيوعاً كبيراً في إقليم شرق المتوسط كله، كما شاعت في الإمبراطورية **عبادة إيزيس** أيضاً ، فأقيمت معابدها في روما نفسها"[1]

وتكمل المؤلفة أيضاً "وكان ثمة معبود شرقي آخر، هو الإله الفريجي أتيس (فريجيا هي إقليم من أقاليم آسيا الصغرى) الذي كانت عبادته مرتبطة بعبادة **أم الآلهة** (أغيديتيس أو كيبيلا) --- لقد شاعت عبادة أتيس وكيبيلا في المقاطعات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية، وقد توسل الناس منهما الخلاص من الآلام الدنيوية، ففي أثناء الاحتفالات التي كانت تقام على شرف أتيس كان الكاهن يردد: **اطمئنوا أيها الأطهار فكما نجا الإله كذلك أنتم سوف يتحقق لكم الخلاص،** وكان الإله آدونيس الذي **يموت ثم يبعث حياً** هو الإله الذي عشقته الإلهة أفروديت، ومزقه خنزير بري ضار، وكان الكاتب لوقانيوس (القرن ٢ م) قد ترك لنا وصفاً للاحتفالات التي تقام على شرفه في سوريا، ووفق لوقانيوس أن **السكان المحليين كانوا يجلدون أنفسهم كل عام إحياءً لذكراه ثم يعلنون بعد ذلك أن آدونيس بعث من الموت وصعد إلى السماء"**[2]

(علينا هنا أن نشير إلى ما يحدث في الفلبين الآن من قيام المسيحيين بجلد أنفسهم إحياءً لذكرى صلب المسيح ، وكذلك ما يحدث عند كل طوائف الشيعة يوم عاشوراء ، وهم لا يعلمون أنها طقوس وثنية رومانية)

وتقول المؤلفة أيضاً "ومن بين آلهة الإغريق كلهم حظي الإله ديونسيوس بأعرض شهرة، وديونيسيوس هذا هو **إله الكرمة،** لكن عبادته اكتسبت عشية بداية التاريخ الميلادي محتوى جديداً، فقد أخذوا يدغمونه أكثر فأكثر **بالإله زاغريوس ابن زيوس** الذي كان الطيطانيس قد مزقوه لكن زيوس أعاد إحياءه تحت اسم ديونيسيوس، كما رأوا فيه **أيضاً إلهاً يموت ثم يبعث حيّاً"**[3]

وعما يشبه عقيدة الشرب من دم المسيح والاتحاد بجسده، تذكر المؤلفة ما يلي :

"لقد كان أعضاء الطوائف الديونيسيوسية يقيمون مرة كل عام احتفالات علنية مفتوحة، مواكب كانوا يحملون أثناءها **قضباناً مغطاة بعناقيد العنب،** ويسيرون وهم يعزفون على الناي، وفي حالة من الوجد كان هؤلاء يستغرقون في الرقص إلى أن يشعروا **بأن الإله قد امتلكهم،** وعندئذٍ كانوا يعثرون على معزاة برية **فيمزقونها ويشربون دماءها الساخنة ويأكلون لحمها نيئاً** عادين ذلك مشروباً وطعاماً **إلهيين،** لقد كان هؤلاء الصوفيون يؤمنون بأن هذا الذي يفعلونه يحقق **لهم الاتحاد مع الإله ويمنحهم الخلود،** وفي العصر الروماني كان يمكن أن ينتمي إلى الأخويات الديونيسيوسية النساء والرجال والعبيد والأحرار"[4]

---

[1] - المرجع نفسه صفحة ٣٤ سطر ١٨ و صفحة ٣٥
[2] - المرجع نفسه صفحة ٣٦ سطر ١
[3] - المرجع نفسه صفحة ٣٩ سطر ١
[4] - المرجع نفسه صفحة ٤٠ سطر ٩

مما سبق يتضح أن المعتقدات الأساسية التي تقوم عليها المسيحية الحالية والتي تتمثل في وجود **"إله متجسد في صورة إنسان"** و "أنه هو **المخلص** للبشر" و أنه **"ابن للإله** الأول" وأن هذا المخلص تعرض **للقتل** البشع على يد أعدائه لكنه بعد موته **"قام من بين الأموات"** وأن هناك **اتحاداً للآلهة** يتكون منه **"الثالوث المقدس"** وأن **أم هذا الإله** هي أيضاً مقدسة ومعبودة عند بعض الفرق ، وحتى طقوس **العشاء الرباني والأكل من الخبز الممزوج بالدم** الذي يؤدي إلى **الاتحاد بجسد الإله،** وكذلك **مراسم الرهبنة والتعميد** ، كل هذه المعتقدات هي في الأصل معتقدات وثنية كانت شائعة بكثرة منذ مئات السنين في كل المناطق التي شهدت المراحل الأولى لانتشار المسيحية ، وأنه نظراً لفقد النص الأصلي للإنجيل الذي بشر به المسيح عليه السلام وبقاء الأمة المسيحية بدون كتاب يحفظ الوحي الذي نزل على هذا الرسول الكريم على مدى أكثر من ثلاثمائة عام ، فقد كان تسلل كل هذه المعتقدات إلى صلب الدين المسيحي أمراً لا مفر منه وبخاصة إذا كانت رسالة المسيح لم تستمر سوى عام واحد طبقاً لما جاء في رواية ثلاثة من الأناجيل الأربعة المعترف بها لدى المسيحيين الآن.

<u>ثانياً: قصة صلب المسيح عليه السلام في الكتاب المقدس</u> :

هل صلب المسيح عليه السلام حقاً ؟ وهل دفن في القبر؟ وهل قام من بين الأموات بعد ثلاث ليال؟ ربما سيجيب ثلث سكان العالم على هذا السؤال بكل حماس بما يفيد التأكيد التام على أن ذلك حدث بدون أدنى شك، وسوف يضيفون إلى ذلك التأكيد أنه صلب بموافقته بل بأمر مباشر منه لأنه في الحقيقة هو الإله الخالق المتصرف في كل شؤون الكون

لكن الحقيقة غير ذلك تماماً، فقصة صلب المسيح عليه السلام وموته وقيامته هي في حقيقتها قصة مختلقة من تأليف الرهبان الأوائل الذين ظلوا يمجدون المسيح و يرفعونه شيئاً فشيئاً عن مقام البشر إلى أن وصل بهم الأمر إلى الاعتقاد بأنه إله متجسد، بالرغم من أن المسيح عليه السلام لم يقل كلمة واحدة تفيد بأنه إله متجسد أو أنه أحد أقانيم ثلاثة تكوّن مجتمعة إلهاً واحداً بثلاث صور مختلفة

ليس هذا كلامنا نحن المسلمين، وإنما هو خلاصة دراسات مستفيضة قام بها العديد من القساوسة الذين أفنوا أعمارهم في دراسة علم اللاهوت ، وظلوا يحتلون المناصب العليا في الكثير من الكنائس العالمية لعقود طويلة، لكنهم في النهاية توصلوا إلى الحقيقة الساطعة التي أعلنوها للعالم أجمع بأن قصة صلب المسيح وموته ثم قيامته بعد الموت هي قصة مختلقة ولم تحدث في أرض الواقع

من هؤلاء القساوسة السيد داود بنجامين الكلداني الذي كان قسيساً كاثوليكيّاً من طائفة الكلدان ، تم ترسيمه كاهناً في عام ١٨٩٥م وانتدب من قبل رؤساء أساقفة الطائفة الكلدانية لتمثيل الكاثوليك الشرقيين في مؤتمر "القربان المقدس" الذي عقد في مدينة "باري لو مونيال" في فرنسا، وفي عام ١٨٩٩ أرسلته السلطات الكنسية إلى سالماس لتحمل المسؤولية،

بالطبع لم يكن هذا القس في حاجة إلى زعامة دنيوية لكي يترك دينه ويحاول التقرب للمسلمين ليمنحوه هذه الزعامة ، فقد احتل أرقى المناصب الكنسية التي تمنحه بحسب الديانة المسيحية مكانة (مقدسة) بجانب الوضع الاجتماعي المرموق

ولم يكن كذلك محتاجاً إلى المال حتى يفعل ذلك ، فقد كانت مخصصاته المالية أفضل من مخصصات رؤساء كثير من الدول الإسلامية في زمانه

وباختصار ، هذا القس فوق مستوى الشبهات التي قد يثيرها أي رجل دين مسيحي ضده في محاولة يائسة لتضليل عامة الشعب المسيحي بعدم صحة ما توصل إليه

لقد قام هذا القس بتأليف كتاب "الإنجيل والصليب" وحلل فيه كل جزئيات العقيدة المسيحية تحليلاً علميّاً مستوعباً كل الجوانب الهامة ، ومفنداً للأدلة التي استند عليها علماء الدين المسيحي بشكل موضوعي وعميق، وفي النهاية أجمل خلاصة دراساته التي استمرت إثني عشر عاماً في قوله في الكتاب المذكور :

"ولقد كانت نتيجة تتبعاتي وتحقيقي أن اقتنعت وأيقنت أن قصة قتل المسيح عليه السلام وصلبه ثم قيامه من بين الأموات **قصة خرافية** ، وأن الأناجيل الأربعة مع كونها ليست تأليف المسيح ذاته ، لم توجد في زمانه بل وجدت بعد وفاة الحواريين بزمن طويل وأنها وصلت إلينا بحالة محرفة وقد لعبت بها الأقلام"[1]

ويفسر هذا القس كيف استبدل آباء الكنيسة الأوائل في القرن الرابع الميلادي – في مجمع نيقية العام الذي انعقد في عام ٣٢٥ م - بعقيدة توحيد الله عز وجل التي علمها المسيح عليه السلام للحواريين وللناس الذين اتبعوه العقائدَ الوثنية التي كانت منتشرة حينذاك ، وقطعوا بذلك آخر اتصال بين المسيح وبين كل الأجيال المسيحية التي ولدت بعد ذلك وحتى وقتنا هذا

فقد كتب السيد داود في الفصل الأول وتحت عنوان (٥- أخطاء مجمع نيقية العام) ما يلي :

"يجب التفكير في دين بقي من تاريخ نشأته إلى ٣٢٥ عاماً بغير كتاب، كم يتأثر بالعقائد المتولدة من المنابع الخارجية وكيف يختل نظامه ويكدر صفاؤه الأصلي بالخرافات والروايات الكاذبة، إن أغلاط مجمع نيقية العام كثيرة جدّاً، تمكن (أثاناثيوس) الراهب الشاب من نصارى الإسكندرية إذ كان شماساً من حضور المجمع المذكور، فجعل تاريخ الأديان السماوية شذر مذر، واجتهد (آريوس) رئيس الموحدين في البرهنة على أن المسيح (مخلوق) وأنه (عبد الله) مستدلاً بما لديه من الآيات الإنجيلية وبتفاسير الأعزة والآباء من ايقليسيا واعترف بهذه الحقيقة الثلثان وهم الموحدون الذين كانت تتألف منهم الأكثرية العظمى في المجمع، ومن الجهة الأخرى قام رؤساء التثليثيين وعلى رأسهم أثاناسيوس للبرهنة على أن المسيح إله تام وأنه متحد الجوهر مع "الله" مستنداً على آيات إنجيلية أخرى وعلى تفاسير الآباء من إقليسيا،

ادعى الموحدون أن كل الآيات والمحررات القديمة التي يدعى أنها تؤيد التثليث وتجسد المسيح محرفة وزائفة، وبناءً على ذلك طلبوا بكل شدة طي تلك الآيات والمحررات الكاذبة ، وقد كان الممكن الأقرب إلى الحق أن تحل هذه المسألة المهمة بأكثرية آراء الآباء المقدسة البالغ عددهم الألف بكونهم الممثلين لعالم النصرانية أجمع ومندوبيه ، ولكن لم يقترب ملتزمو التثليث الذين بقوا في الأقلية من هذه الصورة من الحل ، فدخل قسطنطين (قونسطنطينوس) الذي يريد الأمن

[1] - عبد الأحد داود ، الإنجيل والصليب، ترجمة فيصل أبو خالد ، صفحة ١١

والراحة لرعيته بأنه أول إمبراطور عيسوي، ووصاهم بالكف عن الشقاق والنفاق ، وبأن يحلوا المسائل المتنازع فيها وفق الحق والأسس الإنجيلية ،

بيد أن الحزبين المتخالفين كانا على ضد ذلك حتى أنهم تدرجوا من المنازعة إلى المشاتمة، ومن المجادلة إلى المجالدة والمضاربة، وكان المأمول حينئذٍ تدخل سلطة جبرية من الخارج أو توسط صداقة، بل كانت الحاجة أو الضرورة إذ ذاك داعية إلى أن يهبط ويحل على هؤلاء الآباء الروح القدس الذي حل على الحواريين بشكل ألسنة من نار وجعلهم بغتة يتكلمون أربعة عشر لساناً في (عيد الخمسين) ، ولم يكن الذوات الحاضرون في المجمع الكبير واقفين على أربعة عشر لساناً فقط بل على نحو خمسين لساناً، ومعظمهم غرباء عن اللسان اليوناني، ولكن هيهات! لم يأت ولم يظهر الروح القدس ولا الفارقليط كي يتدارك دين المسيح وكتابه وكنيسته ويحول دون هذا الانقلاب المدهش ، فقرر الإمبراطور أن يفصل في الأمر بالتدابير الشديدة بعد أن التزم رأي صديقه ووطنيه البابا كاهن رومية الأعظم الذي يقال أنه هو الذي قبله وأدخله في دين النصارى وكنيستهم،

وقد أخرج بأمر هذا الإمبراطور أكثر من سبعمائة من الرؤساء الروحانيين الموحدين من المجمع ونفي الكثير منهم ، وقتل آريوس مع المتقدمين منهم، ثم افترق ال ٣١٨ عضواً الباقون أيضاً ثلاث فرق ، وكان اعتراض فرقتين منهم على تعبير أثناسيوس (هوموسيون) أي (من جوهر واحد وإحدى الجوهر عين الجوهر)، وأخيراً تمكن المعارضون الخائفون من جند الإمبراطور وجلاده الشاهر السيف من النجاة بوضع توقيعاتهم مع نواب البابا وفرقة أثناسيوس على الوثيقة المشهورة بعنوان (عقيدة نيقية) المصرحة بالتثليث وبألوهية المسيح "[١]

وهنا نلمح إلى الملاحظة التي أوردها السيد بنجامين عن واقعة طرد الموحدين من المجمع الكبير وقتلهم بعد ذلك والتي قال فيها:

"إن المسيح عليه السلام كان قد أنبأ بهذا الحدث العظيم بقوله (سيخرجونكم من المجامع بل تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يؤدي خدمة لله، وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفوني - يوحنا ١٦: ٢ -٣) وكذلك (مرقس ١٣ : ٩)

والآن : هل يريد فلاسفة الإلحاد مزيداً من الأدلة على أن قصة صلب المسيح و قيامته هي قصة مختلقة ؟ وأنها لا تصلح للاستدلال على أيّ نظرية أخلاقية ولا غير أخلاقية ؟ حسناً سنورد المزيد من الأدلة :

ففي كتابه القيم "التوراة والإنجيل والقرآن والعلم" نقل الدكتور موريس بوكاي العديد من تصريحات علماء الدين المسيحي وكبار القساوسة حيث تتضمن هذه التصريحات تأكيدات واضحة على عدم صحة ما جاء في الأناجيل المعترف بها عن الأحداث التي وقعت في الأيام الأخيرة من حياة المسيح عليه السلام وكذلك في الأيام الثلاثة اللاحقة لرحيله. ونذكر بعضها فيما يلي :

- في الفصل الثاني و تحت عنوان "إنجيل متى" كتب د: بوكاي ما يلي:

[١] - المرجع نفسه صفحة ١٦ سطر ٣

" يتصرف متى بحرية خطيرة مع النصوص، ويلاحظ ذلك بالنسبة للعهد القديم فيما يتعلق بنسب المسيح التي يضعها في بداية إنجيله ، وقد ألحق بكتابه روايات يستحيل بالدقة تصديقها، و استحالة التصديق تلك **هي الصفة التي يستخدمها الأب "كانينجسر"** في كتابه المشار إليه عندما يتحدث عن رواية قيامة المسيح، والمقصود بالتحديد الجزء الخاص بالحراس، فالكاتب يبرز عدم معقولية حكاية حراس القبر العسكريين (هؤلاء الجنود الوثنيون الذين يذهبون بتقريرهم ليس إلى رؤسائهم الوظيفيين وإنما يذهبون إلى كبار الكهنة الذين يرشونهم ليقولوا أكاذيب) ومع ذلك فهو يضيف (علينا أن نحاذر من السخرية ذلك أن نية متى نية جديرة بالإجلال، **حيث يدخل بطريقته الخاصة إلى مؤلفه المكتوب معطاة قديمة من التراث الشفهي، هذا إخراج تمثيلي جدير بفيلم كفيلم "المسيح نجماً سينيمائيّاً")**، ولنذكر أن هذا الحكم على متى صادر عن عالم لاهوتي مبرز، وهو **أستاذ بالمعهد الكاثوليكي بباريس**"[١]

ثم يذكر الدكتور بوكاي ملاحظة هامة جداً عن إنجيل مرقس حيث قال: "وإذا كان إنجيل مرقس معترفاً به كلية كإنجيل كنسي، فإن هذا لا يقلل من أن الكتاب المحدثين يعدون خاتمته (الإصحاح ١٦: من ٩ – ٢٠) **كمؤلف مضاف، وتشير الترجمة المسكونية إلى هذا بشكل صريح**، وهذه الخاتمة غير موجودة في أقدم مخطوطتين كاملتين للأناجيل المعروفتين باسمي Codex (Vaticanus & Codex Sinaiticus) اللتان يرجع تاريخهما إلى القرن الرابع. ويقول أ.كولمان في هذا الشأن : (أضاف مخطوطات يونانية أقرب عهداً وبعض نصوص أخرى إلى هذا الموضع **خاتمة عن ظهور المسيح لا تنتسب إلى مرقس، وإنما هي مستخرجة من أناجيل أخرى**). والواقع أن روايات هذه الخاتمة المضافة كثيرة، ففي النصوص نجد تارة رواية طويلة وتارة رواية قصيرة (وتحتوي الترجمة المسكونية على الروايتين) وتارة الرواية الطويلة مع حاشية وتارة أخرى الروايتين معاً، ويعلق الأب كانينجسر على هذه الخاتمة بما يلي : (لابد أنه قد حدث **حذف للآيات الأخيرة عند الاستقبال الرسمي (أو عند النشر على العامة) لكتاب مرقس في الجماعة التي ضمنته**، ولا متى ولا لوقا ولا يوحنا بالأحرى قد عرفوا هذا الجزء المفقود، **ومع ذلك كانت الفجوة لا تحتمل**، وبعد ذلك بكثير وبعد أن جرت بين الأيدي الكتابات المتشابهة لمتى ولوقا ويوحنا **تم توليف خاتمة محترمة لمرقس، وذلك بالاستعانة بعناصر من هنا ومن هناك لدى المبشرين الآخرين**، ومن السهل الاستدلال على قطع هذه الفزورة بالتفصيل – (خاتمة مرقس ١٦ من ٩ إلى ٢٠)، **ذلك يسمح بتكوين فكرة مادية عن الحرية التي كانوا يعالجون بها النوع الأدبي الخاص بالحديث الإنجيلي حتى أعتاب القرن الثاني**)[٢]

ثم يعلق د بوكاي **"يا له من اعتراف صريح بوجود التعديلات التي قام بها البشر على النصوص المقدسة! يا له من اعتراف ذلك الذي تقدمه تأملات هذا العالم اللاهوتي الكبير**)[٣]

وعند حديثه عن حادثة صعود المسيح في إنجيل لوقا يقول د بوكاي: "إن لوقا كما رأينا في إنجيله يصدر عن صعود المسيح قولاً يناقض ما يقوله في "أعمال الرسل" التي سلم المتخصصون بأنه كاتبها، وهي جزء متمم للعهد الجديد، إنه يحدد في إنجيله تاريخ صعود

---

[١] - د: موريس بوكاي، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، مكتبة مدبولي ، القاهرة، الطبعة ٢/ ٢٠٠٦، صفحة ٨٤ السطر ١١.

[٢] - المرجع نفسه صفحة ٨٨ و ٨٩

[٣] - المرجع نفسه صفحة ٨٩

المسيح بيوم الفصح ، ويحدده في "أعمال الرسل" **ببعد ذلك بأربعين يوماً**، وإننا لنعرف إلى أي تعليقات غريبة قاد هذا التناقض المفسرين المسيحيين"[1]

و تحت عنوان "ظهور المسيح بعد قيامته" يقول د: بوكاي : " ويعطينا الأب روجي في كتابه (مقدمة إلى الإنجيل) ص ١٨٢ أمثلة على الاختلاط والفوضى والتناقض التي تسود هذه الروايات فيقول:

"لا تتطابق تماماً في الأناجيل الثلاثة المتوافقة قائمة النساء اللاتي أتين إلى القبر، فليس هناك إلا **امرأة واحدة** في إنجيل يوحنا وهي مريم المجدلية، ولكنها تتحدث بضمير الجماعة كما لو كانت لها رفيقات، فهي تقول: (لا نعرف أين وضعوه)، أما في إنجيل متى **فملاك** هو الذي يعلن للنساء أنهن سيرين المسيح بالجليل، ولكن المسيح بعد لحظة **يقابلهن** على مقربة من القبر، ولا شك أن لوقا قد شعر بهذه الصعوبة وعدل قليلاً في مصدره، يقول الملاك: (تذكرون كيف تحدث إليكن عندما كان بالجليل) والواقع أن لوقا لا يشير إلى ظهور المسيح ثلاث مرات بعد قيامته، أما يوحنا فيقول إنه ظهر **مرتين** على ثمانية أيام بمجمع بيت المقدس، ثم في المرة **الثالثة** يظهر بالقرب من البحيرة ، إذاً بالجليل، وأما متى فإنه يتحدث عن **مرة واحدة** لظهور المسيح بالجليل" **ويستبعد المعلق من هذه الدراسة خاتمة إنجيل مرقس** التي تتحدث عن ظهور المسيح لأنه يعتقد أنها **(قد كتبت بقلم آخر)**

ويكمل د بوكاي قائلاً: "وكانت هذه الأمور تتناقض مع الإشارات إلى ظهور المسيح المحتواة في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (١٥: ٥ – ٧) إذ يقول أنه قد ظهر لأكثر من **خمسمائة شخص في وقت واحد** ولجاك ولكل الحواريين – دون أن ينسى نفسه --- ، ويلاحظ أ كولمان في كتابه (العهد الجديد) **التناقضات بين لوقا ومتى : فالأول يقول بظهور المسيح في الناصرة، أما الثاني فيقول أنه ظهر في الجليل"** [2]

وتحت عنوان (صعود المسيح) يكمل د بوكاي قائلاً: " تمتد المتناقضات حتى نهاية الروايات لأن يوحنا ومتى لا يشيران إلى صعود المسيح، فمرقس ولوقا يتحدثان عن هذا، وبالنسبة لمرقس (١٦و ١٩) فإن المسيح "قد رفع إلى السماء وجلس على يمين الله"، وهذا دون تحديد تاريخي بالنسبة لقيامته، ولكن لا بد من ملاحظة أن نهاية إنجيل مرقس التي تحتوي على هذه الجملة ليست نصّاً صحيحاً: وهي نص كتب وأضيف بعد ذلك في رأي الأب روجي حتى وإن كانت الكنيسة تعتبره قانونياً، يتبقى إنجيل لوقا فهو الوحيد الذي يذكر حدث الصعود، وذلك في نص لا يناقشه فيه أحد (٢٤ ، ٥١) يقول: (انفصل المسيح عنهم وحمل إلى السماء) ويضع لوقا الحدث في نهاية رواية قيامة المسيح وظهوره للأحد عشر حواريّاً، وتتضمن تفاصيل الرواية الإنجيلية أن الصعود حدث يوم القيامة، ولكن لوقا يصف في أعمال الرسل - والكل يعتقد أنه كاتبها- مرات ظهور المسيح للحواريين بين الآلام والصعود بالألفاظ التالية: "وقد حصلوا منه على أكثر من آية على حين أظهر نفسه لهم وحدثهم طيلة أربعين يوماً عن ملكوت الله" (١ و ٢ و ٣)، إن هذه الفقرة من أعمال الرسل هي الأصل في تحديد العيد المسيحي للصعود بأربعين يوماً بعد الفصح، وحيث يحتفل بالقيامة، **التاريخ إذن محدد على عكس إنجيل لوقا**، ويضاف إلى

[1] - المرجع نفسه صفحة ٩٢
[2] - المرجع نفسه صفحة ١٢٥- ١٢٧ (بتصرف)

ذلك أن ليس هناك أي نص إنجيلي آخر يبرر هذا التحديد التاريخي، إن المسيحي وقد عرف بهذا الموقف يشعر بالحيرة، **فالتناقض واضح**، ومع ذلك فالترجمة المسكونية للعهد الجديد تعترف بهذا الواقع ولكنها لا تفيض في الحديث عن التناقض، بل هي تكتفي بالإشارة إلى احتمال أهمية هذه الأربعين يوماً بالنسبة لرسالة المسيح"[1]

في النهاية نشير إلى أن الأدلة الكثيرة جدّاً التي استدل بها الدكتور موريس بوكاي في كتابه (التوراة و الإنجيل والقرآن والعلم) على حدوث التحريف في الكتاب المقدس كلها تحمل أهمية قصوى ، وبرغم أننا نقلنا منها فقرات طويلة إلا أننا لم ننقل منها سوى القليل، لكن لعدم الخروج عن الموضوع نكتفي بما نقلناه من هذا الكتاب القيم

من كل ما سبق يتضح أن كل ما جاء في الكتاب المقدس غير صالح للاستدلال به على أي قضية دينية أو أخلاقية ، لعدم وجود أي صلة بين هذا الكتاب وبين الدين الحق الذي أنزله الله عز وجل على موسى وعيسى و جميع الأنبياء عليهم السلام ،

وبالتالي فإن التمسك بأي نظرية أو أي حكم مستند إلى نصوص هذا الكتاب هو خطأ ظاهر لا يقود إلا إلى نتائج خاطئة بدون أدنى شك، و هذا هو الخطأ الرابع في كتاب (وهم الإله)

----

[1] - المصدر نفسه صفحة ١٢٧ و ١٢٨

الفصـــــل الخــامس

الأخلاق كما جاءت في الدين الحق

الفصـــــــل الخـــــــامس

الأخلاق كما جاءت في الدين الحق

بعد أن أوضحنا أن كل الأدلة التي استدل بها د: ريتشارد على أن الأخلاق الفاضلة لا يمكن أن توجد في الأديان كانت مبنية على نصوص لا صلة لها بالدين الحق الذي أنزله الله عز وجل وإنما على نصوص من تأليف رهبان خائنين للأمانة التي وضعها الله عز وجل على أكتافهم ، علينا الآن أن نثبت العكس، أي نثبت أن الأخلاق لا يمكن أن توجد خارج الدين الحق، وأن ما أسماه د: ريتشارد "روح العصر" أو "أخلاق العصر الحديث" ما زالت تقبع خلف الارتقاء الإنساني الذي علمه لنا الدين الحق بمسافات شاسعة ، وسوف نجد أن فلاسفة الإلحاد - ومعهم كل رموز العالم الحر تقريباً – هم بأنفسهم الذين أعطوا الدليل على صحة كل كلمة مما نقول ، وأنهم جسدوا بأنفسهم الدليل الواقعي على خطأ مفهوم (لسنا بحاجة إلى الدين لنحصل على الأخلاق الجيدة) الذي ظل يدافع عنه د: ريتشارد في عدد كبير من صفحات كتابه

وسوف نرى في هذا الفصل المستويات العالية جدّاً للارتقاء الأخلاقي التي علمها الدين الإسلامي للبشر قبل ألف وأربعمائة عام ، في زمن كان الناس الذين يسكنون الجزيرة العربية فيه يحفرون حفرة عميقة ويلقون فيها بناتهم الرضيعات ثم يهيلون التراب عليهن وهن حيات مخافة العار والفقر، وسوف يكتشف الملحدون أن جميع دول العالم في أرقى مستوياتها لم تصل بعد إلى المستوى الذي علمه لنا الإسلام ورسول الإسلام منذ ألف وأربعمائة عام ، وهذا بمفرده كافٍ لنسف كل النظريات التي وردت في كتاب وهم الإله عن أخلاقيات روح العصر، لأن مجيء الإسلام بأخلاق أرقى في مستواها من كل ما عرفناه في القرن الحادي والعشرين من مواثيق حقوق الإنسان يؤكد أن البشر في أرقى صورهم يأتون خلف الدين الحق ليس بعام أو عامين ولكن بأكثر من أربعة عشر قرناً كاملة

وسوف نتحدث أولاً عن معاملة الفئات المستضعفة نسبيّاً، وهى الأقليات العرقية و الدينية و الأسرى ثم نختم هذه النقطة بالحديث عن المرأة ، لأن كل الناس يعطون الحقوق كاملة للأقوياء حتى لو كانوا فاسدين ، لأن قوة الأقوياء تلجم أطماعهم وأحقادهم، لكن الضعفاء الذين ليست لهم قوة تحمي حقوقهم فلن يعطيهم حقهم إلا من كان يحمل نفساً راقية وقلباً صافياً خالياً من الأطماع، ولذلك فإن معاملة المستضعفين هي المعيار الدقيق لمستوى الارتقاء الإنساني على المستوى الشخصي وعلى المستوى العام

إن كل ما ورد في كتاب وهم الإله من فوازير جدليّة من نوعية القطار على السكة و القرار الصحيح الواجب أخذه حين تتعرض حياة خمسة أشخاص للخطر وفي المقابل يمكن قتل شخص واحد لإنقاذهم ، كل هذه الجدليات لا يمكن أن تكون معياراً للارتقاء الأخلاقي ولا لتطور روح العصر ، واتفاق الملحدين والمؤمنين على الإجابة لا تعني بالضرورة أننا أخذنا أخلاقنا من خارج الأديان ، لأن هذه الأسئلة نفسها لو سئلت للبشر الذين عاشوا على الأرض في العصر الجليدي بعد أن نستبدل بالقطار عدداً من الدببة الجائعة فسوف نحصل على الإجابات نفسها، لأن العقل البشري والعواطف الإنسانية سيتصرفان بالطريقة نفسها عند كل البشر أمام مثل هذه الجدليات البدهية حتى لو اختلفت العصور

لكن الارتقاء الأخلاقي الحقيقي هو قيام الإنسان طواعية بالتنازل عن غرائز الأنانية و الطمع وحب السيطرة وغرور القوة المفرطة في سبيل حماية حقوق الآخرين وخاصة الضعفاء منهم بدافع احترام إنسانية هؤلاء الضعفاء ، وبدافع الشعور بأنهم بشر متساوون في الحقوق مع الأغلبية و أن الاعتداء على حقوقهم هو سقوط أخلاقي مشين يدين الأغلبية ويلصق بها العار أبد الدهر، و بهذا المعيار الدقيق نستطيع القول بأن الارتقاء الأخلاقي في أعلى مستوياته لم يتم تطبيقه بشكل أروع مما تم في الدولة المسلمة التي تأسست في القرن السابع الميلادي ولا حتى في الحضارة الحديثة الحالية في أرقى دول العالم كما سنرى في الصفحات التالية

أولاً : معاملة الأقليات

ونقصد بهم أولئك الناس القليلي العدد نسبيّاً الذين يعيشون في مجتمعات تكون الأغلبية العظمى فيها على غير مذهبهم الاعتقادي أو من أصل عرقي غير أصلهم أو يكونون من لون أو جنس غير لون و جنس الأغلبية ، فكيف أمر الإسلام في معاملة هؤلاء؟

أ- الأقليات الدينية:

ليس هناك على مستوى جميع المجتمعات الإنسانية على مدار التاريخ الإنساني ولا حتى على مستوى القوانين الموجودة في أرقى الدول الحديثة من استطاع أن يبلغ المستوى الذي بلغه الإسلام في حماية حقوق الأقليات الدينية الموجودة في المجتمعات المسلمة ، فقد أرسى القرآن الكريم أعظم قاعدة في التاريخ تجعل كل إنسان من هذه الأقليات غير المسلمة حرّاً فيما يعتقد حرية مطلقة ، قال تعالى في سورة البقرة (٢٥٦) :

"لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ☼"

وقال تعالى أيضاً مخاطباً رسوله محمداً ﷺ في سورة يونس (٩٩) :

"ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"

ليس هذا فقط ولكن جعل الإسلام احترام حقوق الأقليات الدينية واجباً على كل فرد من أفراد المجتمع المسلم ، وقامت السلطة الحاكمة في الدولة المسلمة بكل ما لديها من سلطة وقوة ونفوذ بحماية هذه الحقوق، فقد جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال :

«مَن قتلَ مُعاهِداً لم يرحْ رائحة الجنة ، وإنَّ ريحَها توجَدُ من مَسيرةِ أربعين عاماً»[١] .

و في سنن أبي داود عن رسول الله ﷺ أنه قال :

" ألاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِداً أو انْتَقَصَهُ أوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طاقتِهِ أوْ أخَذَ مِنْهُ شَيْئاً بغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [٢]

---

[١] - صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو : دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ٣٠٩٧

[٢] - سنن أبي داود ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ٣٠٥٤

ومعنى هذا بكل وضوح أن الذي يسبب أي أذى من أي نوع ، مادي أو معنوي لأحد أفراد الأقليات الدينية في الدولة المسلمة ، فسوف يقف للحساب يوم القيامة أمام خصم غير عادي ، وهو رسول الله محمد ﷺ الذي لا أمل في النجاة من الجحيم لمن يكون هو خصمه

ولكي نقرب الصورة إلى الأذهان فإن هذا الموقف من رسول الإسلام ﷺ يشبه قيام جميع ملوك ورؤساء دول العالم المسيحي الحاليين بإصدار قرار مفاده أن "أي مسيحي يؤذي مسلماً أو يهوديّاً أو أي أقلية دينية أخرى أو ينتقصه حقاً من حقوقه فقد وقع في خصومة مباشرة مع الرئيس أو الملك أو الملكة، وسوف يتولى الديوان الملكي أو الرئاسي مهمة الدفاع عن هذا المظلوم أمام المحاكم" ، **كما يعني بالإضافة إلى ذلك** أن يقوم جميع القساوسة والرهبان في كل دول العالم المسيحي بتعليم كل أتباعهم في الكنائس ووسائل الإعلام أن من يؤذي غير المسيحيين من الأقليات التي تعيش في بلدانهم فقد آذى المسيح عليه السلام شخصيّاً ، وأنه وقع بالفعل في خصومة مباشرة مع المسيح عليه السلام إن هو فعل ذلك

كما يشبه قيام ملوك ورؤساء كل الدول التي تدين بالبوذية وكل الرهبان البوذيين بإصدار قرار ينص على أن (كل من يؤذي مسلماً أو مسيحيّاً أو يهوديّاً أو ينتقصه حقاً من حقوقه فقد وقع في خصومة مباشرة مع معبودهم بوذا شخصيّاً)

و يشبه كذلك إصدار حكومة الهند و كل رهبان الديانة الهندوسية قراراً ينص على أن (من آذى مسلماً أو مسيحيّاً أو يهوديّاً فقد وقع في خصومة مباشرة مع معبودهم براهاما شخصياً)

والذي جعلنا نعمم الأمر على مستوى جميع الرؤساء والملوك و معهم القساوسة أن هذا هو ما حدث بالفعل في الأمة المسلمة تجاه الأقليات الدينية منذ تأسيس أول دولة مسلمة في التاريخ ، لأن رسول الله محمداً ﷺ قال هذه الأحاديث الشريفة بصفته رسول الله الذي يبلغ وحيه للناس وعليه فأي خصومة معه تكون خصومة مع الله عز وجل مباشرة ، بالإضافة إلى أنه كان يوم أن أصدر هذا القرار هو الزعيم السياسي للدولة المسلمة والذي يتحتم على جميع الرؤساء المسلمين – الذين سيأتون بعده - أن يلتزموا بما أمر في كل بقاع العالم

وبالعودة لما جاء في كتاب وهم الإله عن الحرب الأيرلندية التي ألصقها مؤلف الكتاب بالدين نقول : لو كان هذا التشريع الرائع من رسول الله محمد ﷺ موجوداً عند القساوسة الذين حرضوا المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا على الحرب لسنين طويلة مع أنهم أبناء دين واحد ، لما سالت قطرة دم واحدة من أي من الفريقين ،

ولو كان القساوسة يعلمون الشعب المسيحي أن الذي يظلم واحداً من أتباع المذاهب أو الديانات الأخرى فسوف يدخل في خصومة مباشرة مع السيد المسيح عليه السلام كما علمنا رسولنا ﷺ لكان العالم الذي نعيش فيه الآن أكثر جمالاً ورقياً بألف مرة ، و لكان قد تم حقن دماء ملايين المسيحيين – غير الكاثوليك - قتلتهم محاكم التطهير المذهبي بأوامر من البابا الكاثوليكي بأبشع الطرق في القرون الوسطى ، برغم أنهم كانوا يؤمنون بالمسيح وبأنه إله أو ابن إله ، وكانوا يؤمنون بكل تعاليم الكنيسة لكنهم اختلفوا معه في مسألة فرعية لا يستطيع أن يفهمها ٩٠% من أتباع الديانة المسيحية ، و لكان قد تم حقن دماء مليون مسيحي من الأقباط في مصر – طبقاً لإحصاء المسيحيين كما سنرى لاحقاً - الذين كانوا يحرقون أحياء ويقتلون بأكثر الطرق بشاعة

بأوامر من القساوسة الكاثوليك ولم ينقذهم من استمرار هذا الجحيم سوى الفتح الإسلامي الذي عاملهم بمقتضى هذا الحديث الرائع الذي جعل إيذاءهم سبباً مباشراً في الخصومة مع رسول الله محمد ﷺ وبالتالي الخصومة مع الله سبحانه وتعالى

ولو أن القساوسة في إسبانيا والبرتغال كانوا على هذا المستوى في معاملة الأقليات الدينية لما فقد مليونا يهودي حياتهم في تلك المنطقة قبل دخول المسلمين أسبانيا وبعد خروجهم منها ، ولما كانت هناك محاكم التفتيش التي عاملت ٣ ملايين مسلم[١] من الموريسكيين – رجالهم ونساءهم وأطفالهم - معاملة تشيب لها الرؤوس ، حيث كانوا يتلذذون بقتلهم حرقاً وهم أحياء ، وبتقطيع أجسادهم بالمناشير و المقامع الحديدية ، وبخلع عيونهم بالكلاليب ، وبوضعهم أحياء في توابيت ضيقة تغلق أبوابها - المثبت بها مئات الخناجر- عليهم بكل قسوة فتتمزق أجسادهم إلى أشلاء ، والكثير من ذلك كان يتم في عروض جماهيرية صاخبة والجميع يضحك ويصفق في جنون وسعادة ، ويجب أن نشير هنا إلى أن هذا المصير المروع كان يطبق فوراً حتى على الذين تنصروا تحت القهر إذا ضبطوا متلبسين بالاغتسال يوم الجمعة ، أو بكنس فناء بيوتهم ، لأن القساوسة كانوا يعتبرون ذلك دلالة على أنهم لم يتركوا دينهم ، وأنهم كانوا مخادعين حين أعلنوا دخولهم في المسيحية ، والعجيب أن هؤلاء المساكين فرض عليهم ألا يغلقوا أبواب دورهم ليلاً ولا نهاراً ، حتى يكون من السهل على أفراد محاكم التفتيش اكتشاف من يغتسل منهم أو ينظف بيته في يوم الجمعة فضلاً عن اكتشاف من يسجد في الخفاء

ولأننا سنسمع هنا صياح الملحدين بفرح قائلين إن هذه الصور البشعة تؤكد أن الدين هو سبب كل تلك الفظائع وإننا قدمنا الدليل بأنفسنا على صحة استنتاج د: ريتشارد بأن الأخلاق لا يمكن أخذها من الأديان ، فإننا يجب أن نضع الأمور في نصابها و نصحح هذا الخلط في المفاهيم

إن السبب في كل هذه الفظائع ليس هو الدين ولكنه هو تزوير الدين ، لأن الدين الحق علمنا أن نحافظ على حقوق الأقليات أكثر مما نحافظ على حقوقنا الشخصية ، لأن التفريط في حقوقنا الشخصية لن يضعنا في خصومة مباشرة مع رسول الله ﷺ

ولأننا سنسمع صياحهم مرة أخرى مهللين فرحين وهم يقولون: سواء كان الدين حقاً أو باطلاً فإن القوة الدافعة الهائلة التي يولدها الدين في النفوس تجعله مصدراً بحد ذاته لكل الشرور

و مرة أخرى يجب أن نصحح هذا المفهوم الخاطئ :

لأن المسئول عن كل الجرائم البشعة والمروعة التي رأيناها على مر التاريخ وما زلنا نراها هو ما نستطيع أن نطلق عليه "غرور القوة المفرطة" ، المدفوع بدافع قوي من الأنانية وحب الذات حين تكون هذه الأنانية وهذا الغرور بالقوة **غير مقيدين بضوابط صارمة** من الأخلاق الراقية والسمو الإنساني الذي علمه لنا **الدين الحق** ، وهذا الغرور بالقوة المفرطة غير المقيد بضوابط صارمة من الدين الحق دفع بكل الأنظمة البشرية التي امتلكتها – سواء كانت هذه الأنظمة إمبراطوريات أو دولاً كبيرة أو حتى سلطات دينية - إلى المآسي البشعة التي نعرفها جميعاً بهدف تحقيق أكبر المنافع لهذه **الأنظمة وسحق الأقليات المخالفة بهدف إزالتها من الوجود**

[١] - هذا العدد ذكره الكاتب الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب"، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ترجمة عادل زعيتر ، الباب الثالث ، الفصل السادس ، صفحة ٢٧٢ سطر ٣

والتاريخ الإنساني يشهد شهادة قاطعة على أن المتمسكين بالأديان المزورة هم والملحدون الذين يعادون مفهوم وجود الإله من أساسه متساوون في هذه النقطة تماماً، بل إن هؤلاء الملحدين فاقوا أولئك المتمسكين بالأديان المزورة بأضعاف مضاعفة، فقد رأينا أن ضحايا الشيوعية بلغت أكثر من مائة مليون من البشر، على حد وصف الكاتب الفرنسي (ستيفان كورتوا) في كتاب "التاريخ الأسود للشيوعية" ، وقد كان ثمانون بالمائة منهم من المدنيين الذين قتلوا بسبب تمسكهم بمعتقداتهم فقط

وإذا ما تركنا كلا الفريقين – المتدينين بمعتقدات باطلة والملحدين – جانباً رأينا أنه حتى عندما يكون الدين أو الإلحاد خارج المعادلة تماماً فإن داء "غرور القوة غير المنضبطة بضوابط الدين الحق" هو نفسه السبب الأول للمآسي البشعة على مر التاريخ ، فالمآسي الدامية لجنكيز خان و جيوش التتار التي اجتاحت دول وشعوب نصف الكرة الأرضية، وسطرت من الجرائم المروعة في حق الملايين من الأبرياء ما لا يتصوره عقل، لم يكن لا الدين ولا الإلحاد طرفاً فيها ، وإنما بسبب "غرور القوة المفرطة"، والأمر نفسه تكرر في صراعات اليابان والصين أوائل القرن الماضي حين وقعت حرب راح ضحيتها (ستة وثلاثون مليوناً من البشر)[1] ، (ثم الحرب العالمية الأولى التي راح ضحيتها ثمانية ملايين ونصف مليون شخص والحرب العالمية الثانية التي قتل فيها إثنان وستون مليون شخص)[2] والتي أشعلها غرور القوة المفرطة في رأس هتلر وأعوانه

إن **الدين الحق** الذي يقيد الإنسان بقيود صارمة تجعله حتى وهو يملك كل مقومات القوة المفرطة خائفاً من القوة الأكبر منه ، وهي قوة الخالق الجبار سبحانه وتعالى وتمنعه من ظلم من هم أضعف منه ، هذا الدين **هو الضمان الوحيد لحفظ الأنظمة القوية من داء "غرور القوة المفرطة" وبالتالي هو الضمان الوحيد لحفظ حياة و حقوق ملايين الضعفاء**

وسوف نرى – بعد قليل - أن هذا الضمان القوي لم يتحقق إلا في الدولة المسلمة منذ أول يوم في نشأتها وحتى الآن، وذلك بسبب القيود الصارمة التي وضعها الدين الحق والتزم بها حكام الدولة المسلمة على مر العصور، وسوف نرى أيضاً أن الدول الحديثة في قرننا الحادي والعشرين لم تستطع أن تصل إلى ما وصلت إليه الدولة المسلمة وأن تتخلص من داء "غرور القوة المفرطة" وغرقت هي أيضاً في مستنقع الظلم المفرط للآخرين.

وبالعودة إلى مفهوم د: ريتشارد عن "روح العصر الحديث" فهناك نقطة هامة، فلو كان كلام د: ريتشارد حقاً لوجدنا أن حركة الارتقاء الأخلاقي تسير في صعود مستمر مع الزمن، لكن التاريخ يكذب ذلك، فقد جاءت محاكم التفتيش بكل ذلك التدني الأخلاقي بعد الارتقاء الأخلاقي الذي جاء به رسول الإسلام بحوالي سبعمائة سنة، وسوف نرى بعد قليل أن هذا التدني الإنساني لم يصاحب محاكم التفتيش وحدها ، وإنما صاحب كل الإمبراطوريات القوية التي جاءت بعد رسول الله محمد في ﷺ جميع أنحاء الأرض حتى وقتنا هذا ، بما في ذلك الإمبراطوريات التي **قامت على الإلحاد** ، بل وحتى الإمبراطوريات التي تنتسب إلى العالم الحر في قرننا الحادي والعشرين ، فكل هذه الإمبراطوريات بلا استثناء دفعها غرور القوة إلى انتكاسات مروعة في مجال حقوق الأقليات الدينية تمثل واقعاً نراه بأعيننا ونسمعه بآذاننا كل يوم في نشرات الأخبار،

---

[1] - البروفيسور جين شي ده، موقع الصين اليوم (www.chinatoday.com/Arabic/2005n/5n8/8n6.htm)
[2] - موقع معهد ترايدنت (www.traidnt.net)

بينما ظلت الأمة المسلمة في عليائها متمسكة بأعلى مستوىً من الارتقاء الأخلاقي الذي أسسه رسولها العظيم قبل وجود العالم الحر بأكثر من ألف عام بكلمات قليلة موجزة مفادها أن من آذى واحداً من الأقليات التي تعيش في الدولة المسلمة فقد تخاصم مع رسول الله ﷺ شخصيّاً وأنه مستحق للجحيم

لكن يجب علينا هنا أن نؤكد حقيقة تاريخية وواقعية في غاية الأهمية، وهي أن الارتقاء الأخلاقي الرائع الذي تحقق للأمة المسلمة منذ اليوم الأول ولم يتحقق لأي أمة غيرها – كما سنرى - لم يكن سببه أن العرب كانوا ملائكة، أو لأنهم كانوا أعلى من غيرهم خلقاً أو حضارة أو علماً بل العكس هو الصحيح، فقد كانوا من أقل الأمم حظّاً في العلم و في الارتقاء الحضاري ، ومع ذلك ففي غضون ثلاثة وعشرين عاماً أصبحوا أمة واحدة مترابطة استطاعت أن ترتقي أخلاقيّاً إلى مستوى لم تزل حضارة القرن الحادي والعشرين متخلفة عنه بمسافات شاسعة

و السبب الوحيد الذي رفعهم إلى تلك القمة السامقة كان هو الدين الحق الذي أوحاه الله عز وجل إلى رسوله محمد ﷺ وهذا هو الدليل القاطع على أن الإنسان لم يعرف الارتقاء الأخلاقي خارج حدود الدين الحق، لأن هذا الدين هو وحده الذي استطاع أن يقيد غريزة الأنانية المنغرسة داخل قلوب البشر وأن يقيد غرور القوة المفرطة في نفوس المسلمين وأن يجعلهم يظهرون عبر التاريخ بصورة راقية لم تظهر بها أي أمة أخرى حتى يومنا هذا

ولأن الملحدين لا يقتنعون بسهولة – وهذا مما نحترمهم لأجله – فسوف نستعرض أحوال الأقليات الدينية في الأمم المختلفة على مر العصور وحتى عصرنا الحديث لنرى هل نحن حقاً في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين أكثر ارتقاءً وسموّاً في الأخلاق من الأجيال السابقة بفعل "روح العصر" كما قرأنا في كتاب وهم الإله ، أم أن البشرية في أرقى مجتمعاتها في حتى الآن ما زالت متخلفة بمسافات شاسعة عن الارتقاء الأخلاقي الذي جاء به الدين الحق و الذي تعلمته ومارسته أجيال مسلمة عاشت قبلنا بأربعة عشر قرناً كاملة ؟ وأننا لا نستطيع حقاً أن نتنبأ بالفترة الزمنية التي ستمر على هذه المجتمعات الحديثة قبل أن تلحق بهذا الارتقاء الأخلاقي

- الأقليات الدينية في الدولة الإسلامية:

تأسست أول دولة مسلمة في التاريخ بعد وصول رسول الإسلام محمد ﷺ مباشرة إلى المدينة مهاجراً من مكة في عام ٦٢٣م ، وقد كان جميع أصحابه من المسلمين الذين آمنوا برسالته في مكة قد سبقوه إلى المدينة بعدة سنوات هرباً من التعذيب والقتل الذي مارسه ضدهم أهل مكة ، وعند وصولهم إلى المدينة ظلوا يدعون الناس إلى الدين الجديد فأسلم معظم الناس في المدينة حتى أنه عند قدوم رسول الله إليها لم يبق بيت فيها إلا ودخله الإسلام، وبالتالي فقد كان المسلمون أغلبية في المدينة عند وصول الرسول ﷺ إليها، وقد كان أول ما فعله رسول الله في ﷺ المدينة أن قام بكتابة صحيفة تحدد جميع الحقوق والواجبات لكل سكانها، وتعتبر هذه الصحيفة أول دستور في الإسلام ينظم العلاقة بين سكان المدينة من المسلمين واليهود على اختلاف قبائلهم وأجناسهم، وقد تضمن هذا الدستور بنود حق المواطنة وحرية العقيدة والمساواة بين الأغلبية المسلمة والأقلية اليهودية بصورة لم تتكرر في تاريخ البشر حتى وقتنا هذا – ولا حتى في ميثاق الأمم المتحدة - كما سنثبت بعد قليل، وقد نصت الصحيفة على ما يلي كما جاءت في كتاب السيرة النبوية لابن هشام :

" بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين،"

وبعد أن عدد كل طوائف المسلمين في المدينة انتقل إلى تحديد حقوق الأقلية اليهودية على النحو التالي:

"وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يُخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس، غير مضار ولا آثم، ، وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد بالمدينة آمن، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ "[١]

هذا كان حال الأقلية الدينية التي وجدت في أول دولة إسلامية في التاريخ، إنهم لم ينالوا فقط الأمان على أنفسهم وأموالهم وحريتهم الدينية وحرمة معابدهم وبيوتهم وإنما نالوا كل هذه الحقوق حتى لعبيدهم الذين كانوا هم أنفسهم لا يقيمون لهم وزناً وأصبح الجميع مع المؤمنين في الدولة المسلمة (أمة واحدة)

لقد أسس رسول الله ﷺ منذ القرن السابع الميلادي أعلى مستويات الارتقاء الإنساني والسمو الأخلاقي في معاملة الأقليات الدينية ، بأن جعل الاعتداء على أي حق من حقوق هذه الأقليات إيذاءً **له شخصياً** و جالباً للخصومة المباشرة **معه** وبالتالي موجباً لدخول الجحيم، كما جعل كل فرد في هذه الأقليات حتى العبيد منهم مواطنين كاملي الحقوق لهم ما للمسلمين وعليهم ما على

[١] - السيرة النبوية لابن هشام ، دار الكتب المصرية ، تحقيق د:مصطفى السقا و إبراهيم الابياري و عبد الحفيظ شلبي ، صفحة ٥٠١

المسلمين، بل وجعلهم مع المؤمنين داخل كل دولة مسلمة "أمة واحدة" على حد تعبير الصحيفة التي كتبها رسول الله ﷺ لهم

ولكي نعلم حجم الارتقاء الإنساني الذي حملته هذه الصحيفة نقرأ التعليق عليها لأحد الرجال المحترمين من أبناء مصر، وهو لواء شرطة مسيحي أرثوذكسي وحاصل على دكتوراه في القانون، وهو اللواء الدكتور "نبيل لوقا بباوي"، ألف كتاباً قيماً بعنوان "الإرهاب صناعة غير إسلامية" دافع فيه عن الإسلام ، كما ألف كتاباً بعنوان "انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء" دافع فيه عن فكرة انتشار الإسلام بحد السيف بدفاع قوي يكشف عن صدق وأمانة لا يتمتع بها الكثير من كتاب ومؤلفي الغرب

وقد جاء في تعليقه في هذا الكتاب على تلك الصحيفة ما يلي :

"بالنسبة لمهادنة اليهود في عقد الصحيفة وعقد الأمان:

١- إن البعض يردد أن الإسلام انتشر بالسيف ، يقتل أصحاب الديانات المخالفة ويجبرهم على الدخول في الدين الإسلامي قهراً وبالعنف، وهذه الوثيقة أو العهد الذي نحن بصدده الآن في السنة الأولى من الهجرة يكذب هذا الادعاء، فقد ذكر الرسول ﷺ في كتابه أن اليهود الموجودين في المدينة وهم أصحاب ديانات مخالفة لهم عهد وذمة الله وأنهم آمنون على حياتهم وعلى دينهم وأموالهم ويمارسون شعائرهم الدينية، فأين هو الإجبار على الدخول في الديانة الإسلامية ؟

٣- إن الدعوة لليهود إذا رغبوا في الدخول في الإسلام بلا إجبار إنما يعطي دلالة أن الرسول ﷺ خير اليهود المقيمين بالمدينة بين البقاء على دينهم وممارسة شعائرهم أو الدخول في الإسلام ولهم حق الاختيار الكامل، وهذا يعطي دلالة على أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف، وأنه أعطى لليهود عقد الأمان في ذمة الله لأن الرسول ﷺ كان في مقدوره ألا يعطيهم حق الاختيار الحر وكان يستطيع أن يفرض ذلك بحد السيف لأن الأنصار من قبيلة الأوس والخزرج الذين أسلموا والمهاجرين من المسلمين كان عددهم أضعاف اليهود الموجودين في المدينة

٤- ولكن الإسلام لا يقر ذلك المبدأ وهو اعتناق الإسلام بحد السيف لأنه يسير على مبدأ صريح وواضح وهو ما ورد في سورة البقرة: " **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ٢٥٦". وما يرد في القرآن الكريم من أوامر إلهية صارمة لا يجوز للرسول ولا للمسلمين مخالفتها "[١]

هذا ليس تعليق أحد شيوخ الأزهر الشريف وإنما تعليق رجل مصري منصف يدين بالديانة المسيحية الأرثوذكسية ويحب دينه ويعتز به، لكنه لما شعر بالفارق العظيم بين الحملة المسعورة على الإسلام في أوربا وبين الواقع الذي يعيشه المسيحيون في مصر بين المسلمين "**كأمة واحدة**" رأى أن من واجبه أن يصدع بالحق أمام العالم كله ليبدد ظلام الباطل الذي يغمر العالم الغربي بسحابته السوداء

وقد طبق رسول الله ﷺ كل ما جاء في الصحيفة على نفسه أولاً، فعامل اليهود بسمو أخلاقي **ليس بيننا في القرن الحادي والعشرين** من يرقى إلى مستواه ، فقد روى ابن حبان في صحيحه

[١] - إنتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء ، د : نبيل لوقا بباوي ، صفحة ٤٣

أن رجلاً من المسلمين جاء يطلب من رسول الله ﷺ أن يغيث قبيلته بشيء من المال أو الطعام نظراً لعدم نزول المطر، ولم يكن عنده ﷺ شيء منهما ، فعرض عليه أحد أحبار اليهود يسمى زيد بن سعنة أن يعطيه مالاً ثمناً لتمر أحد البساتين ويستلم التمر بعد أجل معلوم ، ونترك ذلك الحبر اليهودي ليكمل لنا القصة كما رواها ابن حبان :

"قالَ زَيْدُ بنُ سَعْنَةَ: فَلَمَّا كَانَ قَبْلَ مَحِلِّ الأجَلِ بِيَوْمَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ في جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأنْصَارِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، ونَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا صَلَّى عَلَى الجِنَازَةِ، دَنَا مِنْ جِدارٍ، فَجَلَسَ إِلَيْهِ، فَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ قَمِيصِهِ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِوَجْهٍ غَلِيظٍ، ثُمَّ قُلتُ: ألا تَقْضِينِي يَا مُحمَّدُ حَقِّي؟ فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُكُم بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ ـ بِمُطْلٍ، وَلَقَدْ كَانَ لي بِمُخَالَطَتِكُمْ عِلْمٌ، قالَ: وَنَظَرْتُ إلى عُمَرَ بن الخَطَّابِ وَعَيْنَاهُ تَدُورانِ في وَجْهِهِ كالفَلَكِ المُسْتَدِيرِ، ثُمَّ رَمَانِي بِبَصَرِهِ، وقالَ: أيْ عَدُوَّ اللهِ، أَتَقُولُ لرَسُولِ اللهِ ما أَسْمَعُ، وتَفْعَلُ بِهِ مَا أَرَى؟ فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بالحَقِّ لَوْلا مَا أُحَاذِرُ فَوْتَهُ لَضَرَبْتُ بِسَيْفِي هذا عُنُقَكَ، وَرَسُولُ اللهِ يَنْظُرُ إلى عُمَرَ في سكُونٍ وتُؤَدَةٍ، ثُمَّ قالَ: «إنَّا كُنَّا أَحْوَجَ إلى غَيْرِ هذا مِنْكَ يَا عُمَرُ، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأدَاءِ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ، اذْهَبْ بِهِ يا عُمَرُ، فاقْضِهِ حَقَّهُ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صاعاً مِنْ غَيْرِهِ مَكانَ مَا رُعْتَهُ» قَالَ زَيْدٌ: فَذَهَبَ بِي عُمَرُ، فَقَضَانِي حَقِّي، وَزَادَنِي عِشْرِينَ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ، فَقُلْتُ: ما هذِهِ الزِّيادَةِ؟ قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ أَنْ أَزِيدَكَ مَكانَ ما رُعْتُكَ. فَقُلْتُ: أَتَعْرِفُنِي يَا عُمَرُ؟ قَالَ: لا. فَمَنْ أَنْتَ؟ قُلتُ: أَنَا زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ. قَالَ: الحَبْرُ؟ قُلتُ: نَعَم الحَبْرُ، قَالَ: فَمَا دَعاكَ أَنْ تَقُولَ لِرَسُولِ اللهِ ما قُلتَ وتَفْعَلَ بِهِ مَا فَعَلْتَ. فقُلْتُ: يا عُمَرُ، كلُّ عَلامَاتِ النُّبُوَّةِ قَدْ عَرَفْتُهَا في وَجْهِ رَسولِ اللهِ حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ إلا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَخْتَبِرْهُمَا مِنْهُ: يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ، وَلا يَزِيدُهُ شِدَّةُ الجَهْلِ عَلَيْهِ إلا حِلْماً، فَقَد اخْتَبَرْتُهُمَا، فَأُشْهِدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قد رَضِيتُ باللَّهِ رَبّاً، وبالإسلامِ دِيناً، وَبِمُحمَّدٍ نَبِيّاً."[1]

والآن: لو ذهب رجل من إحدى الأقليات الدينية إلى الملك أو الرئيس في بلده في عصرنا الحالي وطلب منه بعض الحقوق بالطريقة نفسها التي طلب بها هذا الرجل حقه من رسول الله ﷺ ، فماذا يمكن أن يكون مصيره ؟ أليس الأرجح أنه سيتم قتله على الفور من قبل الحرس الشخصي لهذا الزعيم ثم تخرج وسائل الإعلام بروايات كثيرة كلها تتهم الرجل بالإرهاب وبأنه يستحق القتل فوراً بدون محاكمة ؟

هذا ما قصدناه بقولنا إن الارتقاء الإنساني والسمو الأخلاقي الذي علمه لنا رسولنا أكبر بكثير من أرقى مستوى أخلاقي يعرفه البشر في عصرنا الحالي

ولقد كان هذا الارتقاء الإنساني الفريد الذي مثله رسول الله محمد ﷺ واقعاً حيّاً يشمل حتى ألدّ أعدائه الذين حاربوه بكل ما أوتوا من قوة **على مدى إحدى وعشرين سنة** ، و أذاقوه هو و أصحابه كل صنوف القتل و الإيذاء و الغدر، حتى أنهم في إحدى الغزوات – وهي غزوة أحد – مثلوا بجثث المسلمين ومزقوا جسد عم رسول الله و مضغوا كبده بأسنانهم انتقاماً لهزيمتهم في غزوة بدر وفقد بعض رجالهم ،

فبعد أن خرق المحاربون له من أهل مكة الهدنة التي عقدوها معه، وقتلوا المسلمين حتى بعد أن **تحصنوا بالحرم** ، قرر أن يسير إليهم في مكة ويقتحمها عليهم ليوقف تهديدهم ، واستطاع أن

[1] - صحيح ابن حبان ، عن عبد الله بن سلام ، دار الفكر ، الحديث رقم ٢٨٧

يدخلها بدون مقاومة تذكر نظراً لضخامة الجيش الذي كان معه ، و علم أهل مكة أن ساعة الحساب قد حانت وأن عليهم أن يدفعوا اليوم ثمن كل قطرة دم أسالوها من المسلمين على مدى إحدى وعشرين سنة كاملة ، وثمن كل درهم أخذوه سرقة واغتصاباً من بيوت المسلمين الذين هاجروا فراراً من القتل والتعذيب ، وثمن كل بيت وكل بستان وكل رأس من الماشية ، ولو طبق رسول ﷺ أبسط قواعد العدل لما ترك منهم واحداً على قيد الحياة .

لكن **الارتقاء الإنساني** الساكن في أعماق قلب هذا الرسول يطغى على المشهد كله ويحول هذا اليوم العصيب على أهل مكة الذين يستحقون تطبيق كل بنود القصاص العادل في جميع قوانين البشر، إلى يوم عيد وفرحة و تسامح ويقول كلمته المشهورة (يا معشر قريش : ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: **"اذهبوا فأنتم الطلقاء")**[1] وعفا عنهم جميعاً مع علمه التام بأن منهم من سيخرج من مكة ويعاود تكوين الأحزاب وجمع السلاح للعودة لحربه مرة أخرى، لكنه مع ذلك عفا عن الجميع .

وقد عاد الكثير منهم بالفعل لحربه من جديد بعد **أقل من أسبوعين فقط** ، و انضموا لبعض القبائل الأخرى المعادية له ﷺ في وادي حنين ، حيث تجمع عدد كبير من تلك القبائل وكانت موقعة عصيبة على المسلمين لكن الله عز وجل نصره نصراً مؤزراً كانت نتيجته أسر ستة آلاف مقاتل من المشركين ، ولم يسمع العرب بمثل هذا العدد من الأسرى طوال تاريخهم على الإطلاق ولا حتى عشرة بالمائة منه ، **لكنه عاد مرة أخرى وبسط مظلة السمو الإنساني الذي لا يفارق قلبه** على الجيش الذي كان منذ دقائق يحاربه ليمحوه هو ودعوته ودينه الجديد من الوجود ، فعفا عن جميع الأسرى بدون شرط ولا قيد وأمر بإطلاق سراحهم جميعاً وسط دهشة الجميع من المسلمين و الكفار وحتى الأسرى أنفسهم ، مما جعل الكثير منهم يدخل في الإسلام

ولنا أن نسأل: لو كان قائد قوات فتح مكة في عام ٦٢٩م وقائد معركة حنين التي تلتها بأسبوعين هو الإمبراطور الروماني في ذلك الوقت ، أو هو ملك الفرس، فما هو السيناريو المتوقع لمصير كل هؤلاء الناس الذين عفا عنهم رسول الله ﷺ وحقن دماءهم؟

ولو كان قائد المعركتين هو أحد الجنرالات الملحدين مثل ستالين أو ماوتسي تونج فما هو أفضل سيناريو كان يمكن أن ينتظر هؤلاء ؟ وحتى لو كان قائد المعركتين هو أحد قادة جيوش العالم الحر **الآن (المتخلقة بأخلاق روح العصر)**، فكم من القصص المروعة كنا سنسمع على غرار قصص سجن أبو غريب في العراق أو المذابح البشعة في فيتنام ؟

إنه الارتقاء الإنساني في أعلى درجاته حين يتحرر من "غرور القوة" ويحلق في سماوات السمو الأخلاقي والرحمة غير المقيدة بقيود النفس الطامحة للشهرة أو الانتقام ، وينظر لأعدائه الذين يستميتون في قتاله على أنهم ضحايا الجهل والعصبية ، وأنه مرسل من الله عز وجل من أجل تخليصهم من جهلهم ومن عصبيتهم لا من أجل قتلهم

وهذا الارتقاء الإنساني هو ما دفع عدداً هائلاً من الفلاسفة و الكتاب المسيحيين واليهود لأن يشهدوا لهذا الرسول الكريم بالقدر العظيم الذي يستحقه :

---

[1] - السيرة النبوية لابن هشام ، صفحة ٤١٢

فقد جاء على موقع (صيد الفوائد) بقلم الأستاذ إدريس الكنبوري مقالٌ بعنوان (النبي ﷺ كما تحدث عنه المنصفون والعقلاء من الغرب) ذكر فيه الكاتب أمثلة كثيرة لشهادات فلاسفة وكتاب غربيين على عظمة رسول الله محمد ﷺ نأخذ منها الأمثلة التالية :

١- أما الروائي الروسي والفيلسوف الكبير تولستوي الذي أعجب بالإسلام وتعاليمه، فيقول في مقالة له بعنوان (من هو محمد): "إن محمداً هو مؤسس ورسول ، كان من عظماء الرجال الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام، وتؤثر عيشة الزهد ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقدم عليه إلا شخص أوتي قوة، ورجل مثله جدير بالاحترام"[١]

٢- "كتب الفيلسوف الإنجليزي الشهير توماس كارلايل (١٧٩٥م – ١٨٨١م) في كتابه (الأبطال وعبادة البطولة) فصلاً بعنوان (البطل في صورة رسول: محمد – الإسلام) جاء فيه:

" يزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمداً لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان ، كلا والله، لقد كانت في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات المتورد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبرّاً وحكمة وحجى وإربة أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه، وكيف لا وتلك نفس صامتة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين"

٣- وعن معاملة الأسرى جاء على الموقع نفسه :

فالمفكر (لورد هدلي) يقف مندهشاً عند معاملة النبي ﷺ للأسرى من المشركين في معركة بدر الكبرى ملاحظاً فيها ذروة الأخلاق السمحة والمعاملة الطيبة الكريمة، ثم يتساءل : "أفلا يدل هذا على أن محمداً لم يكن متصفاً بالقسوة ولا متعطشاً للدماء كما يقول خصومه؟ بل كان دائماً يعمل على حقن الدماء جهد المستطاع؟ وقد خضعت له جزيرة العرب من أقصاها، وجاءه وفد نجران اليمنيون بقيادة البطريق ولم يحاول قط أن يكرههم على اعتناق الإسلام، فلا إكراه في الدين، بل أمنهم على أموالهم وأرواحهم وأمر بألا يتعرض لهم أحد في معتقداتهم وطقوسهم الدينية"

وإذا انتقلنا إلى عصر الخلفاء الراشدين رأينا أنهم ساروا على تعاليم رسولهم الكريم فيما يتعلق بضمان وحماية الحرية الدينية لجميع الفئات التي تسكن داخل حدود الدولة المسلمة، وسوف نرى بعد قليل أن عقود الأمان التي كانت تعطى للأقليات الدينية من قبل جميع الخلفاء والقادة المسلمين لهذه الأقليات كانت تشتمل على حقوق وحريات **لا يحظى بها المسلمون في أرقى المجتمعات الأوروبية في العام الخامس عشر من القرن الحادي والعشرين**، حيث تهدم مآذنهم ويمنع أذانهم ، ويحرق قرآنهم ، و تستهدف مساجدهم ، ويهان رسولهم ، وهو ما يدل دلالة واضحة على أن هذه المجتمعات – بكل ما تحمله من أخلاق روح العصر الحديث – **ما زال أمامها مسافات شاسعة** وأزمان طويلة حتى تلحق بالارتقاء الإنساني والأخلاقي للأمة المسلمة

[١] - الاستاذ : إدريس الكنبوري ، موقع صيد الفوائد ، (www.saaid.net)

يقول اللواء الدكتور نبيل لوقا بباوي في كتابه "انتشار الإسلام بالسيف بين الحقيقة والافتراء" في الفصل الثاني وتعليقاً على عهود الأمان التي أبرمها الخليفة الأول أبو بكر الصديق مع أهل الشام والعراق ما يلي :

"سادساً: بموجب عقد الأمان الذي أبرمه أبو بكر الصديق وقبله الرسول ص فإنه يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم ومباشرة عقائدهم الدينية في سلام وأمان وتمتعهم بحماية الدولة الإسلامية بدون اعتداء عليهم أو على أموالهم بشرط دفع الجزية

سابعاً: فالقاعدة الأساسية في عقود الأمان لغير المسلمين في الشام أو العراق أو غيرهما من الدول الأخرى أن لهم من الحقوق مثل ما للمسلمين إلا في أمور محدودة مستثناه، كما عليهم من الحقوق ما على المسلمين من الواجبات إلا ما استثني، فعلى الدولة الإسلامية حمايتهم من كل عدوان خارجي ومن كل ظلم داخلي، ولنتوقف عند عقد الأمان الذي أبرمه الرسول ﷺ لأهل نجران وهم من المسيحيين والعهد ينص على الآتي "لنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير"

ثامناً: وبموجب عقد الأمان مع غير المسلمين في عهد الرسول ص و في عهد أبي بكر الصديق وفي جميع العهود أن الدولة الإسلامية يجب عليها حماية أعراض غير المسلمين كما تحمي عرض المسلم وكرامته وفي ذلك يقول الفقيه المالكي شهاب الدين القرافي في كتاب الفروق : "أنهم في ذمة الله تعالى وذمة رسول الله وذمتنا ودين الإسلام فمن اعتدى عليهم **ولو بكلمة سوء** أو غيبة فقد ضيع ذمة الله وذمة رسول الله ﷺ وذمة الإسلام" بل أكثر من ذلك قال العلامة ابن عابدين "إن ظلم الذمي أشد إثماً" وعلى ذلك فإن غير المسلمين الذين دخلوا إلى الدولة الإسلامية من الشام والعراق لهم نفس حقوق المسلمين وواجباتهم

تاسعاً: بموجب عقد الأمان الذي أبرمه الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق لغير المسلمين في الشام والعراق أو غيرهما من المناطق أن الدولة الإسلامية تضمن لغير المسلمين كفالة العيش والتأمين عند العجز والشيخوخة والفقر لأنهم بموجب عقد الأمان رعايا الدولة الإسلامية ، وهي مسؤولة عن كل رعاياها وفي ذلك قال الرسول ﷺ "كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته" ففي عقد الأمان الذي كتبه خالد بن الوليد لأهل الحيرة بالعراق وقد كانوا من المسيحيين وهو ينص على الآتي: "وجعلت لهم أيما شيخ ضعيف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيّاً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه **طرحت جزيته و عيل من بيت مال المسلمين هو وعياله**" وقد كتب ذلك العهد وهو عهد الأمان لأهل الحيرة وهم من المسيحيين بمعرفة خالد بن الوليد و أرسله إلى الخليفة أبي بكر الصديق فأقره، وخلاصة العهد أن بيت المال مسؤول عن رعاية المحتاجين من غير المسلمين

الحادي عشر: بموجب عقد الأمان في عهد الرسول وعهد أبي بكر وما بعدهما فإن غير المسلمين لهم حرية مباشرة عقائدهم الدينية فلكل ذي دين دينه لا يجبر على تركه إلى غيره ولا يضغط عليه ليتحول منه إلى الإسلام وذلك طبقاً لما ورد في القرآن الكريم "لا إكراه في الدين" ، وفي عهد الأمان الذي أبرمه خالد بن الوليد مع أهل عانات وهم من المسيحيين "**ولهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاؤوا من ليل أو نهار إلا في أوقات الصلاة**

الثاني عشر: بموجب عقد الأمان الذي كان يبرمه الرسول ص أو أبو بكر الصديق ومن بعده من الحكام المسلمين على غير المسلمين دفع الجزية وهي مبلغ ضئيل جدّاً من المال يفرض على الرجال البالغين القادرين على حسب ثرواتهم أما الفقراء فيعفون من دفع الجزية طبقاً لما ورد في القرآن الكريم في سورة الطلاق: "**لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها** ٧"[1]

هذا كلام الدكتور اللواء نبيل لوقا وهو كما قال عن نفسه "مسيحي أرثوذكسي معتز بمسيحيته" لذلك فليس هناك شبهة تحيز أو محاباة ، وبالتالي فإن حديثه يعلو على الشكوك أو الطعن،

وإذا انتقلنا إلى عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وجدنا المستوى نفسه من الارتقاء الإنساني والسمو الأخلاقي في معاملة الأقليات، وذلك لأن الجميع ملتزم بالأمر الصارم الذي أعلنه رسول الله ﷺ "من آذى معاهداً -- فأنا حجيجه يوم القيامة"، وأوضح ما يمكن الاستدلال به على رحمة عمر على غير المسلمين وحرصه على ألا يظلموا بأي قدر من الظلم هو وصيته للخليفة من بعده بأن يوفي لهم بعهد الأمان وأن يحفظ لهم حقوقهم

فقد جاء في كتاب الشيخ محمد الغزالي "التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام" تحت عنوان "المسلمون وأهل الذمة" ما يلي :

"وروى يحيى بن آدم في كتاب الخراج أن عمر لما تدانى أجله أوصى من بعده وهو على فراش الموت بقوله : (أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم)"[2] ، **لكن الأمر العجيب حقاً** هو أن هذه الوصية صدرت عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وهو على فراش الموت الذي دهمه بسبب ثلاث طعنات قاتلة طعنه بها رجل من **أهل الذمة** يسمى أبو لؤلؤة،

ولنا أن نسأل: هل يستطيع أحد من رؤساء أو ملوك العالم الحر باعتبارهم يمثلون قادة أرقى المجتمعات البشرية ، وباعتبارهم يتمتعون بأرقى مستوى أخلاقي نابع من "روح العصر الحديث" أن يوصي بالمسلمين الذين يعيشون في بلده بمثل ما أوصى به الخليفة المسلم عمر بن الخطاب في القرن السابع الميلادي لأهل الذمة ؟ نعلم جميعاً أن ذلك بعيد المنال وخاصة على ضوء تظاهر كل هؤلاء القادة لتأييد طعن الأقليات المسلمة في أعز ما يملكون بالإساءة إلى رسولهم الكريم الذي علم كل الأجيال الإنسانية كيف يكون الارتقاء الإنساني في أعلى مستوياته متمثلاً في معاملة الأقليات الدينية ،

وحتى لو ضحى أحد هؤلاء القادة بمستقبله السياسي وفعل ذلك من باب التمسك بالأخلاق الراقية فبكم سنة سيكون الخليفة المسلم عمر بن الخطاب الذي تربى في صحراء الجزيرة العربية قد سبقه في سلم الارتقاء الإنساني والأخلاقي ؟

ويكمل الشيخ الغزالي قائلاً :

" وقال الدكتور (أ س ترتون) "مؤلف أهل الذمة في الإسلام": وفي الأخبار النصرانية شهادة تؤيد هذا القول ، وهي شهادة البطريرك (عيشويابه) الذي تولى منصبه ٦٤٧-٦٥٧ هجرية إذ

---

[1] - د : نبيل لوقا بباوي ، إنتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء ، صفحة ١٢٣ و ١٢٤
[2] - السيخ محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر، ط٦/ ٢٠٠٥، صفحة ٤١

كتب يقول: **(إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون ، إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية، بل يمتدحون ملتنا، ويوقرون قديسينا وقسيسينا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا و أديرتنا** ، والظاهر أن الاتفاق الذي تم بين (عيشويابه) وبين العرب كان لمصلحة النصارى، فقد نص على وجوب حمايتهم من أعدائهم ، وألا يحملوا قسراً على الحرب من أجل العرب، وألا يؤذوا من أجل الاحتفاظ بعبادتهم وممارسة شعائرهم، وألا تزيد الجزية المجبية من الفقير على أربعة دراهم، وأن يؤخذ من التاجر والغني اثنا عشر درهماً، وإن كانت **أمة نصرانية في خدمة مسلم فإنه لا يحق لسيدها أن يجبرها على ترك دينها أو إهمال صلاتها والتخلي عن صيامها"**[١]

وينقل الشيخ الغزالي نص معاهدة أخرى فيقول:" وإليك نص المعاهدة التي أمضاها عمر بن الخطاب مع رسل (سفرنيوس) أسقف بيت المقدس كنموذج لموقفه من المسيحيين، إذ قال – كما روى الطبري - :

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل (إيلياء) من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا تنتقص منها ولا من غيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل الذي على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض مما شاء منهم قعد وعليه مثل الذي عليه أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله، وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية"[٢]

ويرد الشيخ الغزالي على أحد القساوسة الذي ألف كتاباً عن سوء معاملة المسيحيين في الدولة المسلمة ونسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب أنه كان عدو أهل الذمة ، فيقول:

"ولكن الخواجة الأفاك – يقصد ذلك المؤلف – افترى على عمر بن الخطاب أنه كان عدو أهل الذمة ، وأنه شرع لمن عنده ولمن بعده من الولاة سنة إهانتهم وإذلالهم وهدم معابدهم وتكسير صلبانهم، وقد ذكر أن لعمر بن الخطاب شروطاً تضمنها عهد تم بينه وبين أهل سوريا نص فيه السوريون على (ألا يحدثوا بيت عبادة ولا صومعة راهب، وألا يجدد ما تخرب من كنيسة أو دير، وألا يمنعوا المسلمين من كنائسهم أن ينزلوا بها ويطعموا فيها ثلاث ليال (كذا) وألا يعلموا أولادهم القرآن) وتضمن هذا العهد المزعوم كذلك (ألا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم قلنسوة أو عمامة أو نعلين أو فرق شعر إلخ)

---

[١] - المرجع نفسه ، صفحة ٤١
[٢] - المرجع نفسه ، صفحة ٤٤

وقد بحثنا عن أصل لهذه الشروط في مصادر الفقه الإسلامي أو كتب الشريعة والسيرة والتاريخ فلم نجد لها أثراً البتة، بل ما وجدناه في كتاب الله وفي سنة رسوله وفي معاهدات عمر نفسه يناقض هذا العهد المكذوب

وقد علق الدكتور (أ س ترتون) مؤلف كتاب أهل الذمة في الإسلام على هذا العهد بقوله: **"في هذا العهد نلاحظ نقاطاً بالغة الغرابة، وذلك أنه لم تجر العادة أن يشترط المغلوبون الشروط التي يرتضونها ليوادعهم الغالب، أضف إلى هذا أنه من الغريب أن يحرم المسيحيون على أنفسهم تناول القرآن هم وأولادهم بأية صورة من الصور ومع ذلك يقتبسون منه في خطابهم للخليفة في قولهم – أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون- والأمر المستغرب من الوجهة العامة أنه عهد لم ينص فيه على اسم البلد، فلو كان صادراً عن دمشق – قصبة الولاية – لوردت الإشارة إليها" ثم قال: "ومن ناحية أخرى فإننا لا نجد قط عهداً مع أية مدينة من مدن الشام يشبه عهد عمر هذا بحال من الأحوال إذ كلها عهود بالغة البساطة" ثم قال: "إذا تبين لنا هذا ساورنا الشك في نسبة العهد إلى عمر"**

هذا الباحث الغربي يتشكك في نسبة العهد إلى عمر ولكن الخواجة الجريء على الافتراء يضع شروط عمر المزعومة في هذا العهد على أنها بيان لموقف الشريعة الإسلامية من أهل الذمة، ومن أي كتب الشريعة نقل هذا العهد؟ من كتاب القلقشندي (صبح الأعشى في صناعة الإنشا)، ولا يعجب المرء من شيء عجبه من جرأة هذا الخواجة في اعتبار كتب الإنشاء العربي مصادر للتاريخ، لا بل مصادر للدين نفسه، وكتاب القلقشندي ألف بعد عمر بن الخطاب بسبعة قرون، وفيه من الخيالات الأدبية والروايات الشعرية ما يعين التلاميذ على اصطناع الأساليب الحسنة")[1] (انتهى كلام الشيخ الغزالي)

ومرة أخرى نذكر بأن الذي دافع عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو رجل غير مسلم كما رأينا ، وبالتالي فإن دفاعه أبعد ما يكون عن التحيز أو الريبة

ونعود الآن إلى كتاب الدكتور اللواء نبيل لوقا بباوي (انتشار الإسلام بالسيف بين الحقيقة والافتراء) لنرى كيف عامل المسلمون أقباط مصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب حتى يعلم الجميع أننا لا نبالغ حين نقول إن الارتقاء الإنساني والسمو الأخلاقي الذي عاشه المسلمون واقعاً حيّاً ممتثلين فيه لأمر رسولهم الكريم ﷺ **يفوق روح العصر** في قرننا الحادي والعشرين – التي تحدث عنها مؤلف كتاب وهم الإله - بأضعاف مضاعفة يصعب حصرها

ففي تعليقه على "فتح مصر" كتب الدكتور بباوي ما يلي :

"**التاسع عشر**: في عام ٦٣١م حاول هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية أن يوحد العقيدة المسيحية مرة أخرى في جميع الولايات التابعة للإمبراطورية حسب المذهب الآريوسي – أي الكاثوليكي – ذي الطبيعتين للسيد المسيح وأرسل حاكماً جديداً هو المقوقس الذي قام باضطهاد المسيحيين من جديد لتغيير عقيدتهم الأرثوذكسية ، فقام بإحراقهم أحياء وانتزاع أسنانهم لدرجة أن الأنبا بنيامين بطريرك الأقباط الأرثوذكس في الإسكندرية قام الجنود الرومان بحرق أخيه متياس ، وأشعلوا فيه النار حيّاً لرفضه الاعتراف بقرارات الإمبراطور هرقل الجديد ، ويجمع

[1] - المرجع نفسه صفحة ٤٥ و ٤٦

جميع المؤرخين أن هذه الحماقات من جانب المقوقس جعلت الأقباط في مصر يكرهون حكم الدولة البيزنطية ، وكانوا يصلون أن ينجوا من شرور الجنود الرومان، ولشدة الاضطهاد من جنود الرومان هرب البطريرك الأنبا بنيامين وترك مدينة الإسكندرية وهرب إلى الصعيد بعد أن رأى ما حدث لأخيه وللأقباط الأرثوذكس ، وفي هذا الجو المأسوي الدموي حيث تذكر كتب التاريخ القبطي أن دماء الأقباط الأرثوذكس كانت تصل إلى ركب الخيول للجنود الرومان ، وفي عام ٦٣٩م أتى عمرو بن العاص – أول حاكم مسلم لمصر من قبل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب - بجيشه إلى مصر ومعه حوالي أربعة آلاف مقاتل وفتح مصر في هذا الجو المأسوي ، وقد عقد الأمان مع المقوقس في نوفمبر ٦٤٢م بدفع الجزية أو ضريبة الدفاع على أن تقوم القوات الإسلامية بحماية المسيحيين ويسمح لهم بمباشرة عقائدهم الدينية ، وأصدر عمرو بن العاص كتاب أمان للأنبا بنيامين بطريرك الأقباط الثامن والثلاثين الذي كان هارباً في الصعيد بالعودة ونص عهد الأمان على الآتي: **(أينما كان بطريرك الأقباط بنيامين نعهده بالحماية والأمان و عهد الله، الأقليات والبطريرك هي هنا في أمان واطمئنان لتولي أمر ديانته ويرعى أهل ملته)** ودخل الأنبا بنيامين الإسكندرية في احتفال شعبي بعد أن ظل مختفياً في الصحراء في الصعيد لمدة ثلاثة عشر عاماً

العشرون: بعد ذلك الاستعراض التاريخي من واقع أمهات الكتب المسيحية لا يستطيع أحد أن يؤيد ما يقوله المستشرقون بأن الإسلام انتشر بحد السيف في مصر، بل الحقيقة أن أهل البلاد من الأقباط الأرثوذكس في مصر كانت لديهم رغبة قوية في هزيمة الجيوش البيزنطية الرومانية لذلك قام الأقباط الأرثوذكس بإرشاد قوات عمرو بن العاص في كل تجولاتها في مصر لتخلصهم من حمامات الدم والمقابر الجماعية التي كان ينصبها الجنود الرومان للأرثوذكس في مصر والشام

الحادي والعشرون: لقد وصل تسامح عمرو بن العاص مع الجنود الرومان البيزنطيين وأعدائه أنه نص في عقد الأمان المبرم مع قيرس أو المقوقس كما يطلق عليه أهل مصر الذي أبرم في عام ٦٤٢م أنه سمح للجيش البيزنطي بالانسحاب من مصر وأن يحمل جنوده أمتعتهم وأموالهم وأن يتعهد المسلمون ألا يتعرضوا للكنائس الخاصة بهم، هل يوجد تسامح أكثر من ذلك؟ أن تترك أعداءك يخرجون أمام عينيك **بأمتعتهم وأسلحتهم** وأنت تعلم مقدماً أنهم سوف ينظمون أنفسهم مرة أخرى لمقاتلتك وقتل الجيوش الإسلامية ؟ ولكنها تعاليم الإسلام عندما تبرم عقد الأمان يجب الالتزام به وأن **القتال ليس هدفاً لذاته** بل هو خطوة للدفاع عن النفس ولتأمين الدولة الإسلامية الحديثة

الثاني والعشرون: أن المسيحيين في مصر تلقوا أشكال التعذيب بكل أنواعه على يد الدولة الرومانية ولم تضع الدولة البيزنطية أمامهم إلا خيارين ، الخيار الأول هو عبادة الأوثان أي عبادة الإمبراطور، والخيار الثاني هو القتل، وبعد أن أصبحت الديانة المسيحية هي الديانة الرسمية للدولة البيزنطية وضعوا المسيحيين في مصر أمام خيارين اثنين: الأول هو القتل، والثاني هو ترك عقائدهم الأرثوذكسية في الديانة المسيحية و اتباع العقائد الكاثوليكية التي يرفضونها، واستشهدوا في كل العصور من أجل عقائدهم الأرثوذكسية، لذلك حينما أتى عمرو بن العاص وعرض تخليصهم من عذابهم على أن يدفعوا الجزية أو ضريبة الدفاع مقابل الدفاع

عنهم وتخليصهم من ظلم الدولة الرومانية على أن يباشروا عقائدهم الدينية بحرية تامة حسب معتقداتهم الدينية في طبيعة السيد المسيح رحبوا بذلك

الثالث والعشرون: ولأهل الكتاب ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وأهم من ذلك كله مبدأ "لا إكراه في الدين" ويعني ذلك عدم إكراه أقباط مصر في المجتمع الإسلامي على ترك ديانتهم من أجل اعتناق أي ديانة أخرى، **وقد بنيت كنائس كثيرة بعد دخول الإسلام مصر** في القرن الأول الهجري مثل كنيسة مار مرقص بالإسكندرية في العام التاسع والثلاثين للهجرة كما بنيت أول كنيسة في الفسطاط **التي أنشأها عمرو بن العاص** في حارة الروم في وقت ولاية مسلمة بن مخلد على مصر في العام السابع والأربعين للهجرة"[1]

هذه شهادة هامة للدكتور نبيل لوقا وليست من كلام المسلمين، ولنا هنا تعليق من نقطتين عليها :

النقطة الأولى: هي أن تصريح الدكتور اللواء بباوي بأنه قد بنيت كنائس كثيرة بعد دخول الإسلام مصر في القرن الأول الهجري هو دليل عملي ناطق على أرض الواقع لا يستطيع أحد إنكاره على أن الخليفة عمر بن الخطاب **لم يأمر بعدم بناء كنائس جديدة ولم يأمر بتكسير الصلبان** ولا بعدم إصلاح ما تكسر منها، وهو دليل دامغ لا يقبل النقض ولا التشكيك على أن شهادة السيد (أ س ترتون) السابقة والتي بين فيها أن عقد الأمان المنسوب للخليفة عمر بن الخطاب والذي حوى بنوداً فيها عدم بناء كنائس ولا صوامع جديدة هو عهد مشكوك فيه، تصبح شهادة لها وزنها لأن الواقع الذي شرحه الدكتور بباوي عن مصر والذي ما زلنا نراه بأعيننا **أصدق بألف مرة من جميع ما حوت الكتب والمكتبات في كل بقاع الأرض**

النقطة الثانية: هي أن الكنائس التي تملأ كل ربوع الدول الإسلامية والتي مر على بنائها أكثر من ألف وثلاثمائة عام – ومنها كنائس بنيت بأموال المسلمين وبأيدٍ مسلمة - هي شاهد عيان واقعي يتحدث بكل لغات العالم **ليشهد على أعظم ارتقاء إنساني وأخلاقي عرفته البشرية في جميع عصورها حتى يومنا هذا** ، وهو الارتقاء الذي يجعل الأغلبية المسلمة تنظر إلى الأقليات الموجودة في بلدها على أنها هي والمسلمين ليسوا فقط "أمة واحدة" وإنما تشعر هذه الأغلبية المسلمة أن الأقليات الدينية في حمايتها وأمانها خوفاً من غضب رسولها الكريم وخالقها سبحانه وتعالى، وهذا الارتقاء الذي يطاول السحاب – والذي كان مرجعه إلى تلك الكلمات قليلة العدد التي قالها رسول الله محمد ﷺ **"من ظلم معاهداً – فأنا حجيجه يوم القيامة"** - لم يحدث مطلقاً خارج حدود الدولة المسلمة ، ولا حتى في أكثر دول العالم الحر تقدماً كما سنبين بعد قليل ،

وقد أشار إلى هذه النقطة تحديداً السياسي الألماني الدكتور ويلفريد هوفمان[2] وذلك في كتابه القيم "الرحلة إلى الإسلام – يوميات دبلوماسي ألماني" تحت عنوان "تعليم التسامح" فقد كتب يقول :

"لدى عودتي من البطولة الدولية الثامنة للباليه في فارنا على شاطئ البحر الأسود البلغاري، وهي البطولة الأوليمبية غير الرسمية لعالم الرقص، اكتشفت في صوفيا كنيسة صغيرة تقبع

[1] - د: نبيل لوقا بباوي، انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء ، صفحة ١٥٧

[2] – ولد عام ١٩١٣م، وحصل على شهادة الدكتوراة في القانون من جامعة هافارد، وعمل خبيراً في مجال الدفاع النووي في وزارة الخارجية الألمانية ثم مديراً لقسم المعلومات في حلف الناتو في بروكسل من عام ١٩٨٣ حتى عام ١٩٨٧م، ثم سفيراً لألمانيا في الجزائر عام ١٩٨٧م ثم سفيراً لها في المغرب عام ١٩٩٠م –

تحت مستوى الشارع وكأنها قد غرقت في خندق، ويعتبر هذا المبنى الغريب واسمه القديس بطرس سامرجينسكا ، أحد أهم ما يجذب النظر في العاصمة البلغارية، وقد بني هذا المبنى عندما كان هذه البلد جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ، وقد فسر الدليل السياحي الذي كان يرشدني إلى معالم المدينة أن هذه الوضعية الغريبة للكنيسة كانت دليلاً على التمييز العنصري للمسلمين ضد الأقلية النصرانية آنئذٍ،

إلا أنني أراها من الزاوية الأخرى: إنني أعلم علم اليقين أن النصارى الإسبان بعد المحررين قد دمروا بشكل شنيع كل مسجد من مساجد المسلمين من ملقا (*Malaga*) إلى غرناطة، ومن صقلية إلى طليطلة، إلا أن البناء الرائع في قرطبة نجا واكتفوا بتخريبه بشكل بشع لسبب واحد فقط وهو أنه كان يمكن تحويله إلى كاتدرائية ، وقد تعرض المسجد الكبير في الجزائر للمصير ذاته في القرن التاسع عشر، ولقد علمت أيضاً أنه كان مضيعة للوقت أن تبحث عن مئات المساجد التي وجدت في حقبة من الحقب التاريخية في صربيا واليونان لما كانت تحت الحكم التركي (العثماني)، ففي بلغراد لا يمكنك أن تجد سوى مسجد صغير جداً لا تظهر فيه أي مؤشرات وزخارف معمارية، ويبدو أنه نجا من الدمار الذي حل بسائر المساجد الأخرى، حقاً إنه تناقض عجيب!

إن الفاتحين المسلمين لم يسمحوا فقط لأتباع النصرانية أن يستمروا في كنائسهم الموجودة، بل إنهم سمحوا لهم ببناء المزيد من الكنائس تحت ظل الحكم الإسلامي، فكيف إذن يمكن أن يستمتع السياح اليوم بجواهر مثل كنيسة كورا البيزنطية الشهيرة (كاريا كامي)، واليونان الأرثوذكس والكاتدرائيات الأرمينية في اسطنبول؟ فلو كان التشدد النصراني هو النموذج الذي اتبعه المسلمون فماذا يا ترى يمكن أن يبقى من الكنائس الصربية الموجودة على بحيرة أوهريد، أو جراكانيسيا، أو ديكاني، أو سوبوكاني، أو بيك ، أو ستودانسيا ، والرائعة الفخمة أيا صوفيا في استنبول، **إن العلامة الفارقة بين التشدد النصراني والتسامح الإسلامي تعتمد على الأمر القرآني الصارم أن يتسامح المرء مع مؤمني أهل الكتاب والذي تطور فيما بعد ليصبح قانوناً مفصلاً لحماية كل من الأقليات و الأجانب"**[١]

وننتقل إلى نقطة هامة توضح كيف أن تسامح المسلمين مع غير المسلمين في الدولة المسلمة وصل إلى حد تولي بعض المسيحيين منصب الوزارة وكثيراً من المناصب الرفيعة وأن تسامحهم هذا جر عليهم الويلات في كثير من الأحيان - كما يشهد بذلك كتاب غربيون – ولنقارن هذا الوضع المميز لهذه الأقليات بما ذاقه المسيحيون البروتستانت والأرثوذكس على يد الكنيسة الكاثوليكية التي لم تكن تسمح لهم بحقهم حتى في البقاء على قيد الحياة كما قرأنا منذ قليل في كتاب الدكتور نبيل لوقا بباوي

جاء في كتاب "التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام" للشيخ محمد الغزالي ما يلي:

"ولما فتح المسلمون الأوائل أقطار الدنيا المعروفة يومئذٍ أبقوا الموظفين في أعمالهم الأولى، فلم يكرهوا أحداً منهم على الإسلام ، ولم يفصلوا رجلاً عن عمله بكفران ، **قال الدكتور (ترتون): (كانت عادة الحكومة قد جرت على استعمال النصارى الذين قلما خلا منهم ديوان من دواوين**

[١] - د: مراد هوفمان ، الرحلة إلى الإسلام – يوميات دبلوماسي ألماني ، مكتبة العبيكان ، ترجمة د: محمد سعيد دباس ، الطبعة ١٤٣١/٤ ه / ٢٠١٠ م ، صفحة ٤٥

الدولة، ونلاحظ في سنة ٢٥٣ هجرية وجود إيصال ضريبة باللغتين العربية واليونانية ، وقد استعملت اللغة العربية لأول مرة في أعمال الحكومة بأصفهان زمن (أبي مسلم) كما أننا نرى رجلاً مسيحيّاً يتولى إدارة السجن قريباً من الكوفة سنة ٢٦ وقت أن كان الوليد بن عقبة عاملاً عليها، ولما تم للعرب فتح مصر أبقوا من فيها من العمال البيزنطيين)[١]

ويكمل الشيخ الغزالي قائلاً: "واستعمال اليهود والنصارى في الوظائف الكبيرة والصغيرة أمر شائع في بلاد الإسلام إلى هذا العصر ، أما التعصب المسيحي فهو لم يتجه إلى اضطهاد أهل الأديان الأخرى فحسب، وإلى تحريم الوظائف الجليلة والتافهة عليهم، بل إن أتباع المذهب المسيحي الواحد يحرمون أن يلي عملاً بينهم صاحب مذهب مسيحي آخر، وقد حدث في القرن الثامن عشر **أن قتل محام بروتستانتي** لأن القانون الفرنسي يومئذٍ يحظر مهنة المحاماة على البروتستانت**!!** وقد حار هذا الحقوقي البائس بين التعطل وبين الارتداد عن مذهبه إلى الكاثوليكية ليستطيع العمل في مهنته ، ماذا يصنع؟ أيترك عقيدته ابتغاء الرزق؟ ولكن ارتداده يثير عليه أسرته المتعصبة، ثم انتهت هذه الحيرة بمقتله ، **واتهم أبوه باغتياله فأعدم**، وقيل أنه انتحر يأساً، وأن أباه لم يقتله، وتعرف هذه القصة بمأساة "كالا" ويكمل الشيخ الغزالي: "ووقعت في العصر نفسه قصة مشابهة تسمى مأساة "سيرفين"، فإن امرأة كاثوليكية كانت تخدم أسرة بروتستانتية، فأغرت ابنتها بالفرار إلى دير كاثوليكي حيث سيمت سوء العذاب لتغير عقيدتها، **غير أن الفتاة تخلصت من عذابها بالانتحار** غرقاً في بئر، فاتهمت السلطات الكاثوليكية أباها بإغراقها ليحول دون ارتدادها عن دينها! ثم صدر حكم قضائي **بقتل الرجل وامرأته ومصادرة أملاكهما!!** هذه المسالك المنكرة شاعت في معاملة المسيحيين بعضهم مع البعض، وفي هذا الجو الكئيب المكفهر لا يمكن أن تستروح نعمة الحياة الكريمة والحقوق المصونة أقليات دينية أخرى فضلاً عن أن تشغل بعض المناصب في الدولة

ويكمل الشيخ الغزالي "فإذا طويت هذه الصفحة، واستقرأت أحوال الذميين في ظلال الحكم الإسلامي انتقلت من النقيض إلى النقيض، ورأيت المناصب من الوزارة فما دونها مباحة للأكفاء من اليهود والنصارى، بل لرأيت من تمكن هؤلاء في الحكم واطمئنانهم إلى رسوخ أقدامهم، وشعورهم بخلو الجو لهم ما أغراهم – وهم القلة المدللة – بمحاولة إيذاء المسلمين وإذلالهم، وبمحاباة طوائفهم في كل شيء، استغلالاً خسيساً لمرونة الدين الذي منحهم حق الحياة الكريمة في جنباته ، قال الدكتور (ترتون)**: لما لام الناس ابن الفرات ورموه بالكفر لسوقه إمارة الجيش إلى أحد المسيحيين، دافع عن نفسه بأنه اقتدى بالخلفاء السابقين الذين ولوا النصارى وظائف الدولة، وكان هؤلاء العمال النصارى يلقون كل مظاهر الاحترام، إلا أن المسلمين رفضوا تقبيل أياديهم بعد أن فرض ذلك عليهم! وحدث في بغداد أن دخل أحد الوزراء النصارى واسمه عبون بن صاعد على القاضي إسماعيل بن خاقان فوقف له مرحباً، ولاحظ القاضي أن الشهود وبقية الحاضرين أنكروا عليه هذا العمل، فلما خرج الوزير قال لهم القاضي: قد علمت إنكاركم، والله تعالى يقول "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم" وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين، وهو سفير بيننا وبين خليفتنا، وهذا من البر، فأمن السامعون على قوله ورضوا به"** لكن إغراء السلطة ووساوس التعصب الكامن كانت تكيد كيدها ضد الإسلام من وراء ستار حتى

[١] - الشيخ محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر ، ط ٦/٢٠٠٥م صفحة ٤٩

ضج الناس بها، وحدث في سنة ٣٨٧هـ – ٩٧٧م أن آلت الرياسة في بلدة دقوقا إلى اثنين من النصارى، وتمكنا بها وتصرفا فيها تصرف الحاكم واستعبدا المسلمين، فقدم بعض هؤلاء المسلمين على "جبرائيل بن محمد وقالوا له: إنك تريد الغزو ولست تدري أتبلغ غرضاً أم لا؟ ونحن عندنا من هذين النصرانيين من قد تعبدنا وحكم علينا، فلو أقمت عندنا وكفيتنا أمرهما ساعدناك على ذلك، فقبض جبرائيل عليهما وصادر أملاكهما، واستوزر المعز لدين الله عيسى بن نسطور النصراني واستناب بالشام منشة اليهودي فمال الوزير عيسى إلى النصارى و شجع منشة اليهود، فضج الناس بالشكوى! فألقى الخليفة القبض عليهما وأخذ من عيسى ثلاثمائة ألف دينار وغرم منشة مبلغاً ضخماً، وفي سنة ٥٢٩هـ استوزر الحافظ لدين الله مسيحيّاً أرمينيّاً يدعى بهرام ويلقب تاج الدولة وقد عمد بهرام هذا إلى فصل المسلمين من وظائفهم وتعيين المسيحيين بدلهم – أنظر جرأة الأقلية وتوقحها على الأمة التي تعيش في ظلها، وقد كان مسلك هذا الوزير المتعصب سبباً في إثارة المسلمين ضده، وخصوصاً لأنه أوعز إلى النصارى بالإسراف في بناء الكنائس والأديرة حتى ظن أن الإسلام سينقرض من مصر، فلما هاج الجمهور ضده عزل عن الوزارة، وقال ابن الأثير في كتاب "الكامل" بل قتل، ونحن نتساءل: في أي عهد من التاريخ المسيحي استوزر الملوك يهوداً أو مسلمين؟ بل في أي عهد استوزر الكاثوليك بروتستانتيّاً أو العكس؟ إن المسلمين وحدهم هم الذين فعلوا ذلك"[١] **انتهى كلام الشيخ الغزالي**

وعلينا هنا أن نعترف ونشيد بوجود بعض المسلمين في مناصب هامة في دول العالم الحر مما يدل على وجود هذا الارتقاء الإنساني الرفيع في بعض أوجه الحياة هناك، وبالطبع فإن هذا المناخ وحده هو القادر على إشاعة الثقة و إطلاق الإبداع الإنساني في جميع مجالات العلم والأدب والفكر، ولكن السؤال الهام هو : بأي عدد من السنين تحقق هذا السبق الإنساني الفريد للإسلام على كل شعوب الأرض إذا كنا قد قرأنا قول الكاتب غير المسلم "أ س ترتون" أنه في عام ٢٦ هجرية أي ٦٤٨م تقريباً كان مدير السجن في الكوفة رجلاً مسيحيّاً وأن الموظفين المسيحيين على حد تعبيره **"قلما كان يخلو منهم ديوان من دواوين الدولة"** في الوقت الذي رأينا فيه مأساة المحامي الفرنسي الذي قتل أو انتحر بعد هذا التاريخ بألف ومائتي عام لأن صدور المسيحيين الكاثوليك في ذلك الوقت لم تتسع لقبول محام بروتستانتي يطلب الرزق ليعول أسرته على أرض فرنسا ؟

ولعل من المهم أن نختم هذه النقطة الخاصة بمعاملة المسلمين للأقليات غير المسلمة بشهادة الحبر ميشو (وهو رجل دين غير مسلم) التي نقلها أيضاً الشيخ الغزالي في الكتاب المذكور

فقد قال هذا الحبر: "لما تولى عمر بن الخطاب على بيت المقدس لم يلحق النصارى ضرر ما، **فلما استعاده النصارى قتلوا المسلمين قتلاً وحرقوا اليهود حرقاً"** وقال أيضاً: **"مما يؤسف له جدّاً بالنسبة إلى المسيحيين أن تأتيهم المسالمة وشرف المعاملة من المسلمين"** [٢]

وبشهادة الكونت هنري دي كاسترو - وهو جنرال عسكري فرنسي - التي نقلها الشيخ أيضاً في الكتاب نفسه حيث قال :

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ٥١ و ٥٢
[٢] - المرجع نفسه صفحة ١٩١

" إن **مبالغة المسلمين في الإحسان إلى خصومهم** هي التي مهدت للثورة عليهم، إذ أتاحت للمتعصبين أن يجمعوا أمرهم على العصيان وأن يستغلوا الفرص للقضاء على الدولة التي منحتهم حق الحياة وحرية التدين ، ولو أن المسلمين عاملوا الأسبان مثل ما عامل المسيحيون الأمم الساكسونية لأخلدوا إلى الإسلام واستقروا عليه" ثم قال الكونت المنصف **"إن الإسلام لم ينتشر بالعنف والقوة كما يزعم المغرضون ، بل الأقرب إلى الصواب أن يقال: إن مسالمة المسلمين ولين جانبهم كانا السبب في سقوط دولتهم"** [1]

ونحن نعلق على كلام الكونت هنري بأن المسلمين لا يستطيعون بحال من الأحوال أن يعاملوا أيّاً من الأقليات الموجودة في الدولة المسلمة بهذه البشاعة التي تعامل بها الإسبان أو غيرهم، ليس لأنهم ضعفاء ولكن لأنهم **مقيدون بقيود أعظم ارتقاء إنساني** وأخلاقي عرفته البشرية ، ذلك الارتقاء الإنساني هو ما أسسه رسولها الكريم ﷺ بقوله **"ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة "**[2] وأسسه القرآن الكريم في سورة يونس (٩٩)

"ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين "

تلك النصوص الراقية التي غرست في نفوس المسلمين أن الله عز وجل لا يقبل إيمان أي شخص ما لم يكن هذا الشخص مقبلاً على الإيمان بكل قلبه ومشاعره ، وأن الله عز وجل قادر على أن يحول قلوب جميع البشر إلى الإيمان به بكلمة واحدة من حرفين هي كلمة "كن" فيكون، كما غرست في نفوس المسلمين أن الإيمان تحت قهر السيف **هو والكفر سواء** ، وأن حرمة الدم المعصوم سواء بعصمة الإسلام أو بعصمة عقود الذمة ترقى إلى مستوى لا يعرفه أحد من البشر خارج حدود الدين الحق الذي جعل جريمة قتل نفس واحدة تساوي جريمة قتل كل البشر حين قال تعالى في سورة المائدة (٣٢)

"من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً"

إن ذهاب الممالك والدول والأراضي من أيدي المسلمين برغم أنه أمر عسير على نفوس المسلمين لما يعقبه من تدمير لكل ما هو إنساني في تلك الممالك ، كما رأينا من محاكم التفتيش في أسبانيا والفلبين والبلقان وكل بقاع الأرض التي حلت بها جيوش غير مسلمة ، لكنه أهون على المسلمين من إكراه الناس على اعتقاد ما لا يريدون اعتقاده بكامل إرادتهم ، **هذا هو الارتقاء الأخلاقي الذي لم تعرفه البشرية مطلقاً إلا في الدولة المسلمة**

معاملة الأقليات الدينية خارج حدود الدولة المسلمة :

والآن نلقي الضوء على معاملة جميع شعوب الأرض قديماً وحديثاً للأقليات الدينية حتى يظهر الفارق الشاسع بين الارتقاء الأخلاقي والإنساني الذي علمه رسول الإسلام لأمته منذ عشرات

---

[1] - المرجع نفسه صفحة ١٩١ أيضاً
[2] - سنن أبي داود ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ٣٠٥٤

القرون ، وبين السقوط الأخلاقي الذي مارسته كل شعوب الأرض ضد هذه الأقليات بمن فيها الشعوب التي تعتبر نفسها أرقى البشر ، والتي ظل مؤلف كتاب وهم الإله يردد أنها وصلت بفعل "روح العصر الحديث" إلى مستوى الأخلاق الراقية بدون تدخل من الدين ، وسوف يتضح وضوح الشمس أن أعظم ما وصلت إليه روح العصر الحديث متخلف بمسافات شاسعة عن الأخلاق التي جاء بها الدين الحق منذ القرن السابع الميلادي

أولاً: الأمم التي كانت معاصرة أو قريبة من عصر نزول القرآن الكريم :

الدولة البيزنطية:

كتب اللواء الدكتور نبيل لوقا بباوي في كتابه "انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء" عند تعليقه على فتح مصر ما يلي :

"**رابعاً**: وفي عام ٦٨م أقام ماري مرقص الرسول أول كنيسة في منطقة تسمى بوكاليا على شاطئ البحر المتوسط شرق الإسكندرية وفي ٢٦ أبريل ٦٨م بينما كان المسيحيون يحتفلون بعيد الفصح والوثنيون يحتفلون بعيد إلههم سيرابيس كان ماري مرقص يدعو لعبادة الله الواحد ويدعوهم لعدم عبادة الأوثان ، فتربص به الرومان وربطوه بحبل من عنقه وأخذوا يطوفون به في شوارع المدينة حتى تمزق لحمه وتهشمت عظامه بمساعدة الجنود الرومانيين ووضعوه في السجن حتى فارقت روحه الطاهرة جسده في ٢٧ أبريل ٦٨م ثم أوقدوا النار في جسده وقام المسيحيون بدفنه في كنيسة بوكاليا ---

خامساً: وبعد زيادة أعداد المسيحيين في مصر زيادة كبيرة زاد اضطهاد الدولة الرومانية والجنود الرومان ، لدرجة أن في عهد الإمبراطور ترجان تم القبض على بطريرك الأقباط كزونوس وتم قتله بمعرفة الجنود الرومان في عام ١٠٦م --- وقام حاكم مصر الروماني فلافيوس كومودرس بالاستيلاء على البطريركية القبطية ونهب أمتعتها وسلب أواني الكنيسة ، وتم القبض على البطريرك الثاني عشر ديمتروس ونفاه إلى مدينة أوسيم ، واشتد اضطهاد الدولة الرومانية للمسيحيين في جميع أنحاء العالم لدرجة أنه في عام ٢٤٠ م أمر الإمبراطور الروماني بالقبض على رؤساء المسيحيين في كل الإمبراطورية ، وقام والي مصر بالقبض على البطريرك ديونيسيوس وأودعه السجن، وفي عام ٢٤٨ م تولى عرش الإمبراطورية الرومانية ديسيوس وأصدر قراراً باضطهاد المسيحيين عموماً في جميع أنحاء الإمبراطورية ولذلك قام والي مصر الروماني اميليانوس بإصدار تعليمات تقضي بأن يطلب من كل شخص مصري أن يعلن تمسكه بآلهته القديمة ويعلن ذلك أمام الموظفين المسئولين ويحصل على شهادة بذلك من هؤلاء الموظفين ، ومن يرفض ذلك يكن جزاؤه الموت

سادساً --- وفي عام ٢٨٤م تولى عرش الإمبراطورية دقلديانوس وفي عام ٢٨٥م تولى الأنبا بطرس البطريرك السابع عشر ، وكان البابا بطرس قد أصدر بعض الكتب بعدم عبادة الأوثان فأصدر الإمبراطور دقلديانوس أمراً بإعدام البطريرك وتم قطع رأسه في منطقة بوكاليا ---- وفي عهد الإمبراطور دقلديانوس تحمل المسيحيون في مصر ما لم يتحمله أي شعب في التاريخ من التعذيب حيث بدأ عصر الشهداء في مصر منذ أن تولى الحكم في ٢٨٤م فكان في عهده يتم تعذيب المسيحيين بإلقائهم في النار أحياء، أو كشط جلدهم بآلات خاصة، أو إغراقهم في زيت

مغلي، أو إغراقهم في البحر أحياء، أو صلبهم ورؤوسهم منكسة إلى أسفل ويتركون أحياء على الصليب حتى يهلكوا جوعاً ولا يتم إنزال جثثهم من الصليب ولكن تترك للغربان لتأكلهم، أو كانوا يوثقون في فروع الأشجار ويتم تقريب فروع الأشجار بآلات خاصة ثم تترك الفروع لتعود إلى وضعها الطبيعي فتتمزق الأعضاء الجسدية قطعاً قطعاً، ويقدر البعض أعداد المسيحيين الذين قتلوا بالتعذيب في مصر في عهد الإمبراطور دقلديانوس بأكثر من مليون مسيحي ، لذلك قررت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر اعتبار ذلك العصر عصر الشهداء"[١]

ولم يكن الاضطهاد الديني في الدولة البيزنطية موجهاً فقط إلى المذاهب المسيحية المخالفة للمذهب الكاثوليكي، وإنما كان موجهاً إلى اليهود أيضاً، فقد أصدر هرقل في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام بوقت قصير قراراً بتعميد جميع اليهود والسامريين الموجودين في الشام و في جميع الولايات التابعة للإمبراطورية، وكان الموت البشع هو مصير من يرفض التحول إلى المسيحية الكاثوليكية

ثانياً : العصور الوسطى :

لسنا بحاجة إلى الحديث عن الاضطهاد الديني المسيحي ضد الأقليات في العصور الوسطى ، لأنها قضية أوضح من ضوء الشمس ، بل إن العصور الوسطى ليست لها صفة تميزها أكبر من الاضطهاد الديني، لدرجة أن اسم (عصر الاضطهاد الديني) أشهر للدلالة على القرون الوسطى من أي اسم آخر ، لكن الذي يجب أن نلفت النظر إليه هو أن جرائم محاكم التفتيش الكاثوليكية ضد كل من خالفها في مذهبها الديني لم تكن موجودة فقط في إسبانيا أو أوروبا ، فكل الجرائم البشعة التي ارتكبت ضد ملايين المسلمين (الموريسكيين) في إسبانيا كانت ترتكب في الوقت نفسه ضد كل الشعوب التي وصلت إليها الجيوش الأوروبية التي خرجت لتستكشف (العالم الجديد) وتدخله في المذهب الكاثوليكي بالقوة ، و كل دول الغرب الأمريكي و جنوب شرق آسيا و أفريقيا تشهد على الثمن الباهظ الذي دفعته البشرية على يد تلك الجيوش (وما زالت تدفعه) في سبيل تمسكها بدينها وعقيدتها

وهنا نشير إلى شهادة المطران الإسباني برتولامي دي لاس كازاس الذي صاحب الحملات الإسبانية إلى العالم الجديد – أي الأمريكتين – لنشر المسيحية الكاثوليكية في عام ١٥٢١م، تلك الشهادة التي وردت في كتاب بعنوان (المسيحية والسيف – وثائق إبادة الهنود الحمر) ، فقد حصر هذا القس عدد الضحايا الذين قتلوا وقطعوا بالسيوف أو حرقوا أحياءً بخمسة عشر مليون[٢] رجل وامرأة وطفل على اليابسة و ثلاثة ملايين[٣] من سكان الجزر حتى عام ١٥٤٢م فقط وهو العام الذي كتب فيه شهادته على الأحداث ، ولا عجب أن يذكر الباحثون المعاصرون أن إجمالي عدد الضحايا من الهنود الحمر بلغ ١١٢ مليون نسمة استناداً إلى دراسات و مصادر أمريكية كما سنبين بعد قليل.

---

[١] - د: نبيل لوقا بباوي ، انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء، صفحة ١٥٠ - ١٥٤

[٢] - المطران برتولامي دي لاس كازاس ، المسيحية والسيف – وثائق إبادة الهنود الحمر ، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية ، ترجمة :سميرة عزمي الزين ، صفحة ٢٥ سطر ٢٠

[٣] - نفس المرجع صفحة ٢٤ سطر ٢١

والسؤال الآن : لو كانت كل هذه الجيوش فعلت ما فعلته جيوش الإسلام قبلها بعشرة قرون و أعطت لجميع هؤلاء البشر حريتهم الدينية و منحتهم الأمان على أرواحهم و أموالهم و معابدهم و شعائرهم ، فكيف كان يمكن أن يكون شكل العالم اليوم ؟ و كم ضحية بريئة كانت ستحقن دماؤها ؟

وفي سياق التدني الأخلاقي في العصور الوسطى نشير أيضاً إلى شهادة الدكتور جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) حيث أعطى مقارنة هامة بين بطش الجيوش المسيحية بالشعوب التي غزت بلادها وبين تسامح الجيوش المسلمة مع تلك الشعوب ، فقد قال في (الفصل الثالث – فتوح العرب) ما يأتي :

"ويثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العرب الفاتحون الأمم المغلوبة، والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة، فلم يرد عمر أن يدخل مدينة القدس معه غير عدد قليل من أصحابه، وطلب من البطريرك صفرونيوس أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة، و أعطى الأهلين الأمان، وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم و أموالهم ، وبتحريم العبادة على المسلمين في بيعهم ، ولم يكن سلوك عمرو بن العاص بمصر أقل رفقاً من ذلك فقد عرض على المصريين حرية دينية تامة وعدلاً مطلقاً واحتراماً للأموال وجزية سنوية ثابتة لا تزيد على خمسة عشر فرنكاً عن كل رأس بدلاً من ضرائب قياصرة الروم الباهظة ، فرضي المصريون طائعين شاكرين بهذه الشروط دافعين للجزية سلفاً ، وقد بالغ العرب في الوقوف عند حد هذه الشروط والتقيد بها فأحبهم المصريون الذين ذاقوا الأمرين من ظلم عمال قياصرة القسطنطينية النصارى وأقبلوا على اعتناق دين العرب ولغتهم أيما إقبال"[1]

كما نقل د: غوستاف لوبون في الكتاب نفسه ما فعله الصليبيون بأهالي القدس قائلاً :

"وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون، قال كاهن مدينة لوبوي ريموند داجيل :"حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها فقد قطعت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم ، وبقرت بطون بعضهم، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في النار فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب و أيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا" وروى ذلك الكاهن الحليم خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر ، فعرض الوصف اللطيف التالي:"لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهنالك، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها ، فإذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة" ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود و خوارج النصارى ، الذين كان عددهم ستين ألفاً

[1] - د: غوستاف لوبون : حضارة العرب ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ترجمة عادل زعيتر ، صفحة ١٣٥

فأفنوهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام ، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً"[1] **وبرغم كل هذه الحيوانية و الهمجية** إلا أن المسلمين بقيادة صلاح الدين حين استردوا مدينة القدس بعد تلك المذابح بسنوات قليلة ظلوا على نفس ارتقائهم الأخلاقي العظيم الذي لم تشاركهم فيه أمة أخرى من جميع أمم الأرض ، فقد كتب د: غوستاف لوبون عن ذلك ما يلي :

"ولم يشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش فيبيد النصارى على بكرة أبيهم ، فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم مانعاً سلب شيء منهم" [2]

هل شعرنا الآن بالفارق الهائل بين الارتقاء الإنساني و الأخلاقي الذي جاء به الإسلام و بين السقوط الأخلاقي الذي جاءت به المذاهب المحرفة ؟

ثالثاً : القرن العشرون :

دعونا نفترض مع الملحدين أن كل هذه الأهوال كانت سمة حقبة مظلمة من تاريخ البشرية في القرون الوسطى ، وأن البشرية منذ أن عصفت بسلطان الكنيسة أو رجال الدين وألقته خلف ظهرها ، وانطلقت إلى عصر العلم الحديث أصبحت قادرة على دفع منحنى الأخلاق في الاتجاه الصحيح الصاعد باستمرار بدون تدخل الدين وبدافع من روح العصر الحديث،

فهل إذا استثنينا انتكاسة القرون القديمة و القرون الوسطى من دراستنا سنحصل على التصحيح المطلوب للمنحنى الصاعد طبقاً لنظرية د: ريتشارد عن أخلاق "روح العصر" ؟

ولنسأل السؤال بشكل آخر أكثر تركيزاً : لو افترضنا صحة ما جاء في كتاب "وهم الإله" من أن منحنى الأخلاق يرتفع صعوداً بفضل "روح العصر الحديث"، وأن روح العصر هي المحرك الوحيد لهذا الصعود بدون أي تأثير من الدين ، بل إن الدين في حقيقته هو المعوق الرئيس لهذا الصعود ، أليس كان السيناريو الحتمي أن نرى أخلاق القرن العشرين – بعد أن استثنينا القرون الوسطى - أكثر ارتقاءً و بفوارق ضخمة من أخلاقيات القرن السابع الميلادي؟ وحيث أن الدين هو المعوق الرئيس للمنحنى الصاعد للأخلاق أليس كان حتميّاً أن نرى أن الأخلاق الموجودة في الدين الحق – الإسلام - تقبع متخلفة عن أخلاقيات القرن العشرين بآلاف السنين، فهل هذا هو الذي حدث أم أن الواقع الحقيقي يكذب هذا الفرض ويتصادم معه بشكل مأسوي؟

ولتناول الأمر بشكل دقيق : فإننا هنا نتحدث عن عاملين اثنين يهدمان نظرية د: ريتشارد داوكنز من أساسها ، عامل الزمن وعامل الدين ، فعلى مستوى عامل الزمن: هل كان القرن العشرون أكبر حظّاً من حيث الأخلاق الحميدة من القرن السابع الميلادي ؟

وعلى مستوى عامل الدين : هل كانت الحضارات التي أزاحت الدين من جميع المجالات وانطلقت بدون تدخل الدين حتى في أقل مستويات حياتها ، هل كانت هذه الحضارات أكثر ارتقاءً في معاملة الآخر من الحضارات التي عاشت في ظل تعاليم دينية متصلة بخالق للكون يشرع لها كل ما يجب عليها فعله وما يجب عليها تجنبه؟

---

[1] - المرجع نفسه صفحة ٣٢٦ و ٣٢٧
[2] - المرجع نفسه صفحة ٣٢٩

أولاً: على مستوى عامل الزمن

ألمانيا النازية:

رأينا أن اليهود الذين كانوا أقلية دينية في المدينة في القرن السابع الميلادي حصلوا بموجب الصحيفة التي كتبها لهم رسول الله محمد ﷺعلى جميع حقوق المواطنة وصاروا – هم وعبيدهم - مع الأغلبية المسلمة "أمة واحدة" بل حصلوا على ما لم تحصل عليه أي أقلية دينية على مر تاريخ البشرية حتى يومنا هذا، وهي الحصانة التي أعطاها لهم رئيس الدولة ورسول الإسلام بقوله في الحديث الذي ذكرناه سابقاً : **"من آذى ذمياً أو انتقصه حقه أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة"**

هؤلاء اليهود هم أنفسهم وبعد مضي ألف وثلاثمائة عام وعلى يد هتلر أحد زعماء أكبر دول العالم الحر ، في النصف الأول من القرن العشرين تم حرق عدة ملايين منهم ليس لجريمة ارتكبوها ولكن فقط لأنهم يهود، أليس هذا يثبت أن روح العصر حين تكون بعيدة عن الدين الحق تسير في الاتجاه المعاكس من حيث البعد الزمني؟ وأنها بدلاً من المنحنى الصاعد عبر الزمن تسير في اتجاه الهبوط الحاد إلى مستوى أقل من الصفر؟

روسيا القيصرية :

وإذا انتقلنا إلى الجهة الأخرى من العالم ، وبالتحديد في شمال ووسط قارة آسيا وجدنا نفس الصورة البشعة للانسياق خلف غرور القوة المفرطة حين لا تكون هناك قيود من الدين الحق تمنع حدوث هذا الانهيار الأخلاقي ، ففي النصف الأخير من القرن التاسع عشر وفي شمال قارة آسيا كانت هناك دولة تسمى روسيا القيصرية تمتلك جيشاً قوياً ، وقد استخدمت جيشها في السيطرة على كل الدول الإسلامية المحيطة بها وارتكاب جرائم بشعة ضد السكان لا تقل في بشاعتها عما فعله هتلر بكل خصومه

ولنقرأ بعض ما كتبه الشيخ محمد الغزالي في كتابه "الإسلام في وجه الزحف الأحمر" تحت عنوان "المسلمون في الاتحاد السوفيتي" عما حدث :

"كانت روسيا دويلة محدودة المساحة والقدرة تقع في الركن الشمالي الشرقي من أوروبا لا تزيد مساحتها على مساحة جمهورية مصر العربية، ثم أخذت تتسع وتبتلع أقطاراً أخرى مجاورة حتى بلغت الآن خمسة عشر ضعفاً من حجمها الأول ، أما الأقاليم الإسلامية التي انساح فيها الروس فهي رقع فيحاء بعيدة المدى تزيد مساحتها عن مساحة القارة الأوروبية كلها، وتشمل الأورال و استرخان وسيبيريا و القرم و القوقاز والتركستان -- **ومنذ استولى أباطرة روسيا على هذه البلاد خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة والجهود دائبة على سحق الإسلام فيها ومحو معالمه الثقافية والاجتماعية** -- وكان المسلمون ضحية تعصب القياصرة قبل الثورة التي أطاحت بهم ، ثم كانوا بعد انتصار الشيوعية في روسيا ضحية الإلحاد الذي يكره الدين كله، واليوم – تم تأليف الكتاب في ستينيات القرن العشرين – يتكون الاتحاد السوفييتي من أرض تسعة أعشارها كان إسلامياً"[١] ، ويكمل الشيخ الغزالي "ولم يستسلم المسلمون في تلك البلاد

[١] - الشيخ محمد الغزالي، الإسلام في وجه الزحف الأحمر، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م صفحة ٨٦- ٨٧

لسلطان الروس مع ذلك بل جعلوا يقاومون ويستبسلون متحملين في ذلك كل أنواع التضحية وهم يحاولون رد الطغيان عن بلادهم وأوطانهم، ففي بلاد الشركس والقوقاز استمر جهادهم على أشده حتى سنة ١٨٦٤ إلى أن وقع زعماؤهم المجاهدون في قبضة الروس، بل لقد أشاد (كارل ماركس) نفسه ببطولة المسلمين في القوقاز واستبسالهم في دفاعهم عن أوطانهم، ومن عباراته المأثورة في ذلك نداؤه للشعوب المستضعفة الذي يقول فيه: **"يا شعوب العالم : ليكن قتال القوقازيين من أجل حرياتهم درساً لكم ، تعلموا منهم فن الدفاع عن الحرية القومية"** والمؤرخ الروسي (فاديف) نفسه لم يتردد في القول بأن الحرب في شمال القوقاز شلت حركات الجزء الأكبر من الجيوش الروسية بعض الوقت" كما اضطر إلى الاعتراف بأنه **"لولا الحرب القوقازية التي عاقت تقدمنا لاستطاعت الجيوش الروسية أن تحتل الشرق بأجمعه من مصر إلى اليابان وهي تسير على نغمات فرقها الموسيقية،** ولم يكد يستتب الأمر لروسيا في منطقة القوقاز حتى أخذت تسير جيوشها نحو التركستان وغيرها من البلاد الإسلامية في أواسط آسيا إلى أن تم لها في النهاية إخضاع المنطقة كلها "[١]

هذا ما فعلته روسيا القيصرية التي كانت تدين بالمسيحية في الشعوب المسلمة التي اجتاحت أراضيها في نهاية القرن التاسع عشر، فهل كان هناك أي مظهر من مظاهر الارتقاء الأخلاقي الناتج عن روح العصر ؟ لو كانت نفوس هؤلاء الروس تحمل واحداً في الألف فقط من الارتقاء الأخلاقي الذي تعامل به المسلمون في القرن السابع الميلادي مع أجدادهم المسيحيين حين أعطوهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم لما حدثت تلك الجرائم البشعة في حق ما يقرب من خمسين مليون مسلم **لم يتوجهوا للروس بأي أذى،** أليس هذا الواقع الذي لا يستطيع إنكاره أحد ينسف نظرية د: ريتشارد الخاصة بروح العصر من أساسها ؟ أليست هذه الانهيارات الأخلاقية البشعة جاءت تاريخيّاً بعد الارتقاء الأخلاقي المدهش الذي أسسه رسول الإسلام بثلاثة عشر قرناً كاملة ؟

الجزائر:

ولأن هناك من الملحدين من سيكابر ويدافع عن روح العصر بأن هتلر لم يكن يمثل الحضارة الحديثة في القرن العشرين ، وأن روسيا الاتحادية كذلك ليست مقياساً للعالم الحر المستنير بالعلم والمتخلق بأخلاق روح العصر ، فسوف ننتقل إلى قلب هذا العالم الحر وبالتحديد في فرنسا

هل نستطيع القول بأن فرنسا في القرن العشرين كانت أكثر ارتقاءً من البشر الذين عاشوا في صحراء الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي أم أن العكس هو الذي حدث ؟ ولمعرفة الإجابة علينا أن نسلط الضوء قليلاً على ما حدث :

ففي عام ١٨٣٠ وبدون سابق إنذار قرر الفرنسيون أن يستولوا على دولة الجزائر بكل ما فيها من ثروات و رجال ونساء و جبال و أراضٍ وشجر وحتى حيوانات ، وأن يجعلوها بقوة السلاح ولاية فرنسية تابعة لهم في كل شيء حتى في اللغة والدين والثقافة ، ما هو دليلهم المنطقي لفعل ذلك ؟ لا شيء ، فقط غرور القوة المفرطة المدفوع بمبررات عصابات المافيا حينما تسطو على البنوك، ولنترك المجال قليلاً لأصحاب الحق الأصليين ليحدثونا عن المستوى الأخلاقي الذي

[١] - المرجع نفسه صفحة ٩٠

تعاملت به زعيمة العالم الحر في ذلك الوقت مع شعب مسلم أعزل مسالم لم يتوجه للفرنسيين بأي أذى ولا حتى بكلمة سباب : فقد جاء في كتاب السيد – سعدي بزيان – "جرائم فرنسا في الجزائر – صفحات مظلمة من تاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر" تحت عنوان (جرائم فرنسا في الجزائر من الجنرال بيجو إلى الجنرال أوساريس) ما يلي :

" إن جرائم فرنسا والقتل الجماعي في ثورة نوفمبر ١٩٥٤ – ١٩٦٢ هي امتداد لجرائمها أثناء الاحتلال عام ١٨٣٠ وفي ثورة المقراني ١٨٧١ والثورات المتتالية التي لم تتوقف منذ أن وطئت أقدام المستعمرين الفرنسيين أرض الجزائر، وهل ينسى الجزائريون أحداث ٨ مايو ١٩٤٥ التي وقعت فيها جرائم ارتكبتها قوات الجيش الفرنسي في حق السكان في سطيف ، وخراطة ، و قالمة وهل ينسى الشعب الجزائري جرائم فرنسا في ٢٠ أوت ١٩٥٥ في سكيكدة وكان بطل هذه الجرائم الجنرال أوساريس الذي دشن عهده في هذه المدينة بارتكاب جريمة كان حصادها حسب المصادر الوطنية حوالي ١٢ ألف شهيد ، وحرق عشرات القرى والمداشير ، وإن ننس فلن ننسى جرائم ١٧ أكتوبر ١٩٦١ --- وقد استشهد ٣٠٠ مواطن جزائري ثم رمي جلهم في نهر السين ، وقتلهم داخل مراكز الشرطة ورمي العشرات منهم في البحر بواسطة الطائرات، يقول محمد بن رابح في مقال له بجريدة لوفيغارو في ٤ /٥/٢٠٠١ إن فرنسا خاضت حرباً شرسة ضد الشعب الجزائري منذ الاحتلال ١٨٣٠ وكان الجنرال بوجو قد دشن يومئذٍ حرب الإبادة ضد الشعب الجزائري البالغ عدد سكانه يومئذٍ ٣ ملايين نسمة، وفي سنة ١٨٤٥ تناقص عدد سكان الجزائر إلى مليونين **وذلك خلال ١٥ سنةً**"[1]

ويكمل السيد سعدي بزيان قائلاً: " وكان الجنرال بوجو الذي وصل إلى الجزائر سنة ١٨٤١ تبنى منذ البداية سياسة الحرب الشاملة ضد الشعب الجزائري لا تبقي ولا تذر أحداً من المسلمين الجزائريين الذين يعيشون في هذه الأرض، وكان يرى في إستراتيجيته أن حرب الإبادة هي وحدها الكفيلة بالقضاء على مقاومة الشعب الجزائري، يقول صلاح العقاد في كتابه "المغرب العربي: الجزائر – المغرب الأقصى – تونس" الذي صدر عن المكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٢" ما يلي :

(ولم يكن الجنرال بوجو شاذاً في سياسته الإستئصالية ضد الشعب الجزائري فها هو أحد معاونيه وهو الجنرال سانت أرنو يقول في مذكراته: **"لقد كانت حملتنا في الجزائر حملة تدميرية أكثر منها عملاً عسكريّاً ، ونحن اليوم وسط جبال مليانة لا نطلق إلا قليلاً من الرصاص ، وإنما نمضي وقتنا في حرق جميع القرى والأكواخ، وأن العدو يفر أمامنا سائقاً أمامه قطعان غنمه، إن بلاد بن مناصر بديعة حقاً ولقد أحرقناها كلها ، آه أيتها الحرب، كم من نساء وأطفال اعتصموا بجبل الأطلس المغطاة بالثلوج فماتوا هناك من الجوع والبرد ، وليس في جيشنا سوى خمسة قتلى وأربعين جريحاً"** وقد ظلت قضية قبيلة أولاد رباح التي ذهب ضحيتها ألف شهيد كانوا قد التجؤوا إلى مغارة هروباً من الغزو فانقض عليهم الكولونيل بيليسي وجنوده وأوقدوا النيران في أفواه المغارة فمات هؤلاء جميعاً اختناقاً"[2]

---

[1] - ذ : سعدي بزيان، جرائم فرنسا في الجزائر ، دار هومة للطباعة والنشر- الجزائر ٢٠٠٥م ، رفع عبد الرحمن النجدي (www.moswarat.com) ، صفحة ١٣ – ١٥ بتصرف

[2] - المرجع نفسه ، صفحة ١٥ و ١٦

ويكمل السيد بزيان قائلاً "هكذا كان الحقد يقطر دماً ضد الشعب الجزائري من طرف الفرنسيين عسكريين ومثقفين ، ومن أمثال الكاتب والسياسي أليكسي دوتوكفيل المشهور بكتابه "في الديمقراطية الأمريكية" الذي كما قال الكاتب التونسي المهاجر حسونة في جريدة الشرق الأوسط (٢٣ يولية ٢٠٠١) (إن هذا الكاتب في كتابه هذا ساند النظم العادلة ضد النظم الظالمة غير أنه تبين لنا فيما بعد بعد زياراته المتكررة للجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي التي تمت خلال سنوات (١٨٤١ – ١٨٤٦) أنه كان عنصريّاً إلى أبعد الحدود معادياً للعدالة ومناصراً للظلم والظالمين من بني جنسه، ففي زيارته الأولى للجزائر سنة ١٨٤١ كتب قائلاً: " **لقد سمعت أحياناً في فرنسا أناساً أحترمهم يقولون بأن من السيئ أن يتم حرق المحاصيل الزراعية ، وأن يقع تفريغ مخازن القمح ، وأن يلقى القبض على الرجال غير المسلحين ، وأيضاً على النساء والأطفال ، وأنا لا أوافق هؤلاء السادة على مثل هذا الكلام ، فأرى أن مثل هذه الأعمال المؤسفة ضرورية لشعب يرغب في شن حرب ضد العرب بهدف إجبارهم على الخضوع له، وأن واجب الحرب يسمح لنا بأن نخرب البلد وأن نفعل ذلك إما بتدمير المحاصيل الزراعية وقت الحصاد والجني وإما بالقيام في كل الأوقات بهجومات يكون الهدف الأساسي منها إلقاء القبض على الرجال والاستيلاء على قطعان الغنم والدواب " وقال أيضاً "على فرنسا أن تقيم مستعمرات في كل مكان وتعمل على تهجير السكان المحليين بعد الاستيلاء على أراضيهم"**[١]

(هذه ليست تصريحات أحد اللصوص ، و إنما تصريحات مثقف و كاتب فرنسي مشهور)

ويكمل السيد بزيان قائلاً "وها هو الشاعر والأديب فيكتور هوجو يسقط في مهاوي الضلال والتضليل ، ويهلل لجرائم جنرالات فرنسا في الجزائر وهو الذي يسميه البعض شاعر الحرية ، ففي عام ١٨٤١ كتب يقول: "**إن الغزو الذي قمنا به في الجزائر ذو شأن كبير ومفرح ، إنها الحضارة التي تكتسح البربرية ، إنه الشعب المستنير الذي يذهب باتجاه شعب غارق في الظلام – ويقصد الجزائريين – نحن إغريق العالم وعلينا أن نضيئه**"[٢]

"أما المجرم دومونتانياك فقد ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه فيكتور هوجو والمجرم بيجو، إذ أعلن في تصريح له قائلاً: "هكذا تتم عملية الحرب مع العرب ، فيجب أولاً وقبل كل شيء قتل كل رجالهم من سن ١٥ فما فوق والاستيلاء على الأطفال والنساء ثم إرسالهم إلى جزر الماركيز أو إلى أي جهة أخرى ، **وبكلمة مختصرة إفناء كل ما من شأنه أن يزحف تحت أقدامنا كالكلاب"**[٣]

- وهنا نسأل: من هم البرابرة ومن هو الشعب المستنير بنور الحضارة حقاً ؟ إن أفقر رجل وأفقر امرأة في الشعب الجزائري في ذلك الوقت كانا متقدمين حضاريّاً وخلقيّاً ونفسيّاً بفارق ألف وثلاثمائة سنة كاملة على جميع البشر الذين كانوا يملؤون فرنسا ضجيجاً بهذه التصريحات المشينة التي تجعلهم يصطفون من جهة الارتقاء الحضاري في صف إنسان العصر الحجري ، لأن قلب كل مسلم ومسلمة منهم كان مضاءً بقول الله تعالى في سورة الحجرات "**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**" تلك

[١] - المرجع نفسه صفحة ١٨ و ١٩
[٢] - المرجع نفسه صفحة ٢١
[٣] - المرجع نفسه صفحة ٢١ أيضاً

الآية التي تعلمنا أن الناس جميعاً متساوون وأنهم إخوة أشقاء من أب واحد وأم واحدة، كما كان مستنيراً بحديث رسول الله ﷺ في معاملة غير المسلمين **"من ظلم معاهداً -- فأنا حجيجه"**

ونكمل تصريحات العسكريين الفرنسيين مع السيد بزيان حيث يقول:

"فقد أرسلت إلى الجزائر لجنة برلمانية في سنة ١٨٤٤ بطلب من وفد كان قد ترأسه الوطني الجزائري حمدان خوجة لإعداد تقرير عن الوضعية في الجزائر بعد احتلالها، ومما جاء في هذا التقرير ما يلي:

"وصرح وزير الحرب الفرنسي السيد جيرار **"لا بد من إبادة جميع السكان العرب ، إن المجازر والحرائق وتخريب الفلاحة هي في تقديري الوسائل الوحيدة لتركيز هيمنتنا** ، أما الجنرال بوجو فقد صرح أمام البرلمان الفرنسي عام ١٨٣٠ بما يلي: **أينما وجدت المياه الصالحة والأرض الخصبة يجب إقامة المعمرين بدون استفسار من أصحاب الأراضي هذه ،** أما المجرم الآخر من مجرمي الحرب من جنرالات فرنسا وهو الجنرال سانت أرنو فقد صرح سنة ١٨٤٢ بما يلي: **"إننا لا نطلق النار إلا قليلاً ، لأننا نحرق الدواوير وجميع القرى وجميع الملاجئ، لقد خلفت في طريقي حريقاً مهولاً بجميع القرى ، حوالي ٢٠٠ قرية قد أحرقت بكاملها ، وجميع البساتين خربت وأشجار الزيتون قطعت"**

هل هكذا يفعل إغريق العالم لكي ينشروا النور ؟

ثم يمضي السيد سعدي بزيان ليسجل نوعاً آخر من الجرائم الهمجية للجيش الذي يزعم أنه جاء لتنوير شعب من البرابرة، وهي جرائم اغتصاب النساء، ويروي أن عدد النساء اللاتي تعرضن للاغتصاب من جنود فرنسيين ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف امرأة منهن من كانت في سن الخامسة عشرة ونتج عن ذلك حدوث الحمل وإنجاب أطفال غير شرعيين في كثير من الحالات ، وتروي إحداهن ما جرى لها على يد ثلاثة من ضباط الجيش الفرنسي "وأخذ الثلاثة في استجواب المناضلة وكانوا في البداية قد أبدوا معها سلوكاً حسناً لكن سرعان ما تحولوا إلى وحوش كاسرة عندما رفضت الاعتراف بالتهم الموجهة إليها، **وشرعوا في تعذيبها بعد أن نزعوا ثيابها وتعرضت لشتى أنواع التعذيب منها تسليط الكهرباء على ثديها ، وعندما طلبت شرب الماء عمد أحد هؤلاء المجرمين إلى التبول في فمها وكان عمرها يومئذٍ ٢٧ سنة"**[١]

والآن : بمقارنة هذه المواقف المشينة بما فعلته الأمة المسلمة بالشعوب التي دخلت بلادها و أعطتها عهود الأمان ، بل واتخذت من أبنائها وزراء و قادة جيوش ، من هي الأمة الأكثر ارتقاءً و سموّاً أخلاقيّاً ؟ وهل سار منحنى الأخلاق صعوداً مع الزمن أم العكس هو الذي حدث؟

وإذا انتقلنا إلى منطقة شرق أوروبا وجدنا أن الأقليات المسلمة تعرضت لجرائم لا تقل بشاعة على يد الحكومات الشيوعية في أوائل القرن العشرين ، فربما لم يسمع أبناء العالم الحر أن المسلمين في دولة مثل بلغاريا حرموا من الحرية حتى في اختيار أسمائهم ، و قهروا بقوة السلاح – رجالاً ونساءً - على تغيير أسمائهم الإسلامية و محو كل أثر يربطهم بدينهم و

[١] - نفس المرجع صفحة ٦٢

تاريخهم ، وبالطبع كانت جرائم هدم المساجد و المدارس و حرق المكتبات و كل مظاهر الثقافة الإسلامية بالإضافة إلى القتل الجماعي و الطرد و تدمير القرى عملاً يومياً للجيوش الشيوعية في كل تلك الدول بلا استثناء

وقبل أن ينتهي القرن العشرون بقليل رأينا في عقده الأخير مجموعات ضخمة من بشر أكثر تخلفاً وأكثر دموية بآلاف المرات من إنسان العصر الحجري تغطي الأفق في شبه جزيرة البلقان ، وبالتحديد في البوسنة والهرسك التي يسكنها عدد كبير من المسلمين الذين لم يتوجهوا لهذه الوحوش المنتصبة القامة بأي أذى ، والتي انقضت عليهم قتلاً وحرقاً واغتصاباً وهدماً لمنازلهم وسرقة لكل ممتلكاتهم ، وهم يدعون أنهم أتباع للمسيح عليه السلام وهم لا يعلمون أن المسيح يلعنهم ويتبرأ منهم بعدد ثواني أعمارهم

إن جرائم الشيوعيين ضد مسلمي شرق أوروبا و آسيا وجرائم الصرب الأرثوذكس ضد مسلمي البوسنة و الهرسك و كوسوفو تكفي لكي تنسف كل نظريات الارتقاء الأخلاقي لإنسان القرن الحادي والعشرين من جذورها، لأن كل ما ذكره اللواء نبيل لوقا بباوي من السمو الأخلاقي الذي ظهر في معاملة المسلمين في القرن السابع الميلادي للمسيحيين الأرثوذكس في مصر ، حتى أنهم بعثوا برسالة أمان للمطران الأكبر يدعونه فيها للظهور من مخبئه (أينما كان) من أجل قيادة أبناء دينه من الطائفة الأرثوذكسية بعد أن ظل هارباً لمدة ثلاثة عشر عاماً من وجه الجيوش الكاثوليكية الرومانية ، يعطي الدليل الدامغ على أن البشرية لم تعرف السمو الأخلاقي إلا في الإسلام ، و لم تمارس أي قدر من الارتقاء الحضاري إلا داخل حدود الدولة المسلمة ولا حتى في القرن العشرين ، وبعد قليل سنثبت أن القرن الحادي والعشرين لم يكن أفضل من سابقه

ثانياً: على مستوى عامل الدين:

أما على مستوى عامل الدين، فطبقاً لنظرية د: ريتشارد التي تقضي بأن الدين بشكل عام هو مصدر كل شرور العالم ، وأننا لسنا بحاجة إلى الدين لكي نكون صالحين ، وأن روح العصر المتجهة صعوداً مع الزمن هي التي تدفعنا إلى الارتقاء الأخلاقي ، طبقاً لكل ذلك كان يتحتم أن نرى كل الأنظمة والدول التي أزاحت الدين من أمامها ، تتحلى بدرجات من الارتقاء الأخلاقي و الإنساني تفوق بمئات المرات ما تتحلى به المجتمعات التي تمسكت بالدين من هذا الارتقاء الأخلاقي

فهل حدث ذلك ؟ نحاول الآن أن نجيب على هذا السؤال بأن نبحث عن أحوال الناس الذين عاشوا داخل حدود الدول التي تمسكت بالإلحاد ، لنرى كم هو حجم الارتقاء الأخلاقي الذي عوملوا به من قبل الحكومات الملحدة

ربما يكون الكثير منا قد قرأ مقولة الكاتب الفرنسي اليساري ستيفان كورتوا في كتاب "التاريخ الأسود للشيوعية" أن الشيوعيين قتلوا مائة مليون إنسان، ولكن المؤكد أن القليل منا من اقترب من واقع ضحايا هذه الموجات العاتية و المتلاحقة من الجيوش التي تنتمي خلقيّاً وفكريّاً إلى عصور ما قبل التاريخ، وبالطبع كان المسلمون الذين كانت أراضيهم تشكل الغالبية العظمى من أراضي الاتحاد السوفيتي هم الجانب الذي وقع عليه العبء الأكبر من بطش الجيش الأحمر

قتلاً وتهجيراً و هدماً و مصادرة للأموال والأوطان وإن كان هناك من الشيوعيين أنفسهم من ناله نصيب من هذا البطش

ولننظر إلى حجم المناورة الماكرة التي لعبها الشيوعيون في بادئ الأمر لكي يستميلوا إلى جانبهم قوة الشعوب المسلمة التي يعلمون حجم بسالتها جيداً ، لتكون مؤيدة لثورتهم ضد حكم القياصرة و أعوانهم ، ولكن ما أن تمت لهم السيطرة على مقاليد الأمور حتى راحوا يكتسحون البلاد المسلمة بلا رحمة لكي يزيلوا هويتها وعقيدتها بل وشعوبها من الوجود

جاء في كتاب "الإسلام في وجه الزحف الأحمر" للشيخ محمد الغزالي ما يلي :

" قال الأستاذ محمد سامي عاشور: لم تكن مهمة البلاشفة في أول الأمر بالمهمة السهلة الميسرة ، فمن جهة كان جزء كبير من الشعب الروسي لا يزال متردداً في معاونتهم ، بل كان بعضهم يناوئ حكمهم ويجهر بعدائه لهذا الانقلاب الجديد ، ومن جهة ثانية فشلت دعوتهم في استهواء أفراد الطبقات العاملة في غرب أوروبا ولا سيما في إيطاليا وفرنسا، ومن جهة ثالثة فإن قوات روسيا البيضاء المناهضة لهم كانت قد أخذت تستجمع قواها بمعاونة بعض الدول الأجنبية استعداداً للقضاء على الثورة البلشفية بقوة السلاح، ولذلك فلم يبق أمام البلاشفة بعد ذلك إلا أن يولوا وجوههم نحو مستعمراتهم السابقة في الشرق يلتمسون من أهلها العون في محنتهم ، فلم يكد يمضي شهر واحد على استيلائهم على مقاليد الأمور في روسيا وعلى وجه التحديد في ٧ ديسمبر سنة ١٩١٧ حتى أصدر مجلس قوميسيري الشعب البلشفي نداءً له مغزاه موجهاً إلى شعوب روسيا من المسلمين، وكان من بين من وقعوه لينين وستالين، وقد جاء فيه :

(إن إمبراطورية السلب والعنف الرأسمالية توشك أن تنهار ، والأرض التي يستند عليها أقدام اللصوص الاستعماريين تشتعل ناراً، وفي وجه الأحداث الجسام نتجه بأنظارنا إليكم أنتم يا مسلمي روسيا والشرق، أنتم يا من تشقون وتكدحون وعلى الرغم من ذلك تحرمون من كل حق أنتم له أهل، أيها المسلمون في روسيا، أيها التتر على شواطئ الفولجا وفي القرم، أيها القيرغيز والسارتيون في سيبيريا والتركستان ، أيها التتر والأتراك في القوقاز ، أيها التشيشيون ، أيها الجبليون في أنحاء القوقاز ، أنتم يا من انتهكت حرمات مساجدكم وقبوركم واعتدي على عقائدكم وعاداتكم وداس القياصرة على مقدساتكم ، **ستكون حرية عقائدكم وعاداتكم وحرية نظمكم القومية ومنظماتكم الثقافية مكفولة لكم منذ اليوم ، لا يطغى عليها طاغ ولا يعتدي عليها معتد، هبوا إذن فابنوا حياتكم القومية كيف شئتم ، فأنتم أحرار لا يحول بينكم وبين ما تشتهون حائل** ، إن ذلك من حقكم إن كنتم فاعلين، واعلموا أن حقوقكم شأنها شأن سائر حقوق الشعب الروسي تحميها الثورة بكل ما أوتيت من عزم و قوة وبكل ما يتوفر لها من وسائل، جند أشداء ومجالس للعمال ومندوبون عن الفلاحين، إذن فشدوا أزر هذه الثورة وخذوا بساعد حكومتها الشرعية

أيها المسلمون في الشرق ، أيها الفرس والأتراك والعرب والهندوس ، أنتم جميعاً يا من وطئ الأوروبيون القراصنة أرضكم ، وتاجروا بأرواحكم وأملاككم وحرياتكم قرناً بعد قرن، أنتم جميعاً يا من حاول اللصوص الذين أشعلوا نار الحرب أن يقتسموا بلادكم بينهم ، إخلعوا عن أعناقكم نير هؤلاء اللصوص، أولئك الذين يستعبدون أهلكم ويستبيحون دماءكم وأرواحكم ، فإن من المستحيل عليكم بعد الآن أن تظلوا قابعين لا تحركوا ساكناً في وقت تهز فيه الحرب عرش

النظام القديم ، وتشتعل فيه نفوس العالم كله حنقاً على الغاصبين المستعمرين ، وتمتد فيه شرارة الغضب فتصبح ثورة تأتي على كل شيء، حذار أن تضيعوا وقتكم دون أن تلقوا عن كاهلكم نير المستبدين والظالمين الذين استبدوا بكم وبأوطانكم، إياكم أن تدعوهم يسلبونكم ما أوتيتم من خير بعد اليوم، عليكم من اليوم أن تشيدوا صرح كيانكم بأنفسكم وبطريقتكم الخاصة وفق ما تحبون وتختارون

فإن من حقكم أن تفعلوا ، وإنكم لفاعلون ، وها هو مستقبلكم في أيديكم

أيها الرفاق ، أيها الإخوة : لنتقدم معاً في عزم وصلابه نحو سلم عادل ديمقراطي،

إن رايتنا تحمل معها الحرية للشعوب المظلومة في أنحاء العالم

أيها المسلمون في روسيا ، أيها المسلمون في الشرق، إننا ونحن نسير في الطريق الذي يؤدي بالعالم إلى بعث جديد نتطلع إليكم نلتمس عندكم العطف والعون"[١]

ويكمل الشيخ الغزالي معلقاً على هذا النداء قائلاً :

"ونعود إلى الشعوب الإسلامية المنكودة تحت الحكم الروسي القديم ، ماذا صنعت بعد أن سمعت هذا النداء الموجه إليها من الساسة الحمر؟ إنها بداهة لم تضيع الفرصة السانحة، فسرعان ما أعلنت استقلالها واستعادت سياستها على أرضها ، وشرعت ترسم الخطط لتصوغ مجتمعها وفق إرادتها ومصلحتها، واتقد مشعل الحرية من سيبيريا إلى القرم، وتكونت جمهوريات إسلامية عديدة في هذه الأقطار المترامية، واعترفت الدول المجاورة بهذه الحكومات الفتية ، وعقدت معها المعاهدات"[٢]

"غير أن روسيا فيما ظهر طلبت غير هذا، طلبت أن تكون الشيوعية هي صبغة الحكومات الإسلامية المتحررة قريباً منها، فهل كانت الدول الإسلامية في القرم والأورال والقوقاز والتركستان إلخ مستعدة لهذا التحول ؟ كلا ، لقد قامت استجابة لآمال المسلمين المقهورين وتجسيداً لمشاعرهم، والنظام الشيوعي في سبيل توطيد أركانه قتل حرية التدين وحرية التملك، ووظيفة الحكومة الشيوعية وهي تباشر سلطتها أن تقصي التدين عن الحياة العامة وأن تغرس مكانه الكفر بالله وشرائعه،

لقد وعينا ما جاء في برنامج المؤتمر الشيوعي الدولي السادس المنعقد سنة ١٩٢٨ : (إن الحرب ضد الدين – أفيون الشعوب – تشغل مكاناً مهمّاً بين أعمال الثورة الثقافية)[٣]

ويكمل الشيخ الغزالي الحديث ليشرح كيف تنكر الشيوعيون لحلفاء الأمس من المسلمين وخالفوا كل الوعود البراقة التي وعدوهم بها **وراح جيشهم الأحمر يدمر جميع البلاد الإسلامية التي رفضت نبذ الدين وقبول الإلحاد**، فيقول:

---

[١] - الشيخ الغزالي ، الإسلام في وجه الزحف الأحمر ، نفس الطبعة صفحة ٩٩ - ١٠١

[٢] - المرجع نفسه صفحة ١٠٢

[٣] -المرجع نفسه صفحة ١٠٣

"وفي إبريل سنة ١٩١٨ أصدر لينين أمراً بالزحف على البلاد الإسلامية دون إنذار سابق ، فأخذت الدبابات تحصد المدن حصداً وتدك الحصون والقلاع، والطائرات تمطر البلاد سيلاً من قنابلها دون تمييز بين عسكريين ومدنيين، وفي نهاية هذا العام كان الروس قد استولوا على جمهورية (إيدل أورال) وشمال القوقاز وحكومة (خوقند) في تركستان ، وتأخر الاستيلاء على شبه جزيرة القرم لعنف المقاومة فيها، وفي سنة ١٩١٩ استولت روسيا على جمهورية (ألاش) وفي إبريل سنة ١٩٢٠ انتهت من احتلال القرم ثم استأنفت الهجوم على جمهورية (أذربيجان) واستطاعت إخضاعها، ثم حاصرت جمهورية (خيوة) من ثلاث جهات فدافع عنها أهلها التركمان دفاع المستميت ولكنها سقطت في نهاية عام ١٩٢٠، وفي سنة ١٩٢١ استأنف الروس الهجوم على جمهورية (بخارى) ودار بينهم وبين أهلها قتال مرير، ودافع أحفاد البخاري عن وطنهم بكل ما لديهم من بأس فلما انهزمت جيوشهم المنظمة شنوا حرب العصابات نحو سنين ولكنهم فشلوا في إدراك النصر لعدم وجود أية مساعدة خارجية من العالم الإسلامي"[١]

من كلام الشيخ الغزالي يتضح كيف قام الشيوعيون بعملية خداع قذرة ، فبعد الوعود الهائلة التي وعدوا المسلمين بها عن الحريات الدينية والسياسية ، قاموا بالتصرف بعكس كل تلك الوعود واستباحوا بجيشهم الأحمر كل الحرمات حتى فاقوا جيوش روسيا القيصرية ذاتها ، لكن الذي فعلوه بعد ذلك كان أكثر بشاعة وأكبر جرماً، لقد شردوا ملايين المسلمين من بلادهم ونقلوهم إلى أماكن تبعد عن بلادهم آلاف الكيلومترات ثم استقدموا شعوباً أخرى ليست مسلمة ، لتقيم في بلاد المسلمين حتى يقطعوا كل صلة لكلا الشعبين بأصوله القومية والدينية ، وبالطبع مات مئات الألوف من الأبرياء أثناء ذلك،

وقد ذكر الشيخ الغزالي قصة شعب القرم كمثال واحد على ما حدث لآلاف القرى والمدن المسلمة في كتابه المشار إليه فقال:

" ونريد أن نري القارئ صورة من صور التحويل الاشتراكي للجمهوريات الإسلامية ، أو بتعبير دقيق للمستعمرات الإسلامية التي استولى عليها الروس، وذلك بنقل الأحداث الكالحة التي وقعت في شبه جزيرة القرم بعد ما هزمها الجيش الأحمر:

تقع شبه جزيرة القرم على الشاطئ الشمالي للبحر الأسود، وكان سكانها المسلمون يبلغون خمسة ملايين، وقد استطاعوا الظفر باستقلالهم أول ما استولى الحمر على السلطة في موسكو ، وسرعان ما انعقد مؤتمر وطني من أعضاء انتخبهم الشعب انتخاباً حرّاً – وفق ما يحدث في الغرب – وتمكن هذا المؤتمر من وضع دستور يحكم البلاد وفق نصوصه ، ولم تترك روسيا الشيوعية أهل القرم يستمتعون بحريتهم الدينية والسياسية فوجهت جيشها للقضاء عليهم، ، وعلى أية حال فإن مسلمي القرم قاوموا العدوان الروسي ببسالة فائقة، اعتصم الجيش بالجبال ودافع دفاع الأبطال ، وأعانه الأهلون بما يملكون من زاد وقوة، فلما رأى الروس أن حبل المقاومة طويل لجؤوا إلى حرب التجويع ، فنقلوا ما في الجزيرة المكافحة من أقوات وتركوا سكانها للضياع ، وهنا تعرضت البلاد لمحنة لم تخطر على بال، فإن العسكريين والمدنيين والأطفال والرجال أشرفوا على الهلاك طلباً للأقوات المفقودة، وقيل إن بعض الأشخاص أكلوا أولادهم

[١] - المرجع نفسه صفحة ١٠٥

وقد نشرت جريدة (أزفستيا) في عددها الصادر في ١٥ يولية سنة ١٩٢٢ تقريراً للرفيق (كالينين) عن مجاعة القرم جاء فيه: (بلغ عدد الذين أصابتهم محنة الجوع في شهر يناير ٣٠٢٠٠٠ مات منهم ١٤٤١٣ وارتفع عددهم في شهر مارس إلى ٣٧٩٠٠٠ مات منهم ١٩٩٠٢ وبلغ في إبريل ٣٧٧٠٠٠ مات منهم ١٢٧٥٤ وفي شهر يونية بلغ ٣٩٢٠٧٢ ولم يذكر عدد الموتى إلا أنه قال : إن أكل لحم الإنسان لم يكن من الحوادث التي يستغرب لها أو تبدو عجيبة في بابها

والروس في نظرنا مسئولون عن هذه المأساة وسياستهم بعد ما سادوا الجزيرة المثخنة بالجراح المتهالكة من الإعياء تدل على ذلك، فقد جردوا المسلمين من أملاكهم وما لديهم من ثروات ، وشرعوا يهدمون المساجد والمعاهد الدينية فلم يبق من ١٥٥٨ مسجداً بالقرم إلا آحادٌ تافهة، أما جمهرتها الكبرى فقد أزيلت أو تحولت إلى أندية ، وقهوات ودور لهو ، واصطبلات للخيل ، وحظائر للماشية، ثم بدأت عملية محو المعالم الإسلامية عن طريق اجتثاث الجذور، أو نقل السكان أنفسهم على ما ذكرنا آنفاً فماذا كانت النتيجة ؟

كان سكان القرم **خمسة ملايين** مسلم سنة ١٩١٧ فأمسوا سنة ١٩٤٠ **أربعمائة ألف فقط** أي أقل من عشر السكان ، أين ذهب أولئك المسلمون الذين توارثوا أباً عن جد عمارة هذه الأرض وتكونت لهم فيها صبغة خاصة وحضارة معينة ؟ أمسوا عمالاً هائمين على وجوههم في فيافي سيبيريا وغيرها، ليست لهم أسر ولا ذكريات ولا أواصر تاريخية ولا روابط روحية ولا أذان ولا جماعات ولا ،، ولا ،،

لقد صدرت الأوامر بنقل أهل هذا القطر إلى قطر آخر ، لا بل بتشريدهم في أقطار أخرى فمن عاش عاملاً مسخراً عاش ومن هلك هلك **!**

والقرم نموذج لشتى المستعمرات الإسلامية التي تعرضت لمثل ذلك المصير الأشأم، وإذا كانت المساجد رمزاً للعبادة الإسلامية فقد تجاوز ما دمر منها عشرات الألوف ، أما بقية ما يكون الشخصية الإسلامية فقد تلاشى أو هو في طريقه للفناء " [١]

أليس كل ما سبق يثبت أن أخلاق روح العصر التي تمتع بها الجيش الأحمر في القرن العشرين كانت في حقيقتها أخلاق روح العصر الحجري ؟ وأن كل الهيئات والمنظمات الدولية التي كان عليها أن تتحرك بدافع روح العصر ظلت صامتة وربما سعيدة بكل ما حدث، ويؤكد ذلك ما ذكره الشيخ الغزالي في الكتاب نفسه عن الشكوى التي أرسلت إلى سكرتير عام الأمم المتحدة في ذلك الوقت لشرح كل الجرائم التي ارتكبها الشيوعيون ضد مائة مليون مسلم – طبقاً لما جاء في الشكوى - والتي علق عليها الشيخ الغزالي بقوله **"وقد أخذت هذه الشكوى طريقها إلى سلال المهملات، فما اهتم لها عدو ولا اكترث لها صديق"**[٢]

وبذلك اتسعت دائرة هذا الانهيار الأخلاقي **لتشمل حضارة القرن العشرين بكاملها** وأعطت الدليل العملي الذي لا يستطيع أن ينكره أحد – لا من الشيوعيين ولا من غيرهم – **على انهزام هذه الحضارة بكل ما تحمله من أخلاق روح العصر الحديث هزيمة ساحقة أمام حضارة قادمة**

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ١٠٨ - ١١٠
[٢] - المرجع نفسه صفحة ١١٥.

من صحراء الجزيرة العربية نشأت في القرن السابع الميلادي بعد أن ارتقى بها الدين الحق حتى جعل للأقليات الدينية فيها حماية متصلة بخالق الكون وقد كان أهلها قبل الإسلام يدفنون بناتهم وهن حيات و يعبدون أصناماً من العجوى فإذا جاعوا أكلوها

ربما يتعلل الملحدون – كما قرأنا في كتاب وهم الإله – بأن كل جرائم الشيوعية لم تكن من أجل نشر الشيوعية ، ولم تقم حرب في التاريخ باسم الإلحاد أو الشيوعية ، فبأي اسم إذاً قتل مائة مليون ضحية بريئة نصفهم من النساء و الأطفال و الشيوخ ؟ و بأي اسم حرق ما يقارب المائة ألف مسجد أو حولت إلى نواد ليلية وحظائر خنازير ؟ و بأي اسم نقل ستة ملايين مسلم من بلادهم إلى مناطق ليس فيها إلا الموت البطيء ، وتركت ملايين أخرى تعاني المجاعة حتى أكلوا جثث الأموات ؟

إذا كان هناك من يصدق هذا الاستخفاف بالعقول ، فسنترك الحزب الشيوعي ذاته في أكبر دولة شيوعية بعد روسيا ليرد عليه :

الصين :

إن قصة سحق أي هوية تخالف الهوية الشيوعية ، وتخالف الإلحاد ، ثم تدمير كل صوت معارض بالمدافع والدبابات ، ثم التفاخر بالمذابح والقتل والتدمير لكل صور الحياة ، هو واقع ربما كان الكثير ممن ما زالوا على قيد الحياة شهود عيان عليه في كل الدول الشيوعية ومنها بالطبع الصين ، و سنكتفي هنا بالمنشور الذي وجهه الحرس الأحمر في الصين في ستينات القرن الماضي والذي ذكره أيضاً الشيخ الغزالي في كتابه المشار إليه سابقاً حيث قال :

"ونشرت صحيفة (تن بات باو) في هونج كونج في عددها الصادر في ١١ أكتوبر الماضي منشوراً وجهه الحرس الأحمر في الصين للمسلمين جاء فيه :

يا رجال الحرس الأحمر المقاتلين: إنكم تقومون بعمل حسن، واصلوا عملكم، أنتم مكافحون ضد البرجوازية والإقطاعيين الذين مصوا دماءنا وأكلوا لحمنا وعظمنا ، والآن جاء دورنا لامتصاص دمهم وأكل لحمهم، يا رجال الحرس الأحمر: لا يمكن أن ندع عدوّاً من أعدائنا يهرب ، علينا من الآن فصاعداً أن نهاجم أكثر الأعداء تخفياً – المسلمين – الذين يقومون بنشاط ضد الحزب وضد الصينيين تحت قناع الدين المزعوم، ويختبئ أولئك المسلمون في الجوامع وبتوجيه من الاستعماريين، كما تسيطر عليهم الدول الأجنبية ضد بلادنا وشعبنا العظيم وزعيمنا الجزيل الاحترام ماو ، من الآن فصاعداً لن يسمح لكم بأن تضعوا قناعكم الديني على وجوهكم ، سنصدكم وندمركم ، ومن اليوم فصاعداً لن نسمح لكم بأن تأكلوا لحم الأبقار لأن الأبقار تخدم الشعب ، يجب أن تأكلوا لحم الخنازير، ولا يمكنكم من الآن فصاعداً أن تضيعوا وقتكم في الصلاة، يجب ألا تتكلموا اللغة العربية التي هي ضد اللغة الصينية ولن يسمح لكم بأن تقرؤوا ما يسمى بالكتاب المقدس (القرآن) اسمعوا أيها المسلمون: دمروا جوامعكم، حلوا المنظمات الإسلامية ، احرقوا القرآن ، ألغوا الحظر الذي وضعتموه على الزواج المشترك ، كفوا عن الصلاة ، ألغوا الختان ، ادرسوا أفكار ماو ، إذا لم تندموا فسنطردكم وندمركم ، يجب

أن نسحق جحور الجرذان الدينية وندمرها معكم، فلتحيَ الثورة الثقافية الكبرى ، فليحيَ طويلاً طويلاً الرئيس ماو"[1]

ونذكر هنا بأن هذا المنشور صدر فقط منذ حوالي خمسين عاماً، أي أن السلطة التي وجهته إلى شعب أعزل من كل سلاح تنتمي إلى حضارتنا الحديثة التي تتمتع بأخلاق روح العصر الحديث على حد وصف كتاب وهم الإله ، كما أننا يجب أن نذكر بأن معظم المخاطبين بهذا المنشور هم مسلمون كانت لهم دولة مسلمة على حدود الصين في بلاد التركستان تزيد مساحتها على ثلاثة أضعاف مساحة ألمانيا ، ولا ينتمون إلى الصين لا في اللغة ولا في الدين ولا حتى في الحدود السياسية، لكن القوة العسكرية الطاغية مكنت الصين من احتلال أراضيهم واستباحة دولتهم

وكما رأينا فإن الحكومات الشيوعية لا تطيق وجود شخص واحد داخل حدودها يحمل فكراً – مجرد فكر – يخالف فكر الحاكم ، فكل الشعوب لا حق لها سوى فيما يرضاه لها شخص واحد ربما كان **أقل أبناء تلك الدول** حظاً من الثقافة والعلم والارتقاء الأخلاقي ، لكنه ساقته الأقدار للجلوس على مقعد الرئيس، حتى ما يأكل الناس وما يلبسون بل وحتى ما يفكرون فيه ليس من حقهم أن يختاروه لأنفسهم ، إنها وصاية كئيبة تختزل مليار شخص يستطيع كل منهم أن ينطلق بإبداعات هائلة ترقى بالبشرية إلى أعلى درجات الارتقاء العلمي والحضاري في شخص رجل واحد فقط، ومهما كانت قدرات هذا الشخص فإن هذا الاختزال هو ببساطة يشبه وضع هذه الأمة الكبيرة **في قبر مظلم** ، والآن : كم هو حجم السبق الأخلاقي و الحضاري للأمة المسلمة على هذه الأمة التي ما زالت حتى الآن تفرض على شعوبها نوع الطعام الذي يأكلونه بالدبابات ؟

وما حدث في الاتحاد السوفييتي والصين حدثت نسخة طبق الأصل منه في جميع الأنظمة الشيوعية في مختلف دول العالم وما زالت تحدث إلى الآن

والسؤال الآن : من هو الأكثر تحضراً والأكثر ارتقاءً أخلاقيّاً ؟ قادة الدولة المسلمة في النصف الأول من القرن السابع الميلادي الذين رحبوا بوجود غير المسلمين بينهم وكتبوا لهم عقود أمان تؤمنهم على أرواحهم و أموالهم وكنائسهم وتسمح لهم بأن يدقوا نواقيسهم في أي ساعة شاؤوا منطلقين في ذلك من أوامر رسولهم العظيم ، أم حكام الدول الشيوعية في القرن العشرين الذين ليس عندهم للشعوب سوى "سندمركم – سنسحقكم – سنحرقكم " ؟

القرن الحادي والعشرون :

لعل الملحدين يعترضون على كل ما ذكر من صور السقوط الأخلاقي المؤسف بأنه حدث في القرن الماضي ، وبأننا طوينا صفحة هذا الماضي الكئيب ودخلنا القرن الحادي والعشرين بروح العصر الأكثر حضارة ، والأجمل خلقاً ، والأعلى ارتقاءً وسموّاً عن القرن الماضي بآلاف المرات

و إن كان هذا اعترافاً مؤقتاً لمصلحة الإسلام بأنه هو الأكثر ارتقاءً منذ ظهوره حتى نهاية القرن العشرين ، لكن ، هل تغير الوضع بعد دخولنا في القرن الحادي والعشرين ؟

[1] - المرجع نفسه صفحة ٣٠ و ٣١

بمعنى : هل نحن حقاً في العام الخامس عشر من القرن الحادي والعشرين ونحن نحمل أخلاق روح العصر ، أكثر ارتقاءً وأسمى خلقاً من البشر الذين عاشوا في القرن السابع الميلادي وهم يحملون أخلاق الدين ؟ للأسف ، نحن لسنا كذلك على الإطلاق

فهناك أمثلة كثيرة لبشر يعيشون معنا على كوكب الأرض الآن لكنهم يحملون عقول و أخلاق البشر الذين عاشوا في عصور ما قبل التاريخ ، منها على سبيل المثال ما يحدث في بورما ، فهناك في بورما – التي يسكن بها ١١ مليون مسلم - تحرق قرى مسلمة بأكملها بنسائها وأطفالها و شيوخها على يد البوذيين الذين توقفت أخلاق روح العصر عندهم عند عصر الديناصورات، ومنذ عام ١٩٤٨ وحتى الآن تم تهجير أكثر من مليوني مسلم إلى بنجلاديش بعد قتل مئات الآلاف منهم ، وتم سحب الجنسية من الذين لم يهاجروا وبالتالي أصبحوا مخلوقات بلا هوية و خارج حدود أي توثيق و عرضة لكل أنواع القتل والحرق والنهب ،

لكن كيف نستطيع شرح الحقيقة لهؤلاء المتخلفين بأن أول علامات الإله الحق أنه هو أول من يحرم على أتباعه سفك دماء الأبرياء ، وأن الإله الحق يغضب غضباً شديداً حين يتم قتل الأطفال والنساء والشيوخ حتى من الأعداء ويتوعد القتلة بالجحيم ، وأن الإله الحق لا يقبل إيمان أحد تحت الإكراه ، و أنه إذا كانت كل هذه الجرائم ترتكب بأمر من إله ما فهذا دليل على أنه ليس إلهاً و إنما شيطان خبيث ، وأن بوذا لو كان إلهاً كما يعتقدون ، أو كان نبياً أو رجلاً صالحاً عظيماً كما نظن ، فإنه في الحالتين هو أول من يلعن هؤلاء القتلة ، و أول من يحكم عليهم يوم القيامة بالخلود في جحيم يشبه الحياة في جوف الشمس

قد يسارع الملحدون بالقول : (وما شأننا نحن بذلك، إن روح العصر الحديث التي ذكرها د: ريتشارد كان المقصود بها تحديداً (أخلاق الحضارة الغربية في أوروبا و أمريكا لأنها النموذج الذي يمثل أعلى درجات الارتقاء الإنساني في القرن الحالي) فحتى لو افترضنا صحة هذا مؤقتاً

ولكن : أليست المنظمات الدولية التي تتحكم في مصير كل دول العالم تنتمي إلى الحضارة الغربية الراقية وتقع بالكامل تحت تصرف قادة الغرب ؟ أليست هذه المنظمات قادرة على وقف ذلك السقوط الأخلاقي المريع ؟ بالطبع هي قادرة ، وقد رأيناها حين احتشدت في العراق في أيام معدودة واستطاعت أن تعيد دولة الكويت إلى أهلها في وقت قصير وهو عمل جيد بلا شك

نحن هنا لا نقصد التدخل العسكري ولكن تستطيع تلك المنظمات لو أرادت أن توقف كل هذه المذابح بقرار فقط وبدون حرب ، لكن تجاهلها للمذابح المستمرة هناك هو ما يؤكد رضاها عما يحدث ، أو على الأقل عدم الاهتمام بمعاناة الأطفال الذين يحرقون و هم أحياء و الفتيات في سن العاشرة اللاتي يقتلن شنقاً على فروع الأشجار ، فهذا هو ما يجعلها **تتشارك** مع المجرم الأصلي في هذا السقوط الأخلاقي الرهيب

و أخيراً : العالم الحر:

إذا افترضنا أن ما يحدث في بورما و أمثالها هو نموذج متخلف لا يمثل "أخلاق روح العصر" وأن دول الغرب فقط هي القادرة على تجسيد هذا المستوى من الأخلاق الراقية ، فهل حقاً أخلاق روح العصر في المجتمعات الغربية الآن – بدون الدين – أكثر ارتقاءً من أخلاق المسلمين الذين عاشوا في القرن السابع الميلادي ؟

بالطبع لا يستطيع أحد أن ينكر أن الحضارة الحديثة في تلك المجتمعات لها من الصفات الجيدة نسبة غير قليلة

وبالطبع ليس هناك من مكسب حقيقي للمجتمعات الإنسانية أكبر من الحرية التي تجعل الإنسان منطلقاً في هذه الحياة إلى أرقى ما يستطيع الوصول إليه في جميع المجالات بدون قيود تمنعه من الارتقاء والتقدم، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن المجتمعات المحرومة من الحرية تموت فيها كل صور الإبداع ولا يبقى للإنسان فيها أي اهتمامات سوى التفكير في كيفية النجاة من السيف المسلط فوق الرؤوس ،

لكن المجتمعات الإنسانية لا يمكن أن تبنى من لون واحد من البشر ، وليس هناك مجتمع على الإطلاق يتكون من فئة واحدة ، ولا من مذهب واحد ، ولا من نوع واحد من الثقافات ، لذلك ستظهر بلا شك معضلة حقيقية في مستوى الحريات الواجب توفرها لكي تلبي جميع متطلبات الحرية عند جميع الفئات والمذاهب والمجموعات داخل المجتمع الواحد – ونذكر هنا بمثال إشارة المرور - لأن إطلاق الحرية بلا قيد أو شرط لفئة من الناس – غالباً هي فئة الأغلبية – سينطوي بلا شك على الجور على حقوق وحريات الفئات الأخرى التي يجب أن ينظر إليها في المرتبة المثلى من مراتب الارتقاء الحضاري على أنها فئة من البشر لها حقوق حقيقية مساوية لحقوق الأغلبية ، وبدون تحقق ذلك سيتحول المجتمع إلى مجتمع عنصري متخلف معاد لحرية الأقليات وحقوقهم ،

وهذه بالتحديد هي النقطة التي تفوقت فيها الحضارة الإسلامية على حضارة العالم الحر في أرقى صورها في القرن الحادي والعشرين،

فالإسلام فقط هو الذي وضع الحل الأكثر ارتقاءً وسموّاً للمعادلة التفاضلية التي تحتوي على كثير من المتغيرات المتضاربة ، بينما وقفت حضارة العالم الحر عند المستوى البشري المحدود الذي ينظر إلى نفسه فقط ولا يرى من حوله

فالعالم الحر اعتنق مبدأ الحرية المطلقة لأبنائه الذين ينتمون إليه دون النظر بأدنى اعتبار إلى البشر الذين يعيشون خارج الإطار الثقافي أو الأيديولوجي لهذا العالم ، ضارباً بكل هؤلاء البشر عرض الحائط، وفي الحقيقة فليس منتظراً من أي مجتمع بشري لا صلة له بمصدر كل سمو و ارتقاء – وهو الخالق عز وجل – أكثر من ذلك، فالبشر سيظلون بشراً لا يعنيهم أولاً وأخيراً إلا أنفسهم

بينما علمنا ديننا الحنيف مستوى أكثر ارتقاءً بكثير من ذلك الحد الذي وقفت عنده حضارة العالم الحر في وقتنا الحاضر، ذلك المستوى هو **"الحرية للجميع"** بمعنى **"الحرية التي لا تجور على حريات الآخرين"**

لذلك رأينا أنه في الوقت الذي ضاقت فيه صدور أبناء العالم الحر جميعهم برؤية امرأة مسلمة تضع قطعة من القماش على رأسها ، وتحرم بسبب ذلك من استكمال دراستها وتصادر حريتها في أبسط حقوقها وهو اختيار الثوب الذي تلبسه ، برغم أن هذا اللباس هو صورة طبق الأصل من لباس السيدة مريم العذراء التي تزين صورتها بالحجم الطبيعي جدران جميع كنائس العالم ، نرى أن الإسلام منذ ألف وأربعمائة عام كاملة جعل للمسيحيين واليهود حصانة تحميهم من

اغترار الأغلبية المسلمة بعددها وقوتها فتتوجه إليهم بأي أذى حتى ولو بكلمة فيها انتقاص من كرامتهم ، وذلك حين قال رسوله الكريم ﷺ: **"من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه -- فأنا حجيجه "**

فالحقيقة أن الحرية التي تحرم منها المرأة المسلمة في دول العالم الحر متاحة للمرأة غير المسلمة **في الصومال** ، وهي أفقر دولة مسلمة بل لا ترقى إلى أن تكون دولة بسبب الفوضى التي خلفها الاستعمار الغربي المتتالي عليها، لكن هذه **اللا دولة** لا تصادر حرية المرأة في اختيار ملابسها وهو أبسط حقوقها كما يحدث في العالم الحر.

وهنا علينا أن نركز على أصل المشكلة الحقيقي الذي عالجه الإسلام في داخل قلوب المسلمين **بينما لم تستطع الحضارة الحديثة** في العالم الحر أن ترقى إلى هذا المستوى ووقفت عند حدود الشكليات فقط :

إن أصل المشكلة هو أن قلوب أبناء العالم الحر تنظر إلى الآخر بكثير من الفوقية والاستعلاء ، وتعتبر أن هذا الآخر ليس أكثر من إنسان متخلف أو جاهل – تماماً كما كان هتلر ينظر للآخرين - لذلك تعطي نفسها الحق في فرض الوصاية عليه ومصادرة حريته ، و الحكم عليه بالحرمان من كل ما يمكن أن يميزه عن غيره ، بل تذهب إلى أبعد من ذلك حين تعطي لنفسها الحق في أن الأرض التي يعيش كلاهما عليها هي **أرضهم وحدهم** ، وتجرد هذا الآخر من أن له الحق المساوي تماماً لحقهم في الأرض نفسها، وبالتالي تحكم عليه بأن يذوب في مجتمعهم أو يرحل ويهجر أرضهم إن ظل متمسكاً بشيء مما يميزه عنهم ،

لكن الأمر في المجتمع المسلم يختلف عن ذلك تماماً ، فبرغم أن الإسلام يقيم الأدلة الدامغة على أن دين الإسلام **هو وحده الدين الحق** الذي جاءت به جميع الرسل وأن كل ما عداه من المعتقدات باطل ولا أصل له ، إلا أن ذلك لا يجعل المسلم ينظر إلى أصحاب المعتقدات الباطلة بنفس النظرة الفوقية المملوءة بالغرور والاستكبار التي يتعامل بها الغرب مع الأقليات الأخرى

من أجل ذلك رأينا أن أعلى سلطة في الدولة المسلمة ممثلة في رسولها الكريم محمد ﷺ يكتب دستوراً بمعنى الكلمة يجعل فيه اليهود وحلفاءهم وحتى عبيدهم مع المسلمين **"أمة واحدة"**، ورأينا القادة المسلمين الذين دخلوا بلاداً فيها شعوب مسيحية يكتبون عقود أمان يسمحون فيها للمسيحيين بممارسة جميع شعائرهم الدينية وبدق نواقيسهم في أي ساعة يشاؤون من ليل أو نهار، بل ويتخذون منهم الوزراء وقادة الجند

لقد اتسعت صدور المسلمين في القرن السابع الميلادي – وهم أغلبية – لسماع صوت الأجراس التي تدعو النصارى للصلاة في الكنائس ، **بينما ضاقت** صدور أبناء العالم الحر في القرن الحادي والعشرين بسماع صوت الأذان الصادر من المساجد يدعو المسلمين للصلاة، مع أن الأذان لا يحتوي على أي شيء يخالف عقائد أبناء العالم الحر، فكلمة الله أكبر وكلمة لا إله إلا الله وردت في الكتاب المقدس بعدد من المرات يفوق عدد المرات التي ذكر فيها الثالوث المقدس أو الإله المتجسد أو الأقانيم الثلاثة بكثير.

بل اتسع صدر رسول الله ﷺ لأكثر من ذلك بكثير، فقد روت كتب السيرة أن وفد نصارى نجران قدم على رسول الله ص في المدينة في العام التاسع للهجرة ، وكان عددهم ستين رجلاً من كبار القساوسة والرهبان ورجال الدين المسيحي، و كانوا يحملون الصلبان الكبيرة و يلبسون

من الثياب المزخرفة بالصلبان ما بهر عيون أهل المدينة ، وأقاموا في مسجد رسول الله ﷺ عدة أيام ، ولما حان وقت صلاتهم قاموا في أحد جوانب المسجد النبوي واصطفوا للصلاة متوجهين إلى بيت المقدس ، ولما غضب بعض المسلمين لهذا المنظر أسكتهم رسول الله ﷺ و سمح للمسيحيين أن يتموا صلاتهم داخل مسجده الشريف ، لقد اتسع صدر رسول الله ﷺ لذلك مع علمه أنهم يعبدون شيئاً لا وجود له يسمى الثالوث المقدس ، في حين لم تتسع صدور المسيحيين من أبناء العالم الحر في القرن الحادي والعشرين لرؤية المآذن والمساجد التي يعلو منها نداء "الله أكبر"، أليس هذا يدل على تفوق الأمة المسلمة وبفارق زمني هائل على حضارة القرن الحادي والعشرين في مجال احترام الآخر وحماية حقوق الأقليات الدينية ؟ و علينا هنا أن نقارن هذا الموقف من رسول الله ﷺ بمذابح الكاثوليك ضد البروتستانت وضد الأرثوذكس والعكس التي تعد ضحاياها بالملايين والتي ما زالت بعض فصولها مستمرة حتى يومنا هذا

هل يستطيع أحد أن يجادلنا في أن رسول الله محمداً ﷺ كان أرحم قلباً وأوسع صدراً على نصارى عصره من المسيحيين الكاثوليك على الأرثوذكس و البروتستانت و العكس ؟

لقد كان حرص رسولنا الكريم ﷺ على تربية المسلمين على احترام الآخر حرصاً شديداً لم يتكرر بعده في أي أمة أخرى حتى الآن ، فقد روت كتب السيرة أن رجلاً من المسلمين تشاجر مع رجل يهودي لأنه رفع مقام موسى على مقام رسول الله محمد ، فشكا اليهودي للرسول ﷺ فقال النبيّ "لا تُخيّروني على موسى، فإنّ الناسَ يَصعَقونَ يومَ القيامةِ فأصعَقُ معهم فأكونُ أولَ مَن يُفيقُ، فإذا موسى باطِشٌ جَانبَ العَرش، **فلا أدري أكانَ فيمَن صَعِقَ فأفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله»**[1] وفي رواية للحديث (لا تفضلوني على موسى بن عمران)

هذا ما علمه لنا رسول الإسلام ﷺ بينما يعاني المسلمون في العالم الحر من الإساءة والتضييق و الإهانة وحتى القتل – رجالاً ونساءً - في وضح النهار

إن ممارسات أبناء العالم الحر تعطي الدليل القوي على أن أخلاق روح العصر في حضارة القرن الحادي والعشرين ما زال أمامها الكثير حتى تلحق بالارتقاء الأخلاقي الذي علمه لنا الدين الحق ، وقبل أن نتهم بالمبالغة نعطي بعض الأدلة الواقعية التي تؤكد هذا المعنى :

الدليل الأول: في الوقت الذي رأينا فيه حرص المسلمين منذ أول يوم تأسست فيه الدولة المسلمة على دمج الأقليات الدينية في المجتمع ليصبحوا مع المسلمين "أمة واحدة" ، أي مواطنين كاملي الحقوق "لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين" بل ورأينا رسول الإسلام يعطي لهذه الأقليات حصانة خاصة متصلة بخالق الكون سبحانه وتعالى بأن جعل نفسه خصماً لمن ينتقص أي قدر من حقوقهم، نرى على مسمع ومرأى من جميع أبناء العالم الحر بعض القساوسة – الذين ينتمون إلى عصور محاكم التفتيش - في الولايات المتحدة الأمريكية يجاهرون بحرق القرآن الكريم في الأماكن العامة دون أن يحاول أحد لا من الجهات المسئولة ولا من غيرها أن يمنعهم أو أن ينكر عليهم

نحن هنا لا نتحدث عن واقعة فردية صدرت من رجل أهوج غير مسئول ، فهذا الرجل رئيس كنيسة وله جمهور يصلي معه كل يوم أحد ويسمع مواعظه ، ولا عن العقوبة التي تنتظر مثل

[1] - صحيح البخاري عن أبي هريرة ، دار إحياء التراث العربي، الحديث رقم ٢٣٦٩

هؤلاء من الخالق سبحانه وتعالى ، فنحن نعلم حجم الجحيم الأبدي الذي ينتظرهم، والذي سيكون المسيح عليه السلام هو أول من يلقيهم بيديه فيه، كما أننا لا نتحدث هنا عن "الحرية العوراء" التي يمنحها العالم الحر بدون قيود لأبنائه بينما يسلبها بكل قوة من الآخر، لكننا نتحدث هنا عن السقوط المريع في مستوى الأخلاق التي يجسدها أبناء (أرقى مجتمع بشري) وهم متسلحون بأخلاق روح العصر التي تكونت بعيداً عن الدين كما قرأنا في كتاب وهم الإله

و الآن: من هي الأمة الأكثر حضارة والأكثر ارتقاءً أخلاقيّاً؟ أمة قال زعيمها الديني منذ أربعة عشر قرناً "من ظلم معاهداً فأنا حجيجه يوم القيامة" أم أمة زعماؤها الدينيون يحرقون مصاحف الأقليات الدينية الأخرى في القرن الحادي والعشرين ؟ هل يختلف معنا أحد على الإجابة التي لا تقبل الجدال ؟

ماذا يختلف مثل هذا القس عن الرهبان اليهود الذين حكموا على السيد المسيح بالقتل لمجرد أنه يدعو الناس إلى العودة إلى تعاليم التوراة ؟ مثل هؤلاء ليس المسيح عليه السلام على الإطلاق هو قدوتهم ، لأنه لم يعلم الناس شيئاً غير فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق، لكن قدوتهم هو قيافا رئيس الكهنة اليهود الذين حكموا على المسيح بالقتل ، وسوف يلحقون به بلا أدنى شك

ولأن الملحدين سيسارعون بالقول بأن موقف ذلك القس يبرهن على أن الدين الذي يعتنقه هو سبب سقوطه الأخلاقي، فنعود مرة أخرى لنذكر بأنه مع اتفاقنا معهم على أن معتقدات هذا القس هي سبب هذا السقوط ، ومع تأكيدنا أن هذه المعتقدات لا صلة لها بالدين الحق الذي أنزله الله عز وجل على جميع الرسل ، وأن كل صور السقوط الأخلاقي المشين لا تحدث بسبب الدين ولكن بسبب تحريف الدين

إلا أننا نسأل الملحدين : كم ملحداً متخلقاً بأخلاق روح العصر استنكر هذا السقوط الأخلاقي ؟ بل : كم شخصاً من مجموع سكان ذلك البلد الذين يزيدون على الثلاثمائة مليون نسمة استنكر هذا الفعل ليعطينا الدليل على أن أخلاق روح العصر تقترب و لو بنسبة محدودة من الارتقاء الأخلاقي للأمة التي أعطى رسولها للأقليات الدينية حصانة مرتبطة بخالق الكون ؟

الدليل الثاني : في أماكن احتجاز الأسرى المسلمين لدى الجيش الأمريكي كان بعض الجنود الأمريكيين يجمعون المصاحف من السجناء ويتبولون عليها ، و قد نشرت الفيديوهات التي توثق هذا الفعل على شبكة الإنترنت، ولم يحدث أن اتخذ أحد من قادتهم ولا غيرهم من أبناء العالم الحر أي موقف يدل على مجرد الإنكار من هذا التدني الأخلاقي الذي يشبه أخلاق إنسان عصور ما قبل التاريخ ، مما يسمح لنا بأن نعتبر هذا سلوكاً غير مستنكر من غالبية أبناء العالم الحر

ولكي نعلم حجم الفارق الشاسع بين الارتقاء الأخلاقي والسمو الحضاري الذي تفوق به الإسلام على حضارة العالم الحر كمّاً وكيفاً ، وبفارق زمني هائل نورد صفحة واحدة من معاملة الأسرى في القرن السابع الميلادي داخل الدولة المسلمة حتى نثبت أن البشرية لم تعرف الأخلاق الحميدة إلا من خلال الدين الحق ، وأن أمامها الكثير لكي تتمكن من اللحاق به

فقد جاء في كتاب السيرة النبوية لابن هشام عند حديثه عن أسرى غزوة بدر ما يلي:

"الإيصاء بالأسارى، قال بن اسحاق: وحدثني نبيه بن وهب أخو بني عبد الدار أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه وقال : استوصوا بالأسارى خيراً، قال: وكان أبو عزيز بن عمير بن هشام أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى ، قال وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر ، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم **خصوني بالخبز وأكلوا التمر**، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا ، ما تقع في يد رجل منهم كسرة **خبز إلا نفحني بها**، قال : فأستحي فأردها على **أحدهم فيردها علي ما يمسها**"[١]

وجاء أيضاً عن رجلين من الأنصار أنهما دفع إليهما أحد أسرى غزوة بدر ، فلما جاء الليل لم يكن عندهما سوى طعام يكفي لرجل واحد ، فقالا : (فدفعناه إلى الأسير وبتنا طاويين لأمر رسول الله ﷺ) أي لأمره بمعاملة الأسرى معاملة حسنة

هذا مشهد من مشاهد الارتقاء الأخلاقي والحضاري لم يتكرر في التاريخ مطلقاً إلا داخل حدود الدولة المسلمة ، ولا حتى في حضارة القرن الحادي والعشرين التي يتبول جنودها على القرآن الكريم ، و التي شهد العالم كله معاملتها لأسرى سجن أبو غريب و غيره

وهذا ما بهر المفكر الغربي (لورد هدلي) وجعله يقف مندهشاً عند معاملة النبي ﷺ للأسرى من المشركين في معركة بدر الكبرى ، ملاحظاً فيها ذروة الأخلاق السمحة والمعاملة الطيبة الكريمة، ثم يتساءل : "أفلا يدل هذا على أن محمداً لم يكن متصفاً بالقسوة ولا متعطشاً للدماء كما يقول خصومه؟ بل كان دائماً يعمل على حقن الدماء جهد المستطاع؟"[٢]

القضية ليست قضية جنود متحمسين في سن الشباب تصرفوا بطريقة متخلفة ومشينة بهدف إهانة الأسرى المسلمين ، لكنها قضية جيل كامل لم يعلمه أحد شيئاً من فضائل الأخلاق، فهؤلاء الجنود لم يجدوا من يعلمهم الارتقاء الأخلاقي في المدرسة ولا في الجامعة ولا حتى في الأسرة ، وكذلك لم يجدوا راهباً أو قسيساً في كنيسة يعلمهم ذلك، بل على العكس فقد رأوا من القساوسة من يقوم بحرق نسخة من القرآن الكريم في الأماكن العامة ، و بالتأكيد فإنهم لم يستطيعوا أن يتعلموا أي قدر من الارتقاء الأخلاقي والحضاري عن طريق دعاة الإلحاد ، لأن هؤلاء الدعاة يعلمون الناس أن الفضيلة مصطلح قبيح من موروثات الأديان ، وأخيراً فإن هؤلاء الشباب لم يتلقوا أي قدر من السمو الأخلاقي عن طريق "أخلاق روح العصر الحديث" بدليل إن جميع أبناء العصر الحديث في العالم الحر لم يشعروا بأن شيئاً قد حدث، وبأن هناك الكثير ممن يعيش بينهم سقط سهواً من عصور ما قبل التاريخ وظهر فجأة في المواقع الهامة في أرقى حضارة بشرية حتى الآن

وهذا ما قصدناه في قولنا أن أبناء العالم الحر قد أعطوا بأنفسهم الدليل العملي على أن "أخلاق روح العصر" ليست في مستوى يسمح لها بالمنافسة على الإطلاق ، وليست على درجة من الأخلاق تؤهلها لأن يبني عليها فلاسفة الإلحاد أي نظرية صحيحة، وبالتالي فقد أعطوا الدليل الواقعي على أن الأخلاق الموجودة في هذه المجتمعات ما زالت أقل في مستواها بكثير عن مستوى الأخلاق الراقية التي علمها لنا الدين الحق

---

[١] - السيرة النبوية لابن هشام ، نفس الطبعة، الجزء الأول ، صفحة ٦٤٥
[٢] - الاستاذ : إدريس الكنبوري ، موقع صيد الفوائد ، (www.saaid.net)

وهناك نقطة غاية في الأهمية لا يشعر بها أبناء العالم الحر ، فحتى "أخلاق روح العصر" بمستواها الذي رأيناه هي محصورة في دائرة العالم الحر، تماماً مثل حديث د: ريتشارد عن الأخلاق الموجودة في الكتاب المقدس والتي قال عنها في كتابه إنها حكر على المؤمنين بالكتاب المقدس، وأن معنى "لا تقتل" لا تعني مطلقاً المعنى الذي نفهمه اليوم ولكنها تعني "لا تقتل يهوديّاً" أما غير اليهود فليس لهم في الكتاب المقدس سوى القتل بلا رحمة،

فهذا الوصف ينطبق تماماً على حضارة العالم الحر بل على د، ريتشارد داوكنز نفسه – كما سيتضح من النقطة التالية - لأن كلمة "الحرية الشخصية" تعني بالنسبة لأبناء العالم الحر أن يمارس كل منهم أعلى درجات الحرية حتى لو أدى ذلك إلى استياء أو اشمئزاز كل من حولهم ، مثل السير في الطريق العام بثياب تظهر عوراتهم أو حتى بدون ثياب ، لكنهم يسحقون هذه "الحرية الشخصية" للمرأة التي تريد أن تغطي شعرها استناداً إلى أن ذلك يخالف قيم مجتمعاتهم على حد وصف قادتهم ووزرائهم، بل يقف هذا العالم متفرجاً على قتل طبيبة مسلمة في أحد شوارع مدينة هامة بألمانيا قتلت بسبب حجابها ، وعندما حاول زوجها إنقاذها أطلقت الشرطة المتخلقة بأخلاق العصر النار عليه، وهذه ليست واقعة فردية لكنها تحدث بشكل مستمر في الكثير من مدن وأحياء العالم الحر، أليس هذا يؤكد أن أخلاق روح العصر ما زال أمامها الكثير حتى تلحق بالأمة المسلمة ؟

الدليل الثالث: وهذا الدليل الواقعي جسده العالم الحر بجميع طوائفه و على جميع مستوياته الفكرية والسياسية، فبينما حرم رسول الله محمد ﷺ إيذاء أي شخص من أبناء الأقليات غير المسلمة وجعل نفسه خصماً لمن يؤذيهم في سابقة لم تتكرر في التاريخ البشري كله ، ولن تتكرر حتى آخر يوم في عمر كوكب الأرض، نرى جميع أبناء العالم الحر يدافعون عن حرية أشخاص مستهترين لا يعرفون من الإبداع إلا رسم الأنبياء في صورة مهينة لا يرضاها أحدهم لنفسه ولا لأحد من أفراد عائلته ، وذلك بدعوى "حرية التعبير"

لقد أكدنا سابقاً أن "الحرية" هي مكسب ثمين تحقق في العالم الحر وربما لم يتحقق بالدرجة نفسها خارج هذا العالم ، و أكدنا أن الحرية هي أعظم دوافع الإبداعات البشرية في جميع النواحي العلمية والأدبية و السياسية والاجتماعية، لكن لكي يكون المجتمع راقياً حقاً يجب عليه أن يحترم حريات ومشاعر الآخرين، لكي يضمن نزع فتيل الحقد والكراهية من قلوب أبنائه، ويشيع بدلاً منها مشاعر الاحترام للآخر كما فعل الإسلام

إن أبناء العالم الحر لا يفهمون الحرية فهماً حقيقيّاً، فلو سألنا أحدهم : هل تقبل القانون الذي يقيد حريتك في سرقة بيت جارك ويعتبر هذا الفعل جريمة و يضع لها عقوبة رادعة ؟ بالطبع سيقول لك : نعم أقبله، لأنه يعلم أن هذا النوع من الحرية ليس منطقياً ، و أنه في حالة إلغاء هذا القانون و منح الناس هذه الحرية سيتحول كثير من أفراد المجتمع فوراً إلى لصوص، ولن يستطيع أحد من الناس مغادرة بيته للعمل ، ولا لأي مكان آخر خوفاً على بيته و أسرته، إن هذا النوع من الحرية هو مدمر بلا أدنى شك و يمكن أن نسميه "الحرية القاتلة" لأن الحرية الحقيقية التي علينا جميعاً احترامها وحمايتها بكل ما نملك هي **الحرية التي تحترم حريات وحقوق الآخرين** ، فإذا اتفقنا على ذلك فيجب أن نتفق على أن التوجه بالأذى للآخرين سواءً كان بسرقة بيوتهم أو كان بأي صورة أخرى هو نوع من "الحرية الأنانية" أو "الحرية العوراء" التي تنظر بعين واحدة

ولا ترى إلا نفسها، وعليه فإن السخرية من الآخرين ومن رموزهم الدينية – التي هي بلا شك أكبر بكثير من سرقة الأموال - هي نوع من هذه الحرية العوراء المدمرة لكنها لا تدمر البيوت و الأموال و إنما تدمر المجتمعات الراقية ، و تحيلها إلى مجتمعات من العصر الحجري التي لا يأبه فيها أحد بمشاعر الآخرين ، وهذا يعتبر انتكاسة أخلاقية مشينة لحضارة القرن الحادي والعشرين

إن المجتمع الذي يصحو كل يوم على إهانة فصيل من فصائله بحجة الحرية "الأنانية" في التعبير ، سيفقد حتماً كل يوم فصيلاً من فصائله و جزءاً من قوة ترابطه و وقود وحدته ، وسيحدث ذلك حتماً قيام ذلك الفصيل بالرد مستخدماً حرية التعبير ذاتها ، وسوف يتكرر ذلك بعد فترة من الزمن مع فصيل آخر له معتقدات أخرى، كما رأينا في ألمانيا النازية، وسيصبح كل يوم هناك زرع لبذور الكراهية ضد فصيل جديد ، ويوماً بعد يوم لن نحصل على مجتمع راق متآلف وإنما سنحصل على قنبلة موقوتة من فصائل من البشر استحكم الحقد في قلوبها ولم يعد لها أي انتماء أو احترام لوحدة الدولة التي ينتمون إليها ولا لحمايتها من الأخطار الداخلية أو الخارجية لأنهم ببساطة يهانون فيها، ألا يوجد في العالم الحر علماء في علم النفس والاجتماع ليشرحوا للعالم الحر هذه الحقائق البدهية الثابتة ؟

لقد عالج الإسلام هذا بكل حكمة و عمق، لقد جعل الاحترام للأقليات غير المسلمة هو أعلى الأولويات بأن حرم على المسلمين المساس بهم ماديّاً أو معنويّاً ، و جعلهم مع المسلمين "أمة واحدة" بمعنى أن جميع الأفراد من كلا الجانبين لهم الدرجة نفسها من صيانة الحقوق والدرجة نفسها من الاحترام، لقد جعلهم جميعاً في قارب واحد لكي يعملوا في اتجاه واحد هو اتجاه تقدم هذا القارب ، وقد رأينا في بنود الصحيفة التي كتبها الرسول ﷺ مع اليهود في المدينة أن على المسلمين أن يدافعوا عن المدينة بالسلاح والمال إذا هاجمها عدو لليهود يريد قتلهم ، وأن على اليهود أن يدافعوا عن المدينة أيضاً بالمال والسلاح إذا هاجمها عدو للمسلمين يريد قتلهم ، وهذا يمثل معاهدة دفاع مشترك الهدف منها حماية وحدة المدينة وحماية شعبها جميعه بغض النظر عن انتماءاته الدينية

ولقد كانت نتائج هذه التعاليم الراقية للدين الحق أكبر مما تستطيع عقول البشر في قرننا الحادي والعشرين استيعابه، فقد روت كتب السيرة أن عمر بن الخطاب ولي القضاء في المدينة على عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق فقال : **"وليت القضاء لأبي بكر عامين ما تخاصم إلي رجلان"**، وقد كانت المدينة خلال هذه الفترة تحوي أعداداً من اليهود ومن النصارى، لكن لم يحدث نزاع واحد بين اثنين من سكان المدينة يرقى إلى مستوى اللجوء إلى القاضي على مدى عامين كاملين، وهذا يعني أنه لم تحدث حالة ظلم واحدة ضد أي مسيحي أو يهودي ولا حتى بمجرد كلمة فيها إساءة ، بل رأينا كيف استدعى عمر بن الخطاب وهو خليفة للمسلمين واليه على مصر الصحابي الجليل عمرو بن العاص من أجل إنصاف رجل مسيحي كان ابن والي مصر قد اعتدى عليه بالضرب ومكن القبطي المصري من القصاص من ابن والي مصر وقال له الكلمة المشهورة "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً"

وبرغم كل هذا الارتقاء في معاملة غير المسلمين في الأمة المسلمة منذ القرن السابع الميلادي، فقد رأينا رموز العالم الحر يقفون عند مستويات تقل بمسافات شاسعة عن مستوى الارتقاء

الأخلاقي للأمة المسلمة، فقد تناول مؤلف كتاب "وهم الإله" الموضوع من زاوية أخرى ، فمن منطلق العداء المطلق للدين بكل أشكاله وصوره راح يصب اهتمامه على ما يلاقيه الدين – على حد وصفه – من احترام وتمييز لا يستحقه، وبالرغم من الجوانب الجيدة في تناوله للموضوع من حيث عدم موافقته على الإهانة أو التجريح ، إلا أنه مثل كل أبناء العالم الحر لم يستطع أن يتجاوز الحواجز البشرية التي تجعل الإنسان لا يرى إلا نفسه أو عالمه فقط ، ولا يستطيع تصديق أن الآخر مثله تماماً له الحق في أن تحترم مشاعره

ففي الوقت الذي يدافع فيه دفاعاً كبيراً عن حق المثليين في عدم (جرح مشاعرهم) نراه يدافع عن حق كل الناس في (جرح مشاعر المسلمين) بالإساءة إلى رسولهم باسم حرية التعبير، لكن هناك **ازدواجية في المعايير لا يشعر بها أبناء العالم الحر** ، فحرية التعبير حين تستخدم ضد المثليين فهي تمييز بشع لا يجوز أن يسكت عليه المجتمع الراقي المتحضر ، لكن هذه الحرية نفسها حين تستخدم في الإساءة إلى الدين و رموزه تصبح مقدسة لا يجوز المساس بها ،

و لننظر إلى ما جاء في كتاب وهم الإله تعليقاً على الموضوع: "أنا لست مع الأذى و الإهانة لأي إنسان، لكنني لا أفهم سر هذه الامتيازات غير المنطقية التي يتمتع بها الدين في ما نسميه بمجتمعاتنا العلمانية، على كل السياسيين أن يعتادوا رؤية رسوم ساخرة لوجوههم، لا أحد يهتز ليدافع عنهم، ما هو الشيء المميز للدين والذي يجعلنا نعطيه نوعاً فريداً من الاحترام ؟ أذكر ما قاله مينكين في هذا الصدد: (عليك باحترام دين الآخر ولكن ليس أكثر من احترامك لاعتقاده بأن زوجته جميلة و أولاده أذكياء) في ضوء هذه النظرية الفريدة لاحترام الدين سأبدأ أولاً بالقول: لن أكلف نفسي من أجل جرح أو إهانة ما، ولكن في الوقت نفسه لن أعطي اعتبارات للدين لا أعطيها لأي موضوع آخر، لن أعامل الدين بطريقة مختلفة عن معاملتي لأي شيء آخر"[١]

فالجزء الأول من العبارة جيد و ينم عن أخلاق راقية ، فهو كأي شخص متحضر لا يقبل الإساءة لأي أحد ، لكنه في الوقت نفسه لا يتعامل مع موضوع إهانة الرموز الدينية بأكثر مما يتعامل به مع إهانة الرموز السياسية الذي يحدث كل يوم دون أن يعترض عليه أحد

وهنا يكمن **الفارق الشاسع** بين الارتقاء الأخلاقي الذي علمه لنا الدين الحق وبين المستوى الذي وقف عنده رموز العالم الحر وفلاسفته ، ويتضح ذلك من نقطتين :

الأولى : أن الإسلام من منطلق الاحترام الكامل لإنسانية الإنسان ولمشاعره وأحاسيسه حرم على المسلمين السخرية من الآخرين بأي شكل من الأشكال، فقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ) (سورة الحجرات ١١)

كما علمنا ديننا الحنيف أن الله عز وجل كرم الإنسان وفضله على معظم المخلوقات الأخرى وذلك في قوله تعالى في سورة الإسراء

"ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً" (سورة الإسراء ٧٠)

[١] - ريتشارد دوكنز ، الطبعة نفسها، صفحة ٣٠

وبناءً على هذا التكريم فليس من حق أحد من المخلوقين أن يهين هذا الإنسان ولا أن يسخر منه، لأن أي صورة من صور الإهانة له أو السخرية منه تنتقص من التكريم الواجب له والذي استمده من الخالق الذي خلق الكون

فنحن كمسلمين لا نقبل السخرية لا من السياسيين ولا من الأنبياء ولا من أي إنسان آخر ، فمهما كانت درجة فشل هؤلاء السياسيين أو حتى فسادهم ، فقد علمنا الإسلام أن نقف بكل الطرق المشروعة أمام فشلهم أو فسادهم حتى يتم توقفه أو إزالته، لكن هذا السياسي لا يسقط عنه الحق في **عدم جواز السخرية** منه ولا حقه في **احترام آدميته** ، فهو وإن كان غير ناجح في عمله أو كان حتى فاسداً فإن طرق مجابهته يجب أن تكون حاسمة وجادة ، وليست من قبيل اللعب والمزاح، فهذا السياسي الفاشل من المؤكد أن له عائلة – لا ذنب لها في فشله ولا في فساده – وهي تتألم لإهانته وتتعرض للإساءة من المحيطين بها من جراء ذلك ، وهؤلاء يجب احترام حقوقهم ومشاعرهم ، كما أن السخرية لن تحول فشله إلى نجاح ولا فساده إلى صلاح ، إنها فقط تجرح المشاعر له ولأهله و تغرس الكراهية في النفوس دون أي نتيجة إيجابية

إن السخرية بشكل عام هي **سلوك متخلف و غير حضاري** وغير أخلاقي أيّاً كان الشخص الذي يقع عليه هذا السلوك ، لأن الإهانة العميقة التي تسببها السخرية لا ينساها الإنسان حتى بعد عشرات السنين ، وبالطبع لا يقبل أحد من الناس أن يكون هو موضع السخرية أو الاستهزاء، وقد علمنا ديننا الحنيف ألا نعامل أحداً بشيء لا نقبله لأنفسنا ، وذلك في قول رسولنا الكريم ﷺ كما جاء في صحيح البخاري **"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"**[١]

فهؤلاء الأشخاص الذين يسخرون من الآخرين – سواء الرموز الدينية أو السياسية أو غيرها - بشكل مهين هم في الحقيقة لا يقبلون أن يسخر منهم أحد بمثل ما يسخرون هم، و الشخص الذي يفعل مع الناس ما لا يقبل أن يفعلوه هم معه هو في الحقيقة غير جدير بالاحترام لأنه يقبع في أقل درجات الارتقاء الأخلاقي

الثانية: أن الإسلام حين أمرنا ألا نتعرض لأهل الأديان الأخرى بأي أذى كان ذلك موجهاً بشكل أساسي إلى الإنسان بحد ذاته – الذي كرمه الله - وليس إلى المعتقدات التي يحملها في رأسه ، وذلك بهدف نشر روح الاحترام المتبادل و المواطنة والتسامح بين الناس، حتى يستطيع المجتمع أن يتعاون على التقدم و الارتقاء الحضاري بدون وجود حواجز أو حساسيات داخل القلوب تهدر طاقات هذا المجتمع في خلافات جانبية أو ربما صراعات دامية

لكن د: ريتشارد حول وجهة الحديث إلى العداء للدين ووجوب عدم إعطاء الدين – باعتباره وهماً - أي ميزة عن غيره ، هذه للأسف سطحية شديدة في تناول القضايا الهامة، نحن نتحدث عن أكثر من مليار و نصف المليار من البشر لهم قلوب ومشاعر و نفوس يجب على أي إنسان متحضر أن يحترمها ، كما احترمتها الأمة المسلمة قبل حضارة العالم الحر بألف وأربعمائة عام وهم يحدثوننا عن الضرب بكل هؤلاء البشر عرض الحائط من أجل عدم إعطاء فرصة للدين أن يتميز على غيره

---

[١] - صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي، الحديث رقم ١٣

إن المستوى الراقي الذي علمه لنا الدين هو احترام **الآخر بكل ما يحمله رأسه من خرافات** من حيث كونه إنساناً كرمه خالق الكون ، و ذلك بهدف التعايش السلمي البناء وشيوع روح السلام والاحترام بين الناس ، وترك أمر تلك الخرافات لخالقه الذي خلقه **فهو وحده صاحب الحق في محاسبته عليها،** إنه احترام للإنسان ولمشاعره دون النظر إلى ما يحمله من أفكار، وقد رأينا هؤلاء الذين يحملون العقائد الباطلة في رؤوسهم يتولون منصب الوزارات وقيادة الجند في الدولة المسلمة منذ القرن الأول لظهور الإسلام دون أن يمس مشاعرهم أحد من المسلمين

هذا معنى ما قلناه سابقاً من أن د: ريتشارد جسد بنفسه الدليل الواقعي على أن البشر مهما حصلوا من أخلاق العصر الحديث فهم عاجزون عن تخطي الحاجز الذي يوقفهم عند حدود التصورات البشرية الأرضية التي لا يمكنها رؤية غيرهم ولا الاكتراث بغير قناعاتهم وثقافاتهم و مصالحهم فقط

وبذلك نكون قد وصلنا إلى النتيجة المنطقية التي لا يستطيع أن ينكرها أحد ، وهي أن الأخلاق التي علمها لنا الدين تتفوق على كل أخلاق روح العصر بفوارق ضخمة كمّاً وكيفاً مع إحرازها السبق الزمني الهائل الذي لم تبدأ حضارتنا الحديثة بعد في محاولة إيقافه أو حتى تقليله

لقد كان من المنتظر حقاً من **جميع رموز العالم الحر** أن يتحملوا مسؤوليتهم كقادة ينظرون إلى أبعد مما ينظر عوام الناس، و أن يكونوا على المستوى الأخلاقي الرائع نفسه الذي كان عليه رسول الإسلام ﷺ حين قال لنا **"من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه – فأنا حجيجه يوم القيامة"** ، فقد كان يوم قال هذه العبارة يعلم تمام العلم أن اندفاع الأغلبية المسلمة خلف عواطفها الجارفة لدينها وحبها لربها قد يدفع الكثير من أفرادها إلى ظلم أهل الأقليات غير المسلمة ، بدافع من اعتقادهم أن هذه الأقليات هم أصحاب معتقدات باطلة وخرافات ، لذلك وضع أقصى حماية ممكنة لهذه الأقليات بأن جعل التوجه لهم بأقل ضرر أو إيذاء يمثل إيذاءً مباشراً له شخصيّاً

لكنهم للأسف اتخذوا الاتجاه المعاكس لكل معاني الارتقاء الإنساني التي علمها لنا هذا الرسول الكريم وساروا خلف عوام الناس في سقوطهم الأخلاقي المشين بدلاً من أن يأخذوا بأيديهم إلى القمم الأخلاقية والحضارية

لقد آن الأوان لحضارة القرن الحادي و العشرين أن تقفز قفزة حقيقية إلى الأعلى لكي يحل السلام على كل شبر من الأرض، على جميع قادة العالم في جميع الدول وفي جميع القارات أن يكتبوا على واجهات برلماناتهم و محاكمهم وقصور رئاستهم و أيضاً على واجهات الهيئات الدولية المعنية بحقوق الإنسان تلك العبارة الخالدة "من آذى أحداً من الأقليات فقد آذى رئيس الدولة أو الملك" وأن يكتبوها في دساتيرهم ، و أن يطبقوها بكل قوة و حماس ،

ليس شرطاً أن يعتنقوا الإسلام لكي يأخذوا منه هذه العبارة الراقية ، فقد علمنا رسولنا ﷺ أن الحكمة ضالة المؤمن فأينما وجدها فهو أحق بها، لذلك فلو رأينا نحن المسلمين شيئاً راقياً حتى عند أعداء الإسلام فإننا نسارع بالأخذ به، و لا يستطيع أحد على وجه الأرض أن ينكر أن عبارة رسول الإسلام محمد ﷺ "من آذى ذميّاً فقد آذاني" **هي أرقى ما سمعت أذن البشر** جميعاً في مجال معاملة الأقليات، ولنا جميعاً أن نتخيل كم من الصراعات الدموية سوف تتوقف فوراً بمجرد تطبيق حكومات الأغلبية في كل دول العالم لهذا المبدأ الحضاري الراقي ، وكم من

الأرواح سوف تصان، وكم من الدماء سوف تحقن، وكم من الأموال المهدرة سوف يتوقف إهدارها، وكم من الأسلحة والمدافع والطائرات سوف يتوقف هديرها، وكم من قلوب سكن فيها الحقد المدمر سوف يسكنها التسامح والحب ، وكم من جماعات الإرهاب الأسود سوف تختفي لاختفاء السبب الرئيس في وجودها ، وكم من ضحايا هذه الجماعات سوف تنعم بالأمن،

هذا هو الحل الحضاري الوحيد لكل نزاعات العالم ، وهو الحل الوحيد الذي سيضمن القضاء على ظاهرة الإرهاب التي لا تتغذى إلا على الأحقاد المزمنة، فإذا لم تكن هناك أحقاد فلن يجد الإرهاب ما يتغذى عليه

إن الحل الساذج الذي قرأناه في كتاب وهم الإله لحل كل هذه النزاعات لا يصلح إلا في روايات السينما، فعبارة "ما رأيك في عالم بدون طالبان ولا صراع عربي إسرائيلي في فلسطين ولا صراع بين الشيعة والسنة أو بين الكاثوليك و الأرثوذكس والبروتستانت" كل ذلك لا يستطيع الإلحاد أن يحله ولا بعد مليون سنة، فالحكومات الشيوعية التي آمنت بأن الدين وهم وخرافة هي أكثر الحكومات الفاشية في التاريخ الإنساني، بل لقد كان هناك عشرات الملايين من ضحاياها من الشيوعيين الذين يؤمنون أيضاً بأن الدين خرافة،

إن الحقيقة التي أثبتها التاريخ هي أن الإنسان الذي يشعر بأنه فوق الآخرين ، و أنه لهذا السبب يحق له سحقهم أو إهانتهم أو فرض الوصاية عليهم لسلبهم حقوقهم هو في الحقيقة يمثل المشكلة الكبرى، ويوم يمتلك القوة المفرطة و يتصرف مع الآخرين بموجب هذه الأوهام تحدث الكوارث التي رأيناها عبر التاريخ ، سواء في الصراع الديني مثل محاكم التفتيش في أوروبا ضد المسلمين واليهود والبروتستانت ، أو في الصراعات غير الدينية مثل ألمانيا الهتلرية ضد اليهود وضد العالم كله ، أو في الأميركتين ضد السود والهنود الحمر ، أو في روسيا القيصرية و الشيوعية ضد المسلمين و حتى ضد الشيوعيين المشكوك في ولائهم للحزب الشيوعي

إن اختلاف عقائد الناس وثقافاتهم لن ينتهي إلا بزوال الدنيا، ولن يأتي يوم يصبح الناس فيه على دين واحد ولا على معتقد واحد، سواء كان الإلحاد أو غيره، مهما حاول الملحدون أن يخرجوا الناس من أديانهم، هذا ما أكده لنا القرآن الكريم في سورة هود في قول الله تعالى

" ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ١١٨ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم " (هود ١١٨ – ١١٩)

لذلك تعامل الإسلام مع المشكلة تعاملاً واقعيّاً، فعلم المسلمين أن اختلاف الناس في أديانهم وعقائدهم هو حقيقة واقعة يجب أن يتقبلوها – في حين يرفض كل البشر غير المسلمين أن يتقبلوها – كما علمهم أنه ليس من حقهم أن يفرضوا الحق الذي يدينون به على الآخرين بالقوة، لذلك قال لهم **"لا إكراه في الدين"** ثم توجه الإسلام في معالجة المشكلة – كعادته دائماً - إلى القلب مباشرة بأن غرس في قلوب المسلمين أن الناس جميعاً إخوة أشقاء من أب واحد وأم واحدة، ثم أعطى لغير المسلمين الحصانة التي ذكرناها من قبل بأن جعل إيذاءهم إيذاء مباشراً لرسول الإسلام شخصيّاً

هذا هو الحل الحضاري الراقي الذي جعل الأقليات تعيش في الدولة المسلمة حياة كريمة أفضل بآلاف المرات من حياتهم في ظل حكومات تدين بدينهم نفسه ، مثلما رأينا المسيحيين في مصر

والشام يستردون حريتهم ويخرجون من مخابئهم بعد خروج المسيحيين الرومان منها طبقاً لشهادات القساوسة والمسيحيين المصريين والشاميين أنفسهم كما رأينا

وأخيراً فبغير أن تنجح حضارة القرن الحادي والعشرين في هذا التحدي وتتبنى هذا المفهوم الراقي فليس من حق أحد منا أن يرفع رأسه ويقول "أنا متحضر" بل ولا حتى أن يقول "أنا إنسان"

ب : الأقليات العرقية

بعد أن تحدثنا عن الأقليات الدينية ، وعن الفرق بين معاملة الدين الحق و بين معاملة جميع الأمم الأخرى لهذه الأقليات ، سنأخذ نوعاً آخر من الأقليات – وهي الأقليات العرقية - لنرى كيف نظر الإسلام إليهم و كيف نظرت الأمم الأخرى ، حتى نجيب على السؤال الذي بين أيدينا : هل نحن حقاً لسنا بحاجة إلى الدين لنكون جيدين و متفوقين أخلاقيّاً ؟

الأقليات العرقية و التمييز الطبقي:

هذا هو النوع الثاني من الأقليات و الفئات المستضعفة ، التي يعتبر التعامل معها من قبل الأغلبية معياراً دقيقاً للتحضر و للارتقاء الأخلاقي لهذه الأغلبية، وسوف نرى في السطور القادمة كيف ارتقى الدين الحق في معاملة هؤلاء إلى مستويات عالية من التحضر منذ القرن السابع في الوقت الذي لم تبدأ أخلاق روح العصر في حضارتنا الحديثة في ارتقائها الحضاري في هذا الشأن إلا في منتصف القرن العشرين وهي حتى الآن ما زالت تتقدم حيناً وتتعثر حيناً آخر

١- التمييز العنصري ضد السود :

الفكرة التي طرحها د: ريتشارد في كتاب وهم الإله عن تحرك روح العصر إلى الأمام صحيحة بدون شك ، ولكن بمقدار محدود و في منطقة محدودة من العالم يمكننا أن نحددها بمنطقة غرب أوروبا والأمريكتين، والأمثلة التي ضربها على صحة فكرته حدثت كلها في هاتين المنطقتين، وقد شرح فكرته على النحو التالي :

"كان توماس هنري هاكسلي بمقاييس عصره رجلاً مستنيراً وتحرريّاً متقدماً، ولكن زمانه ليس زماننا ، وفي عام ١٨٧١ كتب ما يلي : ليس هناك إنسان عقلاني في الواقع ممن يؤمن بأن الزنجي العادي مساو للرجل الأبيض أو متفوق عليه، ولو كان ذلك صحيحاً فإنه ببساطة من غير المعقول أنه فيما لو تغيرت الظروف المسببة لإعاقته وحصل على حقه الخاص وبدون أي مساعدات سيكون قابلاً لمقارعة نظيره الأكبر مخّاً و أصغر حنكاً في أي مسابقة تستدعي التفكير وليس العض، أن المراكز العليا في المجتمع المتحضر بالتأكيد لن تكون من نصيب أولاد عمنا الداكنين" ويكمل د: ريتشارد قائلاً :

"من المتفق عليه بين المؤرخين أن لا يحكموا على أقوال من الماضي بمقاييس الحاضر بالنسبة لهم، وأبراهام لينكولن مثل هاكسلي ، كان سابقاً لعصره ولكن آراءه بالنسبة للعرق تبدو متخلفة

وعنصرية في أيامنا، وإليكم ما قاله في مناظرة مع ستيفين دوغلاس عام ١٨٥٨: (سأقول إذاً بأنني لست ولم أكن أبداً من مناصري أو مؤيدي موضوع المساواة بين البيض والسود فيما يتعلق بالأمور الاجتماعية والسياسية، أنا لست ولم أكن أبداً مؤيداً لحقوقهم في أن يكونوا قضاة أو حتى مصوتين في الانتخابات أو اعتبارهم مؤهلين لتولي مناصب أو أن يتزوجوا من البيض، و سأقول بالإضافة لما قلت : بأن هناك فروقاً فيزيائية بين البيض والسود تجعلني أومن بتأييد منعهم من العيش جنباً إلى جنب وعلى قدم المساواة فيما يتعلق بأمور المجتمع والسياسة، وستتطلب الحياة التي يعيشونها بوجودهم مع بعضهم بعضاً أن يكون هناك رئيس وتابع و أنا كما هو الحال مع الجميع أومن بأن الجنس الأبيض مقدر له أن يكون متفوقاً) " ثم يكمل د: ريتشارد قائلاً: "لو كان هاكسلي ولينكولن أبناء عصرنا هذا لكانا أول من يستنكر تلك المشاعر والأفكار المتخلفة، لقد اقتبست منهم فقط لأبين كيف مضت روح العصر إلى الأمام"[١]

ونحن نتفق تماماً مع هذا في إطار أن ذلك حدث في بلاد العالم الحر، لكن تعميم الأفكار على شعوب الكرة الأرضية كلها وعلى جميع الثقافات ، و الأديان ، والمعتقدات ، على هذا النحو، والخروج بنظرية شاملة مفادها أن الدين ليس هو مصدر الأخلاق الحميدة و أن أخلاق روح العصر هي مصدر الارتقاء الإنساني، هذا يمثل سطحية شديدة وتسرع ساذج من أي باحث يريد الوصول إلى الحقيقة ، فلو أن فلاسفة العالم الحر أرادوا أن يعمموا نظرية اجتماعية أو أخلاقية على جميع شعوب الأرض فعليهم لكي يدركوا أقل درجات الحقيقة أن يقرؤوا و أن يدرسوا علاقة كل هذه الشعوب بالقضية نفسها التي يريدون تعميمها ، لأن التعميم على شرائح لم يتم دراستها من قبل الباحث يجعله يخرج عن كل معايير البحث العلمي و يقع لا محالة في أخطاء جسيمة دون أن يشعر

والآن نفتح أعين فلاسفة الغرب على الجانب الآخر من الكرة الأرضية لينظروا كيف أوصلهم التعميم غير المبني على دراسة علمية صحيحة إلى نظريات خاطئة، فقبل مقولة هاكسلي و لينكولن بألف ومائتين و ثلاثين عاماً كاملة وفي صحراء الجزيرة العربية – في مكة المكرمة – وقف رسول الله محمد ﷺ في مشهد مهيب في يوم دخوله مكة فاتحاً منتصراً ، وحوله عشرة آلاف مقاتل بعد مضايقات و حروب دامت لمدة واحد وعشرين عاماً كاملة، وقف يخطب في الناس قائلاً (كما جاء في السيرة النبوية لابن هشام) :

"يا معشر قريش : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس لآدم وآدم من تراب ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، ثم تلا قول الله تعالى :" **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** " (سورة الحجرات ١٣)[٢]

وفي رواية الإمام أحمد في مسنده عن خطبة رسول الله ﷺ في ذلك اليوم ، أنه قال: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى -- »[٣]

---

[١] - ريتشارد دوكنز ، كتاب وهم الإله ، الطبعة نفسها ، صفحة ٢٦٨
[٢] - السيرة النبوية لابن هشام ، الجزء الثاني ، الطبعة السابقة ، صفحة ٤١٢
[٣] - مسند الإمام أحمد، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ١٠٥٩

وقد احتوى هذا الخطاب على نقطتين هامتين،

الأولى : هي إنهاء التمييز الديني والقبلي الذي كانت تتمتع به قبيلته - قريش – على سائر العرب بسبب مجاورتها لبيت الله الحرام ، حتى أنهم كانوا لا يشتركون مع القبائل العربية الأخرى في المناسك التي كانت تؤدى خارج الحرم أثناء الحج ، مثل الإفاضة من عرفات وكانوا يسمون أنفسهم "الحمس" فأبطل الإسلام كل مظاهر التمييز هذه بقول الله تعالى **"ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم"** وبقول رسوله ﷺ "يا معشر قريش : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء"

والثانية : أنه قام بتعميم الأمر و أعلن المساواة بين جميع البشر على أساس أنهم جميعاً إخوة أشقاء لأب واحد هو آدم عليه السلام وأم واحدة هي حواء عليها السلام، وصدع بأعظم و أعدل كلمة عرفتها البشرية على مدار تاريخها الطويل **" ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى"**

ثم أيد النقطتين السابقتين بقول الله تعالى من سورة الحجرات **"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"**

ولا يحسب أحد أن النظرة المتعالية للعبيد الذين كان معظمهم من السود في المجتمع العربي الذي واجهه رسول الله ﷺ كانت أقل تطرفاً مما ساقه السيد ريتشارد على لسان هاكسلي و لينكولن، بل كانت أشد و أعنف حتى أن سادة مكة رفضوا الدخول في الإسلام برغم اقتناعهم بصدق الرسول ﷺ بسبب رفضه أن يطرد هؤلاء العبيد والسود حين طلبوا منه ذلك

فقد جاء في تفسير سورة الكهف في الآية ٢٨ أن عدداً من كبار كفار قريش جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وكان عنده ستة نفر بعضهم من السود و بعضهم من الفقراء ، فقالوا له : أطرد هؤلاء من عندك ونحن نؤمن بك ، وقد فكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنطق العقل البشري أنه لو جعل التقاءه بهؤلاء الفقراء والسود في يوم غير اليوم الذي يجتمع فيه مع سادة قريش من أجل أن يكسب إسلامهم فإن هذا المكسب العظيم يستحق هذا التنازل ، لأن إسلام هؤلاء السادة سيوقف شلال الدم الذي لا ينقطع بسبب تعذيب هؤلاء السادة للمسلمين ، و سيؤدي إلى انتشار الإسلام بأقصى سرعة في الجزيرة العربية

لكن بمجرد أن ناقش الأمر بينه وبين نفسه ، وقبل أن يتخذ قراراً بالموافقة أو الرفض أنزل الله عز وجل عليه قوله :

(و اصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ☼ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً) (الكهف ٢٨)

كما أنزل عليه أيضاً قوله تعالى :

"ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ☼ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ☼ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم" (الأنعام ٥٢ – ٥٤)

بكل هذا الحسم جاء الرد من الخالق عز وجل ، فمحاباة أفراد الطبقة العليا في المجتمع على حساب الطبقات الفقيرة ، أو على حساب السود حتى في أقل الأمور مثل تخصيص يوم لهم حتى لا يجتمعوا بهؤلاء الفقراء والسود مرفوض بكل قوة في دين الله عز وجل ، بل أكثر من ذلك فقد كانت العبارات شديدة على قلب رسول الله ﷺ وهي تؤكد له أن الدين هو دين الله عز وجل ، و أنه ليس مسئولاً عن حساب هؤلاء الضعفاء ولا هم مسئولون عن حسابه حتى يقرر أن يطردهم أم لا ، وأنه إن فعل ذلك فسوف يكون من الظالمين، ثم ترد على زعم السادة الذين يستنكرون أن يكون الله عز وجل قد أكرم هؤلاء الفقراء و السود بشيء فيه خير وحرمهم منه ، حين قالوا مستهزئين **"أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا"** فقال لهم **"أليس الله بأعلم بالشاكرين"** ثم أمر رسوله ﷺ أن يستقبل هؤلاء الفقراء والسود بوجه باسم طليق قائلاً لهم **"سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة"**

ثم تكرر الحسم نفسه في سورة الكهف محذراً له ليس فقط من طرد هؤلاء الفقراء و السود وإنما حذره حتى أن يبعد عينه فقط عنهم وسمى هذا نوعاً من الرغبة في زينة الحياة الدنيا

ثم وضع سبحانه وتعالى القاعدة العظيمة التي تحدد بكل وضوح أن هذا هو دين الله الحق بكل قواعده الثابتة بما فيها المساواة بين جميع البشر في كل شيء ، وعدم تفاضلهم إلا بشيء واحد هو التقوى، فمن شاء أن يؤمن به كما هو بكل ما فيه من ارتقاء وعظمة فليؤمن ، ومن شاء أن يكفر فهو حر في اختياره ، لكن دين الله لن يتغير ولو في جزئية صغيرة من جزئياته من أجل إرضاء أحد من الناس أو طبقة من الطبقات

إن هذا هو منتهى العدل، لأن الإنسان لا يملك أن يختار المكان ولا الزمان الذي يولد فيه ، ولا يملك أن يختار لون بشرته ولا طول قامته ولا تقاسيم وجهه ، ولا أحد يستطيع أن يختار العائلة ولا القبيلة ولا الجنس البشري الذي ينتمي إليه ، لكنه بالقطع يملك أن يكون إنساناً فاضلاً يفعل الخير لكل من حوله أو أن يكون شريراً يؤذي الآخرين، **لذلك جعل الله عز وجعل عمل الإنسان هو المعيار الوحيد للتفاضل بين الناس**

لقد علمنا ديننا الحنيف منذ ألف و أربعمائة عام أن من الممكن أن يكون هناك رجل له بشرة سوداء أو امرأة فقيرة في آخر وأفقر قرية من العالم ويكون هو أو هي أفضل سكان كوكب الأرض وأثقلهم وزناً عند الله عز وجل، وتحكي كتب السنة أن رسول الله ﷺ طلب من أحد أصحابه ويدعى عبد الله بن مسعود وكان أسود اللون ونحيف الجسد بشكل ملحوظ أن يصعد إلى شجرة آراك ليقطع له غصناً صغيراً يتسوك به ، ولما صعد رأى الناس ساقه وكانت رفيعة جدّاً، فضحكوا ،" فقال رسول الله ﷺ: مِمَّ تضحكون ؟» قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه، فقال: والذي

نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحُد»[1]. أي أن ساق هذا الرجل النحيف الأسود أثقل عند الله من جبل أحد لثقل الإيمان في قلبه ،

وتحكي كتب السنة أيضاً أن أبا ذر - وهو أحد كبار الصحابة على عهد رسول الله ﷺ – عيّر رجلاً بأمه لأنها سوداء ، فغضب الرجل و شكا لرسول الله ﷺ ما حدث ، فقال رسول الله لأبي ذر (**أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية**)[2] وقد كان الصحابة ينظرون إلى الجاهلية على أنها مظهر من مظاهر الكفر، وتروي كتب السيرة أن أبا ذر عاد إلى الرجل فما زال يستعطفه ليرضى عنه حتى رضي

ليس هذا فقط ، بل رأينا السود يحتلون أعلى المراكز الدينية في الدولة المسلمة ، و يلقون من المسلمين أسمى آيات التبجيل والاحترام ، فقد عين رسول الله ﷺ بلالاً مؤذناً للصلاة وهو عبد حبشي أسود ، وكان بلال يصعد كل يوم خمس مرات فوق ظهر المسجد رافعاً صوته بالأذان ليجمع المسلمين للصلاة على مدى أكثر من ثلاثة عشر عاماً حتى رحل رسول الله ﷺ ثم طلب منه الخليفة الثاني أبو بكر الصديق أن يستمر على الأذان لكنه اعتذر ، بل كان بلال يجمع الناس لأي أمر خطير مثل الإعداد للغزوات وغير ذلك بالأذان أيضاً

ليس هذا فقط ، بل جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة :**«أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلّم قال لبلالٍ عند صلاةِ الفجر: يا بلالُ حدِّثني بأرجى عملٍ عملتَهُ في الإسلام، فإني سمعتُ دَفَّ نَعليكَ بينَ يدَيَّ في الجَنَّة. قال: ما عملتُ عَملاً أرجى عندي أني لم أتطهَّرْ طُهُوراً في ساعةِ ليلٍ أو نهارٍ إلا صلَّيتُ بذلكَ الطُّهورِ ما كُتِبَ لي أن أصلِّي». قال أبو عبدِ اللّهِ: دَفَّ نعليكَ، يعني تحريكَ."**[3]

بل لقد أصبح بلال قاضياً للمسلمين ، فقد عينه الخليفة الثالث عثمان بن عفان قاضياً على الكوفة، وهذا يعادل أكبر منصب قضائي في ثاني أكبر مدينة في أي دولة حديثة الآن

كما رأينا عدداً كبيراً من الأئمة والعلماء والفقهاء والقراء من السود ، وكان علمهم يرفعهم بين المسلمين لأعلى الدرجات ، حتى إن الإمام نافع – في القرن الثاني الهجري - وهو صاحب إحدى القراءات العشر المتواترة للقرآن الكريم كان ذا بشرة شديدة السواد ، وكان حفاظ القرآن الكريم الذين يتعلمون على يديه – وهم من البيض - **يتسابقون على حمل حذائه** لكنه كان ينهاهم عن ذلك، وعلينا هنا أن ننبه إلى أن المكانة العلمية والدينية للإمام نافع **لا تعدلها أي درجة علمية في أي جامعة موجودة الآن على وجه الأرض**

هذه هي المعاملة التي كان يعامل بها السود في القرن السابع الميلادي داخل الدولة المسلمة التي كانت تسير على نور الوحي النازل من السماء ، في الوقت الذي ما زلنا فيه حتى يومنا هذا نرى التمييز العنصري ضدهم يطل برأسه بين الحين والآخر في أكبر دول العالم الحر التي تتمتع بآخر ما وصلت إليه أخلاق روح العصر

[1] - مسند الإمام أحمد ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ٣٩٩٠
[2] - صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم
[3] - صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ١١٣٢

لقد استطاع الإسلام أن يقتلع جذور المشكلة من قلوب المسلمين تماماً حين علمهم أن الناس جميعاً إخوة أشقاء لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بعمله الصالح ، بينما فشلت كل قوانين حضارتنا الحديثة في اقتلاع جذور المشكلة من قلوب أبناء العالم الحر حتى الآن، ولهذا السبب قال السيد مالكوم ليتل - أو مالكوم اكس المناضل الأمريكي الأسود الشهير – كلمته العميقة :

"إن أمريكا بحاجة لأن تفهم الإسلام لأنه الدين الوحيد الذي يمكن أن يمحو المشكلة العنصرية في مجتمعها"[١]

لقد توجه الإسلام في حل المشكلة المستعصية إلى القلوب مباشرة و اقتلع ما تحمله هذه القلوب من مفاهيم و أحقاد من جذورها ، ليس فقط قلوب البيض و الأغنياء و إنما أيضاً قلوب السود والعبيد ، لأنه جعل معيار الأفضلية المطلقة للأعمال الحسنة أيّاً كان لون فاعلها ، وجعل العقوبة العادلة لمن يرتكب الشرور أيّاً كان لون مرتكبها

لقد حث الإسلام كل الأغنياء على بذل المال بكل سخاء من أجل تحرير العبيد و من أجل إطعام الفقراء ، و بين رسول الله ص أن من أعتق عبداً أعتقه الله عز وجل من النار ، وفهم الأغنياء أن ذلك أضمن طريق لدخول الجنة و لتكفير جميع خطاياهم، ونتج عن ذلك قيام الأغنياء من المسلمين بدفع أموال طائلة في شراء العبيد ثم إعتاقهم أحراراً بدون مقابل ، فتروي كتب السيرة أن أبا بكر الصديق - الخليفة الأول - كان من أغنى المسلمين مالاً، و أنه مر على بلال بن رباح – وقد ذكرنا أنه كان عبداً أسود استقدم من الحبشة – وهو يعذب بأشد صور التعذيب والحرق بالنار والجر على رمال الصحراء الملتهبة بسبب إسلامه ، فقال لمالكه الذي يعذبه : أتبيعه لي ؟ فظل مالكه يرفع في سعر بلال حتى أوصله إلى عدة أضعاف لثمنه الأصلي، فوافق أبو بكر وهو يعلم أن هذا المالك يغالي في السعر بشكل غير منطقي، ولما دفع له الثمن قال هذا الرجل : لو لم تدفع فيه سوى خمسمائة درهم لتركته لك فهو لم يعد يساوي شيئاً بالنسبة لي ، فقال له أبو بكر: والله لو لم تعطه لي إلا بمائة ألف لدفعتها لك، وقد تكرر من أبي بكر هذا الفعل العظيم مع جميع العبيد الآخرين حتى أصبح يعرف بأنه محرر العبيد

هنا تكمن عظمة الإسلام التي لم تصل إليها حضارة القرن الحادي والعشرين حتى يومنا هذا، لأن بلالاً رضي الله عنه سمع هذا الكلام من أبي بكر، وقد نال حريته الحقيقية على يد هذا الرجل الأبيض الثري، وهو وكل العبيد الذين نالوا حريتهم و أنقذوا من العذاب الشديد يعلمون أنهم لو حاولوا جمع المال لإطلاق سراح أنفسهم لم يتمكنوا من ذلك ولا بعد مائة عام، لذلك كانوا جميعاً يحبون أبا بكر مثلما يحبون آباءهم وأمهاتهم

وبذلك يكون الإسلام قد عالج مشكلة العبيد والسود و الفقراء بأرقى ما يمكن للبشر أن يتصوروه ، فبينما قامت حركات كثيرة من داخل السود في أميركا على أساس أن الرجل الأبيض شيطان، و أنه لا يمكن للسود أن يطمئنوا للرجل الأبيض مهما كانت الظروف ، فقد رأينا أن الإسلام يرفض تعميم هذه الروح العنصرية العكسية ، و يربي أبناءه على أن الجميع إخوة أشقاء و على أن معيار الأفضلية عند الله هو العمل الصالح ، وجعل العبيد و السود والفقراء يحبون الأغنياء ويشعرون أن مال هؤلاء الأغنياء سوف يعود عليهم منه نفع لا يمكنهم أن يحصلوه بأنفسهم ولا

[١] - ذ : مجدي كامل ، كتاب (مالكوم إكس أو الحاج مالك) ، دار الكتاب العربي ، دمشق – القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١١، ص ٧

بإمكاناتهم المحدودة مهما بذلوا من جهد ، لذلك شاعت روح المحبة و الأخوة و الاحترام بين الجميع بينما رأينا الحرب على أشدها في أمريكا تعصف بكل شيء جميل على تلك الأرض

كما رأينا الشيوعيين في الجانب الآخر من العالم يشعلون الحرب البشعة بين الأغنياء والفقراء حتى كانت أنهار الدم لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً يدفعها كم من الحقد و الكراهية يفوق حجمه حجم الكون الذي نعيش فيه ، وكلنا نعلم أن الشيوعية لو تخلت عن إشعال نار الحرب في قلوب الفقراء ضد الأغنياء فلن تجد ما تقوله للناس

إن العنصرية والاستعلاء اللذان اشتملت عليهما العبارات التي نقلها د: ريتشارد عن هاكسلي و لينكولن والتي قيلت منذ ما يقرب من مائة وخمسين عاماً لم تكن محدودة بالزمن الذي قيلت فيه تلك العبارات فقط ، فقد امتدت كل هذه المفاهيم حتى أواخر القرن العشرين بل وما زلنا نرى حتى الآن صوراً منها تطل بين الحين والآخر لتؤكد أن حضارة القرن الحادي والعشرين في أرقى مجتمعاتها ما زالت حتى الآن عاجزة عن علاج المشكلة بالشكل الصحيح الذي انتهجه الإسلام منذ القرن السابع الميلادي

لقد شاهد العالم كله تقريباً وقائع مسلسل الجذور الذي كان يحكي عن أحداث حقيقية بشعة حدثت بالفعل ضد السود بعد مرور أكثر من ألف عام على نزول القرآن الكريم قائلاً للناس جميعاً "إنا خلقناكم من ذكر وأنثى" و نافياً لأي تمييز بينهم "إن أكرمكم عند الله أتقاكم" و على قول رسولنا الكريم "لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى"

ربما يعترض فلاسفة الإلحاد بأن تلك الأحداث كانت في الزمن الماضي وأن روح العصر سارت للأمام متجاوزة كل هذا السقوط الأخلاقي ، فإذا افترضنا مؤقتاً أن ذلك صحيح : فبكم من السنين جاءت روح العصر متأخرة عن الوحي النازل من السماء ؟

لكن للأسف حتى هذا الافتراض ليس صحيحاً ،

كلنا قرأنا عن الأحداث المؤسفة التي اشتعلت في عام ١٩٥٧ وما بعده في ليتل روك كنتيجة لمعاملة السود بشكل مهين ، ووصل الأمر إلى قيام حاكم الولاية باستخدام قوات الحرس في منع التلاميذ السود من دخول المدرسة مما استدعى تدخل المحكمة الفيدرالية بل و قيام رئيس الولايات المتحدة بإرسال الجيش لتمكين التلاميذ من الدخول، وبالرغم من ذلك كانت التصرفات المهينة من جانب التلاميذ البيض وأهاليهم ضد التلاميذ السود لا تنقطع ، كما تطلب الأمر تدخل الجيش مرة أخرى في عام ١٩٦٢ لتنفيذ قرار المحكمة الفيدرالية بإلزام جامعة ميسيسبي بقبول أحد الطلاب السود ، كما تكررت الأحداث المؤسفة في ولاية ألاباما عام ١٩٦٣ ونتج عنها قتلى وجرحى و حرائق مدمرة و سلب و نهب

و قد كتب الأستاذ "مجدي كامل" في كتابه (مالكوم اكس) الذي تناول فيه لمحات من مذكرات هذا المناضل الأمريكي العظيم ما يلي :

"ومن أخطر الأحداث التي مرت بأسرة الصغير مالكوم وأثرت في تكوينه فيما بعد ما حدث عقب انتقال الأسرة إلى لانسينغ بولاية (ميتشجان) ففي ليلة وصفها مالكوم في مذكراته بأنها سوداء من ليالي عام ١٩٢٩ صحا مفزوعاً على صوت طلقات نارية و ضجيج ليجد بيتهم

يحترق ، و إخوته يتدافعون ويختنقون، وأنهم خرجوا بملابسهم الداخلية إلى العراء يبكون ويصيحون ، وكانت أمه حاملاً بأخته الصغرى (إيفون) يقول مالكوم : كان الأمر كالكابوس الذي لا يمكن أن ينسى أبداً، فقد احترق البيت عن آخره ولم يبق منه شيء، أما المجرمون الذين أحرقوا المنزل و أرادوا قتلهم فكانوا من عصابة (الكوكلوس كلان) وهي منظمة عنصرية بيضاء دأبت آنذاك على سفك دماء السود ،، ويقول مالكوم إن رجال الشرطة والإطفاء البيض لم يبذلوا أدنى جهد لإخماد النيران التي أتت على البيت تماماً، بل عمدوا بدلاً من ذلك إلى إلقاء القبض على أبيه بحجة أنه أطلق رصاص بندقية غير مرخصة على المجرمين أثناء قيامهم بإحراق بيته،، وفي عام ١٩٣١ قامت عصابة من البيض تعرف باسم (الفيلق الأسود) بقتل الأب ايرل ليتل بضربه على رأسه ضربة أفقدته الوعي ، ثم إلقائه أمام قاطرة هشمته لينزف حتى الموت تاركين للأم لويز ثمانية أطفال لتعيش هي و أطفالها على الإعانة الاجتماعية الزهيدة وتعاني اضطهاد البيض اليومي إلى أن انتزع مسئولو الرعاية الاجتماعية الأطفال من لويز بحجة أنها عاجزة عن توفير حياة كريمة لهم، واودعت الأم في العام ١٩٣٧ مستشفى الأمراض العقلية – لمدة ٢٦ عاماً- وبعد ذلك تم توزيع تركتها من الأطفال على العديد من الأسر ودور الرعاية ليكون ذلك بمثابة القشة التي قصمت ظهر الأسرة و شتتت شملها إلى الأبد" [١]

ويستمر الأستاذ مجدي كامل في حديثه عن ذكريات السيد مالكوم اكس حيث تعرض لذكريات البطل العالمي في الملاكمة كاسيوس كلاي – أو محمد علي كلاي – فينقل عن هذا البطل قوله: " وتذكرت أنني عندما كنت صغيراً قتل صبي ملون اسمه (ايمت تيل سيسبي) لأنه أطلق صفيراً تجاه امرأة بيضاء، وكان ايمت في مثل سني، وعلى الرغم من أن القتلة تم القبض عليهم إلا أنه لم يحدث لهم أي شيء، أشياء أخرى مماثلة كانت تدور في عقلي طوال الوقت وتعبر عن العنصرية البغيضة، ففي حياتي الشخصية كانت هناك أماكن يمكنني أن أذهب إليها وأماكن لا يمكنني أن أتناول الطعام فيها، وقد حصلت على ميدالية ذهبية في الألعاب الأوليمبية ممثلاً للولايات المتحدة الأمريكية وعندما رجعت إلى بلدتي وجدتهم لا يزالون يعاملونني كمعاملتهم للزنوج ، فهناك مطاعم لا يمكن أن تقدم لي خدماتها ، والبعض لا يزال يناديني بالصبي"[٢]

ربما يحتج علينا فلاسفة الإلحاد بأن ذلك كان منذ خمسين سنة لكن أمريكا الآن تغيرت و أصبحت بالفعل متخلقة بأخلاق روح العصر الحديث بدليل أن رئيسها الحالي هو رجل أفريقي الأصل و أسود اللون ، نعم : هذا بالطبع تقدم هائل وانتصار كبير للارتقاء الأخلاقي في ذلك البلد، ولكن: **كم من السنين مرت** بين تسابق المسلمين – المتخلقين بأخلاق الدين الحق - في حمل حذاء الإمام نافع قارئ المدينة الأول وحامل القرآن الكريم برواياته المتواترة ، و قيام رسول الإسلام محمد ﷺ بتعيين بلال وهو عبد أسود مؤذناً يدعو الناس للصلاة كل يوم خمس مرات ، ثم توليه منصب القاضي بعد ذلك بعشرين سنة ، وبين تولي الرئيس أوباما منصبه كرئيس للولايات المتحدة الأمريكية ؟

هذا من ناحية ، لكن من ناحية أخرى فبعد كل الأحداث الدامية التي قدم السود الأمريكيون فيها تضحيات جسيمة وبرغم حصولهم في النهاية على منصب الرئيس ، فإن المشكلة لم تصل بعد

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ٤٣ و ٤٤
[٢] - المرجع نفسه صفحة ٨٧ و ٨٨

إلى الحل الجذري الذي وضعه الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ، حين اقتلع من القلوب أي نوع من الافتخار باللون الأبيض وأي نوع من احتقار السود في قول رسوله الكريم ﷺ

"ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى"

فحتى الرئيس أوباما نفسه كانت هناك محاولة فاشلة لاغتياله[١] في مايو ٢٠١٠ على يد مجموعة عنصرية كانت تهدف إلى قتل ما يزيد على المائة شخص من زعماء السود وتم الحكم على أفرادها بالسجن لمدد متفاوتة

لكن الأمر لم يقف عند حد الجماعات العنصرية ، فكما يقول الأستاذ مجدي كامل في الكتاب المذكور أنه قد صدر مؤخراً كتاب (التمييز العنصري الطبي) للكاتبة هارييت واشنطن الذي يؤكد استغلال العنصر الإفريقي الأسود كفئران تجارب في أبحاث طبية عديدة أجرتها جامعات مشهورة ، وتتحدث الكاتبة عن ممارسات في هذا المجال استمرت لعشرات السنين، ومما جاء في هذا الكتاب :

" وخلال الخمسينيات و الستينيات من القرن الماضي استخدم السجناء السود في سجن فيلادلفيا هولمسبورج كفئران تجارب في أبحاث كانت تجريها جامعة بنسلفانيا لاختيار علاجات جلدية و أدوات تستخدم للنظافة الشخصية، ولا يزال بعض أولئك السجناء يشتكون من آلام و أعراض جانبية نتيجة هذه التجارب حتى الآن، و خلال الستينيات والسبعينيات أجريت عمليات جراحية دقيقة في الأعصاب لأطفال سود كانت تؤدي أحياناً إلى الشلل على يد باحث من جامعة ميسيسبي كان يعتقد أن الأمراض الدماغية هي أساس السلوك الحركي المفرط عند الأطفال، و في التسعينيات قام باحثون من جامعة كولومبيا يدرسون المنشأ الجيني للعنف بحقن شباب سود من نيويورك بمادة كانت تستخدم سابقاً كعلاج لإنقاص الوزن ومنعت لأنها تسببت بوفاة عدد من الأشخاص"[٢]

مما سبق يتضح أن التمييز ضد السود ظلت فصوله تحدث في العالم الحر حتى الأمس القريب ، والسؤال الآن: من كان الأكثر ارتقاءً والأسمى خلقاً في مجال معاملة السود ؟

المسلمون الذين عاشوا في القرن السابع في ظل تعاليم الدين ، أم الحضارة الحديثة التي تعيش بأخلاق روح العصر في أرقى صورها ؟

و إذا تذكرنا قول (مارتن لوثر كنج) في خطبته الشهيرة "لدي حلم" عام ١٩٦٣ التي قال فيها: **"إنني أحلم اليوم بأن أطفالي الأربعة سيعيشون يوماً في شعب لا يكون فيه الحكم على الناس بألوان جلودهم ولكن بما تنطوي عليه أخلاقهم"** فكم هو الفارق الزمني الذي يفصل الأمة التي كان يخاطبها مارتن لوثر ويتمنى لها أن تتغير إلى الأفضل، عن الأمة التي جسدت على أرض الواقع قول رسولها العظيم "لا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى" ؟

----

[١] - المرجع نفسه صفحة ٢١١

[٢] - المرجع نفسه صفحة ٦٧

٢- مأساة التمييز العرقي ضد الهنود الحمر

كان د: ريتشارد داوكنز موفقاً إلى حد كبير في تحليل سيناريو معركة أريحا التي وردت في العهد القديم وفي التدليل على أنها كانت مذبحة مروعة راح ضحيتها إثنا عشر ألفاً من النساء والأطفال والرجال الأبرياء، و اتخذها دليلاً على أن العهد القديم ليس مؤهلاً لأخذ شيء من الأخلاق الحسنة منه، وإلى هنا فنحن متفقون معه، لكننا نختلف معه في التعميم الذي ذهب إليه حين ألصق هذه القصة المختلقة بالدين بصفة عامة ، فقد أوردنا في فصل سابق كمّاً كبيراً من الأدلة يكفي لإثبات كذب كل ما جاء عن هذه المذبحة في العهد القديم

لقد عدنا هنا للتذكير بما جاء في هذه القصة الوهمية لسبب بسيط ، وهو أن كل المشاهد البشعة التي حكاها د: ريتشارد في كتاب وهم الإله عن هذه المذبحة لا تساوي واحداً في الألف مما حدث في قارة أمريكا الشمالية و أمريكا الجنوبية ضد السكان الأصليين على يد الغزاة الأوربيين أصحاب أرقى حضارة بشرية في ذلك الوقت، فقد تفاوتت تقديرات الضحايا من الهنود الحمر تفاوتاً كبيراً، فبينما قدرتهم الجهات الرسمية بمليوني ضحية من الرجال والنساء والأطفال ، تحدثت مصادر أمريكية عن أنهم يزيدون على مائة مليون ضحية موزعين على أكثر من أربعمائة شعب، ففي كتاب "أمريكا والإبادات الجماعية" للدكتور منير العكش – أستاذ الدراسات الإنسانية واللغات الحديثة ومدير الدراسات العربية في كلية الفنون والعلوم بجامعة سفك بولاية بوسطن الأمريكية – جاء ما يلي :

"١١٢ مليون إنسان ينتمون إلى أكثر من أربعمائة شعب كانوا يملؤون (مجاهل) العالم الجديد بضحكة الحياة ، لم يبق منهم في إحصاء ١٩٠٠م إلا ربع مليون فقط"[١] ثم يدلل على كلامه بما يأتي :

"ظلت مؤسسة (سميث سونيان) الثقافية الرسمية لفترة طويلة تصر على الزعم بأن عدد سكان أميركا الشمالية عند وصول كولومبس لم يتجاوز المليون ، ومع تزايد الاحتجاجات تبرعت المؤسسة بمليون إضافي وقفزت بالرقم إلى مليونين، ولم يكن الرقم الأول ولا الثاني يستندان إلى دراسة علمية بل كانا أشبه برمية النرد ، ويعتقد (فرانسيس جننغز) الرئيس السابق للجمعية الأميركية للدراسات العرقية والمدير السابق لمركز تاريخ الهنود الأميركيين ومؤلف كتاب (اجتياح أمريكا) أن تقديرات مؤسسة سميث سونيان العشوائية و معظم ما يماثلها مبنية على افتراضات زائفة ذات طابع عنصري ، ومع خمسينات القرن العشرين بدأت جامعة كاليفورنيا في بيركلي بإجراء أبحاث تعتمد على (علم الآثار الزراعي Agricultural Archaeology) خلصت منها إلى أن عدد سكان أميركا في زمن كولومبس كان يزيد على مائة مليون، وبتطبيق هذه التقنية على الشمال الأمريكي توصل (هنري دوبينز) في كتابه (أرقامهم التي هزلت) إلى أن العدد كان في حدود ١١٢ مليوناً بينهم ١٨,٥ مليوناً في أراضي ما يسمى اليوم بالولايات المتحدة الأميركية"[٢]

و معنى هذه الأرقام أن عندنا ما يزيد على مائة مليون رجل و امرأة وطفل تم إبادتهم بطرق وحشية تزيد على كل ما قرأناه عن مذبحة أريحا بأضعاف كثيرة ، وبعبارة أكثر وضوحاً فإننا

---

[١] - د: منير العكش، (حق التضحية بالآخر - أمريكا والإبادات الجماعية)، رياض الريس للكتب والنشر ، ط الأولى ٢٠٠٢ ص ١٦
[٢] - المرجع نفسه صفحة ٢٤

أمام ثمانية آلاف وثلاثمائة مذبحة مروعة تشبه مذبحة أريحا ، لكنها حدثت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وعلى يد بشر كانوا يصفون أنفسهم بأنهم مشاعل الحضارة الذين عليهم أن يضيئوا العالم ، وأنهم حملة النور الإلهي لهؤلاء الضحايا بما كانوا يصطحبون معهم من القساوسة والرهبان ، وسوف نرى بعد قليل من شهادة شهود العيان من الرهبان الكاثوليك أن الرقم الذي ذكرناه أقل ما يمكن تصوره عن الكارثة المروعة

ولنقترب أكثر من الصورة الحقيقية لنعرف بعض تفاصيل ما حدث : فبعد أن وطئت أقدام كريستوفر كولومبس شاطئ قارة أمريكا الشمالية الشرقي بوقت قصير ، اتخذ ملوك أوروبا و قادتها العسكريون قرارهم بالاستيلاء بالقوة على كل ما في هذه القارة و جارتها الجنوبية من أراض و ثروات لا تقدر بثمن، وبالرغم من أن السكان الأصليين رحبوا في البداية كما سنرى بالأوربيين وجنودهم إلا أنهم لما رأوا القتل بلا رحمة هو اللغة الوحيدة التي تحدث بها معهم هؤلاء المستعمرون لم يقبلوا تسليم بلادهم وأبنائهم و نسائهم و حتى رقابهم بهدوء فكان القرار الآثم جاهزاً بضرورة إبادة هؤلاء البشر و محو اسمهم من الوجود، فقد نقل الأستاذ (منير العكش) في الكتاب المذكور أن حاكم ولاية كاليفورنيا في غضون عام ١٨٦٠ وما بعده ضاق ذرعاً بالهنود الحمر الذين يعملون بالسخرة في المزارع فوجه رسالة إلى المجلس التشريعي قال فيها: "إن الرجل الأبيض الذي يعتبر الوقت من ذهب والذي يعمل طوال النهار لا يستطيع أن يسهر طوال الليل لحراسة أملاكه ، وليس أمامه خيار آخر سوى شن حرب إبادة ، إن حرباً قد بدأت بالفعل ويجب الاستمرار فيها حتى ينقرض الجنس الهندي تماماً"[1]

كما نقلت الكاتبة المغربية الأستاذة ليلى أبو زيد في كتابها "أمريكا الوجه الآخر" عن جورج أرمسترونغ – وهو أحد قادة الجيش الأمريكي الذين قادوا حملات الإبادة – قوله "إننا نشاهد مسيرة الهندي الأحمر نحو الانقراض وعما قريب سيبدأ الناس يتحدثون عن جنس نبيل انتقل إلى رحمة ربه" كما نقلت عن الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت قوله "لم تكن هذه القارة الشاسعة لتستمر كمحمية كبرى يمارس فيها القنص متوحشون قذرون"[2]

إن السقوط المروع لأخلاق الأمم الأوروبية التي تتحلى بأخلاق روح العصر لم يقف عند حد كل الجرائم البشعة التي حدثت في مذبحة أريحا، لكنه تعداها بمراحل هائلة وصلت إلى حد سن الحكومة في ذلك الوقت لقوانين تمنح مكافآت مالية كبيرة ثمناً لمن يقوم بسلخ جسد الضحية من الهنود الحمر وتقديم فروة رأسها لمخفر الشرطة ليس فقط سلخ رأس الرجال المحاربين و إنما أيضاً النساء و الأطفال، ووصلت مكافأة تقديم فروة رأس الرجل الهندي إلى مائة جنيه إسترليني و فروة رأس المرأة خمسين جنيهاً و فروة رأس الطفل خمسة وعشرين جنيهاً إسترلينياً

وظل هذا القانون قرابة قرنين من الزمان يدفع الناس الذين لا يستحقون أن يكونوا من البشر ولا حتى من الحيوانات إلى التسابق في تقديم فروة رؤوس الضحايا البريئة طلباً للمال ، بل والتسابق في إقامة حفلات سلخ الرؤوس وتباهي كل منهم بالأعداد الضخمة التي جمعوها من رؤوس الضحايا البريئة ، ولم يتم إلغاء هذا القانون إلا في عام ١٨٦٥

---

[1] - المرجع نفسه صفحة ٣٠

[2] - د: ليلى أبو زيد ، أمريكا الوجه الآخر ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، الطبعة الأولى ٢٠١٤ ، صفحة ٦٨

يقول د: منير العكش (ويقول جننغز في "اجتياح أميركا" إن السلطات الاستعمارية رصدت مكافأة لمن يقتل هنديّاً ويأتي برأسه، ثم اكتفت بسلخ فروة الرأس إلا في بعض المناسبات التي تريد فيها التثبت من هوية الضحية، ولعل أقدم مكافأة إنكليزية على فروة الرأس بدلاً من كامل الجمجمة تعود إلى عام ١٦٩٤م ، في ١٢ أيلول / سبتمبر من ذلك العام رصدت المحكمة العامة في مستعمرة مساشوستس مكافآت مختلفة لكل من يأتي بفروة رأس هندي مهما كان عمره أو جنسه ، وتختلف هذه المكافآت بحسب مقام الصياد : خمسون جنيهاً للمستوطن العادي ، وعشرون جنيهاً لرجل الميليشيا ، وعشرة جنيهات للجندي ، ولم تمض عشرون سنة حتى رصدت كل المستعمرات الإنكليزية جوائز مماثلة ، ثم تغيرت التعرفة في عام ١٧٠٤م فأصبحت مائة جنيه لكل فروة رأس --- كانت مكافأة المائة جنيه تعادل أربعة أضعاف متوسط الدخل السنوي للمزارع في مستعمرات نيو إنكلند ، وكان بإمكان أي مستوطن عجوز أن يصطاد طفلين وثلاث نساء هنديات سنويّاً و يتنعم بما لم يتنعم به جلالة الملك جيمس ، هذا ما جعل صيد الرؤوس الهندية وسلخها أسرع وسيلة لبناء الثروة -- في فالموث أو ما يعرف اليوم ببورتلاند أسس توماس سميث إحدى هذه الشركات التي تستأجر فرقة من المغامرين لقتل الهنود والعودة برؤوسهم أو فرواتها – كان الصيادون يتعهدون قرى معينة ، يمشطونها قرية قرية **ولا يبقون فيها فروة واحدة** – ويروي بيتر شمالز في كتابه عن هنود أوجيبوا كيف أن الأخوة في الإيمان لم تكن أفضل من التحالف ، وكيف أن الذين طلبوا خلاص أرواحهم في الآخرة و طمعوا في خلاص أجسادهم في الدنيا صاروا فريسة سهلة للقديسين ، ففي إحدى قرى دولاوير حاصرت كتيبة مسلحة بقيادة دافيد وليامس أفراداً من الهنود المورافيين ، وتمضي الشهادة فتقول إن الجنود طمأنوهم إلى أنهم جاؤوا لمرافقتهم إلى حيث يصلون ويجدون طعامهم بأمان ، وقالوا لهم إن هذه المهمة النبيلة لا تحتاج إلى حمل السلاح ، ووافق الهنود مطمئنين إلى أخوة الإيمان ، ثم إنهم أسرعوا إلى إحضار من تبقى من أهلهم وذويهم في البيوت حتى لا تفوتهم بركات الصلاة ، ولم يكن لدى الهنود وقت ليكتشفوا الخدعة إذ عاجلهم الجنود بالقتل وحصدوا في تلك المذبحة رؤوس ٢٩ رجلاً و ٢٧ امرأة و ٣٤ طفلاً)[١]

وعن الموقف الرسمي ينقل د: منير العكش (مع تأسيس الجيش الأمريكي أصبح السلخ و التمثيل بالجثث تقليداً مؤسساتيّاً رسميّاً ، فعند استعراض الجنود أمام وليم هاريسون (الرئيس الأمريكي لاحقاً) بعد انتصار ١٨١١ على الهنود تم التمثيل ببعض الضحايا ، ثم جاء دور الزعيم تيكومسه ، وهنا تزاحم صيادو التذكارات على انتهاب ما يستطيعون من جلد هذا الزعيم التاريخي أو فروة رأسه --- وكان الرئيس أندرو جاكسون الذي تزين صورته ورقة العشرين دولاراً من عشاق التمثيل بالجثث ، وكان يأمر بحساب عدد قتلاه بإحصاء أنوفهم المجدوعة أو آذانهم المصلومة ، وقد رعى بنفسه حفلة تمثيل بجثث ٨٠٠ هندي يتقدمهم زعيمهم مسكوجي (رد ستيكس) --- بعد مذبحة ساند كريك التي ذهب ضحيتها أكثر من ٨٠٠ هندي أعزل اضطر الكونغرس إلى إجراء تحقيق في الفظاعات التي ارتكبها الجنود وقائدهم جون شفنغتون)[٢]

وعن مذبحة ساند كريك كتب المؤلف ما يلي : (وكانت الحكومة قد أعلمت الكولونيل شفنغتون بأن القرية مسالمة ، وأن معظم رجالها خرجوا لصيد الجواميس ، لكن الكولونيل قال "حسناً

[١] - المرجع نفسه صفحة ٧٢
[٢] - المرجع نفسه صفحة ٧٤

إنني متشوق للخوض في الدم" وقد تحقق له ما يصبو إليه ، فمع أول خيوط فجر ٢٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٦٤ زحف رجاله إلى القرية ، وكان فيها رجلان من البيض حاولا إعلام الجنود بأن القرية مسالمة ، لكنهما جوبها بإطلاق النار ـــوفيما كان الجنود يطلقون النار على أهل القرية المتراكضين في كل الاتجاهات أعطى شفنغتون أوامره بالقصف المدفعي ومطاردة الهاربين ، ويقول روبرت بنت (Robert Bent) أحد مساعدي شفنغتون في شهادته أمام الكونجرس: "بعد القصف حاول رجال القرية أن يجمعوا الأطفال والنساء ويحيطوا بهم لحمايتهم ولقد شاهدت خمس نساء مختبئات تحت مقعد طويل، وعندما وصل الجنود إليهن بدأن يتوسلن ويطلبن الرحمة لكن الجنود قتلوهن جميعاً ، وكان هناك أيضاً ثلاثون أو أربعون امرأة متكومات بعضهن فوق بعض في حفرة ، وقد أرسلن إلينا طفلة في السادسة تحمل راية بيضاء مربوطة على عصا، لكنها لم تتقدم بضع خطوات حتى أطلقنا عليها النار وقتلناها كما قتلنا النساء اللواتي لم يبدين أي مقاومة ، ثم إنني رأيتهن بعد ذلك مسلوخات الرؤوس ، بينما كانت إحداهن مبقورة البطن وجنينها في بطنها واضح للعين ، وأخبرني الكابتن شاول أنه رأى ما رأيت ، ورأى مثلي عدداً كبيراً من الأطفال بين أيدي أمهاتهم المذبوحات)[١]

(ويقول شاهد آخر هو الجندي آشبري بيرد (Ashbury Bird): إن عدد الضحايا يتراوح بين ٤٠٠ و ٥٠٠ وأنهم جميعاً تعرضوا لسلخ فروات رؤوسهم ، لقد رأيت امرأة تعرض فرجها للتمثيل به ، كما شاهدت جثثاً مقطعة تقطيعاً فظيعاً وعدداً من الجماجم المحطمة --- إنني لم أر قتيلاً واحداً لم يسلخ رأسه أو رأسها، لقد رأيت كذلك أصابع مقطوعة للسطو على الخواتم كما رأيت عدداً من الجثث وقد قطعت أعضاؤها التناسلية)[٢]

لكن أخلاق روح العصر الديناصوري لتلك الحضارة لم تتشبع من كل هذا الزلزال المدمر لأنها أرادت إبادة هؤلاء السكان "إبادة كاملة وسريعة" ، فقامت بتوزيع البطاطين المحملة بالكوليرا و الجدري و الطاعون والسل على جميع قبائل وتجمعات الهنود الحمر فكان ذلك هو السونامي الذي حصد أمامه الملايين كثيرة العدد التي لم تكن بنادق صيادي الرؤوس ناجحة في تحقيق نتائجه بهذه السرعة

فعن كتاب "أرقامهم التي هزلت" أيضاً قال الأستاذ منير العكش :

(يصف "هنري دوبينز" في المصدر السابق أنواع الحروب الجرثومية الشاملة التي تعرض لها الهنود خلال القرون الأربعة الماضية والتي صرنا نملك معلومات عن ٩٣ وباء شاملاً منها كالتالي : ٤١ جدري، ٤ طاعون ، ١٧ حصبة، ١٠ أنفلونزا، ٢٥ سل ودفتريا وتيفوس وكوليرا. وقد كان لكل من هذه الحروب الجرثومية آثار وبائية شاملة تجتاح مساحات واسعة من الأراضي)[٣]

ثم يمضي المؤلف فيشير إلى تباهي الأمريكان بهذه الوحشية فيقول:(وكان وليم برادفورد حاكم مستعمرة (بليتموث) يرى أن نشر هذه الأوبئة بين الهنود عمل يدخل السرور والبهجة على قلب الله "فمما يرضي الله ويفرحه أن تزور هؤلاء الهنود و أنت تحمل إليهم الأمراض والموت و

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ٧٦
[٢] - المرجع نفسه صفحة ٧٧
[٣] - المرجع نفسه صفحة ٢٤

هكذا يموت ٩٥٠ هنديّاً من كل ألف وينتن بعضهم فوق الأرض دون أن يجد من يدفنه، إن على المؤمنين أن يشكروا الله على فضله هذا و نعمته)[١]

(وكان أوليفر هولمز أشهر أطباء عصره قد لا حظ في عام ١٨٥٥ أن إبادة الهنود الحمر هي الحل الضروري للحيلولة دون تلوث العرق الأبيض، وإن اصطيادهم اصطياد الوحوش في الغابات مهمة أخلاقية لازمة لكي يبقى الإنسان الأبيض فعلاً على صورة الله)[٢]

وعلينا هنا أن نشير إلى أن جميع هذه الوحوش الآدمية ليس بينها وبين الله عز وجل أي صلة لأنهم فعلوا كل ما فعلوا من جرائم من أجل الذهب والمال فقط ، كما أنهم قطعوا كل صلة لهم بالمسيح عليه السلام منذ أن عبدوا بدلاً عن الإله الخالق سبحانه وتعالى هيئة آلهة مكونة من ثلاثة أقانيم لا وجود لها إلا في رؤوسهم فقط، وبالتالي فكل ما قرأناه في تصريحاتهم السابقة هو كذب على الله عز وجل وعلى دينه الحقيقي الذي علمنا أن "**من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً**" (سورة المائدة)

لعل الكثير من الجهات في العالم الحر تعطي تبريرات لكل هذه الجرائم استناداً إلى أن الهنود الحمر كانوا هم البادئين بالعدوان الوحشي على الأوروبيين الطيبين الذين اضطروا للدفاع عن أنفسهم ، لكن كل هذه التبريرات تتهاوى أمام شهادات القساوسة الكاثوليك الذين رافقوا أولى الحملات الأوروبية التي وصلت إلى تلك المناطق وكانت أول قدم غريبة تطأ هذه الأرض

من هؤلاء المطران برتولومي دي لاس كازاس الذي كان شاهد عيان على جرائم الإبادة التي حدثت بين عام ١٥١٣ و ١٥٤٢، فقد أورد في مذكراته "وثائق إبادة الهنود الحمر" قصصاً عن مذابح بشعة رآها بعينه ، وبعث بأخبارها إلى ملوك أسبانيا لكي يتخذوا قراراً بوقفها، لكنهم لم يفعلوا، ونذكر بعض ما جاء في هذا الكتاب المؤثر ونبدأ بالرسالة التي أرسلها هذا المطران إلى أمير أسبانيا :

"من المطران برتولومي دي لاس كازاس إلى سمو أمير بلاد إسبانيا المعظم مولانا دون فيليب :

إنني أريد أن أحدثكم يا سمو مولاي عن الشرور والآثام ، وعن الدمار والخراب في هذه الممالك الكبيرة ، أقصد هذا العالم الجديد الشاسع المسمى ببلاد الهنود الحمر التي وهبها الله لملوك قشتالة وأناطها بهم ليسوسوها ويصلحوا أمرها ويهدوا أهلها إلى المسيحية فينعموا عليها بأمل الدنيا والآخرة، إن المرء لا يستطيع أن يتخيل أبداً أن في قدرة البشر أن يقوموا بهذا التخريب، لقد عشت في بلاد هذه الشعوب الهندية أكثر من خمسين عاماً وشاهدت بأم عيني ما ارتكبوه من فظائع وجور، فما تلقاه الشعوب الهندية المسالمة المتواضعة المرهفة ليس إلا طغياناً وجوراً يدينهما كل قانون وضعيّاً كان أم إلهيّاً، إنها أفعال مرذولة ملعونة، ولهذا عزمت على أن أبرئ ساحتي من هذه الجريمة بأن لا أسكت عنها ، وأن أحدثكم عما جناه الطغاة وعما أزهقوه من أرواح و آذوه من أجساد -- لهذا رأيت لزاماً علي أن أقدم لسموكم رواية شديدة الإيجاز لتاريخ طويل من الأذى والدمار، إنني أتمنى عليكم أن تسترحموا جلالتها وتقنعوها بوقف هذه الفتوح

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ٢١

[٢] - المرجع نفسه صفحة ٦١

الشنيعة وذلك بعد أن تقرؤوا هذه الرواية الموجزة و تصيروا على علم بوحشية الظلم المستفحش بهذه الكائنات البريئة التي نمثل بها و نقطعها إرباً إرباً من أجل الجشع والطمع ليس إلا"[1]

ويمضي المطران برتولومي في رسالته شارحاً ما شاهدته عيناه قائلاً:

"أما أول أرض دخلوها – أي الأسبان – فهي التي تسمى بالجزيرة الإسبانية السعيدة الواسعة -- -- ولقد رأيناها جميعاً مكتظة بالسكان من الهنود الحمر كأي أرض أخرى مأهولة بالسكان في العالم -- كل هذه الأراضي التي تم اكتشافها حتى عام ١٥٤١ كانت تعج بالحياة و البشر كأنها خلايا النحل حتى ليخيل إلى المرء أن الله أحل فيها أكبر عدد ممكن من البشر--- لقد غشي الأسبان هذه الخراف الوديعة غشيان الذئاب والنمور و الأسود الوحشية التي لم تجد طعاماً أياماً و أياماً، ومنذ أربعين سنة وهم يقطعون أوصالها و يقتلونها ويروعونها -- كل يوم فظاعة جديدة غريبة مختلفة لم نسمع و لم نقرأ عن مثلها من قبل، كانت هذه الفظائع شديدة لم تبق في الجزيرة الإسبانية اليوم سوى **مائتي هندي من أصل ثلاثة ملايين،** إن جزيرة كوبا التي تبلغ مساحتها ما يفصل روما عن فالادوليد خاوية على عروشها لم يبق من أهلها ديار، أما جزيرتا سان خوان و جامايكا الآمنتان المطمئنتان فجزيرتان سعيدتان كبيرتان و لكن أقفر من أهله ملحوب، وهناك ستون جزيرة مثلهما على تلك الحال، إن أبشع جزيرة فيها أكثر خصباً و أبهى جمالاً من حدائق ملك أشبيلية، كانت أسلم بلاد الله و أكثرها أمناً وطمأنينة وكان يسكنها **نصف مليون من البشر لم يبق منهم اليوم أحد،** فقد أفنى الأسبان أهلها وهم يطردونهم إلى الجزيرة الإسبانية التي أبيد سكانها، لقد جاب مركب إسباني وطاف على هذه الجزر ثلاثة أيام بحثاً عمن لعله نجا من أهلها بعد "الحصاد" فلم يعثر على غير أحد عشر ناجياً، وهناك أكثر من ثلاثين جزيرة مجاورة لسان خوان كلها أقفرت و أفني أهلها، أما على اليابسة فإننا على يقين من أن رجالنا الأسبان قد اجتاحوا ونهبوا أراضي كانت عامرة بأهلها الطيبين فصارت اليوم صحراء، لقد نهبوا أكثر من **عشر ممالك** أكبر من كل إسبانيا و أراغون و البرتغال مجتمعة، وتبلغ مساحتها **ضعف ما بين أشبيلية و القدس،** أي أكثر من ألفي فرسخ، وطوال هذه السنين الأربعين أبيد أكثر من اثني عشر مليوناً من الرجال والنساء و الأطفال ظلماً وعدواناً جراء طغيان المسيحيين و أعمالهم الجهنمية، هذا الرقم مؤكد على الرغم من أنني أعتقد مطمئنّاً إلى اعتقادي أن عدد الضحايا **يتجاوز خمسة عشر مليوناً"**[2]

وعلينا هنا أن نشير إلى أن هذا المطران كتب رسالته عام ١٥٤٢ أي قبل صدور قانون رصد المكافآت المالية عن كل فروة رأس من الهنود بمائة وعشرين عاماً ، ذلك القانون الذي أطلق الآلاف من القطعان الهمجية الأوروبية لجمع أكبر عدد منها من أجل جمع ثروات هائلة، وأيضاً قبل أن تبدأ الحرب البيولوجية المدمرة التي بلغت كما ذكر السيد هنري دوبينز ٩٣ حرباً، وكل هذه الأشكال من حروب الإبادة استمرت لأكثر من ثلاثمائة عام، وبالتالي فإن العدد الذي ذكره المطران برتولومي – والذي يمثل إحصاء عام ١٥٤٢- لا يمثل سوى نسبة ضئيلة لا تتعدى ١٠% من العدد الكلي الذي تم إبادته على مدى هذه الثلاثمائة عام

---

[1] - المطران برتولومي دي لاس كازاس ، المسيحية والسيف – وثائق إبادة الهنود الحمر، المعهد الدولي للدراسات الانسانية ، ترجمة سميرة عزمي الزين ، صفحة ١٩

[2]- المرجع نفسه صفحة ٢٣ - ٢٥

لكن علينا أن نكمل شهادة المطران برتولومي التي تكتسب أهميتها من أنها لشاهد عيان إسباني كاثوليكي، حيث يقول عن "الجزيرة الإسبانية":

"أسلفنا أن الجزيرة الإسبانية كانت أول بقعة اجتاحها المسيحيون وابتدؤوا منها بالتخريب وحملة الفتك الكبيرة بهذه الشعوب، في البدء سبوا النساء والأطفال ليستخدموهم كما يشاؤون -- كان المسيحيون يطاردونهم و يختطفون أسياد القرى، وقد بلغ بهم الطيش والتراذل أن اغتصب قبطان مسيحي امرأة حاكم الجزيرة و امرأة أشهر نبلائها، آنذاك راح الهنود يبحثون عن وسائل لطرد المسيحيين، وحملوا السلاح، ولكنه كان سلاحاً ضعيفاً غير هجومي بل أعجز عن المقاومة والدفاع، لذلك كانت حروبهم أشبه بألعاب الصبيان، أما المسيحيون فعاقبوهم بمذابح لم تعرف في تاريخ الشعوب، كانوا يدخلون على القرى فلا يتركون طفلاً أو حاملاً أو امرأة تلد إلا ويبقرون بطونهم و يقطعون أوصالهم كما يقطعون الخراف في الحظيرة، وكانوا يراهنون على من يشق رجلاً بطعنة سكين، أو يقطع رأسه أو يدلق أحشاءه بضربة سيف، كانوا ينتزعون الرضع من أمهاتهم ويمسكونهم من أقدامهم ويرطمون رؤوسهم بالصخور، أو يلقون بهم في الأنهار ضاحكين ساخرين، وحين يسقط في الماء يقولون (عجباً إنه يختلج) كانوا يسفدون الطفل و أمه بالسيف كما تسفد قطع اللحم بالسفود، وينصبون مشانق طويلة ينظمونها مجموعة مجموعة ، كل مجموعة ثلاثة عشر مشنوقاً، ثم يشعلون النار ويحرقونهم أحياء، وهناك من كان يربط الأجساد بالقش اليابس ويشعل فيه النار، هكذا أحرقوا الهنود الحمر وهم أحياء، كانت فنون التعذيب لديهم أنواعاً، بعضهم كان يلتقط الأحياء فيقطع أيديهم قطعاً ناقصاً لتبدو كأنها معلقة بأجسادهم، ثم يقول لهم: (هيا احملوا الرسائل) أي : هيا أذيعوا الخبر بين أولئك الذين هربوا إلى الغابات، أما أسياد الهنود ونبلاؤهم فكانوا يقتلون بأن تصنع لهم مشواة من الحديد يضعون فوقها المذراة، ثم يربط هؤلاء المساكين بها وتوقد تحتهم نار هادئة من أجل أن يحتضروا ببطء وسط العذاب و الألم والأنين،

ولقد شاهدت مرة أربعة من هؤلاء الأسياد فوق المشواة، وبما أنهم يصرخون صراخاً شديداً أزعج مفوض الشرطة الإسبانية الذي كان نائماً (أعرف اسمه، بل أعرف أسرته في قشتالة) فقد وضعوا في حلوقهم قطعاً من الخشب أخرستهم، ثم أضرموا النار الهادئة تحتهم، **رأيت ذلك بنفسي**، ورأيت فظائع ارتكبها المسيحيون أفظع منها، أما الذين هربوا إلى الغابات وذرى الجبال بعيداً عن هذه الوحوش البشرية الضارية فقد روض لهم المسيحيون كلاباً سلوقية شرسة لحقت بهم وكانت كلما رأت واحداً منهم انقضت عليه ومزقته كما تفترس الخنزير، وحين كان الهنود يقتلون مسيحيّاً دفاعاً عن أنفسهم كان المسيحيون يبيدون منهم مائة لأنهم يعتقدون أن حياة المسيحي بحياة مائة هندي أحمر"[١]

ثم يكمل المطران برتولومي متحدثاً عن الممالك الخمسة التي كانت في هذه الجزيرة مصوراً الجرائم البشعة التي ارتكبها الغزاة الإسبان ضدها لكن نكتفي بما ذكره عن واحدة منها قائلاً :

"وكان اسم المملكة الخامسة (هيغواي) وتحكمها ملكة عجوز شنقها الإسبان حين جاؤوا إليها و أحرقوا حاشية بلاطها وهم أحياء ، ولقد فظعوا في التعذيب والفتك، **ورأيت ذلك بعيني**، إنني عاجز عن أن أصف كل ما شاهدت فلا الورق ولا الزمان بكافيين لسرد هذه الوحشية كلها ،

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ٢٧ - ٢٩

غير أنني أريد هنا أن أعترف بثقة مطلقة بأن الهنود لم يكونوا مسؤولين عن هذه الحروب ، وأنهم كانوا أكثر طيبة ومسالمة من رهبان الأديرة ، ولم يرتكبوا ذنباً واحداً مع المسيحيين ، بل إنهم برغم كل فظاعات المسيحيين بهم لم يعرفوا الحقد أو الضغينة أو الانتقام ، ولقد عاشرتهم فلم أعرف فيهم العنف ، بل إن عنفهم حين يظهر فيهم أشبه بعنف الأطفال في الثانية عشرة"[1]

ثم يكمل المطران برتولومي رسالته ويتحدث عما شاهده في جزيرة (كوبا) التي وصل إليها الإسبان عام ١٥١١ وكانت عامرة بالسكان وخاصة بالذين هربوا من الجزيرة الإسبانية إليها، ويروي كيف أن ملكها جمع الناس و اقترح عليهم أن يرقصوا لآلهة الذهب الذي يعبده المسيحيون حتى يرحمهم هذا الإله و يجعل المسيحيين يتركونهم أحياء، ثم قام بإلقاء الذهب الذي معهم في النهر حتى لا يقاتلهم الإسبان، ونترك السيد برتولومي ليصف لنا المشهد قائلاً :

"وعندما عرف المسيحيون بذلك علقوا مشنقته، ثم جاء راهب من أخوية القديس فرانسوا يهديه إلى الإيمان المسيحي قبل موته، وقال له الراهب أن عليه أن يغتنم هذا الوقت القصير قبل موته ويؤمن لأن إيمانه سوف يدخله الجنة، وإلا إلى النار، وسأل زعيم القبيلة الراهب: هل هناك مسيحيون في الجنة ؟ قال الراهب : معظمهم هناك، عندها قال الزعيم الهندي: **إنني أفضل دخول النار على أن ألتقي بكم في الجنة،** أرسلني إلى النار، هكذا صارت سمعة المسيحيين في بلاد الهند بفضل ما ارتكبوه من فظائع "[2]

ثم يكمل المطران برتولامي قائلاً: "مرة جاءنا الهنود لاستقبالنا محملين بالهدايا والخيرات، وقد أعطونا كثيراً من السمك والخبز والطعام وكل ما يستطيعون تقديمه ، فماذا فعل المسيحيون لشكرهم؟ استولى الشيطان على قلوبهم فجأة فراحوا يقتلونهم بالسكاكين بلا سبب ولا مبرر، لقد قتلوا أمام عيني أكثر من **ثلاثة آلاف إنسان رجالاً و أطفالاً ونساء،** لقد شاهدت وحشية لم يرها قبلي بشر ولا خطرت على بال إنسان --- **هكذا أبادوا أهالي كوبا عن بكرة أبيهم،** لقد شاهدتها عامرة بالناس ، وأي أسى مر ينتاب المرء عندما يراها بعد ثلاثة أشهر صحراء موحشة"[3]

ثم يتحدث عن غزو اليابسة قائلاً:

"في عام ١٥١٤ توجه حاكم جبار إلى اليابسة، كان طاغية فظاً لا يعرف قلبه الشفقة أو الرحمة، وكان غيره من الأسبان قد سبقوه إلى اليابسة فقتلوا ونهبوا لكنهم لم يتوغلوا بعيداً، أما هذا الحاكم فقد تجاوز في تعذيبه للهنود كل الذين سبقوه إلى الجزر، فقد أغار على أكثر أراضي الهنود سعادة ورخاءً، وهي أرض تمتد إلى أكثر من خمسمائة فرسخ وتصل إلى مقاطعة (نيكاراغوا) كان فيها أسياد عظام ومدن مهمة وثروات ذهبية هائلة، عرفت قبطاناً قام بحملته في هذه اليابسة فقتل أكثر من أربعة آلاف إنسان، روى لي الراهب (فرانشيسكو سان رومان) الذي رافق القبطان كل ذلك و قال **أنه شاهدها بعينيه---** لقد سرق الأسبان من هذه المملكة أكثر من **٤٠٠ مليون غرام من الذهب،** وأعتقد أن هذا أقل من الرقم الحقيقي، ولم يبعث الأسبان من هذا الذهب

---

[1] - المرجع نفسه صفحة ٣١ - ٣٣
[2] - المرجع نفسه صفحة ٣٥
[3] - المرجع نفسه صفحة ٣٦

المسروق إلى ملك قشتالة إلا النزر القليل، كذلك قتلوا **٩٠٠ ألف إنسان فيها**، ثم قضى الحكام الطغاة الذين تعاقبوا عليها إلى عام ١٥٣٣ على كل ما تبقى من أهلها)"[١]

ويكمل السيد برتولومي فيروي ما حدث في نيكاراغوا من جرائم قتل و إبادة تدمي القلوب ونكتفي بنقل تعليقة الذي يجمل فيه أعداد الضحايا في أربعة عشر عاماً فقط حيث قال : "بذلك غادر (نيكاراغوا) – بسبب استرقاقهم - أكثر من **٥٠٠ ألف هندي** كانوا يتذوقون طعم الحرية كما أتذوقه الآن بينما توفي أكثر من **٦٠٠ ألف داخل الجزيرة**، وذلك مما عانوه، كل هذا الدمار في أربعة عشر عاماً، إننا لا نجد اليوم في كل بلاد نيكاراغوا أكثر من **أربعة آلاف أو خمسة آلاف وما زال الإسبان يقتلون فيهم"**[٢]

وتحت عنوان (عن ما يسمى بإسبانيا الجديدة) كتب المطران يقول :

" اكتشفت هذه البلاد التي صارت تسمى بإسبانيا الجديدة في عام ١٥١٧ ولم يمض عام على اكتشافها حتى ابتدأ المسيحيون بقتل سكانها، وبين عامي ١٥١٨ و ١٥٤٢ وصل العنف والطغيان أوجهما في بلاد الهند، و أحب هنا أن أنبه إلى أن التدمير والتفظيع والقتل والفتك و الإبادة في باقي البلاد الهندية لا يقارن بما جرى هنا في إسبانيا الجديدة، وإنني أسكت عن الكثير ولا أذكر إلا اليسير مما جرى بين عامي ١٥١٨ و ١٥٤٢ أي الوقت الذي أكتب فيه مذكراتي هذه

بين ١٨ نيسان / إبريل ١٥١٨ وعام ١٥٣٠ أي في إثني عشر عاماً خرب المسيحيون وأبادوا بسيوفهم الدموية المجرمة أكثر من ٤٥٠ فرسخاً حول مدينة مكسيكو، وهي مساحة شهدت خمس ممالك أكبر من إسبانيا و أكثر سعادة وعمراناً منها، **وكانت هذه الممالك أحفل بالناس من طليطلة و قشتالة و فاللادوليدو وسرقسطة وبرشلونة مجتمعة**، بل إن هذه المدن جميعاً لم تكن آهلة بالسكان كما هي حال الممالك الهندية حول مكسيكو، وفي هذه الأعوام الاثني عشر **قتل الإسبان أكثر من أربعة ملايين من الأهالي نساء و أطفالاً وشباباً وشيوخاً أو أحرقوهم أحياء،** وأكرر هنا : لقد ظلت هذه الوحشية منتظمة طوال ما يسمونه بفترة (الفتوحات) وهي في الواقع اجتياحات عنيفة شنها طغاة أجلاف يدينهم قانون الله وقوانين البشر "[٣]

ثم يقول "وظل الإسبان يعيثون فساداً و خراباً من عام ١٥٢٤ حتى عام ١٥٣٥ ويصدرون العبيد إلى إسبانيا بالسفن ، ويتقاضون لقاءهم النبيذ والثياب والأغذية، لقد مررت بهذه الممالك – يقصد ممالك مكسيكو - في طريق العودة وكاد قلبي ينفطر لرؤيتها خراباً أقفر من أهله، لقد قتل الإسبان خلال الأحد عشر عاماً **أكثر من مليوني شخص في** هذه البلاد، وتركوا أقل من ألف شخص في مساحة تتجاوز مائة فرسخ مربع، **وإنهم ماضون في القتل** يوماً بعد يوم ومستمرون في الاستعباد" [٤]

وعما حدث في مقاطعة (كوزكاتان) - حيث توجد اليوم مدينة سان سلفادور- قال : "وكان الهنود يقدمون أولادهم (الصبيان والبنات) للإسبان الذين ملؤوا منهم سفناً كاملة ، أما من كان يرفض

[١] - المرجع نفسه صفحة ٣٩
[٢] المرجع نفسه صفحة ٤٣
[٣] - المرجع نفسه صفحة ٤٧
[٤] - المرجع نفسه صفحة ٥٢

تقديم أولاده فكان يقتل، ولقد قتل هذا القبطان المجرم هو وأخوه **أكثر من أربعة ملايين أو خمسة ملايين نسمة بين عام ١٥٢٤ و عام ١٥٤٠** وإنهم ما زالوا يقتلون الأحياء الباقين **ولسوف يستمرون في القتل"**[١]

ونشير هنا إلى تلك العبارة الهامة في كلام المطران برتولومي ، حيث أكد أن قائداً عسكريّاً واحداً وفي مقاطعة واحدة -- وفي فترة زمنية محدودة لا تتعدى ستة عشر عاماً قتل أربعة أو خمسة ملايين ضحية، ثم قال "وإنهم ما زالوا يقتلون"، فهذا شاهد عيان من داخل الجيوش الإسبانية وهو مطران مسيحي كاثوليكي أي ليس له أي مصلحة في المبالغة أو الكذب أو الافتراء على الإسبان، فإذا كان السيناريو نفسه حدث في جميع ممالك القارتين الأمريكيتين من جميع قادة الجيوش الإسبانية وعلى مدى ٤ قرون كاملة ، فكم يكون العدد الصحيح لهؤلاء الضحايا ؟

لكن الدليل الأكثر وضوحاً و صراحة جاء من الأمريكيين أنفسهم، ففي هامش الترجمة العربية لكتاب المطران برتولومي دي لاس كازاس الذي بين أيدينا، والتي قامت بها الأستاذة (سميرة عزمي الزين) من منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، جاء ما يلي:

"تقول بعثة (روي فرايتس) التي أعادت اكتشاف المنطقة في عام ١٩٨٦ أنها اكتشفت بالقرب من يوكاتان ١١٢ موقعاً من حضارة المايا ، يدل بعضها على نظام ري متطور ، مما يجعلك تتيقن من أن هذه المنطقة كانت عامرة **بملايين البشر**، ويقول فرايتس أن المنطقة كانت تشهد زراعة متطورة، أما بيتر هاريسون (عالم الآثار من جامعة نيو مكسيكو) فقال إن عدد سكان يوكاتان كان أكثر من **١٥ مليوناً**، وهذا ما يؤكد أن تقديرات (لاس كازاس) كانت متواضعة إذا قارناها بالواقع"[٢]

لكن كل ما سبق لم يكن هو كل ما حوت قلوب الإسبان من همجية و حيوانية، فقد وصل الأمر إلى أن أصبحوا يأكلون لحوم البشر، وهذا ما يثير التعجب والدهشة حقاً، فالحقيقة أننا قرأنا عن مذابح الروس والشيوعيين وفظائعهم التي ارتكبوها في حق مائة مليون ضحية حسب ما ذكره الكاتب الفرنسي ستيفان كورتوا كما أسلفنا، كما أننا قرأنا عن التتار الذين قتلوا ستة ملايين ضحية بعد اجتياحهم عاصمة الخلافة العثمانية بغداد ، و قرأنا عن اليابانيين الذين غزوا الصين فكانت حصيلة الضحايا ٣٦ مليون ضحية، لكننا لم نقرأ أبداً عن قيام أي من تلك الجيوش البربرية المدمرة بأكل جثث ضحاياها وخاصة الأطفال منهم

فهذا المطران برتولومي يتحدث في الكتاب نفسه عن هذا الأمر الغريب قائلاً:

"وإليكم واحدة من فظائع الأسبان: مرة كان هذا القبطان متوجهاً إلى الحرب بجيش من عشرة آلاف أو عشرين ألفاً، وكان معه عدد كبير من الهنود الذين ساقهم عبيداً بعد تعذيبهم، وكان القبطان لا يقدم لرجاله الطعام، لكنه سمح لهم بأن يأكلوا الهنود الذين معهم أو الذين يلتقطونهم أثناء الغارات على المدن والقرى، **هكذا صار معسكره أشبه بمسلخ يتراكم فيه لحم البشر**، كان الرجال **يقتلون الأطفال ويشوونهم**، وكانوا يقتلون الإنسان من أجل أن يأكلوا لحم كفيه وقدميه

[١] - المرجع نفسه صفحة ٥٧
[٢] - المرجع نفسه صفحة ٦٣

قائلين إنها أشهى لحم الإنسان، وحين علم سكان المناطق القريبة بهذه الأعمال البهيمية أصيبوا بالهلع ولم يعرفوا أين يختبئون"[١]

ثم يتحدث المطران عن طاغية آخر قائلاً: "ودخل هذا الطاغية إلى مقاطعة (جاليسكو) التي كانت تعج بأهلها كما تعج خلية النحل ، وتمتد قراها على أكثر من سبعة فراسخ، وحين علم الهنود بمقدم الأسبان خرجوا إليهم مرحبين محملين بالهدايا النفيسة والذهب، وأقاموا للأسبان الاحتفالات، وهنا فعل الطاغية ما فعله في الممالك الأخرى، لقد أخضع الهنود للتعذيب ليحصل على ما يعتبره إلهاً له، أعني الذهب، وارتكب الإسبان هنا أيضاً ما ارتكبوه في الممالك الأخرى من قتل وذبح واغتصاب، وساق الطاغية أكثر من خمسة آلاف هندي رجالاً ونساءً وأطفالاً ليبيعهم في أسواق العبيد، وكان فيهم الرضع أيضاً، وأقدم رجاله على ارتكاب الأعمال الوحشية كغيرهم من المسيحيين الإسبان، فكانوا يقطعون ألسنة الهنود ويطعمونها للكلاب، وقيل لي إن هذا الطاغية **قد أحرق ٨٠٠ قرية في (جاليسكو)** فهرب من هرب واختفى في المغارات والكهوف، وقد حاول بعضهم التحصن ببعض الصخور لكن الإسبان قتلوهم لأنهم كالعادة كانوا مدججين بالسلاح)[٢]

ويمضي المطران في شهادته ليروي عن الفظائع التي حدثت في (سانتا مرتا) و (ساحل اللؤلؤ و باريا وجزيرة ترينيدا) و (المناطق الساحلية المساماة الآن بفلوريدا) و (ريو ديلا بلاتا) و (ممالك البيرو) وكلها فظائع تؤكد أن مرتكبيها ليسوا من البشر ، فعن ممالك البيرو يقول المطران برتولومي :

"وفي عام ١٥٣١ توجه طاغية آخر مع فرقة من جنوده إلى ممالك البيرو، وفعل فيها ما فعله الطغاة الآخرون في الممالك الهندية الباقية، كان من أكثر الطغاة إجراماً ، كان هذا المجرم قد سرق الذهب من هذه الشعوب، وفي جزيرة (بوما) القريبة من هذه المقاطعات رحب الشعب وملكه بهذا المجرم وجنوده، واستقبلوهم كأنهم ملائكة أنزلت من السماء، وفي ستة أشهر التهم الإسبان كل ما ادخره الهنود من أغذية، ومع ذلك فقد كشف الهنود عن إهراء القمح حيث يخبئونه إلى أيام القحط والجفاف، ثم قدموه للإسبان وهم ينتحبون: إنه لكم، وشكر لهم الأسبان كرمهم بأن ذبحوا من استطاعوا منهم واستعبدوا الآخرين، ثم تركوا المملكة خاوية من أهلها، ومن هناك انطلق الإسبان إلى منطقة (تومبالا) في اليابسة فقتلوا ودمروا ما استطاعوا، وحين شاهدوا الناس يهربون من فظائعهم قالوا إنهم يتمردون على الملك، وإنهم ليسوا من أتباعه بعد اليوم"[٣]

ثم يروي الشاهد كيف أحرق الأسبان ملك كل هذه المقاطعة برغم أنه أعطاهم من الذهب خمسة عشر مليون جرام كان ثمنها يعادل أربعة ملايين قشتالية في ذلك الوقت، وأخيراً يذكر شهادة الراهب (ماركوس دونيزا) التي لا تقل أهمية عن شهادته هو لأن كليهما (شاهد عيان) على الأحداث ولأن كلاهما لا يتهم في صدقه ولا في نيته، فيقول: "وأنقل هنا رواية أحد الرهبان من

---

١ - المرجع نفسه صفحة ٥٨

٢ - المرجع نفسه صفحة ٦٠

٣ - المرجع نفسه صفحة ٨٩.

رهبانية القديس فرانسوا، وهي رواية موقعة باسمه ومكتوبة بخط يده، وقد أرسل بنسخ منها إلى ممالك قشتالة، وهذه مقاطع من النسخة التي أملكها وقد جاء فيها :

(أنا الراهب الأخ ماركوس دونيزا من رهبانية القديس "فرانسوا" كنت مع أول رهبان دخلوا إلى هذه المناطق مع المسيحيين الأوائل، وإنني أعلن بأنني أشهد شهادة حقيقية على بعض ما رأيته بعيني في هذه البلاد، خاصة مشاهد الغزو و الطريقة التي عامل بها الإسبان سكان البلاد، إنني شاهدت بعيني وفهمت من تجربتي أن هنود (البيرو) من أكثر الهنود تسامحاً، ولقد تحالفوا في البداية مع المسيحيين وصادقوهم، ورأيتهم يعطون المسيحيين كثيراً من الذهب و الفضة والأحجار الكريمة، كانوا يعطونهم كل ما يملكونه ويخدمونهم على أفضل وجه، لم يكن الهنود في يوم من الأيام محاربين أو مستعدين للحرب ، بل كانوا مسالمين آمنين إلى أن استفزهم الأسبان بمعاملتهم السيئة وفظاظتهم، وأود أن أصرح بما كنت شاهداً عليه: حين دخل الإسبان إلى أراضي الهنود في (البيرو) أعطاهم الزعيم (أتاهوالبا) من الذهب ما قيمته مليونا قشتالية وكل ما يملكه من الأراضي، وبدون مقاومة، عندها وبدون سبب أحرق الإسبان الزعيم (أتاهوالبا) ثم أحرقوا قبطانه العام حيّاً واسمه (كوشيلماكا)، وكان كوشيلماكا قد جاء ليرحب بالحاكم الإسباني يصحبه زعماء آخرون، وبعد أيام أحرق الأسبان (شامبا) وهو زعيم مرموق آخر من مقاطعة (كويتو)، علماً بأنه لم يؤذهم ولم يذنب ذنباً، كذلك أحرقوا ظلماً وتعسفاً (شابرا) زعيم الكناريين، و أحرقوا أقدام أحد زعماء (كويتو) الكبار وعذبوه طويلاً ليعترف لهم بمكان الذهب ، وكان المسكين يجهل كل شيء عن هذا الأمر، وفي (كويتو) نفسها أحرق الأسبان (كوزوبانغا) حاكم كل مناطق (كويتو) لأنه رفض تسليم كل ما لديه من الذهب، كما أحرقوا معه كثيراً من شيوخ القبائل، وإنني أصرح أيضاً بأن الإسبان قد جمعوا عددا كبيراً من الهنود وسجنوهم داخل منازل ثلاثة كبيرة حشروهم فيها ثم أحرقوهم دون أي سبب، **ولقد استطاع أحد الرهبان أن يستخرج صبيّاً من النار ، لكن إسبانياً آخر هجم عليه وسحب الطفل من يديه ورماه في اللهب حيث صار رماداً مع الآخرين**، إني أصرح أيضاً بأنني شاهدت الإسبان يقطعون أيدي الهنود والهنديات من غير سبب، ويجدعون أنوفهم ويقطعون آذانهم، ورأيت الإسبان يقومون بصيد نادر إذ كانت كلابهم السلوقية تطارد الهنود وتلتهمهم، أو إن الإسبان أنفسهم يرمون بالهندي إلى كلابهم السلوقية لتأكله، كما رأيت الإسبان ينتزعون الرضيع من بين يدي أمه ويلوحون به في الهواء ثم يقذفونه إلى أبعد ما يستطيعون" [١]

ثم يعلق المطران برتولومي على شهادة الراهب ماركوس قائلاً:

"هذا هو كلام الراهب بالحرف، وقد وقع عليه مطران مكسيكو وشهد على صحة ما صرح به الأخ ماركوس، وما قاله هذا الراهب حصل فعلاً بعد تسعة أشهر أو عشرة أشهر من الفتح حين كان الإسبان قلة، أما حين سمع الأسبان بأخبار الذهب فأسرع أربعة آلاف أو خمسة آلاف منهم إلى بلاد الهند واجتاحوا منطقة تتجاوز ٧٠٠ فرسخ وراحوا يسرقون ويقتلون، منذ تلك الفترة وحتى اليوم أباد الإسبان بشراً أكثر مما ذكرت بألف مرة، لقد أريق دم جزء كبير من الإنسانية دون خوف من الله أو الملك، وقتل الأسبان في هذه الممالك (في البيرو) أكثر من **أربعة ملايين نسمة** ، ومازالوا، وقبل بضعة أيام عذبوا بعيدان القصب المبري ملكة عظيمة ثم قتلوها، وكانت

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ٩١

هذه الملكة زوجة الملك (الينغ) الذي يحكم كل هذه المناطق وحين هرب الملك من وجه الأسبان عذبوا زوجته وقتلوها"[1]

والآن : بعد كل هذا القدر من المآسي المحزنة علينا أن نسأل السؤال التالي: من كانت الأمة الأكثر ارتقاءً في التاريخ ؟

لو كانت الجيوش الإسبانية التي أطلقت على الهنود الحمر مثل الذئاب الجائعة تلقت الأوامر من ملوك إسبانيا بأن "من ظلم هنديّاً فهو عدوّ للملك أو للملكة شخصيّاً" كما تلقت الجيوش المسلمة أمر رسول الله محمد ﷺ "من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه – فأنا حجيجه" قبل ثمانية قرون من بدء الكارثة، فهل كان من الممكن أن نرى كل هذا الدمار والانحطاط الذي وصل إلى حد أكل الجنود الإسبان لحوم الهنود الحمر و شي أطفالهم طبقاً لرواية شهود العيان من الرهبان الإسبانيين أنفسهم ؟

فإذا أضفنا إلى ذلك أن هناك العديد من الرهبان أرسلوا إلى أمراء و ملوك قشتالة ليخبروهم بالجرائم البشعة وليتوسلوا إليهم لوقفها ومنها رسالة المطران برتولومي و رسالة الراهب ماركوس وغيرهما من الرهبان ، لكنهم أصموا آذانهم و ألقوا بالرسائل في سلة المهملات ، مما جعلهم **شركاء في** كل قطرة دم سالت من هؤلاء الضحايا ، وقد كانوا يستطيعون أن يحافظوا على حياة مائة مليون إنسان بإشارة من أصبعهم أو بكلمة من شفاههم ، فهل تستطيع عقولنا الآن أن تستوعب الفارق الشاسع بين ارتقاء رسول الله محمد ﷺ الأخلاقي و سموه الحضاري وبين سقوط كل ملوك العالم الأخلاقي على مر التاريخ البشري كله في جميع الحضارات التي تدعي التقدم والمدنية ؟ وهل يمكن لأبناء العالم الحر الآن أن يفهموا إلى أي مدى يظلمون أنفسهم ويسيئون إلى حضارتهم حين يصرون على مناصرة من يسيء إلى هذا الرجل الذي لم يتكرر و لن يتكرر مثله في تاريخ البشرية من أوله إلى آخره ؟

من جهة أخرى، لو كان الإسبان والأوروبيون عاملوا السكان الأصليين من الهنود بالمعاملة نفسها التي عامل بها المسلمون الشعوب التي دخلوا بلادها ، بمعنى أنهم أعطوهم الأمان على أرواحهم و أنفسهم وأموالهم فماذا كان يمكن أن تكون النتيجة ؟ لقد رأينا الهنود البسطاء صدقوا الرهبان في كل ما قالوه عن الثالوث المقدس و الإله المتجسد من أول جلسة ودون أي مناقشة حسب ما ذكر المطران برتولومي في كتابه قبل أن ينقض عليهم الجنود الإسبان قتلاً وتحريقاً ، أليست دماء هذه الملايين كلها كانت ستحقن ويصبح أهلها رعايا مخلصين و جنوداً محاربين في يد ملوك قشتالة كما حدث في جميع الدول التي دخلتها الجيوش المسلمة بأعداد لا تتجاوز الخمسة أو العشرة الآلاف فإذا تعداد المسلمين فيها بعد أعوام قليلة يحصى بالملايين، فالجيش المسلم الذي أخرج الرومان من مصر كان تعداده أربعة آلاف مقاتل ، و طبقاً للمؤرخين المسيحيين في مصر أن المسيحيين واليهود كان تعدادهم مليونين ونصف المليون في بداية دخول المسلمين إليها، لكن نصف هذا العدد أسلم في خلال خمسين عاماً فقط ، أي أن مليون وربع المليون مصري دخلوا في الإسلام برغم أنهم أعطوا الأمان على أرواحهم وأموالهم و

[1] - المرجع نفسه صفحة ٩٣

كنائسهم و أديرتهم وشعائرهم ، **وهو عدد يفوق تعداد المسلمين في الجزيرة العربية نفسها** في ذلك الوقت

والسؤال الهام أيضاً: ففي منطقة غير بعيدة عن مسرح كل هذه الجرائم البشعة وبالتحديد في جزر الفلبين، انتشر الإسلام منذ القرن السابع الهجري حتى أصبح المسلمون في الجزر الكبيرة هم أغلبية السكان وذلك دون أن يصل إلى تلك المناطق جندي مسلم واحد من بلاد العرب ، (وذلك بالطبع قبل أن تصل الجيوش الإسبانية عام ١٥٢٢م لترتكب ضد مسلمي الفلبين كل الجرائم التي كان يجري ارتكابها في الوقت نفسه ضد الهنود الحمر، وتحول من ظل على قيد الحياة منهم إلى المسيحية تحت قهر السيف الموضوع على الرقاب) كما انتشر الإسلام في تايلاند و إندونيسيا و ماليزيا دون أن تحدث معركة واحدة حتى أصبح عدد المسلمين في إندونيسيا وحدها أكبر من عدد المسلمين في السعودية و دول الخليج و مصر وليبيا و تونس والجزائر مجتمعة ، و كما يقول د. مراد ويلفريد هوفمان – وهو دبلوماسي ألماني شهير - في كتابه: "الإسلام عام ٢٠٠٠":

(ولكن حتى اليوم - لحفظ ماء الوجه - يُصر العالم الغربي على الأسطورة التي اخترعها، أن الإسلام انتشر بالسيف والنار) ثم قال: (ويعجب المرء أشد العجب من استمرار تلك الأسطورة حتى اليوم، حيث المسلمون مستضعفون في مشارق الأرض ومغاربها، ومع هذا يزيد تمسكهم بالإسلام في بلاد مثل كشمير والبوسنة والهرسك وشيشان وغيرها، بل ويدخل الآلاف الأمريكيون والأوروبيون في الإسلام سنويّاً ، ناهيك عن البلاد التي دخلت الإسلام بأكملها دون أن يصلها جندي مسلم واحد!!. ومثال ذلك إندونيسيا وماليزيا وتايلاند والفلبين، فيها عدد من المسلمين يتجاوز المسلمين العرب، كذلك كل إفريقيا المسلمة إذا استثنينا شمال إفريقيا)[1]

والسؤال الآن: ما هو السبب في هذا الفارق الهائل بين ما حدث على أرض الفلبين و إندونيسيا و ماليزيا بعد دخول المسلمين إليها و بين ما حدث على أرض قارتي أمريكا الشمالية والجنوبية بعد وصول الأوربيين إليها ؟ لماذا رحب الناس بدعوة الإسلام في الأرض الأولى دون أن تكون هناك جيوش ولا دماء ولا سيوف ، بينما اشتعلت الأرض الثانية جحيماً أحرق العباد والبلاد؟

٣- العنصرية في فلسطين :

لدينا هنا مثال صارخ على سقوط أخلاق "روح العصر" سقوطاً مروعاً يصل إلى حد العودة بحضارة القرن الحادي والعشرين ليس فقط إلى زمن توماس هنري هاكسلي أو إبراهام لينكولن قبل نحو مائة و خمسين سنة ، ولكن إلى ثلاثة آلاف سنة كاملة

فكل ما كتبه السير هاكسلي والسير لينكولن لا يمثل واحداً بالمائة مما يقوله ويعتقده ويطبقه في عصرنا الحالي شعب يقف العالم الحر بكل قوته ، و سلاحه ، و مقدراته ، و منظماته الدولية ، مدافعاً عنه وعن عنصريته ، و عن ممارساته التي تمثل جرائم ضد الإنسانية ، في حق شعب آخر كل ذنبه أنه ولد على أرض جاء اسمها في خرافة تم تأليفها منذ ثلاثة آلاف عام على يد

[1] - نقلاً عن موقع المنبر الإسلامي شبكة سحاب السلفية (www.sahab.net) مقالة بعنوان: شهادة الكفار على عدل المسلمين ، للأستاذ أبي أسامة سمير الجزائري ، بتاريخ ٢٠ أغسطس ٢٠١١م ، د: مراد هوفمان.

تجار أديان كانوا يعانون من عدد هائل من الأمراض النفسية والعصبية بسبب القهر والسبي و النفي

فهناك الآن - في عامنا الخامس عشر من القرن الحادي والعشرين- على أرض فلسطين توجد جماعات من البشر تنتمي إلى العصر الحجري ، يفرحون ويقيمون حفلات الرقص عند مشاهدة منظر جثث الأطفال المحترقة والممزقة تحت أنقاض منازلهم التي تم تدميرها عمداً مع سبق الإصرار ، ليس لجريمة ارتكبها هؤلاء الأطفال ولكن فقط لأنهم فلسطينيون أو عرب، ويحدث ذلك تحت سمع وبصر كل أبناء العالم الحر بل بأموالهم و أسلحتهم، ثم يوصف هؤلاء البشر بأنهم (واحة الديمقراطية) في المنطقة

و سنقارن الآن بين كلمات السير هاكسلي والسير لينكولن السابقة وبين تصريحات قادة تلك الجماعات ، لكي نعرف هل حقاً تحركت روح العصر مع الزمن صعوداً نحو الارتقاء الأخلاقي أم أن العكس هو الذي حدث :

- في مقالة للدكتور غازي حسين نشرت على موقع صوت العروبة الإلكتروني بعنوان "عنصرية المجتمع والدولة الإسرائيلية بتاريخ ٢٩ سبتمبر ٢٠١٤ ذكر الكاتب ما يلي:

"وكان الحاخام عوفيديا يوسيف (زعيم حزب شاس المشارك في حكومة نتنياهو) قد دعا في تموز ٢٠٠١ إلى إبادة العرب بالصواريخ ، و أضاف في صلاة السبت في كنيس بالقدس المحتلة بمناسبة عيد الفصح اليهودي (إن العرب يجب ألا نرأف بهم ، لا بد من قصفهم بالصواريخ و إبادة هؤلاء الأشرار الملعونين) وقال عوفيديا أن العرب يتكاثرون في المدينة المقدسة كالنحل ، وأن عليهم أن يذهبوا إلى الجحيم ، وحث أتباعه على قتل العرب وقال: (إن العرب صراصير يجب قتلهم وإبادتهم جميعاً، ووصفهم بأنهم أسوأ من الأفاعي السامة، وقال: (إن الدين اليهودي يحث على التخلص من كل من يسكن فلسطين – أي من غير اليهود-)"[١]

كما أشار الكاتب إلى قيام الحاخام يتسحاق شابيرا و الحاخام يوسي اليتسور بإصدار كتاب من ٢٣٠ صفحة يشرعان فيه قتل (غير اليهود) ويتضمن الكتاب فتاوى لحاخامات يجيزون فيها قتل كل من هو غير يهودي حتى لو كان طفلاً أو رضيعاً ، وتعني الفتاوى الفلسطينيين خصوصاً والعرب عموماً، ويبيح الكتاب العنصري الجديد لكل يهودي ممارسة قتل الفلسطينيين دون انتظار أمر من الدولة أو الجهات الرسمية"

و يضيف الدكتور غازي في المقال نفسه "بدأت الحملة العنصرية الدينية أولاً في مدينة صفد ، حيث يدرس طلاب عرب في كليات جامعية في المدينة العربية المحتلة، و أعلن حاخام المدينة شموئيل إلياهو أنه ينبغي طرد العرب من صفد ، و أفتى بحرمة تأجيرهم بيوتاً أو محلات أو أراضي، ووقع حوالي ٥٠ حاخاماً عريضة تؤيد فتوى حاخام صفد، ثم انضم إلى الفتوى ٣٠٠ حاخام وهم جزء من زعماء الصهيونية الدينية في الكيان الصهيوني"

وينقل الكاتب تعليق صحيفة الغارديان الصادرة في ٨ كانون الأول ٢٠١٠ الذي جاء فيه :

[١] - د : غازي حسين ، موقع صوت العروبة ،(http://arabvoice.com) ، دراسات ، ٢٩ سبتمبر ٢٠١٤

"إن إسرائيل تسلم زمام الأمور إلى الفاشيين الدينيين، وهم عبارة عن مستوطنين يبنون بصورة غير قانونية، إن ما يحدث هو نذير شؤم لمستقبل إسرائيل"

ولكي نوضح أثر هذه الفتاوى والتصريحات على تربية أجيال من العصر الحجري في الدولة التي يعتبرها العالم الحر "جزيرة الديمقراطية في بحر من البربرية والجهل" نذكر ما جاء في كتاب "عنصرية إسرائيل – فلسطينيو ٤٨ نموذجاً- الصادر عن مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت إعداد الأستاذ عباس إسماعيل:

فقد جاء في هذا الكتاب نقلاً عن صحيفة هآرتس في عددها الصادر بتاريخ ٢٠٠٧/٥/١٥ تحت عنوان (كان الأمر مثل نحر حيوان) ما يلي :

"أوقف الشقيقان جوليان وجوناثان سيفر سيارة الأجرة في القدس ، وبعد أن تأكدا من أن السائق عربي طلبا منه أن يوصلهما إلى تل أبيب، وهناك طلبا من السائق الصعود إلى الشقة للاستراحة من المشوار الطويل، فنزل لينقضا عليه و يطعناه حتى الموت، وجد تيسير عبد الحميد كركي (٣٤ عاماً و أب لخمسة أطفال) مذبوحاً من الحنجرة وغارقاً في بركة دماء في شقة سكنية بتل أبيب، وقال بيان للشرطة الاسرائيلية إن مهاجرين فرنسيين متهمان بقتل السائق العربي بعد استدراجه إلى شقتهما، وأن الجريمة وقعت على خلفية الحقد والكراهية ، وهو ما أكده أحد الأخوين حيث قال لوسائل الإعلام الاسرائيلية : قررت قتل عربي لأنه عربي، أما لمحققيه فقد قال جوليان: طعنته ٢٤ مرة في رقبته ، ولم أشعر بأي شيء، كان الأمر مثل نحر حيوان" [١]

و جاء أيضاً في هذا الكتاب على هامش الجزء الخاص ب "العنصرية في التعليم" ما يلي :

" نشرت صحيفة يديعوت أحرونوت في ٢٠٠٢/٥/٧ مقتطفات من رسائل تلاميذ إسرائيليين أرسلت مع بعض الهدايا إلى جنود الاحتياط الذين كانوا يخدمون في رام الله حينها و فاجأتهم بمضمونها التالي: (أصلي لك كي ترجع إلى بيتك سالماً ، و أن تقتل على الأقل عشرة من أجلي)،(خالف الأوامر و أبدهم ، وتذكر أن العربي الصالح هو العربي الميت)، (دع الفلسطينيين سود الله اسمهم يحترقون في النار، اخرق فيهم ثقوباً ببندقيتك ال م ١٦ واقذفهم بالقنابل)"[٢]

كما أورد الكاتب صورة لأطفال إسرائيليين (عن أف ب ٢٠٠٧/٧/١٧) وهم يكتبون رسالة على القذائف الصاروخية التي يستخدمها الجنود في تدمير بيوت اللبنانيين فوق رؤوس الأطفال و النساء في عدوان ٢٠٠٦ و نشرت وسائل الإعلام حينها أن الرسائل كانت تحوي عبارة (هدية أطفال إسرائيل لأطفال لبنان)، و جاء تعليق الكاتب أسفل الصورة كما يلي:

" أطفال إسرائيل يكتبون على القذائف التي ستستخدم لضرب لبنان خلال الحرب الإسرائيلية على لبنان صيف ٢٠٠٦ ، وقد تسببت هذه الحرب التي استمرت ٣٣ يوماً بمقتل أكثر من ألف مدني لبناني بينهم نحو ٤٠٠ طفل دون ال ١٢ عاماً" [٣]

---

[١] - ذ: عباس إسماعيل، (عنصرية إسرائيل – فلسطينيو ٤٨ نموذجاً) ، مركز الزيتونة للدراسات و الاستشارات- بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨ ، صفحة ٢٠

[٢] - المرجع نفسه صفحة ٦٤

[٣] - المرجع نفسه صفحة ٦٧

ومرة أخرى نلمس أثر تلك الفتاوى العنصرية في اغتيال براءة الأطفال و تحويلهم إلى كائنات مفترسة يملأ الحقد والكراهية قلوبها ، وذلك في دراسة نشرها موقع (Arabmail:News) بعنوان (من أفواههم ، أقوال قادة اليهود الصهاينة وزعمائهم ومفكريهم) بتاريخ ٢٩ / ١٠ / ٢٠٠١، فقد جاء فيها ما يلي:

"آري شيرابي، ضابط متقاعد عمل سنوات في وحدة مكافحة الإرهاب في الجيش الصهيوني، عرض في رسالته للحصول على الدكتوراه في العلوم النفسية – الاجتماعية قدمها إلى معهد لندن للعلوم الاقتصادية، عرض نماذج لرسائل من أطفال يهود في المدارس الابتدائية إلى نظرائهم من الأطفال الفلسطينيين طلب منهم كتابتها للتعرف على مشاعرهم تجاه الفلسطينيين، فكان منها على سبيل المثال ما يلي :

* من طفل يهودي عمره ٩ سنوات إلى طفل فلسطيني سماه (محموداً): أسألك عن شيء لا أفهمه فهل تجيبني ؟ لماذا نبدو دائماً بمظهر حسن وجميل و أنتم تبدون سود البشرة و بشعين ولكم رائحة ؟ لماذا عندما أكون خارج البيت و أشم رائحة كريهة ألتفت دائماً و أرى أنها من واحد منكم يمر بقربي ؟

* وكتب آخر في التاسعة من عمره لطفل فلسطيني سماه ياسراً: يا عربي يا حقير و غبي ، لو رأيتك قرب بيتنا فسأشرب من دمك يا ياسر

* ومن طفلة يهودية في التاسعة من عمرها كتبت لطفلة فلسطينية: إلى الغبية و الحمارة ، لا أريد أن أذكر اسمك في مقدمة الرسالة كي لا أتسخ، توقفي عن رمي الحجارة علينا و إلا فإن شارون سيزوركم في البيت ويحمل معه عقارب و أفاعي و فئراناً

* وكتبت أخرى في الثامنة من عمرها تقول: شارون سيقتلكم، أنتم و جميع سكان القرية، سيحرق أصابعكم بالنار، أخرجي من قرب بيتنا يا قردة، لماذا لا تعودون من حيث جئتم ؟ لماذا تريدون سرقة أرضنا وبيوتنا؟ وها أنا أقدم لك هذا الرسم لتعرفي ماذا سيفعل بكم شارون، ها ها ها ، ولم يكن الرسم سوى صورة لشارون وهو يحمل بيديه رأس طفلة فلسطينية ينزف دماً"[١]

وبالطبع فإن هؤلاء الأطفال لم يعلمهم أحد أن الأرض التي يتحدثون عنها كانت كلها منذ زمن قصير ملكاً خالصاً للفلسطينيين ، قبل أن يسرقها و يشردهم منها أجدادهم اليهود القادمون من روسيا و شرق أوربا و غربها بقوة السلاح ويرتكبوا في فلسطين عشرات المذابح ، مثل مذبحة أريحا التي حدثنا عنها د: ريتشارد في كتاب وهم الإله ، ويخلوا خمسمائة وثلاثين قرية من سكانها البالغ عددهم ٨٠٠ ألف نسمة في ستة أشهر فقط عام ١٩٤٨ ليحلوا محلهم في مشهد تتضاءل أمامه كثيراً كل جرائم عصابات المافيا وعصابات السرقة بالإكراه مجتمعة ،

لقد بدأ تنفيذ الجريمة برسالة أرسلها وزير خارجية بريطانيا السيد آرثر بلفور في عام ١٩١٧ إلى أحد زعماء الصهيونية البارزين يقول له فيها "إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جليّاً أنه لن يسمح بأي إجراء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية

[١] - موقع (arabmail.de/munde.html) بتاريخ ٢٩ / ١٠ / ٢٠٠١

التي تتمتع بها المجتمعات غير اليهودية القائمة في فلسطين، ولا بالحقوق أو بالمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى"[١]

لكن كلام السيد بلفور عن عدم المساس بحقوق السكان الأصليين كان أبعد ما يكون عن الواقع، فقد أوضح بعد ذلك بعامين أنه لا يعبأ بحقوق هؤلاء السكان، وذلك في مذكرته التي أرسلها إلى اللورد كيرزون في ١١ أغسطس ١٩١٩ والمحفوظة في الأرشيف الوطني البريطاني – والتي نقلناها عن دراسة السيد عباس إسماعيل (عنصرية إسرائيل) المشار إليها سابقاً - والتي جاء فيها:

"بالنسبة لفلسطين، نحن لا نقترح حتى مجرد استشارة رغبات السكان الحاليين للبلد ، إن القوى الكبرى الأربع ملتزمة بدعم الصهيونية، وسواء كانت الصهيونية على حق أو باطل ، حسنة أو سيئة ، فإنها عميقة الجذور في التقاليد ، وفي احتياجات الحاضر وآفاق المستقبل ، وأعظم بكثير من ظلامات و رغبات ٧٠٠ ألف عربي يسكنون الآن في البلد القديم"[٢]

أليست هذه العبارة تشتمل على سقوط أخلاقي مريع بسبب العنصرية الواضحة و الاستعلاء غير المبرر ضد شعب مسالم كان أفقر فلاح فيه أكثر تحضراً بكثير من هؤلاء المتآمرين على بلده لأن هذا الفلاح الفقير كان حتى بداية الهجرة اليهودية يعامل الأقلية اليهودية في أرضه بكل صور التسامح وحسن الجوار التي أمره بها دينه ورسوله و قرآنه العظيم – كما ذكر ذلك القنصل البريطاني في القدس[٣] - ؟ وقد عاد السيد بلفور إلى تأكيد موقفه غير الأخلاقي ضد شعب فلسطين في رسالته التي بعث بها إلى رئيس الوزراء والتي يعترف فيها بعدم منح الفلسطينيين حق تقرير المصير وهو ما حدث حتى يومنا هذا، ففي كتابه القيم "تاريخ فلسطين الحديث" نقل الدكتور عبد الوهاب الكيلاني جزءاً من هذه الرسالة جاء فيه :

"إن النقطة الضعيفة في مركزنا بالطبع هي أننا فيما يتعلق بفلسطين نمتنع عامدين – ونحن على صواب في ذلك – عن قبول مبدأ تقرير المصير، ذلك أنه إذا استشير السكان الحاليون فإنهم دون شك سيصوتون ضد اليهود ، أما مبرر سياستنا هذه فهو أننا نعتبر فلسطين قضية استثنائية بشكل مطلق ، وان مشكلة اليهود خارج فلسطين مشكلة ذات أهمية عالمية" [٤]

ألا يثبت هذا أن العالم الحر يتلاعب بالمنظمات الدولية فيضع لها مبادئ سامية و قوانين مثالية ليس ليقوم بتنفيذها على جميع الشعوب و إنما ليستخدمها في تحقيق أطماعه ؟ أليس **هذا سقوطاً مدوياً لأخلاق روح العصر ؟**

هذا كان أول فصل من فصول الجريمة ، ولنترك المجال للكتاب الإسرائيليين و الأميركيين ليحدثونا عن بقية فصولها التي كانت بالطبع فصولاً دامية بكل معنى الكلمة :

الدكتور إيلان بابيه ، كاتب ومؤرخ إسرائيلي جدير بالاحترام ، يعتبر كتابه القيم "**التطهير العرقي في فلسطين**" وثيقة هامة تثبت بالدليل القاطع أن ما حدث للشعب الفلسطيني هو جريمة

[١] - - د: عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت ، الطبعة ١٠ ، صفحة ٨٤
[٢] - ذ: عباس إسماعيل، (عنصرية إسرائيل- فلسطينيو ٤٨ نموذجاً) ، مركز الزيتونة للدراسات و الاستشارات، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨، الصفحة ٧٢
[٣] - د: عبد الوهاب الكيالي ، تاريخ فلسطين الحديث ، الطبعة نفسها صفحة ٤٠ سطر ٢٢
[٤] - د: عبد الوهاب الكيالي ، تاريخ فلسطين الحديث ، الطبعة نفسها ، صفحة ١٠٨

تطهير عرقي كاملة ، تتصادم مع كل القوانين الدولية الواجب على جميع دول العالم احترامها والالتزام بها ، وبالتالي فهناك التزام قانوني و أخلاقي على كل صانعي القرار في العالم ، وبخاصة الذين يتحكمون في المنظمات والهيئات الدولية بضرورة العمل على رد الحق لأصحابه الأصليين و إزالة آثار تلك الجريمة التي كانوا مشاركين أصليين في ارتكابها

يقول د: إيلان بابيه في كتابه المذكور - الذي أصدرت مؤسسة الدراسات الفلسطينية تلخيصاً له في عام ٢٠٠٧ للأستاذ غازي الصوراني ومنه نقلنا هذه المقتطفات – :

"في ١٠ آذار / مارس ١٩٤٨ وضعت مجموعة من أحد عشر رجلاً مكونة من قادة صهيونيين قدامى و ضابطين عسكريين شابين اللمسات الأخيرة على خطة لتطهير فلسطين عرقيّاً ، وفي مساء اليوم نفسه أرسلت الأوامر إلى الوحدات على الأرض بالاستعداد للقيام بطرد منهجي للفلسطينيين في مناطق واسعة في البلد ، و أرفقت الأوامر بوصف مفصل للأساليب الممكن استخدامها لطرد الناس بالقوة : إثارة رعب واسع النطاق ، محاصرة وقصف قرى و مراكز سكانية ، حرق منازل و أملاك و بضائع ، طرد ، هدم (بيوت ، منشآت) و أخيراً زرع ألغام وسط الأنقاض لمنع السكان المطرودين من العودة إلى منازلهم ، وتم تزويد كل وحدة بقائمة تتضمن أسماء القرى و الأحياء المحددة كأهداف لها في الخطة الكبرى المرسومة"[١]

"إن هذه الخطة كانت النتيجة الحتمية للنزعة الأيديولوجية الصهيونية التي تطلعت إلى أن تكون فلسطين لليهود حصراً ، و أتت الاشتباكات المسلحة مع الميلشيات الفلسطينية المحلية لتوفر السياق والذريعة المثاليين من أجل تجسيد الرؤية الأيديولوجية التي تطلعت إلى فلسطين نقية عرقيّاً، وكانت السياسة الصهيونية في البداية قائمة على ردات فعل انتقامية على الهجمات الفلسطينية في شباط / فبراير ١٩٤٨ ، لكنها ما لبثت أن تحولت في آذار / مارس ١٩٤٨ إلى مبادرة لتطهير عرقي للبلد بأكمله : بعد اتخاذ القرار ، استغرق تنفيذ المهمة ستة أشهر، ومع اكتمال التنفيذ كان أكثر من نصف سكان فلسطين الأصليين ، **أي ما يقرب من ٨٠٠ ألف نسمة قد اقتلعوا من أماكن عيشهم ، و ٥٣١ قرية دمرت و ١١ حيا مدنياً أخلي من سكانه**"[٢]

ويقول د: إيلان أيضاً: " لقد وضع هذا الكتاب بقناعة راسخة بأن التطهير العرقي الذي حدث في فلسطين يجب أن يتجذر في ذاكرتنا و وعينا بصفته جريمة ضد الإنسانية، ويجب أن يستثنى من قائمة الجرائم "المزعومة" أن مرتكبيه هنا ليسوا مجهولين ، إنهم مجموعة محددة من الأشخاص : أبطال حرب الاستقلال اليهودية ، وأسماؤهم مألوفة جدّاً لدى معظم القراء ، والقائمة تبدأ بزعيم الحركة الصهيونية غير المنازع في زعامته – دافيد بن غوريون – الذي نوقشت في منزله الخاص وحبكت نهائيّاً الفصول الأولى والأخيرة في قصة التطهير العرقي"[٣]

وعن الدور الرئيس للجيش البريطاني في إتمام الجريمة يقول د: إيلان :

"بعد ثورة ١٩٢٩ بدت الحكومة العمالية في لندن كأنها تميل إلى احتضان المطالب الفلسطينية ، لكن اللوبي الصهيوني نجح في إعادة توجيه الحكومة البريطانية للسير في طريق وعد بلفور،

[١] - ذ: غازي الصوراني، تلخيص كتاب (التطهير العرقي في فلسطين للكاتب إيلان بابيه)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط ١ يوليو ٢٠٠٧ ، صفحة ٤

[٢] - المرجع نفسه صفحة ٥

[٣] - المرجع نفسه صفحة ٨

وهذا ما جعل اندلاع ثورة أخرى أمراً حتميّاً ، وفعلاً اندلع العنف في سنة ١٩٣٦ بشكل ثورة شعبية قاتلت بتصميم شديد أرغم الحكومة البريطانية على حشد قوات عسكرية في فلسطين **أكثر مما كان موجوداً في شبه القارة الهندية**، وبعد ثلاثة أعوام تخللتها هجمات وحشية و عديمة الرحمة على الريف الفلسطيني نجحت القوات البريطانية في إخماد الثورة"[١]

ثم يقول : "لكن خلال بضعة أشهر تم وضع خطة أخرى، الخطة (داليت) في ١٩٤٨/٣/١٠ وكانت هذه هي الخطة التي حسمت مصير الفلسطينيين القاطنين داخل الأراضي التي أراد القادة الصهيونيون الاستيلاء عليها لإقامة الدولة اليهودية العتيدة ، وبغض النظر عما إذا كان من الممكن أن يتخذ هؤلاء الفلسطينيون قراراً بالتعامل مع الدولة اليهودية أو مقاومتها، فإن الخطة داليت قضت بطردهم من وطنهم بشكل منهجي و كلي" [٢]

أما عن قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ فيقول :

"إذا ألقينا نظرة فاحصة إلى الخريطة التي اقترحتها الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٧ فماذا نرى؟ كانت فلسطين ستقسم عمليّاً إلى ثلاثة أجزاء: على ٤٢% من الأرض سيقيم ٨١٨٠٠٠ فلسطيني دولة تضم ١٠٠٠٠ يهودي، بينما الدولة المقترحة لليهود ستمتد على ما يقرب من ٥٦% من الأرض ويتشارك فيها ٤٩٩٠٠٠ يهودي مع ٤٣٨٠٠٠ فلسطيني، أما الجزء الثالث فكان كياناً صغيراً يحيط بمدينة القدس خاضعاً لحكم دولي ، نصف سكانه ال ٢٠٠٠٠٠ من الفلسطينيين و نصفهم الآخر من اليهود، وفي الواقع فإن خريطة الأمم المتحدة كانت وصفة مؤكدة للمأساة التي بدأت تتجلى للعيان منذ اليوم التالي لتبني القرار ١٨١ ، ومثلما لاحظ واضعو نظرية التطهير العرقي في وقت لاحق فإنه حيث يتم تبني أيديولوجيا إقصائية في واقع إثني شديد التوتر فإن النتيجة الحتمية هي التطهير العرقي، ولأنهم رسموا الخريطة على هذا النحو فإن أعضاء الأمم المتحدة الذين صوتوا في مصلحة قرار التقسيم **ساهموا مساهمة مباشرة في الجريمة** التي كانت على وشك أن ترتكب"[٣]

" بعد أن أصبحت المساحة محددة والتفوق العسكري مؤكداً، كانت الخطوة الرابعة للقيادة الصهيونية في اتجاه استكمال تطهير فلسطين توفير الوسائل الفعلية الملموسة التي من شأنها أن تمكنهم من إزاحة هذه الكتلة الكبيرة من السكان ، ففي الأراضي التي ستتكون منها مساحة دولتهم اليهودية الكبرى العتيدة كان يعيش في أوائل كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧ مليون فلسطيني من مجموع السكان الفلسطينيين البالغ عددهم ١,٣ مليون نسمة، بينما كان المجتمع اليهودي أقلية مكونة من ٦٠٠ ألف نسمة" [٤]

و يستمر د: إيلان في وصف تنفيذ عملية (نحشون) أول عملية في خطة التطهير العرقي :

"مخطط التطهير العرقي – عملية نحشون – أول عملية في الخطة داليت :

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ١٠
[٢] - المرجع نفسه صفحة ١٤
[٣] - المرجع نفسه صفحة ١٤ و ١٥
[٤] - المرجع نفسه صفحة ١٧

طلب من كل لواء مفرزة للعملية الاستعداد للانتقال إلى (متساف داليت) أي الحالة د التي تعني التأهب لتنفيذ الخطة د ، وإذا حكمنا بموجب المحصلة النهائية لهذه المرحلة ، وأعني بها نيسان / إبريل – أيار/ مايو ١٩٤٨ فإن المشورة كانت عدم الإبقاء ولو على قرية واحدة، وبذلك تحولت الخطة الرئيسة إلى أمر عسكري بالشروع في تدمير القرى

تلقت وحدات البالماخ أوامرها بالقيام بعملية نحشون في اليوم الأول بالذات من نيسان / ابريل ١٩٤٨ ، كانت الأوامر واضحة ، الهدف الرئيس للعملية هو تدمير القرى العربية وطرد القرويين كي يصبحوا عبئاً اقتصادياً على القوات العربية العامة ---

وفي ذلك اليوم نفسه سقطت أول قرية من القرى الفلسطينية العديدة الموجودة حول القدس بأيدي اليهود (القسطل)، وفي ٩ نيسان / ابريل قتل عبد القادر الحسيني في المعركة بينما كان يدافع عن القرية ، وقد أدى موته إلى تدهور معنويات جنوده إلى حد أن القرى الأخرى في القدس الكبرى سقطت كلها بسرعة بأيدي القوات اليهودية ، حوصرت الواحدة تلو الأخرى ثم هوجمت واحتلت ، وطرد سكانها ، وهدمت بيوتهم ومبانيهم ، وفي عدد منها رافق الطرد مجازر كان أسوأها صيتاً المجزرة التي ارتكبتها القوات اليهودية يوم سقوط القسطل في دير ياسين ، ففي ٩ نيسان / ابريل ١٩٤٨ احتلت القوات اليهودية قرية دير ياسين الواقعة على هضبة إلى الغرب من القدس على ارتفاع ثمانمائة متر فوق سطح البحر بالقرب من حي غفعات شاؤول اليهودي ، وتستخدم مدرسة القرية القديمة اليوم مستشفى للأمراض العقلية يخدم الحي الغربي الذي تمدد فوق أراضي القرية المدمرة ، عندما اقتحم الجنود القرية رشقوا البيوت بنيران المدافع الرشاشة متسببين بقتل كثير من سكانها ، ومن ثم جمعوا بقية القرويين في مكان واحد وقتلوهم بدم بارد و انتهكوا حرمة أجسادهم ، في حين اغتصب عدد من النساء ثم قتلن"[١]

كانت هذه هي الرواية التي رواها د: إيلان بابيه عن مذبحة دير ياسين ، لكن مصادر فلسطينية كتبت نقلاً عن شهود عيان تفاصيل تضع مرتكبي الجريمة جنباً إلى جنب مع الجنود الإسبان الذين أكلوا جثث الهنود الحمر والذين وصف المطران برتولومي في شهادته السابقة معسكرهم بأنه تحول إلى (مسلخ كبير للحوم البشر)

ففي موسوعة اليهود واليهودية ذكر الدكتور عبد الوهاب المسيري أن الشبان والفتيات اليهود تسابقوا في القتل وقطع الرؤوس و بتر الأعضاء بدم بارد وصل إلى حد بقر بطون النساء الحوامل و المراهنة على نوع الجنين وهم يصيحون بفرح، كما ذكرت الموسوعة قيام اليهود بإلقاء جثث الضحايا في بئر القرية حتى يصبح غير قابل للاستخدام مرة أخرى إذا حاول السكان الهاربون من المذبحة العودة إلى قراهم، بينما نشرت في بعض المصادر الفلسطينية صور لشبان و فتيات يهود يرفعون أيديهم الملطخة بدماء الضحايا ويلوحون بها دليلاً على النصر

وسجل الدكتور المسيري في موسوعته إشادة مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل لاحقاً بالجريمة حين قال :

"أرسل مناحم بيجن برقية تهنئة إلى رعنان قائد الإرجون المحلي قال فيها : تهنئتي لكم لهذا الانتصار العظيم ، وقل لجنودك إنهم صنعوا التاريخ في إسرائيل" وفي كتابه المعنون (الثورة)

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ١٩ و ٢٠

كتب بيجين يقول : (إن مذبحة دير ياسين أسهمت مع غيرها من المجازر الأخرى في تفريغ البلاد من **٦٥٠ ألف عربي)** وأضاف قائلاً: (لولا دير ياسين لما قامت إسرائيل)" [١]

لقد تمت جريمة دير ياسين وكثير من الجرائم المماثلة في معظم قرى فلسطين تحت سمع وبصر مندوبي الأمم المتحدة التي كانت تطنطن بحق تقرير المصير ، وكذلك مندوبي بريطانيا التي وضعت عصبة الأمم فلسطين تحت وصايتها لكي تنهض بها حضاريّاً، و تؤهلها تدريجيّاً لتصبح قادرة على ممارسة حكم ديمقراطي متحضر، فقد كتب د: إيلان بابيه في كتابه (التطهير العرقي في فلسطين) ما يلي :

"إن ثقة القيادة اليهودية في أوائل نيسان / ابريل بقدرتها لا على الاستيلاء على المناطق التي منحتها الأمم المتحدة للدولة اليهودية فحسب ، بل أيضاً على تطهيرها ، يمكن سبرها من الطريقة التي وجهت فيها الهاغاناه مباشرة بعد عملية نحشون إهتماماً إلى المراكز الحضرية الرئيسة في فلسطين، وقد هوجمت هذه المراكز بصورة منهجية خلال بقية الشهر ، **بينما كان موظفو الأمم المتحدة والموظفون البريطانيون يراقبون ما يجري بلا مبالاة و من دون أن يحركوا ساكناً** ، بعد أن سقطت حيفا لم يبق في فلسطين سوى مدن قليلة حرة ، بينها عكا والناصرة وصفد، ولم تتخط حملة تدمير المدن الفلسطينية القدس--- قصفت القوات اليهودية الأحياء العربية الغربية ثم هاجمتها واحتلتها في نيسان / ابريل ١٩٤٨، واصلت حملة تدمير المدن الفلسطينية اندفاعها ، فاحتلت عكا على الساحل وبيسان في الشرق في ٦ أيار / مايو ١٩٤٨، وعلى الرغم من الازدحام الشديد الناجم عن تدفق اللاجئين الهائل من مدينة حيفا المجاورة إليها، والقصف اليومي العنيف فقد فشلت القوات اليهودية في قهر المدينة الصليبية، ويبدو أنه جرى خلال الحصار تلويث المياه بجراثيم التيفوئيد، وقد رفع مبعوثو الصليب الأحمر الدولي المحليون إلى مركزهم الرئيس تقارير بذلك، ولم يتركوا أدنى شك فيمن يشتبهون "الهاغاناه" ومع تدهور المعنويات جراء وباء التيفوئيد والقصف العنيف استجاب الناس للدعوة المنطلقة من مكبرات الصوت التي كانت تصرخ بهم : (**استسلموا أو انتحروا سنبيدكم حتى آخر رجل فيكم)**، وروى الملازم بوتيت وهو مراقب فرنسي تابع للأمم المتحدة ، أنه بعد سقوط المدينة بيد القوات اليهودية **تعرضت لحملة نهب منظمة واسعة النطاق قام بها الجيش، وشملت الأثاث والملابس و أي شيء يكون مفيداً للمهاجرين اليهود الجدد ، أو من شأن أخذه أن يثني اللاجئين عن العودة**

جرت محاولة مشابهة لتسميم مصادر مياه غزة في ٢٧ أيار / مايو لكنها أحبطت، وقد ألقى المصريون القبض على يهوديين ، دافيد حورون ودافيد مزراحي بينما كانا يحاولان ثلويث آبار المياه في غزة بجراثيم التفوئيد و الديسنتاريا، و أعدم المصريون اليهوديين لاحقاً ولم تصدر عن الإسرائيليين أية احتجاجات رسمية

في الوقت الذي احتلت فيه عكا تقريباً، احتل لواء غولاني مدينة بيسان بعملية جدعون، وكانت يافا آخر مدينة يجري احتلالها ، وحدث ذلك في ١٣ ايار / مايو قبل يومين من انتهاء الانتداب، وقد صمدت المدينة ثلاثة أسابيع في وجه الحصار والهجوم الذي بدأ في أواسط نيسان / ابريل

---

[١] - د: عبد الوهاب المسيري ، موسوعة (اليهود واليهودية و الصهيونية)، المجلد السابع، بيت العرب للتوثيق العصري والنظم ، مذبحة دير ياسين

وانتهى في أواسط ايار / مايو وعندما سقطت **طرد جميع سكانها البالغ عددهم ٥٠٠٠٠ نسمة** ، وبسقوط يافا تم للقوات اليهودية إخلاء جميع مدن وبلدات فلسطين الرئيسة وطرد سكانها ، **وكان المراقبون التابعون للأمم المتحدة شهوداً على عملية الطرد، وكان ممثلو وسائل الإعلام الغربية بمن في ذلك مراسل (نيويورك تايمز) ما زالوا يرسلون قصصاً عن قرى منفردة "** [١]

ويكمل د: إيلان تحت عنوان (خيانة الأمم المتحدة) قائلاً :

"بموجب قرار التقسيم كان ينبغي على الأمم المتحدة أن تكون حاضرة على الأرض لتشرف على تنفيذ خطتها للسلام ، أي جعل فلسطين بكاملها بلداً مستقلاً يشتمل على دولتين متميزتين تجمعهما وحدة اقتصادية ، وقد تضمن القرار الصادر في ٢٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٧ أموراً إلزامية واضحة جدّاً ، منها **التعهد بأن تمنع الأمم المتحدة أية محاولة من أي من الطرفين لمصادرة أراض تعود ملكيتها إلى مواطني الدولة الأخرى أو أية مجموعة قومية أخرى سواء كانت أراضي مزروعة أو أراضي مراحة من غير زرع لمدة عام تقريباً**، وكان وجود الأمم المتحدة في فلسطين محدوداً لأن السلطات البريطانية **منعت وجود** فريق منظم من الأمم المتحدة على الأرض متجاهلة بذلك الجزء من قرار التقسيم القاضي بوجود لجنة من الأمم المتحدة في فلسطين ، **لقد سمحت بريطانيا بحدوث التطهير العرقي الذي جرى تحت سمع وبصر جنودها وموظفيها خلال فترة الانتداب** التي انتهت في منتصف ليلة ١٤ أيار / مايو ١٩٤٨ كما أنها أعاقت جهود الأمم المتحدة للتدخل بطريقة كان من الممكن أن تؤدي إلى إنقاذ كثيرين من الفلسطينيين، **أما الأمم المتحدة فلا يمكن تبرئتها من ذنب التخلي بعد ١٥أيار / مايو عن الشعب الذي قسمت أرضه وسلمت أرواحه و أرزاقه إلى اليهود** الذين كانوا منذ نهاية القرن التاسع عشر يريدون اقتلاعه والحلول مكانه في البلد الذي كانوا يعتقدون أنه ملك لهم"[٢]

وعن استمرار دعم العالم الحر لكل أشكال العنصرية و التطهير العرقي المستمر حتى الآن ضد الشعب الفلسطيني ، يشرح السيد إيلان مأساة مشروع السلام الذي يحاول المحتل فرضه بالقوة على صاحب الأرض بدعم من هذا العالم الحر فيقول :

" واعتقد الفلسطينيون أن المرحلة أتت و حان الوقت معها لمناقشة أساسيات الصراع الثلاثة : حق العودة ، والقدس، ومستقبل المستعمرات الإسرائيلية. وكان يتعين على منظمة التحرير الفلسطينية المتشظية أن تقدم خطة سلام مضادة ، وللأسف شعرت بأنها غير قادرة على القيام بذلك ، وطلبت المشورة من جهات من المستغرب اللجوء إليها مثل معهد آدم سميث، وبإشرافه أدرج مفاوضون فلسطينيون النكبة و مسؤولية إسرائيل عنها في رأس جدول الأعمال الفلسطيني وكان معنى ذلك أنهم أخطؤوا تماماً في قراءة مشروع السلام الأمريكي ، **فإسرائيل فقط** كان مسموحاً لها بوضع بنود جدول أعمال السلام ، بما في ذلك تلك المتعلقة بالتسوية الدائمة، وكان ما وضع على طاولة المفاوضات في كامب ديفيد هو **الخطة الإسرائيلية حصراً الحاصلة على موافقة كاملة من جانب الولايات المتحدة**، وعرضت إسرائيل بموجبها الانسحاب من أجزاء من الضفة الغربية وقطاع غزة تاركة للفلسطينيين ١٥% من فلسطين الأصلية ، لكن تلك ال ١٥%

---

[١] - ذ: غازي الصوراني، تلخيص كتاب (التطهير العرقي في فلسطين للكاتب إيلان بابيه)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط ١ يوليو ٢٠٠٧ ، صفحة ٢٠

[٢] - المرجع نفسه صفحة ٢٣

ستكون عبارة عن كانتونات منفصلة تشطرها طرقات ، و مستعمرات ، ومعسكرات للجيش ، وجدران، والأفدح من ذلك استثنت الخطة الإسرائيلية القدس – لن يكون هناك أبداً عاصمة فلسطينية في القدس- كما لم يكن هناك حل لمشكلة اللاجئين، وبكلمات أخرى كانت مواصفات الدولة الفلسطينية المستقبلية بحسب الاقتراح تعادل **تشويهاً كليّاً لمفاهيم الدولة و الاستقلال كما صرنا نقبلها في أعقاب الحرب العالمية الثانية** ، وكما أرادتها الدولة اليهودية لنفسها بدعم من المجتمع الدولي في سنة ١٩٤٨ وهنا حتى عرفات الضعيف أدرك أن من شأن الإملاءات الإسرائيلية تفريغ المطالب الفلسطينية من أي محتوى ، ورفض أن يوقع" [١]

وفي نهاية الكتاب يحاول السيد إيلان أن ينصح أبناء وطنه ودينه ليحلوا المشكلة قبل فوات الأوان قائلاً :

"لا الفلسطينيون سينجون من اليهود ، ولا اليهود سينجون من الفلسطينيين ، ولا أي طرف سينجو من نفسه، إذا لم يتم تعريف الأيديولوجيا التي لا تزال تحرك السياسة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين بصورة صحيحة، المشكلة مع إسرائيل لم تكن قط يهوديتها – اليهودية لها أوجه كثيرة ، وكثير منها يوفر قاعدة متينة للسلام والتعايش – إنما المشكلة هي مع شخصيتها الصهيونية الاثنية، فالصهيونية لا تتوفر فيها هوامش التعددية نفسها الموجودة في اليهودية ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالفلسطينيين، فهم لا يمكن أبداً أن يكونوا جزءاً من الدولة والقضاء الصهيونيين، وسيستمرون في النضال – ونأمل أن يكون نضالهم سليماً وناجحاً – و إذا لم يكن كذلك فسيكون يائساً و تواقاً إلى الانتقام ، وكالزوبعة سيمتص الجميع في ثنايا عاصفة رملية جبارة مستمرة لن تهب في العالمين العربي و الإسلامي فحسب ، بل أيضاً في بريطانيا و الولايات المتحدة اللتين كل منهما بدورها تغذي العاصفة التي ستدمرنا جميعاً" [٢]

وهنا يعود السؤال الهام لكي يطرح نفسه بقوة: من هي الأمة التي كانت أكثر تحضراً و أسمى خلقاً في أطراف النزاع الثلاثة ؟

● الأمة الإسلامية التي عاملت اليهود بسمو أخلاقي عظيم حين كتب رسولها ﷺ لليهود الذين كانوا يعيشون في المدينة صحيفة الأمان التي جعلتهم هم و حلفاءهم و عبيدهم مع المسلمين أمة واحدة ، ثم الأجيال المسلمة التي تابعت هذا الارتقاء الحضاري والسمو الأخلاقي باقتدائها برسولها ﷺ في معاملة شعب فلسطين من اليهود والنصارى بالتسامح و حسن الجوار حين دخلت الجيوش المسلمة القدس في القرن السابع الميلادي و أعطوا سكانها الأمان على أرواحهم و أموالهم و كنائسهم وصلبانهم ، **ثم الأجيال الفلسطينية المسلمة في أوائل القرن العشرين التي عاملت اليهود بكل تسامح و حسن جوار** إلى أن تغيرت خريطة فلسطين بفعل الهجرات المتتابعة للمحتلين من الصهاينة الأوروبيين والروس ؟

● أم اليهود المستعمرون الذين يقتلون الأطفال و الرضع تحت أنقاض بيوتهم المدمرة بالصواريخ و الطائرات ، و يبقرون بطون النساء الحوامل ويتراهنون على نوع الجنين، و يفتخر شبابهم بطعن سائق عربي مسالم بأربع وعشرين طعنة كأنه يطعن حيواناً ، و يقول أطفالهم في سن التاسعة للطفل الفلسطيني "سأشرب من دمك"، ثم يستمر جيشهم على مدى أكثر

[١] - المرجع نفسه صفحة ٢٦
[٢] - المرجع نفسه صفحة ٣١

من سبعين عاماً في ارتكاب مذبحة أريحا المرة تلو المرة ضد قرى و مدن فلسطين حتى يومنا هذا ؟

● أم العالم الحر الذي أصدر أحد قادته عام ١٩١٧ قراراً بمنح أشد طوائف البشر عنصرية أرضاً لا يملكها ، و لا يعطيه أي قانون في العالم السلطة في التصرف فيها ، ثم يصرح بأنه لا يعبأ بحقوق ٧٠٠ ألف فلسطيني توارثوا هذه الأرض عن أجدادهم على مدى ثلاثة آلاف عام من أجل إرضاء زعماء الصهيونية العالمية، كما يعترف بأنه وحكومته عملوا عامدين على عدم حصول الفلسطينيين على حق تقرير المصير لعلمهم جميعاً أنهم لو فعلوا ذلك فسوف يكون قرار الشعب الفلسطيني صاحب البلد الأصلي ضد قيام دولة يهودية على أرضه ، ثم يقوم أقوى جيوش العالم الحر في ذلك الوقت بسحق كل صور المقاومة والثورة للشعب الفلسطيني ؟

هل يعارضنا أحد في الجواب الصحيح الواضح وضوح الشمس؟ وهل إذا قلنا أن العالم الحر و ذيوله المتخلقين بأخلاق روح العصر يثبتون كل يوم بمواقفهم من قضية فلسطين أنهم متخلفون عن أخلاق المسلمين الذين دخلوا بلاد الشام وفلسطين ومصر من حيث الفارق الزمني بأربعة عشر قرناً ، ومن حيث الكيف بمسافات فلكية شاسعة ، هل نكون بذلك مبالغين أم أن الحقائق الواقعة تفرض نفسها على عقول العقلاء ؟

ربما يعارض البعض بحجة "واحة الديمقراطية" المزعومة التي يمثلها هذا المحتل، ويعتبرها البعض سبباً كافياً لممارسة العنصرية والتطهير العرقي وقتل النساء و الأطفال بالصواريخ و الدبابات ، وسبباً كافياً كذلك للضرب بكل القوانين والمعاهدات الدولية عرض الحائط

ولنترك الأمريكيين هذه المرة ليردوا على هذه الكذبة الكبيرة :

في كتابهما الهام "أمريكا المختطفة- اللوبي الإسرائيلي وسياسة الولايات المتحدة الخارجية-" ترجمة السيد فاضل جتكر، ناقش المؤلفان السير (جون جي ميرشايمر) والسير (ستفن إم والت) قضية عدم صحة الأساس الديمقراطي المشترك بين أمريكا و إسرائيل ليكون سبباً في الانحياز المطلق لإسرائيل في كل مواقفها حتى تلك التي تتعارض مع كل القوانين الدولية بسبب العنصرية ، و مما جاء في كتابهما في هذا الشأن ما يلي:

"يتعرض منطق الديمقراطية المشتركة للاهتزاز أيضاً بسبب جوانب من الديمقراطية الإسرائيلية متناقضة مع قيم أمريكية جوهرية، إن الولايات المتحدة ديمقراطية ليبرالية حيث يفترض أن يتمتع الجميع بصرف النظر عن انتماءاتهم القومية ، الدينية أو العرقية بحقوق متساوية، أما إسرائيل فقد قامت صراحة على أساس أنها دولة يهودية ، وحق المواطنة فيها مستند إلى مبدأ قرابة الدم، وانطلاقاً من هذا التصور للمواطنة ليس مفاجئاً أن تتم معاملة ٣,١ ملايين من عرب إسرائيل معاملة مواطني درجة ثانية ، أو أن تتوصل هيئة حكومية إسرائيلية حديثة إلى اكتشاف حقيقة أن إسرائيل تتصرف بطريقة قائمة على الإهمال والتمييز معهم"[١]

ويتابع المؤلفان :"تتعرض مكانة إسرائيل الديمقراطية للتقويض أيضاً جراء إصرارها على رفض إعطاء الفلسطينيين دولة قابلة للحياة تخصهم ، وتتحكم إسرائيل بحياة (٨,٣) ملايين من

[١] - جون جي ميرشايمر و ستفن إم والت (أمريكا المختطفة)، مكتبة العبيكان ١٤٢٧هجرية ، صفحة ٣٧

الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية مع استعمار أراضٍ طالما درج الفلسطينيون على العيش فوقها ، ومع أن إسرائيل ديمقراطية شكلاً فإن ملايين الفلسطينيين الذين تتحكم بهم محرومون من الحقوق السياسية الكاملة مما يضعف منطق "الديمقراطية المشتركة" بالتوازي)[1]

ثم يناقش المؤلفان مفهوم دعم الولايات المتحدة لإسرائيل برغم همجيتها على أساس تعرض اليهود لمذابح كبيرة في أوروبا وبالتالي وجود التزام أخلاقي وراء هذا الدعم ، وجاء نقاشهما لهذا البعد على النحو التالي :

"لا شك أن اليهود عانوا كثيراً جراء التراث البشع للاسامية ، وأن إيجاد إسرائيل كان ردّاً مناسباً على سجل طويل من الجرائم ، وكما لوحظ فإن التاريخ يوفر حجة أخلاقية قوية لدعم وجود إسرائيل، إلا أن خلق إسرائيل جاء منطوياً على جرائم إضافية ضد طرف ثالث بريء إلى حد بعيد ألا وهو الطرف الفلسطيني، إن تاريخ هذه الأحداث مفهوم جيداً، حين انطلقت الصهيونية السياسية جديّاً في أواخر القرن التاسع عشر لم يكن في فلسطين سوى ١٥٠٠٠ يهودي، ففي عام ١٨٩٣ مثلاً كان العرب يشكلون ٩٥% من السكان، وقد ظلوا مالكين للأرض على نحو متواصل طوال ١٣٠٠ سنة على الرغم من خضوعهم للحكم العثماني، حتى حين جرى تأسيس إسرائيل، لم يكن اليهود يمثلون سوى ٣٥% من سكان فلسطين مالكين لنسبة ٧% من الأرض، لم تكن القيادة الصهيونية للتيار الرئيسي حريصة على إقامة دولة ثنائية القومية أو على القبول بتقسيم دائم لفلسطين، كانت القيادة الصهيونية أحياناً مستعدة لقبول التقسيم كخطوة أولى، إلا أن ذلك لم يكن هدفها الحقيقي بل نوعاً من المناورة التكتيكية، وكما قال ديفيد بن غوريون أواخر ثلاثينيات القرن العشرين "إننا سوف نلغي التقسيم ونتوسع إلى فلسطين كلها بعد تشكيل جيش كبير غداة تأسيس الدولة"، تحقيقاً لهذا الهدف تعين على الصهاينة طرد أعداد كبيرة من العرب من المناطق التي كانت لن تلبث أن تصبح إسرائيل، ببساطة لم يكن هناك أي طريقة أخرى لتحقيق غرضهم، كان بن غوريون يرى المشكلة بوضوح، إذ كتب في عام ١٩٤١ يقول : "من غير الممكن تصور إجلاء عام للسكان العرب دون إكراه ، وإكراه وحشي" ٠٠ وتوفرت هذه الفرصة في عامي ١٩٤٧ – ١٩٤٨ حين قامت القوات اليهودية بتشريد ٧٠٠ ألف فلسطيني إلى المنافي، ظل الرسميون الإسرائيليون طويلاً يزعمون أن العرب فروا لأن قادتهم أمروهم بذلك ، إلا أن البحث المتأني والحصيف (وكثير منه من قبل مؤرخين إسرائيليين مثل موريس) ما لبث أن نسف هذه الأسطورة، فأكثر قادة العرب دأبوا في الحقيقة على دعوة الفلسطينيين و بإلحاح إلى البقاء في أرضهم إلا أن الخوف والموت ذبحاً على يد القوات الصهيونية دفعا أكثرهم إلى الهرب، وبعد الحرب قامت إسرائيل بسد طريق العودة في وجه فلسطينيي المنافي، استوعب قادة إسرائيل جيداً حقيقة انطواء خلق إسرائيل على جريمة أخلاقية بحق الشعب الفلسطيني، فقد قال بن غوريون لناحوم غولمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي **"لو كنت قائداً عربياً لما تصالحت قط مع إسرائيل، إنه أمر طبيعي ، لقد أخذنا وطنهم** ، نحن نأتي من إسرائيل ولكن منذ ألفي سنة ، وما الذي يعنيه ذلك بالنسبة إليهم؟ ثمة كانت معاداة للسامية ، نازيون ، أوشفيتز، **ولكن هل كان ذلك ذنبهم ؟ لا يرون سوى شيء واحد: جئنا إلى هنا وسطونا على بلدهم ، ما الذي يجعلهم يقبلون بذلك؟ "**[2]

---

[1] - المرجع نفسه صفحة ٣٨

[2] - المرجع نفسه صفحة ٣٨ - ٤٢

كما يناقش المؤلفان في كتابهما ، المفهوم القائل بأن تأييد الولايات المتحدة المطلق لإسرائيل برغم جرائمها الموثقة ضد الإنسانية سببه التفوق الأخلاقي الكاسح لإسرائيل على خصومها العرب، وبرغم أن هذا المفهوم ظاهر الخلل والضلال لأنه يشبه قول أحد رؤساء الشرطة في بلد تم سرقة أحد البنوك فيه ، أن انحيازه إلى صف المجرم الذي قتل نصف موظفي البنك أثناء السرقة يرجع إلى أنه كان أسمى خلقاً من هؤلاء الموظفين ، لكن لأن هناك الكثير من الناس يصدقون هذه الحجة الباطلة فسوف ننقل رد المؤلفين على هذا الزعم الباطل ، فقد كتبا تحت عنوان "إسرائيليون ملائكة في مواجهة عرب شياطين" :

"تأتي الحجة الأخلاقية لتصور إسرائيل بلداً دائم الحرص على التماس السلام عند كل المنعطفات ، وعلى إبداء قدر كبير من ضبط النفس حتى عند التعرض للاستفزاز، أما العرب فيزعم أنهم ظلوا يتصرفون بكثير من الخبث والمكر، وهذه الرواية – وهي رواية لا يكف قادة إسرائيليون وتبريريون أمريكيون من أمثال آلان ديرشوفيتز عن ترديدها اللانهائي- ليست إلا أسطورة أخرى، إن تصرفات إسرائيل على صعيد السلوك الفعلي ليست قابلة للتمييز أخلاقيّاً عن تصرفات خصومها، تبين الدراسات البحثية الإسرائيلية أن أوائل الصهاينة لم يكونوا قط كرماء مع عرب فلسطين، لا شك أن الأهالي العرب قاوموا اجتياح الصهاينة لوطنهم ، ولا غرابة لأن الأخيرين كانوا يسعون إلى خلق دولتهم الخاصة فوق أراض عربية ، كان رد فعل الصهاينة قويّاً ، وما من طرف يحتكر الموقف الأخلاقي المتفوق خلال هذه الفترة، وهذه الدراسات البحثية نفسها تكشف أيضاً عن حقيقة أن إيجاد إسرائيل في ٤٧ / ١٩٤٨ انطوى على سلسلة من أعمال التطهير العرقي بما فيها كثرة من الإعدامات، المذابح ، وعمليات الاغتصاب من جانب اليهود، علاوة على ذلك، كثيراً ما كان سلوك إسرائيل اللاحق مع خصومها العرب و مواطنيها الفلسطينيين وحشيّاً داحضاً أي ادعاءات للتفوق الأخلاقي ، فخلال الفترة الممتدة بين ١٩٤٩ و ١٩٥٦ مثلاً أقدمت قوات الأمن الإسرائيلية على قتل ٢٧٠٠ إلى ٥٠٠٠ متسلل عربي أعزل في الغالب --- أقدم جيش الدفاع الإسرائيلي أيضاً على اغتيال المئات من أسرى الحرب المصريين في حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ كلتيهما ، وقد قام في ١٩٦٧ بطرد ١٠٠ ألف إلى ٢٦٠ ألف فلسطيني من الضفة الغربية المحتلة حديثاً، وبإبعاد ٨٠ ألف سوري من مرتفعات الجولان "[١]

هذه رواية المؤلفين الأمريكيين للأحداث، لكننا نضيف ما لم يكتب في كتب العالم الحر عن تلك الوقائع من المصادر الرسمية المصرية ، ومن روايات شهود العيان من الجنود المصريين الذين هربوا من المجازر، فقد كان عدد الأسرى المصريين الذين تم إعدامهم يعد بالآلاف أجبر بعضهم على حفر قبور جماعية ثم جردوا من ثيابهم و أعدموا ودفنوا في تلك المقابر الجماعية لإخفاء الجريمة، لكن الأبشع من ذلك هو صف أعداد كبيرة منهم في صفوف طويلة وهم معصوبو الأعين ومكبلو الأيدي و الأرجل وهم منبطحون على الأرض ووجوههم إلى الأسفل ، ثم قيام الدبابات بالسير فوقهم لتسويهم بالأرض ولتحول أجسادهم إلى صور مطبوعة على الأرض لأجسام بشرية مقسمة بخطوط جنازير الدبابات،

(ونذكر هنا بما فعله المسلمون بأسراهم في غزوة بدر حين أوصاهم رسول الله ﷺ بالأسرى خيراً فأعطوهم طعامهم و باتوا جائعين ، و بأسراهم في حنين الذين كانوا ستة آلاف أسير عفا

[١] - المرجع نفسه صفحة ٤٥ – ٤٨ (بتصرف)

عنهم جميعاً رسول الله ﷺ برغم أن منهم من كان قد فر من المواجهات في مكة منذ أقل من أسبوعين وعاد ليقاتل المسلمين) ، لكن كيف نشرح الفارق الشاسع بين الأمة المتصلة بخالق الكون ، و بين الأمة التي تحارب هذا الخالق و أنبياءه منذ ثلاثة آلاف عام ؟

و نعود إلى كتاب د: جون ميرشايمر و د: ستيفن والت لنستكمل صورة التميز الأخلاقي المزعوم لإسرائيل حيث كتبا يقولان :

"كذلك كان جيش الدفاع الإسرائيلي متواطئاً في عملية ذبح ٧٠٠ فلسطيني بريء في مخيمات صبرا و شاتيلا للاجئين غداة غزو لبنان في ١٩٨٢، وقد وجدت لجنة تحقيق إسرائيلية أن وزير الدفاع آنذاك شارون كان مسئولاً شخصيّاً عن هذه الفظاعات، ثمة عناصر إسرائيلية اقترفت جريمة تعذيب العديد من السجناء الفلسطينيين ، كما أذلت وأهانت مدنيين فلسطينيين على نحو منهجي ، واستخدمت القوة ضدهم دون تمييز في العديد من المناسبات ، خلال الانتفاضة الأولى (١٩٨٧ – ١٩٩١) مثلاً قام جيش الدفاع الإسرائيلي بتوزيع الهراوات على أفراده وشجعهم على تكسير عظام المحتجين الفلسطينيين، فمنظمة (أنقذوا الأطفال) السويدية قدرت أن ٢٣٦٠٠ إلى ٢٩٩٠٠ طفل باتوا بحاجة إلى معالجة طبية جراء تعرضهم للضرب في السنتين الأوليين من الانتفاضة ، مع بقاء نحو ثلث العدد معانياً من كسور عظمية دائمة ، وما يقرب من ثلث ضحايا الضرب من الأطفال كانوا في العاشرة أو دونها من العمر"

ويكمل المؤلفان: " إن رد فعل إسرائيل على الانتفاضة الثانية (٢٠٠٠ – ٢٠٠٥) كان حتى أكثر قسوة ، مما دفع جريدة هآرتس إلى القول : إن جيش الدفاع الإسرائيلي دأب على التحول إلى آلة قتل تتمثل كفاءته بإثارة الرهبة، ولكنها صادمة، أطلق جيش الدفاع الإسرائيلي مليون طلقة في الأيام الأولى من الانتفاضة ، في رد بعيد عن التحلي بالحصافة، كذلك أقدمت القوات الإسرائيلية على قتل عدد غير قليل من نشطاء حركة السلام الأجانب بمن فيهم امرأة أمريكية في الثالثة والعشرين من عمرها **سحقها بلدوزر إسرائيلي** في آذار / مارس ٢٠٠٣" [١]

وهنا يجب أن نتوقف عند هذا المشهد البشع، فالحقيقة لا تستطيع العقول أن تستوعب طبيعة هؤلاء الذين يتكون منهم مجتمع "جزيرة الديمقراطية" هذه، نحن لا نتصور كيف يستطيع سائق بلدوزر أن يسحق امرأة أمريكية مسالمة وقفت أمامه لتمنعه من التقدم لهدم بيت من بيوت الفلسطينيين ظناً منها أن هذا السائق ينتمي إلى البشر و أنه سيتوقف في اللحظة الأخيرة، لكنه لم يتوقف لأن قلبه لم يكن يختلف عن قلب الشاب اليهودي الذي طعن السائق الفلسطيني بأربع وعشرين طعنه ثم قال (كان الأمر أشبه بطعن حيوان)، هذا يكشف الطبيعة البشعة لهؤلاء الناس الذين يتمتعون بأخلاق روح العصر الحديث التي ذكرها مؤلف كتاب وهم الإله

و يكمل المؤلفان الأمريكيان: "هذه الحقائق عن سلوك إسرائيل توثقت بكثافة لدى العديد من منظمات حقوق الإنسان – بما فيها جماعات إسرائيلية مرموقة – ولا يجادل بشأنها أي مراقب منصف، ذلك هو السبب الذي دفع أربعة من موظفي الشين بيت (جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي) السابق إلى شجب تصرف إسرائيل خلال الانتفاضة الثانية في تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٣ وقد أعلن أحدهم : (إننا نتصرف على نحو مشين) و قام آخر بوصف سلوك

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ٤٩ - ٥١

إسرائيل بأنه (لا أخلاقي دون لبس) ، أليست إسرائيل مخولة بفعل كل ما يلزم لحماية مواطنيها؟ ألا يفيد شر الإرهاب الفريد في تسويغ الدعم الأمريكي المستمر حتى حين تأتي ردود إسرائيل قاسية في الغالب ؟ ، في الحقيقة ليست هذه الذريعة هي الأخرى تسويغاً أخلاقيّاً ملزماً ومقنعاً، فالفلسطينيون لم يلوذوا بالإرهاب إلا من أجل محاربة محتليهم الإسرائيليين ، ويبقى استعدادهم لمهاجمة المدنيين الأبرياء خطأ، غير أن مثل هذا التصرف لأن الفلسطينيين يؤمنون بأن ليس لديهم أي أسلوب آخر لانتزاع تنازلات إسرائيلية، سبق لرئيس الوزراء السابق باراك أن أقر بأنه كان (من شأنه أن يلتحق بإحدى المنظمات الإرهابية لو ولد فلسطينياً)

أخيراً – والكلام ما زال للمؤلفين الأمريكيين - علينا ألا ننسى أن الصهاينة عمدوا إلى استخدام الإرهاب عندما كانوا في موقف ضعيف مماثل وكانوا يحاولون الحصول على دولتهم الخاصة، فبين عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٧ أقدمت منظمات صهيونية عديدة على القيام بتفجيرات إرهابية لطرد البريطانيين من فلسطين ، وعلى قتل العديد من الأبرياء على الطريق ، كذلك اقترف إرهابيون إسرائيليون جريمة اغتيال الوسيط الدولي الكونت فولكه بيرنادوت في ١٩٤٨ لمعارضتهم اقتراحه القاضي بتدويل القدس، إذا كان لجوء الفلسطينيين لاستخدام الإرهاب جديراً بالشجب اليوم فإن تعويل إسرائيل عليه في الماضي لم يكن مختلفاً ، مما يبقي المرء عاجزاً عن تسويغ دعم الولايات المتحدة لإسرائيل من منطلق أن سلوكها السابق كان متفوقاً أخلاقيّاً"[1]

والآن : وبعد ما نقلنا من كلام الكتاب الإسرائيليين و الكتاب الأمريكيين عن العدد الهائل من الجرائم البشعة التي ارتكبت ضد الشعب الفلسطيني صاحب الحق الأصيل في أرض فلسطين ، وبعد أن توثق الانهيار الأخلاقي المريع للمحتل من جهة ولمن عاونه على جرائمه وما زال يعاونه من جهة أخرى، هل يمكننا أن نقارن هذا الانهيار الأخلاقي بما ذكره د: ريتشارد داوكنز عن عنصرية هاكسلي و لينكولن؟

لقد قال د ريتشارد أن هاكسلي و لينكولن لو عاشا في زماننا لكانا أول من يشجب التمييز العنصري، وأن روح العصر سارت إلى الأمام وارتقت بالبشر حتى أصبحنا متمتعين بأخلاق روح العصر التي تنبذ العنصرية و التمييز على أساس اللون والعرق

لكن : ما رأي د ريتشارد في العنصرية الإسرائيلية والتطهير العرقي ضد الفلسطينيين اللذين يدافع عنهما الآن بكل قوة كل قادة وزعماء ومفكري العالم الحر ؟

هذا ما نحاول توضيحه ، إن أخلاق روح العصر برغم تحركها للأمام في منطقة غرب أوروبا والأميركتين إلا أنها تحركت فقط من أجل العمل داخل حدود العالم الحر، لكنها بالنسبة لبقية سكان العالم لم تبرح مكانها منذ العصر الجليدي الأول، فالعالم الحر لا يمانع على الإطلاق في أن تمارس أقسى درجات العنصرية في فلسطين لأنه يعتقد أن اليهود أقرب إليه من العرب، لذلك فلتذهب الحرية و الديمقراطية وحقوق الإنسان و لتذهب كذلك المعاهدات والقوانين الدولية بكل ما فيها من بنود رائعة إلى الجحيم وليستمر اليهود في عنصريتهم و قتلهم و هدمهم للمنازل و طردهم للأبرياء من البيوت والمزارع ما دام ذلك يأتي على هوى العالم الحر، هل هذه هي أخلاق روح العصر التي يقصدها مؤلف كتاب وهم الإله ؟

---

[1] - المرجع نفسه صفحة ٥٢ - ٥٥

هل الإلحاد هو الحل ؟

الفكرة التي جاءت في كتاب وهم الإله تقضي بأن الصراع في فلسطين سببه الدين، وبالتالي فلو تخيلنا عالماً بدون دين فإن هذا الصراع و كثيراً من الصراعات غيره سوف تنتهي من تلقاء نفسها، وعليه يكون الحل لإنهاء هذا الصراع هو الإلحاد الذي سيتخلى بموجبه كلا الطرفين عن التمسك بموقفه وبالتالي ستحل المشكلة من جذورها

وهذه فكرة سطحية جدّاً بسبب تحليل جذور المشكلة تحليلاً خاطئاً

لأن تفسير السطو على أرض فلسطين من قبل اليهود و التطهير العرقي للسكان الأصليين ثم التفرقة العنصرية القاسية التي حدثت بعد ذلك وما زالت تحدث ، بأن كل ذلك كان بدافع الدين هو خطأ جسيم من وجهين :

الأول : هو أن ما حدث ليس بسبب الدين و إنما بسبب تحريف الدين ، و لكي تكون العبارة صحيحة فعلينا إضافة كلمة واحدة في آخرها ، لتصبح العبارة الصحيحة (إن ما حدث هناك وما زال يحدث هو بسبب الدين المحرف) لأن التوراة الحقيقية التي أنزلها الله عز وجل على رسوله موسى عليه السلام **خالية تماماً من أي أمر يحث اليهود على العودة إلى أرض فلسطين واحتلالها وطرد أهلها منها بالقوة** ، كما أنها خالية تماماً من جميع ما ورد من نصوص عنصرية ظاهرة البطلان و اللا منطقية و لا يستطيع العقل البشري تصديقها ولا إبداء أي قدر من الاحترام لقائليها ولا لمصدقيها ،

فرجال الدين اليهودي لا يكفون عن ترديد كل النصوص المزورة التي أدخلت في العهد القديم ، لكي تدعم حقهم في طرد سبعة شعوب من أمام شعب إسرائيل وحقهم في إحراقهم و الاستيلاء على كل ممتلكاتهم، استناداً إلى أنهم شعب الله المختار، و أن جد الفلسطينيين من أبناء نوح باء باللعنة لأنه رأى حين كان طفلاً، عورة أبيه ، وبالتالي حق لابنه الثاني وهو جد الإسرائيليين أن يستولي على كل ممتلكاته و أن يتخذه عبداً له هو ونسله إلى الأبد[١]، وأن نسل الابن الثاني أصبح لهم الحق في الاستيلاء بالقوة على كل شبر من الأرض تطؤه أقدامهم ، كل هذه الخرافات التي لا يرددها إلا **المجانين** بالإضافة إلى خرافة مذبحة أريحا ونتائجها هي ما يرددها رجال الدين اليهودي على مسامع الشعب الذي ينتشي بسماعها فيتحول إلى شعب من العصر الحجري يفرح برؤية الدماء و الحرائق والدمار الذي يصب على رؤوس الأبرياء ليل نهار، برغم أنهم يعلمون أنها نصوص لا يصدقها ولا يحترمها عقل متزن سوي

والواقع أن كل هؤلاء الذين يصدقون هذه الخرافات ويرتكبون بموجبها الجرائم البشعة ضد أصحاب الحق الأصليين ينطبق عليهم المثال الذي ذكرناه في مقدمة هذا الكتاب عندما تحدثنا عن الرجل صاحب الخزينة التي بها عشرة ملايين دولار، و كل النصوص غير العقلانية و غير الأخلاقية في كتابهم المقدس تشبه الورقة التي تحتوي على كلمات إحدى الأغنيات لمطرب مشهور، لكن لأن هذه الخرافات تمنحهم الحق في اغتصاب أراضي و أموال وممتلكات الآخرين فلا بأس من التظاهر بأنهم من المؤمنين بها حتى لو كانوا في قرارة أنفسهم متيقنين من كذبها و من تصادمها مع العقل والمنطق بنسبة مائة بالمائة

[١] - سفر التكوين، الترجمة العربية المشتركة، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، الإصدار الثاني ١٩٩٥ ط ٤، ص ١١

إن مسؤولية الدين عن كل الجرائم البشعة التي ترتكب باسمه على أيدي الإرهابيين سواء كانوا إرهابيين منتظمين في شكل دولة وحكومة و برلمان ، أو كانوا إرهابيين على شكل تنظيمات صغيرة تظهر وتختفي هنا وهناك ، تشبه تماماً مسؤولية دارون عن المحرقة وعن أفران الغاز التي أحرق فيها النازيون كل خصومهم

الثاني : أن وضع الدين اليهودي في الواجهة من جانب مؤسسي الصهيونية الأوائل كان فقط وسيلة لتجميع كل يهود العالم في مكان واحد لتأسيس الدولة اليهودية، و بدون الدين المحرف لم يكن من المستطاع تحقيق حلم هذه الدولة في أي مكان آخر من العالم ، وقد تحدث بعضهم عن بدائل أخرى غير فلسطين مثل أمريكا و استراليا وشبه جزيرة القرم، لكن كل هذه البدائل لم تكن قادرة على جذب مشاعر اليهود في كل أقطار العالم لكي يتركوا بلادهم و أملاكهم و يهاجروا إلى مكان آخر لا صلة لهم به وبخاصة في الفترة التي لم تكن الأفكار النازية قد ظهرت فيها

والدليل على ذلك أن الصهيونيين الأوائل الذين كان لهم الدور الأكبر في مشروع إقامة الوطن القومي اليهودي كانوا علمانيين ، بل تذكر المصادر اليهودية أن منهم من كان ملحداً، فعلى موقع "الحوار المتمدن" نشرت مقالة للكاتب اليهودي أوري أفنيري بعنوان "حرب بين الأديان" في ٢٠٠٦/٢/٢٢م جاء فيها ما يلي :

"كانت الحركة الصهيونية، منذ بدايتها، حركة غير متدينة وحتى أنها **كانت معادية للدين**. كان كل الآباء المؤسسين تقريبا **ملحدين** معلنين. اقترح بنيامين زئيف هرتسل، في كتابه "دولة اليهود"، أن يتم حصر الحاخامين في الكنس (والضباط في القواعد العسكرية) كان حاييم فايتسمان علمانيّاً لا إله له، و كان زئيف جابوطينسكي قد طلب في وصيته أن تحرق جثته ، وهذا الأمر ممنوع بشكل قاطع في الدين اليهودي ، أما دافيد بن غوريون فكان يرفض اعتمار الكيبا حتى في الجنازات ، إضافة إلى ذلك: كل كبار حاخامي التوراة في أيام هرتسل ، المؤيدين و "المعارضين" على حد سواء ، عارضوه بشدة وكالوا له الشتائم. لقد أنكروا فرضية الحركة الصهيونية الأساسية : بأن اليهودية هي قومية، بالمفهوم الأوروبي، وأصروا على أن اليهود هم شعب مقدس ، وأن تنفيذ الوصايا فقط هو ما يوحده
الأنكى من ذلك، أن الحاخامين رأوا بمجرد فكرة الصهيونية خطيئة لا تغتفر. فرض الله سبحانه وتعالى على الشعب اليهودي الجلاء، عقابا على خطاياهم. لذلك، الله سبحانه وتعالى مخوّل فقط بإبطال هذا العقاب وإرسال المسيح المنتظر ليعيد اليهود إلى أرض إسرائيل. حتى ذلك الحين، فُرض منع تام على "العودة". لذلك، إذا قدموا إلى البلاد أفواجاً أفواجاً فسيتمرد الصهاينة على الله سبحانه وتعالى وسيؤجلون – لا قدّر الله – مجيء المسيح المنتظر"[1]

فطبقاً لتصريح هذا الكاتب اليهودي : فإن مشروع دولة إسرائيل منذ البداية أسسه و رعاه ملحدون من أصول يهودية، وهم بالطبع لم يؤسسوا مشروعاً دينيّاً لأنهم لا يدينون بأي دين ولكنهم أسسوا مشروعاً استعماريّاً يهدف إلى تأسيس دولة لليهود أيّاً كانت معتقداتهم الحقيقية على أرض خاصة بهم وحدهم لا يشاركهم فيها أحد، وقد كانت المذابح التي تعرضوا لها في

[1] - أوري أفنيري ، (حرب بين الأديان) ، موقع "الحوار المتمدن" (www.m.ahewar.org/s.asp?aid=57900&r=0) ،

روسيا القيصرية عام ١٨٨١ و التضييق الذي تعرضوا له في غيرها من البلدان هو الدافع الذي جعل هؤلاء العلمانيين و الملحدين الصهاينة يعملون جاهدين على تحقيق هذا الحلم

هذه الحقيقة التي نطق بها الكاتب أوري أفنيري تهدم كل نظريات فلاسفة الإلحاد التي تصور أن الصراع في فلسطين سببه الدين، و أنه باختفاء الدين ستنتهي المشكلة من تلقاء نفسها، فالحقيقة أن الدين لم يكن حاضراً في رؤوس اللصوص الأوائل الذين خططوا للسطو المسلح على بلاد لا حق لهم فيها ، بغرض سرقة أراضي و بيوت و حقول وبساتين وممتلكات شعب آخر مسالم وغافل عما يحاك له في الخفاء، لكن الدين المزور جاء في الخطوة التالية ليقود الغوغاء نحو تحقيق الحلم على جثث الضحايا ويعدهم بالجنة الموعودة على تلك الأرض

وإذا تركنا الصهيونيين المؤسسين جانباً، فهل كان الدين هو الدافع الذي دفع كل القادة المجتمعين في عصبة الأمم عام ١٩٢٣ ليصدروا قرارهم بوضع فلسطين تحت الانتداب و يجعلوا نص وعد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود هو أهم واجبات أي حكومة انتداب تتولى حكم فلسطين بدلاً من النص الطبيعي الذي أنشئت لأجله عصبة الأمم ذاتها بضمان حق كل الشعوب ومنهم الشعب الفلسطيني في تقرير المصير؟

وهل كان الدين هو الدافع لكي تقوم عصبة الأمم هذه باختيار بريطانيا صاحبة الوعد الجائر بأن تكون هي دولة الانتداب ؟ ثم تقوم بريطانيا في ثالث فصول الجريمة بتعيين رجل يهودي صهيوني ليكون هو المندوب السامي لبريطانيا على فلسطين لكي ينفذ بأقصى ما يستطيع من جهد و باستخدام كل ما يملك من قوة عسكرية كل أطماع الصهاينة في الأرض التي من المفروض أن تحميها بريطانيا وتمنحها حق تقرير المصير؟

وهل كان الدين هو الدافع لكل الذين اجتمعوا في الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ وصوتوا بأغلبية مطلقة لمصلحة تقسيم فلسطين وتشريد شعبها ؟

وهل الدين هو الدافع الآن لقيام كل دول العالم الحر وقادته وفلاسفته ومفكريه بدعم الجاني دعماً مطلقاً في جميع جرائمه برغم أن أغلب هؤلاء القادة و المفكرين يتفاخرون بأنهم ملحدون أو لا دينيون ؟

من جهة أخرى و على مستوى اليهود الحاليين ، فإن النسبة الأكبر من اليهود في العالم بمن فيهم يهود إسرائيل ملحدون ، كما أن اليهود الذين استقدموا إلى فلسطين من البلاد الشيوعية يمثلون نسبة كبيرة داخل المجتمع الإسرائيلي وهم بالطبع لا يدينون بأي دين ولا يؤمنون بوجود موسى ولا رب موسى من الأساس

هل يريد فلاسفة الإلحاد أدلة أكثر على أن الصراع ليس دينياً و أن الإلحاد لن يحل المشكلة ؟
حسناً : دعونا نسأل السؤال التالي : إذا افترضنا أن الفلسطينيين أعلنوا جميعاً أنهم تحولوا إلى الإلحاد فهل يقبل منهم الملحدون اليهود هذا الموقف ويعتبرونهم إخوة في العقيدة و يتركون لهم أرضهم ويعودون من حيث أتوا ؟

و السؤال الأهم والأوضح من ذلك هو :

لو أعلن الفلسطينيون جميعاً أنهم آمنوا بالدين اليهودي و تركوا الإسلام والمسيحية فهل سيترك لهم اليهود المحتلون أرضهم ويرحلون ؟ أو على الأقل هل سيسمحون لهم حتى بمشاركتهم في الأرض ويعطونهم حق المواطنة والمساواة و يلغون كل القوانين العنصرية التي لا يوجد لها مثيل في أي دولة من دول العالم ؟

بالطبع لن يحدث أي من الأمرين لأن الخيار الوحيد الذي يطرحه اليهود المحتلون لهؤلاء السكان الأصليين هو الرحيل فقط فإن رفضوا فليس لهم إلا الموت بأبشع الطرق و بأشد الأسلحة فتكاً في العالم ،

لا يستطيع أحد على وجه الأرض أن يعارضنا في ذلك ، فالقضية إذن هي قضية احتلال قاسٍ مثل احتلال فرنسا للجزائر وتونس والمغرب، و مثل احتلال بريطانيا للهند ولنصف دول العالم في القرنين الماضيين، وغيرها من صور الاحتلال الظالم الذي زال مع مرور الزمن و أصبح من الماضي، وسوف يلاقي هذا الاحتلال الجديد المصير نفسه بلا أدنى شك مهما بدا غير ذلك

من كل ما سبق نستطيع أن نصل إلى النتيجة التي لا مفر من الإقرار بصحتها لأي إنسان عاقل، وهي أن أخلاق روح العصر الحديث **سقطت سقوطاً مروعاً هناك على أرض فلسطين** ، و أن العنصرية التي تمارس حتى الآن على هذه البقعة من الأرض بدعم كامل من كل من دول العالم الحر أكبر بكثير من العنصرية التي ظهرت في تصريح هاكسلي و لينكولن ، و أن العالم الحر قد أعطى الدليل العملي على أن أخلاق روح العصر ما زال أمامها الكثير لكي تلحق بالارتقاء الأخلاقي الذي جاء به وحي السماء

ثانياً : معاملة المرأة

حين تتفتح الأزهار في أوائل أيام فصل الربيع و تذهب جموع البشر إلى الحدائق للتمتع برائحة الورود الجميلة و مناظرها الرائعة ، ينقسم الناس إلى نوعين من حيث ردود أفعالهم تجاه هذا الجمال الرائع :

النوع الأول : وهو النوع الأكثر ارتقاءً ، يرى في هذه الورود الرقيقة كائنات حية فائقة الجمال ، تحتاج لكي تظل تفوح بعبيرها إلى كل ما يحتاج إليه الإنسان من ماء و غذاء وهواء نقي و شمس ساطعة و رعاية دائمة ، لذلك فإن هذا النوع من البشر سيجد سعادته الغامرة في الحفاظ على أن تبقى هذه الوردة على قيد الحياة ، و أن يوفر لها ما يضمن لها ذلك بقدر ما يستطيع برغم أن ذلك ربما يجعله لا يتمتع برائحتها الجميلة ومنظرها البديع إلا لدقائق قليلة هي فترة وجوده في الحديقة فقط ،

والنوع الثاني : هو نوع أناني ، لا يرى إلا نفسه فقط ، فبمجرد أن يشم الرائحة الجميلة و يرى الصورة الرائعة للوردة المتفتحة ، يسارع على الفور بقطفها و الاستيلاء عليها لكي يتمتع بها وحده، وهو لا يدري أنه نفذ في هذا المخلوق الرقيق الرائع حكم الإعدام بكل قسوة ، إنه لا يرى

في هذا الكائن الحي الرقيق سوى وسيلة للمتعة الشخصية فقط ، إنه لا يعبأ لا بحياتها ولا بموتها ، فبعد دقائق قليلة سيذبل هذا الجمال الرائع في يده ويحتضر أمام عينيه ويموت في صمت دون أن تحدثه نفسه بأنه قاتل أناني لا قلب له

المرأة مثل الوردة المتفتحة تماماً ، كائن حي رقيق مستقل بذاته ، له متطلبات إنسانية راقية ، وهي متطلبات مرتبطة بذاتها كإنسان وليست متطلبات تجميلية ثانوية تجعلها جميلة في أعين الرجال

والمجتمعات الإنسانية الحالية تنقسم إلى النوعين المذكورين أنفسهما، فالمجتمعات التي تتحرر من كل القيود الأخلاقية لا ترى في المرأة إلا وسيلة للمتعة الشخصية أو للاستفادة المادية من جمالها بأقصى قدر ممكن ، لذلك تدفعها إلى أن تظل دائماً في الصورة التي يحبها الرجال ، لا الصورة التي تحبها هي لنفسها أو التي تحتاجها هي كإنسان ، والنتيجة أن المرأة في تلك المجتمعات ضحت بحريتها و أصبحت لا تفعل إلا ما يمليه عليها الرجال حتى في أدق خصائصها الجسدية ، لذلك تحتل مجلات الموضة والجمال في مكتبة المرأة في تلك المجتمعات مساحات تقترب من المائة بالمائة

هذه المرأة في الحقيقة لا تعيش لنفسها و إنما للرجال الذين يحيطون بها ، إنها لا تعرف الفارق بين متطلباتها كإنسان وبين متطلباتها كزهرة في حديقة يتسابق الرجال على قطفها للتمتع بها وللاستفادة المادية من جمالها في الفترة القصيرة التي تستطيع أن تفوح خلالها بالعبير ، لكنهم سوف يلقون بها بعد فترة قصيرة حين تبدأ في الذبول لأنهم ببساطة سوف يذهبون لقطف زهرة جديدة للتمتع بها أو للاستفادة المادية من جمالها

لقد خلق الله عز وجل المرأة بصورتها الجميلة والرقيقة ليؤدي هذا الجمال دوراً هامّاً لها هي وليس للرجال الذين لا يرون فيها إلا وسيلة للمتعة الشخصية أو كنزاً لجلب المال

إن أهم ما تحتاجه المرأة كإنسان بعد الطعام الذي لا حياة لها بدونه هو العاطفة، بمعنى أن المرأة تحتاج إلى من يحبها لذاتها وليس لجمال جسدها الذي سوف يزول بمرور الزمن

لقد جاء الإسلام لكي يؤمن لهذه المرأة كلا الأمرين معاً ، فأعطاها الأمان المادي والأمان العاطفي مدى الحياة، فمن حيث الأمان المادي فقد جعل نفقاتها الشخصية كلها من طعام وشراب و مسكن و تعليم و صحة وحتى ترفيه في رقبة رجل منذ اللحظة الأولى التي تخرج فيها إلى الدنيا وحتى آخر نفس لها فيها، فمنذ أن تولد إلى أن تتزوج يكون هذا الرجل هو أباها – أو أخاها في حالة وفاة الأب - ثم يتحمل كل ذلك الزوج إذا وفقت للزواج أو يظل الأب قائماً بمسؤوليته هذه حتى نهاية عمرها أو عمره إذا لم توفق في الحصول على زوج، و حذر الإسلام كلا الرجلين بأنه لن يشم رائحة الجنة إن هو قصر في شيء من ذلك ، أو إن جاءت يوم القيامة وقد ظلمها أحدهما ولو بظلم يسير

ومن حيث الأمان العاطفي فقد أمر الرجل الذي يريد الحصول على هذه المرأة بأن يتزوجها زواجاً ينوي به الارتباط بها مدى الحياة ، ولا يحق له فك هذا الارتباط بالطلاق إلا لعذر مقبول شرعاً مثل وجود عيب فيها يمنع من دوام العشرة الحسنة وسمح بهذا في أضيق الحدود وجعله (أبغض الحلال إلى الله) ، لكنه من جانب آخر أعطاها الحق إن هي كرهت هذا الزوج و أرادت

مفارقته أن تذهب إلى المحكمة و تطلب تطليقها لمجرد أنها لا تحبه ، و سوف تطلب منها المحكمة رد المهر الذي دفعه لها زوجها إليه ثم تأمر الزوج بتطليقها لأن الإسلام لا يبيح إكراه المرأة على البقاء مع رجل تكرهه ، وقد حدث ذلك على عهد رسول الله محمد ﷺ حين جاءته امرأة ثابت بن قيس – أحد الصحابة الأتقياء الكرام – "وقالت : يا رسول الله : ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام ، فقال لها : أتردين عليه حديقته ؟ قالت نعم ، فقال رسول الله ﷺ له: إقبل الحديقة وطلقها تطليقة"[١] ، وفي رواية أخرى للحديث أنها قالت : "لا أعتب عليه في دين ولا خلق و لكني لا أطيقه"

وهنا يجب أن نشير إلى أن طلب الطلاق في ذلك العصر كان سيجلب على تلك المرأة عقوبة الموت حرقاً لو أنها كانت تعيش خارج حدود الدولة المسلمة ، كما كان يحدث في الصين والهند ودول شرق أوروبا حتى وقت قريب ، كما يجب أن نؤكد أن هذه المرأة أثنت على زوجها بأنها لا تعيب عليه خلقاً ولا ديناً، لكنها لا تحب العيش معه لأنها لا تطيقه ، وقد وافقها رسول الله ﷺ على موقفها و أمر زوجها بتطليقها بعد رد الحديقة التي كان قد أعطاها مهراً لها، و أصبح ذلك تشريعاً لكل الأمة المسلمة ، كما يجب أن نشير إلى أن هذه الحرية في اختيار الزوج وكذلك في الاستمرار في معاشرته لم تتحقق للمرأة في المجتمعات المسيحية حتى يومنا هذا إلا في دول العالم الحر التي اعتنقت المذهب البروتستانتي ، أما المرأة في كل المذاهب الأخرى فما زالت حتى يومنا هذا تعاني من السجن المسمى بالزواج الكاثوليكي – والأرثوذكسي – في حالة تعرضها لمشكلة الزواج من زوج قد تكون فيه بعض العيوب الخلقية أو الجسدية ، وبالطبع لو طلبت المرأة في تلك المجتمعات الطلاق لمجرد أنها لا تحب زوجها كما فعلت زوجة ثابت بن قيس فهي في عرف كل هؤلاء المسيحيين (امرأة زانية مستحقة للطرد من رحمة الرب) ، أليس هذا يثبت أن الإسلام سبق العالم كله – بما فيه العالم الحر - في معاملة المرأة كإنسان له كامل الحقوق وبفارق زمني يعد بالقرون وليس بالسنين ؟

و من حيث الأمان المادي يجب أن نشير إلى نقطة هامة : فهذا الأمان المادي الذي منحه الإسلام للمرأة طوال حياتها هو أكبر ضمان للحفاظ على كرامتها و إنسانيتها و حريتها واستقلاليتها ، ونستطيع أن ندرك ذلك عندما نرى المجتمعات غير المسلمة وهي تلزم الأب بالنفقة على أبنائه حتى بلوغ سن السادسة عشرة فقط ، و يصبح لزاماً على الفتاة في هذه السن الصغيرة أن تخرج إلى المجتمع بكل من فيه من بشر لا يعرف أغلبهم للشفقة ولا للقيم ولا للأخلاق سبيلاً ، وتصبح مثل حمل وديع تم إلقاؤه في واد مليء بالذئاب الشرسة الجائعة ، و بالتالي لا يمكنها في أغلب الأحيان الحصول على مصدر للرزق ولا على مأوى لائق ولا على المتطلبات الأخرى الهامة إلا إذا دفعت ثمن ذلك من جسدها الذي لا تملك غيره ، وتضطر إلى التنازل عن كثير من كرامتها بنسب تقل أو تكثر بحسب الضرورة التي تضغط عليها للحصول على مصدر للرزق أو على بعض هذه المتطلبات ، وحتى إن ساعدها الحظ وحصلت على وظيفة جيدة في مكان راق ففي كل يوم يطلب منها تقديم التنازلات حتى يمكنها الاحتفاظ بوضعها المميز وإلا فهناك الكثيرات غيرها مستعدات لتقديم التنازلات المطلوبة و المتشوقات للحلول محلها، ومن المؤكد أن أغلب الفتيات في هذه السن الصغيرة ما كانت لتوافق على تقديم عشر هذه التنازلات لو كانت تحظى بالأمان المادي الذي تحظى به المرأة المسلمة التي فرض

[١] - فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار الفكر ، الحديث رقم ٥٢٧٣

الإسلام على أبيها وعلى أخيها وعلى زوجها توفير جميع احتياجاتها – دون أن يمنعها من العمل إذا وجدت الوظيفة المناسبة - بل جعل تطبيق هذا الفرض معياراً لخيرية الرجل و لارتقائه الخلقي ، ولاستحقاقه الجنة يوم القيامة وذلك في قول رسول الله محمد ﷺ - كما في سنن الترمذي - **"خيركم خيركم لأهله"**[١]

و سوف نرى في السطور التالية كيف اهتم الإسلام بالمرأة كمخلوق راقٍ مساوٍ للرجل في الحقوق والواجبات ، وكيف حمى متطلباتها الذاتية كإنسان له مشاعر و أحاسيس و صفات خاصة ، بل كيف انحاز لها و ميزها على الرجل في كثير من الأحيان بينما استغلت المجتمعات الأخرى هذه المرأة أسوأ استغلال ماديّاً وعاطفيّاً وجسديّاً لتحقيق المكاسب و الأرباح و إشباع النزوات دون النظر إلى متطلباتها الذاتية كإنسان

<u>الإسلام و حماية المرأة</u>:

لقد بدأ الإسلام منذ اللحظة الأولى في تغيير المفاهيم السلبية التي كانت متأصلة في عقول الناس عامة و في عقول العرب خاصة عن المرأة ، و لقد برأ القرآن الكريم المرأة من أول تهمة لأول امرأة ظهرت في الوجود - حواء عليها السلام - وهي تهمة مسؤوليتها عن إغواء آدم بالمعصية و إخراجه من الجنة ، تلك التهمة التي ألصقت بها صفة الخبث والقذارة وجعلتها في عيون كل المجتمعات البشرية منبعاً للشر و مصدراً للرذيلة كما جعلتها المسئول المباشر عن كل ما يلاقيه البشر من صنوف العناء و المشقة على الأرض بسبب أنها كانت سبباً في إخراجنا من الجنة

فقد اتهمها الكتاب المقدس بأنها هي التي أغوت آدم عليه السلام و دفعته إلى أول معصية بشرية وذلك في سفر التكوين (٣ : ٦) (ورأت المرأة أن الشجرة طيبة للمأكل وشهية للعين، وأنها باعثة للفهم، فأخذت من ثمرها وأكلت و أعطت زوجها أيضاً وكان معها فأكل)[٢] وعندما سأل الله آدم : هل أكلت من الشجرة ؟ أجاب كما في العهد القديم (تكوين ٣ : ١٢) في الصفحة نفسها : (المرأة التي أعطيتني لتكون معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت)

كما جاء في العهد القديم أيضاً في سفر الجامعة (٧ : ٢٦) (فوجدت أن المرأة أمرّ من الموت لأن قلبها مصيدة وشبكة ويداها قيود ، الصالح أمام الله ينجو منها)[٣]

ويقول د : جوستاف لوبون في كتاب "حضارة العرب" في الفصل الرابع :

" ولم يقتصر الإسلام على رفع شأن المرأة، بل نضيف إلى هذا **أنه أول دين فعل ذلك**، ويسهل إثبات هذا ببياننا أن جميع الأديان و الأمم التي جاءت قبل العرب أساءت إلى المرأة – كان الأغارقة على العموم يعدون النساء من المخلوقات المنحطة التي لا تنفع لغير دوام النسل وتدبير المنزل، فإذا وضعت المرأة ولداً دميماً قضوا عليها، ومن ذلك قول مسيو تروبلونغ :"كانت المرأة السيئة الحظ التي لا تضع في إسبارطة ولداً قويّاً صالحاً للجندية تقتل" وقال:"كانت المرأة الولود تؤخذ من زوجها بطريق العارية لتلد للوطن أولاداً من رجل آخر" ولم ينل حظوة من نساء الإغريق في دور ازدهار الحضارة اليونانية سوى بنات الهوى-- وكان جميع قدماء

---

[١] - سنن الترمذي ، دار الكتب العلمية ، الحديث رقم ٤٠٦٢

[٢] - العهد القديم ، الترجمة العربية المشتركة ، الطبعة نفسها ، صفحة ٤

[٣] - العهد القديم ، المرجع نفسه صفحة ٨٣٣

المشترعين يبدون مثل تلك القسوة على المرأة ، ومن ذلك قول شرائع الهندوس "ليس المصير المقدر والريح و الموت والجحيم والسم و الأفاعي و النار بأسوأ من المرأة "[١]

و على موقع (ملتقى أهل الحديث) نشر الدكتور محمد فكري الدراوي بتاريخ ٢٠١٠/١١/٦ مقالة بعنوان (صفحات من كتابي: (المرأة على مر العصور) الذي قام بطبعه المكتب المصري بالقاهرة عام ١٩٩٣) وقد جاء في هذه المقالة ما يلي :

"المرأة في الحضارة الهندية : وجاء في الكتب الهندية المقدسة (عندما خلق مانو النساء فرض عليهن حب الفراش و المقاعد و حب الزينة والشهوات الدنسة والغضب والتجرد من الشرف و سوء السلوك فالنساء دنسات كالباطل نفسه وهذه قاعدة ثابتة وطبيعة المرأة أن تغوي الرجل في هذه الحياة الدنيا)--- أما بوذا فكان يقول (خير للإنسان العاقل أن يقع بين فكي نمر مفترس أو تحت سيف الجلاد من أن يساكن المرأة)"[٢]

لكن الإسلام أنار الظلام الذي لف العالم منذ آلاف السنين و نفى عن المرأة كل صفات النجاسة و الحقارة ، و برأها من التهمة التي ألصقتها بها كل الشرائع الباطلة بأنها هي المسؤولة عن غواية الرجل وعن أول سقوط له حين أكل آدم من الشجرة ، حيث بين القرآن الكريم أن آدم عليه السلام هو المسئول عن الوقوع في الخطأ ، وذلك في قوله تعالى في سورة طه (١١٥): " **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً**" و في السورة نفسها (١٢١ - ١٢٢)" **وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**"

إن تبرئة القرآن الكريم للمرأة من تهمة إغواء آدم ومن أنها السبب المباشر في كل صور الشقاء الذي تعانيه البشرية كنتيجة لهذه المعصية كان في الحقيقة ثورة في مجال تغيير نظرة المجتمع للمرأة في ذلك الزمن البعيد ، و كان له أكبر الأثر في حماية المرأة المسلمة من كل صور الظلم و الاحتقار بل والعداء السافر الذي عانت منه المرأة في كل المجتمعات الأخرى حتى عهود قريبة ، فقد جاء في موقع (الإسلام سؤال وجواب) تحت عنوان (تسأل عن حقوق المرأة في الإسلام) ما يلي :

"ولا داعي لأن نذكر حال المرأة في مجتمع الإغريق أو الفرس أو اليهود ، لكن حتى المجتمعات النصرانية كان لها موقف سيئ مع المرأة ، فقد اجتمع اللاهوتيون في (مجمع ماكون) ليبحثوا هل المرأة جسد بحت أم جسد له روح ؟ وغلب على آرائهم أنها خلو من الروح الناجية ولا يستثنى من ذلك إلا مريم عليها السلام، وأصدر البرلمان الانجليزي قراراً في عصر هنري الثامن يحظر على المرأة أن تقرأ العهد الجديد لأنها تعتبر نجسة، والقانون الانجليزي حتى عام ١٨٠٥م كان يبيح للرجل أن يبيع زوجته ، وقد حدد الثمن بستة بنسات"[٣]

و بعد أن دافع الإسلام عن جنس المرأة وبرأها من تلك التهم الباطلة ، بدأ في وضع تشريعات صارمة توقف كل صور الظلم و البطش التي كان يمارسها الرجال ضدها و أحل محلها معاملة

---

[١] - د: جوستاف لوبون، (جضارة العرب) ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٦٩/١٧٧٠ صفحة ٤٠٥ و ٤٠٦

[٢] - موقع ملتقى أهل الحديث ، د: محمد فكري الدراوي، مقالة : صفحات من كتابي "المرأة على مر العصور" بتاريخ ٢٠١٠/١١/٦

[٣] - موقع "الإسلام سؤال وجواب (www.islamQA.com) ، رقم ٧٠٠٤٢ تسأل عن حقوق المرأة في الإسلام ، بتاريخ الاثنين ١٥ رجب ١٤٣٦ – ٤ مايو ٢٠١٥ ، المشرف العام الشيخ محمد صالح المنجد

كريمة **لم تصل إليها نساء أوروبا حتى في وقتنا الحالي** كما سنرى بعد قليل، وجاءت هذه التشريعات على النحو التالي:

حق الحياة:

حين بدأ نزول القرآن في مكة في القرن السابع الميلادي كان العرب ينظرون إلى البنت على أنها مصدر لجلب الفقر و العار لأهلها، لذلك كان بعضهم يقتلونها وأداً – أي كانوا يحفرون لها حفرة عميقة ثم يلقونها فيها وهي حية ثم يهيلون عليها التراب فتموت - قبل أن تصل إلى سن السادسة من عمرها، وفي هذا يروي الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي كان عنيفاً في الجاهلية قبل أن يعتنق الإسلام فيقول: "كان لي موقفان في الجاهلية كلما ذكرت أحدهما بكيت و كلما ذكرت الآخر ضحكت، فأما الأول فقد كانت لي بنت صغيرة ذهبت لوأدها و أثناء الحفر كانت كلما غطى التراب لحيتي تقوم فتنظفها لي وتزيل التراب منها، إلى أن انتهيت من الحفرة لكني لم أرحمها بل ألقيتها فيها وأهلت عليها التراب ، وأما الموقف الآخر فقد صنعت يوماً إلهاً من العجوى للتعبد وعندما شعرت بالجوع أكلته"

ويصف د: جوستاف لوبون في كتابه المشار إليه هذه الجريمة قائلاً :

(وكان الرجال قبل ظهور محمد يعدون منزلة النساء متوسطة بين الأنعام و الإنسان من بعض الوجوه ، أي أداة للاستيلاء والخدمة، وكانوا يعدون ولادة البنات مصيبة ، وشاعت عادة الوأد، وصار لا يجادل فيها كما لو كانت البنات جراءً يقذف بها في الماء)[١]

في هذه البيئة المتخلفة و القاسية بدأ نزول القرآن الكريم ، و لهؤلاء الناس الذين لا تهتز قلوبهم لقتل البنات وهن حيات وقف رسول الله محمد ﷺ يصدع بعبارات عظيمة من القرآن الكريم أوقفت القتل الآثم للبنات وحفظت لهن حياتهن وكرامتهن ، وذلك في قول الله تعالى :

"ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيراً" (الإسراء ٣١)

و في قوله سبحانه وتعالى :

" قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين" (سورة الأنعام ١٤٠)

ثم الوعيد الذي جاء في سورة التكوير في مشهد تصوير أهوال يوم تدمير النظام الشمسي و قيام الناس للحساب حيث قال الله تعالى **"وإذا الموءودة سئلت ☼ بأي ذنب قتلت"** سورة التكوير

و لنا هنا أن نتخيل إلى أي مدى غير رسول الإسلام الأحزان والمآتم التي كانت تنشر أجنحتها على بيت كل امرأة مسكينة عانت آلام الحمل تسعة أشهر وبمجرد خروج الجنين و ظهور النتيجة المأسوية بأنها أنثى ، إلى فرح و سعادة وترحيب من كل الأهل و الجيران بعد أن كانت قلوب النساء يعصرها الألم لعلمها بمصير ابنتها المشؤوم قبل ظهور الإسلام ، ويكفي لكي نلمس هذا التحول الرهيب أن نقرأ ما روت كتب السيرة أن من صور وأد البنات أنه كانت تحفر حفرة عميقة قبل موعد الولادة بأيام قليلة ثم يؤتى بالمرأة التي حان مخاضها ، وتنام على حافة

[١] - د : جوستاف لوبون ، المرجع نفسه ، صفحة ٤٠٢ و ٤٠٣

الحفرة ثم تتم عملية الولادة ، فإن كان الجنين أنثى ألقوه في الحفرة و أهالوا عليه التراب وعادت المسكينة إلى بيتها يقتلها الحزن والبكاء مع كل ما تعانيه من الألم ، أليست هذه ثورة حقيقية قلبت كل الموازين لمصلحة المرأة ليس فقط لمصلحة الطفلة المولودة ولكن أيضاً لمصلحة الأم التي كانت تقتل كمداً مرات عديدة بعدد مرات الحمل والولادة التي كانت ربما تحدث خمس مرات أو أكثر في حياتها ؟

الحقوق التي أوجبها الإسلام للمرأة :

١- حق التربية الكريمة و المعاملة الحسنة و عدم تفضيل الصبي عليها

لم يقف الأمر عند حد الحفاظ على الحياة فقط ، بل توجه الإسلام إلى القلوب - كعادته – ليغرس فيها حب البنت و النظر إليها بعين الحنان ، بدلاً من النظرة السائدة في ذلك الوقت المبنية على البغض و التشاؤم و الخوف من العار، فقد أوجب رسول الله محمد ﷺ على الآباء العناية بالبنات ورغبهم في التسابق في العناية بهن **بأعلى مراتب الترغيب** بأن قرر أن هذه البنت ستكون حجاباً لهم من دخول النار يوم القيامة ، وذلك في قوله ﷺ :

"من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن و أطعمهن وسقاهن و كساهن من جدته إلا كن حجاباً له من النار"[1] ، و قال ابن حجر في فتح الباري :

(" وقد جاء أن الثواب المذكور يحصل لمن أحسن لواحدة فقط ففي حديث ابن عباس المتقدم «فقال رجل من الأعراب: أو اثنتين؟ فقال: أو اثنتين» ، وفي حديث أبي هريرة قلنا: وثنتين؟ قال: وثنتين. قلنا: وواحدة؟ قال: وواحدة)[2]

بل جعل رسول الله ﷺ درجة الرجل الذي يعول بنتين ويحسن معاملتهما مجاورة لدرجة الأنبياء يوم القيامة ، فقد جاء في صحيح مسلم قول رسول الله ﷺ **"من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو – وضم أصابعه-"[3]** أي كان في الجنة مجاوراً مباشرة لرسول الله ﷺ في الفردوس الأعلى وهي منزلة الأنبياء والمرسلين

كما نهى عن تفضيل الصبي عليها ، وذلك في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ **"«من ولدت له ابنة فلم يئدها ، ولم يهنها، ولم يؤثر ولده عليها - يعني الذكر - أدخله الله بها الجنة». "[4]**

بهذا التوجيه الراقي رفع الإسلام مكانة البنت من شيء نجس يجلب العار ويستحق القتل بلا شفقة إلى كنز عظيم يضمن للإنسان دخول الجنة و النجاة من النار إذا أحسن الرجل المسلم معاملتها و تربيتها، أليس هذا انحيازاً ظاهراً للمرأة دون الرجل ؟ أليس هذا يدحض زعم أعداء الإسلام الذين لا يكفون عن الطنطنة بالكذب والافتراء على الإسلام بأنه ينحاز ضد المرأة ؟

---

[1] - سنن ابن واجة ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ٣٧٥٢
[2] - فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار الفكر ، ٧٨ كتاب الأب ، جزء ١٢ صفحة ٣٥
[3] - صحيح مسلم ، عن أنس بن مالك ، دار الكتب العلمية ١٩٩٢، الحديث رقم ٦٦٤٧
[4] - مسند الإمام أحمد عن ابن عباس ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ١٩٦٦

والسؤال الأهم : هل وصلت الحضارة الحديثة في العناية بالمرأة إلى ما وصل إليه الإسلام منذ القرن السابع الميلادي ؟ بالطبع لا لأن الإسلام جعل حماية حياة المرأة و حسن تربيتها و الإحسان إليها منذ طفولتها و حتى تكبر سبباً في دخول الأب الجنة و سبباً في نجاته من النار ، **فبكل القوة الهائلة للنصوص المقدسة التي تربط الأوامر الصادرة بالإله الذي خلق الكون وقف الإسلام أمام عادات جاهلية قاسية أوقف بها قتل البنات و منحهن رعاية خاصة لم تحصل عليها المرأة خارج حدود الدولة المسلمة حتى في القرن الحادي والعشرين** كما سنرى بعد قليل

٢- بناء شخصية المرأة

في الوقت الذي كانت فيه المرأة تعتبر أحد أملاك الرجل مثل المال و الأرض والعبيد و البهائم في جميع بلدان العالم ، حتى كانت تورث للأخ الأكبر كما في اليهودية وللابن الأكبر كما في الجزيرة العربية ، و حتى كان من حق الزوج في الدولة الرومانية بل وفي انجلترا أن يبيع زوجته في السوق لينتفع بثمنها ، وحتى كانت تحرق حية مع جثة الزوج المتوفى عنها في كل من الصين والهند ، قام رسول الإسلام محمد ﷺ بوضع كل القوانين و الأوامر التي تبني الشخصية المستقلة للمرأة و تمنحها الحق في أن تعارض أباها الذي أنجبها وزوجها الذي ينفق عليها في الأمور التي تخصها بل وتعارض رئيس الدولة وخليفة المسلمين و أن تلزمهم جميعاً برأيها

والأمثلة التالية تثبت ذلك بكل وضوح :

١- جاء في كتاب السنن الصغرى للنسائي بعنوان (البكر يزوجها أبوها وهي كارهة)- عن السيدة عائشة رضي الله عنها – زوج رسول الله ﷺ - أن فتاة دخلت عليها فقالت : إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة ، قالت : اجلسي حتى يأتي النبي ، فجاء رسول الله ﷺ فأخبرته ، فأرسل إلى أبيها فدعاه ، فجعل الأمر إليها ، فقالت : يا رسول الله ، قد أجزت ما صنع أبي ، ولكني أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء"[١]

و المؤكد أن تلك الفتاة كانت دون الخامسة عشرة من عمرها، لأن العرب في ذلك الوقت كانوا يزوجون بناتهم بدءاً من سن التاسعة أو العاشرة، لكن لم ينهرها أحد ، ولم يعنفها أحد لأنها تجرأت و ردت حكم أبيها ثم عادت وقبلته فقط لتعلم النساء أن لهن رأياً لا يحق للآباء تجاهله، ولم يقل لها أحد أنك أضعت وقت رئيس الدولة المشغول بشؤون كل قبائل العرب و المحاط بالأعداء الذين يخططون لقتله في كل ساعة من ليل أو نهار، بل وافق رسول الله ﷺ على مقالتها وجعلها سنة باقية إلى يوم القيامة في جميع المجتمعات المسلمة في كل بقاع الأرض

٢- كما روت كتب السنة ما هو أكبر من ذلك ، فقد رفضت جارية تسمى بريرة أعتقتها السيدة عائشة زوجة رسول الله ﷺ العدول عن طلب الطلاق من زوجها بعد أن أصبحت حرة برغم أن رسول الله ﷺ طلب منها التمسك به ، لكنها سألته : هل تأمرني يا رسول الله فلا أستطيع مخالفة

[١] - السنن الصغرى للنسائي ، الحيث رقم ٣٢٧١

أمرك ؟ **"فقال : لا إنما أنا شافع : فقالت : لا حاجة لي فيه"**[1] ، وفي هذه الواقعة يتضح إلى أي مدى غير الإسلام نظرة المجتمع إلى المرأة و جعلها تحصل على الحرية المطلقة في اتخاذ القرار الذي تراه مناسباً لها حتى لو كان هذا القرار على غير رغبة كل من حولها من الرجال بمن فيهم رئيس الدولة و رسول الله الذي شفع لزوجها لكي تستمر معه لكنها أصرت على مفارقته

ومرة ثانية : لم ينهرها أحد بسبب مخالفة رغبة رسول الله ﷺ ، ولم يخاصمها أو يعتزلها أحد بسبب رفض شفاعة خاتم الأنبياء وهي التي كانت منذ ساعات قليلة جارية مملوكة ، بل عاشت مرفوعة الرأس عزيزة الجانب في مجتمع تغير كل ما فيه بفعل الوحي الإلهي النازل من السماء وارتفع من القاع إلى القمة في أقل من عقدين من الزمان.

٣- وفي واقعة ثالثة كانت المرأة أكثر جرأة و أكبر تأثيراً ، ففي عهد خلافة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أراد أن يحدد المهور لما رآه من مغالاة الآباء فيها ، فعارضته امرأة و ألزمته الرجوع عن قراره ، فقد روت كتب السنة (سنن أبي داود والترمذي والنسائي ومسند الإمام أحمد) عن أبي العجفاء السلمي قال: (خطبنا عمر يوماً فقال: ألا لا تغالوا في صدقات النساء – أي المهور – فإن ذلك لو كان مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ، ما أصدق رسول الله امرأة من نسائه و لا أصدق امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية) فقامت إليه امرأة من قريش فقالت يا عمر : ليس ذلك لك ، أيعطينا الله وتحرمنا ؟ أليس الله سبحانه وتعالى يقول:

"**وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً** " سورة النساء

فقال عمر وهو يومها رئيس الدولة وخليفة المسلمين : أصابت المرأة وأخطأ عمر ، وفي بعض روايات الحديث أنه قال متحسراً : كل الناس أفقه منك يا عمر ، وفي رواية أخرى للحديث أنه أمر المسلمين بألا يزيد أي منهم في صداق المرأة على أربعمائة درهم ، وبعد أن راجعته المرأة و تلت عليه الآية الكريمة من سورة النساء استغفر قائلاً : اللهم غفرانك ، كل الناس أفقه منك يا عمر ، ثم عاد وصعد المنبر وقال للناس : إني كنت قد نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب

من هذه الواقعة نتبين أن سلطان الدين الحق يعلو على كل سلطان ، فلولا أن المرأة قرأت على الخليفة عمر بن الخطاب آية من القرآن الكريم لما استطاعت أن تلغي قراره بعد خمس دقائق فقط من صدوره، لكن الأهم هو أنه لولا أن الله عز وجل منح هذا الحق للمرأة في الوحي الإلهي الذي تتوقف أمامه كل السلطات وتتصاغر أمامه كل المكانات والوجاهات البشرية لما استطاعت تلك المرأة أن تفعل شيئاً أمام سلطة رئيس الدولة الذي كان يرى من واقع المسؤولية أن المغالاة في المهور سوف تصعب على الشباب التقدم للزواج وبالتالي تقل فرصة الحصول على زوج أمام الكثير من الفتيات فيكبرن وربما يصبحن عوانس وهو ما يسبب عناءً لكلا الفريقين،

[1] - سنن الدارمي عن ابن عباس ، دار الكتب العلمية ، الحديث رقم ٢٢٩٤

والسؤال الآن: كم دولة في عالمنا المعاصر يمكن أن يحدث فيها مثل هذا الموقف الذي حدث في العقد الثالث من القرن السابع الميلادي في الدولة المسلمة ؟ نعتقد أن ذلك ممكن فقط في عدد قليل من دول العالم الحر، وحتى نساء العالم الحر لم يحصلن على هذا القدر من الحرية إلا في نهاية القرن العشرين ، أليس هذا يثبت بشكل قاطع أن الحرية والمكانة الاجتماعية و قوة الشخصية التي حصلت عليها المرأة المسلمة منذ القرن السابع الميلادي سبقت كل ما حصلت عليه المرأة في كل حضارات العالم بكل هذه القرون الطويلة ؟ وبالتالي : أليس هذا يثبت بشكل قاطع أن الإسلام تفوق على حضارتنا الحديثة و أحرز السبق الزمني بفارق ألف وأربعمائة عام كاملة ظلت خلالها المرأة في كل دول العالم الغير مسلم تعاني الذل والاضطهاد و التهميش والاحتقار ؟

٣- الذمة المالية المستقلة عن الرجل

إستغربت بشدة عندما قرأت الفقرات التالية من تلخيص كتاب "المرأة على مر العصور" للأستاذ محمد فكري الدراوي على موقع ملتقى أهل الحديث الإلكتروني :

"يقول برنارد شو : (في اللحظة التي تتزوج فيها المرأة تصبح جميع ممتلكاتها ملكاً لزوجها بمقتضى القانون الإنجليزي) وكتب بلاكستون في شروحه المشهورة على قوانين إنجلترا في سنة ١٧٦٥ م يقول : (إن القيود التي ترزح تحتها المرأة يراد بها في الغالب حمايتها وخيرها ذلك أن القانون الإنجليزي يؤثر المرأة بعطف شديد) ومع ذلك فإن هذه التي آثرها القانون ذلك الإيثار العظيم قد حرمت من كل حق مدني تقريباً وحيل بينها وبين التعليم وكل شيء آخر ما عدا أحط موارد الكسب – أي الدعارة – ونزلت عن كل ثروتها عند الزواج، أما القانون الفرنسي فكان حتى سنة ١٩٦٦م ينص على أنه لا يجوز للزوجة أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض بدون اشتراك زوجها في العقد أو موافقته موافقة كتابية)[١]

وفي هامش المقال جاءت الفقرة التالية: (لم تحصل المرأة الفرنسية على استقلالها الاقتصادي إلا في يناير سنة ١٩٦٦م ، فقد نشرت صحيفة هيرالد تربيون في ١٩٦٦/٢/١م تحت عنوان "الزوجات الفرنسيات يحصلن على حقوقهن ، وذكرت ما يلي (حرية جديدة للزوجات الفرنسيات تتحقق رسميّاً غداً عندما يصبح التشريع الذي يحدد تنظيم عادات الزواج حسب قانون نابليون نافذ المفعول ، فالتعديل الذي قدمته الحكومة ووافق عليه البرلمان بأغلبية ساحقة يخلع الزوج من وضعه في الأسرة كسيد ورئيس ويعطي للزوجة الآن الحق في :

- فتح حساب جارٍ في البنك
- وفي مباشرة المهنة
- وفي ممارسة العمل التجاري
- وفي إدارة أملاكها الخاصة أو في بيعها كل ذلك بدون حاجة إلى موافقة الزوج ، كذلك في استطاعتها أن تشتري على الحساب الجاري بدون توقيع زوجها إذا برهنت على أنها قادرة على السداد)

---

[١] - محمد فكري الدراوي ، موقع ملتقى أهل الحديث ، المرجع السابق

يا إلهي ! هل هذه هي فرنسا صاحبة الثورة العظيمة ؟ حتى عام ١٩٦٦م لم يكن للمرأة فيها حق التصرف في أملاكها بدون توقيع الزوج ؟ هل هذه هي البلد التي خرج منها الجنرالات ليبيدوا مليونين ونصف المليون من شعب الجزائر و يغتصبوا ثرواته ويحرقوا قراه بحجة أنهم (نور العالم) وعليهم أن يضيئوه بنور الحضارة – كما قرأنا في الفصول السابقة - ؟ لقد كانت نساء الجزائر حتى اللاتي يسكن البادية طوال سنوات احتلال هذه الجيوش البربرية لأراضيهن يتمتعن بحرية التصرف في أموالهن بدون موافقة الزوج منذ أن منحهن الله عز وجل هذا الحق في القرآن الكريم قبل ثلاثة عشر قرناً من قدوم جيش (نور العالم) هذا الذي لم نكن نعلم أنه ترك خلفه في فرنسا زوجات تحت الوصاية الجبرية كن في أمس الحاجة إلى نيل بعض الحريات التي كانت متاحة لنساء البادية في الجزائر ، من هي الأمة التي كانت تحتاج إلى الخروج من ظلام التخلف و الجهل إلى النور ؟ ومن كان الأجدر أن يتعلم مِن مَن ؟

لقد أنزل الله عز وجل في القرآن الكريم سيلاً من الآيات الكريمة التي تحدد حقوق المرأة المالية وتمنحها حق التصرف في كل أملاكها دون الرجوع لا إلى أبيها ولا إلى زوجها منذ القرن السابع الميلادي

- ففي شأن استقلالها بحق تملك المال فقد شرع لها الله عز وجل حق المهر وهي ما زالت فتاة في بيت أبيها على الرجل الذي يرغب في الزواج منها ، ولأن الإسلام حرم الزنى و رتب عليه عقوبة رادعة ، فليس من الممكن للرجل الحصول على المرأة التي يرغب فيها و يطمئن إليها إلا عن طريق الزواج الشرعي الذي لن يتم بغير تقديمه هذا الصداق لها ، و لن يستطيع استرداد شيء منه حتى لو قام بتطليقها ، إلا إذا كانت هي الراغبة في الانفصال وزوجها لا يسيء معاملتها ، كما ضمن لها الإسلام أن تكون هي المتصرف الوحيد في هذا المال ومنع الزوج بل والأب أيضاً من أخذ شيء منه على غير رغبة الفتاة ،

قال تعالى في سورة النساء **"وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً"** (٤)

بهذا الأمر الإلهي الموجه للرجال – الأب و الأخ والزوج - منح الله عز وجل للمرأة حق تملك كل أنواع المال وهي في سن قد لا يتجاوز الثانية عشرة ، وهذا الصداق يبلغ في المتوسط في الطبقات العادية من المجتمع مبلغاً من المال يعادل دخل الرجل لمدة سنة أو ربما سنتين ، لكنه ليس له حد أقصى ، فبعض النساء المسلمات يزيد مهرهن على مليون دولار أمريكي ، والمرأة المسلمة غير مطلوب منها مقابل هذا الصداق أن تقوم بتأسيس بيت الزوجية قبل الزواج ولا أن تقوم بأي عمل من الأعمال المنزلية بعد الزواج ولا حتى تجاه الأطفال ، وهذا معنى قوله تعالى (نحلة) أي مالاً مستحقاً لها بدون عوض ، فهذا الصداق يحق للمرأة مقابل قبولها لهذا الزوج من دون كل الرجال كشريك لها ، يمنح كل منهما للآخر ما يحتاج إليه من مشاعر الحب أولاً ومن متعة جسدية ثانياً ،

ولأن الإسلام لا يلزم المرأة بالأعباء المنزلية فقد أوجب على الزوج أن يوفر خادمة لزوجته تقوم بالأعمال المنزلية إذا كان ذلك في استطاعته، و إن لم يكن قادراً على ذلك فعليه أن يتشارك مع زوجته في هذه المهام ، وتروي السيدة عائشة رضي الله عنها زوجة رسول الله ﷺ أنه كان

(يرتق ثوبه ، ويخصف نعله ، ويحلب شاته ، ويكون في مهنة أهله)[1] ، برغم أنه رئيس الدولة المسلمة ورسول الله الذي يتلقى وحي السماء

ليس هذا فقط ، بل حمى الإسلام حق المرأة المطلق في التصرف في هذا الصداق حتى من أبيها، فقد كان شائعاً في مكة والمدينة قبل الإسلام مفهوم أن صداق البنت هو حق للأب جزاء ما أنفق عليها منذ ولادتها ، فكان المسلمون يأخذونه جرياً على العادة القديمة ، لذلك أتى النصف الثاني من الآية **"فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً"** ليوقف الرجال سواءً كان الأب ، أو الزوج ، أو الأخ ، عن أخذ شيء منه إلا ما طابت نفسها به ، فإن لم تطب نفسها بشيء فلا حق له أن يكرهها على ذلك مهما كانت الأسباب .

ونحن هنا نتكلم عن بنت في الثانية عشرة أو ربما أقل كانت منذ سنوات قليلة في المجتمع المكي تحفر لها حفرة وتدفن فيها حية مخافة العار، فإذا الإسلام يمنحها الحق في امتلاك مال لم يستطع أبوها أن يجمعه في عام كامل أو ربما في عمره كله ، ثم يحرم على هذا الأب أن يمد يده إلى شيء من مالها ما لم تطب نفسها به ، لتصبح هذه الفتاة الصغيرة التي تسكن صحراء الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي متمتعة بحرية لم تمنح للمرأة الأوربية إلا بعدها بأكثر من ثلاثين جيلاً ، كان ينظر خلالها للمرأة على أنها غير مؤهلة للتصرف في مالها، والسبب واضح وضوح الشمس ، فهذه البنت الصغيرة في الجزيرة العربية نشأت في **مجتمع ينظم الوحي الصادر عن خالق الكون كل حركاته وسكناته** ، وبالتالي لم يستطع الرجال سن قوانين منحازة لهم ، بينما نشأت المرأة الأوروبية في مجتمع ينظم الرجال بعقول متفاوتة في الثقافة و دوافع نفسية مريضة أو قاصرة وبالطبع منحازة كليّاً للرجل كل شؤونه والنتيجة حدوث هذا الفارق الشاسع بين المرأة هنا وهناك

ولم تتوقف حماية الإسلام للمرأة عند هذا الحد، بل حمى حقها في هذا الصداق بشكل قاطع عندما يقرر الزوج أن يطلقها ليتزوج غيرها ، وذلك بقوله تعالى :

"وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج و آتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً و إثماً مبيناً " (سورة النساء ٢٠)

و هنا يتضح إلى أي مدى كان الأمر صارماً وذلك في كلمة "قنطاراً" أي مهما كان حجم مهرها عند بداية عقد الزواج كبيراً فلا حق للرجل في أن يسترد شيئاً ولو قليلاً منه ، بل جاءت بعض القراءات عن ابن مسعود (وآتيتم إحداهن قنطاراً من ذهب)[2] وهو تعبير عن الكمية الهائلة من الذهب قيل أنها تملأ مسك الثور أي جلده ، **أي ما يعادل وزن ٢ طن من الذهب** ، بل أكثر من ذلك فقد ألزم الرجل الذي نوى تطليق زوجته أن يدفع لها نفقة سنة كاملة لها و لأبنائها إن كان لها أبناء ، حتى يكون ذلك عوناً لها على نفقات الحياة إلى أن توفق للزواج من زوج آخر ، وتكون هذه النفقة بحسب القدرة المادية للزوج ، بمعنى أن لو كان ثريّاً فقد أوجب الله عليه أن ينفق عليها بما يتناسب مع ثرائه لا بما تحتاجه من الضروريات فقط ، قال تعالى في سورة الطلاق **"لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً"** (سورة الطلاق ٧)

[1] - صحيح ابن حبان ، دار الفكر ، الحديث رقم ٥٥٧٩ ، ومسند الإمام أحمد برقم ٢٤٩٤٣
[2] - فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار الفكر ، شرح الحديث رقم ٥١٤٨ ، الجزء العاشر صفحة ٢٥٦

كما لم تتوقف حماية الإسلام للمرأة عند هذا الحد أيضاً ، بل حمى حقها في هذا المهر حتى عندما يقرر الزوج عدم إكمال مشروع الزواج ، بأن أراد أن يطلقها بعد كتابة عقد الزواج وقبل الدخول بها، وبرغم أنه لم يتمتع منها خلال تلك الفترة بما يتمتع به الزوج ، إلا أنه نظراً لما يسببه فسخ العقد للبنت من ألم نفسي كبير، يلزم الإسلام هذا الرجل بأن يترك لها نصف المهر، مجوهرات، كل ذلك برغم أنه سينهي العلاقة بينه وبينها إلى الأبد ، قال تعالى في سورة البقرة

"وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح و أن تعفو أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله كان بما تعملون بصيراً ☼ " (٢٣٧)

ولم تتوقف حماية الإسلام للمرأة عند هذا الحد ، بل حمى حق البنت اليتيمة التي كانت تتعرض للظلم في الصداق بسبب يتمها ، فقد كان شائعاً في المجتمع العربي وقت نزول القرآن زواج البنت اليتيمة بدون صداق ، و كان يهضم حقها في شروط عقد الزواج لأنها ليس لها أب يتحدث عنها ، و لأنها غالباً ما تكون بعد موت أبيها في كفالة أحد الأعمام ، أو الأخوال الذين يشعرون أنها عبء ثقيل يحاولون التخلص منه بالزواج من أي رجل يتقدم حتى لو لم يكن كفؤاً لها ، ويتنازلون عن أغلب أو كل الشروط التي يتمسكون بها عند تزويج بناتهم

فأنزل الله عز وجل في سورة النساء آية عظيمة تنهى عن ظلم هذه البنت و تأمر المسلمين بوجوب معاملتها بالقسط مثل غيرها و إلا فليتركوها لمن يستطيع معاملتها بالقسط ، قال تعالى:

"وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة" (سورة النساء ٣)

وقد جاء في تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير تعليقاً على هذه الآية قوله :"أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة و خاف ألا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها من النساء فإنهن كثير ، ولم يضيق الله عليه"[١]

إلى هذا الحد وقف الإسلام إلى جانب المرأة حتى تلك التي ليس لها أحد من البشر يدافع عنها ، فالبنت اليتيمة كان غاية ما تتمناه أن تجد زوجاً ولو بدون صداق ، حتى تشعر أنها ليست أقل من الفتيات الأخريات ، وحتى ينتشلها هذا الزوج من المحيط الذي غالباً ما كانت تشعر فيه بعدم المساواة أو بشيء من النفور ، لكن الله عز وجل أنزل تشريعاً صارماً يلزم الرجل بالعدل في معاملة هذه البنت اليتيمة ، وبدفع المهر الذي كان سيدفع لها لو لم تكن يتيمة كاملاً ، و إلا فليتركها لمن يتقي الله فيها و ليبحث لنفسه عن زوجة غيرها فالنساء غيرها كثير،

أليس هذا المستوى من حماية حقوق المرأة قد فاق بالفعل كل المستويات التي تعرفها الآن حضارة القرن الحادي والعشرين بأحدث ما وصلت إليه من أخلاق (روح العصر) ؟ هل يوجد في عالمنا المعاصر الآن في أرقى البلدان المتحضرة من سن تشريعاً يلزم الرجل الذي يريد أن يتزوج من بنت يتيمة بأن يدفع لها كل ما كان سيدفعه من مهر و هدايا ذهبية و مجوهرات و ملابس لو تقدم للزواج من إحدى البنات غير اليتيمات ، كما يلزمه بأن يوفر منزل الزوجية و

---

[١] - تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير، المكتبة العصرية للطبع والنشر ، صيدا- بيروت ١٩٩٥م ، المجلد الأول صفحة ٣٩٧ سطر ١٦

يفرشه بالأثاث نفسه الذي كان سيوفره لو تزوج من امرأة لها عائلة كبيرة تشترط لها الشروط التي تؤمن لها حقوقها و رفاهيتها في حياتها المستقبلية ؟

الإجابة معروفة ولا تحتاج إلى مشقة البحث ، فحتى الآن لم تلحق الحضارة الحديثة في كل بلاد العالم بالارتقاء الأخلاقي الذي جسده الإسلام منذ أن جاء ، حين وقف بكل قوة في وجه كل صور الاضطهاد و الظلم التي كانت سائدة ضد المرأة حتى تلك المرأة اليتيمة التي لا يوجد من يدافع عنها .

وبعد أن حدد الإسلام الحقوق المالية للمرأة في مختلف مراحل عمرها بنصوص إلهية ، منحها الحق المطلق في التصرف في مالها دون التقيد بموافقة الزوج أو حتى الأب ، وبذلك تمتعت المرأة المسلمة بحريتها المطلقة في التصرف في مالها ، حتى رأينا من نساء المسلمين من امتلكت المال الكثير مع أن زوجها كان فقيراً ، ولم تنتقل ملكية مالها إلى زوجها بعد الزواج كما كانت هي القاعدة المعمول بها عند جميع شعوب الأرض ، بل لم يكن عليها أن تنفق من مالها شيئاً إلا ما طابت به نفسها ، و نظراً لأن الإسلام ألزم الزوج بالنفقة على زوجته فلم يسمح له بأن يجعل هذه النفقة تدخل في زكاة ماله ، بل على الرجل المسلم أن يدفع زكاة ماله للفقراء كمبلغ مستقل عن نفقته على الزوجة ، لأن نفقته على زوجته فرض مستقل عن فرض الزكاة ، أما المرأة فلأن النفقة على زوجها ليست فرضاً عليها حتى وإن كانت ثرية فقد أباح لها الإسلام أن تعطي زكاة مالها لزوجها وكذلك للأيتام الذين في حجرها كأبناء أختها المتوفاة ، وتعتبر بذلك قد أدت زكاة مالها كاملة ، و قد جاء في كتاب فتح الباري شرح صحيح البخاري في باب (الزكاة على الزوج وعلى الأيتام في الحجر) أن امرأة مسلمة تدعى زينب قالت لمؤذن الرسول ﷺ : سل رسول الله (أيجزئ عني أن أنفق على زوجي وعلى أيتام لي في حجري) فقال ﷺ له : (نعم ولها أجران أجر القرابة وأجر الصدقة)[١]

ويتضح من هذا الحديث أن هذه المرأة كانت تملك مالاً خاصّاً بها و تتصرف فيه بكامل حريتها دون الإذن من الزوج بل كانت تنفق على أيتام في حجرها ، و أرادت أن تدفع زكاة مالها لزوجها نظراً لفقره ولأيتام قرابتها فسمح لها الرسول بذلك

و نذكر هنا بأن المرأة الفرنسية لم تمتلك الحرية التي امتلكتها هذه المرأة المسلمة في التصرف في مالها إلا في عام ١٩٦٦م ، ثم نرى الهجوم على الإسلام بزعم أن المرأة المسلمة تعاني الظلم والاضطهاد، و العجيب أن يأتي هذا الهجوم من الأوروبيين وربما من الفرنسيين أنفسهم.

٤ - تحريم توارث المرأة

نوع آخر من أنواع حماية الإسلام للمرأة لا يقل أهمية عما سبق وهو تحريرها من شكل قاس من أشكال العبودية ما زالت ترزح تحته حتى يومنا هذا في كثير من المجتمعات مثل المجتمعات اليهودية و الهندية ، وهي عبودية الزوجة التي يموت زوجها وخاصة التي لم تنجب منه ولداً ، فقد كانت هذه المرأة في الجزيرة العربية تورث لأهل الزوج المتوفى يتصرفون فيها كيفما شاؤوا ، فإن رغب فيها ابن الزوج أو أخوه تزوجها دون أن تستطيع الاعتراض ، و إلا فيأخذها

---

[١] - صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ١٤٤٨ ، الجزء الثاني ، صفحة ٥٣٣

من شاء من أقاربه ليتزوج بها ، فإن لم يرغب فيها أي منهم أمسكوها عندهم حتى يكبر الأولاد الصغار فيتزوجها أحدهم أو حتى تموت إذا لم يكن هناك صغار من الذكور في العائلة ،

وقد حرم الإسلام بنصوص قاطعة هذا النوع من تملك النساء عن طريق الإرث ، قال تعالى :

"يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ☼" (سورة النساء ١٩)

فقد جاء في تفسير القرآن العظيم لابن كثير في تفسير هذه الآية عن ابن عباس قوله: "(لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً) وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها فنهى الله عز وجل عن ذلك" ، و عنه أيضاً " كان الرجل من أهل المدينة إذا مات حميم أحدهم ألقى ثوبه على امرأته فورث نكاحها ولم ينكحها أحد غيره ، وحبسها عنده حتى تفتدي نفسها منه بفدية فأنزل الله عز وجل (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً)"[١]

لقد جاء القرآن الكريم بهذا التحذير الشديد فحررها من هذه العبودية منذ ذلك العهد البعيد ، بينما ما زالت المرأة عند بعض الفرق اليهودية حتى وقتنا هذا تورث للأخ الأكبر للزوج مباشرة بعد موته ، إلا إذا رفضها هذا الأخ أمام جمع من شيوخ بني إسرائيل بأن يقذفها أمامهم بحذائه دلالة على رفضه لها.

من جهة أخرى فقد حرم كذلك عضل المرأة حتى تفتدي نفسها بالتنازل عن مهرها مقابل حريتها .

وهذا العضل كان يحدث بعدة صور ، منها ما ذكره الإمام ابن كثير في العبارة المذكورة منذ قليل ، وهو أن يقوم أقرباء الزوج المتوفى بحبس المرأة عندهم ومنعها من الزواج ومن التصرف في مالها ، حتى تضطر إلى التنازل لهم عن مهرها حتى يتركوها تعود إلى أهلها ، ومنها أنهم كانوا إذا مات الرجل قام أقرباؤه بحبسها عندهم حتى يكبر أحد صبيانهم فيتزوجها بالمهر الذي دفعه لها الرجل المتوفى ، ومنها صورة تحدث بين الزوج وزوجته وما زال بعض المسلمين يفعلونها إلى اليوم دون مراعاة للوعيد الذي توعدهم به الله عز وجل ، وهو أن الرجل إذا أراد أن يطلق زوجته وعلم أنه لن يكون من حقه استرداد المهر الذي دفعه ، أو أنه سوف يكون عليه دفع القسط المؤخر من هذا المهر وهو لا يملك هذا القسط ، فإنه يسيء عشرتها و يضيق عليها بكل الصور حتى تتنازل له عن المهر مقابل الحصول على الطلاق،

لقد جاء القرآن الكريم بالتحريم القاطع لجميع هذه الصور من عضل المرأة في الآية المذكورة **"ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن"** ثم صدر الأمر الإلهي الصريح **"وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً"** ، وبذلك وفر الإسلام للمرأة منذ زمن نزول القرآن الكريم قدراً من الحماية لم تعرفه البشرية قبله ولا بعده حتى يومنا هذا

٥- حق المرأة في التعليم :

[١] - تفسير القرآن العظيم ، الطبعة نفسها ، المجلد الأول صفحة ٤١١ سطر ١٣

كتب الأستاذ محمد فكري الدراوي في الموقع المشار إليه سابقاً ضمن فقرات من كتابه "المرأة على مر العصور" تحت عنوان (حق المرأة في التعليم) ما يلي :

"سوى الإسلام بين الرجل والمرأة في حق التعليم فأعطى المرأة الحق في الحصول على العلم والأدب والثقافة ، وقد حث الرسول ﷺ النساء على طلب العلم و جعله فريضة على كل مسلم ومسلمة"

ثم يذكر الأستاذ الدراوي كيف حرص رسول الله ﷺ على تعليم نسائه القراءة والكتابة على يد امرأة تسمى الشفاء العدوية و طلب منها أن تعلمهن تحسين الخط ، ثم أكمل قائلاً:

"وتدل شواهد كثيرة على أن أبواب التعليم و الثقافة بمختلف صنوفها كانت مفتحة على مصاريعها للبنت المسلمة ، و أنه قد نبغ بفضل ذلك عدد كبير من النساء المسلمات في علوم القرآن و الحديث واللغة والفقه و شتى أنواع المعارف و الفنون و كانت منهن معلمات فاضلات تخرج على أيديهن كثير من أعلام الإسلام ،

فقد ذكر ابن خلكان أن السيدة نفيسة بنت الحسين بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب كان لها بمصر مجلس علم حضره **الإمام الشافعي** نفسه و سمع عليها فيه الحديث، وذكر أبو حيان من بين **أساتذته ثلاثاً من النساء** ، وقد عد ابن عساكر أساتذته الذين أخذ عنهم العلم فكان منهم **إحدى وثمانون امرأة** كما يقول ياقوت في معجم الأدباء، وقد أقبلت المرأة المسلمة في صدر الإسلام على رواية الحديث إقبالاً عظيماً حتى أتى ابن سعد في الجزء الذي عقده من طبقاته لرواية الحديث من النساء على **سبعمائة امرأة روين عن رسول الله** ﷺ أو عن أصحابه وترجم ابن حجر في كتابه (الإصابة في تمييز الصحابة) **لثلاث و أربعين وخمسمائة وألف** من المحدثات شهد لهن بالعلم ووثقهن"[1]

ولكي نوضح إلى أي مدى يعتبر توثيق النساء لرواية الحديث النبوي الشريف ثورة حقيقية في رفع شأن المرأة ، نشير إلى أن علماء الحديث وضعوا علماً مستقلاً بذاته أسموه علم (الجرح والتعديل) ، ووضعوا له قواعد صارمة لمن يمكن أن تتوفر لهم الثقة في أخذ الحديث عنه ومن الذي لا يوثق في روايته للحديث ، لدرجة أنهم اعتبروا أن الرجل الذي يأكل في الطريق العام هو شخص (ساقط العدالة) وبالتالي لا يؤخذ منه الحديث ، ولدرجة أن أحد رواة الحديث سمع أن راوياً من رواة الأحاديث عنده حديث واحد لرسول الله ﷺ لم يبلغه وكان على مسيرة ثلاثة أشهر، فسافر إليه ليروي عنه الحديث الذي معه ، لكنه حين وصل إليه شاهده يرفع طرف ثوبه ليوهم جمله بأن في حجره شعيراً لكي يأتيه الجمل فيركبه ، ولم يكن في حجره شيء ، فقال الراوي القادم من السفر الطويل (كذبت على الجمل ، فلا أضمن ألا تكذب في الرواية عن رسول الله) ورجع دون أن يأخذ الحديث

- من ذلك نعلم أن توثيق ألف وخمسمائة و ثلاث و أربعين امرأة في رواية الحديث هي شهادة للأمة المسلمة أنها **كانت أول أمة في التاريخ ترفع شأن المرأة إلى مستوى العلماء الأذكياء**

[1]- الأستاذ محمد فكري الدراوي ، موقع ملتقى أهل الحديث

الأقوياء في العقل وفي الذاكرة ، بالإضافة إلى صفات التقوى والورع و القرب من الله التي بدونها لا يؤتمن الشخص على رواية الحديث النبوي الشريف

هذا في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعقد المجامع اللاهوتية للبحث هل المرأة مخلوق له روح أم لا، و إذا كانت لها روح فهل هي روح حيوان أم روح شيطان وفي الوقت الذي كانت تباع فيه في انجلترا بستة بنسات، وكانت تمنع بقرارات من البابا من قراءة العهد الجديد باعتبارها مخلوق نجس

ويكمل الأستاذ الدراوي قائلاً "وكانت الشيخة شهدة الملقبة بفخر النساء **تلقي دروساً** في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) في الجامع الكبير ببغداد على جمع كبير من الناس في الأدب والبيان والشعر، ومن المعروف أن الخنساء كانت لها منزلة عالية بين الشعراء ، وقد ألف الشيخ السيوطي كتاباً قيماً في شعر النساء عنوانه (نزهة الجلساء في أشعار النساء) **ولم تدرس المرأة المسلمة العلوم الدينية فقط بل كانت تدرس الطب والفقه وفن البيان وعلم الأخلاق والأدب واللغة وكانت من نساء قرطبة فقيهات وراويات شعر ومقرئات للقرآن ومحدثات للحديث النبوي الشريف وطبيبات وعالمات بالفلك والفلسفة،** وقد أنفقت زوجات الملوك والعظماء وبناتهن أموالهن على إنشاء المدارس وكان للنساء مدارسهن الخاصة بهن ، ومن أشهر هذه المدارس ما أسسته بالقاهرة سنة ٦٨٤ هجرية بنت الملك الظاهر من سلاطين المماليك

كما أسست زبيدة زوجة هارون الرشيد عدة ملاجئ لإيواء المشردين و الأيتام والأرامل ، كما أسست زوجة عضد الدولة مستشفى يضارع مستشفى زوجها، وقد اعترف كثير من المستشرقين المنصفين بالمنزلة العالية التي كانت تتبوؤها المرأة المسلمة ، يقول المفكر الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه (روح السياسة):

"إن النساء المسلمات قد أخرجن في الدهر الغابر من المشهورات العالمات بقدر ما تخرج مدارس الإناث في الغرب اليوم"

وتقول المستشرقة الألمانية (سيجريد هونكة) :

"وسار الركب وشاهد الناس سيدات يدرسن القانون والشرع ويلقين المحاضرات في المساجد ويفسرن أحكام الدين، فكانت السيدة تنهي دراستها على يد كبار العلماء، ثم تنال منهم تصريحاً لتدرس هي بنفسها ما تعلمته فتصبح الأستاذة الشيخة، كما لمعت من بينهن أديبات و شاعرات والناس لا ترى في ذلك غضاضة أو خروجاً على التقاليد، هكذا كان حال المرأة المسلمة **في حين أن أختها الأوروبية كانت محرومة من جميع الحقوق بما فيها حق التعليم فكان تعليم المرأة في الغرب حتى وقت قريب شبهة تشمئز منها النساء قبل الرجال ، فلما كانت الياصابات بلاكويل تتعلم في جامعة جنيف سنة ١٨٤٩م وهي أول طبيبة في العالم الغربي ، كانت النسوة المقيمات معها يقاطعنها و يأبين أن يكلمنها ، ويزوين ذيولهن من طريقها احتقاراً لها كأنهن متحرزات من نجاسة يتقين مساسها ، وظلت التيارات المعادية لتعليم المرأة مسيطرة على أوروبا حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي،** وكان بسمارك عاهل بروسيا قد حدد للمرأة

الألمانية ثلاثة مجالات لنشاطها لا تخرج عنها وهي تربية أطفالها و شئون مطبخها و أداء الشعائر الدينية في الكنيسة"[١]

٦- حق الإجارة و منح الأمان (حقوق سياسية)

كان هذا الحق شائعاً بين العرب ولكنه كان حكراً على السادة و الأثرياء ، فلما جاء الإسلام وسع دائرة هذا الحق ليشمل كل المسلمين حتى الفقراء منهم ، بل حتى شمل النساء أيضاً ، مما يدل على أن الإسلام كان حريصاً دائماً على حقن الدماء من جهة و حريصاً على رفع مكانة المرأة من جهة أخرى لكن الدلالة الأهم هي أنه اعتبر المرأة إنساناً كامل الأهلية و أهلاً لتحمل المسؤوليات السياسية الهامة مثل مسؤولية منح الأمان لأفراد من الأعداء المحاربين. فأي رجل مسلم أو أي امرأة مسلمة من عامة الناس يعطي أماناً لأي رجل من الأعداء الذين يحاربون المسلمين ، يكون من حقه على جماعة المسلمين و على زعيمهم أن يحفظوا عهد الأمان هذا و ألا يتعرضوا لذلك المحارب غير المسلم بالأذى

ولدينا هنا واقعتان – على سبيل المثال - توضحان كيف منح الإسلام للمرأة حقوقاً لم تمنحها لها الحضارة الحديثة في قرننا الحادي والعشرين حتى يومنا هذا :

الواقعة الأولى : حدثت أثناء فتح مكة، فقد جاء في كتاب السيرة النبوية لابن هشام ما يلي :

"قال ابن إسحاق: وحدثني سعيد بن أبي هند، عن أبي مرة مولى عقيل بن أبي طالب ، أن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة، فر إلي رجلان من أحمائي من بني مخزوم ، وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي ، قالت: فدخل علي عليٌّ بن أبي طالب أخي ، فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله ص وهو بأعلى مكة فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسل توشح بثوبه ثم صلى ثماني ركعات من الضحى ثم انصرف إلي، فقال : مرحباً وأهلاً يا أم هانئ ، ما جاء بك ؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي ، فقال: قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت فلا يقتلهما"[٢]

الواقعة الثانية :

كانت زينب بنت رسول الله محمد ﷺ زوجة لابن خالتها أبي العاص بن الربيع قبل نزول الوحي على رسول الله ، فلما نزل الوحي أسلمت لكن زوجها رفض الإسلام ، لذلك لحقت بالمدينة – بعد قصة دامية أسقطت فيها جنينها بسبب قيام أحد المشركين في مكة بضربها على بطنها و إسقاطها من فوق الجمل- وظل زوجها المشرك في مكة ، و قبيل فتح مكة خرج زوجها أبو العاص في تجارة إلى الشام ، وعند عودته لقيته سرية مسلمة فأخذت ما معه – لأن أهل مكة كانوا قد استولوا على بيوتهم و زراعاتهم و دوابهم وأموالهم عندما هاجروا إلى المدينة - وهرب أبو العاص منهم بحياته ، لكنه جاء إلى المدينة ليلاً ، كما يروي ابن هشام في السيرة النبوية :

(و أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ **فاستجار بها فأجارته،** وجاء في طلب ماله ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الصبح فكبر وكبر الناس معه ،

[١] - الأستاذ : محمد فكري الدراوي ، نفس المصدر
[٢] - السيرة النبوية لابن هشام ، الطبعة نفسها ، صفحة ٤١١

صرخت زينب من صفة النساء : **أيها الناس ، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع،** قال : فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس ، فقال: أيها الناس : هل سمعتم ما سمعت ؟ قالوا : نعم ، قال : أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، و إنه يجير على المسلمين أدناهم ، ثم انصرف فدخل على ابنته فقال **: أي بنية ، أكرمي مثواه** ، ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له، وخرج رسول الله ﷺ فبعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص : فقال لهم : إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً : فإن تحسنوا وتردوا عليه ماله فإنا نحب ذلك ، و إن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به ، قالوا: بل نرد عليه ماله ، فردوه عليه حتى إن الرجل ليأتي بالدلو ، ويأتي الرجل بالشنة وبالإداوة ، وحتى إن الرجل ليأتي بالشظاظ، حتى ردوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً" ويروي ابن هشام أن أبا العاص رجع بالمال إلى مكة فأعطى كل من له حق في المال حقه ، ثم رجع إلى المدينة مسلماً لما رآه من سماحة الإسلام)[١]

ولكي نبين حجم الارتقاء الذي منحه الإسلام للمرأة في هذه المواقف نشير إلى أن العرب لم تكن تقيم وزناً لأي رجل يعطي جواره – أي أمانه - لأحد الأعداء إلا إذا كان عنده من السلطة والقوة ما يجعله قادراً على خوض الحرب ضد من تحدثه نفسه بخرق هذا الجوار ، فقد روت كتب السيرة أن رسول الله ﷺ لما اشتد عليه إيذاء أهل مكة في بداية دعوته لهم إلى التوحيد ، حاول الخروج بدعوته إلى القبائل المجاورة فذهب إلى الطائف ليدعو أهلها إلى الإسلام لكنهم آذوه بأكثر مما آذاه به أهل مكة ، ولم يستطع دخول مكة عند عودته إلا في جوار رجل من زعمائها غير مسلم ، وأن هذا الرجل جمع سبعين من أنصاره و أبنائه وصفهم في صفين و ساروا إلى الكعبة وهم يحملون السلاح الكثيف وهناك أعلن جواره لرسول الله

وبالتالي فحين تقوم امرأة لا تملك من السلطة أو القوة العسكرية شيئاً وتستخدم هذا الحق فإنها لا تفعل ذلك إلا لفهمها لحديث رسول الله ﷺ بأن المسلمين "يسعى بذمتهم أدناهم" ، وإلا لثقتها أن رسول الله **جاد في منح هذا الحق** لكل المسلمين رجالاً ونساءً ، أغنياء وفقراء ، وأنه سيحمي حقهم هذا بسلطة الدولة المسلمة وبقوة سلاحها ، و ذلك لأن جوارها لو رفض فمعنى ذلك أن الشخص الذي تحاول تأمينه سيقتل في الحال

والآن لو تخيلنا أن واحدة من نساء أوروبا أو أمريكا قامت على مرأى و مسمع من كل الناس ونادت بصوت عال أنها منحت أماناً لشخص ما ينتمي إلى طالبان مثلاً ، لثقتها بأنه لا يمثل تهديداً لأحد – وليس متهماً بشخصه على وجه التحديد في قضية من القضايا – هل هناك من سيقيم لنداء هذه المرأة وزناً ؟

بالطبع لا ، حتى لو كانت رئيسة للوزراء ، وسيكون (تهديد الأمن القومي) هو أول مبرر يقدم في هذا الموقف ، وأغلب الظن أن هذه المرأة ربما تعرضت للاعتقال والتعذيب البشع وحتى الموت بلا شفقة لأنها تعرف هذا الشخص و لو من بعيد ، لكن المرأة المسلمة في القرن السابع الميلادي تمتعت بثقة ضخمة من قبل المجتمع المسلم وقيادته السياسية و الروحية جعلتها مستأمنة حتى على الأمن القومي للدولة المسلمة ، التي كان من الممكن أن تتعرض لخطر الانهيار إذا حاول أحد هؤلاء الكفار الذين أمنتهم المرأة المسلمة أن يصلوا إلى رئيس الدولة

[١] - المرجع نفسه ، صفحة ٤١١

ويقتلوه في خضم الأحداث المتلاطمة التي تصاحب عادة دخول الجيوش إلى المدن للسيطرة عليها .

وقد روت كتب السيرة أن بعض الفرق المسلحة من أهل مكة قاتلوا بالفعل و حدثت مناوشات مات فيها بعض الناس ، والأكثر من ذلك أن رسول الله ﷺ تعرض لإحدى وعشرين محاولة اغتيال فاشلة، أي أن الوضع الأمني لم يكن مستقرّاً بالقدر الذي يسمح بالمغامرة ، ومع ذلك أصر رسول الله على أن يمضي عهد الأمان لهاتين المرأتين ، ليس هذا فقط ولكنه قام بتعميمه على الجميع كأنه صادر من الدولة نفسها حين قال لأم هانئ (لقد أجرنا من أجرت).

وأخيراً : إذا أردنا أن نلخص هذين الموقفين بعبارة أكثر وضوحاً ، **نستطيع القول بأن مكانة المرأة المسلمة منذ زمن نزول القرآن الكريم في نظر الإسلام ورسول الإسلام و دولة الإسلام أكبر قدراً ، و أكثر ثقة ، و أعمق مسؤولية ، و بفارق ضخم من مكانة أي رئيسة وزراء في أرقى دولة في عالمنا المعاصر.**

٧- معـــــــاملة الزوجـــــــة

"خيركم خيركم لأهله و أنا خيركم لأهلي"[1] (سنن الترمذي من حديث رسول الله ﷺ)

بهذه الكلمات القليلة فتح رسول الله مضمار السباق ليتنافس الرجال في إرضاء الزوجات ، أملاً في الوصول إلى مقام الأفضلية عند الله عز وجل ، لكن رسول الله ﷺ ضرب بنفسه المثل الأكثر ارتقاءً في معاملة الزوجة على مر التاريخ الإنساني كله ، ويكفينا هنا أن نذكر موقفين فقط من مواقفه التي كانت تتوالى كل يوم ، وكل ساعة ، مع نسائه لكي نتيقن جميعاً من أن روح العصر في حضارتنا الحديثة لم تصل بعد إلى المستوى الراقي الذي علمه لنا رسولنا الكريم في مجال احترام المرأة و مراعاة مشاعرها :

الموقف الأول: جاء في كتاب تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير عند قول الله تعالى :

"يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم" (سورة التحريم ١) ما يلي :

(والصحيح أنها نزلت عند تحريمه العسل كما قال البخاري عند هذه الآية : حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام بن يوسف عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة قالت: كان النبي ص يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها ، فتواطأت أنا و حفصة على أن أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ؟ إني أجد منك ريح مغافير ، فجاء فقالت له ذلك ، فقال : لا ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، فلن أعود وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً)[2]

والموقف واضح ، فقد دفعت الغيرة الطبيعية التي تملأ قلوب النساء اثنتين من زوجات الرسول ﷺ هما عائشة وحفصة لمحاولة تنفيره من طعام زوجته الثالثة زينب لأنه مكث عندها وشرب

---

[1] - سنن الترمذي عن أم المؤمنين عائشة، دار الكتب العلمية ١٩٩٤ ، الحديث رقم ٤٠٦٢، جزء ١٠ صفحة ٢٩٩
[2] - تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ١٩٩٥، المجلد الرابع، صفحة ٣٤٩ السطر العاشر

بعض العسل، فقالت له كل منهما : هل أكلت مغافير ؟ وهو طعام حلو له رائحة غير محببة ، فقال لا ولكني شربت عسلاً عند زينب ، فقالت له كل منهما : إني أشم رائحة مغافير ، فلعل النحل الذي أنتج العسل كان يأخذ الرحيق من شجر المغافير

وقد كانت كل منهما تعلم حرص رسول الله على تنظيف فمه و أسنانه بالسواك عند كل وضوء ، وعند كل صلاة ، وعند كل وجبة طعام ، وقبل وبعد كل نومة ينامها – أي ما يزيد على سبع عشرة مرة في اليوم - لأنه كان يكره أن يشم منه أحد من الناس رائحة يكرهها، وبرغم علم رسول الله أنه لم يأكل المغافير ، وبرغم أن هذا الطعام هو طعام حلال لا يعيب أحداً أكله ، إلا أنه ﷺ وحتى لا يزعج زوجتيه برائحة فمه ، فقد حلف بالله ألا يأكل من هذا العسل مرة أخرى إرضاءً لهما ، ولأنه خاف أن يحرمه المسلمون على أنفسهم مثلما حرمه على نفسه فقال لكل زوجة منهما : لا تخبري أحداً

لكن الله عز وجل علمه أن تحريم شيء لم يحرمه الله عز وجل غير مسموح له ، لأن جميع المسلمين سوف يفعلون مثل ما فعل ، و يحرمون شيئاً حلالاً ، وهذا سيحول الدين إلى إتباع للهوى، لذلك كان العتاب القرآني شديد اللهجة ، **(لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك)** و شرع له الرجوع عن يمينه والتكفير عنه بإحدى الصور الثلاث المعروفة وهي (تحرير رقبة ، أو إطعام أو كسوة عشرة مساكين ، فمن لم يجد مالاً لفعل ذلك فعليه صيام ثلاثة أيام)

والسؤال الآن: كم رجلاً في عالمنا المعاصر اليوم أقسم أن يمتنع عن تناول طعام يحبه من أجل أن زوجته لا تحب رائحة هذا الطعام ؟

و كم هو عدد النساء اللاتي لا يطقن الاقتراب من أزواجهن بسبب الرائحة الكريهة لأنواع السجائر ، و المدخنات ، والخمور ، وربما المخدرات ، التي تفوح من أفواههم ؟ ونحن هنا لا نتحدث عن عسل النحل الذي حرمه رسول الله ﷺ على نفسه مراعاة لشعور زوجتيه و إنما عن أشياء قذرة الرائحة ، بل ربما انتقلت الإصابة ببعض آثارها إلى الزوجة أو الأبناء ممن يكرهون أنفسهم على عدم إظهار التضجر و الاشمئزاز لهذا الزوج الذي لا يبالي بمن حوله.

هذا هو قدر الزوجة في الإسلام ، فقد علمنا رسولنا كيف نحترم حقها في عدم التعرض لشم شيء تكره رائحته حتى لو كان طعاماً حلالاً – أو عسلاً – كما رأينا ، هل حدث هذا خارج أمة الإسلام ؟ وهل وصلت أخلاق (روح العصر) إلى هذه الدرجة من مراعاة شعور الآخرين ؟

و السؤال الأهم : هل يعلم الملحدون المدافعون عن الزنى و الشذوذ الجنسي حجم ما يسببونه من جرح لمشاعر زوجاتهم ليس في مجرد شم شيء يكرهن رائحته ، ولكن في جرح كرامتهن التي تهدر كل يوم وتعريضهن للإصابة بالأمراض القاتلة لكنهن يحاولن إخفاء هذا الجرح العميق حتى لا يفقدن بيوتهن ؟

الموقف الثاني :

تروي كتب السيرة أن وفداً من الحبشة قدم على رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه ، وأقام هذا الوفد في المسجد ، و قاموا يلعبون بالحراب في غير وقت الصلاة ، و أرادت زوجته السيدة عائشة

رضي الله عنها أن تتفرج عليهم وهم يلعبون ، وكانت ما زالت صغيرة السن ، وكانت كوة حجرتها – وهي فتحة صغيرة في الجدار - تطل على ساحة المسجد ، فرفعها رسول الله حتى تنظر من الكوة ، وسترها بثوبه حتى شبعت من مشاهدة لعب الأحباش،

وفي رواية للواقعة تقول السيدة عائشة إن رسول الله ﷺ كان يسألها بين الحين والآخر :هل انتهيت ؟ فتقول :لا ، وتصف حالتها فتقول (والله ما كان بي من حاجة إلى النظر إليهم **غير أني أردت أن أعرف قدري عنده)** ، أي أنها كانت تقول له (لم أنته بعد) ليس لأنها أحبت مشاهدة المبارزة بالحراب ولكنها أرادت أن تعرف إلى أي مدى سيظل رسول الله صابراً على حملها على ذراعه لتتفرج على المبارزة ، ولم ينزلها رسول الله ﷺ إلا عندما طلبت النزول

ولنقارن الآن بين هذا الموقف الذي جسّد فيه رسول الله – وهو النبي الخاتم و رئيس الدولة - مستوى غير مسبوق في معاملة الزوجة ، وبين معاملة الزوجة في كل المجتمعات الأخرى في القرن السابع الميلادي الذي كانت المرأة فيه تعامل معاملة العبيد

لم يقل رسول الله ﷺ لها إنه مشغول لأنه يعمل في منصب خطير وحساس ، وليس لديه وقت يضيعه في تلك التفاهات ، ولم يقل لها إن عليها أن ترتفع إلى مستوى المسؤولية و تتصرف كزوجة رجل مهم لا يليق لها أن تظهر بهذا المظهر الطفولي ، لقد لبى لها طلبها وتركها تشبع رغبتها في مشاهدة اللعب وهو يرفعها بذراعيه حتى سئمت

والسؤال الآن: كم هو عدد الزوجات اللاتي يعانين الإهمال و التهميش في أسر رجال الأعمال والمشاهير ، وكبار الموظفين والوزراء ، و السياسيين ، في حضارتنا الحديثة ؟ وكم هو عدد النساء اللاتي تضطر الواحدة منهن أن تبحث عمن تقضي معه الكثير من الوقت (و غالباً ما يؤدي ذلك إلى الخيانة الزوجية) لأن زوجها لا يشعر بوجودها ، أو لا يهتم بمتطلباتها باعتبار أن هذه المتطلبات تافهة أو غير منطقية ؟ أو أنه رجل مهم و مشغول بما هو أهم منها ؟ أليست كل هذه الصور تمثل ظلماً للمرأة و هضماً لحقوقها ؟

و أخيراً: فنحن لم نذكر هذين الموقفين إلا على سبيل المثال فقط ، و هناك الكثير من المواقف الأخرى التي توضح أن الإسلام جعل تأدية حقوق الزوجة **فرضاً فرضه الله** عز وجل لا يستطيع الإنسان التهاون فيه ، وبذلك حظيت المرأة المسلمة بحماية إلهية لحقوقها ، بينما أصبحت الزوجة في الحضارة الحديثة لا تمثل عشرة بالمائة من اهتمامات زوجها وخاصة المشاهير منهم ، بحجة أن مسؤولياته الكثيرة لا تسمح له بتضييع وقته في العناية بمتطلبات زوجته

كما علمنا الإسلام أن القيام بمتطلبات الزوجة العاطفية والجسدية واجب على الزوج مثل وجوب الصلاة والصيام ، و القصة التالية – التي وردت في صحيح البخاري- توضح هذا المعنى:

(«آخى النبيُّ صلى الله عليه وسلّم بينَ سَلمانَ وأبي الدَّرداءِ، فزارَ سَلمانُ أبا الدَّرْداء، فرأى أمَّ الدَّرداءِ متَبذِّلة فقال لها: ما شأنُك؟ قالت: أخوكَ أبو الدَّرداءِ ليسَ لهُ حاجةٌ في الدُّنيا. فجاءَ أبو الدَّرداءِ فصنَعَ لهُ طَعاماً فقال له: كل، قال: فإني صائمٌ، قال: ما أنا بآكِلٍ حتى تأكُلَ. قال: فأكلَ. فلمّا كان الليلُ ذَهبَ أبو الدرداءِ يقومُ، قال: نَمْ، فنام. ثم ذَهبَ يقومُ، فقال: نَمْ. فلمّا كانَ مِن آخِرِ

الليلِ قال سَلمانُ: قُمِ الآنَ، فصلَّيا. فقال له سَلمانُ: إنَّ لِربِّك عليكَ حقاً، ولنفْسِكَ عليكَ حقاً ولأهلِكَ عليكَ حقاً فأعْطِ كلَّ ذي حَقّ حقَّه. فأتى النبي ﷺ فذكرَ ذلكَ له فقال له النبي ﷺ صَدَقَ سَلمانُ»[1].

ومعنى (متبذلة) أي في هيئة سيئة تدل على هجر زوجها لها و عدم اهتمامه بحقوقها الزوجية ، و إقرار رسول الله ﷺ لأي فعل يحدث أمامه هو في الإسلام تشريع له نفس درجة الحديث الذي يقوله رسول الله مباشرة ، أي أنه حينما قال رسول الله (صدق سلمان) فكأنه هو القائل (إن لربك عليك حقاً ، و لنفسك عليك حقاً ، و لأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه)

و بعبارة أخرى ، فإن الذي يهجر زوجته ، و لا يهتم بحقوقها الزوجية من أجل الإكثار من الصلاة و الصيام، فهذا مضيع لأحد الحقوق التي أمره الله عز وجل بحفظها، وبالتالي يكون آثماً

٨- حقـــوق الأمهــــات

أولاً : روى الإمامان البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **(جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك ، قال ثم من ؟ قال : ثم أمك ، قال ثم من ؟ قال : ثم أمك ، قال ثم من ؟ قال ثم أبوك)**[2]

والحديث صريح في جعل فضل الأم أفضل من فضل الأب بثلاثة أضعاف ، وفي جعل الأم هي أحق أهل الأرض بالمعاملة الحسنة من قبل الأبناء

ثانياً : روى ابن ماجه عن معاوية بن جاهمة رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله : إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله و الدار الآخرة ، قال **: أحية أمك** ؟ قلت نعم ، قال : **ارجع فبرها** ، ثم أتيته من الجانب الآخر فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة ، قال **: أحية أمك** ؟ قلت نعم ، قال **فارجع إليها فبرها** ، ثم أتيته من أمامه فقلت – وذكر ما قال في المرتين السابقتين – فقال رسول الله ﷺ **: أحية أمك** ؟ قلت نعم : قال **ويحك** ، **إلزم رجلها فثم الجنة)**[3] وفي رواية الإمام النسائي (فالزمها فإن الجنة تحت رجليها)

أي إن رسول الله ﷺ أكد للرجل الذي يريد الجهاد في سبيل الله رغبة في دخول الجنة ، أن بر الأم يضمن له دخول الجنة لأن الجنة ذاتها تحت قدميها

أليس هذا يوضح الفارق الهائل بين رفع الإسلام لمكانة المرأة حتى تصبح الجنة تحت قدميها ، وبين حضارتنا الحديثة المتخلقة بأخلاق روح العصر التي تمتلئ فيها دور المسنين بأمهات يعتصر قلوبهن الحزن لعدم سؤال أبنائهن وبناتهن عنهن لعدة أشهر وربما لعدة سنوات ؟ من الذي أهان المرأة ومن الذي أكرمها ؟

من ناحية أخرى ، ماذا قدم الإلحاد للأمهات غير جحود الأبناء ؟ هل يستطيع الملحدون إنكار شيوع هذا الجحود عند أغلب ملحدي العالم باعتبار أن بر الوالدين من الدين الذي يعتبرون كل أوامره خرافات قذرة ؟ هل يستطيعون إنكار تفاخر كل ملحدي العالم بأن مجرد نطق مصطلح

[1] - صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، الحديث رقم ١٩٤٥، جزء ٢ ، صفحة ٦٩٤
[2] - صحيح مسلم ، دار الكتب العلمية ، الحديث رقم ٦٤٥٢، الجزء ١٦ صفحة ٨٧
[3] - سنن ابن ماجة ، دار إحياء التراث العربي، الحديث رقم ٢٨٥٢، جزء ٢ ، صفحة ٩٢٩

(الفضيلة) أو (الأخلاق الفاضلة) - التي منها بالطبع بر الوالدين - هو جهل و تخلف باعتبار أن هذه المصطلحات علمها لنا الدين الذي يعتبرونه سبب كل الشرور ؟ وهل يستطيع الملحدون إنكار اعتقادهم الراسخ بأن كل التضحيات التي تقدمها الأمهات من أجل الأبناء لا تستحق كل هذا التكريم الوارد في تعاليم الدين لأنها تضحيات ناتجة عن تطور طبيعي في جينات كل أنثى بدافع غريزة حب البقاء وبالتالي فهي نتاج التطور الداروينى وليس للأمهات فيه أي اختيار ؟ أليس هذا هو أكبر ظلم للأمهات اللاتي يقدمن كل ما يستطعن حتى الحياة نفسها من أجل الأبناء؟

فحتى لو سلمنا أن مصدر هذه المشاعر النبيلة في قلوب الأمهات هو نتاج تطور دارويني ، هل هذا يلغي كل ما تقاسيه الأمهات طوال فترة حضانة الأبناء من آلام ويسلبهن الحق في التكريم الذي رفعه الدين إلى مقام العبادة ؟

ثالثاً : جاء أيضاً في تفسير القرآن العظيم لابن كثير عند قول الله تعالى :

"وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۞" سورة الإسراء (٢٣ و ٢٤)

أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها ، فسأل النبي ﷺ: هل أديت حقها ؟ **"قال : لا ولا بزفرة واحدة")**[1]

وجاء على موقع ملتقى أهل الحديث (منتدى التخريج ودراسة الأسانيد) حديث بمعناه جاء فيه " ورواه ابن وهب في الجامع في الحديث (١٨١/١) قال وأخبرني عبد الرحمن بن شريح أن امرآة أتت النبي عليه السلام فقالت يا رسول الله إن أمي بلغت في السن عندي حتى وليت منها الذي كانت وليته مني وحتى لم يكن لها عيش إلا درى وكنت أنظفها مما ينظف منه الصبي فهل بلغت يا رسول الله إذا ما كان ؟ قال: "لا إنك وليت منها الذي ذكرت وأنت تحبين الراحة منها ووليت ذلك منك وهي تحب بقاءك" قال أبو شريح وسمعت عمر بن الخطاب قال لبعض من يقول في نحو ذلك ولا طلقة من طلائقها".

"قلت " عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي أبو محمد المصري فقيه ثقة حافظ عابد توفي سنه ١٩٧ هـ . وعبد الرحمن بن شريح هو أبو شريح المعافري الإسكندراني ثقة عابد توفي سنه ١٦٧ هـ. الحديث سنده صحيح وهو مرسل.[2]

إلى هذا الحد يصدمنا رسول الله ﷺ بحقيقة أنفسنا ، فالرجل ظن أنه قام بأداء كل الحقوق التي عليه تجاه أمه ، لأنه حملها على ظهره وطاف بها حول الكعبة و أدى بها مناسك الحج ، والمرأة في الحديث الثاني فعلت مع أمها ما كانت تفعله لها وهي طفلة رضيعة ، حتى النظافة الشخصية وهو بالطبع عمل صعب على النفس ، لكن رسول الله ﷺ بين لهما أن كل ذلك لا يعدل زفرة واحدة من زفرات الألم المصاحب للولادة ، وبين الخليفة الثاني عمر بن الخطاب للمرأة في الحديث الثاني أن كل ذلك لا يعدل ألم طلقة واحدة من طلقات الولادة، ، لأن هناك فارقاً جوهرياً بين الفعلين اللذين يبدوان متشابهين وهو الشعور الذي استقر في قلب الابن و الابنة تجاه أمهما ،

---

[1] - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر – صيدا – بيروت ١٩٩٥ ، المجلد الثالث ، صفحة ٣٥

[2] - موقع ملتقى أهل الحديث ، منتدى التخريج ودراسة الأسانيد ، مصعب الجهني ، 07-05-14

وهو أنهما كانا يفعلان ذلك وهما يتمنيان أن يستريحا من خدمة الأم بموتها ، بينما تقوم الأم بخدمة أبنائها وتنظيف قذارتهم وهي في غاية السعادة و تتمنى لهم الحياة الطويلة

و الآن إذا قارنا مستوى الأخلاق الذي جاء في الدين الحق بمستوى أخلاق حضارتنا المعاصرة المتخلفة بأخلاق (روح العصر) فماذا سنجد ؟

في كتابه (موت الغرب) ذكر الدكتور (باتريك جيه بوكانن) تحت عنوان (حل نهائي لمسألة الشيخوخة) ما يلي :

"و بالنسبة إلى الجمعية الهولندية للقتل الرحيم الطوعي ، يعتبر القانون الجديد ناقصاً على نحو خطير ، وذلك لأنه لا يمنح حقوق القتل الرحيم للذين قد تعبوا ببساطة من الحياة، فقد قال متحدث باسم الجمعية : إننا نعتقد أنك إذا كنت متقدماً بالسن ، وليس عندك عائلة بالقرب منك ، وأنت فعلاً تعاني من الحياة ، ففي هذه الحالة ينبغي أن يكون القتل الرحيم ممكناً، ووافقت على ذلك وزيرة الصحة إلس بورست وقالت : الناس المتقدمون بالسن جدّاً ، والذين سئموا من الحياة ينبغي أن يسمح لهم بقتل أنفسهم ، وقالت : أنا لست ضد ذلك طالما كان من الممكن تنظيم القتل بعناية وحرص كاف بحيث لا تهم إلا الناس المسنين جدّاً الذين تعبوا من عيش الحياة ، فإذا كان مثل هذا المريض راغباً في أن يموت ، حسب قول الوزيرة ، فينبغي أن يعطى له أو لها حبة للانتحار"[١] و يقول السير باتريك أيضاً :

"وبحلول عام ٢٠٥٠ فإن أكثر من (١٠%) من سكان أكبر أربع أمم في أوروبا الغربية (بريطانيا ، وفرنسا ، و ألمانيا ، و إيطاليا ، سيكونون فوق الثمانين، فهل سيصر عمال أوروبا الذين يجب أن ترتفع ضرائبهم و الذين يجب أن تؤجل مواعيد تقاعدهم ليعينوا بالمال تكاليف رواتب التقاعد و الرعاية الصحية لهؤلاء السكان المسنين الذين تتنامى أعدادهم ، هل سيصر العمال على المحافظة على كبار السن المرضى و الهرمين في الثمانينيات و التسعينيات من أعمارهم ليبقوا على قيد الحياة ؟ --- في زيورخ يعتبر الانتحار بالمساعدة أمراً مسموحاً به في البيوت المعدة للمسنين، و أطفال ازدهار الولادات في أوروبا قد يعيشون حتى يروا حياتهم تنتهي بدون موافقتهم ، من مجتمع قاس غليظ القلب ضد رغبتهم في البقاء أحياء مثلما كانوا هم قساة غلاظ القلوب ضد الأطفال غير المولودين في زمانهم، ما يذهب دائراً يعود دائراً"[٢]

مما سبق يتبين أن هناك الكثيرين يوافقون على هذا النوع من القتل ويسمونه (القتل الرحيم) ، منهم وزراء و أطباء و مثقفون ، وهم لا يتحدثون عمن يتألم بشدة تجعله يعيش في عذاب مستمر ، لكنهم يتحدثون عن كبار في السن يشعرون بأنهم سئموا الحياة ، وبدلاً من التفكير في طرق تعيد لهم تمسكهم بالحياة و ابتهاجهم بها يقوم المجتمع المتحضر بتقنين قتلهم

بالنسبة لنا كمسلمين ، يعتبر مجرد وجود دار للمسنين في بلد ما شيئاً غير جيد ، لأنه يعني أن هناك نسبة من شباب هذه البلدة لا يستحقون الحياة ، لأنهم ضاقوا بآبائهم أو أمهاتهم ، الذين لا يستطيع الإنسان مهما فعل لهما أن يرد لهما ولو جزءاً من فضلهما عليه كما رأينا في الأحاديث النبوية السابقة

---

[١] - باتريك جيه بوكانن ، موت الغرب ، مكتبة العبيكان ، الرياض ١٤٢٥ هجرية – ٢٠٠٥م ، صفحة ٢١٥
[٢] - نفس المرجع صفحة ١٧

وبالنسبة لنا كمسلمين ، فإن رضا الأب و الأم البالغين من العمر تسعين سنة عن الابن أو الابنة هو شرط لازم لدخول الجنة و التجاوز عن جميع الذنوب ، لقول رسولنا الكريم ﷺ: "لا يدخل الجنة منان ولا عاق لوالديه ولا مدمن خمر" [١]

إن مجرد وجود نقاش فقط عن القتل الرحيم لكبار السن بزعم أنهم عبء على المجتمع هو سقوط أخلاقي بشع ، يجرد المجتمع الذي يجري فيه هذا النقاش من كل أشكال الأخلاق الراقية و يحوله إلى مجتمع لا حق له في الحياة ، وليس التعلل بأن كبار السن أحياناً يختارون الموت مقبولاً عندنا كمسلمين لأنه عذر أقبح من الذنب ، لأن هذا المسن لو وجد معاملة كريمة من أبنائه أو أقربائه لما تمنى الموت مطلقاً

رابعاً : قال تعالى في سورة لقمان : **" ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير ☼ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً و اتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ☼"** (لقمان ١٤ و ١٥)

يتضح من هذه الآية القرآنية كيف أوصى الله عز وجل الإنسان بأمه التي لها الفضل في وجوده ، والتي تحملت في سبيل هذا الوجود آلاماً شديدة جعلتها تعاني الضعف المتراكم والمستمر طوال فترة الحمل ، لكن أعجب ما في الخطاب القرآني هو أن الله عز وجل يأمر الإنسان المؤمن بألا يقطع بره و إحسانه بأمه وأبيه حتى في حالة كفرهما بالله عز وجل ، بل حتى إذا استخداما الإكراه بالقوة ضد الابن لكي **يكفر هو أيضاً** بالله سبحانه وتعالى ،

ونترك المقارنة هنا لقلب وعقل كل قارئ ليحكم بنفسه على الفارق الضخم بين مستوى الأخلاق التي جاء بها الإسلام لحماية حقوق الأم و الأب بنصوص إلهية صارمة ، وبين أخلاق روح العصر التي نتحلى بها في مجتمعاتنا البشرية التي أصبحت تفكر في التخلص منهما

٩- حق المرأة في ميراث أقربائها

قال تعالى في سورة النساء**" للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً"** (النساء ٧)

كانت هذه العبارة الصريحة في تأسيس حق المرأة في المال الذي تركه أحد أقربائها ثورة حقيقية غيرت نظرة الناس للمرأة ، وارتقت بها في عين أفراد المجتمع المسلم ارتقاءً لم تصل إليه في أي مجتمع آخر، لأن المرأة كانت وقت نزول هذه الآية **هي نفسها تورث** ضمن أموال زوجها المتوفى وتنتقل ملكيتها منه إلى ابنه الأكبر أو أخيه أو أحد ذكور عائلته، لكن الإسلام بدأ بتحريم توارث المرأة ثم ثنى بتقرير حقها في الميراث ثم أضاف إلى ذلك تحديد الأنصبة المستحقة لها من مال المتوفى بكل دقة لكي لا يتلاعب الرجال بحقوقها المالية و يحرموها منها،

ولأن أعداء الإسلام استخدموا نصيب المرأة في الميراث للطعن فيه ولإثبات ظلم الإسلام لها ، يتحتم علينا توضيح الحقيقة حتى يتضح عدل الإسلام من جور الأديان والمذاهب والحضارات الأخرى :

---

[١] - مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ، دار إحياء التراث العربي ، الحديث رقم ٦٨٦٣ ، جزء ٢ صفحة ٤١٠

لقد حدد الله عز وجل للمرأة في الميراث نصف نصيب الرجل في بعض الحالات و مثل نصيب الرجل في حالات أخرى و أكثر من نصيب الرجل في حالات ثالثة ، وأعطاها ومنع الرجل في حالات رابعة ،

ولأن الله عز وجل حين يشرع فإنه لا يحابي أحداً على حساب أحد ، ولأنه سبحانه وتعالى وضع على كاهل الرجل أعباءً مالية ضخمة لا تتحمل منها المرأة شيئاً فقد قسم سبحانه الميراث بحسب ما يقع على كل جانب من المسؤولية ،

ففي اليوم الذي يموت فيه الأب ويتم توزيع الميراث ، ستأخذ البنت نصيباً يعادل نصف نصيب أخيها الذكر ، لكنها ستأخذ نصيبها و تضعه كاملاً في حسابها في البنك ، بينما سيكون على الأخ مسؤولية الإنفاق على كل أفراد العائلة غير القادرين على الكسب ، و دفع جميع الأعباء المالية من فواتير و نفقات غذائية ، وعلاجية ، وتعليمية، وسكنية ، و حتى الملابس ، وأعباء وسائل المواصلات ، لأن الإسلام يلزم الرجل بالإنفاق على كل أقربائه الإناث و كذلك الذكور غير القادرين على الكسب ولا يلزم المرأة بشيء من ذلك

من ناحية أخرى سيكون على هذا الأخ الذي حصل على ضعف نصيب الأخت – إذا كان غير متزوج - مسؤولية توفير المال اللازم للزواج من المرأة المناسبة ، وأولها تدبير المهر الذي ليس له حد أقصى في الإسلام ، والذي يبلغ غالباً مقدار دخل الرجل في سنة كاملة أو عدة سنوات ، ثم سيكون عليه تقديم هدية ذهبية قيمة تبلغ نصف قيمة المهر تقريباً، وتكون بمثابة هدية لا ترد حتى لو حدث طلاق بعد الزواج بعدة ساعات ، وسيكون عليه أيضاً تدبير المسكن المناسب وتأثيثه بما يتناسب مع مطالب العروس ، ولا ننسى هنا أن كل هذه الأموال ستذهب لمصلحة امرأة أخرى هي الزوجة التي اختارها هذا الأخ ، وأخيراً سيكون على هذا الأخ أن يجهز مراسم الزواج التي تختلف من بلد لآخر حسب العرف السائد ،

وبعد كل ذلك سيتحتم عليه القيام بالنفقة الكاملة على زوجته و أبنائه دون أن يكون على زوجته الالتزام بدفع أي قدر من المال ، حتى لو كانت ثرية ثراءً فاحشاً وهو لا يملك إلا قوت يومه ، كما رأينا في واقعة المرأة التي سألت رسول الله ﷺ هل يجوز لها أن تدفع الزكاة لزوجها ولأيتام قرابتها

وعلى الجانب الآخر : ستأخذ الأخت نصيبها من الميراث – الذي يبلغ نصف نصيب أخيها - و ستحتفظ به كاملاً دون أن تدفع شيئاً في نفقات عائلتها ، و عندما يأتيها رجل يرغب في الزواج منها – إن كانت غير متزوجة - لن يطالبها الإسلام بدفع دولار واحد في تكاليف الزواج ، بل سيلتزم ذلك الرجل بأن يدفع لها مهراً هي التي ستحدد قيمته ، ولا يسمح الإسلام لأحد غيرها بأن يتصرف في هذا المهر حتى لو كان أقرب الناس إليها ، كما سيكون على ذلك الزوج دفع جميع النفقات الأخرى كاملة، وبعد الزواج لن يكون على هذه البنت مسؤولية حتى شراء الطعام الذي تأكله ، أو الملابس التي تلبسها ، ولا يحق لزوجها إكراهها على دفع أي قدر من مالها ما لم تساهم هي عن طيب نفس كما ذكرنا منذ قليل،

و إذا كان الأخ الوارث متزوجاً و أخته الوارثة متزوجة أيضاً فالأمر سيكون لمصلحة المرأة أيضاً ، لأن كل احتياجاتها الضرورية و حتى غير الضرورية سيكون زوجها قائماً بها دون

تقصير، لكن أعباء أخيها المتزوج ستكون كما هي تقريباً ، لأنه غالباً سيكون عنده من الأبناء ما يجعل المسؤولية عليه تزداد يوماً بعد يوم

وبعبارة أوضح : فإن نصيب البنت من الميراث سيكون لها وحدها ، تنفق منه على **ما زاد** عن حاجتها الضرورية ، لأن حاجاتها الضرورية هي فريضة على عاتق زوجها ، بينما لا ينفق الرجل على نفسه من المال الذي ورثه إلا بنسبة لا تزيد على العشرة بالمائة أو الخمسة عشر بالمائة في أحسن الأحوال ، والباقي سينفقه على الزوجة والأم والأبناء ، بالإضافة إلى أنه سيكون مسؤولاً عن الإنفاق على أبناء الأخ المتوفى أو الأخت المتوفاة إذا كانوا فقراء

والآن لو خيرنا المرأة في أن تأخذ نصيب الرجل في الميراث و تتحمل كل الأعباء المالية التي أمره بها الإسلام ، فهل توافق ؟ وكم هي نسبة النساء اللاتي سيوافقن على ذلك ؟

١٠- تحريـــــم الزنـــــى

أولاً : أثر الزنى على المستوى الشخصي :

هناك فارق كبير بين الجمال وبين الإثارة ، فالكثير منا ستحدث له إثارة عند مشاهدة حيوان يمارس الجنس مع أنثى من فصيلته الحيوانية نفسها ، لكن هذا المنظر ليس فيه أي قدر من الجمال على الإطلاق

والإنسان الراقي يحتاج إلى الجمال لإشباع زاوية معينة بداخله تفرقه عن الحيوان بالقدر نفسه الذي يحتاجه إلى الإثارة لإشباع غريزة الجنس، وبالتالي فالشعور بالجمال عند الإنسان الراقي سيجعل الإشباع الجسدي يأتي في المرتبة الثانية من أولوياته ، لأن هذا الإشباع الجسدي سيكون عنده وسيلة وليس غاية ، بعكس الحيوان الذي لا يهتم سوى بالإشباع الجسدي فقط ،

وحين ينظر الإنسان الراقي للمرأة فهو لا ينظر للوهلة الأولى إلى مواطن الإثارة في جسدها مثل الآخرين ، بل ينظر إلى مواطن الجمال في ذاتها وثقافتها وتفكيرها وشخصيتها كإنسان ، والفارق ضخم جدّاً ، فقد تكون هناك امرأة لا تحظى بقدر من الجمال لكنها تملك من الثقافة الراقية ، و من صفاء الروح والنقاء الذاتي ، والخلو من المكر ، والحنان على الآخرين ، و التضحية بأغلى ما تملك من أجل طفل يتيم ، أو شخص يتعرض للظلم ، ما يجعلها أجمل من كل نساء العالم بمن فيهن ملكات الجمال ، و عندنا من الأمثلة ما يستعصي على الحصر، و السيدة الأمريكية العظيمة التي وقفت أمام الجرافة الإسرائيلية عام ٢٠٠٣ لتمنعها من هدم بيوت الفلسطينيين الأبرياء ، ولم تتحرك حتى سحقتها تلك الجرافة التي كان يقودها سائق من العصر الديناصوري هي المثال الأكثر وضوحاً ، فلو ذهبت تلك الشابة للتنافس في مسابقة لملكات الجمال فربما لا يحالفها الحظ ، لكنها بدون أدنى شك امتلكت من الجمال الإنساني ما لو جمع جمال كل نساء الأرض المعاصرات في جسد واحد فلن يساوي نصف جمالها ،

والدين الحق يرفع من ارتقاء الإنسان نحو الإحساس بالجمال الحقيقي ، ويعلمنا كيف نضع الأشياء في موضعها دون خلط ، ففي مجال الحث على معاملة النساء معاملة حسنة جاء التوجيه الإلهي في غاية الارتقاء ، حين بين أن المرأة قد تملك من جوانب الخير و السمو الإنساني ما لا تراه عين الرجل ، قال تعالى في سورة النساء (١٩)

(وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)

بهذا التوجيه الراقي يحول الله عز وجل عين الرجل من عين شهوانية باحثة عن الجمال الجسدي إلى عين راقية تتسع لتنظر إلى جوانب أخرى في المرأة تجعلها أجمل بكثير من ذوات الجمال الجسدي الذي يحبه الرجال قصيرو النظر، والذي سيزول بسرعة لا يتخيلها هؤلاء الرجال

هذا المستوى من الارتقاء لم تصل إليه المجتمعات الحديثة حتى الآن ، فليس هناك أحد من قادة علم الاجتماع ، أو الأطباء النفسيين ، أو حتى رجال الأديان الأخرى من وقف إلى جانب المرأة إلى حد حث الرجل على إكرامها والحفاظ على عشرتها بالمعروف حتى في حالة كرهه لها ، استناداً إلى وجود جوانب أخرى في شخصيتها لا يراها هذا الرجل ترفع من رصيدها في قلبه و عينه وتحقق له نفعاً لا يتوقعه ، وفي هذا السياق نفسه جاء حديث رسول الله محمد ﷺ **"لا يفرك – أي لا يكره – مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر"**[1] (صحيح مسلم)

من هذا المنطلق علمنا الدين الحق أن المرأة أعظم بكثير من مجرد جسد مثير يمنح لجسد الرجل متعة مادية ، وعلى الرجل أن يبحث عن المرأة الجميلة جمالاً **مرتبطاً بشخصيتها لا بجسدها** ، لأنه سيحصل على المتعة الجسدية بالقدر نفسه تقريباً من جميع النساء ، لكنه لن يحصل على جوانب الجمال الحقيقية الأخرى التي يحبها ويقدرها إلا من امرأة يختارها قلبه وعقله مجتمعين،

كما علمنا الدين الحق أن النظر إلى المرأة على أنها مجرد جسد مثير يتمتع به الرجل وقتما شاء ثم يلفظه ويذهب إلى جسد آخر أكثر إثارة ، **يمثل أكبر إهانة للمرأة** ، ولذلك حرم الله عز وجل على الرجال الحصول على المرأة إلا بعقد زواج موثق ، يضمن لها أن الرجل الذي يريدها لا يريدها كجسد مثير فقط ، و إنما كإنسانة أحب الكثير من جوانب الجمال فيها ، ووثق في أنها ستظل محتفظة بهذه الجوانب من الجمال الشخصي حتى و إن بلغ سنها مائة عام ، وبهذا يكون الدين الحق قد حافظ على كرامة المرأة و عزتها حتى آخر يوم في عمرها

هناك فارق ضخم بين ممارسة الإنسان الجنس مع امرأة ممارسة عابرة لا تدوم علاقته بها سوى ليلة أو ليلتين ، وبين ممارسة الجنس مع زوجة يقرر الإنسان أن تكون هي توءم روحه ، و الحب الذي يملأ قلبه بالبهجة والسرور طوال حياته ، ثم تكون أمّاً لأبنائه الذين يشعر بأنهم يمنحونه الخلود بسبب كون حياتهم امتداداً لحياته

في الحالة الأولى ، لن يحصل كلا الطرفين إلا على الإثارة فقط ، وبالتالي إشباع غريزة جسدية يستطيع أن يحصل عليها بممارسة الجنس مع أي شخص آخر، أما في الحالة الثانية فسيحصل كلا الطرفين على الجمال و على الإثارة معاً ، وسيرى كل طرف كل يوم في الطرف الآخر جانباً جديداً من جوانب الجمال لم يكن قد رآه بالأمس ، وبخاصة عندما تتعرض الأسرة للصعوبات ويبدأ كلا الطرفين في بذل كل ما يستطيع من أجل الأسرة ، أو بمعنى آخر من أجل الاحتفاظ بالطرف الآخر، وسيغذي هذا الفعل التراكمي العلاقة بينهما يوماً بعد يوم حتى يشعر كل منهما أن الطرف الآخر صار جزءاً منه لا تكتمل سعادته إلا به

[1] - صحيح مسلم، دار الكتب العلمية ١٩٩٢، الحديث رقم ٣٦٠٣، جزء ١٠ صفحة ٥٠

و لتوضيح الفعل التراكمي في هذه العلاقة نستطيع أن نضرب المثال التالي : فلو تخيلت أنك تتوجه في صباح كل يوم إلى البنك لتودع فيه مائة دولار ، و أنك حافظت على ذلك بدون انقطاع لمدة ثلاثين سنة ، ثم تخيلت في وضع آخر أنك وضعت المائة دولار كل يوم في يد أول شخص يقابلك فور خروجك من المنزل ، ما هي النتيجة التي سنحصل عليها بعد مرور ثلاثين عاماً ؟

الجواب واضح : في الحالة الأولى سيكون عندك رصيد كبير من المال في وقت يكون فيه الجزء الأكبر من حياتك قد انقضى ، وأصبحت في حالة أحوج ما تكون فيها إلى المساعدة بسبب كبر السن ، وتراجع الحالة الصحية ، و تفرق الأبناء و الأصدقاء من حولك ، أما في الحالة الثانية فسوف تبحث عن آلاف الناس الذين كنت كريماً معهم منذ ثلاثين سنة فلن تجد منهم أحداً يسأل عنك ولا حتى بواسطة اتصال تليفوني

العلاقة الزوجية تشبه الحالة الأولى : فكل يوم يمر عليك يضع في رصيدك قدراً مهمّاً من العاطفة في قلب زوجتك ، وفي الوقت نفسه يضع لها في قلبك رصيداً مماثلاً ، وكل نجاح يتحقق للزوج أو للزوجة أو للأبناء يزيد من هذا الرصيد بقوة ، وحين يتعرض أحد الأطراف إلى صعوبة من أي نوع و يهرع الآخر إلى مساعدته في إزالة تلك الصعوبة يزداد الرصيد زيادة كبيرة ، ويوماً بعد يوم سيصبح كلا الطرفين كل شيء بالنسبة للطرف الآخر

أما العلاقات العابرة فمهما بدت في أولها حميمة و عنيفة فكلا الطرفين يشعر أنها علاقة عابرة حتى لو استمرت عاماً كاملاً ، و مع مرور الزمن تبدأ هذه العلاقة في الفتور و يبدأ أحد الطرفين أو كلاهما في البحث عن علاقة جديدة أكثر إثارة، ومع تعدد العلاقات العابرة ومع تقدم العمر سيشعر الشخص أنه ليس له رصيد حقيقي في قلب أي شخص ممن عرفهم ، وبالتالي سيشعر أنه غريب في بلده وسينتهي به الحال في دور المسنين أو المصحات النفسية، وربما يطلب حقنة (الموت الرحيم) التي ذكرناها منذ قليل ، والنتيجة ستكون أسوأ بالطبع بالنسبة للمرأة لأنها أكثر حظاً من الرجل في مجال العاطفة

- الضرر الجسدي : تناولت الفقرات السابقة الحديث عن الضرر النفسي الذي يسببه الزنى، لكن هناك ضرر جسدي يلحق بالمرأة بسبب الحرية الجنسية ، قد يصل إلى تعريض حياتها للخطر بسبب الأمراض القاتلة التي تنتقل عن طريق الممارسات المتكررة مع أشخاص متعددين ،

ففي سن مبكرة يندفع الشاب و الفتاة في المجتمعات المتحررة إلى إشباع نهم الغريزة بشكل مفرط ، دون أدنى فكرة عن المخاطر الصحية و الأمراض القاتلة التي تنتظر كلاً منهما، والتي لا أمل في الشفاء منها، و من هذه المخاطر ما يلي (مأخوذة باختصار من كتاب الدكتور زغلول النجار مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة تعليقاً على قول الله تعالى **"ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً"** :

١- مرض الزهري (Venereal Disease) الذي يؤدي - بالإضافة إلى القروح الجلدية و البثور المؤلمة وسقوط الشعر و الاستسقاء و التهابات المفاصل – إلى احتمال الإصابة بالعمى الكامل، وانتقال المرض من الأم إلى الجنين

٢- مرض السيلان (Gonorrhea) : ويصيب الجهاز البولي/ التناسلي بالتهابات شديدة ويؤدي إلى التشوهات الجلدية و العقم ، لكن خطورة المرض تكمن في سرعة انتشاره بمجرد لمس أشياء المريض و إلى انتقاله من الأم إلى الجنين، وإلى الحالة النفسية السيئة التي تصاحب المرض خاصة عند النساء

٣- مرض التقرحات الفيروسية (Herpes) : ويصيب الجهاز البولي / التناسلي بالتهابات وبثور تنتشر على الجلد وتتحول بالهرش إلى جروح مؤلمة ، ويصيب هذا المرض المعدي الجهاز العصبي والنخاع ألشوكي وقد يصل إلى المخ مسبباً الوفاة ، ويوجد احتمال لولادة طفل فاقد البصر من أم مصابة بهذا المرض، ولا يوجد لهذا المرض علاج مؤكد حتى الآن

٤- مرض القرح اللين : يظهر على هيئة بثور صغيرة متعددة تتقرح بسرعة وتفرز مواد تقيحية نتنة ودماء ، وتصيب مساحات كبيرة من الجلد ، وقد تتطور هذه التقرحات إلى التليف والتشوه مما يستدعي التدخل الجراحي

٥- أمراض النمو الحبيبي التقرحي : ويظهر على هيئة تقرحات حبيبية أو حويصلية منتنة تصيب مساحات كبيرة من الجلد وعند التئام تلك القرح تترك وراءها تليفات وندباً كبيرة مشوهة يصعب علاجها حتى بالتدخل الجراحي

٦- أمراض النمو البلعمي الالتهابي : ويظهر على هيئة حويصلة أو عدة حويصلات في جلد المناطق التناسلية يتجمع داخلها سوائل سرعان ما تتقيح و تتحول إلى تورمات مؤلمة ناتجة عن إلتهاب وتضخم الغدد البلعمية، ويكون التورم عادة في عقد منفردة تتجمع لتصبح كتلة واحدة تشكل خراجاً أو عدد من الخراجات تتحول إلى ناسور يفرز صديداً نتناً مختلطاً بالدم، ويصاحب هذا المرض عادة بارتفاع درجة الحرارة والتعرق والغثيان والرغبة في التقيؤ و آلام في الظهر والمفاصل وقد تتحول إلى أورام سرطانية

٧- مرض نقص المناعة المكتسبة الإيدز (A.I.D.S) : و يكفي أن نعلم أن هذا المرض هو مرض قاتل لا أمل في الشفاء منه لعدم وجود علاج له حتى الآن ، وأنه أصبح كابوساً يؤرق العالم لوجود عشرات الملايين الذين يصابون به كل عام في كل أنحاء العالم ، و يهاجم هذا المرض الجهاز الهضمي والتنفسي والعصبي كما يهاجم الأجنة في بطون الأمهات ، ويصيب المريض بالإسهال المزمن الذي يؤدي إلى جفاف الجسم وهزاله ، ولا ينتهي إلا بالموت[١]

هذه الأخطار المدمرة للشباب والشابات تؤكد أن تحريم الزنا هو السبيل الوحيد لوقاية البشر رجالاً ونساءً من آثارها القاتلة ، و على أن المجتمع المنضبط بوحي السماء ينعم بدرجات من الأمان النفسي و الصحي لا يستطيع المجتمع المتحرر أن يصل إليها مهما أنفق من مليارات ومهما أنجز من أبحاث

وبإجراء مقارنة بسيطة يمكننا أن نتثبت من صحة ذلك ، فبينما لا تعرف الفتاة في المجتمعات المسلمة طريق طبيب النساء إلا بعد الزواج الذي قد يمتد إلى سن الخامسة والعشرين وربما الثلاثين ، ولا تعرف شيئاً عن وسائل منع الحمل إلا بعد الحمل الثاني أو الثالث الذي قد يمتد إلى

[١] -د: زغلول النجار ، مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية ، دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت- لبنان ، الطبعة الثانية ٢٠١٢ ، صفحة ٢٣٩

ما بعد سن الثلاثين ، ولا تناقش موضوع الإجهاض في حياتها كلها إلا في حالة وجود خيار واحد بين حياة الأم أو حياة الجنين ، تكون الفتاة في المجتمعات المتحررة قد مر عليها أكثر من عشرة أعوام وهي تتنقل بين الأطباء، لمساعدتها في استخدام كل تلك الوسائل التي تستهلك جسدها الصغير بلا رحمة ثم مساعدتها في علاج آثارها الجانبية ،

وبينما لا تسمع الفتاة الأولى عن أمراض مثل السيلان والزهري والإيدز إلا من الكتب ، تكون بعض الفتيات في المجتمعات المتحررة وقبل سن الخامسة و العشرين قد أصبحت حاملة لعدد من الأمراض الفتاكة **غير موجود في نساء مدينة كاملة** من المدن المسلمة الملتزمة بتعاليم الإسلام ،

وبعبارة موجزة فإن الفتاة في المجتمعات التي تبيح الحرية الجنسية بلا قيود حين تصل إلى سن الخامسة والعشرين ، تكون قد استهلكت جسدياً ونفسيّاً و صحيّاً أكثر بمقدار الضعف من المرأة البالغة من العمر خمسين عاماً في المجتمعات الملتزمة بتعاليم الإسلام

من أجل ذلك نستطيع القول بأن الحرية الجنسية بالإضافة إلى أنها أهانت المرأة ، فهي أيضاً تعتبر أكبر ضرر سببته الحضارة الحديثة على صحتها الجسدية والنفسية ، وأن تحريم الزنى الذي شدد عليه الدين **هو أكبر انحياز للمرأة** ولصحتها ، و لكرامتها ، و لحماية إنسانيتها من بعثرة كل ذلك على قارعة الطريق ،

وباختصار : الدين يجعل المرأة كالجوهرة الثمينة في أرقى محلات المجوهرات و التي لا يستطيع الحصول عليها إلا من يعرف قيمتها الحقيقية ، لكن الإلحاد و التحرر يجعلان المرأة متاحة للجميع كالحلي المقلدة التي لا ثمن لها و التي تتلاعب بها أيدي المستهترين

ثانياً : أثر الزنى على المستوى العام :

ما هو الفرق بين قطعة من الحديد المصقول وبين سحابة مكونة من عدد لا نهائي من الالكترونات والبروتونات الحرة على شكل بلازما غازية ؟

يحدثنا علماء الكيمياء أن قطعة الحديد تتكون من ذرات الحديد التي تملك من قوى التماسك بين ذراتها ما جعل العلماء يؤكدون أن الطاقة الهائلة في جوف الشمس غير كافية لحدوث الاندماج النووي اللازم لتكون هذه الذرة ، و أنها تتكون بفعل الاندماج النووي داخل المستعرات العظمى التي تطلق من الطاقة أضعافاً مضاعفة مما تملك النجوم الصغيرة مثل شمسنا ،

وبالقوة الأكبر قدراً من جميع القوى الأخرى المعروفة لنا في الطبيعة تمسك نواة ذرة الحديد بالإلكترونات التي تدور حولها و تشكل معها هي وكل ذرات الحديد المشابهة ذلك المعدن العجيب الذي يمثل العمود الفقري للحياة و للحضارة الحديثة ، وبمقارنة قطعة الحديد هذه بسحابة الدخان المكونة من بلازما من الإلكترونات نجد أن تلك السحابة الغازية لا تملك أي قدر من التماسك أو القوة التي تملكها ذرة الحديد و بالتالي تتشتت على الفور و تتبدد في الهواء

الفارق بين المجتمع المنضبط بوحي السماء والمجتمع المقطوع الصلة بهذا الوحي هو تماماً كالفارق بين ذرة الحديد وبين السحابة الغازية المكونة من بلازما الإلكترونات ،

والذرة المتماسكة في هذا المجتمع هي الأسرة التي يجمع فيها الأب بقية الأفراد بقوة تماسك ضخمة تجعل بناء هذه الأسرة بناءً قويّاً ومترابطاً ، والنتيجة هي مجتمع قوي و مترابط يستطيع الصمود أمام التحديات ،

وعندما ينهار نظام الأسرة الطبيعي المكون من أب و أم وأبناء شرعيين ، لكل منهم حقوق و واجبات معروفة و متوازنة ، إلى نظام مفتوح مكون من رجال و نساء لا يرتبطون إلا بعلاقات عابرة قائمة على تحقيق أقصى نفع ذاتي – مادي أو معنوي – عند ذلك يتحول المجتمع إلى سحابة من البلازما توشك مع مرور الزمن أن تتبدد

ولأن تنشئة وعي الأطفال وقناعاتهم هي أهم خطوات بناء الأجيال القادمة ، فإن نظام الأسرة يحتل المرتبة الأولى من حيث الأهمية لضمان توارث الأجيال لهوية الأمة و لثقافتها وعقيدتها ، وبالتالي توارث الانتماء الذي يجعل الأفراد قادرين على الدفاع عن أمتهم و مستعدين للتضحية بأرواحهم من أجل بقائها وازدهارها ، وبدون الأسرة تكون الأجيال الجديدة معرضة للانسلاخ من هويتها وعقيدتها و قابلة للذوبان والاندثار

وهناك فارق كبير بين الحالتين ، فالطفل الذي ينشأ في أسرة مكونة من أب و أم يحب كل منهما الآخر ويحترمه ، ويشعر الطفل أن هذا الأب و هذه الأم يكرسان كل حياتهما من أجله ، سيمتلك قدراً كبيراً من الأمان النفسي ، كما ستتولد عنده مشاعر جارفة نحوهما تجعله يرتبط بهما بقوة ، و يميل في جميع اختياراته نحو المحافظة على هذا المحيط الصغير الذي يحظى فيه بكل حب و رعاية و أمان ، وسوف يقوم الأب والأم بتلقين طفلهما كل القيم النبيلة و الأخلاق الراقية النابعة من عقيدة الأمة و هويتها و التي لا غنى لأي مجتمع متحضر عنها ، لأن شيوع تلك القيم النبيلة هو الضمان الذي يشيع روح السلام والأمن و الألفة في المجتمع ، من ناحية أخرى ، فإن انتماء هذا الطفل للأسرة التي يشعر بحبها له و بتضحيتها من أجله سيجعله يرتقي إلى الانتماء للوطن الذي ستكون الأسرة في عقله هي الصورة المصغرة له، وبقدر ما يمتلئ قلبه بحب أسرته سوف يمتلئ أيضاً بحب وطنه والافتخار به و الإخلاص في خدمته

أما في الحالة الثانية ، فإن الطفل الذي ينشأ في محيط أناني ، لا هم لأفراده إلا إشباع شهوات خاصة لن تأتي إلا على حساب الاهتمام بأطفال الأسرة ، ويرى أن أمه منشغلة عنه بعلاقاتها الجسدية مع رجال آخرين غير والده ، و يرى أباه أكثر انشغالاً عنه للسبب نفسه ، فالنتيجة الطبيعية أن هذا الطفل سينشأ غير مستقر نفسيّاً ، وستكون الأنانية الطاغية هي الدافع الأساسي لجميع مواقفه و سلوكياته ومفاهيمه ، و سيفقد كل انتماء للأسرة وبالتالي للمجتمع الذي سيصبح في نظره مجرد بلازما من البشر ليس بينهم سوى المصالح المادية والعلاقات الجسدية العابرة دون وجود أي قدر من الحب الحقيقي ولا أي نسبة من الأخلاق الفاضلة ،

وسوف يتحول المجتمع إلى غابة تحكمها قوانين البقاء للأقوى ، وهنا تكون كل الظروف المحيطة دافعة بقوة لهذا الطفل نحو البحث عن كيان آخر غير كيان الأسرة الضائع لينتمي إليه ، و ستكون النتيجة هي مئات الآلاف من الشباب والفتيات الذين يسارعون بالانتماء إلى كيانات شاذة وضالة مثل جماعات عبادة الشيطان أو الجماعات العنصرية التي تحدث صدعاً في المجتمع يمكن أن يشعل حرباً أهلية مدمرة في أي وقت ، أو ينضمون إلى عصابات الشوارع والسرقة بالإكراه و الاغتصاب و القتل دون أن يشعروا بأي خجل أو تأنيب ضمير تجاه

جرائمهم المروعة بل يفتخرون بها ، وبذلك يفقد المجتمع أكبر قوة ذاتية فيه وهي شبابه الذي يمثل مستقبله القريب

● ● هذا إذا كنا ننظر من داخل المجتمع و نحن على مسافة قريبة من سلوك الأفراد ، أما إذا نظرنا من خارج المجتمع و حاولنا قراءة مستقبل مثل هذه المجتمعات فسوف نرى أنها تسير مع الزمن إلى الموت البطيء في صمت ودون ضجيج ، لأن المجتمع القائم على الحرية الجنسية المطلقة ستكون **آخر رغبات أفراده** هي إنجاب طفل ، والالتزام بمسؤولياته الضخمة التي تقيد حرية هؤلاء الأفراد في إشباع شهوات لا يمكن اشباعها

ربما يعتقد البعض أننا نبالغ ، لكن الأرقام الخطيرة التي ذكرها الأمريكيون عن مجتمعهم الأكثر حرية في عالمنا الحديث تكشف حجم المشكلة ،

ففي كتابه (موت الغرب) ذكر الكاتب الأمريكي باتريك جيه بوكانن ما يلي :

"الغرب يموت ، لقد توقفت أممه عن التكاثر ، وتوقف سكانه عن النمو وبدؤوا بالانكماش ، ولم يقم منذ الموت الأسود الذي حصد ثلث سكان أوروبا في القرن الرابع عشر تهديد أخطر لبقاء الحضارة الأوروبية من هذا الخطر الماثل، اليوم هناك سبعة عشر بلداً أوروبيّاً فيها جنازات دفن أكثر من احتفالات الولادة--- يبدو أن مبدأ اللذة الجديد غير قادر على إعطاء الناس سبباً كافياً ليستمروا في الحياة"[١]

ويكمل السير باتريك تحت عنوان (الأنواع المعرضة للخطر) على النحو التالي :

"مثلما كان تنامي عدد السكان طوال وقت مديد علامة على أن الأمم تتمتع بالصحة فإن هبوط عدد السكان صار سمة للأمم والحضارات التي تعيش حالة انحطاط ، و إذا ما كان هذا صحيحاً فإن الحضارة الغربية تكون – مع وضع القوة والثروة جانباً – في حالة حرجة وذلك لأن السكان في الغرب مثل قطة شيشر قد بدؤوا بالتلاشي، وحتى وقت متأخر في عام ١٩٦٠ كان السكان الأوروبيون ومعهم الأمريكيون و الاستراليون و الكنديون يبلغون ٧٥٠ مليوناً ، أي الربع من ٣ بلايين من البشر الأحياء---- وفي الوقت الذي تضاعف فيه عدد سكان العالم إلى ستة بلايين نسمة في غضون أربعين عاماً ، فقد توقفت الشعوب الأوروبية عن التكاثر ، وبدأ عدد السكان بالتوقف ، بل وفي العديد من البلدان بدأ عدد السكان بالهبوط، ومن بين الأمم الأوروبية السبع والأربعين هناك أمة واحدة فقط وهي ألبانيا المسلمة كانت ما تزال تحتفظ في العام ٢٠٠٠ بمعدل مواليد كاف ليبقيها حية إلى أجل غير محدود، أما بقية أوروبا فقد بدأت تموت، التنبؤ بالحالة المحتملة للوضع متجهم ، وبين العام ٢٠٠٠ والعام ٢٠٥٠ سوف ينمو عدد سكان العالم بأكثر من ثلاثة بلايين نسمة ليصل إلى تسعة بلايين نسمة، ولكن هذه الزيادة التي تبلغ ٥٠% من سكان المعمورة سوف تأتي بكاملها في آسيا و أفريقيا و أمريكا اللاتينية ، بينما سوف يتلاشى عن ظهر الأرض مائة مليون نسمة من الأصول الأوروبية، في العام ١٩٦٠ كان السكان المنحدرون من أصول أوروبية يشكلون ربع سكان العالم ، وفي العام ٢٠٠٠ كانوا

---

[١] - باتريك جيه بوكانن ، موت الغرب ، مكتبة العبيكان ، الرياض ١٤٢٥ هجرية – ٢٠٠٥م ، صفحة ٢٧

يشكلون السدس ، أما في العام ٢٠٥٠ فسوف يشكلون عشر سكان العالم ، هذه الإحصاءات عن جنس يتلاشى"[١]

ويقول الكاتب أيضاً :" سيكون على الأمريكيين في حلف الناتو أن يدافعوا قريباً عن عالم فراغ واسع، وإذا بقيت معدلات الخصوبة الحالية سارية فإن سكان أوروبا سوف يتناقصون إلى ٢٠٧ ملايين نسمة مع نهاية القرن الحادي والعشرين ، وهم بذلك أقل بنسبة ٣٠% مما هم عليه الآن، وسيكون مهد الحضارة الغربية قد صار قبراً لها، لماذا يحدث هذا ؟ الاشتراكية التي كانت النشوة السعيدة للمثقفين الأوروبيين لأجيال خلت هي السبب، و يحاجّ الدكتور جون والاس من بولوجنا من جامعة جونز هوبكنز ويقول : إذا كان لدى كل مواطن وعد بالحصول على تقاعد من الدولة فإن الأطفال لا يمثلون بعد ذلك تأميناً حيويّاً ضد العوز في الشيخوخة وتقدم العمر، وإذا كانت النساء قادرات على أن يكسبن أكثر من كفايتهن ليكن مستقلات ماليّاً فإن الزواج لا يبقى بعد ذلك أساسيّاً، وإذا كنت تستطيع أن تمارس الجنس أيضاً وبدون أطفال--- فلماذا إذاً تتزوج؟ وإذا استطاع الاشتراكيون الأوربيون تحرير الأزواج والزوجات و الأطفال من مسؤوليات الأسرة فإنهم بذلك قد اجتثوا الحاجة إلى الأسر، وبناءً على ذلك بدأت الأسر تختفي، و عندما تذهب الأسر تذهب أوروبا معها" [٢]

ويضرب الكاتب مثالاً بألمانيا على النحو التالي :

"وفي غضون خمسين عاماً سيكون النمر قد حقق انتقامه، لأن النساء الألمانيات يرفضن أن ينجبن أطفالاً ، وطوال عشر سنوات كان معدل الولادة في ألمانيا قد وقف عند ١,٣ طفل للمرأة الواحدة وهو معدل أقل بكثير من معدل ٢,١ الضروري لتعويض السكان الموجودين حاليّاً، وفيما يلي المستقبل القاسي الآن على الأمة الألمانية مع حلول عام ٢٠٥٠ :

- سيكون ثلاثة وعشرون مليون ألماني قد اختفوا
- عدد سكان ألمانيا الذي بلغ اثنين وثمانين مليون نسمة سوف يهبط إلى تسعة وخمسين مليون نسمة
- عدد الأطفال الألمان تحت سن الخامسة عشرة سيكون قد نزل إلى ٧,٣ مليون نسمة
- ثلث سكان ألمانيا سيكون فوق الخامسة والستين، وهؤلاء الشيوخ سيفوقون بعددهم الأطفال بنسبة أكبر من اثنين لواحد"[٣]

ويختم الكاتب حديثه عن ألمانيا قائلاً:

"هذا قلق يستطيع الغرب أن يطرحه ليستريح ، فمع شيخوخة وموت الشعب الألماني ، ومع كون الأطفال الألمان المتوقعين أقل بخمسة ملايين في العام ٢٠٥٠ من عددهم في عام ٢٠٠٠ فإن ألمانيا مثل جندي شائخ في أغنية الجنرال ماك آرثر توشك بالضبط أن تتلاشى ببطء"[٤]

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ٣١
[٢] - المرجع نفسه صفحة ٣٥
[٣] - المرجع نفسه صفحة ٣٧
[٤] - المرجع نفسه صفحة ٣٩

ويستمر الكاتب في شرح المستقبل المأسوي لكل دول أوروبا وكذلك اليابان وروسيا وجميع تلك الدول تسير في المصير نفسه الذي تسير إليه ألمانيا وهو التلاشي بصمت

مما سبق يتضح أن الحرية الجنسية المطلقة تدمر المجتمعات وتقضي على الحضارات الإنسانية بدون حروب ولا أسلحة ولا أعداء متربصين، ويتضح أيضاً أن القيود التي وضعها الدين كانت في مصلحة المجتمع الإنساني ، برجاله ، ونسائه ، و أطفاله ، من أجل إبعاد خطر الموت عنه

١١- تحريم الشذوذ الجنسي

أعجب ما يمكن للإنسان سماعه هو عبارات الدفاع عن حقوق المرأة عندما تصدر من فم إنسان يدافع عن الشذوذ الجنسي، هذا يشبه قيام هتلر بتأسيس جمعية للدفاع عن اليهود من بطش النازية، إنه في الحقيقة ليس إلا متاجرة بالمشاعر ، وخداعاً للبسطاء الذين يصدقون أي شيء

فليس هناك اعتداء على حقوق المرأة أكبر من الدفاع عن حق الشواذ جنسيّاً في الوجود أو المساواة ، لأن الشذوذ الجنسي يحرم المرأة من كل ما يمكن أن تتمتع به في هذه الدنيا ، يحرمها من التمتع بالجنس الطبيعي ، ويحرمها من الزوج الذي يؤمن لها جميع متطلباتها الضرورية – النفسية والجسدية - حتى آخر يوم في حياتها ، ويحرمها من الأطفال الذين لا تشعر بأنوثتها ولا بأهميتها في الوجود إلا بهم ، ويحرمها من الابن البار والابنة الحنون عندما تكبر و تصبح في أمس الحاجة لهذا البر وهذا الحنان

ليس من حق أي رجل يدافع عن الشذوذ أو يمارسه أن يتحدث عن حقوق المرأة ولا عن حريتها وكرامتها ولا بكلمة واحدة ، لأن هذا الرجل هو بذاته يمثل تهديداً حقيقيّاً للمرأة ، فالأرقام التي قرأناها منذ قليل على لسان الكاتب الأمريكي باتريك جيه بوكانن كانت مبنية كلها على استمرار وجود علاقات جنسية غير شرعية بين الرجال والنساء يمكن أن تثمر عن أطفال و إن كانوا غير شرعيين ، لكن في ظل الانزلاق السريع نحو هاوية تقنين الشذوذ و الافتخار به وتسابق الأمم الغربية في رفع مكانة الشاذين ومحاولة استرضائهم من قبل القادة السياسيين والمفكرين فإن كل معدلات الخصوبة التي جاءت في كتاب (موت الغرب) برغم ضآلتها ستهبط إلى النصف أو أقل ، وهو ما سيعجل بالنهاية المأسوية لتلك المجتمعات بدون شك

ماذا كان يمكن أن يكون مصير الكون إذا استمرت حالة جسيماته في صورة بلازما من الإلكترونات فقط بعد بدء الانفجار الكبير ولم تبدأ أنوية الذرات – الموجبة الشحنة - في التكون وفي جذب الإلكترونات – السالبة الشحنة - نحوها لتكوين ذرات العناصر ؟ ببساطة لم يكن من الممكن لنا أن نكون هنا لنطرح السؤال ، لا نحن ولا أي مخلوق له وجود فعلي في الكون

مجتمعات الشذوذ الجنسي تشبه كوناً مكوناً من عدد لا نهائي من أنوية الذرات التي تحاول الانجذاب بعضها إلى بعض ، أوعدد لا نهائي من الإلكترونات التي تحاول الانجذاب بعضها إلى بعض ، والنتيجة معروفة لنا جميعاً ، لا ذرات ، لا جزيئات ، لا عناصر، وبالتالي : لا كواكب ولا نجوم ولا مجرات ، ولا شيء غير العدم والصمت

حين كنت في الثانية عشرة أمسكت بقطعتين من المغناطيس ، وحاولت تقريب القطبين المتشابهين الذين كانا يتنافران بكل قوة ، لكن روح التحدي دفعتني لبذل مزيد من الجهد لمحاولة

إلصاقهما بالقوة ، و كنت مصرّاً على معرفة الشيء الذي يدفعهما إلى التنافر ولا تراه عيني ، وكررت المحاولة مراراً لكنهما كانا يتنافران بقوة لدرجة أن يدي جرحت ، و اقتنعت يومها أن قوى الطبيعة لن تخضع لقوة الإنسان لأن قوته أضعف منها بكثير

هذه التجربة الساذجة تكشف لنا أننا يمكننا التعايش مع قوى الطبيعة لكن لا يمكننا قهرها، والزواج هو الصورة الطبيعية للتعايش مع طبيعتنا البشرية ، فبقدر انجذاب القطبين المختلفين من بعضهما بعضاً بقوة وبسرعة وبدون بذل أي جهد يكون انجذاب الرجل للمرأة والعكس ، لكن انجذاب الرجل للرجل أو المرأة للمرأة يشبه محاولة تقريب القطبين المتشابهين من بعضهما بعضاً، ولن يتم ذلك إلا ببذل قوة كبيرة تجعل هذا النوع من العلاقات أبعد ما يكون عن تحقيق أي نوع من السعادة أو الحياة النفسية المستقرة ، إن الشذوذ الجنسي يتصادم مع الطبيعة بكل قسوة و يجعل من الإنسان **الشاذ مخلوقاً غريباً عن الكون** الرائع الذي صممه خالقه العظيم على أساس التزاوج بين عنصرين يكمل كل منهما الآخر ، وبدون هذا التزاوج لم يكن مقدراً لنا أن نرى الحياة على الأرض ، ولكان سطح كوكبنا صورة طبق الأصل من سطح كوكب الزهرة أو المريخ ، بل ما كان ممكناً للكون نفسه أن يولد ولا أن يستمر في الوجود ، ولقد علمنا الله عز وجل هذا المبدأ البسيط في القرآن الكريم بقوله تعالى **"ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون"** (سورة الذاريات ٤٩)

١٢- الحجاب

(و هو أن ترتدي المرأة ثياباً تستر كل جسدها ما عدا الوجه والكفين)

حين شرع الله عز وجل الحجاب للمرأة كان هذا التشريع هدفه حماية المرأة وكرامتها ورفع قدرها على المستويين الخاص والعام :

أولاً : على المستوى الخاص

- فالحجاب وحده هو الذي يجعل الآخرين يقومون المرأة على أساس ما تحمله من ثقافة وفكر وذكاء و حسن خلق ، وليس على أساس ما يحمله جسدها من الإثارة
- والحجاب وحده هو الذي يجعل المرأة ندّاً للرجل ويمنحها المساواة معه، وبدون الحجاب سيظل الرجل محتلاً للمكانة الأولى باعتباره هو الذي سيصدر الحكم على أناقة المرأة - غير المحجبة - وهو الذي يجب عليه كنوع من المجاملة إبداء الإعجاب بها ، و ستظل المرأة في المرتبة الثانية التي تفرض عليها أن تبذل كل ما بوسعها لتبدو جميلة في عيون الرجال ، وينطبق هذا على مقابلة عابرة بين شاب وفتاة في الجامعة بالقدر نفسه الذي يحدث في اجتماع سياسي هام يضم وزراء من الجنسين ، فلن تنسى الوزيرة أنها امرأة حين تنوي الذهاب للاجتماع و سوف تقضي جزءاً كبيراً من وقتها لإعداد كل ما يجعلها تبدو جميلة في أعين المجتمعين ، و لن تستطيع أن تخفي سعادتها حين يبدي أحد الرجال إعجابه بها ، هذا في الحقيقة يهبط بالمرأة إلى مرتبة التابع الذي يحرص على الحصول على إعجاب المتبوع ويفرح بثنائه عليه ، والحجاب فقط هو الذي يحررها من هذه التبعية ويمنحها الثقة الهائلة في نفسها باعتبارها إنساناً كاملاً لا يستجدي نظرات الإعجاب من الآخرين بل هو الذي يصدر الحكم عليهم

- والحجاب وحده هو الذي يحمي المرأة من تطاول السفهاء و المستهترين و المجرمين ، لأن المرأة التي تخرج من بيتها وهي تظهر مواطن الإثارة في جسدها ترتكب خطأ جسيماً في حق نفسها ، لأنها توقظ شهوات نائمة في نفوس كل الرجال الذين تقابلهم في طريقها، وهؤلاء الرجال منهم من سيتحلى بضبط النفس و منهم من لا يستطيع فعل ذلك ، عندئذٍ ستمتد يده بالأذى إليها إلى الحد الذي يمكن أن يفقدها حياتها ، وستكون هي من بدأ بإشعال النار التي أحرقتها ، ويكفي أن نقرأ تصريحات الجهات الرسمية التي تؤكد حدوث جريمة اغتصاب كل ثلاث دقائق في أكبر دول دول العالم الحر
- والحجاب وحده هو الذي يرفع قيمة المرأة في المجتمع ويجعلها تحتفظ بعرشها كأجمل و أغلى شيء فيه ، وبدون الحجاب يصبح جمالها في متناول كل الأيدي
- وإذا أردنا أن نكون صرحاء ، فإن الحجاب يجعل سلوك المرأة أكثر انضباطاً بين الرجال ، لأن المرأة غير المحجبة تحاول بشكل لا إرادي جذب الأنظار إليها ، فهي لم تنفق كل هذا القدر من المال والوقت على زينتها من أجل أن يتجاهلها الناس، و حين ترى أن الناس أهملوها تشعر بالغضب ، ومنهن من تقوم بافتعال حركات تلفت النظر إليها ، وخاصة حين تكون هناك امرأة أخرى تستحوذ على اهتمام الناس ، أما المرأة المحجبة فلا تهتم بثناء الناس عليها ، وإن كانت تسعد بلا شك إذا حدث هذا الثناء و هذا أمر طبيعي ، فحتى الرجال يسعدون بذلك ، لكنها لا تلهث خلفه ولا تجعله محور حياتها
- وإذا أردنا أن نكون أكثر صراحة ، فإن الحجاب سيعفي المرأة من بذل الكثير من الجهد والمال والوقت لإصلاح أشياء في جسدها تظن أنها عيوب تسبب نفور الناس منها ، ونستطيع أن نلمس ذلك إذا راجعنا إحصائيات تكاليف جراحات التجميل التي تجريها النساء في كل مكان من العالم ، لكن الأمر الأكثر أهمية من المال المهدر في هذا الشأن هو الحالة النفسية للمرأة التي تسوء بشكل ملحوظ كلما حاولت تجميل أجزاء من جسدها ثم أتت النتائج بعكس ما خططت له ، بل ربما كانت النتائج كارثية كما قرأنا عن كثير من الحالات التي فقدت فيها المرأة حياتها بسبب تلك الجراحات
- و الحجاب هو وحده الذي يجعل المرأة تعيش حرة ، و تعيش لنفسها وليس للناس المحيطين بها ، ويكون جسدها ملكاً لها وحدها ، و يمنع تدخل الآخرين في التصرف في شؤونها الخاصة ، و يمنحها الثقة في نفسها لأنه يمنحها الشعور بأنها ند للرجال وليست تابعة لهم ،

ثانياً على المستوى العام:

بعد أن رأينا إلى أي مدى يعتبر الزنى عدوّاً مدمراً للمرأة بشكل خاص وللمجتمعات الإنسانية بشكل عام ، فإن كل التدابير اللازمة لتحجيم هذا العدو و منع انتشاره – ومنها الحجاب - تصبح ذات أهمية قصوى ، ويصبح الالتزام بها هو مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا جميعاً ، ويصبح كل من ينادي بإطلاق الحرية الجنسية هو نفسه عدواً لمجتمعه دون أن يشعر، لأن تدمير الزنى للأفراد والمجتمعات يعادل تدمير أسلحة الدمار الشامل وربما يزيد عليها ، وقد رأينا أن قنبلتي هيروشيما وناجازاكي برغم قتلهما لأكثر من مائة وثلاثين ألف شخص في ساعات قليلة لم ينتج عنهما تلاشي الشعب الياباني هناك ، بل على العكس ، عادت الأجيال التي تلت الكارثة أكثر إصراراً و أقوى عزيمة وأكثر تمسكاً واعتزازاً بوطنيتها و بلدها و تاريخها، واستطاعت أن

تحقق معجزة حقيقية في كل المجالات، لكن هذا الشعب نفسه حين قلد الغرب و سمح بالحرية الجنسية وضع نفسه في القارب نفسه الذي يغرق ببطء ، وقد أكد ذلك السيد باتريك جيه بوكانن حين تحدث عن اليابان في كتابه (موت الغرب) قائلاً :

"ومع حلول عام ١٩٩٠ كان اقتصادها – أي اليابان – هو الاقتصاد الثاني الأضخم في العالم ، ويعادل نصف حجم اقتصاد الولايات المتحدة ، وذلك على الرغم من أن اليابان تشغل مساحة أصغر من مونتانا ، وهذا إنجاز غير عادي لشعب غير عادي، لكن شيئاً ما حدث لليابان ، فهي أيضاً بدأت تموت ، إن معدل المواليد اليابانيين هو نصف ما كان عليه في عام ١٩٥٠ ، ويتوقع لعدد سكانها أن يبلغ الذروة قريباً عند عدد ١٢٧ مليون نسمة ، ولكن عددهم سيهبط إلى ١٠٤ ملايين نسمة بحلول عام ٢٠٥٠، وعندها سيكون هناك عدد من الأطفال اليابانيين أقل من نصف عددهم الذي كان في العام ١٩٥٠، ولكن سيكون عدد كبار السن في اليابان ثمانية أضعاف ما كان عليه في عام ١٩٥٠، ستكون حراكية اليابان قد ماتت" [١]

وليس هناك شك في أن أكبر عوامل انتشار الزنى في أي مجتمع هو خروج النساء في صورة مثيرة للغرائز ، إنها في الحقيقة لا تثير غرائز الرجال فقط و إنما غرائزها هي أيضاً

١٣- الزواج و تعدد الزوجات:

بعد تأكيد الإسلام تحريم الزنى ووضع عقوبة قاسية على مرتكبيه ، سيكون هناك طريق واحد يمكن للرجل أن يحصل به على المرأة التي يرغب فيها ، وهو الزواج الشرعي ، و لأن الإسلام قد ألزم الرجل بكل الحقوق التي ذكرناها سابقاً تجاه المرأة – من مهر و تجهيز البيت والأثاث ثم النفقة الشاملة لطعامها وشرابها وكسوتها وعلاجها وتعليمها مدى الحياة – فإنه بذلك جعل المرأة مثل الجوهرة التي لا يستطيع الإنسان الحصول عليها إلا إذا كان قادراً على تحمل كلفتها

و حين يستطيع أن يحصل على هذه الجوهرة - التي أصبحت له وحده - فسيكون حفاظه عليها وحبه لها مثل حفاظه على عينيه و حبه لروحه التي بين جنبيه ، وهذا بالطبع لن يكون له وجود تجاه المرأة التي تسلم جسدها للعديد من الرجال في المجتمعات التي تفتخر بالحرية الجنسية ، لأن الرجل في هذه الحالة يعلم أنها بالأمس كانت في أحضان رجل آخر و أنها غداً ستكون في أحضان رجل ثالث ، وبالتالي فلن تتجاوز علاقة كل منهما بالآخر مرحلة الاستمتاع الجسدي المؤقت

وهنا يحاول المنافقون - الذين يدعون أنهم يناصرون المرأة - أن يشيعوا أن الإسلام ظلم المرأة حين أباح للرجل تعدد الزوجات – بحد أقصى أربع زوجات - بينما حرم المرأة من هذا الحق ، لكنهم لا يعلمون أن تعدد الزوجات هو في حقيقته **انحياز للمرأة** وليس العكس وذلك من عدة وجوه :

أولاً : من المعلوم أن الفتاة حين تبلغ سن الخامسة عشرة تكون صالحة للزواج من الناحية الجسمانية ، وحيث أنها غير مطالبة بأي أعباء مالية لإتمام عقد الزواج فسوف تكون جاهزة منذ هذه السن لإتمام هذا العقد ، أما الفتيان البالغون من العمر سنها نفسها فبرغم أنهم صالحون

[١] - المرجع نفسه صفحة ٥٠

جسمانياً للزواج إلا أن الأعباء المالية الملزمون بها لن تسمح للكثير منهم بأن يكونوا جاهزين إلا بعد هذه السن بعشر سنوات تقريباً ، وبالتالي فلو افترضنا أن تعداد المواليد الإناث مساو لتعداد المواليد الذكور فسوف تكون هناك ندرة في عدد الرجال الجاهزين للزواج عن عدد الإناث الجاهزات للزواج **تفرضها حقوق المرأة** الملقاة على عاتق الرجل ، كما أن المخاطر التي يتعرض لها الرجال سواء بسبب الأعمال الشاقة التي يمارسونها بينما لا تمارسها النساء ، أو الحروب التي تفتك بأرواح الرجال في الغالب تزيد في هذه الندرة بشكل كبير ،

وهذه الندرة ستجعل فرص الزواج تتضاءل أمام الفتيات بحيث تظل نسبة منهن بغير زوج حتى تصل إلى سن تصبح فيه غير مرغوبة ، و شيئاً فشيئاً ستزيد نسبة هؤلاء النساء في المجتمع و تتسع دائرة المعاناة المادية والنفسية بدرجة كبيرة ، ولأن الإسلام لا يشرع **لفئة دون فئة** و إنما يراعي مصلحة جميع الفئات ، فقد شرع تعدد الزوجات للرجال حتى تجد كل النساء في المجتمع زوجاً يتكفل بكل احتياجاتهن المادية والجسدية ، وبالطبع فلن يقدم على الزواج من امرأة ثانية إلا من كان يملك القدرة على الوفاء باحتياجات كلتا الزوجتين وجميع الأبناء من غير تقصير في حق واحدة على حساب الأخرى ، وقد ألزم الإسلام الرجل بأن يعدل بين الزوجتين في كل شيء و إلا فليبتعد عن التعدد إن لم يكن قادراً على العدل بينهما وذلك في قول الله تعالى:

"وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة " (سورة النساء ٣)

فالتعدد في حقيقته هو تعدد في المسؤوليات و الأعباء أكثر منه تعدداً في المتعة الجسدية و إن كانت المتعة الجسدية متحققة بلا شك ، لكن الفائدة التي ستعود على جنس المرأة بشكل عام أكبر من الفائدة التي ستعود على الرجال ، بسبب اختفاء ظاهرة العنوسة - أو الحد منها - التي تعصف بنسبة كبيرة منهن بشكل لا يتصوره أولئك الذين ينظرون بعين واحدة فلا يرون إلا النساء اللاتي حالفهن الحظ بالعثور على زوج جيد ، بينما لا تنظر أعينهم إلى الكثير من النساء اللاتي لم يتزوجن أو اللاتي مات أزواجهن و أصبح الزواج من رجل متزوج بالنسبة لهن يمثل طوق النجاة

ثانياً : نتخيل أننا سنجري تجربة بسيطة من خطوتين ، في الخطوة الأولى سنقوم بإحضار عدد من الكؤوس الفارغة ثم نحضر زجاجة بها مقدار من اللبن ونقوم بسكب اللبن في تلك الكؤوس ونتركها في جو الغرفة العادي لعدة ساعات ، وفي الخطوة الثانية سنعكس التجربة بأن نحضر كأساً واحدة ونسكب فيها كمية من اللبن ثم كمية من عصير البرتقال ثم كمية من عصير الليمون ثم كمية من عصير الطماطم ثم كمية من عصير العنب ، ونترك الكأس في درجة حرارة الغرفة عدة ساعات ، فماذا تكون النتيجة ؟ نعلم جميعاً أن الكؤوس الأولى ستظل على حالتها ونقائها بينما سيحدث تحلل سريع و ربما تعفن للكأس المملوءة بأنواع مختلفة من العصائر ،

وهذا ما يحدث في رحم المرأة و جهازها التناسلي حين تتعدد سوائل الرجال فيه ، لأن لكل رجل إفرازاً مختلفاً عن الرجل الآخر ، و قد يكون بعض الرجال حاملاً لمرض من الأمراض ، والنتيجة هي أضرار كبيرة للأجزاء الداخلية من الجهاز التناسلي للمرأة قد تصل إلى حد الإصابة بمرض الإيدز القاتل ، وهذا بالطبع لا يحدث عند وجود زوج واحد لزوجتين أو ثلاث زوجات كما في الخطوة الأولى من التجربة السابقة ،

مما سبق يتضح أن الإسلام أباح تعدد الزوجات - بشرط العدل بينهن – لتحقيق مصلحة ضرورية لنسبة كبيرة من النساء لا يعبأ بهن أحد من أدعياء الحضارة و المساواة و الدفاع عن المرأة ، حيث يوفر لهن زوجاً يقوم بكل احتياجاتهن بينما يظل المعارضون له متمسكون بسطحيتهم في تناول القضايا الهامة

ومن جهة أخرى فقد حافظ على صحة جسد المرأة حين منعها من معاشرة عددٍ من الرجال في وقت واحد ، لكنه أعطاها الحق كما ذكرنا سابقاً في الانفصال عن زوجها و الزواج من رجل آخر إن هي كرهت زوجها ورغبت في رجل آخر ليكون زوجاً لها

الفصـــــل الســـــادس

الإرهـــاب - وصنـــاعة العـــدو

الفصل السادس : الإرهاب - وصناعة العدو

"ولم ينتشر القرآن بالسيف إذاً ، بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك و المغول ، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس" [1]

"فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا ديناً مثل دينهم" [2]

غوستاف لوبون - حضارة العرب

- حين تكون هناك أمة لا توحدها إلا طبول الحرب ، فإن (صناعة الأعداء) ستكون مهمة (أمن قومي)

- وحين تكون هناك شعوب واعية ترفض السماح لحكامها بالاستيلاء على ثروات الشعوب الأخرى باستخدام الآلة العسكرية المدمرة ، فإن (صناعة الرعب) تستطيع دفع هذه الشعوب للتوسل إلى حكامها لخوض الحرب

- وحين تشعر فئات معينة من الناس – مثل زعماء الأديان الباطلة – أن هناك تهديداً حقيقيّاً على سلطتهم الدينية ، وعلى أرصدتهم البنكية ، كنتيجة لتهديد معتقداتهم الباطلة من قبل الدين الحق المتناغم مع الفطرة الإنسانية السليمة ، فليس لهم أمل في النجاة إلا بعزل وعي الشعوب عن سماع أي كلمة حق عن هذا الدين وتصوير أتباعه بأبشع ما يمكن للعقل البشري أن يتصوره

تلك هي القصة باختصار : الخدعة الكبرى التي تم التخطيط لها بدقة

(من هو الإرهابي الحقيقي ؟ ومن هو الإرهابي المصنوع بأيدي المخرجين الأكثر مهارة من مخرجي هوليوود؟) هذا هو السؤال الهام الذي يجب علينا جميعاً أن نملك القدر الكافي من الذكاء و الحيدة حتى نستطيع الإجابة عليه

في كتاب (وهم الإله) ركز المؤلف على أن الإسلام لم يعرف السلام إلا في فترة محدودة من سنواته الأولى ، و بشكل عام فهو دين يدعو للعنف و يشجع على الإرهاب

ما هو دليله ؟ لا شيء ، سوى أنه قال : (هناك ستون صراعاً في العالم ، الإسلام طرف فيها) هل هذا دليل ؟ كم قرأ من الكتب عن التاريخ الإسلامي ؟ لا شيء كما سيتضح بعد قليل

من أجل ذلك كان لا بد من هذا الفصل

حين حكمت محكمة الحاخامات اليهود على المسيح عليه السلام بحكم الإعدام ، كان حكمها مبنيّاً على أن المسيح عليه السلام رجل كافر، عدو لله ، وللدين اليهودي ، وللتوراة المقدسة وللآباء و القديسين ، و انساق الشعب كله خلفهم دون سؤال عن الدليل الذي استندت إليه المحكمة ، لأنهم عصبوا أعينهم ووثقوا في زعمائهم وقادتهم الروحيين الخائنين لدينهم ولشريعتهم ، لكن : هل

---

[1] - جوستاف لوبون ، حضارة العرب، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ترجمة عادل زعيتر ، صفحة ١٢٨
[2] - المرجع نفسه صفحة ٦٠٥ سطر ١٣

كان المسيح حقاً كافراً ؟ هل كان إرهابيّاً يهدف إلى هدم رسالة موسى عليه السلام ؟ كلنا يعرف الجواب

لم يكن المسيح عليه السلام إرهابيّاً ، بل كان أفضل أهل زمانه على الإطلاق ، و في الواقع لقد كان الكهنة و الحاخامات و القادة الرومان هم الإرهابيين المجرمين

والآن وبعد ألفي عام من سقوط ذلك الجيل المعصوب العينين هم و قادتهم في الهاوية البشعة – باستثناء القلة التي آمنت بالمسيح عليه السلام - يكرر أبناء العالم الحر السيناريو نفسه ويسيرون معصوبي العينين خلف قادتهم إلى حيث يجتمعون مع الجيل الأول في الهاوية نفسها ، لكن الفارق بين الجيلين أن الجيل المعاصر ما زالت أمامه فرصة أخيرة لنزع العصابة من على عينيه و محاولة فهم ما لم يفهمه الجيل الأول إلا بعد فوات الأوان

ذكر الدكتور نبيل لوقا بباوي في مقدمة كتابه القيم (الإرهاب صناعة غير إسلامية) ما يلي :

"الإسلام دائماً يتعرض للهجوم الشرس خاصة من المستشرقين أعداء الإسلام بعيداً عن البحث العلمي النزيه ، وكان غرضهم دائماً تشويه صورة الإسلام والمسلمين لتعصبهم الذي يجري بدمهم ضد الإسلام، وكان المستشرقون يستغلون لبناء آرائهم بعض الفتاوى التي يطلقها البعض في زمن ضاق فيه الأفق لا يقرها القرآن ولا السنة النبوية الشريفة ، ويستغلون تصرفات و فتاوى بعض جماعات العنف الذين ينسبون أنفسهم إلى الإسلام ، ولكن صحيح الدين الإسلامي منهم بريء ، لذلك ادعى المستشرقون أن الإرهاب صناعة إسلامية ، و أن الإرهاب خرج من رحم الإسلام ، وقد روج البعض وعلى رأسهم صموئيل هيمنتغتون في كتابه صراع الحضارات أن الإسلام هو العدو الأول للحضارة الغربية بعد انهيار العدو التقليدي للغرب وهو الاتحاد السوفييتي ، لكن المؤسف حقاً أنه بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وجدنا طوفاناً من الاتهامات توجه للإسلام على أنه المحرض على الإرهاب وللأسف اشترك في هذه الحملة الظالمة بعض الحكام والساسة الغربيين مصورين أن الإسلام هو أسامة بن لادن و رجال طالبان ، متناسين أن الإرهاب ليس له دين معين بل هو ظاهرة عالمية من الممكن أن تحدث في أي دولة في العالم ، وكما يمكن أن يقوم بها بعض المسلمين فالعالم كله في مختلف الأمكنة والأزمنة يحكي عن قصص إرهاب يقوم بها المسيحيون كما حدث في أكلاهوما عام ١٩٩٥، وكما في المجازر البشرية الدائرة بين المسيحيين البروتستانت و الكاثوليك في إيرلندا الشمالية ، والإرهاب الذي ارتكبه اليهود كما حدث في مجزرة قانا ضد اللبنانيين ، ومن الممكن أن يكون الإرهاب من اليهود والمسيحيين معاً كما في المجازر البشرية التي حدثت في صبرا وشاتيلا، ومن الممكن أن يقوم بالإرهاب بوذيون كما في أحداث جماعة الحقيقة السامية في طوكيو باليابان ، لكن المؤسف حقاً أن الغرب و الأمريكان يكيلون بمكيالين و يقولون إن الإرهاب صناعة إسلامية لمجرد أن بعض المسلمين يقومون بأعمال عنف لا يقرها الإسلام في القرآن ولا في السنة النبوية ، ولذلك أقول للغرب و للأمريكان إذا أخذنا بالمعيار نفسه فلا بد أن نقول أن هناك إرهاباً مسيحياً و إرهاباً يهودياً و إرهاباً بوذياً لكن الحقيقة المؤكدة التي يعرفها العالم كله أن الإرهاب ظاهرة عالمية لا دين لها" [١]

[١] - د: نبيل لوقا بباوي، الإسلام صناعة غير إسلامية، دار البباوي للنشر – القاهرة ، صفحة ٤٣

إن ما يعطي كلمات الدكتور نبيل لوقا وزناً كبيراً هو أنه ليس مسلماً ، بل هو ينتمي إلى الطائفة المسيحية الأرثوذكسية المصرية ، التي تقوم جمعيات مسيحية كثيرة في أوروبا وأمريكا باسمهم بابتزاز المسيحيين هناك بزعم أن هؤلاء المسيحيين في مصر يتعرضون للاضطهاد الديني ، ها هو الرجل المحترم يدافع عن سماحة الإسلام وعن براءة الإسلام من تهمة العنف و الإرهاب مقدماً الدليل بنفسه وبكتبه على كذب كل تلك الادعاءات المغرضة

السيد كينيون غيبسون الكاتب الأمريكي العظيم ، هو أيضاً من الرجال النادر وجودهم في هذا الزمان ، في كتابه القيم (أوكار الشر) ذكر في مقدمة الكتاب ما يلي :

"نظراً لازدياد التوتر في العالم وكثرة المشبوهين ، فإن أحد جوانب الحالة الراهنة يكمن في إلقاء اللوم على أمم ومجموعات عرقية أو دينية بأكملها والإساءة إليها، تفوح في الجو رائحة تعميم غير بريء ، وفي عملي هذا أنا أفضل أن يكون قلمي مشرطاً بدلاً من أن يكون سيفاً عريضاً، مشيراً إلى الأفراد بدلاً من الإشارة إلى مجموعات واسعة من الناس ، المبدأ القائل باتهام جميع الأمريكيين ، جميع اليهود ، جميع المسلمين ، جميع المسيحيين ، أو المجموع الكلي لأي جماعة أخرى هو مبدأ باطل ، وهذا النوع من الأفكار يخدم بدرجة كبيرة مصالح سماسرة الأسلحة الذين ينتظرون متأهبين لجمع الثروات الناجمة عن المآسي" [١]

ولأن هذا الكاتب سابق لزمانه بشكل ملحوظ فقد امتلك من الشجاعة ما جعله يقول في مقدمة الكتاب نفسه : **"وأنا كمسيحي أمد يدي إلى العالم الإسلامي و أعبر عن رفضي لاستخدام الدين كذريعة من قبل من يحاولون سرقة النفط و الاتجار بالمخدرات"** [٢] ،

هؤلاء هم الأشخاص الذين يعمر بهم الكون و يتقدم إلى الأمام ، وهم الحكماء الذين يجب على كل مجتمع أن يقدمهم إلى مقدمة الصفوف ليقودوا الأمم إلى السلام العالمي الحقيقي الذي يدخل كل بيت في كل بلد في كل قارات العالم

و نحن بدورنا كمسلمين نمد يدنا بالسلام للدكتور كينيون غيبسون ولكل الأمريكيين بل لكل البشر ، كما علمنا قرآننا الكريم منذ القرن السابع الميلادي في قول الله تعالى : **"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"** (سورة الحجرات)

فالخطاب "يا أيها الناس" ورد في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة ، كلها موجهة إلى كل البشر على اختلاف معتقداتهم و مذاهبهم وبلدانهم لتحمل لهم رسائل هامة من الخالق الذي خلقهم

والآية واضحة في توجيه الخطاب من الله عز وجل مباشرة إلى كل الناس ، بأنهم جميعاً إخوة أشقاء من أب واحد و أم واحدة، و بأن عليهم جميعاً أن يتعارفوا ويتعاونوا على البر و التقوى لأن أكرم البشر عند الله عز وجل أتقاهم، ترى ماذا يكون شكل العالم إذا شعر سبعة مليارات من البشر أنهم أسرة واحدة لأب واحد وأم واحدة ؟

●● هل الإسلام دين يحث على الإرهاب ؟ وما هو الدليل على ذلك ؟

---

[١] - كينيون غيبسون ، أوكار الشر ، الدار العربية للعلوم ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م ، صفحة ٨

[٢] - كينيون جيبسون ، المرجع نفسه ، صفحة ٩

يستند أعداء الإسلام إلى ثلاثة أدلة رئيسة :

١- وجود نصوص قرآنية كثيرة تحث على القتال وسفك الدماء
٢- أغلب الأحداث الإرهابية في العالم صادرة عن جماعات مسلمة وعلى رأسها الأحداث التي حدثت في أمريكا في ١١ سبتمبر ٢٠٠١
٣- هناك ستون صراعاً دمويّاً الإسلام طرف فيها

ولنناقش كل دليل بهدوء :

أولاً : وجود نصوص قرآنية كثيرة تحث المسلمين على القتال

هناك إحدى وأربعون آية في القرآن الكريم تحدد للمسلمين كيفية رد اعتداء المحاربين الذين يقاتلونهم بهدف القضاء على دينهم ووجودهم ، و لأن مجموع آيات القرآن الكريم هو ستة آلاف ومائتان و ست وثلاثون آية فتكون النسبة المئوية هي ٠,٠٠٦ (ستة في الألف)، لكن هناك تسعاً وثلاثين آية من هذه الآيات الإحدى والأربعين تتحدث عن حق الدفاع الشرعي عن النفس ، أي تحث المسلمين على الحرب الدفاعية لرد الجيوش المعتدية، وآيتان فقط تأمران المسلمين بالبدء بالقتال ضد طائفتين من الناس كانا يتجهزان لقتال المسلمين بحشد الجيوش المرة تلو المرة ، أي أن البدء بالقتال لم يكن سوى حربٍ استباقية لوقف التهديد الذي كان قد بدأ تنفيذه بالفعل والذي كان يهدف إلى إزالة الدولة المسلمة من الوجود، و لأن حق الدفاع عن النفس مشروع في جميع القوانين والمواثيق الدولية فإن التسع وثلاثين آية الأولى لا يستطيع أحد أن يستدل بها على أن الإسلام دين إرهاب، وإلا أصبح الإعلان العالمي لحقوق الإنسان إعلاناً يحث على الإرهاب

وبالتالي لم تبق إلا آيتان فقط من مجموع آيات القرآن الكريم الستة آلاف والمائتين و الست والثلاثين آية تدعوان المسلمين للبدء بشن حرب وقائية ضد جيوش متجمعة بالفعل للقضاء عليهم ، هذا في مقابل إصحاحات كاملة في الكتاب المقدس تدعو إلي القتل والحرق و هدم البيوت وعدم ترك نسمة حية من طفل رضيع ولا امرأة ولا شيخ ولا حتى الحيوانات و لا الطيور ولا الشجر ، من كل الشعوب التي يضعها حظها السيئ أمام اليهود أو النصارى، والتي كان أوضح أمثلتها مذبحة أريحا التي وصفها د: ريتشارد بأنها جريمة تطهير عرقي بشعة ولا أخلاقية بكل المقاييس، وفي مقابل أطنان من الخطب والمقالات و الكتب للقادة الشيوعيين والملحدين التي تطفح بعبارات القتل و الإبادة و الحرق لكل مظهر من مظاهر الدين من مساجد وكنائس و كتب مقدسة و رجال دين و بشر بلغ عددهم بفضل تلك الخطب و السياسات الفاشية والهمجية مائة مليون ضحية – حسب مصادر الغرب - ثمانون بالمائة منهم لم يحملوا السلاح ضد الشيوعية ولا ضد الإلحاد

و لنناقش كلا النوعين من الآيات بهدوء :

●● تسع وثلاثون آية تحث المسلمين على القتال دفاعاً عن النفس :

١- دأب الكثير من رجال الدين المسيحي في عدد من دول العالم على مهاجمة الدين الإسلامي باعتباره أكثر الأديان دموية استناداً إلى آيات من القرآن الكريم كلها تقع في نطاق التسع والثلاثين آية الخاصة بتقرير حق الدفاع عن النفس الذي تكفله جميع القوانين والشرائع التي

يعرفها البشر ، ولما كانت الآيات تحمل عبارات واضحة تبين أن القتال المأمور به هو دفاع عن النفس ، فقد قام هؤلاء بحذف تلك العبارات من أبحاثهم لأنه لو لم يتم حذفها فسوف يتضح لكل الناس أن القرآن الكريم لا يحوي شيئاً من العنف ولا من الحث على الإرهاب ، من هؤلاء المخادعين قسيس مصري ، كتب بحثاً – نشر على الإنترنت - عن آيات القتال في القرآن الكريم قام فيه بعملية خداع دنيئة أكدت أن هؤلاء الناس مفلسون و أنهم أبعد ما يكونون عن المسيح عليه السلام ، وأنهم - وهو الأهم - لا يبحثون عن الحقائق و إنما عن مكاسبهم المادية فقط عن طريق الكذب والتزوير لتثبيت الخرافات في أذهان المسيحيين الذين يصدقونهم ، وفي أذهان بعض المسلمين الذين لا يبذلون أدنى جهد لتفنيد الاتهامات و الوصول إلى الحقائق ، مع علم هؤلاء القساوسة أنهم يكذبون على الناس ، و أنهم يفترون على الله عز وجل وعلى القرآن الكريم الذي أنزله كما افتروا على المسيح عليه السلام ونسبوا له الألوهية التي لم ينسبها لنفسه

استدل هذا القسيس على أن الإسلام دين يدعو للقتل و سفك الدماء على النحو التالي :

يقول : "ورد في القرآن أكثر من ستين آية تدعو إلى القتال منها الآيات الآتية: "واقتلوهم حيث ثقفتموهم و أخرجوهم من حيث أخرجوكم و الفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ١٩١" ثم "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ١٩٣" فانظر كم مرة ذكر لفظ القتل في هذه السطور القليلة"

ويسهب ذلك المؤلف في وصف الإسلام بأنه دين يحرض على قتل الأبرياء من غير المسلمين بلا رحمة

والآن نذكر للقارئ آية واحدة جاءت قبل هذه الآيات مباشرة – وهي الآية رقم ١٩٠ - تعمد القسيس غير الأمين **إخفاءها لتضليل الناس** ، وهي قول الله تعالى :

"وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين"

وكذلك الآية رقم ١٩٢ التي أيضاً تعمد إخفاءها ، وهي قول الله تعالى

"فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم " والنص بكامله جاء في سورة البقرة على النحو التالي - وقد ظللنا الآيات التي أخفاها ذلك القسيس حتى يتضح تلاعبه وتدليسه - :

"وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ١٩٠ واقتلوهم حيث ثقفتموهم و أخرجوهم من حيث أخرجوكم و الفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ١٩١ **فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم** ١٩٢ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله **فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** ١٩٣ "

والآن ما رأي القارئ الكريم في هذا السلوك المشين ؟ هل أمر المسيح عليه السلام رجال الدين المسيحي بالكذب والتضليل و التدليس على الناس من أجل إدخالهم في المسيحية ؟

إنني أدعو كل مسيحي حر يحترم عقله أن يفتح المصحف على الآية رقم ١٩٠ من سورة البقرة ليرى بعينه الآية التي حذفها هذا القسيس ، و ليتثبت بنفسه من حجم التدليس الذي مارسه عدو المسيح هذا،

لقد تحدث الله عز وجل في هذه الآيات عن الحق الشرعي في الدفاع عن النفس و حد له حدوداً لم تذكرها أي من المواثيق الدولية الحديثة ، فأمر المسلمين بأن يقاتلوا في سبيل الله **"الذين يقاتلونهم"** لكي يدافعوا عن أنفسهم ، إلى هنا فجميع القوانين التي يعرفها البشر تكفل هذا الحق ، وليس هناك عاقل يقول بأن جيش الأعداء إذا هاجم مدينة من المدن فإن على هذه المدينة أن تخرج لاستقباله بالورود ،

لكن الله عز وجل أضاف قيوداً صارمة وهي الأمر بعدم التجاوز في رد الاعتداء **" ولا تعتدوا"** لأن الله لا يحب المعتدين ، ليس هذا فقط ، بل يأمر المسلمين المعتدى عليهم بأن يتوقفوا فوراً عن القتال إذا قرر المعتدون وقف الحرب ، **وهي الآية الثانية التي أخفاها القسيس المخادع ،** **"فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم"** ثم يكرر العبارة مرة ثانية **"فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين"**

لقد أعطت جميع قوانين البشر حق الدفاع عن النفس ضد الجيوش المعتدية ، لكنها توقفت عند هذا الحد ، أما وحي السماء فهو شيء آخر لا يعرف البشر مقدار عظمته ، لقد أمر المسلمين أن يردوا الاعتداء بدون تجاوز للحد ، و حذرهم من أن الله سبحانه وتعالى لا يحب المعتدين ، ثم أمرهم بالتوقف عن القتال إذا توقف المعتدون

ونحن نعلم كم من الجيوش التي اعتدي على أرضها تجاوزت الحد إلى درجة الإذلال المهين للمعتدي حين ينهزم ، لقد ذكر هتلر كيف تكونت عنده عقدة الثأر بسبب بنود معاهدة فرساي المهينة لألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى ، وكيف أقسم على تلقين كل من أهانوا ألمانيا درساً قاسياً ، وكان ذلك بالطبع ما دفع القارة الأوروبية في أتون الحرب العالمية الثانية التي قتل فيها واحد وستون مليون شخص ، لو كان المنتصرون الذين أذلوا ألمانيا في الحرب العالمية الأولى تعلموا هذا الدرس من القرآن الكريم وأوقفوا اعتداء ألمانيا دون تجاوز للحد ربما كانت دماء هؤلاء البشر جميعاً قد حقنت ، وهنا يمكننا أن نقتبس بعض عبارات مؤلف كتاب وهم الإله التي قال فيها (ما رأيك في عالم بدون طالبان ؟) فنقول (ما رأيك في عالم بدون حرب عالمية ثانية ؟) **ثلاثة أسطر فقط من القرآن الكريم كانت كفيلة بتحقيق ذلك**

إن الأمر بالتوقف في استعمال حق الدفاع عن النفس عند حدود عدم التجاوز بعد زوال خطر المعتدي واعتبار هذا التجاوز **مما يستوجب العقاب الإلهي،** هذا ليس في قدرة العقل البشري أن يفكر فيه في اللحظة نفسها وخصوصاً عندما يكون قائل النص هو الطرف الذي يتعرض للاعتداء في كل يوم وكل ساعة ، وهو الطرف الذي لا يمر شهر كامل بدون قيام قبيلة أو عدة قبائل بشن الحرب عليه بهدف محوه من الوجود ، لدرجة أن بعض أصحابه يئسوا من أن يأتي يوم عليهم وهم ينامون بغير دروع في عبارتهم الشهيرة (هل سيأتي علينا يوم نخلع فيه الحديد)

لو كان القرآن الكريم من تأليف البشر لكانت آيات القتال قد احتوت على كم كبير من روح الانتقام و التنكيل بالمعتدي بعد الانتصار عليه كما رأينا في نصوص العهد القديم في وصف مذبحة أريحا و غيرها وليس الأمر الصارم بعدم التجاوز ضد المعتدي

قياساً على ما سبق يمكن فهم كل آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن القتال دفاعاً عن النفس ، فحين يبحث أي إنسان محايد عن تفسير هذه الآيات من المصادر الإسلامية الصحيحة سوف يكتشف المزيد من الأدلة على عظمة الإسلام وعلى صدق القرآن الكريم و إعجازه للبشر بالقدر نفسه الذي ظهر لنا من المثال السابق، كما سيتبين له مدى خيانة أعداء الإسلام للمسيح أولاً ولدينهم ثانياً ولمن يتبعونهم في ضلالاتهم ثالثاً ، لأنهم مارسوا هذا الخداع في كل الآيات التي استدلوا بها في كذبهم وافترائهم على القرآن ، وهذا دليل قاطع على أنهم ضالون مضلون

●● الآيتان اللتان تحدثتا عن البدء بالقتال :

- الأولى هي قول الله تعالى **"فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم و خذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا و أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم"** (التوبة ٥)
- والثانية هي قول الله **تعالى "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"** (التوبة ٢٩)

● **بالنسبة للآية الأولى** ، فقد كانت فاصلة بين مرحلتين من مراحل الصراع بين المسلمين في المدينة وبين المشركين الوثنيين من قبائل الجزيرة العربية ، فحتى نزول هذه الآية كان المسلمون ما زالوا يتلقون الاعتداء تلو الاعتداء وهم جالسون في مدينتهم ، حتى أنهم أبرموا معاهدة الصلح مع أهل مكة و كانوا ملتزمين بها ، لكن نتيجة لنقض المشركين معاهدة الصلح وقتلهم للمسلمين داخل الحرم ، ونتيجة كذلك لقيام الكثير من قبائل العرب المحيطة بالمدينة بحشد الأنصار وتكوين الجيوش للانقضاض على المدينة ، فقد صدر الأمر للمسلمين بعدم الانتظار حتى تباغتهم تلك الجيوش في ديارهم وتقضي عليهم ، بل عليهم أن يخرجوا هم لتلك الجيوش ويباغتوها بالهجوم ، والدليل على ذلك هو تعقيب الله عز وجل على هذه الآية بقوله سبحانه في الآية رقم ١٣ من السورة نفسها **"ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين"**

هل هناك أوضح من قول الله تعالى "قوماً نكثوا أيمانهم" وقوله تعالى "وهم بدؤوكم أول مرة" للدلالة على أن الآيات تتحدث عن قوم كانوا هم البادئين بالحرب و نقض معاهدات الصلح ؟ أليس شن حرب وقائية على هؤلاء الذين نقضوا معاهدة الصلح وتجمعوا للحرب هو من أبسط قواعد الدفاع عن النفس؟

لكن كما قام القسيس المذكور بحذف الآيات (١٩٠ و١٩٢) في سورة البقرة من بحثه ، فقد كرر التدليس مرة أخرى وقام بحذف الآية رقم ١٣ في سورة التوبة من بحثه ، لأنها تعطي الدليل الواضح على أن الأمر بالقتال كان يتضمن حرباً وقائية ضد عدو كان هو البادئ بالحرب وليست عدواناً باغياً على أناس أبرياء

● **أما الآية الثانية** فقد كانت هي الأخرى فاصلة بين مرحلتين من مراحل الصراع بين المسلمين وبين أعداء من نوع آخر ، وهم أهل الكتاب ، وبالتحديد اليهود والنصارى، فقبل نزول هذه الآية بعدة أشهر بدأت القبائل العربية الواقعة على الحدود الشمالية للجزيرة العربية بإعلان الحرب على الدولة المسلمة الناشئة، وقد كانت هذه القبائل قد دخلت في النصرانية نتيجة احتلال جيوش الدولة الرومانية لها ، وكان القادة الرومان يعتبرونها جزءاً من دولتهم ويولون عليها ملوكاً من أبنائها ممن يضمنون ولاءهم

ففي العام الثامن للهجرة (٦٢٩م) كان رسول الله ﷺ قد بدأ بدعوة ملوك ورؤساء القبائل والدول المجاورة إلى الإسلام عن طريق إرسال رجال من أصحابه برسائل مكتوبة يشرح فيها لهم أصول دعوته ، وكان من بين هؤلاء الرسل رجل يدعى الحارث بن عمير بعثه رسول الله ﷺ إلى حاكم البصرة ، لكن قبيلة الغساسنة النصرانية التابعة للروم قبضت على الحارث بن عمير و قتلته ، ثم قتل عدد آخر من الرسل على يد تلك القبائل ، و أصبحت الحدود الشمالية للجزيرة العربية غير آمنة لعبور أي رجل مسلم بها، وكان قتل الرسل في ذلك الوقت ليس له إلا معنى واحد و هو (إعلان الحرب) وهو يشبه قتل المبعوثين الدوليين في وقتنا الحالي

لذلك اضطر رسول الله ﷺ إلى إرسال جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل لمحاربة تلك القبائل و إجبارها على عدم التعرض للرسل و للمسلمين الذين يمرون من طرق القوافل القريبة منهم ، ومعلوم أن قيام هذه القبائل بقتل المسلمين الذين يمرون من طرق القوافل هناك هو حصار حقيقي للدولة المسلمة

لكن بمجرد سماع تلك القبائل بتحرك جيش المسلمين تأهبوا للحرب ، و طلبوا المساعدة من الرومان فأمدوهم بجيش ضخم بلغ قوامه مع ما جمعته تلك القبائل مائتي ألف مقاتل، وعندما وصل جيش المسلمين ووجد هذا الجيش الضخم تشاوروا هل يخوضون الحرب أم يبعثون بطلب المدد من رسول الله ﷺ ، لكنهم استقروا على خوض المعركة برغم صعوبتها، و دارت المعركة و ظل الفريقان يتقاتلان حتى غابت الشمس فتوقف القتال ، و أثناء الليل نفذ قائد المسلمين خطة خداع لكي يوهم جيش الأعداء بوصول مدد ضخم إلى المسلمين، لكنه نفذ خطة انسحاب ذكية لينقذ جيشه من هلاك محقق، واستطاع العودة بجيشه إلى المدينة

لقد أدت هذه المعركة القصيرة إلى دخول الدولة الرومانية في الصراع الدائر بين الإسلام و المشركين كحليف للقبائل النصرانية في الشام، وبدأت تلك القبائل بمساعدة فرق من جيوش الدولة الرومانية في **الاستعداد لغزو المسلمين في المدينة،** وروت كتب السيرة أن جماعة من المنافقين في المدينة قابلت قادة الرومان في الشام وعرضت عليهم مساعدة جيش الرومان في هزيمة المسلمين في مقابل تولي زعيمهم ملكاً على المدينة ، و أن الرومان طلبوا تجهيز مكان متسع قريب من حدود المدينة ليكون قاعدة انطلاق للجيش الروماني عندما يبدأ الهجوم ، وقد قام هؤلاء المنافقون بتجهيز فناء كبير بسقف من جريد النخل و جعلوه على شكل مسجد وطلبوا من رسول الله ﷺ الصلاة لهم فيه حتى لا يشك أحد في الهدف الحقيقي من تجهيزه ، واعتذر رسول الله ص عن الصلاة فيه لأنه كان يعد العدة للسفر إلى تبوك ، ووعدهم بالصلاة فيه عندما يعود من سفره وهو حتى هذه اللحظة لم يكن يعلم بحقيقة هذا المسجد، لكن الله عز وجل أعلمه وهو في طريق عودته بالأمر ونهاه عن الصلاة فيه

و أكمل الروم والقبائل النصرانية استعداداتهم النهائية لغزو المدينة ، ففي كتاب الرحيق المختوم وفي الجزء الخاص بغزوة تبوك كتب السيد صفي الرحمن ما يلي :

"كانت هذه هي الأحوال و الأخبار التي يواجهها ويتلقاها المسلمون ، إذ بلغهم من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هيأ جيشاً عرمرماً قوامه أربعون ألف مقاتل ، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم ، وأنه أجلب معهم قبائل لخم وجذام و غيرهما من متنصرة العرب ، وأن مقدمتهم **بلغت البلقاء**، وهكذا تمثل أمام المسلمين خطر كبير"[1]

لقد كان المسلمون إذن أمام حرب صليبية غير متكافئة تهدد وجودهم و تنذر بالقضاء على الدين الإسلامي ومحوه من الوجود، وقد بدأت الجيوش تتحرك صوب المدينة بالفعل ،

لذلك أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ قوله تعالى **"قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"** (التوبة ٢٩)

والآية تتضمن النقاط الهامة التالية :

- أولاً : الأمر بعدم الانتظار في المدينة حتى يبدأ الأعداء بالقتال ولكن التحرك لمباغتتهم في بلادهم ، وكما نرى فقد كان هذا التحرك يمثل حرباً وقائية تهدف إلى إزالة تهديد خطير لجيش بدأت فصائله الأولى في التحرك والتجمع في البلقاء
- ثانياً : حددت الآية الكريمة للمسلمين ما يجب عليهم فعله بعد الانتصار على هذا العدو وزوال تهديد جيوشه و تمكن المسلمين من بلادهم ، وهو تخيير تلك القبائل بين ثلاثة أمور: الإسلام أو دفع الجزية مع البقاء على دينهم والاحتفاظ بمعابدهم وكنائسهم وشعائرهم بموجب عقد الأمان الذي يمنحهم ذمة الله وذمة رسوله ، أو الاستمرار في القتال

ومرة أخرى تثبت الأمة المسلمة أنها أرقى أمة عرفها التاريخ الإنساني ، فليس هناك أمة على مر التاريخ تعرضت للتهديد الذي تعرضت له الأمة المسلمة في تلك الموقعة ثم عاملت القبائل المهزومة بالتسامح والعفو ،

فقد ذكر السيد صفي الرحمن في الكتاب المذكور ما يلي :

"نزل الجيش الإسلامي بتبوك فعسكر هناك ، وهو مستعد للقاء العدو ، وقام رسول الله ﷺ فيهم خطيباً ، فخطب خطبة بليغة ، وحض على خير الدنيا والآخرة ، وحذر وأنذر ، وبشر و أبشر ، حتى رفع معنوياتهم، وجبر ما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤونة أما الرومان و حلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء ، بل تفرقوا في البلاد داخل حدودهم ، فكان لذلك أحسن الأثر بالنسبة إلى سمعة

---

[1] - الشيخ: صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم ، دار السلام – الرياض ، ١٩٩٣م ، صفحة ٤٣١

المسلمين العسكرية في داخل الجزيرة العربية و أرجائها النائية ، وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة وخطيرة لم يكونوا ليحصلوا عليها لو وقع اصطدام بين الجيشين"[١]

ويكمل السيد صفي الرحمن وصف حالة القبائل العربية الموالية للروم ، فبعد تفرق جيش الروم وتخليه عنهم أدركوا أن مصالحة المسلمين خير لهم من الاستمرار في قتال يعلمون نتيجته سلفاً وقد كتب ما يلي:

"جاء يحنة بن روبة صاحب أيلة ، فصالح الرسول ﷺ و أعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء و أهل أذرح فأعطوه الجزية ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فهو عندهم ، وكتب لصاحب أيلة "بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن روبة و أهل أيلة ، سفنهم و سياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله و ذمة محمد النبي ، ومن كان معه من أهل الشام و أهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وأنه طيب لمن أخذه من الناس ، و أنه لا يحل أن يمنعوا ماءً يردونه ، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر " [٢]

هذه هي الأحداث التي نزلت الآية المذكورة بسببها ، وكما رأينا ، فلم يكن هناك طريق آخر أمام المسلمين ليحافظوا به على أرواحهم وليدافعوا به عن أنفسهم وعن نسائهم و أطفالهم و أموالهم سوى البدء بشن الحرب ،

لكن الآية الكريمة باشتمالها على الحرية الدينية للشعوب التي انهزم الجيش المدافع عنها مقابل دفع الجزية ثم منحها الأمان المطلق الذي تحميه ذمة الله وذمة رسوله تكون قد خطت للتاريخ الإنساني أعظم قدوة للجيوش المنتصرة في معاملة الأمم المهزومة بالتسامح وبالارتقاء الأخلاقي الذي لم يتكرر في التاريخ إلا في الأمة الإسلامية ولا حتى في جيوش الحضارة الحديثة ،

لقد حقنت هذه الآية القرآنية المكونة من أربعة أسطر دماء مئات الملايين من البشر الذين دخلت جيوش الإسلام بلادهم من حدود الصين شرقاً إلى إسبانيا غرباً ، و حفظت القادة المسلمين المنتصرين على مدى قرون طويلة من الوقوع في هاوية الغرور بالقوة ، و ألزمتهم بكتابة عقود الأمان التي منحت الحرية الدينية لكل الشعوب كما رأينا في الفصل السابق

ليس هذا فقط ، و لكن الآية الكريمة رسمت طريق الأمة المسلمة في التعامل مع الدول المحاربة للدولة المسلمة والتي تمثل تهديداً على وجودها ، فقد أمرت المسلمين بالقتال بلا تهاون حتى يزول تهديد تلك الدول تماماً و يندحر جيشها ، عند ذلك تتوقف روح العداء التي كانت موجهة ضد الجيوش الباغية لتحل محلها روح التسامح في التعامل مع الشعوب ، لأن الإسلام لا يحرص على سفك الدماء ولا على الانتقام ، فبمجرد زوال تهديد الجيوش تغمر المكان نسمات الرحمة التي تبدأ بكتابة عهود الأمان التي تمنح تلك الشعوب ذمة الله وذمة رسوله ، و تمنحهم الحرية في ممارسة شعائرهم و صلواتهم ، كما تمنحهم الأمان على أرواحهم و أموالهم و ممتلكاتهم وكنائسهم وصلبانهم ، بل تدخلهم جميعاً تحت قول رسول الله ﷺ "من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة" كما ذكرنا في الفصول السابقة

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ٤٣٥
[٢] - المرجع نفسه صفحة ٤٣٥ أيضاً

فأين هذا من المذابح التي سجلها التاريخ الإنساني للجيوش المنتصرة – غير المسلمة - التي سحقت مئات الملايين من الأطفال والنساء والشيوخ في كل شبر من الأرض سواء على يد الجيوش المسيحية أو الجيوش الشيوعية الملحدة ، وما زال التاريخ يسجل حتى الآن

● لكن هناك اعتراض هام على موضوع الجزية بشكل عام ، فهناك من يعتبره عقاباً للشعوب المقهورة ، ولأن الكثير من الناس مقتنع بهذا الاعتراض فسوف نترك المجال لغير المسلمين لكي يوضحوا خطأ هذا المفهوم

في كتاب (انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء) ذكر الدكتور نبيل لوقا بباوي أيضاً في الفصل الثاني تعليقاً على انتشار الإسلام في العراق والشام ما يلي :

"**الرابع عشر**: موجب عقد الأمان الذي أبرمه الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق مع غير المسلمين دفع الجزية وهي ضريبة وليست عقوبة على عدم دخول الإسلام كما يردد بعض المستشرقين الذين يرون أنها عقوبة ولكن هناك بعض المستشرقين الذين يرون أمر الجزية بصورته الصحيحة فهذا آدم متز يقول: " كان أهل الذمة بحكم ما يتمتعون به من تسامح المسلمين معهم ومن حمايتهم لهم يدفعون الجزية كل منهم حسب قدرته وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة الدفاع الوطني **فكان لا يدفعها إلا الرجال القادرون على حمل السلاح**

الخامس عشر: بموجب عقد الأمان الذي كان يتم إبرامه مع غير المسلمين في الدولة الإسلامية كان يعفى من الجزية النساء والصغار والصبية والشيوخ والأعمى والمعتوه ولا يدفعها إلا الرجال فقط القادرون على حمل السلاح ومعنى ذلك أن أكثر من ٧٠% من غير المسلمين معفون من دفع الجزية ----

السابع عشر: بعض المستشرقين ينظرون إلى دفع الجزية نظرة سطحية فيحسبون الدولة الإسلامية متعسفة في فرض الجزية على غير المسلمين ولكن حقيقة الأمر في تصورنا غير ذلك، فقد أوجب الإسلام على أبنائه المسلمين الخدمة العسكرية في الدولة الإسلامية الأولى باعتبارها فرض كفاية أو فرض عين وأناط بهم الدفاع عن الدولة الإسلامية وأعفى غير المسلمين من ذلك رغم أنهم كانوا يعيشون في ظل الدولة الإسلامية الملزمة بالدفاع عنهم، حيث من سماحة الإسلام بغير المسلمين أنه لم يفرض على غير المسلمين الخدمة العسكرية في الدولة الإسلامية الأولى التي كان هدفها نشر الإسلام **حتى لا يجبر غير المسلمين على الدفاع عن دين لا يؤمنون به**، وكان الحكام في فترة انتشار الإسلام واقعيين جداً بأنهم لا يفرضون على غير المسلمين أن يسفكوا دماءهم من أجل ديانة لا يؤمنون بها **وهذا قمة التسامح مع غير المسلمين**، وحيث أن جيوش الدولة الإسلامية ملزمة بموجب عقد الأمان بالدفاع عن غير المسلمين الموجودين في الدولة الإسلامية فلا بد أن يساهموا في نفقات الجيوش الإسلامية التي تدافع عنهم بدفع ضريبة الجزية وليس عقوبة الجزية كما يردد بعض المستشرقين

الثامن عشر: ومما يؤكد أن نظرتنا صحيحة في أن الجزية ضريبة دفاع عن غير المسلمين في الدولة الإسلامية للمساهمة في نفقات الجيوش الإسلامية الملزمة بالدفاع عن غير المسلمين من أي اعتداء خارجي وذلك يعني عدم وجوب الجزية في حالة عدم قدرة الجيوش الإسلامية على حماية غير المسلمين ، أنه قد كتب خالد بن الوليد في عقد الأمان لغير المسلمين **"إن منعناكم أي**

حميناكم قبلنا الجزية وإلا فلا" وهذا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح عندما أبلغه نوابه من أهل الشام بتجميع قوات الروم وأنهم غير قادرين على صدهم ، فكتب أبو عبيده إلى نوابه في مدن الشام برد الجزية لمن أخذوها منهم وأمرهم بأن يعلنوا هذه الرسالة **"إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشروط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم"** وهذا ما رواه أبو يوسف في كتابه الخراج، ومعنى ذلك أنه بموجب عقد الأمان فقد رد أبو عبيدة بن الجراح أموال الجزية من مدن الشام حينما لم يستطع رد القوات البيزنطية عن مدن الشام وأعلن إعادة أموال الجزية لأصحابها وأنه سوف يأخذها بموجب عقد الأمان حينما يقوم بالانتصار على القوات البيزنطية المعتدية على مدن الشام

التاسع عشر: وبموجب عقد الأمان الذي أبرمه الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق ومن بعده مع غير المسلمين تسقط الجزية إذا اشترك غير المسلمين في القتال والدفاع عن الدولة الإسلامية وهذا ما يحدث في كل الدول الإسلامية والعربية من سقوط الجزية بالسماح لغير المسلمين بالاشتراك في القوات المسلحة للدفاع عن **الدولة وهو ما حدث في مصر منذ عام ١٨٥٦م في عهد سعيد باشا حينما أعلن عن سقوط الجزية عن غير المسلمين والسماح لهم بالاشتراك في الخدمة العسكرية"**[١]

أعظم ما في كلام الدكتور اللواء نبيل لوقا بباوي أنه من أبناء الطائفة المسيحية المصرية التي كانت الجزية مفروضة عليها حتى عام ١٨٥٦م ، فهل هناك رد أبلغ من ذلك ؟

- **لكننا نضيف إلى كلام اللواء الدكتور بباوي نقطة هامة جدّاً:**

لو تخيلنا أن الحكومة المصرية أجرت استفتاءً عامّاً بين الأقباط المصريين لتخيرهم بين أمرين ، **الأول** : أن تلغي القرار الذي صدر في عهد سعيد باشا وتعيد فرض ضريبة قدرها عشرة جنيهات شهرياً (دولار ونصف الدولار تقريباً) تستقطع من راتبهم في مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية ، **والثاني** : أن يظل الوضع القائم مستمراً، أي عدم دفع هذا المبلغ مع أداء الخدمة العسكرية، ترى كيف ستكون نتيجة هذا الاستفتاء ؟

ليس هناك أدنى شك في أن كل المسيحيين بلا استثناء سيختارون الخيار الأول ،

و الأكثر من ذلك ، فلو أن هذا الاستفتاء أجري **على الأغلبية المسلمة** في مصر فإن نسبة ٩٠% من المسلمين سيختارون الخيار نفسه أيضاً، ليس لأنهم خائنون لدينهم أو لوطنهم ولكن لأن الخدمة العسكرية تعني احتمال خوض الحرب ، وقد قال الله سبحانه وتعالى **"كتب عليكم القتال وهو كره لكم"** والآية نزلت في الجيل الأول من الصحابة الأتقياء ،

فالمؤكد أن الأقباط المصريين لو تم إعفاؤهم من الخدمة العسكرية مقابل عشرة جنيهات أو حتى عشرين جنيهاً في الشهر فسوف تخرج جموع المسلمين في مظاهرات كبيرة للمطالبة بالمساواة بالمسيحيين ، هذا دليل قاطع على أن الجزية التي فرضها الإسلام على الأقليات غير المسلمة في الدولة المسلمة **هي انحياز لمصلحة هذه الأقليات وليس ضدها**، والذي يعارضنا في هذه النتيجة

[١] - د: نبيل لوقا بباوي ، انتشار الاسلام بالسيف بين الحقيقة والافتراء، صفحة ١٢٦

يستطيع أن يجرب ويجري الاستفتاءات على كل من الأقباط و المسلمين و عندما يجد أن نتيجة الاستفتاءات تؤيد ما وصلنا إليه فعليه أن يعترف بأن الإسلام ليس فقط منع اضطهاد الأقباط بل **إنه انحاز لهم** أيضاً و منحهم ما تتمناه الأغلبية المسلمة لنفسها ،

من جهة أخرى : فإن هناك ملاحظة هامة في هذا الأمر ، وهي أنه أعفاهم من خوض حروب قد يكون عدو المسلمين فيها مسيحيّاً مثلهم أو يهودياً من أحبابهم ، مثلما حدث في الحروب الصليبية ، وعندها سيقعون بين خيارين أحلاهما مر ،

مع كل ذلك فإن عندنا في الوطن العربي الكثير من الببغاوات التي لا تريد أن تفهم ، مثل الذين يخرجون على شاشات التلفاز و في مواقع التواصل الاجتماعي – من المسيحيين - ليكيلوا الاتهامات للقرآن بأنه يتضمن نصوصاً صادمة ، ويستدلون على ذلك بالآية المذكورة (آية الجزية) ، مع أن هؤلاء هم **أول من سيختار الخيار الأول** – الذي يتضمن دفع الجزية مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية – له أو لأبنائه في الاستفتاء المشار إليه ، هذا ليس له إلا معنى واحد : أن هؤلاء الناس مخادعون ، و أنهم لا يهدفون أبداً إلى الوصول إلى الحقائق وإنما يهدفون إلى هدم الإسلام ، الذي لو لم ينقذهم من جيوش روما الكاثوليكية ويعد لهم حريتهم الدينية وكرامتهم الإنسانية فربما كانوا الآن في عداد الأمم التي اندثرت و أصبحت من الماضي، إن الذي يعض اليد التي امتدت له بالإحسان هو إنسان جاحد وغير محترم ، والإسلام لم يقدم لهم الإحسان فقط **بل قدم لهم الحياة التي كانت مهددة بالفناء** ، و الكرامة التي سحقها الرومان تحت أقدامهم ، لو كان هؤلاء يعيشون في بلد مسيحي يدين بالمذهب الكاثوليكي و حاولوا التحدث بكلمة واحدة عن ممارسات القساوسة الكاثوليك ضد المسيحيين الأرثوذكس أو البروتستانت لعلموا بحجم الجحود الذي يمارسونه ضد يد الإسلام الممتدة لهم بالإحسان - و ربما لن تترك لهم فرصة للبقاء على قيد الحياة لكي يجروا المقارنة -

----

ثانياً : أغلب الأحداث الإرهابية في العالم صادرة عن جماعات مسلمة وعلى رأسها الأحداث التي حدثت في أمريكا في ١١ سبتمبر ٢٠٠١

تنتهج الجماعات الإرهابية سلوكاً عدائيّاً حتى ضد الناس المشتركين معها في الدين ، وهي تعتقد أنها هي الوحيدة التي تمتلك الحق المطلق ، وأن جميع البشر الآخرين بمن فيهم أتباع الدين نفسه كفار، بل إن أفراد هذه الجماعات يكفرون بعضهم بعضاً في كثير من الأحيان ، ومما يثير العجب أن واحداً من أتباع هذه الجماعات أفصح عن اعتقاده قائلاً : (لا أعلم على الأرض مسلماً غيري) ، هذا يكشف مدى السطحية التي يفكر بها هذا النوع من الناس ومدى بعدهم عن الدين الحق، كما يكشف إلى أي مدى يسهل استخدامهم لتحقيق أهداف تخدم أعداء دينهم و إقناعهم بأنهم بذلك (مجاهدون في سبيل الله)،

ولقد عانت الأمة الإسلامية – وما زالت تعاني - من الإرهاب مثلما عانت منه كل الأمم ، و قد روت كتب السيرة واقعة من أبشع وقائع الإرهاب في تاريخ الأمة المسلمة ، حين جاءت مجموعة كبيرة من الإرهابيين في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه – وهو الخليفة الثالث - مدججين بالسلاح وأحاطوا ببيت الخليفة مستغلين خلو المدينة بسبب ذهاب معظم المسلمين لأداء

فريضة الحج ، وكانت كل التهم التي قرروا قتله من أجلها تهماً ساذجة بل هي من مآثر عثمان التي خصه بها رسول الله ﷺ مثل تخلفه عن بيعة الرضوان – و قد كان تخلفه بسبب إرسال رسول الله له إلى أهل مكة للتفاوض على السماح للمسلمين بدخول المسجد الحرام لأداء العمرة - وقد رفع رسول الله ﷺ يده اليسرى و أمسك بها بيده اليمنى قائلاً : وهذه يدي تبايع عن عثمان - وبرغم ذلك أصروا على قتله من أجل تنصيب علي بن أبي طالب رضي الله عنه مكانه (وهو ابن عم رسول الله وزوج ابنته) وبرغم رفض علي نفسه لمطلبهم وقيامه هو وابناه الحسن والحسين بالوقوف أمام باب عثمان بالسلاح لحمايته ، إلا أنهم كانوا مصرين على تنفيذ جريمتهم ، وحينما تجمع المسلمون بالسلاح حول بيت خليفتهم لحمايته وطرد المعتدين قال كلمته المشهورة **"أقسم بالله على كل من يرى لي عليه حق السمع والطاعة إلا أغمد سيفه ولحق بأهله ، فإني لا أريد أن تراق دماء المسلمين من أجل عثمان"** فقالوا له :"إن هؤلاء القوم قاتلوك ولن نسمح لهم" فكرر عليهم مقالته مرات عديدة حتى لم يجدوا بدّاً من الانصراف ، و دخل عليه الإرهابيون داره فقتلوه، وقد تسببت هذه الواقعة الإرهابية في انشقاق الأمة المسلمة إلى نصفين منذ حدوثها وحتى الآن، من هذا يتضح أن سماحة المسلمين المفرطة هي التي تجعلهم دائماً ضحايا للإرهاب والتمرد و الخيانة كما نقلنا في الفصل السابق عن الكونت هنري دي كاستري القائد الفرنسي الشهير

لقد ذكرنا بعض تفاصيل هذه الواقعة لكي نبين أن الجهل بالإسلام و بأحكامه هو السبب المباشر في اعتناق الإرهابيين للفكر المتطرف ، فبرغم أن عثمان رضي الله عنه كان في مهمة رسمية، حيث كان مبعوثاً من قبل رسول الله ﷺ ليفاوض أهل مكة ، وبرغم أنها كانت مهمة انتحارية لوجود احتمال كبير لقيام أهل مكة بقتل أي رجل مسلم يدخل مكة في تلك الفترة مما جعل بعض الصحابة يعتذر عنها وقبلها عثمان ، وبرغم أن **البيعة أخذت أصلاً بسبب ما أشيع من أن أهل مكة قتلوا عثمان** ، وبرغم أنه تشرف بأن بايعت يد رسول الله ﷺ نيابة عنه ، إلا أن جهل الإرهابيين جعلهم يتهمونه بتهمة التخلف عن البيعة و هي ليست تهمة تستوجب القتل والعزل حتى بفرض حدوثها، ولكن حين يستبد الجهل بالعقول عندها يظهر الإرهاب ويطل برأسه متخذاً من الذرائع غير المقبولة لا شرعاً ولا قانوناً مبرراً لقتل الأبرياء

إن انتساب مثل هؤلاء الناس إلى دين من الأديان لا يعني أنه دين إرهاب و عنف ، لأن الدين لا يحكم عليه من سلوك قلة - غير متعلمة - من أتباعه و إنما يحكم عليه من نصوصه الصريحة الواردة في أصوله الثابتة

لو جاز لأحد اليوم أن يصف الإسلام بأنه دين إرهاب استناداً إلى جرائم عصابات الإرهاب المعاصرة ، فإن الدين المسيحي سيكون دينا إرهابيّاً أكثر من الإسلام بآلاف المرات إذا قارنا عدد ضحايا محاكم التفتيش بعدد ضحايا الجماعات الإرهابية المسلمة، وإذا قارنا جرائم الجيوش الإسبانية التي كانت تسلخ رؤوس الهنود الحمر وتقدمها لمركز الشرطة للحصول على مكافأة مالية ثم تطور بها الأمر إلى حد أكل لحوم الأسرى، بجرائم تلك الجماعات

و سيكون الدين اليهودي دينا إرهابيّاً أكثر من الإسلام بالنسبة نفسها إذا قارنا كل ما حدث من جرائم على أرض فلسطين عام ١٩٤٨ أثناء تنفيذ جريمة التطهير العرقي و ما زال يحدث من جرائم على تلك الأرض حتى الآن

وستكون الشيوعية الملحدة التي قتلت مائة مليون شخص وما زالت تقتل حتى الآن هي أيضاً مذهباً إرهابيّاً أكثر من الأديان الثلاثة مجتمعين إذا أجرينا المقارنة نفسها ،

هذه النتيجة العادلة والمنطقية لا يعارضنا فيها عاقل ، ولكن ما الذي جعل الناس في كل أرجاء العالم ينسون كل ذلك و ينساقون في اتجاه واحد إلى إدانة الإسلام على جرائم الجماعات الإرهابية مع أن الجميع يعلم أن جرائم هذه الجماعات لم يسلم منها المسلمون أنفسهم ، حتى وهم يصلون في المساجد ، وهو ما يدل بقوة على أنها جماعات خارجة عن الإسلام ؟

الجواب الذي لا يريد الكثيرون أن يظهر للناس هو أن الربط المتعمد بين حوادث الإرهاب وبين الإسلام هو مسألة (وجود) بالنسبة للكثير من الكيانات التي لا تستطيع العيش ولا الاستمرار ولا السيطرة على أراضي و ثروات الشعوب الأخرى بدونه ، وبخاصة إذا كانت هذه الثروات تتركز في مناطق إسلامية ترفض شعوبها كل صور الاحتلال أو التبعية لتلك الكيانات، ، وبالتالي فإن استراتيجية الرعب التي يغرقون فيها شعوب العالم هي فقط التي تمنحهم الغطاء القانوني لكل الجرائم التي يرتكبونها بهدف الاستيلاء على تلك الأراضي وتلك الثروات

في كتابه الهام (١٩٩٩ نصر بلا حرب) كتب ريتشارد نيكسون الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية في الفصل الرابع تحت عنوان (كيف ننافس موسكو) ما يلي :

"في كتابي (الحرب الحقيقية) الذي صدر مباشرة بعد الغزو السوفييتي لأفغانستان عام ١٩٧٩، أطلقت على الخليج الفارسي اسم (شريان البترول للغرب)، وكتبت أنه لو أصبحت السيطرة على محاور الاقتراب إلى احتياطيات المنطقة في أيدي السوفييت لأمكن لزعماء الكرملين ابتزاز الغرب بالتهديد بخنق اقتصادياته المعتمدة على البترول" ثم يقول بعد ذلك بأسطر قليلة :

"طالما ظلت الاقتصاديات الغربية تعتمد في تشغيلها على البترول، فستظل منطقة الخليج الفارسي و مواردها تمثل مصلحة حيوية للغرب، لقد كان الشرق الأوسط لفترة طويلة مفترق طرق حيث تلتقي آسيا و أوروبا و أفريقيا، والآن حيث يعتبر البترول دماء الحياة للصناعة الحديثة فإن الخليج الفارسي أصبح شريان البترول للغرب

ولقد كان زعماء الكرملين دائماً مدركين لهذه الحقيقة ، وكان اهتمام السوفييت بالبترول دائماً يجذب اهتمامهم نحو الجنوب. ففي أوائل الحرب العالمية الثانية أثناء المفاوضات لرسم شكل العالم مع حلفائه في ألمانيا النازية قال وزير خارجية ستالين لزملائه إنه بالإضافة إلى أهداف روسيا في أوروبا، فإن المنطقة جنوب باطوم وباكو في الاتجاه العام للخليج الفارسي هي (محور آمال الاتحاد السوفييتي). وعندما وافقت برلين على هذه الصيغة أمر ستالين هيئة أركانه بوضع الخطط لغزو إيران. وقد وصفت خطة الحرب في صفحاتها الأولى دافع موسكو في وضوح مذهل بفقرة نقلاً عن ستالين (في التحليل النهائي، هذا هو لب الموضوع : من سيظفر بحقول البترول و أهم الطرق المؤدية إلى داخل آسيا)" [١]

القضية إذاً بدأت منذ أوائل الحرب العالمية الثانية ، أي منذ عام ١٩٣٩م ، وهي صراع شرس بين أكبر قوتين عسكريتين في العالم من أجل السيطرة على حقول البترول الواقعة بكاملها في

[١] - ريتشارد نيكسون، (١٩٩٩ نصر بلا حرب)، مركز الأهرام للترجمة و النشر- مؤسسة الأهرام – القاهرة ، إعداد وتقديم المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة ، الطبعة الثالثة ، صفحة ١٢٩ و ١٣٠

أراضي الدول الإسلامية ، لقد بدأ التخطيط من كلا الجانبين قبل أكثر من أربعة عقود كاملة على ظهور الصبية الذين لعبوا بأعواد الثقاب - وما زالوا يلعبون - سواء في تنظيم القاعدة أو طالبان أو حتى في تنظيم داعش ، والذين لولاهم لما تحقق شيء من أطماع القوى العظمى

● ماذا لو ثبت أن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كانت من تدبير جهات أو أشخاص غير مسلمين ، بهدف شن حرب على الإسلام و أهله ؟ بالطبع ذلك لا ينفي وجود عناصر تنتسب إلى الإسلام لعبت بالثقاب و شاركت بشكل مباشر في التنفيذ ، لكن ماذا لو صدقت شكوك الأمريكيين الذين يطرحون فكرة أن هؤلاء الخارجين عن الإسلام لم يكونوا سوى قطع شطرنج تحركها أياد خفية معادية للإسلام وطامعة في أراضيه وبتروله ؟

في كتابه (أوكار الشر) أورد السير كينيون غيبسون الكاتب والخبير الأمريكي تساؤلات هامة تثير الكثير من الشكوك حول ما حدث في تلك الواقعة ، لدرجة أنه قال في الفصل الثامن تحت عنوان (حبل حول أحمق) :

- "في بادئ الأمر ساد الافتراض بأن بن لادن هو الذي دبر تلك الهجمات ، لكن الذي تبين سريعاً هو أن ذلك التخمين كان خاطئاً (بن لادن لم يضرب ، هكذا تقول لجنة رقابة المدينة) هذا هو العنوان البارز لمقال ظهر في صحيفة التايمز في ١٥ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠١ حسناً ، من فعل ذلك إذاً ؟" [١]

وفي الفصل الثامن أيضاً كتب يقول :

- "وإلى جانب الدليل الملموس بأن أحداث ١١ سبتمبر ما هي إلا عمل داخلي بحت ، من المؤكد أنها أفادت بوش كما أفاد حريق الرايخستاغ هتلر" [٢]

أما في بداية الفصل التاسع وتحت عنوان (العاقبة) فقد كتب يقول :

- "أمريكا تعرضت لهجوم واضح وشرير ، **ليس من قبل الإرهابيين العرب** ، بل من ذوي التغذية الحسنة والتعليم الحسن الموجودين في السلطة" [٣]

كما أشار د: كينيون إلى واقعة تثير الشكوك حول اليهود وذلك في الفصل الثامن تحت عنوان (مشتبه بهم غير عاديين) ، حيث قال :

- "هناك حقيقة مؤكدة وهي أن جعل أي كارثة تبدو وكأنها من أفعال المسلمين المتطرفين يفيد إسرائيل ، كما أن الإسرائيليين الذين سجلوا الهجمات على شريط فيديو من فوق سطح في نيوجيرسي والذين ظهر لاحقاً أنهم مرتبطون بالموساد أعطى هذه الأفكار بعض المصداقية ، خصوصاً و أن الرجال الذين كانوا على السطح سمح لهم بكل بساطة بالعودة إلى إسرائيل والقصة قلل من أهميتها في الصحافة" [٤]

[١] - - د: كينيون غيبسون ، أوكار الشر ، الدر العربية للعلوم ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ ، صفحة ٢٠٥ سطر ١٠
[٢] - المرجع نفسه ، صفحة ٢٣٣ سطر ١٩
[٣] - المرجع نفسه صفحة ٢٥٠ سطر ٦
[٤] - المرجع نفسه صفحة ٢٣٤ سطر ١٦

ربما يقتنع البعض بأن د: كينيون **يبالغ في شكوكه** ، لكنه لم يطلب الكثير ، لقد طلب فقط إجراء تحقيق جدي في كل ما طرح من شكوك ،

من ناحية أخرى فهناك أمر لا يقل أهمية أيضاً ، وهو الوقائع التي ذكرها بخصوص الجمرة الخبيثة ، والتي تثبت أن هناك بالفعل من يحاول إلصاق جرائم بشعة بالمسلمين بهدف إقناع العالم بأنهم إرهابيون بطبيعتهم ، و بأن الدين الإسلامي يحث على القتل والإرهاب ، وذلك في محاولة إلى ضرب عصفورين بحجر واحد ، فمن جهة يتم إخفاء الفاعل الحقيقي لتلك الجرائم بإلقاء التهمة على طرف بعيد يسهل إقناع الناس بمسؤوليته عنها ، و من جهة أخرى انتزاع موافقة الشعوب - تحت تأثير الرعب - على إعلان الحرب على المسلمين وعلى الدين الإسلامي الذي بدأ ينتشر في أوروبا و أمريكا في محاولة **محاكم تفتيش جديدة** لفرض معتقداتها بالقوة على الناس ، والدليل على ذلك أن تصريح الرئيس بوش عقب الأحداث مباشرة (هذه الحرب الصليبية) والذي اعتذرت بعض الجهات الرسمية بأنه كان (زلة لسان) عاد الرئيس واستخدمه بعد ذلك في حملته الانتخابية التالية (بحسب ما جاء في قناة العربية نت نقلاً عن وكالة رويتر)[١]

فبخصوص الجمرة الخبيثة و في الفصل الثامن من كتاب (أوكار الشر) وتحت عنوان (دكتور الحب الغريب)، كتب د: كينيون يقول :

- "ومن الجدير بالذكر أن شخصاً ما حاول أن يخفي مسؤوليته عن هذا العمل بجعله يبدو وكأنه هجوم إرهابي قام به مسلمون"[٢]

ويقول بعد ذلك بأسطر قليلة تحت عنوان (صنع في أمريكا) ما يلي :

- حين تعزز الإدراك العام بأن الإرهابيين المسلمين ليسوا هم المتهمين الحقيقيين في الهجمات الإرهابية البيولوجية ، أظهر الكثير من الناس التعقل وباشروا البحث عن الحقيقة داخل البيت ، ظهرت إشارة أخرى توحي بأن العمل كان مشروعاً محليّاً حين تبين أن نوع الجمرة الخبيثة كان أمريكي المصدر شبيهاً بالنوع الذي أنتج في جامعة ولاية أيوا للعلوم والتكنولوجيا في أميس"[٣]
- ثم يذكر السيد كينيون هذه العبارة الهامة : "بعد فترة ، حتى مكتب التحقيق الفيدرالي أدرك أنه لا يستطيع إجبار الناس على تصديق **القصة الخرافية حول المسلمين والجمرة الخبيثة**، والتي قصد منها خلق الانطباع المطلوب لدى الناس، و حيث أن عبارات مثل (الموت لأمريكا) و (الموت لإسرائيل) و (الله أكبر) كانت قد كتبت في رسائل الجمرة الخبيثة"[٤]

وفي وقائع مماثلة بين د: كينيون كيف تقوم بعض الأنظمة السياسية بقتل مواطنيها ثم إلصاق التهمة بالمسلمين لتبرير الأعمال الوحشية التي تعقب تلك الجرائم ضد هؤلاء المسلمين الأبرياء ، فقد ذكر في الفصل الثامن أيضاً ما يلي :

---

[١] -- موقع العربية نت ، (www.alarabiya.net/articles/2004/04/19/2402.html) مقالة بعنوان (بوش يستخدم مجدداً تعبير (حرب صليبية) بتاريخ ١٩ أبريل ٢٠٠٤م

[٢] - د: كينيون غيبسون ، أوكار الشر ، الدر العربية للعلوم ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ ، صفحة ٢١٧ سطر ١٠

[٣] - المرجع نفسه صفحة ٢١٨ سطر ٩

[٤] - المرجع نفسه صفحة ٢٢٠ سطر ١٧

- "الولايات المتحدة ليست وحيدة في هذا الاتجاه ، و إخفاء الوقائع والأدلة المتعلقة بعملاء ال (كي جي بي) الذين سقطوا أثناء تفجير شقة في الاتحاد السوفييتي و ألقيت المسؤولية عن ذلك العمل على عاتق الثوار الشيشانيين، يظهر أن على جميع الأمم أن تحترس من هكذا ممارسات، وقد يكون التحذير الأشد في هذا المجال هو المؤامرة الراهنة التي دبرها الجناح اليميني المتطرف في جنوب أفريقيا والذي كان يخطط لشن سلسلة من عمليات الإرهاب ضد الدولة ، وهو مخطط يتضمن بعض الأعمال التي تلقى مسؤولية القيام بها على المسلمين في ذلك البلد، تم القبض على أولئك الخونة المعروفين باسم (بوير ماغ تن) قبل قليل فقط من شروعهم في تنفيذ مؤامرة ١١ سبتمبر الخاصة بهم في جنوب أفريقيا " [١]

من كل ما سبق من الوقائع الثابتة ، نستطيع تأكيد أن فكرة (الإسلام دين الإرهاب) التي انتشرت في السنوات الأخيرة هي خطة ماكرة **تم التخطيط لها بإحكام** ، وأصبحت بعض الأنظمة وحتى الجماعات المعادية للإسلام تجد في هذا السلوك القذر سبيلاً لتحقيق مكاسب كثيرة على حساب طرفين بريئين ، الأول هم الضحايا الأبرياء من المواطنين الذين يتم التضحية بهم بدون رحمة ، والثاني هم المسلمون الذين يتم التخطيط لسحقهم بعد أن تكون مشاعر الجماهير العريضة من الناس قد تم تأجيجها ضدهم بكل الوسائل ، وأصبحوا جاهزين لقبول جرائم التدمير والقتل والتمييز العرقي و الديني ضد المسلمين بصفة عامة

ثالثاً : هناك ستون صراعاً دمويّاً الإسلام طرف فيها

لم نكن نحب لفلاسفة الغرب و مفكريه العظماء أن يتناولوا القضايا الهامة بكل هذه السطحية وعدم البحث الجاد عن الحقائق ، لكن العبارة ثقيلة حقّاً على النفس ، لأن الإسلام في جميع هذه الصراعات بلا استثناء هو الضحية التي كان يجب على فلاسفة العالم الحر المتمتعين بأخلاق روح العصر الحديث أن يقفوا بجانبها ، فحين ترى ستين شخصاً يجلدون شخصاً واحداً و يعذبونه حتى يقترب من الموت فليس من الأخلاق أبداً أن تقف بجوار المعتدين و تقول عن الضحية "إنها تستحق العذاب" دون أن تحاول معرفة الحقيقة ، بل الأخلاق تحتم عليك محاولة وقف هذا السلوك العدائي غير المتكافئ ضده حتى تتاح له فرصة الدفاع عن نفسه ، وبدون سماع دفاع الضحية فليس من حق أحد أن يصدر الأحكام، وسبق أن ذكرنا قول الصحابي الجليل ابن عباس "إذا جاءني رجل يحمل عينه في يده وقال لي : إن فلاناً فقأ لي عيني ، ما حكمت له حتى أسمع من خصمه فربما أن يكون قد فقأ لخصمه كلتا عينيه"

للأسف فقد وقف العالم كله موقف القاضي الذي حكم للمدعي قبل أن يسمع من خصمه الذي فقأ له هذا المدعي كلتا عينيه ،

من أجمل و أعظم ما كتبت أيدي البشر في التاريخ الإنساني كله البنود التي اشتمل عليها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، فقد جاء فيه ما يلي :

[١] - المرجع نفسه صفحة ١٧٠ سطر ٢٣

"المادة الثانية: لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان دون أي تمييز ، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون ، أو الجنس ، أو اللغة ، أو الدين ، أو الرأي السياسي ، أو أي رأي آخر ، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي ، أو الثروة ، أو الميلاد ، أو أي وضع آخر ، دون تفرقة بين الرجال و النساء، وفضلاً عما تقدم فلن يكون هناك أي تمييز أساسه الوضع السياسي أو القانوني أو الدولي للبلد أو البقعة التي ينتمي إليها الفرد سواء كان هذا البلد أو تلك البقعة مستقلاً أو تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتي أو كانت سيادته خاضعة لأي قيد من القيود

المادة الثالثة : لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه

المادة الخامسة : لا يعرض أي إنسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة" [1]

كم من الأعوام مرت على صدور هذا الكلام العظيم ، وعلى تعهد كل دول العالم بالالتزام ببنوده ؟ قرابة السبعين عاماً ، ومع ذلك فهناك ستون شعباً في العالم تعرضوا وما زالوا يتعرضون للتطهير العرقي ، و للإبادة الجماعية ، ولكل أشكال التمييز بسبب الدين الذي يعتنقونه وهو فقط الدين الإسلامي دون غيره، وترتكب ضدهم كل الجرائم التي لا يتصور بشاعتها العقل بهدف القضاء عليهم ، أو طردهم من بلادهم ، والعالم كله يسمع ويشاهد ويضحك مسروراً، ليس لأن الإسلام هو الذي يبدأ بالحرب ولكن لأنه هو الدين الوحيد الذي لا يقبل مسايرة الطغاة و إقرارهم على طغيانهم ، ولا يقبل السقوط أمام مغريات الفاسدين الذين يملكون السلطة كما حدث في الأديان الأخرى ، وقد أفرد د: كينيون غيبسون في كتابه (أوكار الشر) فصلاً كاملاً بين فيه كيف تواطأت الكنيسة في الكثير من الأزمان و البلدان مع السلطات الفاشية أو الفاسدة خوفاً من البطش أو التضييق ورغبة في الحصول على المكاسب المادية ،

كما أنه هو الدين الوحيد الذي يجرد طبقة رجال الدين من كل الامتيازات التي تمكنهم من ابتزاز الناس وبيع وهم الغفران والنعيم الأبدي لهم ، لأنه ببساطة يعلم الناس أن الله عز وجل لم يعين وسطاء من أي نوع بينه وبين الناس ، وبالتالي فكل رجل وكل امرأة يستطيع أن يتقرب إلى الله دون المرور على قسيس ، ولا على حاخام ، ولا على راهب ، ولا على مرجع ، ولا على شيخ ، كما يعلم الناس أن كل هؤلاء الذين يتسلطون على الناس باسم الدين ليسوا أفضل من غيرهم ولا قيد شعرة ، لأن التفاضل عند الله عز وجل بشيء واحد مستقر في القلب لا يطلع عليه سوى الخالق وحده ألا وهو التقوى

الإسلام إذن شوكة في حلق كل سلطة فاشية طاغية تستعبد الناس و تقهرهم بقوة السلاح لتستأثر لنفسها بثمانين في المائة من ثروات البلاد ثم تلقي لشعبها الفتات الذي يترك نصف ذلك الشعب يقتات من صناديق القمامة

وهو شوكة في حلق كل سلطة فاسدة تنظر إلى البلاد على أنها ملكية خاصة لها تفعل بثرواتها ما يحلو لها حتى لو باعت تلك البلاد على طاولة القمار

[1] - الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، موقع الأمم المتحدة (www.un.org/ar/documents/)

وهو بالطبع شوكة في حلق كل رجال الدين العاطلين عن العمل، الذين يقتاتون على صدقات الناس الكادحين ويوهمونهم أن صدقاتهم تقع في يد الرب ، وفي الحقيقة ليس هناك رب ، لأن الله عز وجل حين شرع لنا في الإسلام – وهو دين كل الأنبياء - التصدق بالمال بين أن أفضل الصدقة هي التي يخفيها الإنسان حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، و أن الصدقة لا تجوز إلا للفقراء والمساكين واليتامى و الأرامل والمحتاجين ، و أن على الإنسان أن يذهب بصدقته فيعطيها لهؤلاء المحتاجين **يداً بيد** دون المرور على أحد من رجال الدين ولا غير رجال الدين ، وعلى أن الأقارب أولى بصدقة الإنسان إن كانوا فقراء

و لأن الكثير من الأنظمة في العالم إما ديكتاتورية ، و إما فاسدة ، و إما واقعة تحت ضغوط رجال الأديان الباطلة ، فمن الطبيعي أن يكون الإسلام هو العدو الأول في الكثير من بلاد العالم ، و أن يكون المسلمون هدفاً للقتل و الطرد و الحرق و التدمير في الكثير من دول العالم و أن يكونوا هدفاً للتشويه والاستهزاء في البقية الباقية منها ؛

علينا جميعاً أن نفهم الواقع من حولنا فهماً صحيحاً ، فالإرهاب الذي نحاول جميعاً القضاء عليه باعتباره خطراً يهدد أرواح الآمنين والأبرياء ليس هو فقط قيام مجموعة من الرجال بتفجير قنبلة في مكان عام ، لكن هناك نوعاً من الإرهاب أخطر بكثير و أوسع أثراً و أكبر تدميراً، **وهو إرهاب الدولة** ، فحين يكون التنظيم الإرهابي حزباً حاكماً في دولة ما ، أو مجموعة من رجال الدين الذين يتاجرون بمشاعر الغوغاء ، فإن الجرائم الإرهابية التي ترتكب تفوق في بشاعتها كل صور الإرهاب الذي يصدر عن جماعة إرهابية هنا أو هناك ، لأن عدد الضحايا في حالة إرهاب الدولة و رجال الدين يكون بالملايين وربما بعشرات الملايين من المدنيين الأبرياء

لكن الخطر الحقيقي في هذا النوع من الإرهاب أنه هو بذاته سبب كل صور الإرهاب الذي تمارسه التنظيمات الإرهابية الصغيرة التي تمارس الإرهاب كرد فعل لإرهاب دولة ما ، **و هنا يجب أن نؤكد أن هذا النوع من رد الفعل من هذه التنظيمات خاطئ بكل تأكيد لأنه يستهدف ضحايا أبرياء لا صلة لهم بالجناة الفعليين** ، لكن الأفدح خطأ بالطبع هو الفعل الذي سبب ظهور رد الفعل هذا،

إن (إرهاب الدولة) يشبه الزلزال المدمر الذي ينشر الرعب في كل زاوية من زوايا المنطقة التي يستهدفها ، وإرهاب الجماعات المتطرفة يشبه توابع هذا الزلزال التي تختلف في شدتها و ضعفها ، لكنها لا تبلغ حتى عشرة بالمائة من قوة الزلزال الأصلي الذي ينشر الخراب في كل مكان ، و من البدهي أن عدم وجود زلزال يعني عدم وجود توابع بشكل قاطع ، والمشكلة أن العالم يبذل كل الجهود و الأموال في محاولة لوقف توابع الزلزال – مثلما يحدث في مشكلة اللاجئين السوريين و الفلسطينيين والبورميين - لكنه يغمض عينه عن مركز الزلزال وربما يعطي الغطاء القانوني لكل ما من شأنه أن يزيد من شدته، وهذا الموقف بالتحديد هو ما **يسهل مهمة كل التنظيمات الإرهابية في جمع آلاف الشباب** الذين يرون الظلم الذي يستهدفهم ويستهدف دينهم يزداد يوماً بعد يوم دون أن يقف أمامه أحد ، ومن ناحية أخرى فإن هذا الموقف أيضاً **يصعب المهمة على العلماء المخلصين الذين**

يحاولون تبصير هؤلاء الشباب بأن الإسلام ضد كل صور الإرهاب و أنه يحرم قتل الضحايا الأبرياء تحت أي ادعاء.

و نذكر فيما يلي أمثلة لبعض الصراعات التي كان الإسلام طرفاً فيها رغم أنفه لنعرف من هو الجاني ومن هو الضحية في تلك الصراعات :

١- أفغانستان :

قامت جيوش الاتحاد السوفيتي بغزو أفغانستان في عام ١٩٧٩ بهدف معلن هو دعم الحكومة الشيوعية هناك و فرض الشيوعية على الشعب الأفغاني ، وحين قامت مجموعة بدائية من الأفغانيين بمحاولة للتصدي للغزو كان رد فعل الجيش السوفيتي بشعاً و مروعاً ضد كل الشعب الأفغاني دون تمييز على مدى ١٤ عاماً هي مدة الحرب ، وبرغم الأعداد الكبيرة من القرى التي أحرقت و الضحايا المدنيين الذين قتلوا بكل أنواع الأسلحة إلا أن ما حدث للفتيات الأفغانيات كان أبشع بكثير ، فمن القصص التي تم توثيقها عن رواية شهود عيان في إحدى القرى الأفغانية ، أنه عقاباً لهذه القرية على تقديم الماء للمجاهدين الأفغان الذين كانوا يختبئون في الجبال القريبة ، قامت كتيبة من الجيش السوفيتي باقتحام القرية والقبض على مائتي فتاة دون الخامسة عشرة، و أخذوهن في الطائرات الحربية ثم قاموا باغتصابهن في الجو ثم ألقوا بهن من الطائرات فوق القرية وهن عاريات و دماء العذرية تنزف منهن ، هل سمع أحد في العالم عن جريمة إرهابية تعادل هذه الجريمة ؟ ربما كانت أحداث ١١ سبتمبر أكثر من حيث عدد القتلى ولكن هل كانت أكثر بشاعة من هذه الواقعة ؟

كم عدد الرجال الذين اشتعلت نيران الثأر في صدورهم حين رأوا بناتهم أو أخواتهم يفعل بهن كل هذا ؟ هل عرفنا الآن من هو مصدر الإرهاب في العالم ؟ وهل عرفنا الآن لماذا يقدم شاب على تفجير نفسه لينتقم ممن أهانوه و قتلوه ألف مرة ، وجعلوه يكره العيش في دنيا تعيش فيها حيوانات قذرة مثل هؤلاء الجناة الذين يمثلون جيش دولة عظمى؟

وعلى مدى أربعة عشر عاماً كاملة هي مدة بقاء الجيش الروسي في أفغانستان كانت هناك في كل قرية من قرى أفغانستان قصة إرهابية دامية ، نفذها جيش دولة عضو مؤسس في الأمم المتحدة ويتمتع بحق الفيتو لإلغاء أي قرار لا يرغب في تمريره ، وما زالت معاناة هذا الشعب مستمرة حتى اليوم ، والنتيجة هي ما يزيد على مليون قتيل ٦٠% منهم من النساء و الأطفال و ٥ ملايين لاجئ ومشرد في الداخل والخارج ؛

قد يظن البعض أننا كشرقيين نحب المبالغة ، لذلك نورد الأرقام التي ذكرها الأمريكيون بعد مضي ثماني سنوات فقط على غزو الجيش الروسي لأفغانستان ، ففي كتاب (١٩٩٩ نصر بلا حرب) للرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون جاء ما يلي :

"وطوال ثماني سنوات كان الاتحاد السوفيتي يخوض حرباً من أشرس الحروب ضراوة ضد شعب أعزل ، ولم تكن هناك فظائع تورعت عنها قوات موسكو ، وقد دخلت القوات السوفيتية يوماً إلى إحدى القرى ، وقيدت أيدي و أقدام المدنيين ، وربطت أجسامهم معاً كأعواد الحطب ثم أحرقتهم أحياء ، ولم يكن ذلك حادثاً عابراً أو نتيجة لحماسة مفرطة من جانب بعض الجنود ، بل كان جزءاً من سياسة منهجية لإرهاب السكان وإخلاء الريف من

أهله حتى تحرم المقاومة الأفغانية من القاعدة التي تستند إليها، ومن بين سكان أفغانستان الذين بلغ تعدادهم قبل الحرب ١٥ مليوناً، هرب خمسة ملايين إلى باكستان وإيران ، وتعرض مليون شخص للقتل ، والمقارنة بين إبادة الأجناس التي تمارسها موسكو ضد الشعب الأفغاني و إبادة الأجناس التي مارسها هتلر ضد اليهود ، ليست عبارة طنانة من عبارات الحرب الباردة"[١] ونذكر بأن هذه الأرقام قيلت بعد ٨ سنوات من حرب استمرت ١٤ سنة ولم تضعف شدتها حتى آخر يوم ، مما يرجح تضاعف أعداد هؤلاء الضحايا

هذا هو **الفصل الأول** من فصول الصراع في أفغانستان ، وهو واحد من الصراعات الستين التي يتهم فيها مؤلف كتاب وهم الإله الإسلام بالإرهاب لأنه طرف فيها، **مع علمه التام بأن الإسلام لم يأمر الحزب الشيوعي السوفييتي بغزو أفغانستان** ، وأن الحرب فرضت على المسلمين هناك فلم يكن أمامهم خيار آخر غير **الدفاع عن بلادهم و شرف نسائهم** برغم فارق القوة الهائل بين الطرفين .

لقد حارب الأفغان الذين لا يملكون شيئاً بأقدام حافية القوة العظمى الثانية في العالم لمدة ١٤ سنة كاملة و التي حشدت جيشاً يزيد على الجيش الذي هزم هتلر ، دفاعاً عن دينهم و عن نسائهم و عن بلادهم و لم تنج قرية واحدة من قراهم من الحرق والتدمير ،

أما **الفصل الثاني** فلم يكن أقل بشاعة من سابقه ، فعندما دخلت جيوش الدول الغربية في هذا الصراع بعد خروج الجيش السوفييتي أكملت محنة هذا الشعب الذي لا يدري لماذا يحدث له كل ذلك مع أنه لم يكن هناك **أفغاني واحد** ضمن الذين نفذوا هجوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١

في كتاب (أوكار الشر) - الذي أشرنا إليه سابقاً – ذكر د: كينيون في الفصل العاشر تحت عنوان (هذه الحرب خدعة) ما يلي :

"بيلجير ينتهي بسرعة إلى النتيجة ملخصاً الحقيقة بطريقة قد يرفض الكثيرون الاعتراف بها :

إن الحرب ضد الإرهاب خدعة ، بعد ثلاثة أسابيع من القصف ، لم يقتل أو يعتقل في أفغانستان إرهابي واحد من المتورطين في الهجمات على أمريكا، بدلاً من ذلك ، تعرض أحد أفقر بلدان العالم و أكثرها تعرضاً للنكبات **للإرهاب** الذي مارسته الدولة الأقوى في العالم ، إلى درجة أن الطيارين الأمريكيين استنفدوا الأهداف العسكرية المريبة و شرعوا في تدمير البيوت الطينية ، المستشفيات ،مخازن الصليب الأحمر ، الشاحنات التي تحمل اللاجئين ، على خلاف الصور المتدفقة باستمرار من نيويورك نحن لا نرى شيئاً من ذلك تقريباً ، طوني بلير لم يخبرنا حتى الآن عن العلاقة بين الموت العنيف للأطفال – سبعة من عائلة واحدة – وبين أسامة بن لادن، هل ثمة مبرر لاستخدام القنابل العنقودية ؟ الرأي العام البريطاني يجب أن يعلم بأمر هذه القنابل التي استخدمها أيضاً سلاح الجو الملكي ، يرشون المئات من القنابل العنقودية التي لها غرض واحد فقط هو قتل وتعويق الناس ، وتلك التي لا تنفجر تظل ملقاة على الأرض مثل الألغام الأرضية ، تنتظر الناس ليمروا فوقها فتنفجر بهم ، إذا كان سلاح مصمماً خصيصاً للأعمال الإرهابية ، فهذا هو ، رأيت ضحايا الأسلحة

[١] - ريتشارد نيكسون،(١٩٩٩ نصر بلا حرب)، مركز الأهرام للترجمة والنشر– القاهرة، الطبعة ٣ – ١٩٩١م، ص ٥٩ سطر ٢٥

العنقودية الأمريكية في البلدان الأخرى ، مثل الطفلة اللاوسية التي مرت فوق أحدى تلك القنابل فطارت ساقها اليمنى و جزء من وجهها ، كن على ثقة تامة بأن ذلك يحدث في أفغانستان ، باسمك وبحجة الدفاع عنك ، لا يوجد أفغاني واحد ضمن الذين اشتركوا مباشرة في الأعمال الوحشية التي حدثت في ١١ أيلول / سبتمبر، أكثرهم كانوا سعوديين ممن تلقوا على ما يبدو تدريباتهم في ألمانيا والولايات المتحدة، المعسكرات التي سمحت طالبان لبن لادن باستخدامها أخليت قبل أسابيع ، علاوة على ذلك ، حركة طالبان نفسها صناعة أمريكية ، في الثمانينيات الجيش العشائري الذي أنجبهم كانت تموله وكالة المخابرات المركزية ،

النفاق لا يتوقف هناك ، حين استولت طالبان على كابول عام ١٩٩٦ لم تقل واشنطن شيئاً، لماذا ؟ لأن زعماء طالبان سيغادرون قريباً إلى هيوستن بولاية تكساس لكي يستمتعوا بما يقدمه لهم المديرون التنفيذيون في شركة النفط (أونوكال)"[١]

ويعلق د: كينيون أيضاً على نشر قنابل تشبه علب المشروبات فيقول :

"وقد لاحظ المراسل ريتشارد نورتن تايلور قصف أحد المساجد أثناء إقامة الصلاة فيه ، وروى الكثير من التفاصيل المتعلقة بالأساليب الملتوية التي استعملت ضد المدنيين ، مثل جعل القنيبلات التي تنثرها القنابل العنقودية على شكل علب المشروبات ، اللون الأصفر اللامع الذي يبدو جذاباً يغري الأطفال في أغلب الأحيان ، كبعض الألعاب المغرية التي صنعها بعض الجبناء في واشنطن بسرور منحرف لإيذاء الأطفال"[٢]

ويعلق على قتل طفلة عمرها ثلاث سنوات أثناء هجوم القوات على القرية ، حيث تركت لتنزف طوال الليل بعد سقوطها أثناء الهرب في جرف بارتفاع ستين قدماً مما أدى إلى حدوث كسور منعتها من الحركة حتى فارقت الحياة "ولم يعر الأمريكيون الأمر أدنى اهتمام

ويعلق على استهداف حفلات الزفاف قائلاً:

"في أيار مايو من عام ٢٠٠٢ قتل عشرة مدنيين قرب خوست شرق أفغانستان عندما قصفت المروحيات الأمريكية حفلة زفاف ، وفي الأول من تموز / يوليو تعرضت حفلة زفاف أخرى لنيران صديقة في وسط أفغانستان مما أدى إلى مقتل ٤٠ وجرح ١٢٠ شخصاً" [٣]

ويعلق على قتل مئات السجناء الأفغان في الشاحنات قائلاً:

"في مشهد يشبه مشهد اليهود الأوربيين وهم يحشرون في سيارات الماشية في طريقهم إلى مخيمات الموت النازية ، استمر وصول سجناء طالبان محملين في سيارات الشحن طوال الأيام الثلاثة التالية ، وكل حاوية كانت تحتوي على ١٥٠ سجيناً إلى ٣٠٠ سجين ، وحيث

---

[١] - كينيون غيبسون ، (أوكار الشر) ، الطبعة نفسها ، صفحة ٢٩٣ ، سطر ١٩
[٢] - المرجع نفسه صفحة ٢٩٤ ، سطر ٢٤
[٣] - المرجع نفسه صفحة ٢٩٥ سطر ١٤

إن الأبواب أقفلت عليهم ، فقد أدركوا أنهم لن يعودوا إلى البيت ، وكما وعدوا ، تركوا للموت"[1]

ثم يقول: "جاء الإرهاب إلى أفغانستان ، وعلى خلاف الهجمات على مركز التجارة العالمي ، لم ينته الهجوم خلال ساعات، استمر لأكثر من سنة ، والأطفال أصبحوا هم الضحايا"

و أخيراً يذكر د: كينيون أبشع جريمة إرهابية تم ارتكابها ضد أفقر شعب على وجه الأرض ، وهي جريمة استخدام قنابل اليورانيوم المنضب التي تفتك بكل شيء حي يقع في المنطقة التي تلقى فيها ، حتى الطيور والشجر ، فقد كتب ما يلي :

"إن استعمال اليورانيوم المنضب هو أحد أسوأ الأشياء التي اقترفتها أمريكا ، وربما أتى في المرتبة الثانية من حيث السوء بعد تدمير فيتنام الشمالية بالعميل البرتقالي (مبيد الديوكسين) الذي ترك البلاد تعاني الموت حتى الآن، حين تبين أن اليورانيوم المنضب استعمل في أفغانستان لم يحظ الأمر بكثير من التغطية الصحفية ، هذا إذا ذكر أصلاً، وحيث أن هذه المادة تجعل الناس يموتون ببطء ، لم تظهر في أول الأمر ولم ينتبه إليها أحد ، والإشارات حول استخدامها مرت دون أن يلاحظها العديد من المراقبين الذين كانوا مشغولين جدّاً بمراقبة الدماء التي أريقت بكثرة، التغير في لون البشرة ، النزف الداخلي ، الضحايا من البشر والحيوان الذين تركوا ليموتوا ببطء ، موتاً متدهوراً ، ربما كان هذا هو الشيء المفقود في صور الأطفال القتلى، حتى الطيور عانت من ذلك ، شوهدت بعض الطيور وهي شبه مخدرة على أغصان الأشجار والدم ينز من مناقيرها ، بينما كان ذلك يحدث خصص مزيد من الاهتمام و الانتباه لحالة أنف مايكل جاكسون والحفلات التي يقيمها مرتدياً ثياب النوم أكثر مما خصص للحديث عن استعمال اليورانيوم المنضب"[2]

وينقل رسالة أحد المحاربين السابقين في الجيش الأمريكي إلى فريق أخبار بريطاني جاء فيها :

"كل هذه الشكاوى ضد الولايات المتحدة التي تحاول إبادة القليل من البعوض هي شكاوى مقرفة ، وكمحارب سابق يمكنني أن أرى قيمة الحملة الصليبية و تأثيرها ، على سبيل المثال، الناس ينزعجون من هذه السمة الأخيرة للحرب ، لكن انظر إلى الصورة على المدى البعيد، أفغانستان تتعلم الدرس الآن، استعمال اليورانيوم المنضب والذي قصد منه ترك علامة دائمة ، يعتبر تحذيراً لكل العالم كي يعتبر البعض الآن ويتوقف عن لعب دور القرد الشاطر ، هذه هي الوسيلة المناسبة لتحقيق النصر ، لسنوات وسنوات هذه المادة ستترك الكثيرين من أعداء أمريكا يعانون نزيفاً داخليّاً ، من النوع الذي يجعل المرء يفكر بأولئك الليبراليين ذوي القلوب الدامية، إن استخدام هذا السلاح يضع حجر الأساس الذي لم تستطع العديد من الوسائل الأخرى وضعه، هذه المادة لن تستخدم ضد أعدائنا في أفغانستان فقط ، بل يمكنها أن تكون رادعاً جيداً بالنسبة لأولئك الذين ليسوا معنا ، وربما ينبغي تلقين القوات البريطانية التي تريد تحريض ومساعدة العدو بإهدار الوقت و أموال دافعي الضرائب من خلال تقديم العناية المجانية بأسنان الأفغان الصغار ، درساً مفيداً بهذه المادة ،

[1] - المرجع نفسه صفحة ٢٩٩ ، سطر ٦
[2] - المرجع نفسه ، صفحة ٣٠٣ ، سطر ٢٢

هكذا ينبغي التعامل مع أولئك الذين ليسوا معنا ، سواء كانوا إرهابيين من ذوي البشرة السمراء ، أم من أولئك الذين يرفعون العلم البريطاني" [١]

ويعلق د: كينيون قائلاً : "من غير المنصف الاقتباس من هذا المتشدق فقط واعتباره صوت الشعب الأمريكي ،وهو ليس كذلك ، ومن حسن الحظ أن شخصاً آخر عبر عن رأي مختلف ومناقض في الموقع نفسه :

كمحارب سابق في الجيش الأمريكي ، أود أن أشير إلى أن السؤال أعلاه لا يمثل رأي كل مواطن أمريكي أو كل ضابط في الجيش ، في صفوف القيادات العليا هناك بضعة مجانين ، ولسوء الحظ كلنا ننتهي مضطرين إلى التعامل معهم ، وفي بعض الأحيان نتلقى الأوامر منهم، الحقيقة المرة و المحزنة هي أن الولايات المتحدة استعملت اليورانيوم المنضب في هذه الحرب ، ويجب القول بأن هذا الأمر مقزز ومثير للاشمئزاز ، على أية حال ، استخدام هذه المواد تم بناءً على أوامر القيادات العليا، والجنود الذين استخدموها تعرضوا لمخاطر صحية ، وفي معظم الأحيان لم يتم تنبيههم إلى تلك المخاطر، من الناحية العسكرية استعمال اليورانيوم المنضب يعادل رمي حمض الأسيد في وجه طفل رضيع ، أرجو أن تعلموا أن الجنود الأمريكيين ليسوا جميعاً مشحونين بهذا المخيف ضد المدنيين الأفغان" [٢]

ونحن نتفق مع د: كينيون أن المحارب الأول (متشدق) و أنه ليس من المنصف أن نعتبر أن رأيه يعبر عن رأي جميع الشعب الأمريكي ، لكن السؤال هو : كم متشدقاً مثله يوافقه الرأي في العالم الحر ؟ وكم من هؤلاء المتشدقين لهم سلطات إصدار أوامر بإطلاق النار على الأبرياء ؟

هذا هو الفصل الثاني من الصراع الدائر في أفغانستان ، نعم الإسلام طرف فيه ولكنه الطرف الذي فرضت عليه حرب غير متكافئة للمرة الثانية ، فالعالم كله يعلم أن الإرهابيين الذين نفذوا الهجوم في ١١ سبتمبر ليسوا من الأفغان ، و أن الصراع بين القوتين العظميين في العالم هو السبب الأول و الأخير لكل ما يحدث هناك ، وحتى الزعم بأن الحرب هناك ضد طالبان – التي صنعها الغرب - لا يبيح لجيوش العالم المتحضر استخدام القنابل المشعة التي تفتك بالمدنيين وبأطفالهم و حتى بحيواناتهم لسنوات و سنوات ؛

و الآن : من هو الطرف الجاني و من هو المجني عليه في كل من فصلي الصراع هناك ؟

٢- بورما :

كل العالم رأى بعينه مشهد حرق الطيار الأردني الكساسبة على يد تنظيم داعش الذي لا يمثل الإسلام ولا يعرف شيئاً عن تعاليمه، وهو يشبه قساوسة محاكم التفتيش في القرن الخامس عشر الذين ظنوا أن إدخال الناس في المذهب الكاثوليكي بالقوة هو عمل يرضي ربهم ، والصورة الفجائية التي ظهر بها هذا التنظيم على مسرح الأحداث بعدد كبير من

[١] - المرجع نفسه ، صفحة ٣٠٤ ، سطر ١٣
[٢] - المرجع نفسه صفحة ٣٠٥ ، سطر ٦

الدبابات و المدرعات و المدافع والصواريخ دون سابق إنذار تثير شكوكاً حقيقية حول الجهة التي قامت بإنشاء و تسليح هذا التنظيم ، نعلم يقيناً أنه من الممكن أن تستمر المفاوضات السرية بين إحدى دول العالم الثالث وبين دولة حديثة مصدرة للأسلحة لمدة ثلاث أو خمس سنوات من أجل إبرام صفقة سلاح لا تتعدى عشر دبابات و خمس طائرات من الأجيال التي انتهت صلاحيتها بالنسبة لجيوش العالم الحر ، وربما تلغى الصفقة في نهاية الأمر، لكن تنظيم داعش ظهر فجأة وهو يستعرض قوته بأسلحة لم تصل بعد إلى نصف دول العالم الثالث ، هل هذا طبيعي ؟ هل قام التنظيم بتخدير جيوش العالم الحر و السطو على مخازنها وسرقة كل هذا الكم من الأسلحة ؟ أم أن هناك من سلمه السلاح ضمن صفقة مريبة ؟

كلنا أصابتنا الصدمة لمشهد الكساسبة لأننا لم نكن نعلم أن قلب الإنسان يمكن أن يحمل كل هذه القسوة ،

لكن لو جرب أحدنا و كتب في أحد محركات البحث على شبكة الإنترنت كلمة (الروهينجا) وانتظر الصور التي ستظهر له ، فإنه ربما يغشى عليه ، آلاف الجثث المحترقة و المتفحمة لرجال ونساء و أطفال لم يكملوا عامهم الثاني ، قرى كاملة تحترق بكل من فيها ، ثلاثمائة ألف مسلم هربوا في كل اتجاه – ليلحقوا بثلاثة ملايين سبقوهم – و ليصبحوا في العراء بلا مأوى ، ولا طعام، ولا شيء يقيهم حر الشمس ولا برد الشتاء ولا بالطبع رصاص البرابرة الذين يتعقبونهم ليتقربوا إلى رهبانهم و أصنامهم بجثثهم المحترقة ، وما زالت الجرائم تتوالى حتى يومنا هذا تحت صمت بل ودعم الحكومة الرسمية

بالطبع ليس بين هؤلاء البرابرة وبين تعاليم بوذا أي صلة ، لو أن بوذا بيننا الآن لحكم على كل هؤلاء المجرمين بأن يقذفوا في فوهة بركان ثائر حتى يتبرأ من همجيتهم أمام العالم أجمع ، إن الذي يحرق طفلاً رضيعاً صراخه يصم الآذان ويشنق طفلة عمرها ست سنوات على فرع شجرة هو عدو لله عز وجل و لجميع الأنبياء و لبوذا الذي كان يعلم الناس التسامح و الإخاء - على حد علمنا – وأيضاً عدو للإنسانية التي تتنجس بانتسابه إليها

كل أنواع جرائم التطهير العرقي و الإبادة الجماعية و التمييز العنصري بسبب الدين و الجنس و العرق التي جرمها إعلان حقوق الإنسان ترتكب هناك ضد عشرة ملايين مسلم في ذلك البلد على يد رهبان من العصر الحجري يحاربون شعباً أعزل سكن بورما منذ القرن العاشر الميلادي، بهدف طرده من بلاده وبلاد أجداده بحجة أنهم غرباء جاء بهم الإنجليز من البلاد المجاورة، مائة ألف طفل وامرأة وشيخ تم قتلهم وحرقهم في عام واحد هو عام ١٩٤٢ ، بالإضافة إلى مليون ونصف المليون لاجئ هربوا إلى البلاد المجاورة ، ومنذ ذلك الحين والقتل والحرق والاغتصاب لا يتوقف، والجناة لا يخفون هدفهم المتمثل في التطهير العرقي لطرد المسلمين نهائيّاً من هذا البلد ، والعالم كله يسمع و يشاهد و يبتسم

الحكومة التي تخدع العالم وتوهمه بأنها لا تمارس أي تمييز عنصري ضد المسلمين ، أخرجت لسانها للأمم المتحدة و لإعلانها العالمي لحقوق الإنسان - وخاصة المادة ١٥ التي تنص على أنه لا يجوز حرمان أي شخص من جنسيته تعسفاً - فقامت بسحب الجنسية من ملايين المسلمين و منعت الباقين من أي حقوق مدنية وحرمتهم من حق التصويت ، وهي

التي تدعم المنظمات البوذية العنصرية التي تتلذذ بحرق الأطفال وهم أحياء لكي تقوم بما لا تستطيع هي القيام به من جرائم التطهير العرقي

على الموقع الإلكتروني "المسلم" نشرت أجزاء من حوار أجرته صحيفة (الوطن) البحرانية مع عائشة صلحي – وهي فتاة من بورما تدرس الشريعة الإسلامية – جاء فيه : "عشرة ملايين من المسلمين في بورما يعيشون جحيماً حيث تتعامل معهم السلطات والجيش كأنهم وباء لا بد من القضاء عليه ، فما من قرية فيها مسلمون إلا وتمت إبادة المسلمين فيها ، حتى يسارع النظام بوضع لوحات على مداخل هذه القرى تشير إلى أن القرية (**خالية من المسلمين)**"[1]

وتقول أيضاً – على الموقع نفسه - : "ولكن على أي حال يكفينا فخراً أننا نموت شهداء ، وسيكتب التاريخ الإسلامي أن الموت أسهل عند شعب بورما من ارتكاب المعاصي ، فكثيراً ما يخيروننا بين شرب الخمر أو أكل لحم الخنزير أو الموت" ثم تجيب بكل قوة وثبات **"وطبعاً نختار الموت"**

وتؤكد عائشة أيضاً أن المسلمات يتعرضن للاغتصاب في أبشع صوره ، حيث تقول: **"ابنة خالتي ظل الجيش يغتصبها لمدة ثلاثة أعوام و أنجبت طفلين لا تعرف أباً لهما"**

والآن : من هو الإرهابي الحقيقي ؟ وما هو الدين الذي يدعو إلى الإرهاب ؟

هذا مثال آخر من الصراعات التي فرض على الإسلام أن يكون طرفاً فيها ، ما رأي د: ريتشارد داوكنز الآن في عبارته التي ذكر فيها أن هناك ستين صراعاً في العالم الإسلام طرف فيها ؟

لكن الملحدين منهمكون حتى آذانهم في تنظيم المؤتمرات والحوارات التليفزيونية و إجراء استطلاعات الرأي و حشد المظاهرات من أجل الدفاع عن حقوق الشواذ ، و هم لا يتوانون عن غزو جميع وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة لشهور كاملة إذا تعرض أحد الشواذ لجريمة التمييز البشعة بسبب نظر أحد الناس له في مكان عام نظرة اشمئزاز، هذه هي القضايا الكونية التي لا يوجد أخطر منها في نظر الملحدين

أليس الدفاع عن مئات الآلاف من الأطفال والفتيات الذين يغتصبون ثم يحرقون في بورما أهم بكثير و أرقى أخلاقيّاً من الدفاع عن حقوق الشواذ في عدم النظر إليهم باحتقار ؟ هل هناك وجه للمقارنة ؟

نتمنى أن يتبنى الرجال العظماء في العالم الحر قضايا عظيمة تليق بمكانتهم ، كما نتمنى أن يتكاتف كل الشرفاء في العالم من أجل أعظم و أرقى هدف على الإطلاق وهو حماية الأطفال والنساء والشيوخ من كل صور البطش في أي صراع دائر إذا لم يكن بمقدورهم وقف الصراع نهائيّاً

---

[1] - موقع المسلم الإلكتروني، (www.almoslim.net/node/167836) مقالة بعنوان (فتاة مسلمة من بورما تسرد تفاصيل جرائم القتل والاغتصاب) ، المسلم / صحيفة الوطن البحرانية / وكالات / 22/8/1433 هجرية

لقد علمنا رسولنا الكريم ص منذ القرن السابع الميلادي أن أرواح هذه الفئات هي خط أحمر مهما اشتدت ضراوة المعارك ، ووصيته ﷺ لقادة الجيوش في هذا الشأن هي وصية خالدة بلا شك ، فقد كان يقول لهم :«انْطَلِقُوا باسْمِ الله وَبالله وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ الله، وَلا تَقْتُلُوا شَيْخاً فَانِياً وَلاَ طِفْلاً وَلا صَغيراً وَلا امْرَأَةً، وَلا تَغُلُّوا وَضُمُّوا غَنَائِمَكُم وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إنَّ الله يُحِبُّ المُحْسِنِينَ»[1]

فهل يستطيع العالم اليوم تبني هذه الوصية و إلزام الجهات المتحاربة باحترام حياة الأطفال والنساء و كبار السن واعتبارها خطاً أحمر ؟

هذا ما يجب على مجلس الأمن الاجتماع من أجله كل شهر وكل يوم وكل ساعة ، إلى أن ينجح في إجبار البرابرة في كل بقعة من العالم على الإذعان لهذه الغاية العظيمة ، وبدون نجاح هذا المجلس في حماية هذه الأرواح البريئة فليعلن استقالته فهذا أكرم بكثير له

٣- البوسنة والهرسك :

على أرض البوسنة والهرسك تحدث التاريخ وشهد بالحقيقة شهادة أوضح من ضوء الشمس الساطعة في فصل الصيف ، لا يستطيع أحد أن ينكر شهادة التاريخ وبخاصة عندما نكون جميعاً شهود عيان على كل الوقائع التي شهد بها

وعلى أرض البوسنة والهرسك تحدثت الأرض و الماء والهواء وشهدوا جميعاً بالحقيقة نفسها التي شهد بها التاريخ، فليس هناك شبر من أرض البوسنة إلا ويحمل دليلاً لا يقبل الشك على تلك الحقيقة ، ذلك الدليل الذي يسكن في باطن كل قرية من قرى البوسنة متمثلاً في المقابر الجماعية التي تحوي عظام مائتين وخمسين ألف ضحية بريئة من الأطفال والنساء و الرجال قتلوا منذ سنوات قليلة فقط لأنهم مسلمون

إنها الحقيقة التي أثبتناها في الفصل السابق حين تحدثنا عبر التاريخ البشري كله عن وجود أمة واحدة فقط ارتقت إلى عنان السماء بأخلاقها و تسامحها وتعاملها مع الأقليات الدينية من منطلق قول رسولها ﷺ "من آذى ذمياً فقد آذاني" بينما سقطت كل أمم الأرض على مر التاريخ بجميع مذاهبها ومعتقداتها الدينية والفلسفية في هاوية الهمجية و البربرية بما فيها حضارة القرن الحادي والعشرين في أرقى صورها

فهناك على أرض البوسنة سقط الإلحاد و سقطت الشيوعية و سقطت المسيحية الكاثوليكية و المسيحية الأرثوذكسية كما سقطت المنظمات الدولية و جيوش حفظ السلام بل وحتى المنظمات الإغاثية المسيحية التي ترفع الصليب على كل حبة أرز تقدمها للضحايا الذين هم في الحقيقة ضحايا جيوش الصليب،

ليس على أي شخص يريد معرفة الدين الحق من الأديان المزورة والمذاهب الباطلة أن يبذل الكثير من الجهد في قراءة كتب الأديان، فعلى أرض البوسنة والهرسك سيجد الدليل يتحدث

[1] - سنن أبي داوود عن أنس بن مالك ، دار إحياء التراث العربي ، جزء ٧ صفحة ٢٧٤ ، الحديث رقم ٢٦١٥

بصوت مسموع، **ليس عليه** إلا أن يقرأ تاريخ البوسنة و الهرسك ليعرف كيف كفر الإلحاد بكل المثل التي دعا إليها من تحرير الناس و نشر المساواة والرخاء والقضاء على كل صور الطبقية و الاستعباد ،

وليعرف كيف كفر المسيحيون بالمسيح عليه السلام و بأعظم وصاياه التي أوصاهم بها على الجبل ، سواء منهم الصرب الأرثوذكس أو الكروات الكاثوليك ، وكيف صنعوا جميعاً من أنفسهم أكبر عدو للمسيح عليه السلام الذي أمرهم في تلك الوصية العظيمة قائلاً: (هنيئاً للرحماء لأنهم يرحمون، هنيئاً للأنقياء القلوب لأنهم يشاهدون الله ، هنيئاً لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون) (متى ٥ : ٧ – ٩)[١]، وقال لهم أيضاً :(سمعتم أنه قيل : عين بعين وسن بسن، أما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا من يسيء إليكم ، من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر ، ومن أراد أن يخاصمك ليأخذ ثوبك فاترك له رداءك أيضاً) (متى ٥ : ٣٨ – ٤١)[٢]

وقال أيضاً:(سمعتم أنه قيل: أحب قريبك وأبغض عدوك، و أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم ، وصلوا لأجل الذين يضطهدونكم فتكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات) (متى :٤٣ - ٤٥)[٣]

لمن قال المسيح عليه السلام هذا الكلام ؟ هل قاله لشعب يعيش على سطح القمر ؟ هل كان المسيح عليه السلام يتسلى أو يمزح أو يضيع وقته مع الذين اجتمعوا ليستمعوا وصيته على الجبل ؟ حاشا لله، فالمسيح لا يمزح مع أحد ، لكنه قالها صريحة (لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات) ، والمعنى واضح جدّاً ، فمن خالف وصيته فلن يكون له أي صلة تربطه بهذا الإله العظيم الذي خلق السماوات والأرض و كل ما في الكون، مهما اعتلى من منابر ومهما تلا من صلوات ومهما تقدم الصفوف في صلوات الأحد

دعونا نحاول أن نصغي لصوت التاريخ وهو يدلي بشهادته عن كل الأمم لنعرف من هي الأمة التي آمنت بالله عز وجل و بالمسيح عليه السلام و طبقت وصاياه على الجبل ، ومن هي الأمة التي كفرت بالله سبحانه وتعالى و داست وصايا المسيح بأقدامها :

● **المسلمون** : عندما دخلت جيوش الأتراك المسلمين إلى البوسنة عام ١٤٦٢م كانت هناك ثلاث مجموعات رئيسة ، الصرب الأرثوذكس ، والكروات الكاثوليك والبوشناق الذين كانت غالبيتهم من الوثنيين ، وبالتسامح نفسه الذي عاملت به الجيوش المسلمة الأقليات الدينية وبخاصة المسيحية منها في مصر و الشام والعراق منذ القرن السابع الميلادي ، والذي تمثل في كتابة عقود الأمان التي تمنحهم الأمان على حياتهم وأموالهم و كنائسهم وحريتهم الدينية ، فقد كتب سلطان الأتراك (محمد الفاتح) عقد الأمان لأهل البوسنة – كما جاء في كتاب النسر الكبير محمد الفاتح للأستاذ رمزي المنياوي - على النحو التالي :

"أنا السلطان محمد خان الفاتح ، أعلن للعالم أجمع أن أهل البوسنة الفرنسيسكان قد منحوا بموجب هذا الفرمان السلطاني حماية جلالتي ، ونحن نأمر بأن :

---

[١] - الكتاب المقدس، الترجمة العربية المشتركة، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، العهد الجديد، الاصدار الرابع، ١٩٩٣ ط٣٠ صفحة ٨

[٢] - المرجع نفسه صفحة ١٠

[٣] - المرجع نفسه صفحة ١٠

- لا يتعرض أحد لهؤلاء الناس ولا لكنائسهم و صلبهم ، وبأنهم سيعيشون بسلام في دولتي، وبأن أولئك الذين أصبحوا مهاجرين منهم سيحظون بالأمان والحرية، وسيسمح لهم بالعودة إلى أديرتهم الواقعة ضمن حدود دولتنا العلية

- لا أحد من دولتنا سواء كان نبيلاً ، وزيراً ، رجل دين ، أو من خدمنا سيتعرض لهم في شرفهم أو في أنفسهم

- لا أحد سوف يهدد أو يتعرض لهؤلاء الناس في ممتلكاتهم و كنائسهم

- وسيحظى كل ما أحضروه معهم من متاع من بلادهم بنفس الحماية ، وبإعلان هذا الفرمان أقسم بالله العظيم الذي خلق الأرض في ستة أيام و رفع السماء بلا عمد ، وبسيدنا محمد عبده و رسوله ، وجميع الأنبياء والصالحين رضوان الله عليهم أجمعين ، بأنه لن نسمح بأن يخالف أي من أفراد رعيتنا أمر هذا الفرمان" [١]

وكان هذا التسامح سبباً في دخول أغلب البوشناق في الإسلام و كذلك أعداد كبيرة من المسيحيين

وكما شهد التاريخ وسجل عقود الأمان التي حفظت الأرواح و الأموال من بطش الجيوش المنتصرة و تركت للناس حرية ممارسة الشعائر الدينية في كنائسهم على اختلاف مذاهبهم ومعتقداتهم ، فقد شهدت الجغرافيا أيضاً – وما زالت تشهد – على تطبيق هذه البنود في كل البلاد التي دخلتها جيوش الإسلام ، فقد ظلت الكنائس الأثرية الكبيرة تناطح السحاب طوال أربعمائة سنة ظلت فيها البوسنة والهرسك تحت حكم الأتراك المسلمين دون أن يمسها أحد بسوء حتى انتهت ولايتهم عليها بموجب معاهدة برلين التي وقعت على مشارف القرن العشرين و التي وضعت المنطقة تحت حكم ملك النمسا الكاثوليكي ، مما أشعل نار الحرب بين الصرب الأرثوذكس وبين الكروات الكاثوليك المدعومين من ملك النمسا

- **الشيوعيون** : في عام ١٩٤٥ و بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية استولى الشيوعيون على السلطة بزعامة تيتو، وأعلنوا قيام دولة يوغوسلافيا الاتحادية التي ضمت ست جمهوريات منها صربيا و كرواتيا و البوسنة والهرسك وثلاث جمهوريات أخرى

و برغم النصوص البراقة عن الحرية وعن حقوق الإنسان في دساتير كل الدول الشيوعية والتي منها يوغوسلافيا فإن الذي حدث كما في كل الدول الشيوعية عكس هذه النصوص تماماً ،

فكل جرائم الشيوعيين في روسيا والصين تم تكرار صورة طبق الأصل منها ضد المسلمين في البوسنة ، وكل بنود الثورة الثقافية التي قننت الاغتصاب و القتل وحرق المساجد و الجامعات الإسلامية تم تطبيقها ضد المسلمين هناك ، وبلغ عدد القتلى بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٦ فقط مائتين وخمسين ألف قتيل ، تم قتلهم في حملات إعدام جماعية وفي مسيرات الموت الإجبارية و معسكرات الاعتقال ، والكثير منهم كانوا يلقون بالمئات في الآبار العميقة وهم أحياء بمن فيهم النساء و الأطفال ، و كان أئمة المساجد والعلماء في مقدمة الضحايا ، وبالطبع نال الأطفال من الحقد الشيوعي قسطاً هائلاً حتى أنهم كانوا يحملون ثم تضرب بهم الصخور الصلبة حتى تتهشم

[١] - ذ: رمزي المنياوي، (النسر الكبير – محمد الفاتح)، دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، ط ١ /٢٠١١م ، صفحة ١٩٤

رؤوسهم ، وفي عام ١٩٤٩ تم تدمير جمعيات الشبان المسلمين وقتل كل المنتمين إليها و العاملين بها لأنهم ينشرون الدين الذي هو بالطبع أفيون الشعوب عند الأنظمة الملحدة

لكن :هل تحدث أحد عن الإرهاب الشيوعي الذي كان يحكم يوغوسلافيا في تلك الفترة أو عن الجيش الشيوعي الذي تتصاغر أمام جرائمه كل الجرائم الإرهابية في وقتنا هذا ؟ بالطبع لم يتحدث و لن يتحدث أحد، كما لم يتحدث أحد عن الإرهابي ستالين الذي قتل حزبه الحاكم في فترة رئاسته للحزب أكثر من عشرين مليون شخص بكل صور القتل والحرق و التدمير ، و الذي لا تمثل كل جرائم الجماعات الإرهابية الخارجة عن الإسلام نقطة في بحر جرائمه، كما لم يسمع أحد عن (خطر الإلحاد السياسي) المسئول عن قتل مائة مليون نسمة كما نسمع عن خطر الإسلام السياسي، ولم تجتمع المنظمات الدولية ومجلس الأمن لاتخاذ خطوات صارمة ضد الإرهاب الشيوعي لا في يوغوسلافيا ولا في غيرها من البلاد التي كانت تمحى من الوجود تحت سمع وبصر هذه المنظمات الدولية ، فقط لأن الضحايا كانوا مسلمين

نحن لا نعيب على المنظمات الدولية التي تجتمع الآن من أجل وقف جرائم الجماعات الإرهابية التي تنتسب إلى الإسلام في أي مكان في العالم ، فالإسلام يرفض قتل الأبرياء ، ويرفض إكراه الناس على الدخول فيه ، و يرفض طرد الناس غير المسلمين من بلادهم كما حدث في العراق على يد بعض هذه الجماعات ، بل إن الإسلام على مر العصور هو فقط الذي أعطى عهود الأمان للأقليات الدينية ومنحهم الحرية الدينية التي لم ينالوها حتى على يد أبناء دينهم ، لكننا نعيب على من لا يرى الخشبة في عينه ويريد أن يخرج القشة من عين الآخرين

● **المسيحيون** : منذ أن تم انتزاع البوسنة والهرسك من سلطة الدولة العثمانية و تسليم إدارتها إلى حكومة النمسا بموجب معاهدة برلين أصبحت هجمات العصابات الصربية (الأرثوذكسية) والكرواتية (الكاثوليكية) المدعومة من النمسا على المسلمين الذين يقعون جغرافيّاً بين الفريقين المتحاربين منذ عدة قرون لا تتوقف ، فكل طرف يريد ضم المنطقة الفاصلة بينهما – وهي أراضي البوسنيين المسلمين – إليه ، بعد تطهيرها عرقيّاً من المسلمين، وبالطبع كان القتل ونشر الرعب بين المسلمين هو الوسيلة التي اتبعتها تلك العصابات لإجبارهم على الهرب و إخلاء القرى و المدن لهم، وعندما قام الصرب باغتيال ولي عهد النمسا (الكاثوليكي) لم يسلم المسلمون من الانتقام ، ووجد المسلمون أنفسهم رغماً عنهم يصنفون على أنهم أعداء لكل القوى المتحاربة **دون أن يكونوا طرفاً في النزاع** ، فقد اعتبرهم كل من الصرب الأرثوذكس و الكروات الكاثوليك بالإضافة إلى الشيوعيين أعداءً لهم،

و بعد انهيار يوغوسلافيا الشيوعية في العقد الأخير من القرن الماضي بدأت الجمهوريات الست المكونة لها في الانفصال و إعلان الاستقلال ، فقد أعلنت سلوفينيا وكرواتيا الانفصال عام ١٩٩٠ واعترفت الدول الأوروبية بهما كدولتين مستقلتين، بينما رفضت هذه الدول الاعتراف بالبوسنة والهرسك كدولة مستقلة عندما فعلت الشيء نفسه و أعلنت استقلالها ، ورد الصرب الذين كانوا يشكلون معظم قيادات و أفراد جيش يوغوسلافيا بالتحرك بالدبابات نحو كرواتيا ونحو البوسنة والهرسك لضم كل منهما إلى دولة (صربيا الكبرى) بالقوة، وبالطبع تدخلت الدول الأوربية لحماية الكروات الكاثوليك بينما ظلوا يتفرجون في سعادة تامة على المسلمين الذين لم يكن معهم سلاح يذكر وهم يسحقون تحت جنازير دبابات الجيش اليوغسلافي و تحت قصف

مدافعه بسبب سيطرة الصرب على معظم المراكز القيادية فيه ، بالإضافة إلى الميلشيات المسيحية الصربية التي تم تدريبها في إسرائيل على تنفيذ خطة التطهير العرقي ضد المسلمين ، ولم يكتف المجتمع الدولي بالوقوف متفرجاً بل شارك في الجريمة باتخاذ قرار بمنع تصدير السلاح إلى الأطراف المتحاربة بحجة أن تصدير السلاح لهم سوف يزيد النار اشتعالاً وهم على علم كامل بأن الصرب الذين يملكون سلاح يوغوسلافيا كله تقريباً ليسوا بحاجة إلى سلاح جديد في مواجهة مسلمين عزل قرر المجتمع الدولي منع وصول السلاح إليهم لينقذوا أرواحهم و أرواح أطفالهم و أعراض نسائهم به

والنتيجة لا تحتاج إلى شرح كثير ، فعندما يهجم جيش بربري مقطوع الصلة بالسماء و بكل الأنبياء و على رأسهم المسيح عليه السلام بمباركة من قساوسة محاكم التفتيش البربرية على مدنيين لا يملكون سلاحاً فإن همجية إنسان عصور ما قبل التاريخ تصبح أرقى بكثير من همجية هذا الجيش

- خمسون ألف امرأة تم اغتصابها على يد أعداء المسيح هؤلاء بعد أن أصدرت الكنيسة الأرثوذكسية فتوى تبيح اغتصاب النساء المسلمات ، كانوا يجمعون النساء بالمئات بمن فيهن الفتيات الصغيرات دون العاشرة ثم يجردوهن جميعاً من كل ملابسهن ثم يقومون بالاغتصاب الحيواني أمام بعضهن بعضاً، ليس هذا فقط ، بل كانوا يأمرونهن بالوقوف عاريات في صفوف ثم يقوم الجنود بالبدء بتقطيع أثداء الكثير منهن أمام الجميع ، بالطبع كانت الكثير من النساء يفقدن الوعي والكثير كن يفقدن عقولهن من الرعب قبل وصول الدور إليهن

على موقع صيد الفوائد الإلكتروني وتحت عنوان (من جرائم الصرب في مسلمي البوسنة & مهزلة محاكمة مجرمي الحرب) جاءت شهادات الضحايا التي تشل العقل عن الاستيعاب ، منها ما يلي :

"أنشأ الصرب معسكرات الاعتقال في كل منطقة بل في كل قرية ، يحشر الأسرى المسلمون – وهم من الأهالي المدنيين – في مناطق صغيرة وغرف رثة لا تصلح للبهائم ومن يمرض منهم يقومون بقتله أمام المسلمين ، و إذا جرح الصرب في المعارك فإنهم يأتون إلى المسلمين ليأخذوا الدم منهم بالقوة ، و إذا احتاجوا للكلية أو الكبد أخذوها من المسلم وهو حي ثم تركوه ينزف حتى الموت ، وإذا احتاج طلاب كلية الطب إلى إجراء تجارب حية يقوم الصرب بتزويدهم بها من الأسرى المسلمين ، وما قصة المسلمة التي أبكت الحجر قبل البشر ببعيد ، فقد كانت حاملاً في الشهر الثامن فأخذت من معسكرات الاعتقال وبقرت بطنها و تم إخراج جنينها وذبحه ، ثم وضع طلاب كلية الطب في بلجراد جنين قطة مكانه ليروا هل ستنجب قطة أم ماذا" ثم تكمل :

"وأما عن المسلمات فيقمن بغسل ملابس الجنود الصرب وطهو الطعام لهم وتطبيب جرحاهم ، وإذا أتى الليل ورجع الجنود الصرب من المعارك يقومون باغتصاب المسلمات حتى حبلت من الاغتصاب أكثر من خمسين ألف مسلمة ، **وكل هذه الحقائق موثقة بالشهود في مركز جرائم الحرب في سراييفو** ، ونورد هنا مقتطفات من رسالة أرسلتها إحدى المسلمات للمجاهدين جاء فيها :

و أما عن المعاملة فلا تسل ، وأما عن البرنامج فيبدأ مع طلوع الفجر حيث يقومون بإيقاظنا من النوم وحمل نصفنا على الشاحنات إلى الجبهة حيث نقوم بحفر الخنادق للصرب وتقطيع الأشجار و الحطب و جلب الماء من الأماكن البعيدة وحين يخيم الليل يقومون بإرجاعنا إلى المعسكر حيث يقوم الضابط بانتقاء المسلمات و أخذهن إلى حفلة له ولرفاقه بها الخمر ، ويقوم الصرب باغتصابنا بكل وحشية حتى يتناوب على الفتاة المسلمة أكثر من رجل وهم يسبون الإسلام والمسلمين " ويكمل كاتب المقالة :

"ومن قصص هؤلاء الصليبيين أنهم دخلوا في بداية الحرب على مدينة سراييفو و قاموا باحتجاز المسلمات من سن ١٥ إلى سن ٢٥ سنة داخل ملعب رياضي مغلق ، دخل أربعة من الضباط الصرب والصالة تعج ببكاء المسلمات ، والصالة قد امتلأت بالمسلمات وبالجنود الصرب ، فصاح أحد الضباط بصوت عال : سنجتث الإسلام من هذه البلاد ، إرحلوا فليس لكم مكان هنا ، هذه بلاد نصرانية وستبقى إلى الأبد كذلك ، ثم قام بأخذ إحدى المسلمات من المدرج وكان معها طفل رضيع بعمر شهرين أو أكثر و المسلمات ينظرن بأسى ، فقام بتعرية المسلمة أمام الأسرى المسلمات و أمام الجنود الصرب ، ومن ثم قام باغتصابها بكل وحشية ، وقام ضابط آخر باغتصابها كذلك بكل وحشية ، فبكى الطفل الرضيع ، فقام الضابط الصربي بغمس أصابع يده في جمجمة الطفل وقام بقطع رأس الطفل ورماه بكل قوة على الأرض فانتثر المخ و الأم تشاهد و النساء الأسرى يشاهدن ولا يملكن سوى البكاء ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل قاموا بقطع أثداء الأم المسكينة بسكين حاد و فقئوا عينيها الاثنتين بالسكين وتركوها تنزف حتى فارقت الحياة ، فالتفت المجرم الصربي إلى المسلمات و قال : كلكن سنفعل بكن هكذا"[١]

من هو الإرهابي الحقيقي ؟ هل شعر د: ريتشارد داوكنز الآن بحجم الظلم الذي وجهه إلى الإسلام حين قال عبارته (هناك ستون صراعاً في العالم الإسلام طرف فيها) و التي قصد بها أن الإسلام دين يحث على القتل وسفك الدماء ؟ هؤلاء المسلمون الذين يفعل بهم هذا هم الذين كتبوا عقود الأمان لهؤلاء الصرب يوم أن كانت رقابهم في أيدي المسلمين ، وكتبوا لهم فيها أن المسيحيين من كل المذاهب آمنون على أرواحهم وممتلكاتهم و كنائسهم و صلبانهم ، و أقسم سلطان المسلمين على حمايتهم و على إلزام جميع القادة العسكريين بحمايتهم

الفرق واضح وضوح الشمس ، فهناك أمة راقية لم يعرف التاريخ البشري لها مثيلاً في ارتقائها الأخلاقي ، لأنها هي فقط الموصولة بالله عز وجل وبوحيه السماوي الذي أنزله على جميع الأنبياء ، وهناك أمم أخرى في كل شبر من الأرض لم تتحرك أخلاقها منذ العصر الحجري الأول ، فما إن تمتلك القوة حتى تظهر على حقيقتها، لأنها جميعاً مقطوعة الصلة بمصدر كل ارتقاء وسمو وهو الخالق العظيم سبحانه وتعالى

وعلى موقع (عودة ودعوة) الإلكتروني ، وتحت عنوان (مذبحة البلقان) روى الضحايا جانباً آخر من المأساة ، من هذه الروايات ما يلي:

"يحكي الدكتور (إبراهيم جنانوفيتش) الأستاذ بكلية الدراسات الإسلامية جامعة سراييفو جانباً من المأساة قائلاً : أنه شاهد الصرب يدخلون منطقة نجاريتش الاستراتيجية قرب مطار سراييفو

---

[١] - موقع صيد الفوائد (www.saaid.net/Doat/hamad/2.htm) ، د: حمد القطري ، (من جرائم الصرب في مسلمي البوسنة)

، وخلال ساعة واحدة ذبح الجزارون ٢٠٠ مسلم في ثلاثة شوارع فقط ، واعتقلوا ٥٠٠ شخص من منازلهم ، بينما تمكن باقي السكان من الهرب إلى ضاحية دوبرينيا القريبة من سراييفو ، وهي منطقة كانت تسيطر عليها فصيلة من القوات المسلمة ، بعد اعتقالنا نقلونا إلى مخازن مطار سراييفو التي كانوا يستخدمونها قبل مجيء القوات الدولية كمعسكرات اعتقال جماعية، وطوال الطريق من منازلنا حتى مخازن المطار رأينا كثيراً من جيراننا المسلمين مذبوحين بالسكاكين أو مقتولين خنقاً أو بالرصاص ، كانت جثثهم على قارعة الطريق ، وبعضها نهشتها الكلاب و جوارح الطير ، كان على المعتقلين المسلمين أن يستجيبوا لأية أوامر يصدرها الزبانية الصرب مهما كانت ، وإلا فالقتل أو التعذيب الرهيب هو جزاء من يتلكأ في التنفيذ، وكان الأمر الأول هو ترديد أناشيد صربية عنصرية تسب الإسلام والمسلمين ، و الذبح هو مصير من لا يرتفع صوته بالغناء البذيء الذي يتطاول على دينه و قومه ومقدساته" ويكمل كاتب المقال :

"ويؤكد ماكيتش عضو هيئة الرئاسة الإسلامية الذي كان معتقلاً في معسكر بالقرب من بنيالوكا أن الصرب هناك ذبحوا خمسة آلاف معتقل خلال أربعة أيام فقط ، وفي مدينتي (بريدور) و (كازارتس) أبادوا ٢٥ ألف أسير مسلم من المدنيين و خاصة النساء والأطفال في شهر واحد ، وفي منطقة (يوبيا) وضعوا عشرة آلاف مدني مسلم في منجم مهجور و قاموا بتفجيرهم بالديناميت دفعة واحدة ، كما أبادوا تسعة آلاف في مدينة (سربرنيتسا) بتواطؤ من القوات الهولندية التي كان منوطاً بها حمايتها"

لكن هناك نقطة بيضاء ظهرت بين ركام القارة المتحضرة التي شاركت في المأساة بطرق مباشرة أو غير مباشرة ، وبالطبع لم تلمع هذه النقطة البيضاء من الكنيسة ولا من القساوسة الذين يملؤون الدنيا بمواعظهم عن المسيح وعن أن (الله محبة) لكنها جاءت من وزيرتين نمسويتين هما أكثر إنسانية بكثير من كل رجال الدين في الكنائس المسيحية التي شاركت أو دعمت أو حتى سكتت على ما كان يجري على أرض البوسنة ، فقد جاء في المقال نفسه ما يلي:

"وللإنصاف كانت النمسا من الدول القلائل التي حاولت صنع شيء لضحايا البرابرة الصرب، و تزعمت وزيرتان في حكومة فيينا الجهود الشعبية للتضامن مع ضحايا جرائم الحرب، فقد دعت الوزيرتان الدكتورة يوهانا دونهال وزيرة شئون المرأة و ماريا رواخ كالات وزيرة الأسرة إلى عقد جلسة طارئة لمجلس الوزراء النمسوي لبحث الأوضاع المأسوية لنساء و أطفال المسلمين في معسكرات الاعتقال الصربية، وندد بيان المجلس عقب الاجتماع بالجرائم الوحشية الصربية ضد المعتقلين ، ووصفها وزير الخارجية د (أليوس موك) **بأنها أبشع بكثير من معسكرات الاعتقال النازية،** وانتقدت الحكومة النمسوية الموقف الغربي المتخاذل تجاه المجرمين الصرب والكروات ، و تدلي الدكتورة يوهانا دونهال بشهادتها مؤكدة أن (عمليات اغتصاب النساء المسلمات و أطفالهن **هي أبشع الجرائم في جميع الحروب التي شهدها العالم في التاريخ كله ،** وهي جزء من سياسة التطهير العرقي التي مارسها الصرب بانتظام ، وقد شملت جرائم الاغتصاب عشرات الآلاف من النساء و الأطفال من عمر ثلاث سنوات فأكثر ، ودعت الوزيرة إلى فتح باب التبرعات و المساعدات الإنسانية لضحايا هذه الجرائم النكراء ، وتقول الدكتورة ماريا رواخ كالات وزيرة الأسرة أن التقارير الموثقة التي تلقتها من داخل البوسنة والهرسك أكدت ارتكاب عمليات الاغتصاب الجماعي بشكل منتظم ، وكانت الضحية الواحدة تتعرض

لتكرار عمليات الاغتصاب في اليوم الواحد دون أي اهتمام بتدهور حالتها الصحية ، وكان المجرمون يكررون اغتصاب الفرائس حتى يحبلن ، ثم يطلقون سراحهن بعد مرور عدة أشهر على الحمل لكي يستحيل إجهاضهن ، ويرسلون بهن إلى ذويهن في سيارات كتبوا عليها (خذوا النساء وما في بطونهن من الصرب الصغار) هذا كله إمعاناً في إذلال و تحطيم معنويات الضحايا وعائلاتهن لإجبارهم على الرحيل من البوسنة"[1]

ثم ينقل كاتب المقال اعترافات بعض الجنود الصرب على النحو التالي:

"يقول الصربي يوفوستيفا نوفيج – وهو من مواليد ١٩٥٢ بقرية لو نجار التابعة لبلدية أوراشي- : استدعاني الجيش الاتحادي اليوجوسلافي للخدمة ، وتم تزويدي مع أقراني ب ١٢٠ قطعة سلاح من مخازن الجيش الاتحادي ، بالإضافة إلى ١٦ دبابة جاؤوا بها من مدينة بيرجكو ومعها أطقمها المدربة من الجنود الصرب ، حتى كبار السن تم تسليحهم ببنادق من نوع م ٤٨ ، وقد أشركني رجال (أركان) في عملياتهم ، وكان منوطاً بهم عمليات التصفية و الإبادة الجماعية والحرق و النهب و الاغتصاب ، وتوليت قيادة ٦٥ رجلاً تابعين لمجموعة أركان ذات التدريب عالي المستوى في إسرائيل، وقمنا بقتل كل من وجدناهم من غير الصرب بالمنطقة ، قتلت الكثيرين بإطلاق الرصاص عليهم ، وقتلت عجائز أيضاً ، إحداهن قتلتها بضربة فأس في عنقها ، وقد رأيت الكثير من رفاقي يفعلون الشيء نفسه، و كان معي قتلة متخصصون يسميهم باقي الجنود (بالذئاب) ، وكثير منهم جاؤوا من صربيا و آخرون من بلدة (بيلينا) و هي أول مدينة بوسنية تعرضت للمذابح و الإبادة الجماعية"

وينقل الكاتب عن صربي آخر اعترافات لا تقل بشاعة :

"أما الجزار الصربي سفتين ماكسيموفيج – ٢٣ سنة – من مدينة بيرجكو فقد التحق بالجيش الصربي منذ بداية المعارك ، وقد قتل هذا السفاح وحده ٨٠ شخصاً في يوم واحد فقط ، كما اغتصب ١٢ فتاة تتراوح أعمارهن بين ١٠ سنوات و ٢٥ سنة ، ولم يكتف بذلك بل اغتصب أيضاً امرأة عمرها ٦٠ سنة بأمر مباشر من بوقدان مارجيج المسئول العسكري الأول في منطقة بيرجكو ، ويشرح المجرم الذي كانت مهمته حراسة الأسرى من النساء والأطفال أسلوب عمله البشع في قتل هؤلاء المساكين ببساطة شاذة ، فلم يكن الأمر يكلفه أكثر من ضربة بالمطرقة على رأس المطلوب قتله فيغمى عليه ، ثم يذبحه الجزار بغرس السكين في رقبته و يتولى الآخرون إلقاء الجثث في نهر السافا ، وكان المعسكر يحتوي على أكثر من ٤٠٠ شخص لقي أغلبهم حتفهم بهذه الطريقة البشعة" ويكمل كاتب المقال اعترافات جندي آخر على النحو التالي :

"وذات المهمة القذرة كانت منوطة بالمدعو سلوبودان بانيج – ٢٤ سنة – الذي كان ضمن طاقم حراسة المعتقلين في بلدة (لوكو) على نهر السافا، وتتميز هذه البلدة بوجود مخازن كثيرة بها استخدمها الصرب لإيواء المعتقلين من النساء و الأطفال والعجائز ، وقد تلقى بانيج أمراً من مجموعة شليشيلي و أركان المعروفة بقتل أربعة من المعتقلين دفعة واحدة ، وكان القاتل يسحب الضحية حتى مجرى النهر حيث يضربه بالمطرقة على مؤخرة رأسه فيغمى عليه ، ويسقط في النهر وتسحبه المياه إلى القاع ليلقى حتفه غرقاً ، ويعترف بانيج بأنه اغتصب خمس فتيات

[1] - موقع عودة ودعوة (www.awda-dawa.com) ملفات وتقارير ، ذ :حمدي شفيق (مذبحة البلقان) ١٥ ذو الحجة ١٤٣١هجرية

صغيرات إحداهن كان عمرها ١٣ سنة وأخرى ١٤ سنة وثالثة ١٦ سنة واثنتين عمر كل منهما ٢٠ سنة، وقد رأى بانيج الآخرين يغتصبون الفتيات الخمس مرات عديدة بعد ذلك ، ثم قتلن ذبحاً بواسطة جماعة أركان الإرهابية ، ويتهم بانيج الجيش الاتحادي بأنه هو المسؤول الأول عن المذابح والاغتصاب لأنه هو الذي كان يوزع الأسلحة على الصرب و يأمرهم بتصفية المسلمين"

ويكمل الكاتب بطرح سؤال عن مصير النساء الحوامل قائلاً :

"ولكن ماذا عن الحوامل اللاتي وقعن في أيدٍ صربية ؟

أجابت الفتاة المسلمة (ساد) التي كانت ترقد في مستشفى (سلافونسكي برود) في حالة معنوية وصحية تعسة عن هذا السؤال من واقع تجربة مريرة عاشت فصولها الحزينة ثم استطاعت الهروب في النهاية و إن لم تهرب من آثارها ، لقد تمكنت الميلشيات الصربية من اعتقال (ساد) و تم إيداعها معسكراً للاعتقال بالمنطقة التي يسكنها الصرب في أطراف مدينة (بوسنسكي برود) وهناك رأت الأهوال ، هتكوا عرضها و عرض العشرات غيرها، وكانوا يعرونهن من ملابسهن ويمارسون ضدهن أبشع أنواع التعذيب الجسدي الوحشي ، وكانوا يختارون بعضهن ويقومون بتقطيع أثدائهن ، أغلقت (ساد) عينيها وكأنها تحاول الهرب من ذكريات هذه الأهوال ، ثم أضافت: كنت أرى الحوامل و قد وقفن صفوفاً لا يستر أجسادهن شيء ، ثم يبدأ الأنجاس في بقر بطونهن و التمثيل بالأجنة ، كنت أسمع صرخات من لم يأت عليها الدور بعد ، بعضهن يستعطفن و يسترحمن ، ولكن كان هؤلاء وحوشاً نزعت من قلوبهم الرحمة. أغلقت (ساد) عينيها و راحت تنتحب في بكاء هستيري متواصل ، فطلبت مديرة المستشفى من الصحفيين الكف عن الحديث معها فقد كانت حالتها خطيرة"

ثم ختم كاتب المقال حديثه بقوله :

"وقد بلغ عدد شهداء البوسنة و الهرسك أكثر من ٢٥٠ ألف شخص ، فضلاً عن مئات الألوف من الجرحى والمعوقين ، وتدمير عشرات الألوف من المساكن والمدارس و المساجد ، واغتصاب ٤٠ ألف امرأة و فتاة بعضهن لم تتجاوز العاشرة من العمر ، **وفي المقابل لم يرتكب مسلم واحد جريمة اغتصاب واحدة لأسيرة صربية أو كرواتية في المناطق التي حررها المسلمون بعد ذلك ، وهذا هو الفارق بيننا و بين أدعياء الحضارة المسيحية الغربية"**

على موقع إلكتروني آخر هو موقع (قصة الإسلام) و تحت عنوان (قصة حرب البوسنة الأخيرة) كانت هناك قصص دامية أيضاً منها ما يلي :

- "(إقتحم ثلاثة من الجنود الصرب منزل أسرة مسلمة تتكون من امرأة مسنة عمرها ٦٠ سنة ، وابنتها ٤٢ و هي أم لخمس بنات أعمارهن (١٩ و ١٥ و ١٢ و ٩ و ٦) سنوات ، وقاموا تحت التهديد باغتصاب الجدة أمام ابنتها و حفيداتها ، ثم قاموا باغتصاب الأم والفتيات الخمس مما نتج عنه موت اثنتين من الفتيات بينما فقدت الجدة و الأم النطق و العقل)

- وكانت القوات الدولية – الفرنسية والأوكرانية تبيع طعام المساعدات المجانية للبوسنيات بالنقود ، والتي لا تملك النقود فالاغتصاب مقابل الطعام)"[١]

- على الموقع نفسه أيضاً جاء الحديث عن مذبحة سربرنيتشا البشعة التي قتل فيها ثمانية آلاف مسلم دفعة واحدة وتم تشريد عشرات الآلاف ، بعد قراءة جرائم جيش المسيح هذا ضد النساء اللاتي تم اغتصابهن وتقطيع أثدائهن لم يعد قتل ثمانية آلاف شيئاً يستحق الدهشة ،

لكن الذي يستحق الدهشة حقاً هو الجيش الآخر الذي بعثت به الأمم المتحدة والذي يفتخر أفراده أيضاً بانتمائهم للمسيح، وهو الجيش القادم من هولندا ، فقد ذكر الأهالي أن أفراد القوة الهولندية التابعة للأمم المتحدة وقفوا يتفرجون على المذبحة حتى انتهى جيش المسيح الصربي من جريمته ، بل الأكثر من ذلك قاموا بتسليم المسلمين الذين لجؤوا إليهم هرباً من الموت إلى الجيش الصربي الذي كان ما زال في حاجة لشرب مزيد من الدماء ، هل هؤلاء البشر – إن كانوا حقّاً بشراً - يستحقون أدنى قدر من الاحترام ؟ أليس كل هؤلاء المسيحيين الأوروبيين يتمتعون بأخلاق روح العصر ؟ هذا هو مستوى أخلاق روح العصر الذي لم يقرأ عنه مؤلف كتاب وهم الإله من قبل ، والذي يدعي أنه سار صعوداً مع الزمن بعيداً عن تعاليم الأديان

من ناحية أخرى : فإذا كانت نتيجة مذبحة أريحا هي إثني عشر ألف قتيل فنحن هنا أمام مائتين وخمسين ألفاً ، غير خمسين ألف امرأة وشابة وفتاة بدءاً من سن ثلاث سنوات وحتى ستين سنة تم اغتصابهن بحيوانية لم تعرفها همجية العصر الحجري ، أي أننا في القرن الحادي والعشرين شاهدنا جميعاً بأعيننا وسمعنا بآذاننا و سجلنا بكاميراتنا بالصوت والصورة عشرين مذبحة أريحا حية من حيث عدد القتلى، وخمسين ألف مذبحة أريحا من حيث حوادث الاغتصاب باعتبار أن العهد القديم لم يسجل حوادث اغتصاب في تلك المذبحة لأن الجنود لم يتركوا نسمة حية على حد وصف العهد القديم ، لكن كل هذا العدد من "مذابح أريحا" لم يحرك مشاعر فلاسفة الإلحاد برغم أنهم شهود عيان عليها في الوقت الذي ثارت فيه مشاعرهم من مذبحة وهمية لم تحدث على أرض الواقع ، فراحوا يلقون التهمة على ضحايا كل هذا العدد من "مذابح أريحا الحديثة" ويتهمونهم بأنهم إرهابيون لمجرد أنهم مسلمون ، و لمجرد أن دينهم كان طرفاً في النزاع في البلقان رغماً عنه ،

وقبل أن يحاول الملحدون الخداع والمراوغة بأن ينسبوا كل هذا العدد من "مذابح أريحا" إلى الدين باعتبار أن الصرب فعلوا ذلك انطلاقاً من عقيدتهم المسيحية الأرثوذكسية ، نحبط لهم هذه الحجة بالعدد نفسه من "مذابح أريحا" التي نفذها الملحدون برئاسة تيتو ضد الشعب المسلم نفسه حين قتلوا منهم في نهاية الأربعينات من القرن الماضي العدد نفسه تقريباً وهدموا و أحرقوا من القرى والبيوت مثلما أحرق الصرب ، أليس هذا يثبت بقوة أن كل الأمم غير المسلمة لم تتحرك أخلاق روح العصر عندها منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الآن ؟

من ناحية أخرى : وبالعودة للحديث عن الإرهاب ، أليست كل جرائم الصرب ضد المسلمين في البوسنة تجسد إرهاباً مسيحيّاً أرثوذكسيّاً صادراً عن جهات رسمية ودينية ؟ ألا تكفي كل تلك الجرائم لكي يفهم الملحدون وكل شعوب العالم كم هو الظلم الواقع على الإسلام و على المسلمين

[١] - موقع قصة الإسلام (www.islamstory.com/ar/)، ملفات ساخنة- البوسنة جرح ينزف- عنوان المقالة :قصة حرب البوسنة الأخيرة ، 03/12/2007

حين يوصفون بالإرهاب بسبب جرائم جماعات خارجة عن الإسلام لم يسلم المسلمون من جرائمها ولا تمثل جرائمها بالنسبة لجرائم الآخرين سوى نقطة في البحر ؟

ألم يقل المسيح عليه السلام (من ثمارهم تعرفونهم ، أيثمر الشوك عنباً ، أم العليق تيناً ؟ كل شجرة جيدة تحمل ثمراً جيداً ، و كل شجرة رديئة تحمل ثمراً رديئاً ، فما من شجرة جيدة تحمل ثمراً رديئاً ، وما من شجرة رديئة تحمل ثمراً جيداً ، كل شجرة لا تحمل ثمراً جيداً تقطع و تلقى في النار ، فمن ثمارهم تعرفونهم" (متى ٧ : ١٦ - ٢٠)[١]

يستطيع كل مسيحي في العالم أن يسأل نفسه : من هي الأمة التي التزمت بوصية المسيح عليه السلام التي قالها يوم صعد الجبل ؟ الأمة المسلمة التي أثبتت حتى في أحلك الظروف أنها أرقى أمة على وجه الأرض – كما رأينا في معاملة المسلمين للنساء المسيحيات في الأراضي المحررة في البوسنة - أم الأمة المسيحية التي قرأنا واحدة من جرائمها التي كانت نتيجتها ربع مليون قتيل في غضون أقل من خمسة عشر شهراً و أكثر من خمسين ألف امرأة تم افتراسها على يد حيوانات من العصر الحجري ؟

لقد قال المسيح عليه السلام في تلك الموعظة : (و سمعتم أنه قيل : لا تزن ، أما أنا فأقول لكم : من نظر إلى امرأة ليشتهيها زنى بها في قلبه. فإذا جعلتك عينك اليمنى تخطأ فاقلعها و ألقها عنك، لأنه خير لك أن تفقد عضواً من أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم) (متى ٥ : ٢٧)[٢]

عندنا في الأمة المسلمة قاعدة عظيمة في الفقه الإسلامي ، مفادها أن النص الشرعي العام لا يقيد إلا بنص شرعي آخر من الدرجة نفسها، والنص الشرعي مقصود به نص القرآن الكريم و نص الحديث النبوي الذي صحت نسبته للرسول ﷺ

وعليه فلو جاءت آية في القرآن الكريم بحكم عام و لم تأت آية أخرى لتقيد هذا الحكم العام ، ولا حديث عن رسول الله ﷺ فلا يملك كل البشر الذين يعيشون على وجه الأرض وحتى قيام الساعة أن يقيدوا هذا الحكم العام

المسيح عليه السلام نهى المسيحيين ليس فقط عن الزنى بل عن مجرد النظر بشهوة إلى أي امرأة ، وأمرهم بأن يقلع الرجل عينه ويلقي بها ويعيش بعين واحدة إذا لم يكن يستطيع وقف هذه العين عن النظر إلى المرأة بشهوة، هذا حكم عام لم يصدر من المسيح عليه السلام استثناء له حتى رحل عن الدنيا، ولم يقيده بقيد يفيد جواز الزنى بالمرأة غير المسيحية ، ومن باب أولى فإن المسيح عليه السلام لم يسمح أبداً باغتصاب المرأة لأن الاغتصاب أبشع جرماً من مجرد الزنى بامرأة موافقة أو راغبة في الزنى، ومع ذلك ينصب قساوسة الكنيسة من أنفسهم آلهة يشرعون للناس دينهم حتى في القرن الحادي والعشرين الذي يظن أبناء الأمة المسيحية أنهم خلعوا فيه من رقابهم عبودية رجال الدين هؤلاء الذين يتبرأ المسيح من أفعالهم في كل لحظة من ليل أو نهار،

هذه هي محنة الأمة المسيحية بكل مذاهبها بدون استثناء ، أنها تعبد قساوستها دون أن تشعر، عندنا في الإسلام لو قام أحد علماء الأزهر الشريف بإصدار فتوى بجواز الاغتصاب و لو بغير

---

[١] - الكتاب المقدس ، النسخة نفسها، العهد القديم ، صفحة ١٣
[٢] - المرجع نفسه صفحة ٩

المسلمات كما فعل القساوسة في البوسنة فسوف يقذفه أطفال المسلمين بالنعال، وسوف يقدم للمحاكمة بتهمة الردة عن الإسلام لأنه أحل ما ثبت تحريمه في القرآن الكريم، وسوف يفقد رقبته إذا لم يعلن توبته ورجوعه إلى دين الإسلام و احترام ما شرع الله عز وجل،

لكن الأمة المسيحية تسمح للقساوسة بأن يجعلوا أنفسهم في مكانة أعلى من مكانة المسيح عليه السلام ، لدرجة أنهم يستطيعون إلغاء أحكامه وتشريعاته و وضع أحكام وتشريعات ليست فقط مخالفة لأحكام المسيح بل حتى متصادمة معها، هذا باختصار يعتبر في مفهومنا نحن المسلمين نسخاً للديانة المسيحية على يد أعداء حقيقيين للمسيح عليه السلام، حتى وإن كانوا يتقدمون الصفوف للصلاة في الكنائس و يلقون موعظة الأحد

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن أبناء الأمة المسيحية والأمة اليهودية يعبدون الأحبار والقساوسة ، وذلك في قول الله تعالى **"اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون"** (سورة التوبة ٣١)

ولما قال أحد المسلمين – و كان مسيحيّاً قبل إسلامه – لرسول الله محمد ﷺ : ما اتخذناهم أرباباً يا رسول الله ، رد عليه قائلاً : ألم يحلوا لكم الحرام و يحرموا عليكم الحلال فاتبعتموهم في ذلك ؟ قال بلى ، فقال له : فتلك عبادتكم إياهم ،

لأن الذي له سلطة التحليل و التحريم هو في الحقيقة يستعبد الناس استعباداً حقيقيّاً ، وخاصة في المجتمعات المتمسكة بدينها و التي يقودها تعصبها الأعمى إلى إلغاء عقولها، وقد رأينا الجيوش المسيحية في كل العصور و على كل شبر من الأرض يضربون بوصية المسيح على الجبل عرض الحائط ، و ينشرون أبشع صور القتل و الدمار حتى ضد بعضهم بعضاً ، **دون أن يفكر واحد منهم في أن يكون التزامه بوصايا المسيح عليه السلام أكثر من التزامه بتعاليم القساوسة**

لكن هناك صورة أخرى من صور الإرهاب المسيحي التي تعرض لها المسلمون في البوسنة والهرسك، وهي قيام القساوسة بترحيل قرابة خمسين ألف طفل من أبناء المسلمين وتوزيعهم على كنائس الدول الأوروبية حتى ينشؤوا على تعاليم قساوسة الدين المسيحي ، الذين بالطبع سيعلمونهم كما علموا الصرب و الكروات كيف يصبحون مصاصي دماء لا يشبعون لا من دماء الآخرين ولا من اغتصاب فتياتهم، وهم الذين كان آباؤهم المسلمون يعلمونهم أن كل الناس إخوة أشقاء لأب واحد و أم واحدة طبقاً لقول الله تعالى **"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى و جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"** (سورة الحجرات)

وهم الذين كان آباؤهم المسلمون يعلمونهم قول الله تعالى **"من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون "** (سورة المائدة ٣٢)

وهم الذين كان آباؤهم يعلمونهم عهود الأمان التي كتبتها كل الجيوش المسلمة للمسيحيين من جميع المذاهب لتعطيهم الأمان على أرواحهم و أعراضهم و أموالهم و ممتلكاتهم و كنائسهم و صلبانهم وسائر شعائرهم الدينية

شتان بين أمة تعيش في نور الوحي الإلهي ، و أمة تعيش في خرافات و تعاليم همجية من تأليف قساوسة مقطوعي الصلة بالله عز وجل وبالمسيح عليه السلام و بكل الأنبياء

والآن : وبعد الحديث عن الصراع في البلقان ، نقول نعم لقد كان الإسلام طرفاً في هذا الصراع ، ولكنه كان هو الطرف الذي فرض عليه هذا الصراع رغماً عنه ، وكان طوال فترات الصراع هو الضحية التي تسحق وهي تواجه كل جرائم التطهير العرقي و الإبادة الجماعية بتواطؤ تام من كل دول العالم الذي يمثل حضارة القرن الحادي والعشرين المتمتعة بأخلاق روح العصر الحديث

ونعم كان الإسلام طرفاً في هذا الصراع ، لكنه كان هو الطرف الذي وقع عليه **إرهاب يفوق المحرقة التي تعرض لها اليهود على يد الحزب النازي** بشهادة الوزراء النمسويين

ومع ذلك: هل سمع أحد عن الإرهاب الصربي الأرثوذكسي أو الإرهاب الكرواتي الكاثوليكي ؟ أو عن (خطر المسيحية السياسية) ؟ بالطبع لم يسمع و لن يسمع أحد، لأن عين العالم لا ترى و أذنه لا تسمع إلا عن الإرهاب الإسلامي الذي لا يمثل بالنسبة للإرهاب المسيحي أو الإرهاب الشيوعي إلا نسبة واحد في الألف ، **مع فارق هائل بين الحالتين وهو أن الإرهاب الإسلامي تواجهه الدول المسلمة بكل أجهزتها الرسمية وغير الرسمية باعتباره مخالفاً للدين الإسلامي ، ولكن الإرهاب المسيحي يصنع داخل الكنائس الرسمية و يمول من منظمات دينية عالمية تجمع الأموال من جيوب أبناء العالم الحر ، وهذا ما يجعل أبناء العالم الحر شركاء في كل قطرة دم تسيل من أصغر طفل و في كل دمعة عين تسيل من أصغر فتاة تم اغتصابها هناك على تلك الأرض**

٤- نيجيريا :

نيجيريا هي دولة كبيرة من دول أفريقيا، يبلغ تعداد سكانها الآن حوالي ١٧٤ مليون نسمة منهم ما يقارب ٥٨% مسلمون ، و ٣٥% مسيحيون ، والباقون لهم ديانات محلية ،

من زرع الإرهاب في نيجيريا و من موله بالمال والسلاح ؟

حين يذكر اسم نيجيريا فإن العالم كله ليس له حديث سوى عن الإرهاب الإسلامي المتمثل في جماعة بوكو حرام ، وبرغم أن هذه الجماعة تمارس جرائم لا يقرها الإسلام في حق أبرياء حرم الله عز وجل قتلهم أو حتى الاعتداء عليهم ، فإن هذه الجماعة و ما ارتكبته من جرائم لا تمثل سوى توابع الزلزال الأصلي الذي ظل يتجمع في نيجيريا منذ أكثر من مائة عام، لكنه ضرب بكل قوة في عام ١٩٦٦، ثم ضرب مرة ثانية وثالثة ورابعة و خامسة ، وفي كل مرة كانت الأسباب واحدة و كان الضحايا المستهدفون هم المسلمين تحديداً ، وخاصة الرؤساء المسلمين

- في عام ١٩٥٧ قام أول حكم ديمقراطي في نيجيريا حيث تم توحيد الأقاليم الرئيسة في دولة موحدة تحت اسم جمهورية نيجيريا الاتحادية ، وتم اختيار أبو بكر تفاوا – وهو رجل مسلم من إقليم الشمال – رئيساً للوزراء

- حصلت نيجيريا على استقلالها من انجلترا عام ١٩٦٠ واستمر أبو بكر تفاوا رئيساً للوزراء وتم تبني النظام الفيدرالي ، حيث تم تقسيم البلاد إلى ثلاثة أقاليم كبرى
- في فجر يوم الخامس من يناير عام ١٩٦٦ بدأت أول عملية إرهابية في نيجيريا على يد قبيلة الإيبو المسيحية المدعومة من إسرائيل، حيث قام ضباط مسيحيون بانقلاب عسكري على الحكومة الفيدرالية لنيجيريا بهدف إسقاط نظام الحكم الفيدرالي الذي كان يرأسه رئيس الوزراء أبو بكر تفاوا ، بدأ الانقلاب بتحرك هؤلاء الضباط نحو منزل رئيس وزراء الولايات الشمالية أحمدو أبيللو وقاموا بقتله هو وزوجته و جميع حراسه ثم قطعوا الجثث ومثلوا بها ،

في الوقت نفسه تحركت مجموعة أخرى في العاصمة لاجوس نحو منزل رئيس وزراء الحكومة الفيدرالية أبو بكر تفاو واختطفته ثم وجدت جثته بعد ستة أيام ملقاة بجانب أحد الطرق، كما تم قتل وزير المالية في الحكومة الاتحادية و رئيس الوزراء في الإقليم الغربي، وتولى قائد الجيش حكم البلاد

- في عام ١٩٦٧ دخلت البلاد في حرب أهلية أشعلتها قبيلة الإيبو – وهي قبيلة تبلغ نسبتها ١٨% من سكان نيجيريا - بدعم خارجي حين أعلن الإقليم الشرقي الانفصال عن نيجيريا بدعوى تحرير هذا الإقليم وتكوين (دولة بيافرا) المستقلة بدعم من إسرائيل و القوى الخارجية ، وعندما انهارت كل محاولات الصلح بدأ جيش الحكومة الفيدرالية الحرب ضد حركة التمرد ، فرفع الإقليم سقف مطالبه ليصبح هدفه هو تحرير كل نيجيريا ، لكنه خسر الحرب التي دامت ثلاث سنوات و راح ضحيتها قرابة المليون شخص من كلا الجانبين
- في عام ١٩٧٦ قامت مجموعة الضباط المسيحيين من قبيلة تبلغ ٢١% من نسبة سكان نيجيريا وهي قبيلة اليوروبا باغتيال الرئيس المسلم مرتضى محمد في محاولة للاستيلاء على السلطة ، لكن انقلابهم لم يحقق كل أهدافه برغم أنه نتج عنه تولي نائب الرئيس مرتضى وهو مسيحي من قبيلة اليوروبا الحكم
- في عام ١٩٩٤ تأسست منظمة (مؤتمر شعب أودوا) وهي منظمة قبلية مسيحية مسلحة تدعو إلى الانفصال عن نيجيريا ولها سجل من الجرائم الإرهابية ضد قبيلة الهوسا المسلمة
- في عام ١٩٩٨ تم قتل الرئيس المسلم محمد ثاني أباشا بالسم وكذلك قتل رجل أعمال مسلم من قبيلة يوروبا كان له نفوذ واسع في نفوس أبناء الشمال والجنوب ، وكان قد فاز في انتخابات ١٩٩٣ لتمتعه بشهرة واسعة في أعمال الخير في كلتا المنطقتين الشمالية والجنوبية ظناً من القتلة أنه سيكون الرئيس القادم
- في عام ٢٠١٠ مرض الرئيس المسلم وتوجه للعلاج خارج نيجيريا فتولى نائبه وهو جنرال مسيحي حكم البلاد مكانه ، أثناء ذلك قامت مجموعات مسيحية كبيرة بمهاجمة قرية جوس المسلمة بالأسلحة النارية والسيوف وقاموا بمذبحة بشعة للسكان الذين كانوا نياماً ، و قتلوا قرابة ٦٠٠ شخص و ألقوا بجثثهم في الآبار والمصارف و أحرقوا البعض وهم أحياء ، بعض وسائل الإعلام نقلت عن شهود عيان أن بعض وحدات الجيش النيجيري كانت تطلق النار **على المدنيين في القرية** المنكوبة ، بينما قال الإعلام الرسمي أن الجيش قتل مجموعة من جماعة بوكو حرام المتطرفة

يعتبر تاريخ نيجيريا الحديث أكبر مثال على قلب الحقائق حتى يصير الجاني هو الضحية و تصير الضحية هي المجرم الشرس الذي يستحق القتل و المحو من الوجود، ومع امتلاك هذا الجاني لمعظم وسائل الإعلام العالمية ، وسيطرته الكاملة على ما لا يملكه منها فلا أمل لأحد ممن يريدون معرفة الحقيقة في الوصول إلى شيء ولو يسير منها

● فحين يقوم الإرهاب المسيحي في عام ١٩٦٦ – والمسيحيون يمثلون ٢٠% من سكان نيجيريا في ذلك الوقت - بقتل كل رموز الحكم الفيدرالي من المسلمين – رئيس وزراء الحكومة الفيدرالية و رئيسي وزراء إقليمي الشمال والغرب ووزراء المالية وغيرهم - ويمثل بجثثهم حتى جثث النساء الآمنات في بيوتهن ويستولي على الحكم بالقوة ، فإن هذا الإرهاب لا يسمع به أحد في وسائل الإعلام ، لم تخرج كلمة واحدة تصف ما حدث بأنه إرهاب مسيحي ، ولم يقل أحد أن الدين المسيحي دين يحض على الإرهاب – ونحن لا نوافق بالطبع على إلصاق تهمة الإرهاب بالدين أيّاً كان لمجرد وجود مجموعة إرهابية تنتمي لهذا الدين – كما أن الأمم المتحدة لم تجتمع لبحث القتل و تقطيع الجثث الذي يتعرض له المسلمون كما تفعل عندما يتم الاعتداء على كنيسة في إحدى القرى، و أيضاً لم نسمع كلمة واحدة عن خطر المسيحية السياسية كما نسمع عن خطر الإسلام السياسي حين تقوم جماعة إرهابية إسلامية بارتكاب جريمة لا تمثل واحداً بالمائة من جرائم الإرهاب المسيحي

● وحين يقوم الإرهاب المسيحي المدعوم بالإرهاب اليهودي في الإقليم الشرقي بإعلان الانفصال ، ثم يعلن عن هدفه من الحرب بأنه يريد تحرير كل نيجيريا ، مما يعني أن ١٨% من المسيحيين في هذا الإقليم يريدون الاستيلاء على حكم دولة ٧٠ % من شعبها في ذلك الوقت من المسلمين وينتج عن ذلك حرب بشعة تستمر لثلاث سنوات و يموت فيها مليون شخص ، فإن العالم يصاب بالعمى و الصمم ، لأن عيونه و آذانه في يد المحرضين على هذا الإرهاب ، وبالتالي سيقتنع العالم بأن كل هذا الإرهاب هو إسلامي بامتياز

● وحين يتكرر الإرهاب المسيحي واليهودي عام ١٩٧٦ بمحاولة انقلاب أخرى ضد الحكومة الفيدرالية التي يرأسها رئيس مسلم ، ويقتل الرئيس ليتولى نائبه المسيحي حكم البلاد ، فإن كل هذا الإرهاب لا تراه عيون العالم ولا تسمعه آذانه ، ولا يسمع أحد عن الإرهاب المسيحي ولا عن الاضطهاد الديني ضد المسلمين

● وحين تتكون منظمة مسيحية مسلحة بالدبابات والطائرات والصواريخ في الجنوب وتمتلك من الأسلحة ما يجعل جماعة بوكو حرام بالنسبة لها أشبه بمحاربي الهنود الحمر الذين كانوا لا يمتلكون سوى الرماح الخشبية ذات الرؤوس الحديدية في مواجهة الأسلحة النارية التي كان يمتلكها الجيش الأوروبي ، فإن إرهاب هذه المنظمة المسلحة لا يسمع عنه أحد ، العالم لا يسمع إلا عن إرهاب ذوي الأسلحة البدائية الذين يقومون في نظر العالم بعمليات تطهير عرقي **لم يشهد التاريخ مثلها** ضد جيش مسيحي مسلح يملك الدبابات والمدافع ، ومع رفضنا لكل جرائم بوكو حرام التي تخالف الإسلام إلا أننا نرفض أيضاً الخداع الذي لا يتوقف ليلاً ولا نهاراً ،

● وحين يتم قتل الرئيس المسلم للمرة الثالثة عام ١٩٩٨ على يد الإرهاب المسيحي فلا يسمع أحد كلمة واحدة عن أن الدين المسيحي يحض على الإرهاب – ونعتقد أنه ليس كذلك – لكن

معيار من يتحدثون عن الإرهاب الإسلامي يوجب عليهم أن يكونوا متوازنين ومنصفين ، لكن من أين يأتون بالإنصاف وهم الفاعل الأصلي لكل جرائم الإرهاب

- وحين يقوم الإرهاب المسيحي باجتياح قرية نائمة لينشر فيها كل أنواع القتل و الحرق لستمائة من الأبرياء ثم يتخلص من الجثث في الآبار و المجاري المائية فإن كل ذلك لا يدعو المنظمات الدولية للانعقاد لبحث ملف الاضطهاد الديني ضد المسلمين ، كل هذا الإرهاب من جانب الجماعات المسيحية لا تراه عيون العالم ، لأنه إرهاب يحبه العالم الغربي ويدعمه و يفرح بحدوثه ،

هذا هو **الزلزال الأصلي** الذي حدث وما زال يحدث ، ليس في نيجيريا وحدها بل في كل دول أفريقيا ، وهو الزلزال الذي تعتبر بوكو حرام وكل الجماعات الإرهابية مثلها مجرد توابع له

وهو الزلزال الذي بدأ بغمر قلوب الشعب النيجيري بكل هذا الحقد و الكراهية على مدى مائة وخمسين عاماً على يد كتيبة المبشرين التي كانت إحدى أهم كتائب جيوش الاستعمار الأوروبي ، ثم أصبحت أهم كتائب الاستعمار الجديد المتمثل في تجار النفط

المسيح عليه السلام لم يأمر أتباعه بأن يملؤوا قلوب الناس بالحقد و الكراهية كما تفعل جمعيات التبشير في كل بلد يذهبون إليها ، المسيح عليه السلام علم الناس أن (الله محبة) و أن (المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام) السلام الذي أمر به المسيح عليه السلام وليس الحرب من أجل النفط ، السلام الذي علمه لنا المسيح عليه السلام وليس قتل أربعة من الرؤساء الشرعيين للبلاد و إشاعة الفوضى و الدمار و الحرب الأهلية ، والمسيح عليه السلام هو بدون شك يتبرأ من كل من يملأ قلوب الناس بالحقد و الكراهية على الآخرين، نتمنى أن يتعلم القساوسة الذين يزرعون البغضاء في قلوب الناس الإيمان الصحيح بالمسيح عليه السلام ، نتمنى لهم من كل قلوبنا أن يعرفوا من هو المسيح عليه السلام وما هي رسالته العظيمة قبل أن يتعرضوا للصدمة الكبرى التي تنتظرهم يوم القيامة على يد المسيح نفسه عليه السلام

ربما يعتقد البعض أننا نبالغ ، لكن نظرة فاحصة على تاريخ نيجيريا توفر كل الأدلة على ما قلنا ، فحتى بداية القرن الماضي لم يكن هناك وجود مسيحي ملحوظ في نيجيريا ، في الشمال كان الإسلام موجوداً هناك منذ القرن الحادي عشر الميلادي عن طريق قوافل التجار المسلمين التي كانت تحمل معها الكثير من العلماء والدعاة الذين نجحوا في جعل الشمال النيجيري أغلبية مسلمة ، بدون قتال ، وبدون جمعيات لنشر الكراهية والحقد ، وفي الجنوب كان هناك مسلمون بين القبائل الوثنية ولكنهم برغم عددهم الكبير لم يكونوا أغلبية السكان ، وعندما جاء الاستعمار البريطاني اصطحب معه الكثير من القساوسة بهدف نشر الدين المسيحي ،

ليست هناك مشكلة إذا كان الأمر سيظل في الإطار الديني ، بمعنى أنه من حق أي شخص أن يدعو الناس إلى الدخول في دينه باعتبار أنه يعتقد أنه هو وحده على الحق ، ومن حق الناس أن تصدقه أو لا تصدقه فذلك يرجع إلى قوة حجته ومدى اقتناع الناس به ، لكن المشكلة تبدأ حين **يوظف الدين في أغراض تجارية** و دنيوية هي أبعد ما تكون عن تعاليم هذا الدين، عند ذلك يصبح رجال الدين تجار أديان لا صلة لهم بالله عز وجل ولا بالرسول الذي يدعون الانتماء إليه،

لو قرأ أبناء العالم الحر خطب و تعليقات قساوسة التبشير - وهي منتشرة في توصيات كل المؤتمرات التي عقدت وما زالت تعقد حتى الآن بهدف التنسيق بين جمعيات التبشير المسيحية في كل أنحاء العالم – لاكتشفوا أن أسامة بن لادن برغم كل جرائمه التي لا يقرها الإسلام لا يبلغ عشرة بالمائة مما بلغه هؤلاء المبشرون في التحريض على العنف و الكراهية و قتل الآخر

جاء في كتاب (قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام وأبيدوا أهله) للأستاذ جلال العالم تحت عنوان (دمروا الإسلام) ما يلي :

"يقول المستشرق الفرنسي كيمون في كتابه (باثولوجيا الإسلام) :

"٦- أعتقد أن من الواجب إبادة خمس المسلمين والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر" [١]

في الوقت الذي ألف فيه هذا الرجل كتابه المملوء حتى آخره بمثل هذه العبارات الطائشة كانت جمعيات المبشرين النصرانية تنتشر في كل أنحاء العالم بصحبة جيوش الاستعمار البريطاني والفرنسي و الإسباني والهولندي لتبذر في كل شبر من العالم كراهية الإسلام و ضرورة القضاء عليه ، وكانت نيجيريا محطة مهمة في هذا الميدان

و نقل الأستاذ جلال العالم أيضاً في كتاب (قادة الغرب يقولون) تحت عنوان (تدمير أخلاق المسلمين وعقولهم وصلتهم بالله) ما يلي :

"يقول صموئيل زويمر رئيس جمعيات التبشير في مؤتمر القدس للمبشرين المنعقد عام ١٩٣٥ :

إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية ، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً، إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، و لذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، لقد هيأتم جميع العقول في الممالك الإسلامية لقبول السير في الطريق الذي سعيتم له ، ألا وهو إخراج المسلم من الإسلام ، إنكم أعددتم نشئاً لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها ، و أخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية ، وبالتالي جاء النشء الإسلامي مطابقاً لما أراده الاستعمار"[٢]

يا إلهي ! هل هذا هو تفكير رئيس جمعيات المبشرين المسيحيين ؟

لقد علمنا رسولنا الكريم محمد ﷺ أن هداية رجل واحد إلى الإسلام خير للمسلم من امتلاك كل كنوز الأرض ، في حديثه الشريف "لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم"[٣] ، لذلك حرص المسلمون على هداية الناس إلى الإسلام لكي يعرفوا الخالق الذي خلقهم وبدون أي غرض دنيوي آخر ، لأن الجزاء في الحديث الشريف كله مؤجل ليوم القيامة ، وبالتالي فهداية

[١] - ذ: جلال العالم ، قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام وأبيدوا أهله ، طرابلس- ١٩٧٤ ، صفحة ٤٦
[٢] - المرجع نفسه صفحة ٥٢
[٣] - صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، الحديث رقم ٢٨٧٥، جزء ٣ صفحة ١٠٧٧

الناس هدفها في الإسلام هو انتشال هؤلاء الناس من الطريق المؤدي إلى العذاب إلى الطريق المؤدي إلى الجنة ، لمصلحتهم هم وليس لأي غرض آخر من الأغراض الدنيوية

لو كان رئيس المبشرين هذا يعلم شيئاً عن الله عز وجل أو عن دينه الذي أوحاه للمسيح عليه السلام لأمر المبشرين الذين يستمعون إليه ببذل كل الجهود من أجل تعريف الناس بربهم ، وليس بالعمل على قطع صلتهم به سبحانه وتعالى، لكن كما صرح هو بنفسه فإن معرفة الناس لربهم تحول دون نجاح الاستعمار

الأمر كله كان واضحاً منذ البداية ، كتيبة القساوسة لها دور محدد لا صلة له بالمسيح عليه السلام ولا بالله عز وجل ، إن مهمتها تنحصر في تهيئة الشعوب المراد احتلال بلادها لعدم التصدي للاحتلال بتفريغها من كل عوامل القوة التي تدفعها للصمود أمام المحتل ، وحين يحدث ذلك فإن كل ثروات هذه الشعوب من الذهب و النفط والألماس تصبح في جيب هذا المحتل، **قد يكون القساوسة حسني النية** ، الكثير منهم يعمل بحماس شديد وهو يظن أنه يخدم المسيح عليه السلام ، الحماس نفسه الذي تعمل به بوكو حرام و طالبان و داعش و غيرهم من الجماعات التي تريد أن تخدم دينها بما حرم الله عز وجل من سفك الدماء البريئة

لا عذر لكل هؤلاء في تعليم الناس البغضاء و الحقد على الآخرين ، هذا معيار دقيق للحكم على كل المذاهب و الأفكار ، إدخال الحقد والبغضاء في القلوب التي خلقها الله عز وجل **نقية طاهرة** دليل على **بطلان** هذه المذاهب و على خطأ هذه الأفكار ، سواء كانت الدعوة صادرة عن أمير جماعة إرهابية في مسجد ، أو عن قسيس في كنيسة أو عن راهب في معبد ، كل هذه الممارسات تدل دلالة قاطعة على أن الذين وراءها هم أشخاص مقطوعي الصلة بالدين الذي يدعون إليه وبالله عز وجل وبجميع الأنبياء

لو كان المسيح ومحمد عليهما الصلاة والسلام بيننا لرأى المسلمون والمسيحيون في نيجيريا وغيرها كيف يتعانقان و كيف يقدم كل منهما الآخر على نفسه ، القرآن الكريم أثنى على المسيح عليه السلام وعلى كل عائلته ، و توجد سورة كاملة تحتل سبعاً وعشرين صفحة من المصحف باسم هذه العائلة، وهي سورة آل عمران ، في الوقت الذي لا توجد فيه سورة من سور القرآن باسم آل عبد مناف عائلة محمد ﷺ، كما توجد سورة في القرآن الكريم تحتل خمس صفحات من المصحف باسم السيدة مريم عليها السلام ، بينما لا توجد سورة واحدة باسم أم رسول الإسلام ﷺ ولا باسم أي من زوجاته ، وقد جاء في سورة آل عمران الآيات التالية :

"إن الله اصطفى آدم و نوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ☼ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ☼ إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم ☼" (سورة آل عمران ٣٣- ٣٥)

ولم يكن ما في بطنها سوى السيدة مريم أفضل نساء العالمين ، لذلك قالت هذه المرأة الصالحة كما جاء في الآيات التالية من السورة نفسها (٣٦ – ٣٨) :

"فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى و إني سميتها مريم و إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ☼ فتقبلها ربها بقبول حسن و أنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم

أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ☼ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ☼"

ثم أثنى الله عز وجل على مريم وعلى المسيح عليهما السلام بعد ذلك بثلاث آيات في قوله تعالى

"و إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك و طهرك واصطفاك على نساء العالمين ☼ يا مريم اقنتي لربك واسجدي و اركعي مع الراكعين ☼ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ☼ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا و الآخرة ومن المقربين ☼ ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين ☼ قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ☼ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة و الإنجيل ☼ ورسولاً إلى بني إسرائيل" (٤٢ – ٤٩)

لذلك فإن عدد النساء المسلمات اللاتي يحملن اسم مريم ربما يزيد على عدد النساء المسيحيات اللاتي يحملن هذا الاسم، كما أن عدد المسلمين الذين يحملون اسم عيسى يزيد على عدد المسيحيين الذين يحملون هذا الاسم، لأن المسلمين يحبون هذين الاسمين تماماً كما يحبون اسم رسولهم محمد ﷺ

إن تحويل الدين العظيم الذي أنزله الله عز وجل على جميع الأنبياء لينعم البشر بالأخوة و السلام و التعاون و التكافل بين كل شعوب الأرض إلى أداة لتحقيق أهداف استعمارية لا يعنيها إلا الحصول على النفط و الذهب و الألماس هو أكبر خيانة يمارسها رجال الدين لدينهم و لرسولهم و للأمانة التي تحملوها على ظهورهم

ما الذي حدث في نيجيريا ؟ القوى الخارجية التي لا تشبع برغم كل ما استولت عليه أثناء سنوات الاستعمار و حولته إلى خزائنها في الغرب ، عادت لتغرف من الخيرات الجديدة التي عوض الله عز وجل بها تلك الشعوب عما نهب منها ، "النفط" ومن أجل تحقيق الهدف الرئيس لا يهم تلك القوى كم هو عدد القتلى من المسلمين ولا من المسيحيين ولا من القبائل الأخرى ، المهم أن يظل الجميع يتقاتلون ثم يتقاتلون إلى الأبد، كما حدث في جنوب السودان تماماً ، فبعد "إحمل صليبك واتبعني" في الجنوب وبعد المذابح المروعة التي راح ضحيتها الكثير من المسلمين والمسيحيين ، حدث التقسيم ، و أصبح المسيحيون الجدد لهم دولة مستقلة بفعل التخطيط الدقيق للقوى الخارجية ، ولكن ما هو حال أولئك المسيحيين الجدد في دولتهم الجديدة المليئة بالنفط ؟ هل أصبحوا مثل دول الخليج ؟ الواقع يشهد و الجميع يعلم النتائج ، كم صراع قبلي حدث وما زال يحدث بين قبائل تلك الدولة المستقلة التي أنشأها الغرب ورعاها رعاية الوالد لأبنائه ؟

هذا هو السيناريو الذي يراد لنيجيريا ، التقسيم بين الشمال والجنوب ، ثم بين الجنوب و الجنوب ، ثم بين الشرق والجنوب ثم بين الجنوب والغرب ، وهكذا بلا نهاية ، لكي تصبح نيجيريا في النهاية عراقاً آخر، كل من فيه يقاتل الآخرين بدافع الكراهية التي ظل الاستعمار يزرعها في القلوب على مدى مائة وخمسين عاماً ، والنتيجة أن كل شيء جيد في تلك المنطقة سيتوقف ، في

الوقت الذي يستمر فيه شيئان فقط ، دماء الأبرياء التي تسيل بغزارة ، والنفط الذي يتدفق بغزارة أيضاً على مدبري الفتن المحترفين في إشعال النار

أين عقول أبناء نيجيريا المخلصين ؟ يجب عليهم وقف حقن القلوب بالكراهية قبل فوات الأوان، يجب عليهم تبني حملة قومية لتفريغ قلوب النيجيريين من الحقد الأسود قبل السقوط في تسونامي العراق ، الذي يدمر كل من في طريقه و لا ينجو منه أحد لا في الجنوب ولا في الشمال ولا في الشرق ولا في الغرب ، المسيحيون في جنوب نيجيريا لا يعلمون أنه لو نجح تجار النفط في تنفيذ خطتهم بتقسيم نيجيريا فسوف يحدث في الجنوب كل ما حدث في إسبانيا بعد خروج المسلمين منها ، الكاثوليك قتلوا ملايين المسيحيين الأرثوذكس ثم البروتستانت وكذلك اليهود والمسلمين ، لأن الجميع في نظر القساوسة الكاثوليك (أعداء المسيح) ، ولو كان الأرثوذكس هم الذين كانت السلطة في أيديهم فالنتيجة نفسها كانت ستحدث بلا شك ، إن القلوب التي ملأها بعض رجال الدين بالحقد على الآخر في جنوب نيجيريا و شرقها ، لن تصبح قلوب حمامات سلام لو حدث التقسيم ، وسوف يظل الحقد الذي تمكن من هذه القلوب ينفث سمومه بين الطوائف داخل الإقليم الواحد ، فمن يبذر الشوك لا يجني إلا الجراح ،

ليس هناك أي أمل لهذا البلد الكبير إلا في الاتحاد معاً ، وإلقاء السلاح ، وجعل كل أبنائه يعملون في اتجاه واحد ، هو النهوض بنيجيريا ، كل نيجيريا ، ليكن لهم مثال جيد في الولايات المتحدة الأمريكية ، فهي تتكون من ٥٣ ولاية وليس من سبع وثلاثين فقط ، وعدد شعبها ضعف عدد شعب نيجيريا ، وتعدد الأعراق هناك مثل تعدد الأعراق في نيجيريا ، ومع ذلك فكل الشعب الأمريكي يعتز و يفخر باسم (أمريكا) أكثر مما يفخر بأي شيء آخر ، والتعايش الذي يحدث هناك يدل على أنه بلد عظيم يضم شعباً عظيماً ، الحرية التي يتمتع بها الناس هناك لا يوجد مثلها في أي بلد آخر ، لذلك أصبح هذا البلد قبلة العلماء و المبدعين والمخترعين العظماء

أخيراً : فهذا نوع آخر من الصراعات التي فرض على الإسلام أن يكون طرفاً فيها ، فمن هو الجاني في هذا الصراع ومن هو المجني عليه ؟

٥- تركستان الشرقية (كمثال لأحوال المسلمين تحت الحكومات الشيوعية) :

تخيل لو أن رجلاً وضع مسدساً فوق رأسك أنت وابنتك المراهقة ليكرهكما على أخذ ابنتك لتكون عشيقة له ولأصدقائه طوال عمرها ، فمن هو الطرف الذي يمكن أن يوصف بالإرهاب في هذا المشهد ؟ هل يعارض أحد في أن الرجل الذي يكره امرأة على ممارسة الجنس معه أو مع غيره هو الإرهابي ؟

لكن الملحدين لهم رأي آخر ، فحين تكون الضحية هي امرأة مسلمة فإن الملحدين يعتبرونها هي الجاني الذي يستحق العقاب ، ويعتبرون كل من يدافع عنها إرهابيّاً ، ويعتبرون الدين الإسلامي ديناً دمويّاً لأنه يحث المسلمين على الدفاع عن كرامة وشرف كل هؤلاء النساء ، ولأنه طرف في الصراع الدائر في جميع الدول الشيوعية التي تقنن اغتصاب هؤلاء النساء و تحمي المغتصبين بالجيوش الجرارة

هناك مائة و خمسون مليون مسلم و مسلمة تعرضوا لهذا الإرهاب تنفيذاً لسياسات الحزب الشيوعي في جميع الدول الشيوعية ، وعلى رأس هذه السياسات الثورة الثقافية ، والتي كان من

أهم بنودها تحريم الزواج الشرعي و إجبار المسلمين على قبول شيوع المرأة باعتبارها ملكاً للدولة أو ملكاً لكل الشعب، وإجبار الأسر المسلمة على دفع النساء المسلمات إلى الزنى رغماً عنهن فيما أسموه بالزواج المشترك ، أليس هذا يعد تقنيناً لاغتصاب ملايين النساء المسلمات طوال فترة امتدت لمائة عام تم خلالها استخدام دبابات و مدرعات و صواريخ و مئات الآلاف من الجنود من أجل سحق كل مقاومة إسلامية ضد تنفيذ هذا القانون الحيواني الذي لم يصدر مثله في العصر الحجري الأول إلا في الدول التي تدين بالإلحاد ؟ هل يعلم أبناء العالم الحر أن المسلمين قدموا أكثر من مليون شهيد في عام واحد تحت جنازير دبابات الجيش الأحمر في منطقة تركستان الشرقية وحدها هو عام ١٩٥٠ – وما زالوا يقدمون في كل الدول الشيوعية - من أجل حماية نسائهم و أطفالهم وبلادهم ؟

أليس الإعلان العالمي لحقوق الإنسان قد نص في المادة ١٦ على أنه **"لا يبرم عقد الزواج إلا برضا الطرفين الراغبين في الزواج رضاً كاملاً لا إكراه فيه "** ؟ و أليست كل الدول الشيوعية أعضاء في الهيئة التي أصدرت هذا الإعلان ؟ لو كانت هذه الهيئات تقوم بدورها بدون تحيز فهل كنا رأينا تقنين اغتصاب مئات الملايين من النساء المسلمات في جميع الدول الشيوعية الملحدة في كل أنحاء العالم دون أن تسمع أذن واحدة في تلك الهيئات صراخ كل هذا العدد من النساء المغتصبات ؟

من ناحية أخرى : هناك مئات الملايين من المسلمين ليست لهم الحرية في أن يرفضوا شرب كأس من الماء في نهار شهر رمضان ، لأن الحكومات الشيوعية تمنع المسلمين من صوم شهر رمضان ، وتفرض غرامات مالية على من يتجرأ و يمتنع عن شرب الماء ، كما تجبر أصحاب المطاعم من المسلمين على فتح مطاعمهم في نهار رمضان و تجبرهم أيضاً على تقديم الخمور رغماً عنهم وعن كل سكان المنطقة المحيطة بتلك المطاعم ،

هل يصدق أبناء العالم الحر أن هناك شعوباً كاملة تجبر على أكل لحم الخنزير الذي يسبب أكثر من مائة و ثلاثين نوعاً من أنواع الأمراض و يملأ جسم الإنسان بالديدان القاتلة و على رأسها الديدان الشريطية ، و يتعرض أفرادها للسجن أو الغرامة المالية في حالة ضبطه متلبساً برفض الامتثال للقوانين الصارمة التي تفرضها الدولة ؟

ربما لا يصدق البعض ذلك ويظن أننا نبالغ ، لذلك نذكر بالخطاب الذي وجهه الحرس الأحمر في الصين في ستينيات القرن الماضي والذي ذكرناه سابقاً نقلاً عن كتاب الشيخ الغزالي في كتابه الإسلام في وجه الزحف الأحمر حين قال :

"ونشرت صحيفة (تن بات باو) في هونج كونج في عددها الصادر في ١١ أكتوبر الماضي منشوراً وجهه الحرس الأحمر في الصين للمسلمين جاء فيه:

"-- ومن اليوم فصاعداً لن نسمح لكم بأن تأكلوا لحم الأبقار لأن الأبقار تخدم الشعب ، يجب أن تأكلوا لحم الخنازير، ولا يمكنكم من الآن فصاعداً أن تضيعوا وقتكم في الصلاة، يجب ألا تتكلموا اللغة العربية التي هي ضد اللغة الصينية، ولن يسمح لكم بأن تقرؤوا ما يسمى بالكتاب المقدس (القرآن) اسمعوا أيها المسلمون: دمروا جوامعكم، حلوا المنظمات الإسلامية ، احرقوا القرآن ، ألغوا الحظر الذي وضعتموه على الزواج المشترك ، كفوا عن الصلاة ، ألغوا الختان ،

ادرسوا أفكار ماو إذا لم تتدموا سنطردكم وندمركم ، يجب أن نسحق جحور الجرذان الدينية وندمرها معكم، فلتحيَ الثورة الثقافية الكبرى ، فليحيَ طويلاً طويلاً الرئيس ماو"

هذه عبارات تم توجيهها لشعب أعزل كل جريمته أنه يريد أن يصلي لخالقه ، لكن فلاسفة الإلحاد يرون أن هذا الشعب هو شعب إرهابي لأنه يقاوم من أجل الحصول على قدر من الحرية لا يمثل واحداً في المائة من الحرية التي تتمتع بها المجتمعات الأخرى ، مثل حرية اختيار نوع وزمن طعامه و شرابه

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، مؤخراً صدر قرار في الصين يمنع المسلم الذي يطلق لحيته من ركوب المواصلات العامة ، و حكمت محكمة صينية على رجل أطلق لحيته بالسجن لمدة ست سنوات ، وعلى زوجته بالسجن سنتين لأنها رفضت خلع نقابها في المحكمة التي كانت تحاكم زوجها ،

هل ما زال أبناء العالم الحر يتذكرون قانون التمييز ضد السود في جنوب أفريقيا الذي كان يفرض عليهم الركوب في المقاعد الخلفية ؟ الآن وبعد ٢٢ سنة على منح نيلسون مانديلا جائزة نوبل تقديراً له على كفاحه ضد التمييز العنصري يصدر قانون يمنع بعض المسلمين من ركوب السيارات كليّاً و بالسجن لست سنوات لأنهم اتخذوا قراراً بشأن خصلات من شعر وجوههم في دولة عضو بالأمم المتحدة

إقليم تشينجيانج – كمثال فقط - الذي يعتبر أكثر مناطق الصين توتراً ، والذي يصوره الإعلام الرسمي على أنه إقليم صغير يحتوي على عناصر من القاعدة و تنظيم داعش وكثير من المتطرفين المسلمين لكي يبرر للسلطات قمع المسلمين الذين يسكنون هذا الإقليم ، هذا الإقليم ليس سوى دولة تركستان المسلمة التي تبلغ مساحتها أربعة أضعاف ونصف ضعف مساحة ألمانيا ، و هو إقليم غني بالنفط و الغاز ، لذلك سحقت جيوش الصين كل محاولات الشعب المسلم للحصول على حريته وخاصة عام ١٩٥٠ حين ألغى ماوتسي تونج الحكم الذاتي وضم الإقليم للصين كليّاً ، وحتى ذلك الحين كان المسلمون يمثلون ٩٢% من سكانه ، وبعد قتل مليون شهيد من أبنائه في ذلك العام بدأت الحكومة الصينية عملية الترحيل القسري للسكان فنقلت ٦٠% من أبنائه إلى مناطق متفرقة من الصين ثم أحضروا بدلاً منهم طوفاناً من الصينيين الشيوعيين لجعل المسلمين أقلية في بلدهم ، و بالفعل أصبحوا الآن يمثلون ٤٦% فقط من السكان ،

هذا ما يتعرض له المسلمون في كل الدول التي استولى عليها الشيوعيون ، كل أشكال العنصرية و التضييق من قبل السلطات من جهة ومن قبل المستوطنين الجدد الذين يحظون بدعم الحكومة الكامل من جهة أخرى ، فبينما تقوم السلطات بإغلاق المدارس الإسلامية و حظر تعليم الدين الإسلامي و القبض على الدعاة المسلمين ، ومنع المسلمين من ممارسة شعائر دينهم ، وسجن المسلم الذي يطلق لحيته ، و إصدار قانون يمنعه من ركوب المواصلات ، تقوم الجماعات الشيوعية المتطرفة بحرق المساجد وإطلاق النار على المصلين و اقتحام الجمعيات الإسلامية و تدمير كل محتوياتها في ظل دعم من هذه السلطات أو على الأقل عدم اتخاذ مواقف مسؤولة.

لكن الأكثر من كل ذلك هو قيام الحكومات الشيوعية بإجراء تجاربها النووية و إلقاء النفايات في مناطق المسلمين وهو ما يمثل جريمة ضد السكان المحليين – الذين انتشرت فيهم الأمراض السرطانية – وجريمة ضد الأجيال القادمة، ماذا يراد من شعب تسلبه السلطات كل ثروات أرضه البترولية والمعدنية ثم تجعل من هذه الأرض سلة مهملات للنفايات النووية المشعة ؟

نعم هناك صراع في الدول التي احتلها الشيوعيون أحد طرفيه هو الإسلام ، ولكن الإسلام في هذا الصراعات هو الضحية التي تسحق كرامتها و تمحى هويتها من خصم لا تكفي كل أوصاف الإرهاب أن تعبر عن حقيقته ، وهذا الخصم ينتمي بكل أصوله و في جميع أركانه إلى **الإلحاد** الذي يفترض مؤلف وهم الإله أنه لو حل محل الأديان فسوف يسود السلام العالمي

٦- الفلبين :

لنتخيل أن مؤسسي الديانة المسيحية الأوائل كانوا حقاً يحبون المسيح عليه السلام ، وكان لديهم حين اجتمعوا في مجمع نيقية عام ٣٢٥ م - ليقرروا للأمة المسيحية عقيدتها النهائية في حقيقة المسيح عليه السلام - سبعمائة قسيس و راهب مسيحي من مجموع ١٠٤٨ قسيس لا يعترفون بألوهية المسيح ولا بموته على الصليب ولا بقيامته من بين الأموات ، وكان هذا العدد الهائل من القساوسة يحمل كل منهم كتابات مقدسة و أناجيل و مخطوطات لها من القوة و المرجعية التاريخية أكثر بكثير مما للكتابات التي قدمها القساوسة في الطرف الآخر الذين كانوا يؤمنون بالتثليث و الموت على الصليب و القيامة من بين الأموات ،

لنتخيل أن كل هؤلاء الآباء كانوا يحبون المسيح عليه السلام حقاً ، فما هو الخيار الذي كان عليهم أن يختاروه ؟

أليست حقيقة نجاة رسولهم من الموت على الصليب عن طريق قيام الجنود الرومان بالقبض على رجل آخر يشبهه ، أليست هذه الحقيقة العظيمة كانت تستحق من هؤلاء الآباء أن يتمهلوا في البحث و المناقشة و أن يبذلوا الجهد الذي يناسب حجم المهمة التي هم بصددها ، وبخاصة وأن هذه الحقيقة كانت تؤكدها الأناجيل و الكتابات المقدسة التي كان يحملها ثلثا عدد أعضاء المجمع المقدس وكلهم آباء مخلصون للمسيح لا يستطيع أحد أن يتهمهم بأنهم أعداء له ؟

لم يمت المسيح عليه السلام على الصليب ، ولكن الذين أشاعوا قتله هم الآباء و القساوسة الذين أصروا على كتم أصوات ثلثي أعضاء المجمع المقدس - الذين يمثلون ثلثي الكنائس المسيحية في العالم في ذلك الوقت – وذلك باستخدام سلطة الإمبراطور الروماني الذي انصاع لعقيدة التثليث

لنتخيل ولو للحظة أن الآباء الذين اجتمعوا في مجمع نيقية مالوا إلى الكتابات المقدسة التي قدمها ثلثا الأعضاء ، و حكموا بأن الله عز وجل أنجى المسيح من الموت كما أنجى جميع الرسل السابقين وأنقذه سبحانه و تعالى في اللحظة الأخيرة ، ماذا كان يمكن أن يكون شكل الأمة المسيحية الآن ؟ كم من جبال الحزن المتراكمة في قلوب بلايين البشر على مر العصور بسبب هذا المأتم الذي لا ينتهي كان يمكن أن تتجنبه البشرية ، وأن تستبدل بدلاً منه الفرح والسعادة الغامرة بنجاة رسول عظيم أراد الله عز وجل أن يكرمه و يرفع شأنه على كل من كانوا يتربصون به ليقتلوه ؟

بالطبع سيسأل سائل : وما العلاقة بين الفلبين وبين كل هذه المقدمة الطويلة ؟

العلاقة هي تلك البدعة الجديدة التي ابتدعها الفلبينيون بإقامة حفلات ضخمة يمثلون فيها مشاهد صلب المسيح عليه السلام ، الكثير من المتحمسين ينامون على صليب ضخم ثم يقوم آخرون بدق مسامير كبيرة في أيديهم حتى يعيدوا مشهد الصلب الحزين ، هل يتألمون ؟ نعم بالطبع ، بل وتسيل منهم الدماء و يحملون إلى سيارات الإسعاف كذلك

لكن : ماذا لو كان المسيح عليه السلام لم يصلب أبداً ؟ كم من الآلام ستكون الأمة المسيحية قد تحملتها كنتيجة لاستمرار هذا المأتم الأزلي الذي لا ميت فيه ؟ والأهم من ذلك : كم من الآلام التي تحملتها الأمم الأخرى بفعل الجيوش المسيحية التي روت كل شبر من الأرض بدماء و صرخات تلك الأمم من أجل إدخالها بقوة السلاح في هذا المأتم الوهمي الذي لم يقتل صاحبه ؟

المسيح نفسه قال للحواريين أنه (لم يكن هو الذي مات على الصليب) عندما عاد إليهم بعد اختفائه على أعين الجنود بعدة أيام ، وليس بعد قيامته من بين الأموات ، هل يصدق المسيحيون ذلك ؟

آخر المخطوطات المسيحية التي تم اكتشافها هي مخطوطات (نجع حمادي) التي تم اكتشافها في أحد الكهوف في صعيد مصر عام ١٩٤٥م ، و في نسخة من إنجيل بطرس كانت ضمن المخطوطات نفى المسيح عليه السلام أن يكون قد صلب ، وقد كتب الأستاذ أحمد عثمان على موقع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم عن هذه المخطوطات ما يلي :

"تتفق أناجيل العهد الجديد الأربعة على أن يسوع مات على الصليب بأمر من الحاكم الروماني الفلسطيني (بونتياس بيلاطس) في ثلاثينيات القرن الميلادي الأول، إلا أن هذا الحدث ليس فقط غائباً عن أناجيل نجع حمادي القبطية بل يذكر بعضها صراحة ويسخر من قائليها، فلم يرد ذكر الوالي الروماني بيلاطس في الأناجيل القبطية التي أيضاً لا تحتوي على قصة الصلب الروماني، جاء في إنجيل بطرس على لسان بطرس (**رأيته يبدو وكأنهم يمسكون به ، وقلت ما هذا الذي أراه يا سيد ؟ هل هو أنت حقّاً من يأخذون أم أنهم يدقون قدمي ويدي شخصٍ آخر ؟ قال لي المخلص : من يدخلون المسامير في يده وقدميه هو البديل ، فهم يضعون الذي بقي في شبهة العار ، أنظر إليه و انظر إلي**)

كما ورد في كتاب سيت الأكبر على لسان المسيح قوله: (**كان شخصاً آخر هو الذي شرب المرارة والخل ، لم أكن أنا ، كان آخر الذي حمل الصليب فوق كتفيه ، كان آخر هو الذي وضعوا تاج الشوك على رأسه ، وكنت أنا مبتهجاً في العلا ، أضحك لجهلهم**)

وجاء في كتاب (أعمال يوحنا) الذي عثر عليه في نجع حمادي أيضاً على لسان المسيح (**لم يحدث لي شيء مما يقولون عني**) ، كما كتب الأستاذ أحمد عثمان على الموقع نفسه ما يلي : (و أثار كتاب "تطور الأناجيل" (The Evolution of Gospel) الذي صدر أخيراً للسياسي البريطاني (Enoch Powel) ضجة كبيرة حينما أعلن الباحث أن **"قصة صلب الرومان للمسيح لم تكن موجودة في النص الأصلي للأناجيل"**[١]

[١] - ذ: أحمد عثمان ، موقع (موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن و السنة)،(www.m.quran-m.com/index.php)

أليس تصريح هذا الباحث اللاهوتي جديراً بالمناقشة من كل مسيحي يريد أن يلقى المسيح وهو مؤمن به بدلاً من أن يلقاه وهو عدو له ؟ أعتقد أن خطورة الأمر تحتم على الأمة المسيحية أن تطالب القساوسة بإخراج كل نسخ الأناجيل القديمة بكل اللغات وكذلك كل المخطوطات القديمة ثم تقوم بترجمتها حتى تعرف ما هي أصول الديانة التي جاء بها المسيح حقاً

و الآن : لماذا أثرنا هذه النقاط العقائدية عندما أردنا الحديث عن الصراع الدائر في الفلبين ؟

لقد فعلنا ذلك لأن المسيحية الكاثوليكية منذ أن وضعت أول قدم لها في تلك الجزر عام ١٥٢١م و الصراع هناك باسم المسيح لم يتوقف ولم تهدأ حدته ، وكما تحدث التاريخ وشهد شهادة صادقة على أرض البوسنة و الهرسك، فقد تحدث أيضاً وشهد بالشهادة نفسها على أرض الفلبين

فقد وصل الإسلام إلى الفلبين منذ عام ١٢٠٠م تقريباً ، لكن بدون حرب و بدون وصول جيش مسلم إلى تلك الأرض ، فقط بالدعوة بالحكمة و الموعظة الحسنة ، حتى أصبح المسلمون هم أغلبية السكان في معظم الجزر ، وحتى أصبح ملوك المسلمين هم أبطال التاريخ الفلبيني الحقيقيين الذين دافعوا عن الفلبين ضد المحتلين حتى عند القبائل التي لم تدخل في الإسلام

لكن الجيوش الإسبانية التي خرجت للاستيلاء على العالم بحجة نشر المذهب الكاثوليكي وصلت إلى جزر الفلبين في عام ١٥٢١م ، و ارتكبت ضد السكان المحليين المسلمين و غير المسلمين كل الجرائم التي ارتكبتها في القارة الأمريكية ، وبكل أنواع القتل و التعذيب و التشريد نجحت هذه الجيوش في قهر الناس على التحول إلى المسيحية الكاثوليكية حتى أصبح المسلمون أقلية في بلدهم يسكنون في الجزر الجنوبية ويتمسكون بشعائر دينهم

لو بحث أي فلبيني مسيحي في شجرة عائلته فسيكتشف أن أجداده كانوا مسلمين يؤمنون بالإله الواحد الذي دعا المسيح عليه السلام الناس إلى عبادته ، لكن أعداء المسيح عليه السلام الذين جاؤوا بجيوشهم ووضعوا السيوف على رقاب الناس وخيروهم بين الإيمان بالثالوث والإله المتجسد الذي لا يعلم المسيح عنه شيئاً وبين قطع رقابهم هم الذين جعلوا الأجيال الحالية هناك مقطوعة الصلة برسولها الذي واجه طغيان الرهبان من أجل تعليم الناس كلمة "لا إله إلا الله"

وفي العصر الحديث لم يكن أتباع الثالوث أكثر رحمة أو أقل همجية ، هم أنفسهم اعترفوا بجرائم الإبادة والتطهير العرقي ضد المسلمين

في الجزر الجنوبية التي كانت ذات أغلبية مسلمة حتى خمسينيات القرن الماضي بدأت الحكومة المسيحية التي تركها الاستعمار حملة كبيرة لتهجير مليوني مسيحي إلى أراضي المسلمين الذين طردوا منها بقوة السلاح ، وسلمتهم كل شيء في تلك المناطق ، تماماً كما فعلت انجلترا والغرب في فلسطين ، حتى أن المسلمين الذين كانوا يبلغون في تلك المناطق ٩٥% من السكان أصبحوا ٤٥% ، بالإضافة إلى وضع جميع السلطات المحلية في يد المستوطنين الجدد ،

من صنع الإرهاب في الفلبين ؟ ومن هم ضحية هذا الإرهاب ؟

في دراسة بعنوان (مأساة إخواننا المسلمين في الفلبين) للأستاذ الدكتور فهد بن حمود العصيمي منشور على شبكة (http://www.osaimy.com)، وتحت عنوان (مخططات الفلبين لاحتلال بلاد بانجنا مورو واغتصابها) جاء ما يلي :

"وأما فيما يتعلق ببرامج الاستيطان و الهجرات فقد نجحت الحكومة الفلبينية في تهجير ما لا يقل عن مليوني مسيحي إلى بلاد (بانجنا مورو) وتم استيطانهم في أراضي المسلمين، واحتلوا جزءاً كبيراً من الأراضي الخصبة كما احتلوا المدن و أصبحوا أغلبية السكان في بعض المقاطعات في منديناو وفي جزيرة بالون كما نجحت حكومة الفلبين في اغتصاب أراضي المسلمين وامتصاص خيراتها"[1]

ويكمل الدكتور فهد العصيمي ، حيث يقول تحت عنوان (استخدام الفلبين أسلوب العنف والقوة والإرهاب) :

"و بطبيعة الحال لم يرض شعب مورو فعارض ذلك بشدة لكن بأساليب سلمية ، وطالب شعب المورو الفلبين بوقف تدفق الهجرات و عملية الاستيطان ووقف عملية احتكار ثروات البلاد لمصلحة المستوطنين فقط ، و وقف حملات انتزاع السلطات من أيدي السكان المحليين ، وتراكمت الشكاوى في مجلس الشيوخ و النواب الفلبيني ضد العملية الخبيثة ، وعمت المظاهرات السلمية بل والصاخبة معاً ، وردت السلطات على هذه الشكاوى بالعنف و القوة و الإرهاب لكبح جماح المعارضة و لإخضاع الشعب المسلم للحكومة الفلبينية"

وتحت عنوان (منظمة إيلاجا الإرهابية) كتب د فهد ما يلي:

"نظم المستوطنون الفلبينيون في بلاد (بانجنا مورو) منظمة إرهابية سموها (إيلاجا) في أواخر الستينات ، وبدأت هذه المنظمة أعمالها الإرهابية في عام ١٩٧٠م ، فقامت بمذابح مروعة ضد المسلمين و إحراق بيوتهم ومساجدهم ونهب أموالهم و تشريدهم من أراضيهم، وعندما حاول المسلمون أن يقفوا لهذه الجرائم تدخل الجيش الفلبيني للتواطؤ مع المنظمة الإرهابية التي واصلت عملياتها الإجرامية وفيما يلي بعض هذه العمليات :

- في ١٩٧٠/٨/١٠ قتلت منظمة إيلاجا المسيحية ٨ من المسلمين في بلدة بولومولوك بمحافظة كوتباتو
- في ١٩٧٠/٨/١٤ قتلت المنظمة ٦ من المسلمين في بلدة أوبي بمحافظة كوتباتو
- في ١-٢ /١٩٧٠/٩ قتلت المنظمة ١٣ مسلماً في بلدتي امباتوان و الأمادا بمحافظة كوتبادو
- في ١٩٧٠/١٢/١٦ قتلت المنظمة ١٨ مسلماً في قرية باكولود ببلدية ميساياب بمحافظة كوتبادو
- في ١٩٧٠/١٢/٢١ قتلت المنظمة ٣ مسلمين في بلدة داتوبيانج بمحافظة كوتباتو
- في ١٩٧١/١/٢ قتلت المنظمة ١٢ مسلماً في قرية باجومبيان بمحافظة كوتباتو
- في ١٩٧١/١/١٩ قتل الجيش الفلبيني ٧٢ مسلماً في بلدية الامادا بمحافظة كوتباتو
- في ١٩٧١/١/١٩ قتلت منظمة إيلاجا ٨٧ مسلماً داخل المسجد و المدرسة في قرية مانيلي ببلدية كارمين بمحافظة كوتباتو
- في أغسطس ١٩٧١ ذبح الجيش القلبيني ١٤ مسلماً في بلدية بولدون بمحافظة كوتباتو
- في ٧ أغسطس ١٩٧١ كرر الجيش الفلبيني جريمته في البلدية نفسها وقتل ٦٠ مسلماً منهم النساء و الأطفال والعجائز

---

[1] - أ د : فهد بن حمود العصيمي، الموقع الالكتروني (http:www.osaimy.com)/ ركن المؤلفات/أقليات/الفلبين/ (مأساة إخواننا المسلمين في الفلبين)، صفحة ٤٠-٤٢ (بتصرف)

- في ٥ - ١٩٧١/٨/٩ قتلت منظمة إيلاجا ٣٠ مسلماً في بلدية واوو بمحافظة لاناو الجنوبي
- في ١٩٧١/٨/٢٦ قتلت المنظمة ١٦ مسلماً في بلدة لوتيان بمحافظة كوتباتو
- في ١٩٧١/٩/٥ قتل الجيش الفلبيني ٢٠ مسلماً في قرية بولاكان ببلدية الفادولا بمحافظة لاناو الشمالية
- في ١٩٧١/٩/٨ قتل الجيش الفلبيني ١٠ مسلمين في قرية بورباسان بمحافظة لاناو الشمالية
- في ١٩٧١/٩/١١ قتل الجيش الفلبيني ١٢ مسلماً في قرية بوال ببلدة تولونان بمحافظة كوتباتو
- في ١٩٧١/٩/١٢ قتل الجيش الفلبيني ١٤ مسلماً في قرية بولود ببلدة تبود بمحافظة لاناو الشمالية
- في ١٩٧١/١٠/١٠ قتلت المنظمة ٢٢ مسلماً في بلدتي كولومبيو و امباتوان
- في ١٩٧١/١٠/٢٤ قتلت المنظمة ٦٦ مسلماً في بلدة ماجايساي
- في ١٩٧١/١٠/٢٧ قتلت المنظمة بالتعاون مع الجيش ٤٦ مسلماً في بلدة ليباك
- في ١٩٧١/١٠/٣٠ قتلت المنظمة ٦٧ مسلماً في بلدة كيسولون بمحافظة بوكيدنون
- في ١٩٧٢/٥/٢٣ قتلت المنظمة عشرات المسلمين بما فيهم رئيس البلدة في بلدة سياي بمحافظة زتمبوانجا الجنوبية ولم يسجل عدد القتلى
- في ٧-١٩٧٢/٦/٨ قتل الجيش الفلبيني عشرات المسلمين في بلدة ديماتالينج بمحافظة زامبزانجا ولم يعرف عدد القتلى
- في ١٩٧٢/٦/١١ هاجمت منظمة إيلاجا جماعة من المسلمين أثناء صلاة الفجر في مسجد بقرية ماجداواب بقرية ايبيل بمحافظة زامبزانجا وقتل في الهجوم ٢٠ من المصلين بمن فيهم إمام المسجد

والمذابح المذكورة من الحوادث التي اعترفت بها السلطات الفلبينية و نشرتها الصحف الفلبينية أيام كانت هذه الصحف حرة قبل إعلان الحكم الديكتاتوري في الفلبين في ١٩٧٣/٩/٢١ وبعد ذلك توقف نشر سلسلة الجرائم المماثلة لأن الصحف أصبحت غير حرة ، وقد وقعت مئات من حوادث الذبح و القتل الجماعي منذ ذلك الوقت للآن ولكن لم تحقق فيها السلطات ولم تنشرها الصحف"

ثم يقول الكاتب : "وقد نشرت جريدة مانيلا تايمز الفلبينية سلسلة من المذابح التي بلغت (٣٨١) حادثة في ظرف ٢٧ شهراً اعتباراً من شهر ديسمبر ١٩٦٩ إلى شهر فبراير ١٩٧٢ وقد سجلت السلطات هذه المذابح رسميّاً"[1]

ويكمل الدكتور فهد العصيمي قائلاً :

"وإلى القارئ نماذج أخرى لعمليات حرق بيوت المسلمين و أماكن عبادتهم كمجرد أمثلة فقط وليست للحصر :

- في ١٩٧٠/١٢/٢١ أحرقت منظمة إيلاجا (١٤٢) منزلاً للمسلمين في قرى (آهان – ليمبوجو – منتيد) ببلدة داتوفيانج بمحافظة كوتباتو

[1] - المرجع نفسه صفحة ٤٤ - ٤٨

- في ١٩٧١/١/١٨ أحرقت المنظمة ٣٦ منزلاً للمسلمين في بلدة الامادا بمحافظة كوتباتو
- في ١٩٧١/٢/٢٥ أحرقت المنظمة المذكورة ٢٠ منزلاً للمسلمين في البلدة نفسها
- في ٦ أبريل إلى ٢٣ يوليو ١٩٧١ أحرقت المنظمة المذكورة ٥٥ منزلاً في بلدية كارمين ، وأحرقت ١٨ منزلاً في بلدية بيكيت ، و٢٥ منزلاً في بلدة كيدافاوان و ٢٢ منزلاً في بلدة بولدون وكل هذه المنازل في محافظة كوتباتو
- فيما بين ٥-٩ أغسطس ١٩٧١ أحرقت المنظمة المذكورة (٤١١) منزلاً للمسلمين ببلدة (واؤو) بمحافظة لاناو الجنوبية وبلدة بولدون بمحافظة كوتباتو
- في ١٠ أكتوبر ١٩٧١ أحرقت المنظمة ١٢ منزلاً ببلدتي كولومبيو و امباتوان بمحافظة كوتباتو

والجرائم المذكورة من الحوادث التي اعترفت بها السلطات ونشرتها الصحف الفلبينية، وقد ورد في إحصائية جريدة مانيلا تايمز الفلبينية أن (٢٥٦١) منزلاً للمسلمين و (١١) مسجداً قد أحرقت فيما بين شهر ديسمبر ١٩٦٨ و شهر فبراير ١٩٧٣"[١]

و الآن : هل سمع أحد في العالم كله عن جماعة إرهابية مسيحية تسمى إيلاجا ؟ بالطبع لم يسمع أحد عن هذه المنظمة شيئاً ، لأن كل ضحاياها من المسلمين فقط ، وهذا الإرهاب من النوع الذي يحبه العالم الحر،

فقتل خمسين ألف مسلم وحرق ألفين وخمسمائة منزل وتشريد عشرات الآلاف و سرقة أراضيهم و ممتلكاتهم على يد هذه المنظمة لا يعد في نظر العالم إرهاباً، لكن المسلمين الذين يدافعون عن أنفسهم وعن بيوتهم وعن أطفالهم ونسائهم في جنوب الفلبين هم الإرهابيون

أما من ناحية الموقف الرسمي ، فنفس ما جرى في أمريكا في موضوع الجمرة الخبيثة الذي حاولوا إلصاقه بالمسلمين وفشلوا في النهاية ، و نفس ما جرى في روسيا حين فجروا الشقق بمن فيها ليلصقوا التهمة بالمسلمين الشيشان – كما جاء في كتاب أوكار الشر الذي أشرنا إليه منذ قليل – يتم تدبير تفجيرات يقتل فيها ضحايا أبرياء ثم توجه تهمة الإرهاب للمسلمين ، فقد جاء في مجلة (العروة الوثقى) الالكترونية تحت عنوان (جرائم حكومة الفلبين ضد المسلمين) ما يلي :

"غير أن الحكومة الفلبينية تبذل أقصى جهدها لإقناع المجتمع الدولي بوضع جبهة تحرير مورو الإسلامية في قائمة المنظمات الإرهابية ، لكن الاتهامات المطروحة ضد الجبهة عكس الواقع ، ففي ٢٧ يونيو ٢٠٠٣ احتشد ٣٢١ من متمردي الجيش الحكومي و صرحوا أمام الصحفيين بأنهم المرتكبون لعمليات التفجير في المطار الدولي بمدينة (دافاو) في ٤ مارس من نفس السنة و التي قتل فيها ١٩ شخصاً و أصيب ١٣٤ آخرين ، وغير ذلك من الهجمات الإرهابية في منداناو و مانيلا ، وأنهم يئسوا من هذه الدعاية السرية"[٢]

والآن : لو أضفنا جرائم الجيش الفلبيني إلى هذه الجرائم فسنجد أن الزلزال المروع الذي اجتاح المناطق المسلمة على يد هذه الجماعة الإرهابية لم يكن سوى زلزال متوسط القوة بالمقارنة بما فعله زلزال ذلك الجيش بالمسلمين وخاصة في سبعينات القرن الماضي

---

[١] - المرجع نفسه صفحة ٤٨ و ٤٩

[٢] - مجلة "العروة الوثقى" الإلكترونية (http://alorwa.org/content.php?id=605) 05/07/2015

والمحصلة النهائية هي قتل ١٣٠ ألف مسلم ، وخطف واغتصاب ٦ آلاف امرأة ، و حرق ٢٠٠ ألف منزل ، و ٦٠٠ مسجد ، و ٢٠٠ مدرسة ، و مائة قرية ، وتشريد مليوني مسلم وإحلال مليوني مسيحي في أراضيهم التي تم انتزاعها منهم والتي بلغت ٩٠٠ ألف هكتار

هل هذه هي أمة المسيح عليه السلام ؟ مستحيل ، لأن المسيح عليه السلام يتبرأ من اللصوص الذين يسرقون بيضة أو دجاجة ، فما قوله فيمن يسرقون بلاداً و أوطاناً من أصحابها ثم يقتلونهم إذا علا صوتهم بالشكوى أو حاولوا التشبث بالحياة

نعم هناك نزاع في الفلبين الإسلام طرف فيه ، لكنه الطرف الذي ترتكب ضده كل الجرائم التي يصنفها القانون الدولي على أنها جرائم حرب ، وجرائم ضد الإنسانية ، هناك تطهير عرقي مستمر منذ **ستين سنة** ضد شعب أعزل تحت سمع وبصر كل العالم دون أن يتحرك أحد في هذا العالم لوقف هذه الاعتداء ، هناك بلاد بأكملها تم انتزاعها من أهلها وتسليمها لشعب آخر وتم تشريد سكانها الأصليين ورد فعل العالم الحر هو وصف هؤلاء المشردين بأنهم إرهابيون ، وبأن دينهم يحث على الإرهاب لأنه طرف في هذا الصراع

٧- إندونيسيا :

الهدف من الحديث عن إندونيسيا بعد الفلبين مباشرة هو عقد مقارنة بين ما يحدث على الأرض في البلدين ، ففي الفلبين أقلية مسلمة تمثل عشرة بالمائة تقريباً من مجموع سكان أغلبيتهم من المسيحيين الكاثوليك ، وفي إندونيسيا الصورة معكوسة تماماً ، فهناك ٧% من المسيحيين و أغلبية مسلمة تصل إلى ٩٠% ، لكن الفارق هائل بالنسبة لحالة الأقلية في البلدين

و الأمر لا يحتاج إلى شرح كبير، فالواقع يشهد بالفارق الهائل بين الأقلية المسيحية في إندونيسيا وبين الأقلية المسلمة في الفلبين ،

فقد رأينا في النقطة السابقة كيف تعرض المسلمون في الفلبين إلى التطهير العرقي المنظم و المدعوم من الحكومة الرسمية و الجيش النظامي على مدى التاريخ القديم و الحديث ، حتى تحولوا من أغلبية السكان التي تملك أغلب الأراضي إلى أقلية مضطهدة في الجنوب ، بل تعلن كل جمعيات وهيئات التنصير علانية أنها لن تدعها تعيش في سلام و أنها وضعت خططها لتحويل كل المسلمين هناك إلى المسيحية خلال سنوات معدودة

لكن الأمر يختلف تماماً عندما ننظر إلى الأقلية المسيحية في إندونيسيا ، فالحرية المطلقة التي تتحرك بها كل الجمعيات و الهيئات المسيحية التي تقوم بالأنشطة التبشيرية في كل أنحاء البلاد ، لا تتمتع بها الجمعيات والهيئات الإسلامية التابعة للأغلبية المسلمة ، كما أن الأقلية المسيحية البالغة ٧% من السكان تمتلك من المراكز الإعلامية و الثقافية والتعليمية و الاقتصادية ما لا تمتلكه الأغلبية المسلمة البالغة ٩٠% من السكان، وبالطبع فمع التطهير العرقي المنظم الذي تتعرض له الأقلية المسلمة في الفلبين بواسطة خطط حكومية رسمية تقضي بتهجير المسيحيين وتوطينهم في أراضيهم بالقوة فإن الحديث عن أي مميزات يتمتع بها المسلمون في الفلبين يكون من باب المستحيل بلا أدنى شك

ما هو الفارق إذاً ؟ ليس بين البلدين مسافات أو حواجز ، لماذا تعاني أقلية من البشر من اتخاذ قرار ضدها بالإعدام أو النفي الجماعي على يد الأغلبية المشاركة لها في الوطن ، بينما تتمتع

أقلية أخرى بكل مظاهر الحرية والمساواة - بل و المحاباة على حساب الأغلبية - في الوطن المجاور ؟

الجواب واضح كالشمس ، لأن الأقلية الأولى – في الفلبين - تواجه أغلبية من العصر الحجري ، لا تطيق التعايش مع الآخر ، ولا تعرف سوى فرض المعتقد الباطل الذي تدين به بقوة السلاح ، وعلى من يرفض الخروج من دينه و التسليم بالخرافات أن يرحل عن البلاد أو أن يحرق ويقتل دون أن يثير شفقة أي شخص في العالم الذي يسمع ويشاهد ويبتسم

أما الأقلية الثانية – في إندونيسيا – فتواجه أغلبية لم يعرف التاريخ البشري مثيلاً لارتقائها الأخلاقي في معاملة الأقليات الدينية، لأن رسولها الكريم محمداً ﷺ علمها هذا الارتقاء الأخلاقي حين قال لها **"من آذى ذمياً أو انتقصه حقه أو كلفه ما لا يطيق فأنا حجيجه يوم القيامة"**

ربما يقول قائل ، ولكن هناك عمليات إرهابية ضد المسيحيين وضد السياح الأبرياء في إندونيسيا ؟ نقول نعم ، ولكن الحكومة المسلمة هناك هي التي تواجه هذا الإرهاب بجيشها المسلم ، وليست تدعمه بجيشها مثل حكومة الفلبين

ومن ناحية أخرى ، الإرهاب في إندونيسيا ليس قاصراً على جماعات مسلمة لا تعرف أن الإسلام يتبرأ منها ، لكن هناك إرهاب مسيحي أيضاً ضد مدنيين أبرياء ، بل ضد أطفال ونساء لا يحملون السلاح ، و جرائمه أسوأ بكثير من جرائم جماعات الإرهاب المحسوبة على الإسلام ، و من أمثلة هذا الإرهاب المسيحي ما حدث في جزر الملوك عام ٢٠٠١ وما بعدها ،

فعلى موقع (منتديات روضة الإسلام) و تحت عنوان (مذبحة جزر الملوك في إندونيسيا) جاء ما يلي :

"وفي (بوسو) المدينة التي تحتل موقعاً استراتيجيّاً في مدينة (سلاويسي) المطلة على خليج (كوهيني)، هذه المدينة المسالمة أصابها ما أصاب غيرها من مناطق إندونيسيا مثل (أنبون) و (الماهرة) و (معهد والي سون) وغيرهم ، وتكرر معها التجاهل المريب من الحكومة الإندونيسية و عدم جديتها في التحقيق والنظر في المجازر التي ارتكبت في حق المسلمين هناك بالإضافة إلى التعتيم الإعلامي الخارجي واعتبارها قضية داخلية قبلية، لم تسلم (بوسو) من هجمات النصارى الذين يتحينون الفرصة للانقضاض عليها و اقتحامها بشتى الطرق ، وعندما فشلوا في ذلك قاموا بالإغارة على القرى المسلمة المجاورة لها ، وكان الهجوم الوحشي على قرية (بايون كاتيدو) صورة تعكس مدى الحقد على المسلمين ، ففي فجر يوم ٣ يوليو ٢٠٠١م سمعت طلقات نارية من أربع جهات حول هذه القرية، لقد هجم أكثر من مائتي شخص من النصارى المسلحين بالبنادق و السيوف و زجاجات المولوتوف الحارقة على القرية ، و بدؤوا بمهاجمة المسجد الذي خرج إمامه لقتالهم ببندقية مصنعة محليّاً فقتل منهم ثلاثة أفراد ، فهاجمته مجموعة منهم وقتلوه ثم مثلوا بجثته و ألقوه داخل المسجد و أشعلوا النار في المسجد، ثم طاردوا أهل القرية العزل من السلاح و لحقوا بالنساء و الأطفال والعجائز فقتلوا منهم ٢٣ شخصاً، وبعد ساعة تقريباً هرع نفر من المتطوعين من مدينة (بوسو) لمساعدة المنكوبين لكنهم وصلوا بعد أن انتهى كل شيء ، منازل مشتعلة ، و جثث متناثرة هنا وهناك ، وسلمت الجثث إلى المستشفى ، أكوام من الجثث تم التمثيل بها ، نساء أطرافهن مقطوعة وقد انتهكت أعراضهن ، وقد مزقت السيوف أجسادهن ، أطفال أبرياء تعرضوا لأبشع المجازر الوحشية تنتشر في أجسادهم طعنات السيوف و آثار الرماح و السكاكين ، لا لشيء سوى أنهم مسلمون ،

لم تصادف صرخاتهم آذاناً تسمع أو قلباً يخشع ، وبعد صلاة العصر تم تغسيل الجثث والصلاة عليها ودفنها في مقابر جماعية هي الرابعة من نوعها في مدينة (بوسو) خلال فترة قصيرة حيث بلغ عدد القتلى ٥٠٠ قتيل جلهم من النساء والأطفال ، ولم تلفت هذه المجازر نظر الإعلام الداخلي أو الخارجي بل أسدل الستار عليها كما أسدل على مجازر (مالوكوا) و (أنبون) و (معهد والي سون) إن ما يحدث في إندونيسيا اليوم ليس سوى حرب شرسة هدفها التطهير العرقي و تفتيت هذا الأرخبيل الكبير وتفكيكه إلى دويلات لإحكام السيطرة عليه و إقامة دولة نصرانية في وسط أكبر تجمع إسلامي في قارة آسيا"[1]

نحن هنا نتكلم عن أقلية لا تزيد نسبتها على ٧% فقط في دولة عدد سكانها ٢٥٠ مليون نسمة ، ومع ذلك تقتل هذه الأقلية المسلمين في بيوتهم و تحرق مساجدهم و قراهم و تقطع أجساد نسائهم وأطفالهم وتجمع جماجم رجالهم في حاويات قذرة لتتشفى فيها

ومع كل ذلك لم يسمع أحد عن الإرهاب المسيحي في جزر الملوك في إندونيسيا

لو أن سيناريو الاعتداء على المسلمين في مدينة (بوسو) صدر عن الأقلية المسلمة في فرنسا أو بريطانيا اللتان تمثلان أخلاق روح العصر في أعلى مستوياتها ، فما هو رد فعل الحكومة و الناس هناك ؟ هل نكون مبالغين إذا قلنا أن كل دول أوروبا بلا استثناء ومعها دول قارة أمريكا الشمالية ستقوم بسحق أو طرد كل المسلمين في القارة الأوروبية والقارة الأمريكية بلا استثناء ؟ لكن حكومة اندونيسيا المسلمة برغم بشاعة الجريمة وبرغم قذارة وتجبر الإرهاب المسيحي لم تعامل المسيحيين هناك كجماعة واحدة يجب أن يوقع عليها العقاب ، ولم تعاقب مسيحيّاً واحداً ممن لا علاقة له بالحادث ، بينما نرى المسلمين يقتلون وتحرق مساجدهم و مصاحفهم في كل دول أوروبا المتخلقة بأخلاق روح العصر الحديث حين ترتكب جريمة من عدة أشخاص محسوبين على الاسلام في مكان ما سواء في أوروبا أو غيرها ،

ألا يثبت ذلك الفارق الشاسع بين أخلاق المسلمين حين يملكون القوة و السلطة وبين أخلاق كل الأمم الأخرى مهما كانت تملك من العلم والحضارة و أخلاق روح العصر ؟ هل اتضح الآن ما هو الفارق بين الأمة المنضبطة بضوابط الوحي الإلهي وبين الأمم التي لا تعرف طريق هذا الوحي و التي يحدثنا فلاسفة الإلحاد عنها بأنها ارتقت أخلاقيّاً بفعل روح العصر ؟

وبعد : فهذه بعض الأمثلة للصراعات الدامية التي يمثل الإسلام والمسلمون طرفاً فيها ، وهي كما رأينا لا تحتاج إلى تعليق ، وهناك صراعات أخرى في العالم يمثل الإسلام و المسلمون طرفاً فيها أيضاً ، كلها يحدث فيها السيناريو نفسه، وكلها ترتكب فيها الجرائم البشعة نفسها ضد فئة واحدة من الناس اتفقت كل شعوب الأرض على عداوتها دون ذنب ارتكبته هذه الفئة سوى أنها تتمسك بدينها وترفض الإيمان بالخرافات

إن وجود الإسلام طرفاً في كل هذه الصراعات لا يدل على أنه دين يحث على الإرهاب كما حاول مؤلف كتاب وهم الإله أن يقول ، و إنما يدل على أنه هو الضحية التي لا تطيق كل الأنظمة الفاسدة و كل الأديان المزورة في العالم أن تراها تتحرك أمام عيونها ، لأن مجرد

---

[1] - موقع روضة القرآن (http://rawdatelquran.net/vb/showthread.php?t=8293.) ، مذبحة جزر الملوك في اندونيسيا

وجودها معتصمة بالحق الذي معها يهدد كل تلك الأنظمة و كل تلك الأديان المزورة بالتراجع والزوال .

إن العالم الآن تسوده موجة عارمة من الخوف من الإسلام ، مع أن المسلمين الآن هم أضعف شعوب الأرض من حيث القوة العسكرية ، لماذا ؟

لأن كل تجار الأديان المزورة يشعرون بالتهديد الحقيقي على مستقبلهم ، إنهم واثقون من أن الإسلام لا يملك جيوشاً قوية تهدد بلادهم بالحرب ، لكنهم واثقون أكثر في أن الإسلام لو سمح له بامتلاك عشرة بالمائة مما تمتلكه جمعيات التنصير العالمية أو مما تملكه الصهيونية العالمية أو الشيوعية العالمية من وسائل إعلام ومن مراكز سياسية عالمية فسوف تدخل نصف شعوب الأرض غير المسلمة في الإسلام في أقل من عشر سنوات

لأن الإسلام هو فقط الذي يربط الإنسان بخالقه مباشرة دون واسطة من أحد مهما كان ، حتى الرسل و الأنبياء ، و الإسلام هو فقط الذي يحرر الإنسان من سلطة رجال الدين الذين يحتكرون الحكمة و الغفران و مفاتيح الجنة و النار ويتصرفون على أنهم وكلاء عن الله عز وجل ، مع أن الله عز وجل لم يوكل أحداً للتواصل مع الإنسان و لا للحديث عنه سبحانه وتعالى ، فأي إنسان في أي مكان في العالم يريد أن يتواصل مع الخالق الذي خلقه فليس عليه سوى أن يغلق عليه باب حجرته و يقرأ ما يشاء من القرآن الكريم ، وسوف يجد أن الله عز وجل يرد على جميع أسئلته بوضوح تام دون أن يتحرك بها لسانه ، وسوف يكتشف أنه ليس بحاجة لرجل دين ليشرح له ما يجب عليه فهمه أو فعله و سوف يندهش عندما يجد جواباً منطقيّاً و شافياً عن كل ما دار في ذهنه من أسئلة منذ جاء إلى الدنيا ، دون أن يكون قد ردد أيّاً من هذه الأسئلة بلسانه ولو لمرة واحدة في حياته، وسيشعر أن الله عز وجل يكلمه هو من دون البشر كما لو كان القرآن الكريم نزل من أجله هو

في نهاية هذا الفصل نشير إلى أن الاستدلال بوجود ستين صراعاً في العالم الإسلام طرف فيها كان استدلالاً خاطئاً كما بينا من الأمثلة السابقة ، و أن مؤلف كتاب وهم الإله كان عليه أن يبحث و يدرس ثم يخرج بنتائج على أساس علمي سليم ، لأن إطلاق التهم بدون تحرٍّ و بدون بحث هو خطأ لا يمت إلى المنهج العلمي بأي صلة ، وهذا هو الخطأ الخامس الذي وقع فيه

الخاتمة

بدافع الحرص على كل البشر ، و بدافع أمنية حقيقية لكل سكان الأرض بأن ينعموا في حياتهم و بعد مماتهم بحياة سعيدة و رائعة ، تم كتابة كل سطر في هذا الكتاب

لقد طرحنا الأدلة التي نعتقد أنها كافية للدلالة على كل ما حاولنا إثباته ، فإن صدقها البعض فالحمد لله على نعمائه ، و إن كذبها البعض فنتمنى ألا يتوقف عن البحث ، لأن الذي يجتهد بإخلاص في الوصول إلى الحق و يموت قبل بلوغه هو ومن نجح في الوصول إليه سواء، وسوف يعامله الله عز وجل معاملة كريمة لا يتخيلها ،

من ناحية أخرى : علينا جميعاً (من كل المذاهب و الأديان) أن نحاول التمسك بالهدف السامي و النبيل المتمثل في جعل القرن الحادي والعشرين هو قرن السلام العالمي لكل البشر ، حتى نمنح أبناءنا حياة أفضل من حياتنا التي كدرتها الحروب ، وعلينا كذلك أن نوقف فوراً قتل الأطفال و النساء و المدنيين المسالمين على أي شبر من الأرض و بدون مناقشة و بدون قبول أي مبررات من أي جهة تدعي الحكمة أو العلم أو الحق، هذا هو التحدي الحقيقي لأخلاق روح العصر ، و لو لم ننجح في ذلك فلسنا جديرين بالحياة لأننا سنكون أعجز من أهل القبور

إذا استطعنا أن نبدل كل مشاعر البغض و الحقد إلى مشاعر الاحترام و الرحمة ، حتى مع اختلافنا في الدين أو الاعتقاد ، إذا استطعنا فهم الأخوة التي تعم كل بني الإنسان ، كما جاءت في قول الله تعالى في سورة الحجرات: **(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)** سنكون عند ذلك قادرين على تحقيق المعجزة

هل جربت من قبل الشعور بأن لك ستة مليارات أخ شقيق و أخت شقيقة ؟ هذا هو معنى الآية الكريمة

علينا أن نصر و بقوة على وقف إسالة الدماء التي تسيل بسبب **أهداف أنانية** يدفعها حب المال و حب السيطرة على أراضي وثروات الآخرين ، أو **أهداف جاهلة** تدفعها الخرافات ، أو **أهداف متغطرسة** يدفعها غرور القوة ،

فكوكب الأرض يسعنا جميعاً ، ويسع بشراً بضعف عددنا الحالي ، و حين يكون هناك بشر على درجة من السمو الأخلاقي تجعلهم يشعرون بأنهم إخوة أشقاء فإن كوكب الأرض يسع منهم خمسة أضعاف عددنا الحالي

علينا أن نسكت أصوات تجار الموت الذين ينادون بصراع الحضارات ، نستطيع أن نرفع شعاراً أرقى و أكثر تحضراً ، وهو (تعاون الحضارات) أو حتى (تآخي الحضارات) ، تخيل لو أن هناك حضارة تجتمع فيها مميزات و مهارات كل أمة من الأمم التي تسكن الآن كوكب الأرض ، و تخلو من كل المساوئ الموجودة في تلك الأمم ، فكيف يكون ارتقاء هذه الحضارة ؟

إن كل الذين يشعلون الحروب، ويملؤون قلوب البشر بالحقد والغضب هم بشر من العصر الحجري ، لا مكان لهم في الحضارات الراقية ، مكانهم هناك بجوار آكلي لحوم البشر ، سواء كانوا ينفثون سمومهم من فوق منابر المساجد ، أو الحسينيات ، أو الكنائس ، أو المعابد أو

منصات الإلحاد ، كل هؤلاء الذين يقتاتون على دماء البشر و آلامهم ، يجب أن يلقوا حيث يستحقون

كما نتمنى أن يكتب كل رئيس دولة وكل ملك في مملكة عبارة رسول الله ﷺ التي تمنح الأقليات الدينية و العرقية حماية فوق التصور ، وهي عبارة (من آذى واحداً من الأقليات فقد آذاني) فوق كل المؤسسات الرسمية و المجالس البرلمانية التي يرأسها

وعلى المنظمات الدولية أن تكتبها على واجهات مبانيها و في مداخل أروقتها ، وتبذل كل جهدها في تطبيق معناها

و أخيراً : أدعو الله عز وجل أن يجعلنا من الذين قال عنهم في سورة الزمر :

"الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله و أولئك هم أولو الألباب"

تم بحمد الله – ١٠ من شوال ١٤٣٦

المراجع

- القرآن الكريم

- تفسير القرآن العظيم : للإمام ابن كثير

- تفسير القرآن الكريم للطبري

- المصحف الإلكتروني – جامعة الملك سعود – المملكة العربية السعودية

- رياض الصالحين : الإمام النووي

- السيرة النبوية : ابن هشام

- الرحيق المختوم : صفي الرحمن المباركفوري

- كتاب وهم الإله : السيد ريتشارد داوكنز

- العهد القديم

- العهد الجديد

- أصل الإنسان : د موريس بوكاي

- التوراة و الإنجيل و القرآن والعلم – دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة : د موريس بوكاي

- تاريخ نقد العهد القديم : الكاتب زالمان شازار ، الترجمة للعربية : أحمد محمد هويدي

- رحلة عقل : د عمرو شريف

- وهم الإلحاد : د عمرو شريف

- التاريخ الأسود للشيوعية : الكاتب ستيفان كورتوا

- المسيحيون الأوائل و الإمبراطورية الرومانية ، خفايا القرون : إ س سفينسيسكايا ، الترجمة للعربية د حسان ميخائيل إسحاق

- انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء : اللواء الدكتور نبيل لوقا بباوي

- الإرهاب صناعة غير إسلامية : اللواء الدكتور نبيل لوقا بباوي

- أمريكا الوجه الآخر : الكاتبة ليلى أبو زيد

- مالكوم إكس : ذ مجدي كامل

- النسر الكبير محمد الفاتح : ذ رمزي المنياوي

- الكون الأنيق : د برايان غرين ، ترجمة د فتح الله الشيخ

- الأرض في القرآن الكريم : د زغلول النجار

- السماء في القرآن الكريم : د زغلول النجار

- الرحلة إلى الإسلام ، يوميات دبلوماسي ألماني : سير مراد ويلفريد هوفمان ، ترجمة د محمد سعيد دباس

- أمريكا المختطفة ، اللوبي الإسرائيلي و سياسة الولايات المتحدة الخارجية : الكاتب جون جي ميرشايمر ، و الكاتب ستيفن إم – والت ، ترجمة ذ فاضل جتكر

- القرآن و الكون من الانفجار العظيم إلى الانسحاق العظيم : ذ أسامة علي الخضر

- للكون إله : د صبري الدمرداش

- جرائم فرنسا في الجزائر : ذ سعدي بزيان

- القرآن المدهش : عالم الرياضيات ، والمبشر السابق جاري ميللر

- أوكار الشر : الكاتب الأميركي كينيون غيبسون

- فلسطين السلام لا التمييز العنصري : السيد جيمي كارتر

- عظماء أسلموا : ذ الصادق أحمد برير

- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة : د محمد راتب النابلسي (آيات الله في الإنسان)

- التعصب و التسامح بين المسيحية والإسلام : الشيخ محمد الغزالي

- كفاح دين : الشيخ محمد الغزالي

- الإسلام في وجه الزحف الأحمر : الشيخ محمد الغزالي

- وثائق إبادة الهنود الحمر : للقس برتولومي دي لاس كازاس ،

- الإنجيل والصليب : للقس السابق بنجامين داوود

- التطهير العرقي في فلسطين : المؤرخ الإسرائيلي إيلان بابي ، تلخيص : الأستاذ غازي الصوراني

- عنصرية إسرائيل ، فلسطينيو ٤٨ نموذجاً : إعداد ذ عباس إسماعيل (مركز الزيتونة للدراسات و الاستشارات ، بيروت - لبنان)

- الغارة على العالم الإسلامي : أ ، ل شاتليه ، تلخيص وترجمة : ذ مساعد اليافي و ذ محب الدين الخطيب

- قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام و أبيدوا أهله : ذ جلال العالم

- موت الغرب : الكاتب الأميركي باتريك جيه بوكانن ، ترجمة محمد محمود التوبة

- المرأة وحقوقها في الإسلام : محمد الصادق عفيفي

- فجر الأندلس : ذ حسين مؤنس

المؤلف في سطور

الاسم : أحمد حسين رفاعي إسماعيل

السن : ٥١ عاماً

المؤهل الدراسي : بكالوريوس الهندسة المدنية عام ١٩٨٨م

التعريف به : مؤلف هذا الكتاب هو مسلم من عامة المسلمين